دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
بيروت

محمّد عزة دروزه

العرب والعروبة

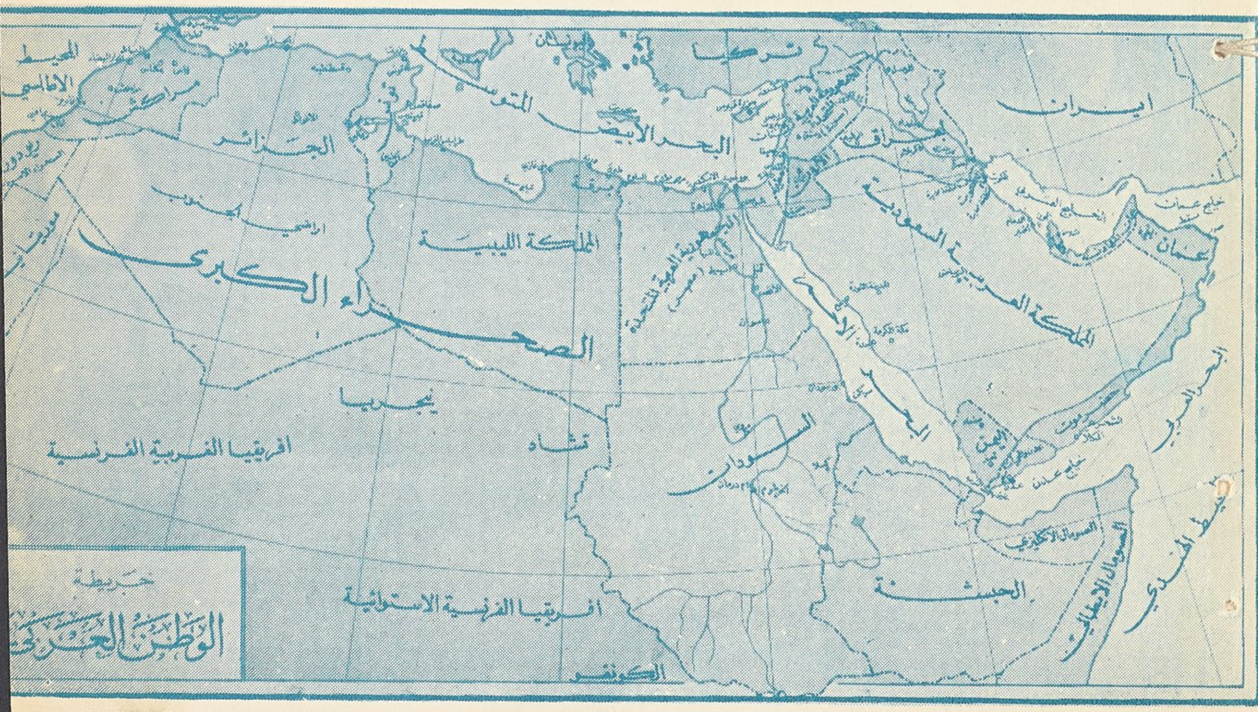
بيروت

من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري

في حقبة التغلب التركي

— ٣ —

القبائل العربية المنساحة الى وادي النيل وشمال افريقية منذ الفتح الاسلامي والامارات والدول العربية التي قامت في هذه البلاد في حقبة التغلب التركي والدول والامارات البربرية في ظل العروبة والاسلام ومراحل توطد السيادة العربية الحاضرة في وادي النيل وشمال افريقيـة .



دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

العرب والعروبة

في حقبة التغلب التركي

من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري

تأليف

محمد عزة دروزه

الجزء الثالث

القبائل العربية المنساحة الى وادي النيل وشمال افريقية منذ الفتح الاسلامي والامارات والدول العربية التي قامت في هذه البلاد في حقبة التغلب التركي والدول والامارات البربرية في ظل العروبة والاسلام ومراحل توطد السيادة العربية الحاضرة في وادي النيل وشمال افريقيــة .

١٩٦٠

تعهد

المؤسسة الثقافية

للنشر والتوزيع

بدمشق

الناشرون في البلاد العربية

دار اليقظة العربية	: دمشق ، شارع المتنبي	هاتف	١٢٢٦٤
مؤسسة الخانجي	: القاهرة ، شارع عبدالعزيز	هاتف	٤٣١٤٨
مكتبة المثنى	: بغداد ، شارع المتنبي	هاتف	٨٣٥٨٨
المكتبة الشرقية	: بيروت ، شارع المعرض	هاتف	٣٣٢٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

نكرر الحمد لله على تيسيره طبع الجزء الثاني من هذا الكتاب واتاحته طبع هذا الجزء وهو الاخير . وهو المسئول ان يكون في هذا الكتاب ما ابتغيناه من خدمة نافعة لتاريخ امتنا وبلادنا العزيزة ، واحب ان اسدي في هذه المناسبة الشكر لدار اليقظة العربية التي اخذت على عاتقها اصدار الكتاب على ما بدا منها من نشاط في انجاز اصدار اجزائه الثلاثة وعلى ما يبدو منها من نشاط في خدمة الثقافة العربية عامة .

والله ولي التوفيق .

المؤلف

الفَصلُ الأوَّلُ

العرب والعروبة في وادي النيل في حقبة التغلب التركي

١ ــ تمهيد

٢ ــ في شطر الوادي الشمالي

٣ ــ في شطر الوادي الجنوبي .

العرب والعروبة في وادي النيل في حقبة التغلب التركي

تمهيـــد

بدأ التغلب التركي على مصر منذ اواسط القرن الثالث الهجري . فقد عين الخليفة العباس المعتز (٢٥٢ ـــ ٢٥٥ هـ) احمد بن طولون التركي واليا على مصر في سنة ٢٥٤ فلم يلبث ان استبد بالحكم فيهـا ثم مد سلطانه الى فلسطين ومعظم بلاد الشام من الشمال والى برقـة وطرابلس الغرب من الغرب والى نواحي السودان من الجنوب بل وتمكن مده لفترة من الزمن الى اليمن والحجاز [1] وكان يخطب له على منابر هذه الامبراطورية الواسعة . ولما مات سنة ٢٧٠ هـ تولى السلطـان من بعده ابنه خمارويـة ، ولما قتل هـذا سنة ٢٨٢ هـ تولى ابنه جيش ومات هذا سنة ٢٨٣ هـ فتولى هرون بن احمد ومات هذا سنة ٢٩٢ هـ فتولى الحكم شيبان اخو احمد . ومات هذا سنة ٢٩٣ هـ فانتهت بموته دولة الطولونيين .

غير ان الحكم التركي استمر حيث عين الخليفة العبـاسي المقتدر (٢٩٦ ـــ ٣٢١) واليا تركيا جديدا اسمه احمد بن كيلغ ثم عين الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢ ـــ ٣٢٩) واليا تركيا آخر اسمه محمد بن طغج المعروف بالاخشيد جامعا له ولاية الشام وفلسطين ومصر معا فقـامت به الدولة الاخشيدية التركية التي كانت ذات سلطان واسع شبيه بسلطان الطولونيين والتي تولى حكمها ابناء الاخشيد كما كان شأن الطولونيين حيث خلف محمـدا ابنه انوجور في سنة ٣٣٤ هـ ثم خلف هـذا اخوه ابو الحسن في سنة ٣٤٦ هـ ثم خلف هذا اخوه علي في سنة ٣٤٩ هـ ثم

---

(١) انظر كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي نشر الكرد علي ص ١ ٢

استبد بالحكم مولاهم كافور الاسود الـذي كان صاحب السلطان والتدبير الفعلي بعد الاخشيد ثم تولى الحكم لما مات هذا سنة ٣٥٧ ه حفيد الاخشيد ابو الفوارس احمد بن علي •

ومع ان سلطان وادي النيل انتقل بعد الاخشيديين في سنة٣٥٨ه الى الملوك الفاطميين العرب المنتسبين الى العترة الفاطمية العلويـــة فقد كان العنصران التركي والبربري غالبين في اجهزة دولتهم وجيشهم • وفي سنة ٥٦٧ ه انهى صلاح الـدين الايوبي حكم الفـاطميين واستبد بسلطان وادي النيل فقامت بذلك الدولة الايوبية التي كان ملوكهـا يمتون الى العنصر الكردي والذين كانوا مع ذلك مطبوعين بالطـابع التركي لان صلاح الدين وعمه شيركوه الذي جاء على رأس الحملة ومعه صلاح الدين ونجم الدين ابو صلاح الدين كانوا من رجال وقواد سلطان الشام نور الدين بن عماد الدين زنكي التركي فضلا عن ان العنصر التركي كان كذلك غالبا في اجهزتها وجيشها • ولقد امتلأت مصر وجيشها بالمماليك الترك والشركس في خلال حكم دولتي الفاطميين والايوبيين ووصل المماليك الى مراكز الجيش العالية فتمكن اولا مماليك الترك من انهاء الدولة الايوبية والوثوب الى الحكم في سنة ٦٥٠ ه فقامت دولتهم التي كان اول ملوكها عز الدين ايبك والتي كان سلطانها يشمل ما كان يشمله سلطان الايوبيين أي وادي النيل وبرقة والشام والحجاز واليمن • وظل امراء المماليك الترك يتوالون على عرشها الـى سنة ٧٨٥ ه حيث وثب الظاهر برقوق احد ممـاليك الشركس على العرش ووطد الحكم لنفسه فقامت دولة المماليك الشركس التي كـان طابعها تركيا هو الآخر والتي كانت امتدادا للدولة السابقة [1] •

وفي سنة ٩٢٣ ه فتح السلطان سليم العثماني التركي مصر فصار

---

(١) سلكنا الاكراد الايوبيين ومماليك الشركس في سلك الترك لان طابعهم كان تركيا . وقد فعل ذلك ابن اياس انظر الجزء الاول من كتابه بدائع الزهور ص ٢٥٩ مثلا .

السلطان للدولة العثمانية في وادي النيل وكان المماليك الترك والشركس وامراؤهم من الكثرة والتوغل في مصر الى حد انهم كانوا اصحاب الحكم الفعلي فيها في ظل سيادة العثمانيين .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ صارت ولاية مصر لمحمد علي [1] الذي استطاع ان يتغلب على المماليك وامرائهم وان يستبد بالحكم في وادي النيل وان يورثه لاولاده من بعده الى ان اسقطت ثورة الضباط الاحرار المصريين بقيادة البطل العربي جمال عبد الناصر التي انفجرت في ٢٣تموز من عام ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٢ م حكم هذه الاسرة .

وهكذا يبدو من هذا الاستعراض السريع ان وادي النيل خضع لتغلب الترك وسيادتهم من سنة ٢٥٤ هـ الى سنة ١٣٧٣ م باستثناء فترة الحكم الفاطمي العربي الذي كانت العناصر التركية والبربرية غالبة فيه مع ذلك .

وبرغم ذلك كله وبرغم ما طرأ على مصر خلال هذه الحقبة الطويلة من عناصر تركية كبيرة العدد فقد ظل الطابع العربي الصريح هو الطابع الشامل المميز لها بسبب ما كان من توطد هذا الطابع خلال الحقبة التي سبقت التغلب التركي نتيجة للحكم العربي الذي قام فيها على اثر الفتح الاسلامي وما جاء تحت رايته واستمر يجيء خلال هذه الحقبة من قبائل صريحة العروبة وتوطنها في وادي النيل وبسبب ما ظل يجيىء اليه من موجات عربية متلاحقة كذلك خلال حقبة التغلب الطويلة مما كان يغذي هذا الطابع ويقويه دورا بعد دور على ما سوف نشرحه بعد ثم بفضل القرآن العربي الذي كان الكتاب المقدس لمعظم سكان وادي النيل من عرب ومستعربين وحكام ، واحترام الحكام الترك للعرب ولغتهم وعدم تعمد فرض طابعهم عليهم واعتبار ذلك واجبا من واجبات الاسلام الذي يدينون به ثم بما كان العرب عليه من حيوية قوية .

ولقد كان للعروبة جذور عميقة وواسعة في وادي النيل منذ الازمنة

---

(١) ان محمد علي الباني الجنس (ارناؤوطي) غير انه كان تركي المنشأة والتربية واللغة والطابع شأن كثير من الارناؤوط الذين اندمجوا في حياة وخدمة الدولة العثمانية .

السحيقة في القدم التي تعود الى خمسين وستين قرنا قبل الميلاد ثم خلالها ، وكانت موجاتها متوالية الانسياح اليه من الشمال عن طريق برزخ السويس ومن الجنوب عن طريق باب المندب على ما شرحناه واوردنا شواهده باسهاب في الجزء الثاني من كتابنا تاريخ الجنس العربي [1] • حيث يصح ان يقال ان موجات

(١) انظر كتاب مصر القديمة لسليم حسن ج ١ ص ١٤٠ – ١٤٥ و ١٧٤ – ١٧٥ و ٢٣٣ و ٣٣٦ و ٣٤٤ و ٣٤٥ و ٣٧١ و ٣٧٣ و ٣٧٥ و ٣٩٠ – ٢٩١ و ج ٤ ص ٢٢١–٢٤٧ وتاريخ السودان القديم لحسن كمال ص ٥ و ٧٧ وكتاب الاثر الجليل لسكان وادي النيل ص ١٢ والحضارة المصرية لغوستاف لوبون ص ٧ الترجمة العربية وتاريخ مصر الى الفتح العثماني لسفيدج والاسكندري ج ١ ص ٦ – ٧ والاساس في الامم السامية ولغاتها لعطية الابراشي ص ١٥ – ٣٧ وتاريخ العرب لفيليب حتي ج ١ ص ١١ وسورية والسوريون من ناقدة التاريخ له ايضا ص١٣ ومقدمة تاريخ الجنسيةالمصريةلهانوتو ص ٥ – ١٠ وكلام المؤرخ الشهيرماسبرو في كتاب الاستعمار لمصطفى الشهابي ج ٢ ص ٧ وتاريخ مصر من اقدم العصور لبريستيد ترجمة حسن كمال ص ٢٤ وما بعدها والعقد الثمن لاحمد كمال ص ٢٥ – ٢٩ و ٣٥–٤٠ وتاريخ سورية للدبس مجلد ١ ج ١ ص ٢٣١ – ٢٤٧ .

ففي هذه الصحف من هذه الكتب تقريرات مستندة الى الدراسات الاثرية تؤيد توالي انسياح قبائل جزيرة العرب مرة بعد اخرى ومنذ اكثر من خمسين قرنا قبل الميلاد الى وادي النيل ثم الى شطره الشمالي من طريق باب المندب والصومال واثيوبية تارة ومن طريق برزخ السويس تارة وادخالهم لغتهم وعقائدهم وفنونهم وفرضهم سلطانهم ولغتهم على مصر قبل قيام المملكة المتحدة القديمة الاولى في الالف الرابع قبل الميلاد وبعدها وكون الملك منا الذي يظن انه هو الذي وحد المملكة تحت صولجانه وكثير من الاسر الملكية التي جاءت بعد اسرته منهم . وبعض هؤلاء المؤلفين يذكرون جزيرة العرب صراحة على انها التي جاءت منها القبائل وبعضهم يذكر بلاد بنت التي يفسرها بعضهم ببلاد الصومال وبعضهم بجنوب جزيرة العرب كمصدر للقبائل الاولى . وبعضهم يصف القبائل التي كانت تطرأ على مصر من الشمال خاصة بصفة الساميين . وهي تسمية حديثة اطلقها مستشرق نمساوي في القرن الثامن عشر على شعوب عديدة سكنت بلاد الشام والعراق وجنوب جزيرة العرب واثيوبية متشاركة في اللغة والعقائد والتقاليد . وقال غيرواحد من المؤلفين نتيجة لهذا التشارك الذي يشمل سكان جزيرة العرب القدماء وخاصة جنوبها الذين منهم المعنيون والسبئيون والحضرموتيون والقتبانيون ان الاولى ان يطلق عليها اسم العرب والشعوب العربية (انظر العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ١ ص ١٤٩ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٨٧ وما بعدها والاساس في الامم السامية ولغاتها للابراشي ص ١٥ وما بعدها مثلا) . واذا كان حقا ان اسم العرب لم يطلق على جزيرة العرب وسكانها الا في الالف الاول قبل المسيح فانه على كل حال أوجه

الفتح العربي الاسلامي وما بعده كانت من ناحية ما استمرارا لعـادة الانسياح العربي الى هذه البلاد قبل العروبة الصريحة ، وكانت هذه المرة صريحة فلم يلبث انسال السابقين ان اندمجوا في القادمين فتوطد الطابع العربي الشامل فيها .

من اسم الساميين الذي لا سند له من علم وآثار لان البلاد التي عرفت باسم بلاد العـرب منذ اكثر من ٢٥٠٠ سنة هي هذه الجزيرة التي ظلت توالي ارسال موجاتها قبل دور العروبة الصريحة وبعدها أو بعبارة أخرى قبل ان تسمى بهذا الاسم وبعد ذلك الى هذا اليوم الى البلاد المجاورة لها من الشمال وهي بلادا لعراق والشام ومن هذه الى مصر عن طريق سيناء وبرزخ السويس ومن الجنوب وهي بلاد الصومال واثيوبيا ومن هـذه الى بلاد السودان ومصر . (انظر مقدمة الجزء الاول من تاريخ الجنس العربـي في مختلف الاطوار والادوار والاقطار للمؤلف واقرأ له الجزء الثاني من تاريخ الجنس العربي ففيه شرح واف لحركـة التموج العربي قبل الاسلام نحو وادي النيل) .

العرب والعروبة في الشطر الشمالي
من وادي النيل أي الاقليم المصري

كلمة عامة

— ١ —

لقد سجل التاريخ مظاهر وآثار حركة قوية نشيطة للعرب الصرحاء والعروبة الصريحة منذ الفتح الاسلامي في الاقليم المصري استمرت دون انقطاع ولم يكد يخلو منها دور من ادوار هذه الحقبة الطويلة مما اطنب فيه المؤرخون اطنابا يدل على عظيم جيشانها وسعة انتشارها وقوة حيويتها .

وقد كانت هذه الحركة تنبثق عن الموجات الكبيرة والصغيرة التي ظلت تنساح الى مصر . وكانت تأتي على الاعم الاغلب مصطحبة اولادها ونساءها فتنتشر في مختلف اقطار مصر ثم تأخذ رويدا رويدا بالاستقرار والاندماج في حياة القرى والمدن . وكانت كلما اندمجت موجة قديمة أو فروع منها في حياة القرى والمدن جاءت موجة جديدة فملأت فراغها في الصحارى حتى ليمكن ان يقال ان الذين توالوا على الانسياح الى مصر بلغوا اضعاف اضعاف ما كان فيها من سكان قدماء ، وقد كان ذلك وسيلة عظمى الى تغذية المدن والقرى والصحارى بالعرب والعروبة ومظاهرهما وتخليد طابعهما وتقوية الدم العربي تجاه ما كان يتدفق على مصر من سيل غير عربي فيجعلهما قادرين على ابتلاعه وطبعه بطابع العرب والعروبة .

ولقد سجل المؤرخون للارومات العربية في مصر في مختلف ادوار هذه الحقبة نشاطا وحركة وبروزا متنوع الصور غير انهم لم يسجلوا

قيام سلطات حكومية صريحة العروبة مستقلة او شبه مستقلة فيها يتوارثها الابناء عن الآباء كما سجلوا مثل هذا في بلاد الشام والعراق وشمال افريقية والسودان باستثناء عهد الدولة الفاطمية العربية الارومة الذي شمل وادي النيل وانحاء اخرى من بلاد المغرب والشام والذي سوف نلم به بسبب ذلك في فصل خاص من فصول هذا الجزء ٠

وسبب ذلك فيما هو المتبادر ان القطر المصري كان مركز السلطات في عهد الدول الايوبية والتركية والشركسية ثم صار للعناصر التركية والشركسية والكردية التي ازدحمت فيه نتيجة لمركزية هذا السلطان كيان قوي ساعدها وساعد الدولة العثمانية التي حلت محل الدولة الشركسية فيه على الاحتفاظ بالسلطان دون العرب فاقتصر نشاط العرب على صور متنوعة كان اغلبها في النطاق القبيلي وان كان فيها بعض الصور التي تمثل فيها طموح الى السلطان او بروز فيه ايضا على ماسوف يأتي فيما يلي ٠

صور مقتبسة من كتاب بن طولون

- ٢ -

ولقد ذكر البلوى في كتابه سيرة احمد بن طولون بعض حوادث عربية وقعت في عهد احمد بن طولون اول المتغلبين الترك في مصر ذات مغزى مهم في ما نحن في صدده . منها حادث خروج رجل علوي اسمه احمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن طباطبا في سنة ٢٥٥ ه أي في اوائل تغلب احمد بن طولون على مصر في مكان يعرف بالبدرتين بين برقة والاسكندرية وصيرورته الى صعيد مصر . وقد وجه اليه احمد بن طولون قائدا يعرف ببهم بن الحسين فكانت بينهما وقعة قتل العلوي فيها فانهزم اصحابه وتمزقوا [1] . ومنها حادث خروج ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن علي بن محمد بن عمر بن علي ابن ابي طالب الذي كان يعرف بابن الصوفي في سنة ٢٥٦ ه حيث ذكر المؤلف انه خرج في الصعيد فدخل أسنا فنهبها وعاث وافسد في نواحيها فوجه اليه احمد بن طولون قائدا اسمه ابن يزداد فظفر العلوي به فقطع يده ورجله وصلبه فانفذ ابن طولون اليهم ببهم بن الحسين فالتقيا بنواحي اخميم فهزم العلوي ونهب سواده وقتل كثير من رجاله ، ودخل الى نواحي الواحات فاقام مدة ثم ظهر في نواحي الاشمونين فانفذ اليه ابن طولون قائدا يعرف بابن ابي المغيث فوجده قد صاعد الى الصعيد لقتال رجل ظهر بالصعيد زعم انه عبد الحميد بن عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ويكنى بابي عبد الرحمن . وقد التقى العمري والعلوي في واقعة انهزم فيها العلوي وصار الى ناحية أسوان

---

(١) ص ٦٢

فعات بها وافسد وكتب بخبره الى احمد ابن طولون فكتب هذا الى بهم بن الحسين بان يصاعد في طلبه حيث قصد ، فلما اتصل الخبر بالعلوي مضى هاربا الى عيذاب وركب البحر الى مكة وتفرق عنه اصحابه . وفي مكة قبض صاحبها عليه وحمله الى احمد بن طولون حيث اعتقل مدة ثم اظهر توبة فاطلقه احمد واحسن اليه [١] .

ولقد استطرد المؤلف الى ذكر سبب ظهور العمري فقال ان جماعة من البجة يقودهم رجل اعور مارد كبسوا المسلمين في يوم عيد وهم في الصلاة فنهبوهم وقتلوا منهم فخرج العمري غضبا لله عز وجل وللمسلمين فكمن لهم في طريقهم حتى اقبلوا كعادتهم مرة اخرى فكبسهم وقتل رئيسهم ثم دخل الى بلادهم فقتل فيهم مقتلة عظيمة وضيق عليهم حتى أدوا اليه الجزية . وما ادوها لاحد من قبله . وكان مسالما للنوبة للعهد الذي لهم حتى بدا له النوبى الاول بالموضع المعروف بمريس فعطف عليه واجلاه عن دياره وحرق مدائنه وسبى كثيرا من رجال النوبة ونسائها . ولما وقف احمد بن طولون على اخبار العمري وشدة شوكته خاف من سوء العاقبة فانفذ اليه جيشا بقيادة قائد اسمه شعبة بن خركام البابكي . فلما وصل الى ناحيته خرج اليه العمري وقال له ان احمد بن طولون لم يعرفه على حقيقته وانه لم يخرج باغيا فسادا وانما خرج في طلب اعداء المسلمين وطلب منه التريث حتى يكتب لابن طولون فابى وقال له ما بيني وبينك الا السيف فقال له العمري ما انت بحمد الله شعبة الرجال بل انت بلعبة النساء أشبه وما سوء الفعل والخلق القبيح ألا لمن هو كذلك ثم حمل عليه مع اصحابه فهزمه اقبح هزيمة فرجع الى سيده فعرفه ما كان فخطأه ثم اهمل احمد بن طولون امره مدة ومرت شهور يسيرة فجاء غلامان من غلمان العمري الى ابن طولون يحملان رأس مولاهم ولما سألهم عما اذا كانوا فعلوا هذا لاذى لحق

---

(١) ص ٦٣ – ٦٦

بهما منه قالوا له لم نفعله الا للحظوة عندك فأمر بضرب عنقهما [1] .

ومن هذه الحوادث حادث خروج رجل عربي اسمه ابو روح من بوادي بحيرة الاسكندرية في الصعيد قيل انه من بقايا اصحاب ابن الصوفي فارسل اليه ابن طولون قائدا اسمه يلبق الطرسوسي فهزمه اقبح هزيمة ، فقوي ابو روح حتى وصل الى نواحي الفيوم فارسل اليه احمد بن طولون قائدا اسمه ابن جيغويه استطاع ان يضيق على الخارجي وان يتغلب على ما دبره من كيد وان يضطر الى طلب الامان فمنحه له غير ان كتيبة من الجيش تمكنت من تطويق ابي روح وجماعته واخذهم اسرى الى مصر حيث قضى ابن طولون عليهم [2] .

فهذه الاحداث تدل كما هو المتبادر على ما كان للجماعات العربية من تمكن وعصبية وطموح الى البروز في مجال الحكم والسلطان في مصر منذ اوائل حقبة التغلب التركي .

---

(١) ص ٦٤ – ٦٧

(٢) ص ٦٧ – ٧٠

صور مقتبسة من كتاب تاريخ ابن خلدون [1]

— ٣ —

ولقد عقد ابن خلدون في انجزء السادس من تاريخه فصلا عاـــى ما سماه بالطبقة الرابعة من العرب تقتبس منه ما يلي في صدد ما كان للعرب في مصر من نشاط وانتشار [2] .

١ — ان العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ — ٣٨٦) بعد ان غلب القرامطة على بلاد الشام نقل اشياعهم من العرب من بني هلال وبني سليم فانزلهم بالصعيد وبالعدوة الشرقية من بحر النيل . ولما سير الخليفة الفاطمي

---

(١) ولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ وتوفي سنة ٨٠٨ هـ . وقد بدأ فصله بجملة رائعة عن ما طرأ على العرب من تبدل جاء فيها فيما جاء « لما استقلت مضر وفرسانها وانصارهـا بالدولة الاسلامية وتبعهم اخوانهم من ربيعة واحياء اليمن وغلبوا الامم والملل على امورهم وانتزعوا الامصار من ايديهم انقلبت احوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة الى عز الملك وترف الحضارة ففارقوا الحلل وافترقوا على الثغور البعيدة والاقطار النائية فنزلوا فيها حامية ومرابطين وتناقل الملك فيهم من عنصر الى عنصر ومن بيت الى بيت واستفحـل ملكهم وبلغوا من الترف ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم ونبتت اجيـالهم في ماء النعيم واستأثروا مهاد الدعة واستطابوا خفض العيش والفوا الحضارة ونسوا عهـد البادية ... الخ » (ص ٢ — ٣) وفي الجملة تفسير لقصد ابن خلدون الذي قصده في مقدمته بوصف العرب بالهدم وعدم القـابلية للحضارة والاستقرار . حيث يبدو منهـا انـه كـان يقصد بذلـك الوصف البـدو والاعراب . وفيهـا اقـرر رائـع المـدى لقـابلية الجنس العربي للتطور من البـداوة الـى الحضارة واقـامـة الـدول البـاذخـة مما هو مؤيد بالواقع الذي لايدحض . ومن العجيب ان الشعوبيين واعداء الفكرة القومية العربيـة يتمسكون بوصف ابن خلدون للعرب في مقدمته بسبيل تجريدهم من تلك القابلية برغم ما في ذلك من مناقضة صارخة للواقع ولطبائع الامور وان الذين يردون عليهم لم ينتبهوا لهـذه الجملة ليكون ردهم اقوى واشد افحاما .

(٢) ص ٢ — ٦ و ١٢ — ١٤

المستنصر (٤٢٧ ــ ٤٨٧ هـ) في سنة ٤٣٧ هـ [1] فرقا منهم باشارة وزيره اليازوري الى المغرب لازعاج المعز بن باديس الذي تمرد على السلطان الفاطمي بقي من هذه القبائل فرق عديدة منتشرة في شمال مصر وشرق النيل والبراري الواقعة بين اراضي برقة والعقبة الكبيرة والاسكندرية منهم الذين يعرفون اليوم ــ في زمن ابن خلدون ــ اولاد سلام واولاد مقدم واولاد قائد •

٢ ــ ان طوائف كثيرة من قبائل فزارة واشجع وجشم والمعقل وربيعة وبني ثور وعدوان وفهم اندمجت مع بني هلال وبني سليم وسارت معهم حينما توجه منهم من توجه من مصر الى المغرب • وهذا يفيد ان هذه القبائل او فروعا منها كانت هي الاخرى في مصر قبل القرن الخامس الهجري •

٣ ــ ان في الواحات من بلاد القبلة قبيلة محارب التي تنتمي الى جعفر بن كلاب وقبيلة رواحة التي تنتمي الى آل زبيد •

٤ ــ انه يوجد فيما بين الاسكندرية ومصر قبائل عديدة من ارومات مختلفة واخلاط متنوعة تتنقل في نواحي البحيرة فتعمر ارضها بالسكنى والفلاحة وتخرج في الشتاء الى نواحي العقبة وبرقة •

٥ ــ انه يوجد في نواحي الصغير قبائل من بني هلال وبني كلاب وربيعة يركبون الخيل ويحملون السلاح ويعمرون الارض بالفلاحة ويقومون بالخراج للسلطان •

٦ ــ انه يوجد في الصعيد الاعلى من اسوان وما وراءها قبائل متعددة واحياء متفرقة كلهم من جهينة احدى بطون قضاعة ملئوا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في اطرافهم • والذين يلون اسوان يعرفون باولاد الكنز نسبة الى جد لهم كان يلقب بكنز الدولة وكان له مقامات مذكورة مع الدول •

---

(١) ابو الفداء يؤرخ تاريخ تسيير العرب للمغرب بسنة ٤٤٢ هـ انظر ج ٢ ص ١٧٠

٧ ــ انه يوجد بين أسوان الى قوص جماعات تنتسب الى جعفر ابن ابي طالب يعرفون بالشرفاء الجعافرة ويحترفون في غالب احوالهم بالتجارة ، وقد نزحوا من المدينة حينما غلب بنو الحسن على نواحيها .

٨ ــ وفي نواحي مصر من جهة القبلة الى عقبة أيله احياء عديدة من العرب جمهورهم من قبيلة العائد . يعهد اليهم درك السابلة ولهم على ذلك اقطاع وعوائد .

٩ ــ وفي جهة الشرق قبائل بني عقبة من جذام وهم رحالة وناجعة وعليهم درك السابلة فيما يليهم .

١٠ ــ وفيما وراء عقبة أيلة الى القلزم قبائل من قضاعة .

١١ ــ ومن القلزم الى الينبع قبائل من جهينة .

١٢ ــ ومن الينبع الى نواحي بدر قبائل من زبيد .

١٣ ــ وفيما بين الكرد وغزة شرقا قبائل جذام من قضاعة فيجموع وافرة ولهم امراء أعزة عليهم حفظ السابلة ولهم اقطاع من السلطان وينتجعون في الشتاء الى معان وما يليها .

وعبارة ابن خلدون تفيد كما هو واضح ان القبائل المذكورة كانت موجودة ومنتشرة في اراضي مصر في زمنه امتدادا الى ما قبل ذلك بقرون عديدة ، وانها في حالات متنوعة حيث كان منهم من يفلح الارض ويشتغل بالتجارة ويحمل السلاح وينتجع في الشتاء الى المشاتي ويحتفظ في الوقت نفسه بالتقاليد والمظاهر القبيلية . وان منهم من كان له بروز في مجال الحكم والسلطان والاعمال الحكومية كبني الكنز في اسوان وكامراء جذام فيما بين الكرد وغزة وكامراء العائد الذين كان لهم اقطاعات سلطانية وعليهم حفظ السابلة وحماية القوافل والطرق وان كان ذلك جاء بعبارة خاطفة لا تشفي غلة .

صور مقتبسة من صبح الاعشى للقلقشندي [1]

— ٤ —

ولقد احتوى الجزء الاول (ص ٣١٦ ـ ٣٦٠) من صبح الاعشى للقلقشندي من رجال القرن التاسع طائفة من اسماء القبائل العربية وبطونها التي كانت في زمنه في مختلف انحاء مصر وكانت اقامتها سابقة لزمنه استند في تدوينها على سماعه ومشاهداته من ناحية وعلى مؤلفات كتبها مؤلفون سابقون له من ناحية ثانية وقد بدأها بالقبائل والبطون والارومات التي تنتسب الى قحطان ثم اتبعها بالتي تنتسب الى عدنان وتتابعه في تصنيفه ونقتبس منه ما يلي :

اولا : الارومات القحطانية

ذكر المؤلف ان القحطانيين ينتسبون الى قبيلتين رئيسيتين وهما قبيلتا حمير وكهلان ولدي سبأ بن قحطان ، ثم ذكر قبيلة قضاعة من حمير فقال ان لها بقايا في مصر واليها ينسب القضاعي صاحب كتاب الشهاب في المواعظ وغيره • ثم تطرق الى فروع قضاعة فقال ان المشهور من احيائها ـ ويقصد فروعها او بطونها ـ سبعة ثم اخذ يذكر من كان ينتسب الى هذه الفروع [2] في مصر كما يلي :

---

(١) ولد القلقشندي في القرن الثامن وتوفي في التاسع . وقد قال في الجزء الاول المذكور من كتابه (ص ٨) انه دخل كاتبا للانشاء في الابواب السلطانية سنة ٧٩١ هـ فيكون قد كتب كتابه بعد هذا التاريخ بمدة ما لان كتابه الكبير كان نتيجة خبرته في عمله هذا اما ابن خلدون فقد كتب كتابه على الارجح في اواخر القرن الثامن .

(٢) فروع قضاعة السبعة التي ذكرها المؤلف هي بلي وجهينة وكلب وعذرة وبهراءوبنو نهد وجرم . ولاربعة منها بقايا في مصر .

آ ــ فرع بلي • ومنه بقايا بالصعيد الاعلى من مصر منهم بنو نــاب وغيرهم •

ب ــ فرع جهينة • وهو قبيلة عظيمة وله بقايا ببلاد الصعيد •
ت ــ فرع عذره • ومنه بقايا بالدقهلية والمرتاحية من بلاد مصر
ث ــ فرع بهراء • قال المؤلف عزوا الى العبر ــ تاريخ بن خلدون ــ ان منازل بهراء كانت من الينبع الى عقبة أيله شمال منازل بلى • ثم جاوز منهم بحر القلزم خلق كثير وانتشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر وكثروا هناك وغلبوا على بلاد النوبة وهم يحاربون الحبشة الآن •

ثم انتقل المؤلف الى ذكر الارومات المتفرعة عن كهلان فقال ان المشهور منها احد عشر حيا (١) ــ او فروعا ــ ثم اخذ يذكر من كان في مصر من هذه الفروع كما يلي :

آ ــ ذكر المؤلف اولا فرع الازد وسمــي منهــا قبيلتي الاوس والخزرج انصار النبي عليه السلام وروي عن الحمداني ان من هــاتين القبيلتين جماعة بمنفلوط من صعيد مصر من عقب حسان بن ثابت وسعد ابن معاذ سيد الاوس رضي الله عنهما •

ب ــ ثم ذكر فرع طي وذكر سبنس احد فروعها فقال ان الحمداني ذكر ان منهم طائفة بثغر دمياط وانه كان لهم شأن في ايــام الخلفاء الفاطميين وعد منهم ثلاثة بطون وهم الخزاعلة وعبيد وجموع • ثم قال والامرة في زماننا هــذا في الخزاعلة في بنــي يوسف بمدينة سخا من الاعمال الغربية •

ت ــ ثم ذكر جرم من فروع طي وقال انهم الذين ببلاد غزة من البلاد الشامية وان الحمداني روى انهم كانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين فلما فتح السلطان صلاح الدين البــلاد

---

(١) الفروع الكهلانية التي ذكرها المؤلف هي الازد وطي ومذحج ووهمدان وكندةومراد وانمار وجذام ولخم واشعر وعاملة .

دخلت طائفة منهم مصر • وبقي بقاياهم بمكانهم ببلاد غزة • ثم اخذ يذكر عزوا عن الحمداني فروع جرم التي بقيت على ما يفيده الكلام ببلاد غزة • ولقد ظلت قبيلة جرم في هذه البلاد وكان امراؤها اصحاب نشاط فيها ومنهم امراء العويسات على ما ذكرناه في الجزء الثاني من الكتاب •

ث ــ ثم ذكر المؤلف ثعلبة من فروع طي • وقال عزوا الى الحمداني انهم كانوا مع جرم بالشام يدا مع الفرنج على المسلمين فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد انتقلت طائفة منهم الى مصر ونزلوا اطراف بلاد الشرقية • وكانت قبيلة ثعلبة فرعين وهما درما وزريق • فمن بطون درما في هذه البلاد سلامة والاحمر وعمرو وقصير وأويس وشبل والحنابلة والمراونة والحبانيون • ومن بطون زريق فيها بنو وهم والطليحيون • ومن الطليحيين آل حجاج وآل عمران وآل حفصان والمصافحة • ومن بطون زريق ايضا الصبيحيون ومن هؤلاء الغيوث والزموت والروايات والنمورة والشمخيون والسعالى والرمالي والمعامرة والسنديون والبحابحة والعقيليون • ومن بطون زريق العليميون ايضا وكان مقدمهم قديما عمرو بن عسيلة الذي أمر بالبوق والعلم على ما ذكره الحمداني • ومن العليميين القمعة والرياحين والغوفة ، وكان فيهم رجال ذوو ذكر ونباهة خدموا الدول وعضدوا الملوك وقاموا ونصروا ومنهم من أمر بالبوق والعلم على ما ذكره الحمداني كذلك •

والمتبادر من عبارة « امر بالبوق والعلم » ان الملوك كانوا يعينون امراء العرب تعيينا وانهم كانوا على مراتب ومنهم من كان يعطي بوق وعلم كعلامة من علامات مرتبته • ومن المحتمل ان تكون هذه المرتبة اعلى مراتب امراء العرب •

ومن الطبيعي ان يكون الذين يختارهم الملوك للامرة هم من البطون او الارومات القوية ذات العصبية • وتعيين امراء للعربان من قبل الملوك بمثل هذه الحفاوة دليل على ان الارومات العربية التي كان

يقوم على رأسها هؤلاء الامراء من الكثافة والكثرة ما كان يقتضي ذلك • وفي الجزء الرابع من صبح الاعشى ما يفيد ان امارات العرب كانت في كل عمل من اعمال مصر القبلية والبحرية على ما سوف نشرحه بعد •

ج ــ ومن فرع كهلان التي منها ارومات في مصر قبيلة جذام • وكلام القلقشندي عنها مسهب اكثر من غيرها لانها على ما يبدو من اقدم القبائل العربية في مصر ومن اكثرها فروعا وانتشارا ونشاطا وامراء •

وقد روى عن الحمداني ان محمدا بن السائب الذي وفد على رسول الله (صلعم) على رأس وفد من جذام كان من اول من جاء على رأس عشيرته الى مصر مع عمرو بن العاص من العرب حينما جاؤوا في الفتح واقطعوا فيها بلادا بعضها بايدي بنيهم الى الآن •

وقد قال القلقشندي فيما قاله ان لجذام الآن بطونا كثيرة متفرقة في الاقطار منهم بالشرقية بالديار المصرية جماعة من بني زيد بن حرام ابن جذام ومن بني محرمة بن زيد بن حرام بن جذام •

فاما بنو زيد فمنهم سويد وبعجة وبردعة ورفاعة وناثل • ومن ولد سويد هلبا سويد ومنهم على ما ذكره الحمداني ــ والكلام للقلقشندي ــ العطويون والجابريون والغتاورة وحمدان ورومان وصمران واسود والحميديون • ومن الحميديين اولاد راشد • ومنهم البراجسة واولاد بيرين والجراشنة والعكوك واولاد غانم وآل حمود والاخيوة والزرقان والاساورة والحماريون • ومن بني راشد ايضا الحراقيص والخنافيس واولاد غالي واولاد جوال وآل زيد واولاد نجيب وبنو فضيل • ومن هلبا سويد ايضا بنو الوليد بن سويد ومنهم الحيادرة وهم بنو حيدره ابن يعرب • وهم طائفة كبيرة على ما ذكره الحمداني ــ والكلام للقلقشندي ــ ومنهم بنو عمارة وهو عمارة بن الوليد ومنهم عدد • ومنهم الحبيون وهم بنو حبة بن راشد بن الوليد • ومن ولد الوليد

ابن سويد المذكور طريف بن بكتوت [1] الملقب زين الدولة • وكان من اكرم العرب يأكل ايام الغلاء في مضافته اثنا عشر الفا كل يوم • وكان يهشم الثريد في المراكب • ومن اولاده من أمر بالبوق والعلم • وعد من احلافهم اولاد الهوبرية والرداليين والحليفيين والحفينيين والربيعيين وهم اولاد شريف النجايين الذين ذكر الحمداني ان لهم نسبا في قريش الى عبد مناف • ومن هلبا سويد مالك وهم بنو مالك ابن سويد • ومن هلبا مالك بنو عبيد بن مالك ومن بني عبيد الحسينيون • وهم بنو الحسن بن ابي بكر بن موهوب بن عبيد • والغوارنة وهو بنو الغور بن ابي بكر بن موهوب بن عبيد • وبنو اسير • وهم بنو اسير بن عبيد • ومن هلبا مالك ايضا اللبيديون والبكريون والعقيليون • وهم بنو عقل بن قرة بن موهوب بن عبيد • ومنهم بنو رديني وهم بنو رديني بن زياد بن حسين بن مسعود بن مالك • ومن ولد بعجة هلبا بعجة وهم بنو هلبا ومنظور وردا ونائل بني بعجة بن زيد بن سويد بن بعجة • ومن ولد هلبا بعجة مفرج بن سالم أمره المعز ايبك بالبوق والعلم • ثم خلفه على امرته ولده حسان • ومنهم اولاد الهريم من بني غياث بن عصمة بن نجاد بن هلبا بن بعجة • ومنهم جوشن بن منظور بن بعجة • وهو صاحب السراة المضروب به المثل في الكرم والشجاعة •

ومن ولد نائل مهنا بن علوان علي بن زيد بن حبيب بن نائل • وكان جوادا كريما • طرقه ضيوف في شتاء ولم يكن عنده حطب لطعامهم فاوقد أحمال بر كانت عنده •

ومن بني حرام بن جذام ايضا بنو سعد • قال الحمداني ــ والكلام للقلقشندي ــ في جذام خمس سعود اختلطت بمصر وهم سعد بن اياس ابن حرام بن جذام ، وسعد بن مالك بن افصى بن سعد بن اياس بن

(1) هذا الاسم في رسالة المقريزي الآتي ذكرها « ظريف بن مكنون » .

حرام بن جذام ، وسعد بن سامة بن عنبس بن غطفان بن سعد بن سعد ابن مالك بن حرام بن جذام [1] • وهم عشائر كثيرة منهم بنو فضل والسلاحمة وبرشاش وجوشن وعدلان وقرارة واكثرهم مشايخ بلاد وخفراء ولهم مزارع ومآكل وفسادهم كثير • وسكنهم منية غمر الى ريفها • ومنهم شاور وزير العاضد الفاطمي واليه تنسب اولاد شاور كبار منية عمرو وخفراؤها • ونبه المؤلف او الحمداني لان الكلام متواصل ان ابن خلكان ذكر شاورا من قبيلة سعد التي ارضع فيها النبي عليه السلام •

اما بنو محرمة فمنهم الشواكر • وهم شاكر بن راشد ومنهم اولاد العجار أدلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلم جرا •

ومن جذام ايضا بالشرقية العائد • وعليهم درك الحاج الى العقبة• ومنهم ايضا بالشرقية بنو حرام • وقل في عرب مصر من يعرفها • وعزا المؤلف هذه العبارة الى الحمداني • ثم استمر يقول ومنهم بالدقهلية عمرو وزهير وعد الحمداني منهم الحفينيين وروالة والاحامدة والحمارنة وهم بنو حمران وقال وفي زهير هؤلاء من بني عرين وبني شبيب وبني عبد الرحمن وبني مالك وبني عبيد وبني عبد القوي وبني شاكر وبني حسن وبني سمان وهم يتواردون في اسماء بعض البطون مع غيرهم •

ح ــ ذكر المؤلف بعد جذام قبيلة لخم من كهلان • ولخم اخو جذام • وقال ان القضاعي ذكر انهم ــ أي قبيلة لخم ــ حضروا فتح مصر واختلطوا بها هم ومن خالطهم من جذام وان الحمداني قال ان قوما منهم يسكنون بالبر الشرقي من صعيد مصر وانه ذكر منهم سبعة ابطن يتفرع كل منها الى فروع ، وهي : (١) بنو سماك ومن فروعهم

(١) لم يذكر المؤلف الا اربعة سعود وقد نبه ناشر الكتاب في ذيل الصحيفة ٣٣٣ على ذلك وقال يؤخذ من السبائك ــ اسم كتاب ــ ان الساقط هو سعد بن ربيل بن اياس بن حرام بن جذام .

بنو مر [١] وبنو مليح وبنو نبهان وبنو عبس وبنو كريم وبنو بكير وديارهم من طارف ببا بالبهنسا الى منحدر دير الجميزة في البر الشرقي (٢) بنو حدان ، ومنهم بنو محمد وبنو علي وبنو سالم وبنو مدلج وبنو رعيش • وديارهم من دير الجميزة الى ترعة صول • (٣) بنو راشد • ومنهم بنو معمر وبنو واصل وبنو سرا وبنو حبان وبنو معاد وبنو البيض وبنو حجرة وبنو شنوءة • وديارهم من مسجد موسى الى اسكر ونصف بلاد اطفيح • ولبني البيض الحي الصغير ولبني شنوءة من ترعة شريف الى معصرة بوش • (٤) بنو جعد • ومنهم بنو مسعود وبنو حدير المعروفون بالحديريين وبنو زبير وبنو ثمال وبنو نصار • ومسكنهم ساحل اطفيح • (٥) بنو بحر • ومنهم بنو سهل وبنو معطار وبنو فهم المعروفون بالفهيميين وبنو عسير وبنو سباع ومسكنهم الحي الكبير • (٦) بنو عدي • ومنهم بنو موسى وبنو محرب ومساكنهم بالقرب من مساكن بني جعد • (٧) قيس • ومنهم بنو غنيم وبنو عمرو وبنو حجرة • ولبني غنيم العدوية ودير الطين الى جسر مصر • ولبني عمرو الرستق ولهم نصف حلوان • ولبني حجرة النصف الثاني ونصف طبرا •

ثانيا الارومات العدنانية

ذكر القلقشندي من الارومات العدنانية في مصر ما يلي :

آ ـ بني هلال بن عامر بن صعصعة من هوازن من قيس عيلان من مضر • قال ان الحمداني ذكر انه كان لهم بلاد صعيد مصر كلها

---

(١) في صعيد مصر قرية اسمها بنو مر وهي التي نشأ منها البطل العربي العظيم جمال عبد الناصر . ولقد اعتاد العرب حينما ينشئون محلة جديدة ان يسموها باسمهم . ومن المحتمل جدا ان يكون فرع بني مر من بني سماك هو أنشأ هذه القرية وسكن فيها وسماها باسمه كما ان من المحتمل جدا ان يكون بطلنا من انسال هذا الفرع وبالتالي من قبيلة جذام احدى قبائل لخم من كهلان من اليمن ومن بطون جذام التي استقرت ونمت في صعيد مصر .

وذكر ذلك المقريزي في رسالته ايضا انظر ص ٦٠ ـ ٦٢

وان ابن سعيد ذكرهم في عرب برقة ومنازلهم فيما بين مصر وافريقية وان مؤلف العبر قال ان رياستهم ايام الحاكم العبيدي الفاطمي (٣٨٦ — ٤١١ هـ) لماضي بن مقرب وانهم لما بايعوا ابا ركوة بالمغرب — وهو خارجي ادعى انه من الاسرة الاموية [١] — وقتله الحاكم سلط عليهم الجيوش والعرب فافناهم وانتقل من بقي منهم الى المغرب الاقصى فهم من بني جشم هناك [٢] • ثم قال المؤلف ان الحمداني ذكر ان بلاد اسوان وما تحتها صارت لهم وان باخميم منهم بنو قرة الى عيذاب وبساقية قلته منهم بنو عمرو وبطونهم وهم بنو رفاعة وبنو حجير وبنو عزيز وباصفون واسنا منهم بنو عقبة وبنو جميلة •

ب — بنو ذبيان بن فزارة من غطفان من قيس عيلان من مضر • قال القلقشندي ان منهم جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليوب وما حولها • وبهم عرفت القرية المسماة بخراب فزارة هناك •

ت — بنو مازن بن فزارة • قال القلقشندي ان منهم جماعة بالقليوبية بالديار المصرية •

ث — بنو بدر بن فزارة • قال القلقشندي ان منهم كذلك جماعة بالقليوبية • ثم قال ان بني بدر هم قبيلتنا التي اليها نعتزي وفيها ننتسب • واهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني عمهم بني مازن • وفي العبارة دلالة على ما كان من اندماج الارومات العربية في حياة قرى مصر ومدنها وامتلاء بعض المدن والقرى بها • على ان هذا مستفاد من كثير من العبارات والاشادات الواردة في صبح الاعشى وغيره من الكتب التي ذكرت الارومات العربية في مصر مما مر أمثلة كثيرة منه ومما سيأتي امثلة كثيرة اخرى •

---

(١) انظر ابا الفداء ج ١ ص ١٣٨

(٢) واضح من هذا انه مناقض لما ذكره ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه واردناه عنه قبل بعض الشيء • اما التباين بين ما قاله الحمداني وابن سعيد فمن المحتمل ان يكون نتيجة لتنقل بني هلال •

ج ــ بنو سليم • من قيس بن عيلان من مضر • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر انهم اكبر قبائل قيس • وبافريقية منهم حي عظيم • ومنهم جماعات مساكنهم برقة مما يلي المغرب ومما يلي مصر • وفيهم الابطال الانجاد والخيل الجياد • ونقل العبر انهم استولوا على برقة وهي اقليم طويل واسع الاطراف وخربوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا امرة الا لمشايخهم • ونقل عن مسالك الابصار ان الامرة فيهم في زمن مؤلفه في بني عزاز • والمؤلف من رجال القرن الثامن • ثم قال انها الآن لبني عريف ، ثم قال المؤلف ومن سليم فرع لبيد ببرقة وهم بطون كثيرة العدد •

ح ــ كنانة بن خزيمة • قال القلقشندي هي قبيلة عظيمة ذكر الحمداني ان منهم جماعة بالاخميمية من صعيد الديار المصرية يعرفون بكنانة طلحة وذكر في مسالك الابصار ان طائفة منهم قدموا الديار المصرية في وزارة الصالح طلائع بن زريك ــ وهو وزير الفائز الخليفة الفاطمي ٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ ونزلوا دمياط وما حولها •

خ ــ بنو ليث بن عبد مناة بن كنانة • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان منهم طائفة بساقية قلتة بالاخميمية من صعيد مصر •

د ــ بطن بني مدلج بن مرة بن عبدمناة • منهم طائفة بالاعمال الغربية من ديار مصر •

ذ ــ بطن بني صخرة بن بكر بن عبدمناة • عزا المؤلف الى الحمداني ان منهم طائفة بساقية قلتة وما يليها من بلاد اخميم مصر •

ر ــ بطن مالك بن كنانة • عزا المؤلف الى الحمداني ان منهم طائفة بالاشمونين وما حولها •

ز ــ بطن بني سهم بن هصيص من قريش • وهم عشيرة عمرو بن العاص جاءت معه وسكنت بفسطاط مصر • وعزا المؤلف الى الحمداني

ان من بني عمرو بن العاص اشتاتا بالصعيد ولهم حصة في وقف عمرو على اهله بمصر •

س ـ بنو عدي بن كعب من قريش عشيرة عمر بن الخطاب • وقال القلقشندي ان شهاب الدين بن فضل الله ذكر في مسالك الابصار ان جماعة منهم وفدوا الى مصر في وزارة الصالح طلائع بن زريك وزير الفائز الفاطمي (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) وكان مقدمهم خلف بن نصر العمري • وانهم لقوا من الصالح وافر الاكرام ونزلوا بالبرلس من سواحل الاعمال الغربيـــة •

ش ـ بنو تيم بن مرة من قريش عشيرة ابي بكر الصديق • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان من بني عبد الرحمن ومحمد ولــدي ابي بكر جماعة بالاشمونين والبهنسا من صعيد مصر • وهم ثلاث فرق فالاولى عرفت ببني اسحق والثانية ببني طلحة وهؤلاء بطون كثيرة • واكثرهم اشتات كثيرة في البلاد لا حد لهم • والثالثة بنو محمد ومنازلهم بالبرجين وسفط سكرة وطحا المدينة ببلاد الاشمونين على مـــا ذكره الحمداني • واكثرهم الآن ـ وهذا كلام القلقشندي بدهروط من البهنسانية ـ وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهب الامامــين مالك والشافعي •

ص ـ بنو مخزوم من قريش • وهم عشيرة خالد بن الوليد • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان منهم جماعة بالاشمونين بصعيد مصر • وفيهم بأس وشدة •

ض ـ بنو زهرة من قريش • وهم عشيرة سعد بن ابــي قاص وآمنة ام النبي عليه السلام • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان منهم جماعة ببلاد الاشمونين بصعيد مصر •

ط ـ بنو شيبة بن عبد الدار من قريش • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان جماعة منهم بسفط وما يليها ببلاد البهنسانية بصعيد مصر ويعرفون بجماعة نهار •

ظ ـ بنو اسد بن عبد العزي من قريش • وهم قوم الزبير بن

العوام وخديجة ام المؤمنين • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان من بني الزبير طائفة ببلاد البهنسا وما يليها من صعيد مصر • منهم بنو بدر وبنو مصلح وبنو رمضان وبنو الوراق وبنو غنى •

غ ــ بنو هاشم من قريش • قال القلقشندي ان الحمداني ذكر ان منهم الجعافرة من ولد الحسين بن علي ومسكنهم من بحري منفلوط الى سملوط من صعيد مصر • ومن بطونهم الحيادرة والسلاطنة • ومنهم الشريف حصن الدين بن تغلب صاحب دورة سربام من الاشمونين التي عرفت بدورة الشريف • وكانت نفسه سمت الى الملك في اواخر الدولة الايوبية وبقي حتى ملك الظاهر بيبرص (٦٥٩ ــ ٦٧٦ هـ) فاعمل له غوائل الغدر حتى قبض عليه وشنقه بالاسكندرية • والعبارة تفيد انه حقق مطمحه في الملك لفترة قصيرة • ومن بني الحسين قوم بحرجة منفلوط • وفي اسيوط جماعة من اولاد جعفر الصادق يعرفون باولاد الشريف قاسم •

ثالثا : القبائل المتردد في عروبتهم

ذكر القلقشندي في النبذة التي عقدها على العنوان المذكور هذه قبائل منها مصمودة وزناته وصنهاجة وهوارة ولواثة • وقال انه مختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين الى انهم من البربر وطائفة الى انهم من العرب والذين قالوا انهم من العرب اختلفوا فقال بعضهم انهم اوزاع من اليمن كما قال بعضهم انهم من غسان وغيرهم تفرقوا عند سيل العرم • ومن النسابة من ينسب بعضهم الى قيس بن علان •

وقد يدل هذا على ان هذه القبائل كانت منطبعة في العهد الاسلامي بالطابع العربي الشامل على أي حال ، سواء أصح انهم من العرب أم لم يصح كما هو المتبادر • وهذا بقطع النظر عن النظرية التي تقول ان البربر هم امتداد موجات جاءت من جزيرة العرب الى وادي النيل قبل الميلاد بعشرات القرون (١) •

(١) أنظر تاريخ الجزائر للمدني ص ٥ و ١٠٢ والقومية العربية تأليف الامير مصطفى الشهابي ص ٣٠

وقد قال القلقشندي ان منهم في ديار مصر قبيلتان هما هوارة ولواثـة .

أما هوارة : فقد قال المؤلف ان نسابتهم يقولون انهم من عرب اليمن وينسبون تارة الى عاملة احدى بطون قضاعة وتـارة الى المسور ابن السكاسك بن وائل بن حمير وتارة الى السكاسك بن أشرس بن كندة . ثم قال ان الحمداني قد عد من بطونهم بالديار المصرية بني مجريش وبني اسرات وبني قطران وبني كريب . ولكنهم الآن قـد اتسعت بطونهم وكثرت شعوبهم وصار لهم بطون كثيرة ، منهـا ابو محمد واولاد مأمن وبندار والعرايا والشللة وشحوم واولاد مؤمنـين والروابع والروكة والبركية والبهاليل والاصابغة والدناجلة والمواسية والبلازد والصوامع والسدادرة والزيانية والخيافشة والطردة والاهلـة وازلتين واسلين وبنو قمير والتيه والتبايعة والغنائم وفزارة والعبابدة وساورة وغلبان والسبعة ، ثم قـال القلقشندي انه ذكر في مسالـك الابصار ان لهم بالديار المصرية البحيرة ومن الاسكندرية غربا الى العقبة الكبيرة . ولم يزل الامر على ما ذكره الى آخر المئة الثـامنة في الدولة الظاهرية الشهيدية برقوق فغلبهم على البحيرة زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة فخرجوا عنها الى صعيد مصر ونزلوا به بالاعمال الاخميمية في جرجا وما حولها ثم قوي امرهم واشتد بأسهم وكثر جمعهم حتى انتشروا في معظم الوجه القبلي فيما بين اعمال قوص والى غربي الاعمال البهنسانية واقطعوا بها الاقطاعات وصارت الامرة في بلاد اخميم لاولاد عمر وفي اعمال البهنسا وما حولها لاولاد غريب . والامر على ذلك الى الآن .

وأما لواثة : فان القلقشندي يقول ان الحمداني ذكر انهم يقولون انهم من قيس غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، وان لهم بمصر بطونا كثيرة منها بنو بلار وجد وخاص وبني مجدول وبنو جديدي وقطوفة وبركين ومالو ومزورة . ومن بني جديدي اولاد قريش واولاد زعازع

وهم اشهر من في الصعيد • ومن بني قطوفة مغاغة وواهلة ، ومن بني بركين بنو زيد وبنو روجين • ومن بني مزورة بنو وركان وبنو غرواسن وبنو جماز وبنو الحكم وبنو الوليد وبنو الحجاج وبنو الحرمية • وبنو بلار فرقتان • فرقة بالبهنسانية وهم بنو محمد وبنو علي وبنو نزار وبنو شهلان وامراؤهم بنو زعازع • والفرقة الثانية بالجيزة ومنها بنو مجدول وسقارة وبنو ابي كثير وبنو الجلاس ومغاغة ولهم سملوط الى الساقية• ولبني بركين قلوسنا وما معها الى بحري طنبدي • ولبني جدوخاص الكفور الصولية وسفط ابو جرجا الى الجندي واهريت • ومن بني نزار بنو زرية وبنو عامر والحماسنة والضباعنة وامراؤهم اولاد قريش ومساكنهم النويرة • ومنهم بالجيزة صلامس وعرب البدرشين وبنو منصور وعرب منية رهنية وعرب سقارة وبنو مجدول وبنو يرني وبنو يوسف وبهم تعرف الكفور الثلاثمائة المسماة باسمهم ومنهم بالمنوفية بنو يحيى والسوة وعبيد ومصلة وبنو مختار • ومن لواثة بنو زنارة الذين اكثرهم ببلاد المغرب • ومنهم جماعة بالبحيرة وجماعة بالمنوفية ومن لواثة ايضا مزاته ومنازلهم من البحيرة غربا الىالعقبة الكبيرة ببرقة•

وواضح من كلام القلقشندي ومروياته ايضا ان جميع انحاء مصر كانت مكتظة بالارومات العربية المنتسبة الى الاصول القحطانية والعدنانية • منها ما جاء مع حملة الفتح ومنها ما جاء في الحقب التالية • ومنها ما اندمج في حياة المدن والقرى ومنها ما ظل يعيش عيشة القبائل • ومنها ما جاء باعداد وكتل كبيرة ومنها بمانما وكثر في مصر • ومنها ماغمر النواحي والقرى والمدن التي نزل فيها • ومنها ما برز في مجال الحكم والسلطان المحلي والاقليمي وكان له امرة رسمية معترف بها من السلطات التركية ، وظاهرة غمر النواحي والقرى والمدن بالارومات العربية كانت خاصة بمقياس واسع شملت كثيرا من المناطق •

الامارات العربية
في الوجهين القبلي والبحري

— ٥ —

وفي الجزء الرابع من صبح الاعشى بالاضافة الى ما ورد في الجزء الاول من اشارات عابرة الى بروز بعض الاشخاص والارومات في مجال الحكم والسلطان المحلي او القبلي بيانات أوفى في هذا الصدد .

ولقد نقل المؤلف عن الحمداني ان امرة العربان بالوجه القبلي كانت في ثلاثة أعمال [١] :

١ ــ العمل الاول : عمل قوص . وكانت الامرة فيه في بيتين من بلى قضاعة بن حمير . اولهما بنو شادي . وكانت منازلهم بالقصر الخراب المعروف بقصر بني شادي بالاعمال القوصية . ومما قيل عنهم انهم من بني امية بن عبد شمس من قريش . وثانيهما ، بنو العجيل ابن الذئب وكانوا معهم هناك .

٢ ــ العمل الثاني : عمل الاشمونين . وكانت الإمرة به في بني ثعلب من السلاطنة . وهم اولاد ابي جحيش من الحيادرة من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق من عقب الحسين بن علي . وكانت منازلهم بدروت سربام . وغلب عليها الشريف حصن الدين بن ثعلب فعرفت بدروت الشريف من يومئذ . واستولى عليها وعلى بلاد الصعيد وكان ذلك في آخر الدولة الايوبية . فلما ولى المعز ايبك التركماني اول ملوك الترك بالديار المصرية السلطنة أنف من سلطنته وسمت نفسه الى السلطنة

(١) ص ٦٧-٦٩ وتعبير عمل واعمال كان يعني اقليم او ولاية او محافظة او مديرية الخ.

فجهز اليـه المعز جيوشا فجرت بينهم حروب لم يظفروا به فيها وبقي على ذلك الى ان كانت دولة الظاهر بيبرص فنصبت له حبائل الحيل وصاده بها وشنقه بالاسكندرية •

٣ ــ العمل الثالث : عمل البهنسا • وكانت الامرة فيه في بيتين • الاول ، اولاد زعازع من بني جديدي من بني بلار من لواثة وقد قال الحمداني انهم أشهر من في الصعيد • والثاني ، اولاد قريش • وهم على ما قاله الحمداني امراء بني زيد ومساكنهم نويرة دلاص ، وكان قريش عبدا صالحا كثير الصدقة • ومن اولاده سعد الملك المشهور بنوه هناك •

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه التعريف ــ والكلام للقلقشندي ــ ان الامرة بالوجه القبلي في زمانه وهو سلطنة الناصر محمد بن قلاوول ٦٩٣ ــ ٧٤١ هـ [١] كانت لناصر الدين عمر بن فضل • ولم يذكر مقره ولا من أي العرب هو • وذكر ايضا ان الامرة فيما فوق اسوان كانت في عرب يقال لهم الحدارية في سميرة بن مالك • وكان ذا عدد جم وشوكة منيعة • يغزو الحبشة وأمم السودان ويأتي بالنهاب والسبايا وله اثر محمود وفضل مأثور • وفد على السلطان فاكرم مثواه وعقد له لواء وشرف بالتشريف [٢] وقلد وكتب الى ولاة الوجه القبلي عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى اراد وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد وتقليده بامرة عربان القبلة مما يلي قوص الى حيث تصل غايته وتركز رايته •

وقد قال القلقشندي بعد هذا • ان الامرة في زمانه ــ اواسط القرن التاسع الهجري ــ مذ وجهت عرب هوارة وجوهها من عمل البحيرة الى الوجه القبلي ونزلت به وانتشرت في ارجائه انتشار الجراد

---

(١) هذا السلطان خلع مرتين وكان يعود مرة بعد اخرى خلال هذه المدة . فالمرة الاولى ٦٩٣ ــ ٦٩٤ والثانية ٦٩٨ ــ ٧٠٨ والثالثة ٧٠٩ ــ ٧٤١ هـ .

(٢) هذه الاصطلاحات كانت تعني الباس الخلع المطرزة بالطراز السلطاني .

وبسطت يدها من الاعمال البهنساوية الى اسوان وما والاها واذعن لهـا سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة وانحازوا اليها وصاروا طوع قيادهـا والامرة الآن فيها في بيتين : الاول ، بنو عمر محمد واخوته • ومنازلهم بجرجا ومنشاة اخميم • وامرهم نافذ الى اسوان من القبلة والى آخر بلاد الاشمونين من بحري • والثاني ، اولاد غريب • وبيدهم بلا البهنسا ومنازلهم دهروط وما حولها •

وأما الوجه البحري[1] فقد ذكر الحمداني ــ والكلام للقلقشندي ــ ان الامرة في خمسة اعمال :

١ ــ العمل الاول : الشرقية والامرة فيها في قبيلتين الاولى ثعلبة والامرة في شقير بن جرجا من المصافحة من بني زريق وفي عمر بن تغيلة من العليميين • والثانية جذام • والامرة فيها في خمسة بيوت • الاول بيت ابي رشد بن حبشي بن نجم بن ابراهيم من العقيليين من ذرية بني زيد بن حرام • وقد أمر بالبوق والعلم ، والعبارة تفيد ان ابا رشد اول المتأمرين من هذا البيت وان الامرة استمرت في بيته من بعده • الثاني طريف بن مكنون من بني الوليد بن سويد من بني زيد بن حرام • والى طريف ينسب بنو طريف ببلاد الشرقية وكان على ما ذكره الحمداني ــ والكلام للقلقشندي ــ من اكرم العرب وكان يأكل عنده ايام الغلاء اثنا عشر الفا وكان يهشم الثريد في المراكب • ومن بنيه فضل بن سمح ابن كمونة وابراهيم بن عالي • وقد أمر كـل منهما بالبوق والعلم والعبارة تفيد كما هو واضح ان الامرة استمرت في هذا البيت ولـدا بعد والد الى امد ما • الرابع ، بيت نمي بن خشعم من بني مالك بن هلبا بن سويد • وقد اقطع خشعم بن نمي وامر واقتنى عددا من المماليك الاتراك والروم وغيرهم • وبلغ من الملك الصالح ايوب ٦٤٣ ــ ٦٤٧ هـ منزلة عالية • ثم حصل عند الملك المعز ايبك التركماني على الدرجة الرفيعة وقدمه

---

(١) صبح الاعشى ص ٦٩ ــ ٧٢

على عرب الديار المصرية • ولم يزل على ذلك حتى قتله غلمانه فجعل المعز ابنيه سلمى ودغش عوضه فكانا له نعم الخلف • ثم قدم دغش دمشق فأمره الملك الناصر صاحب دمشق يومئذ من بني أيوب ببوق وعلم • وأمر الملك ايبك اخاه سلمى كذلك • وعبارة بيت نمي قد تفيد ان الامرة استمرت في هذا البيت بعد دغش وسلمى لامد ما ايضا •

الخامس : بيت مفرج بن سالم بن راضي من هلبا بعجة من بني زيد بن حرام • وقد أمره المعز ايبك التركماني بالبوق والعلم حينما أمر سلمى بن خشعم وكان هذا امتنع أن يؤمر حتى يؤمر مفرج • وعبارة بيت مفرج تفيد ان الامرة استمرت في بيته من بعده لامد ما •

٢ ـ العمل الثاني : المنوفية • والامرة فيها لاولاد نصير الدين من لواثة ولكن امرتهم في معنى مشيخة العرب • وقد تفيد العبارة ان مرتبتهم اقل من مرتبة السابقين •

٣ ـ العمل الثالث : الغربية • والامرة فيها في اولاد يوسف من الخزاعلة من سنبس من طي من كهلان • ومقرهم مدينة سخا •

٤ ـ العمل الرابع : البحيرة • وقد قال القلقشندي انه ذكر في التعريف ـ وهو كتاب المقر الشهابي الذي مر ذكره ـ ان الامرة في الدولة الناصرية ابن قلاوون كانت لخالد بن ابي سليمان وفائد بن مقدم، وان مؤلف مسالك الابصار قال عنهما انهما كانا اميرين سيدين جليلين ذوي كرم وافضال وشجاعة وثبات رأي واقدام •

٥ ـ العمل الخامس : برقة [1] • وقد قال القلقشندي انه ذكر في التعريف أنه لم يبق من امراء العرب ببرقة في زمانه الا جعفر بن عمر • وكان لا يزال بين طاعة وعصيان • ومخاشنة وليان وان اصابته نوبة من الدهر وان آخر امره ان ركب طريق الواح حتى خرج من الفيوم

---

(١) المتبادر ان برقة في القرن الثامن كانت من اعمال مصر •

وطرق باب السلطان لائذا بالعفو ووصل ولم يسبق به خبر ولم يعلم السلطان به حتى استأذن المستأذن له عليه وهو في جملة الوقوف بالباب فأكرم أتم الكرامة وشرف باجل التشاريف واقام مدة في قرى الاحسان واحسان القرى واهله لا يعملون ما جرى ولا اين يمم ولا أي ناحية نحا حتى اتتهم وافدات البشائر • وقد قال له السلطان لم لا اعلمت اهلك بقصدك الينا فقال له خفت ان يثبطوني ويقولوا ان السلطان يفتك بك فاستحسن قوله وافاض عليه طوله ثم عاد الى اهله بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء ولا شمت به عدو •

وقد قال القلقشندي بعد هذا ان الامرة اليوم في برقة في عمر بن عريف • وهو رجل دين وكان ابوه عريف ذا دين متين • رأيته بالاسكندرية بعد الثمانين والسبعمائة واجتمعت به فوجدت آثار الخير ظاهرة عليه •

وينتهي فصل القلقشندي عن امراء العرب عندهذا الحد • وواضح من ما احتواه انه فصل مهم في صدد ما كان للارومات العربية من بروز ومكانة في مجال الحكم والسلطان المحلي بسبب ما كان لهم من عصبيات في قومهم وبيئتهم وباعتراف الملوك وتثبيتهم رسميا • ومن المؤسف ان فيه ثغرات كثيرة سواء في عدم ذكر سلسلة الذين كانوا يتولون الامرة من الابناء بعد الآباء أم في عدم ذكر شيء هام من سيرة الامراء ومدى سلطانهم •

ومع ان السياق قد يفيد ان امرة الامراء وبيوتات الامارة كانت في النطاق القبيلي فان فيه ما قد يفيد في الوقت نفسه ان ذلك النطاق كان يتسع حتى يشمل المنطقة وما فيها من قبائل وقرى ايضا • لا سيما وان السياق يفيد ان القبائل لم تكن بدوية رحالة بل كانت ريفية مستقرة في القرى والكفور على الاعم الاغلب •

ويلفت النظر خاصة الى مدى حركة الشريف حصن الدين الطموحة

في آخر الدولة الايوبية ثم الى ما كان من مكانة ونشاط سميرة بن مالك حتى لكأنه ملك وصاحب دولة داخل الدولة ٠

هذا من جهة ومن جهة اخرى فالمتبادر ان ما اورده القلقشندي هو ما وصل اليه علمه وسمعه خلال القرون الثلاثة السابع والثامن والتاسع ٠ ولا يعقل ان لا يكون شيء من هذا قبل هذه القرون ٠ وكل ما هنالك انها لم تحظ بالتسجيل أو لم تصل اليه اليد ٠

صور متنوعة مقتبسة من رسالة المقريزي

— ٦ —

ولقد كتب المؤرخ المصري احمد بن علي المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ رسالة خاصة بالقبائل العربية المنتشرة في مصر سماها « البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب » ضمنها تاريخ واوليات وفروع وافخاذ ومساكن القبائل العربية التي كانت تعج بها كل ناحية من انحاء مصر في عهده ممتدة الى قرون عديدة قبله • وفيها كثير مما اوردناه نقلا عن الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون والجزئين الاول والرابع من صبح الاعشى • غير ان فيها زوائد وبيانات اوفى مما ورد في الكتب المذكورة لانها كتبت خاصة بالموضوع بينما ابن خلدون والقلقشندي قد اوردا ما اورداه في سياق مواضيع واحداث متنوعة اخرى ، وهذا فضلا عن ان رسالة المقريزي كتبت بعد المؤلفين المذكورين بامد ما ولو كان قصيرا •

ومما هو جدير بالتنبيه ما يدل اختصاص الموضوع برسالة خاصة على ما كانت الارومات والقبائل العربية تشغله من حيز عظيم في حياة مصر • وهو ما يزيد من فائدة ايراد ما في هذه الرسالة •

ولقد قال في مطلع كلامه (١) ان العرب الذين شهدوا فتح مصر قد ابادهم الدهر وجهلت احوال اكثر اعقابهم • وقد بقيت من العرب بقايا بارض مصر • ثم اخذ يذكر القبائل واحدة بعد اخرى بدءا من قبيلة ثعلبة •

---

(١) ص ٢٠

والمتبادر ان تعبير « ابادهم الدهر » فيه تجوز والاولى ان يقال انهم اندمجوا في حياة مصر حتى نسيت ذراريهم واعقابهم اصولها ونسبتها .

واليك الآن ما احتوته الرسالة بشيء من التصرف .

١ ــ قبيلة ثعلبة [١] :

تنتسب هذه القبيلة الى قبيلة طي القحطانية الكبرى وقد كانت بالشام مما يلي ارض مصر الى الخروبة [٢] .

وفي مصر بطون من هذه القبيلة تنتسب الى فرعين رئيسيين من فروعها هما درما وزريق . ومن البطون التي تنتسب الى فروع زريق اشعب ولبني وثعلبة وعنين ونبل وبنو وهم والطلحيون . ومن الطلحيين آل حجاج وآل عمران والمصافحة . وكان مقدمهم شقير بن جرجي أمر بالبوق والعلم ومن امرائهم عمرو بن عسيلة وقد أمر كذلك بالبوق والعلم . ومن البطون التي تنتسب الى درما صلامة والاجم وعمرو وقصر واوس والبقعة وسبل والحنابلة والمروانية والحبانيون .

وفي قطيا من ثعلبة الاغارسة وبنو بياضة وفي البدرية منهم بنو صدر وهي طريق البر من الشام الى مصر . واليهم تنسب قلعة صدر [٣] .

٢ ــ جرم [٤] :

ذكر المؤلف تحت هذا العنوان قبيلتين من طي مثل ثعلبة والثانية من قضاعة . وسياقه يفيد ان جرم التي في مصر هي من الاولى وكانت

---

(١) ص ٢١ ــ ٢٢

(٢) ذكر القلقشندي نقلا عن الحمداني انهم كانوا في بلاد غزة وجاؤوا الى مصر بعد استرداد السلطان صلاح الدين هذه البلاد من الصليبيين على ما مر بيانه والظاهر ان هذا ما يعنيه المؤلف بقوله مما يلي ارض مصر الى الخروبة بالشام .

(٣) ص ٦٢

(٤) ص ٢٢ ــ ٢٤

يدا مع الافرنج لما تغلبوا على البلاد مثل ثعلبة فلما فتح السلطان صلاح الدين بلاد غزة واعادها الله الى المسلمين جاءت طائفة منها الى مصر مع ثعلبة وبقيت بقاياها في مكانها • اما جرم قضاعة فكانت منازلها ببلاد غزة والداروم مما يلي الساحل الى الخليل •

وفي كلام المقريزي عن جرم وفروعها ونسبتها شيء من الخلط والاضطراب يجعل من الصعب التيقن من الفروع المتفرعة من جرم طي والاخرى المتفرعة من جرم قضاعة والتيقن كذلك من الفروع الموجودة في مصر والفروع التي بقيت في مكانها ببلاد غزة والداروم • وهو يمزج بين ما كان من ذلك قبله منذ قرنين وبين ما كان من ذلك في زمنه •

ومما قاله بعد ذكره الطائفة التي جاءت من جرم طي مع ثعلبة الى مصر وبقاء بقيتها مكانها : والمشهور من جرم هذه الآن جذيمة • ويقال ان لهم نسبا في قريش وزعم بعضهم انها ترجع الى مخزوم وزعم آخر انها من جذيمة بن مالك بن حسن بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر • وجذيمة هذه آل عوسجة وآل احمد وآل محمود • وكلهم في امارة (لعل المقصود تحت امارة) شاور بن سنان ثم بنيه • وكان لسنان اخوان فيهما سؤدد وهما غانم وخضر • ومن جذيمة هؤلاء جماعة مع الزيديين جماعة منصور بن جابر وجماعة عامر بن سلامة • ومنهم بنو اسلم • وبنو اسلم هذه من جذام لا من جذيمة وانما اختلطت مع جذيمة ومنهم شبل ورضيعة جرم وينغور والقدرة جماعة علم بن رميح والاحامدة والرفث وكور ومن جرم جماعة جابر بن سعيد وموقع • وكان كبيرهم مالك الموقعي وكان مقدما عند السلطان صلاح الدين واخيه العادل • ومنهم بنو غور ويقال هم من جرم ابن جرمز من سنبس • ومن هؤلاء العاجلة والضمان والعبادلة وبنو تمام وبنو جميل • ومن بني جميل بنو مقدام ومن بني غور آل نادر وبنو غوث وبنو بهى وبنو خولة وبنو هرماس وبنو عيسى وبنو سهيل وارضهم الداروم وكانوا

سفراء بين الملوك • وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببني فهيد ثم اختلطوا بهم واما جرم طي فانها تنزل من ارض مصر •••

هذا ، ونذكر بهذه المناسبة ان ابن اياس ذكر في حوادث سنة ٨٩٣ ه اسم عربان جرم واميرهم ابا العويس في سياق يفيد انه كان له امرة وسطوة في ناحية الرملة في فلسطين وذكرهم مرة ثانية في حوادث سنة ٨٩٤ ه في سياق يفيد انهم كانوا يشغلون حيزا في بلاد الرملة وغزة [1] • واليهم ينتسب امراء العويسات الذين ظلوا اصحاب نفوذ وسلطان اقطاعي في هذه البلاد الى القرن الثالث عشر على ما شرحناه في سيرتهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب حيث يؤيد هذا وجود عرب جرم في هذه المنطقة امتدادا من وجودهم في أثناء الحروب الصليبية بل وما قبلها ايضا •

٣ ــ سنبس وامارة الشريف حصن الدين [2] :

قال المقريزي عن هذه القبيلة انها من طي • وان من افخاذها بنو لبيد وعمرو وعدي وابان وجرم ومحصن وقنة • والى قنة ينسب معالي بن فريج مقدم سنبس كان بالبحيرة وله جوار ومروءة وفيه كرم وشجاعة قتل صبرا في دار الراحة بالقاهرة • وكانت سنبس تنزل بفلسطين والداروم قريبا من غزة وكثروا هناك واشتدت وطأتهم على الولاة وصعب أمرهم فبعث الوزير ابو محمد الحسن اليازوري اليهم في سنة ٤٤٢ ه يستدعيهم واقطعهم البحيرة من اراضي مصر وكانت البحيرة يومئذ منازل بني قرة من بطون ضبيب بن جذام فأوطأهم الوزير ديار بني قرة واقطعهم ارضهم وديارهم فاتسعت احوالهم وفخم امرهم وعظم في أيام الخلفاء الفاطميين شأنهم • ولم يزالوا بالبحيرة الى ان كانت سلطنة المعز عز الدين ايبك التركماني اول ملوك الترك بديار مصر

---

(١) انظر بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ج ٢ ص ٦٧٦–٦٧٧ و ٦٩٨–٦٩٩

(٢) ص ٢٤ ــ ٢٦

وأنفت عربان مصر من تملكه عليهم لانه مملوك من جملة المماليك البحرية قد مسه الرق فاجتمعوا واقاموا الشريف حصن الدين ثعلب ابن الامير الكبير نجم الدين علي بن الامير الشريف فخر الدين اسماعيل ابن حصن الدين مجد العرب ثعلب الجعفري في سنة ٦٥١ هـ فقاتلهم الاتراك وامسكوا الشريف واصحابه ثم مضوا بعد هذه الوقعة الى ناحية سخا من الغربية وقد اجتمع بها سنبس ولواثة ومن معهم فاوقعوا بهم وقعة شنيعة قتلوا فيها رجالهم وسبوا حريمهم ونهبوا اموالهم فذلت سنبس بعد ذلك وقلت وصارت متفرقة بالغربية •

وكان من حلفاء سنبس عذرة ومدلج ويجاورهم فرقة من كنانة ابن خزيمة • كان مقدمهم في خلافة الفائز بنصر الله عيسى بن الظافر ووزارة الصالح طلايع بن رزيك لاخوين ــ كذا ــ ويجاورهم فرقة من بني عدي بن كعب رهط امير المؤمنين عمر بن الخطاب ومقدمهم خلف بن نصر بن منصور العمري ونزلوا بالبرلس • وكانوا هم والكنانيون من ذوي الآثار المذكورة في نوبة دمياط • وخلف هذا هو جد بني فضل الله بن المحلي ابن عجاب بن خلف بن نصر وولوا كتابة السر لملوك الترك بالقاهرة ودمشق نحو مئة سنة •

والكلام عن حصن الدين في هذا السياق اوضح مما جاء في الجزء الرابع من صبح الاعشى من جهة وبينهما شيء من التناقض من جهة اخرى •

فحصن الدين سليل بيت امارة ممتدة الى ما قبل القرن السابع الذي ذكر فيه قيادته لحركة التمرد على ملك المعز عز الدين ايبك • والحركة في حد ذاتها ذات خطورة خاصة تدل على ما كان يشعر به العرب من اعتداد وتسام وعلى ما كانوا يشغلونه من حيز • وسياق المقريزي يفيد ان حركة حصن الدين قد قمعت في زمن عز الدين ايبك بينما كلام القلقشندي الذي اوردناه قبل يفيد انها استمرت الى زمن الظاهر بيبرص •

٤ ـ جذام وأماراتهم [١] :

وكما فعل القلقشندي فعل المقريزي حيث اسهب في اخبار وفروع نشاط هذه القبيلة اكثر من غيرها للسبب الذي ذكرناه قبل • ويتطابق المؤلفان في ذلك كثيرا وان كان كلام المقريزي من بعض النواحي اوفى •

ويفيد كلام المقريزي عن اصل جذام ان هناك من ينسبها الى كهلان كما ان هناك من ينسبها الى سبأ • وكلاهما قحطانيان على كل حال •

وقد ذكر المقريزي تفرعات وبطون هذه القبيلة ممزوجة بشيء من تاريخها واحوالها •

ومما قاله ان في جذام عدة ابطن وافخاذ وعشائر • ومن هذه البطون بنو ضبيب بن قرظ بن حفيدة بن نبيح • وان هذا البطن متفرع الى عدة افخاذ وهي بنو سويد وبنو زيد وبنو بعجة وهلبا سويد وهلبا مالك وهلبا بعجة وبردعة ورفاعة ونايل [١] وبنو مسعود وبنو الوليد وبنو منظور وبنو قرة الذين كانوا بالبحيرة قبل سنبس وبنو رداد ومحرية [٢] رهط رفاعة بن زيد جد بني روح من الصحابة • فاما سويد فانهم بنو سويد بن زيد • واما زيد فهم بنو زيد بن ميته بن الضبيب • ومنهم سعد وهم بنو سعد بن ابامة بن غطفان • ومنهم روح ومنهم قرظ ابن حفيده بن نبيح • ومنهم حرام وحشم وغطفان ونبيح بنو عبيد بن كعب وحطمة بنو عوف بن شنوءة بن نديل بن جشم بن جذام • ومنهم ظريف بن ثعلبة • ومنهم عبيد وهم بنو عبيد بن كعب ابن اعلى • ومنهم بنو صليغ وبنو الضبيب وبنو زيد وبنو سويد وبنو رذالة ويقال رذال من نبيح بن عبيد المذكور وهم اخوة بني حفيدة وصليع • ومنهم بنو شاكر بن الضبيب بن قرظ • ومنهم زهير ومالك

---

(١) ص ٢٦ ـ ٣٦ (٢) هذا الاسم في صبح الاعشى نائل •

(٣) لم يرد هذا الاسم في صبح الاعشى وفيه اسم بني محرمة بن زيد •

وأفضي • ومنهم عمرو وهو بن مالك بن الضبيب وبنو عمرو ابن سور ابن بكر • ومنهم عايذة وصبرة وجابر • وفي صبرة بنو جذام بن صبرة ابن نصرة • وكان من بني سويد الامير المقدم زين الدولة ظريف بن مكنون احد الكرام من كبراء الامراء الجذاميين بمصر • كان في مضيفته أيام الغلاء اثنا عشر الفا تأكل عنده كل يوم وكان يهشم الثريد في المراكب ومن اولاده فضل الله بن شمخ بن كمونة وابراهيم بن عالي • وكل منهما أمر بالبوق والعلم •

ومن جذام بنو كعب بن علي بن سعيد بن ابامة وهم فخذ من الضبيب عشيرة بني زيد وسويد ومية • ومن بني كعب بنو صليع وبنو مطرود ونغاثة ورذالة •

ومن جذام بنو كحيل ابن قرة بن موهوب بن عبيد بن مالك ابن سويد بن زيد بن ضبيب • وهم جماعة صلاح وطارق من قدامى جذام بالحوف [1] • ومساكن جذام بالحوف وراشد وهم في يمن ويجمعهم فخذان وعشيرة في جذام من بني سويد ثم من بني عقبة • فالتي في سويد ولد راشد بن وليد بن سويد • ومن بني راشد بنو حبة ابن راشد • ومنهم عروة بن تمام وماضي بن الغريب وبنو عامر بن راشد • ومنهم صخر بن عمارة وبنو حلمة من بني منيع احدى بني عامر • واما العشيرة ففي هلبا سويد بنو راشد بن هلبا بن مالك بن سويد • واما التي في بني عقبة فولد راشد بن عقبة احد بني محرية من بني مية من بني الضبيب • ومنهم بنو حميدة بن صالح بن رأشد عشيرة في عقبة منهم خوذر ابن حميدة وله عقب • ومن بطون الحميديين البراجسة والجواسنة واللعكوك واولاد غانم •

ومن جذام هلبا وهي هلبا سويد وهلبا بعجة • فهلبا بعجة هو ابو الفوارس هلبا بن بعجة بن زيد بن الضبيب • وهلبا سويد هو هلبا

(١) ناحية في مصر على ما ذكره المقريزي صراحة في مكان آخر يأتي بعد .

ابن مالك بن سويد بن زيد بن ضبيب • وبنو منظور والعبسة وبنو ثابت وبنو قبيصة وامراؤهم اولاد بقر بن نجم • ومن هلبا سويد بنو عمرو وفهم منهم اولاد شاس والعطوويون والحيمديون وانجابريون والعتاورة ويقال لهم اولاد طواح المكوس • وبنو عقبة وهم من جذام ينسبون الى عقبة بن عبيد بن مالك بن سويد بن زيد بن الضبيب • وهنالك من اوصل عقبة جذام بأياد بن نزار وجعلهم ناقلة من نزار الى جذام بن عبيس • والى هذا الفخذ يرجع كل عقبي ببلاد الشام وبحوف مصر وما بين ايله وحوف مصر • ولبني عقبة من غقبة ايله الى داما قريب غيونة •

والعايذ هم بطن من جذام ينسبون الى عايذ الله وقيل ينسبون الى عايذة احدى بطون جذام والعايذ من القاهرة الى عقبة ايلة •

وبنو رداد بن بعجة بن زيد من جذام • ومنهم بنو ذويب بن سنان المجرس وبنو دواد بن سنان وفيهم من يسكن الشام •

وبنو زيد مناة بن افضي من جذام ومنهم بنو كنانة وبنو روح وبنو كلب وبنو سعد •

وفي جذام خمس سعود • وهم سعد بن اياس بن حرام وسعد بن مالك بن زيد واليه ينسب اكثر السعديين • وسعد بن مالك بن حرام • وسعد بن ابامة بن غطفان وسعد بن مالك بن أفصى • والخمس اختلطت بمصر واكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كبير • ومسكنهم من منية غمر الى زفتيا • ومنهم الوزير شاور واليه ينسب بنو شاور كبار منية غمر • ومنهم بنو عبد الظاهر الموقعون ومنهم اهل برهمتوش • ومن هؤلاء بنو شاس • ومن سعد هذه بنو الضبيب وبنو زيد وبنو سويد وبنو مية وفي سويد بن زيد بنو قرة وبنو وليد وبنو صبرة بن نصرة وسطر اولاد سطر بن مالك • والى

بني صبرة درك لبركة الحجاج الى آخرها • ومن بني سعد بنو شاس وجوشن وعلان • وبنو قرة من قيس في هلال بن عامر • وهم بنو قرة ابن عمر بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال بن عامر •

وبعد هذا اخذ المقريزي يذكر شيئا من تاريخهم واحوالهم بالاضافة الى ما ذكره خلال السياق السابق • ومما قاله انه لما قدم الغز (عسكر الترك) صحبة اسد الدين شيركوه الى مصر — عم صلاح الدين الايوبي وقائد الحملة التي سيرها معه نور الدين زنكي سلطان الشام الى مصر بناء على استنجاد الخليفة الفاطمي العاضد — كان بارض مصر من العرب قبائل طلحة وجعفر وبلي وجهينة ولخم وجذام وعذرة وطي وسنبس وحنيفة ومخزوم وفي جرائد الدولة الفاطمية — يعني في كشوفها اوجداول جندها — منهم الوف وكانت جذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص وكانت لهم عدة اقطاعات منها هربيط وتل بسطة ونوب ورم وغير ذلك • وكان اقطاع ثعلبة جميعه في مناشير جذام وانما وسع السلطان صلاح الدين لثعلبة في بلاد جذام • وكانت فاقوس وما حولها لهلبا سويد وأمر جماعة منهم بالبوق والعلم • وممن أمر منهم ابو رشد ابن حبشي بن نجم بن ابراهيم من بني مالك بن سويد ، ودحية ونابت ابنا هاني بن حوط بن نجم بن ابراهيم • ولم تزل الامرة في نجم وبنيه • وكانت البرمون — ناحية في مصر — للحيادرة ولد حيدرة بن معروف ابن حبيب بن الوليد بن سويد ، وهم طائفة كبيرة ولبني عمارة بن الوليد بن سويد • وفيهم عدد • وممن أمر منهم معبد بن منازل • وأقطع يمني بن خشعم ولد مالك بن هلبا وأمر واقتنى عدة من المماليك الترك والروم وبلغ من الملك الصالح نجم الدين ايوب منزلة وارتفع قدره في سلطنة المعز ايبك وقدمه على عرب ديار مصر • ولم يزل على هذا حتى قتله غلمانه فاقام الملك المعز ابنيه سلمى ودغش عوضه وأمرا بالبوق والعلم • كذلك ممن أمر بالبوق والعلم مفرج بن سالم بن راضي من هلبا بعجة ومزروع بن نجم كذلك في جماعة كثيرة من جذام وثعلبة•

وخلف سالما على امرته ابنه حسان • ومن رجال جذام مهيا [1] بن علوان ابن علي بن زبير بن حبيب بن نائل من هلبا وكان جوادا كريما • طرقته ضيوف في الشتاء وليس عنده حطب فاوقد اجمالا من بر كانت عنده لطبخ طعامهم • وكان له كفر برسوط بنواحي مرصفا • وكان لبني رديني بن زياد بن حسين بن مسعود بن مالك بن سويد تل محمد • ومنهم اولاد جياش بن عمران • وكان للشواكرة اولاد شاكر بن راشد ابن عقبة بن محرية شنبارة بني خصيب • وكان اولاد العجار منهم ادلاء الحاج من ايام صلاح الدين • وحميدة بن صالح بن راشد بن عقبة ذوو عدد يعرفون به ومنهم فرقة بالحجاز من واصل بن عقبة • وكان لبني خليفة وحصن من بني عبيد موضع من حقوق هربيط يعرف بالاحرار • وكانت زهير منهم بالشام • وامتزج من كان بديار مصر منهم بولد زيد وهم بحرس الحوف الى ما يلي أشموم • وكانت قرارة بني سعد تل طنبول الى نوب طريف • ومنهم بدقدوس ودمريط وضواحي القاهرة الى اطراف الشرقية • وبالاسكندرية من جذام ولخم جماعة ذوو عدد وشجاعة واقدام • ولهم ايام معلومة واخبار معروفة ووقائع مشهورة •

٥ ــ بنو هلال [2] :

هم بنو هلال بن عامر بن صعصعه الذي يتصل الى مضر • وكانوا اهل بلاد الصعيد الى عيذاب • وبأخميم منهم بنو قرة • وبساقية قلته بنو عمرو • وفي بني هلال عدة بطون • منهم بنو رفاعة وبنو حجير وبنو عزيز وبأصفون واسنا بنو عقبة وبنو جميلة •

٦ ــ بلي [3] :

هذه القبيلة من قضاعة التي تصل الى حمير بن سبأ • وهي قبيلة

---

(١) هذا الاسم في صبح الاعشى مهنا وهو اصح على ما هو المتبادر ، ولعله في رسالة المقريزي مصحف .

(٢) ص ٣٦ (٣) ص ٣٦ ــ ٣٨

عظيمة ذات بطون كثيرة • وكانت ببلاد الشام فنادى رجل منهم بآل قضاعة فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عامل الشام ان يسير ثلث قضاعة الى مصر فنظر فاذا هذه القبيلة ثلث قضاعة فسيرت الى مصر • وكانت متفرقة بأرض مصر ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من جسر شوهاي غربا الى قريب غرب قمولة ومن الشرق من عقبة قاو الخراب الى عيذاب • وكان من بطون بلي في بلاد مصر بنو هني وبنو هرم وبنو سوادة وبنو خرافة وبنو رايس وبنو ناب وبنو شادن وكان بنو شادن هو الامراء وبنو عجيل بن الريب وهم العجلة وفيهم الامرة ايضا • وزعم بعضهم ان بني شاد من بني امية رحلوا حين طوردوا الى القصر الخراب المعروف بهم وكان معهم رجل من ثقيف معه قوس فسموه القوس وعرفت ذريته بالقوسية والقوسة ودعوتهم لبني شاد وهم بطوخ ايضا • ومنهم بنو حماد وبنو قصالة وهم بمنفلوط • وبنو حيار وهم بفرشوط • وزعم قوم ان بني شاد من بني العجيل بن الريب وانما هم اخوتهم • وزعم آخرون ان عجيل من ولد شمس بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي وليس كذلك •

٦ ــ جهينة [١] :

وهذه ايضا من قضاعة • وهي قبيلة عظيمة لها بطون كثيرة • وهي اكثر عرب الصعيد • وكانت مساكنهم في بلاد قريش فاخرجتها قريش بمساعدة عساكر الخلفاء الفاطميين ونزلوا في بلاد اخميم اعلاها واسفلها • وروي ان بلي وبطونها كانت بهذه الديار وجهينة بالاشمونين جيرانا بمصر كما هم بالحجاز فوقع بينهم واقع أدى الى دوام الفتنة • فلما خرج العسكر لانجاد قريش على جهينة خافت بلي فانهزمت الى أعلى الصعيد الى ان اديلت لقريش وملكت دار جهينة ثم حصل بينهم الصلح كما تقدم •

٧ ــ بطون قريش [١] :

---

(١) ص ٣٨ (٢) ص ٣٨ ــ ٥٠

كان في مصر على ما ذكر المقريزي في رسالته بطون عديدة من قبيلة قريش المضرية العدنانية •

آ ــ الجعافرة واماراتهم :

من هذه البطون الجعافرة • وهم بنو جعفر الطيار بن ابي طالب في الصعيد الاعلى • وقد اسهب في تفرعاتهم واحداثهم • ومما قاله ان منهم الزيانبة اولاد علي بن عبد الله بن جعفر • وقد سموا كذلك نسبة الى امهم زينب بنت علي • ومن الزيانبة العشيرة المعروفة باسم بني ثعلب الداودي الحجازي • وقد نزلت منهم عشيرة بحرجة مير من اعمال سيوط يعرفون بطلحة وجعفر ومنهم علاق وحامد ووديعة وابراهيم اولاد مسلم • ويجمع الجعافرة بطنان هما بنو عبد الله وبنو محمد • وفي بني محمد عدة بطون هم الخلصيون والصالحيون وبنو علي وبنو صالح وبنو قاسم وبنو ادريس وبنو شاكر وبنو عبد الله وبنو شعران • وبنو والي وبنو زيد وبنو ابراهيم اولاد الشريف الامير الكبير حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب من مسلم • وفي بني عبد الله الحسنات وهم اولاد احمد بن سعد الدولة من حسنة بن سلطان وبنو ابراهيم وبنو عيسى وبنو احمد وبنو يوسف وبنو سليمان وبنو حبيب وبنو ادريس وبنو مقبل وبنو حسين • ويتبع بني عبد الله من احلافهم عنزة وفزارة وبنو عثمان احد بطون بني امية وبنو خالد وبنو سلمة وبنو صاب وبنو عسكر وبنو ندا • وقيل ان بني ندا من بني جعفر • ومن احلاف بني محمد اولاد حسين والانصار ومزينة • ولجعفر بن ابراهيم عدة اولاد هم اسماعيل وداود ومحمد وعبد الله وموسى وعيسى ويوسف • وكان له سبط اسمه قاسم بن يعقوب • فمن قاسم هذا بنو ابراهيم • وقيل هم بنو ابراهيم من بني محمد • واما بنو ابراهيم من بني محمد • فانهم يرجعون الى ابراهيم بن علي بن عبد الله بن جعفر • والخلصيون هم ولد عيسى بن جعفر بن ابراهيم هذا • والصالحيون ولد صالح

ابن محمد بن جعفر بن ابراهيم كذلك • واما اولاد الشريف حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب فهم فخر الدين اسماعيل ونجم الدين علي وحسام الدين عبد الملك وفارس الدين عز العرب وقطب الدين حسام ـ الاسماء الاولى القاب تشريفية على ما هو المتبادر ـ فمن الامير فخر الدين اسماعيل جمال الدين مرا ومعين الدين محمد وشهاب الدين ابراهيم • ومن نجم الدين علي عزالدين قيصر ونصير الـدين قسور وتاج الشرف قيس وهمام الدين ابراهيم • ومن حسام الدين عبد الملك نور الدين حامد وشرف الدين عيسى • ومن فارس الـدين عز العرب سابق الدين موروود وناصر الدين صلاح وعلم الدين عزيز والشجاع كليب والشهاب احمد والجمال مرا والشرف جزي والفخر اسماعيل وسيف الدين سخطة الذي شنق على باب زويلة في سنـة ٥٦٢ ﻫ • ومن قطب الدين حسام شهاب الدين ثعلب وفكر الدين حامد وعماد الدين مسلم وزين الدين يعقوب ومعين الدين محمد وفخرالدين احمد • واما نصار بن حصن الدولة فلم يكن له غير ابنة واحدة • ومن مشاهير اولاد جمال الدين مرا بن فخرالدين اسماعيل الشريف شرف الدين عيسى • ومن ولد معين الدين محمد الامير حصن الدولة ثعلب الشريف العنجردي بن جعفر ومن اولاد الامـير الكبير نجم الـدين علي بن الامير فخر الدين اسماعيل بن حصن الدولة ثعلب امير الجعافرة ورئيس القوم الذي انف من سلطنة المماليك الاتراك وثار في سلطنـة المعز ايبك وكاتب الناصر يوسف بن العزيز صاحب دمشق وجمـع عربان مصر فخرجت اليه الاتراك وقبضوا عليه وسجنوه بالاسكندريـة حتى شنقه الظاهر بيبرص وقتل معه الامير جمال الدولة ابو علاق احمد ابن عبد الله وهو من بطن يقال لهم بنو داود وقيل ان بني داود هؤلاء ينتسبون الى داود بن يوسف بن جعفر او الى داود بن جعفر بن ابراهيم او داود بن محمد بن جعفر بن ابراهيم • وهم ثلاثة اثلاث ثلث لجعفربن سليمان بن جمال الدولة ابي علاق • وثلث للفارس همام الدولة وثلث

لزبالة وهم ينقسمون ايضا الى الكبر والصغر • فالكبر اولاد مسلم واولاد عمور واولاد سلمة واولاد الفارس همام الدولة • والصغر اولاد جعفر بن عز الدولة • ومن الجعافرة اولاد عز الدين علي وولده نصير الدين قتله ابنه شهاب الدين علي • ومنهم اولاد عز العرب وبنو ادريس النعم وبنو صالح بن محمد • وهم اخوال الشريف فخر الدين اسماعيل• ومنهم بنو علي وبنو زيد اولاد يوسف بن جعفر • وكان الشريف ثعلب صاحب ذروة سربام • وكانت مساكن الجعافرة من بحري منفلوط الى سملوط غربا وشرقا ولهم بلاد اخرى يسيرة •

وقد اوردنا معظم ما ذكره المقريزي عن الجعافرة لما فيه من طرافة وخطورة معا • فجميعهم كانوا اصحاب القاب تشريفية ومكانة مرموقة وعصبية واحلاف وكان منهم نشاط وحيوية • وكان كثير منهم يتلقب بلقب الامارة • والقائمة الطويلة من اسماء الآباء والابناء والاحفاد تدل على كثرتهم • وعلى الارجح ان كلاً منهم تفرع عنه ذرية كثرت ونمت بدورها حتى ملأت قرى المنطقة التي كانوا فيها وقصباتها •••

ب ــ ومنها في حرجة منفلوط قوم من بني الحسن بن علي •

ت ــ ومنها في سيوط طائفة من اولاد اسماعيل بن جعفر الصادق ابن محمد بن الباقر بن علي بن الحسين • ويعرفون باولاد الشريف قاسم •

ثم قال المؤلف وكانت بلاد الاشراف التي ينزلون بها هم ومواليهم واتباعهم واحلافهم من الاشمونين بحري اتليدم ومعظمهم بالذروة •

والغالب ان كلامه يشمل الارومتين الشريفتين •

ث ــ ومنها بالصعيد طائفة من بني طلحة بن عبد الله بن الزبير ابن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق • وهم فرقتان بنو اسحاق وبنو قصة • وهؤلاء بطون كثيرة مشتتون في البلاد ومنازلهم بالبرجين وطحا•

وكان معهم فرقة ثالثة وهي بنو محمد بن ولد محمد بن ابي بكر [1] •

ج ــ ومنها طائفة تنتسب الى عبد الله بن عمر بن الخطاب ويعرفون بالعمريين • وقال المقريزي ان الشريف محمد بن اسعد الجواني النسابة انكر نسبتهم وقال انه لقي جماعة منهم وعرفهم كذبهم •

ح ــ ومنها في بلاد البهنسا وما يليها جماعة من بني الزبير • منهم من ابناء عبد الله بن الزبير وهم بنو بدر وبنو مصلح وبنو رمضان • ومنهم من ابناء مصعب ويعرفون بجماعة محمد بن وراق • ومنهم من ابناء عروة وهم بنو غنى • وقد صار اكثرهم صاحب معايش واهل زرع وفلاحة وماشية وضرع •

خ ــ ومنها جماعة من بني مخزوم بلادهم متاخمة لمن تقدم ذكرهم • وهم يزعمون انهم من ولد خالد بن الوليد مع ان علماء الانساب متفقون على انقراض عقب خالد • ولعلهم من بني مخزوم • وهم اكثر قريش بقية وفيهم بأس ونجدة •

د ــ ومنها جماعة من بني شيبة ويعرفون بجماعة نهار وديارهم بنواحي سفط •

ذ ــ ومنها جماعات من بني امية • منهم ولد ابان بن عثمان • وولد خالد بن يزيد بن معاوية • وبنو مسلمة بن عبد الملك وبنو حبيب ابن الوليد • وديارهم تنده وما حولها • ومنهم المروانية اولاد مروان ابن الحكم • ومرت الدولة الفاطمية وهم بمكانهم لم يروع لهم سرب ولم يكدر لهم شرب •

ر ــ ومنها جماعة من بني سهم • منهم ولد عمرو بن العاص وكانوا بفسطاط مصر • وفرق منهم اشتات بالصعيد • ولهم حصة

---

(١) في الجزء الاول من تاريخ الجبرتي ص ٢٢٥ خبر وفاة الشيخ الاجل المعظم سيدي محمد بكري بن احمد مسلسلا الى نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق شيخ السجادة بمصر . وهذا يعني ان هذه الارومة تحضرت وغدا رجالها من اعيان البلاد الحضريين ، ولا شك في ان هذا مثل من آلاف الامثال المماثلة .

من وقف عمرو على اهله بفسطاط مصر • وكانت دور بني سهم حول جامع عمر بالفسطاط الى ان دثرت • ثم قال المقريزي ان الزبير بن بكار ذكر ان بمصر جماعة من ولد عطا بن قيس بن عيد قيس بن علي بن سعيد ابن سهم •

٨ ـ ربيعة واماراتهم [١] :

كان بصعيد مصر اولاد الكنز • واصلهم من ربيعة التي يصل نسبها الى نزار بن معد بن عدنان • وكانت ربيعة ينزلون اليمامة ، ثم قدموا الى مصر في خلافة المتوكل على الله ـ العباسي ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ في عدد كثير وانتشروا في النواحي ونزل طائفة منهم باعالي الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها • وكانت البجة جماعة من سكان السودان تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى اخربوها فقامت ربيعة بمنعهم حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاقي فكثرت اموالهم واتسعت احوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا قرية تعرف بالنمامس وحفروا بها آبارا • ورأس عليهم اسحق بن بشرمدة • وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة ، فملكوها عند قدومهم من اليمامة فجرى بينهم وبين بني بشر حروب انهزموا فيها ومضوا من عيذاب الى الحجاز • ثم وقعت بين بني بشر حروب قتل فيها بشر فاحضروا اليهم من بلبيس الشيخ ابا عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يوسف المعروف بابي يزيد وهو ابن عم بشر فنزل اسوان وانشأ مكانه المعروف بساقية شعبان ولم يزل رئيسا على ربيعة حتى مات فقام برئاستهم بعده ابنه ابو المكارم هبة الله الذي يعرف بالاهوج المطاع • وهو الذي ظفر بابي ركوة الخارج على الحاكم بامر الله وقبض عليه فاكرمه الحاكم اكراما عظيما ولقبه كنز الدولة • وهو اول من لقب بذلك منهم ولم تزل الامارة فيهم وكلهم

---

(١) ص ٤٨ ـ ٥٠

يعرفون بكنز الدولة وكان آخرهم الذي قتله الملك العادل ابو بكر بن ايوب في صفر عام ٥٧٠ ﻫ عندما خالف على السلطان صلاح الدين يوسف، ابن ايوب وجمع لحربه وقتل اخاه ابا الهيجا السمين ودعا للامير داود ابن العاضد وكان قتله عند مدينة طود بعد حروب شديدة .

ومن المؤسف ان المؤرخين لم يمدونا بشيء مهم عن نشاط واخبار هؤلاء الامراء الذين تدل هذه البادرة منهم على ما كانوا عليه من قوة ونشاط وعلى ما كان لهم من تمكن وسلطان وعصبية (١) .

٩ ــ كنانة (٢) :

وكان بمصر جماعة من قبيلة كنانة التي يتصل نسبها الى مضر ثم الى عدنا . وهم بنو الليث وبنو ضمرة ابنا بكر بن عبد مناة وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة . وعندما قدموا من بادية الحجاز حاولوا النزول في بلاد قريش ــ المقصود بطون قريش على ماهو المتبادر ــ فلم تمكنهم الا بمراسلة بني ابراهيم بن محمد الذين مر ذكرهم من امراء الجعافرة . وكان معهم جماعة من اخلاط العرب دخلت في كنفهم . وبنو الليث منهم هم سكان ساقية قلتة وباقيهم فيما يليها .

١٠ ــ الاوس والخزرج (٣) :

وفي مصر جماعة من الاوس والخزرج من قبيلة الازد القحطانية . منهم بنو محمد من ولد حسان بن ثابت الخزرجي وديارهم بحري منفلوط . ومنهم بنو عكرمة وينتسبون الى سعد بن معاذ سيد الاوس وهم في نفس الديار .

١١ ــ عوف (٤) :

في الفيوم والبحيرة وبلاد الصعيد جماعات من قبيلة عوف التي

---

(١) ذكر نعوم شقير في كتابه تاريخ السودان القديم وجغرافيته ج ٢ ص ٥٢ ان اولاد كنز الدولة غلبوا على النوبة وملكوها وبنوا بدنقلة جامعا يأوى اليه الغرباء ....

(٢) ص ٥٠ ــ ٥١ (٣) ص ٥١ ــ ٥٢ (٤) ص ٥٢

تنتسب الى قيس عيلان ثم الى مضر • وفي برقة الى بلاد المغرب منهم امم لا تحصى كثرة •

١٢ ـ فزارة قيس :

في صعيد مصر وضواحي القاهرة في قليوب وما حولها جماعات من فزارة التي تنتسب الى قيس عيلان ثم الى مضر • وبهم عرفت البلدة المسماة فزارة [1] • ومنهم بنو نفاية وفيهم اعيان ودارهم اطراف الشرقية [2] •

١٣ ـ لواثة وهوارة واماراتهم [3] :

هاتان القبيلتان اللتان لهما فروع كثيرة في مصر مختلف في اصلها على ما ذكره القلقشندي اولا وذكره المقريزي في رسالته • فلواثة تزعم انها من قيس عيلان من ابن له اسمه بربر وقيل من ابن لمعد بن عدنان اسمه بربر • وهوارة تنتسب الى حمير الاصغر بن سبأ الاصغر او الى حمير الاكبر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان • وقد ذكر المقريزي الذي ذكر هذا اقوالا عديدة عن اصول اخرى لهاتين القبيلتين لم نر طائلا من ايرادها لانهما على ما ذكرناه في المناسبة السابقة منطبعتان بالطابع العربي الشامل في مصر •

ومما قاله المقريزي في صدد لواثة انها بطون عديدة منها بنو بلار وبنو مجدول وبنو حديدي وقطوفة وبركين ومالو ومزورة • وسياق كلام المقريزي يفيد ان هذه البطون هي بطون لواثة في مصر ، وقد قال ان بني حديدي مجمع اولاد قريش واولاد زعازع وهم اشهر من في الصعيد • واما قطوفة فانها تجمع مغاغة وواهلة • واما بركين فانها تجمع بني زيد وبني روحين • واما مزورة فانها تجمع بني ثكان وبني عرواس • وعبارة « تجمع » تفيد الفرق التي تنتسب الى بطن من البطون

---

(١) ص ٥٢ ـ ٥٣

(٢) ص ٥٢

(٣) ص ٥٣ ـ ٦٠

على ما يستفاد من كلامه عهد بني بلار حيث قال انهم فرقتان فرقة بالبهنساوية واخرى بالجيزة ، ومن الفرقة الاولى بنو محمد وبنو علي وبنو نزار ونصف بني شهلان • ومن الفرقة الثانية بنو مجدول وسقارة وبنو ابي كثير وبنو الجلاس ونصف بني شهلان•ويقال للفرقةالبهنساوية البلارية وللفرقة الجيزية حد وخاص • ولمغاغة سملوط الى الساقية ولبني بركين اقلوسنا وما معها الى بحري طنبدي • ولبني حد وخاص الكفور وسفط وجرجه واهريت • وبنو محمد وبنو علي امراؤهم من بني زعازع • وفرق مزورة بنو وركان وبنو غراس وبنو جماز وبنو الحكم وبنو الوليد وبنو الحجاج وبنو المحرسة • ويقال ان بني الحجاج من بني الحماس ولهذا كانوا يؤدون معهم القطايع • وبنو نزار في امارة بني زعازع وهم من بني ذربة • ومنهم نصف عامروالحماسنةوالضباعنة• وافرد قوم منهم لامارة تاج الملك عزيز بن ضبعان ثم ولده • ومنهم بنو زيد وامراؤهم اولاد قريش ومساكنهم نويرة دلاص • وكان قريش عبدا صالحا كثير الصدقة وهو ولد سعد الملك •

وفي المنوفية من لواثة بنو يحيى والوسوه وعبدة ومصلة وبنو مختار • ومعهم في البلاد احلاف من مزاته وزارة وهوارة وبني الشعرية في اقوام آخرين • ومن زنارة مزديش وبنو صالح وبنو مسام وزمران وورديغة وعرمان ولقان •

ومما قاله المقريزي في صدد هوارة ان اصل ديارهم من آخر عمل سرت الى طرابلس • ثم قدم منهم طوائف الى ارض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان • ومنهم جماعات ببلاد الصعيد انزلهم فيها الظاهر برقوق بعد واقعة بدر بن سلام هناك سنة ٧٨٢ هـ وذلك انه اقطع اسماعيل بن مازن منهم ناحية جرجا وكانت خرابا فعمرها واقام بها حتى قتله علي بن غريب فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهواري حتى مات فولى بعده ابنه محمد المعروف بابي السنون وفخم امره وكثرت امواله حيث اكثر من زراعة النواحي واقام دواليب السكر واعتصارهحتى

مات فولى بعده اخوه يوسف •

١٤ ــ لخم (١) :

في صعيد مصر جماعات من قبيلة لخم التي يصل نسبها الى كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان • وهم بطون كثيرة منها بـالبر الشرقي من ارض مصر بنو سماك وبنو مر وبنو مليح وبنو نبهـان وبنو عبس وبنو كريم وديارهم من طاف بيا الى منحدر دير الجميزة في البر الشرقي • ومنهم حدان ومنهم بنومحمد وبنو علي وبنو سالم وبنو مدلج وبنو رعيس وديارهم من دير الجميزة الى ترعة صول •

ومنهم بنو راشد ومنهم وبنو معمر وبنو واصل وبنو رامز وبنو حيان وبنو معاذ وبنو النيص وبنو حجرة وبنو اشتوة • وديارهم من مسجد موسى الى اسكر ونصف بلاد اطفيح • ولبني النيص الحي الصغير ولبني اشتوة من ترعة الشريف الى معصرة بوش • ومنهم بنو جعـد ومنهم بنو مسعود وبنو جرير وبنو زبير ثمال وبنو نصار ومسكنهم ساحل اطفيح • ومنهم بنو عدي ومنهم بنو موسى وبنو محرب ومساكنهم بني بني جعد • ومنهم بنو بحر ومنهم بنو سهل وبنو معطار وبنو فخم وبنو عشير وبنو مسند وبنو سباع ومسكنهم الحي الكبير • ومنهم قسيس ومسكنهم بلاد اسكر • ومنهم بنو غنيم ولهم العدوية وديـر الطين الى جسر مصر • ومنهم بنو عمرو ولهم نصف حلوان • ومنهم بنو حجرة ولهم النصف الآخر من حلوان ونصف طرا •

١٥ ــ بنو عذر (٢) :

في طينة تنيس جماعة من بني عذر الذين ينسبون الى همـدان اليمن •

١٦ ــ حرام (٣) :

مع ان المقريزي قال ان حرام احدى بطني جذام الا انه ذكرهـا

---

(١) ص ٦٠ ــ ٦٢

(٢) ص ٦٢ (٣) ص ٦٢ ــ ٦٣

منفصلة وقال في صددها انها افخاذ وعشائر عديدة وقليل في عرب مصر من يعرفها • منهم صبرة بن مضرة بن غطفان • واليهم درك بركةالحجاج• وقد قال المقريزي بعد هـذا ان من بطون الخزرج جماعة تعرف ببني حرام بن كعب بن غنم بن سلمة منهم جابر بن عبد الله الانصاري ويقال ان الجماعة التي تعرف ببني حرام في مصر هي هذه • والظاهر ان هـذا ما جعله يعقد لهم نبذة خاصة •

١٧ ــ بنو عذرة [١] :

في الدقهلية قوم ينسبون الى قريش وهم نفر من بني عذرة من كنانة وهم في الحقيقة من كنانة تتفرع من قضاعة وليسوا من كنانة بن خزيمة احد اجداد قريش • ومن بطونهم بنو شهاب وبنو زيدةوالرواشدة ــ وهم غير رواشدة هلبا سويد ــ وبنو عصا وبنو محمد وبنو سنان وبنو جمرة وبنو فراس وهم يمنية محمود ومنية عدلان ، وبنو لام ــ وليسوا بلام الحجاز ــ وبنو شمس والفضليون وقرارتهم كوم الثعالب •

١٨ ــ زمر عربية اخرى في الدقهلية [٢] :

جمع المقريزي في نبذة واحدة زمرا عديدة قال انها بالدقهلية ايضا منها قوم يدعون الحماسة ، ومنها طوائف من عمرو وزهير ، ومنها الحصينيون ورذالة والاحامدة ــ وليسوا باحامدة هلبا ــ وبنو جماز وبعضهم اصحاب اقطاع • ومن بطون زهير بنو عزيز وبنو شبيب عبد الرحمن وبنو مالك وبنو عبيد وبنو عبد القوي وبنو شاكر وبنو حسن وبنو شما •

١٩ ــ بنو سليم [٣] :

هذه القبيلة من القبائل التي تنتسب الى قيس عيلان ثم الى مضر •

---

(١) ص ٦٣ ــ ٦٤ (٢) ص ٦٣ ــ ٦٤
(٣) ص ٦٤ ــ ٦٨

وقد جاءت مع عدة قبائل من قيس الى ارض مصر سنة تسع ومئة في ولاية الوليد بن رفاعة ولم يكن بارض مصر أحد من قيس قبل ذلك الا من كان من فهم وعدوان الذين هم من قيس عيلان • وقد جاء عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر الى هشام وسأله ان ينقل اليها من قيس ابياتا فاذن له بالحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ان لا ينزلوا بالفسطاط فقدم بهم العامل واسمه عبيد الله بن الحبحاب ـ وانزلهم الحوف الشرقي وفرقهم فيه • وروى المقريزي في سياق ذلك ان الهيثم بن عدي قال ان ابن الحبحاب قال ما ارى لقيس حظا فيها الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان فكتب الى هشام بذلك وقال له ان في مصر كورا ليس فيها احد وليس يضر اهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا وهي بلبيس فأذن له هشام فبعث الى البادية فقدم عليه مئة اهل بيت من بني نصر بن معاوية ابن بكر بن هوازن ومئة اهل بيت من بني عامر بن صعصعة بن عاوية ابن بكر بن هوازن ومئة اهل بيت من هوازن بن منصور بن عكومة بن خصفة بن قيس عيلان فانزلهم بنبيس وامرهم بالزرعة وصرف اليهم العشور فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم فكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير واكثر ثم امرهم باشتراء الخيول فجعل الذي يشتري المهر لا يمكث الا شهرا حتى يركب وليس عليهم مؤونة في اعلاف ابلهم ولا خيلهم لجودة مراعيهم فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل اليهم خمسمائة اهل بيت من البادية ثم اتاهم بعد سنة نحو الف وخمسمائة اهل بيت من قيس حتى اذا كان زمن خلافة مروان بن محمد وولاية الحوثرة بن سهيل الباهلي لمصر اشالت اليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف اهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم فاحصوا في ولاية محمد بن سعيد فوجدوا حمسة آلاف ومايتين ما بين صغير وكبير •

والسياق طريف وذو دلالة خطيرة بقطع النظر عن تناقض الرقم الاخير معه لان المقتضى ان يكون العدد اكثر بكثير من (٥٢٠٠) نسمة

بين كبير وصغير ما دام عددهم عند موت مروان ثلاثة آلاف اهل بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية قادمون آخرون .

والسياق ينطوي على صورة من صور التسرب العربي الى مصر منذ عهد مبكر اولا وعلى ان بعض انحاء مصر كانت خالية او شبه خالية من السكان فملأها العرب القادمون . وهذا يلحظ في سياق اخبار قبائل عديدة اخرى شغلت امكنة شاسعة وأنشأت قرى كثيرة في الوجهين البحري والقبلي على ما مر شرحه ولم يكن هذا ممكنا لو لم تكن الانحاء التي نزلوا فيها خالية او شبه خالية .

وفي السياق اشارة الى قدوم بطني فهم وعدوان من قيس عيلان في القرن الاول للهجرة وهو ما لم يذكر من قبل ، ومن المحتمل ان يكون هؤلاء من الذين اندمجوا في حياة القرى والمدن ولم يبقوا على تكتلهم ونسوا اصل ارومتهم ونسبتهم .

والكلام السابق كلام عام عن قبائل قيس التي منهم قبيلة بني سليم . وقد رجع المقريزي بعده الى موضوع بني سليم فقال ان قبيلة بني سليم تتفرع الى بطون وافخاذ وعشائر مثل بني زكوان وهلال وعوف والحارث ورفاعة وعصية وظفر وعميرة وبهز وغيرهم . ومساكن سليم هذه ببرقة مما يلي مصر ، وكانت مساكنهم في عالية نجد بالقرب من خيبر ثم تحولوا الى مصر وافريقية ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم وصار لهم بافريقية عدد عظيم . ومن بني سليم بنو هبيب ابن بهثة وهم ما بين السدرة من برقة الى حدود الاسكندرية ومنهم بنو احمد باجدابيه ولهم عدد . ومن بني هبيب سبال ومحارب ورئاستهما في بني عزاز . وكان لبني هبيب عزة لاستيلائها على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لاشياخهم وتحت ايديهم خلق من البربر وفيهم الابطال الانجاد . والامرة فيهم في اولاد عزاز بن مقدم . ومنهم مزيد بن عزاز وكان جليل القدر معظما في الدولة . ومنهم بنو زائد وحمدان وزيان وكلهم كرام . ومنهم ابو خالد عطا الله بن عمر بن عزاز وكان كريما مطاعا في قومه .

ومنهم بنو معز وعمر • ومنهم علوي ابن ابراهيم بن عزاز وسلطان بن زبان بن عزاز وعمر بن مشعل بن عزاز وجماعة بن مليح المنصوري أصحاب غازي ابن نجم وعليان بن عريف ويلبوش • وكان الاخير قد هرب من الملك الظاهر بيبرص فاشهر جيشا وراءه فقاتلوه واخذوه اسيرا فاعتقله مدة ثم افرج عنه • وهو والد زيد • ومنهم جماعة سعيد بن العريب بن الاحمر وجماعة محمد الهواري • وكانت الامرة على عربان البحيرة في الايام الناصرية محمد بن قلاوون فيهم • وهي لفايد بن مقدم وخالد بن ابي سليمان • وكانا اميرين سيدين ذوي كرم وأمن وشجاعة•

والسياق يفيد ان اكثر بني سليم توجهوا الى المغرب (١) ، وان قسما قليلا منهم تخلف في مصر ، وقسما آخر أقام فيما بين برقة والاسكندرية وان برقة التي كانت في نطاق سلطان مصر اذ ذاك ــ القرن الثامن الهجري ــ كانت تحت حكم مشايخهم المحلي ، وان من الذين بقوا في مصر من كان في منطقة البحيرة وكانت الامارة على عربان هذه المنطقة لرؤساء منهم •

هذا ، ولقد اعقب المقريزي الكلام عن بني سليم بسياق آخر بدون عنوان (٢) لا تبدو صلة بين ما جاء فيه وبين بني سليم احتوى اسماء عدد من الارومات العربية الضاربة فيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى وهي جماعة فائد وزنارة وخفاجة وهوارة وسماك ولبيد جماعة سلام وفزارة ومحارب وقطاب والزعافنة وبشر والجواشنة والبعاجنة والقبايص واولاد سلمان والقصاص والعلاونة ومنازلهم من العقبة الكبيرة الى سوسة • ثم جماعة جعفر بن عمر وهم المثانية والياسة وعرعرة والعظمة والعكمة والمزايل والمعزة • ومن المعزة الجعافرة جماعة بن عمر • ومنهم البداري ايضا • ومنهم السهاونة والجلدة واولاد احمد ومنازلهم من

---

(١) لم يذكر المقريزي اسباب توجههم وظروفه وقد ذكره ابن خلدون واوردناه عنه قبل.
(٢) ص ٦٨ - ٦٩

سوسة الى بير السدرة وهي آخر حدود ديـار مصـر ومسافتها من الاسكندرية نحو شهر بسير القوافل •

وقد قال بعد هذا [١] • واما طريق مكة شرفها الله فانها من القاهرة الى عقبة ايلة للعايذ [٢] ومن العقبة الى داما بالقرب من عينونة لبني عقبة ومن داما الى اكرى لبلي ومن اكرى الى تما وهي آخر الوعرات لجهينة • ومن تما الى نهاية بدر على الفرما والى نهاية الصفراء على نقب علي لبني حسن اصحاب ينبع ويليهم من اقاربهم من بني حسن اصحاب بدر الى رملة عالج في طرف قاع البزوة ومن الصفراء الـى الجحفة ورابغ لزبيد الحجاز ومن الجحفة على قديد وما حولها الى عقبة السويق لسليم ومن عقبة السويق الى خليص الى عسفان للشريف جسار من بني حسن ومن ثنية عسفان الى المحاطب لبني جابر وهم في طـاعة صاحب مكة ومن المحاطب الى مكة لبني حسن •

وقد قال بعد هذا [٣] • وفي برقة احياء لبني جعفر • وكان شيخهم ابا زيب واخاه حامد بن كميل • وهم ينتسبون في العرب تارة في بني كعب بن سليم وتارة في فزارة والصحيح انهم من بطن مسراته احدى بطون هوارة • وفيما بين برقة والعقبة اولاد سلام • وفيما بين العقبـة الكبيرة والاسكندرية اولاد مقدم • وهم بطنان اولاد التركية واولاد فائد مقدم سلام معا • وهم ينتسبون الى لبيد بن علي بن هبة بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة • وهم ثلاثة اخوة لبيد وحديد وزبيد بنو علي بن هبة • ومن حديد محارب • ويقال ان اولاد مقدم من ربيعة بن نزار • وقيل لبيد من سليم • ومنهم هيب ورواحة وفزارة وهؤلاء يقال انهم من غطفان والله اعلم بالصواب •

---

(١) ص ٦٩ – ٧٠

(٢) المقصود على ما هو المتبادر مهمة حفظ الطريق ودركها .

(١) ص ٧٠

وهذه نهاية رسالة المقريزي التي ذيلها مؤلفها باسمه وتاريخ ذي القعدة ٨٤١ هـ ٠

ومهما يكن من اضطراب وتكرار وثغرات في هذه الرسالة فواضح انها مهمة جدا بما احتوته كما قلنا من بيانات وافية عن سعة انتشار الارومات العربية ونشاطها وحيويتها في مصر منذ الفتح الاسلامي الى القرن التاسع الهجري ، وفي ثنايا سياقه اشارات لا تكاد تحصى الى اندماج الاعداد الكبيرة من الارومات العربية في حياة المدن والقرى وامتلاكها الارضين واشتغالها بالزراعة والتجارة ٠

صور متنوعة في القرون الثامن والتاسع والعاشر مقتبسة من تاريخ ابن اياس

— ٧ —

ولقد احتوى كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن ايـاس من رجال القرن العاشر صورا عديدة ومتنوعة من حركات ونشاط الارومات العربية في مختلف انحاء القطر المصري في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجرية في المجال القبيلي والسياسي والحربي نقتبس منه ما يلي :

١ ــ في سنة ٧٥٤ هـ عصي العربان في بلاد الصعيد بزعامة شيخ قبيلة عرك واجتمع عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء . ومع ان السلطان ارسل حملة للتنكيل بهم فانه منح زعيمهم ابن الاحدب الامان واقره شيخا على عشيرته كما كان لتفادي تفاقم الخطب (١) .

٢ ــ في سنة ٧٨١ هـ جاء الى دمنهور جماعة من العرب يقدرون بخمسة آلاف بزعامة بدر بن سلام فكبسوها ونهبوا اسواقها وبيوتها وقراها ولم تظفر بهم السلطات الا بمكيدة ووشاية (٢) .

٣ ــ في سنة ٧٨٢ هـ تحالف عربان البحيرة على العصيان ونهبوا البلاد فخرجت اليهم قوة فكسروها ثم خرج نائب الاسكندرية ومعه عربان الغربية فكسروهم والجأوا معظم هؤلاء العربان الى الفرار

(١) ج ١ ص ٢٠٠ من المحتمل ان تكون كلمة عرك محرفة .

(٢) الجزء نفسه ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠

نحو برقة [1] .

٤ — في سنة ٨٠٣ هـ جهز السلطان حملة لصد تيمورلنك انضم اليها ستة آلاف فارس من عربان البحيرة وحضر شيخ عرب الشرقية ابن بقر وصحبته ٢٥٠٠ فارس شيخ بني وائل وصحبته ١٥٠٠ فارس [2] .

٥ — في سنة ٨٧٦ هـ اشتدت حركات عربان الشرقية حتى تعطلت الاسفار من كثرة العدوان والنهب والقتل [3] .

٦ — في نفس السنة هاجم بنو وائل وبنو حرام من عربان الشرقية القاهرة حتى وصلوا الى رأس خط الحسينية ونهبوا الدكاكين وشلحوا النـــاس [4] .

٧ — في سنة ٨٧٩ هـ هجم عربان غزالة على ضواحي الجيزة ونهبوا خيول المماليك واطلقوا من في السجون ورجعوا من حيث أتوا [5] .

٨ — في سنة ٨٨٠ هـ تحرك عربان الشرقية بزعامة مهنا بن عطيـــة فاعيا الامراء والكشاف ومشايخ العرب ولم يقدروا عليه ولم ير السلطان مناصا من منحه الامان والخلع حتى هدأت حركته [6] .

٩ — في سنة ٨٧٢ هـ تحالف العربان على الخروج في البحيرة واخذوا ينهبون البلاد فارسلت تجريدة عليهم وتجريدة اخرى على الوجه القبلي بسبب اولاد ابن عمر . ثم خلع السلطان على شيخ العرب صقر وقرره على مشيخة عربان البحيرة وعزل كاشفها تهدئة للاضطراب في هـــذه النـــاحية [7] .

١٠ — في سنة ٨٨١ هـ تحركت عربان هوارة بزعامة زعمائهم بني عمر وكانت حركتهم مزعجة . وسيرت عليهم الحملات مرة بعد اخرى

---

(١) ج ١ ص ٢٥٤ (٢) ج ١ ص ٣٣١

(٣) ج ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥ (٤) نفس الجزء والصحف .

(٥) ج ٢ ص ١٥٦ (٦) ص ١٦٢ (٧) ج ٢ ص ٩٦

فكانوا يهزمونها ولم تهدأ حركتهم الا بعد عناء كبير [1] .

١١ ـ في سنة ٨٧٥ هـ عزل السلطان عيسى بن بقر شيخ عربان الشرقية وحبسه لكثرة تمرده وخلع على الشيخ صقر بن بقر وعينه في المشيخة عوضا عنه [2] .

١٢ ـ في السنة نفسها قبض السلطان على بعض اعيان عربان الشرقيةوبعض بني سعد وبني حرام لكثرة شغبهم وامر بقتلهم فلما بلغ الخبر عربانهم اعلنوا العصيان واخذوا يفسدون في البلاد وارسل السلطان قوة لقمع العصيان فعادت بدون طائل [3] .

١٣ ـ في سنة ٨٨٣ هـ خلع السلطان علي محمد بن عجلان واعاده الى مشيخة العرب في الشرقية وكان له عشر سنين في برج القلعة [4] .

١٤ ـ في سنة ٨٩١ هـ امر السلطان بتوسيط عزوز امير هوارة وجماعة من اقاربه بسبب ما كان منهم من حركات تمردية [5] .

١٥ ـ في سنة ٩٠٢ هـ امتنع الناس عن السفر الى الشرقية والغربية لتزايد فساد العرب في الطرقات [6] .

١٦ ـ في سنة ٩٠٣ هـ قامت فتنة كبيرة بين حميد بنعمر امير هوارة وقريبه ابراهيم . واخرى بين بني حرام وبني وائل [7] .

١٧ ـ في نفس السنة مر الامير اقبردي بالشرقية فهاجمه عربان بني حرام ورجموه وسبوه وكادوا يقتلونه ولم يخلص من يدهم الا بمشقة كبيرة [8] . .

١٨ ـ في سنة ٩٢٣ هـ ثار عربان بني عطية والنعائم ونهبوا ضياع الشرقية واخذوا غنم السلطان والداودار ودخلوا حدود العباسية [9] .

---

(١) ج ٢ ص ١٦٦ (٢) ص ١٢٧
(٣) ص ١٢٩ (٤) ص ١٨٤
(٥) ج ٢ ص ٢٤٠ وتوسيط بمعنى قتل (٦) ص ٣١٢
(٧) ص ٣٢٢ (٨) ص ٣٣٠ (٩) ج ٣ ص ٥٣

١٩ ــ في سنة ٨٨٢ هـ تحالفت قبائل البحيرة واعلنت تمردها . وفي نفس الوقت عادت هوارة الى التمرد [١] .

٢٠ ــ في سنة ٩٠٤ تمرد عربان غزالة في البحيرة بزعامة الحويلي ومرعي واعلنوا الامتناع عن دفع الخراج . وقد سيرت عليهم حملة فكسروها ونهبوها واستمرت حركتهم طويلا . ولم تهدأ الا بخروج السلطان بنفسه على رأس حملة قوية [٢] .

٢١ ــ حينما اعتزم الملك الغوري على الخروج على رأس حملة الى لقاء السلطان سليم العثماني دعا مشايخ العرب في الشرقية والغربية والصعيد وطلب منهم تهيئة عشرين الف خيال لمصاحبة الحملة . وقد خشي الأمراء ــ امراء الجند ــ مغبة اشتراك عدد كبير مثل هذا من العربان في الحملة فحملوا الغوري على صرف النظر عن ذلك [٣] .

ولقد تكرر هذا في احداث سابقة حيث ذكر ابن اياس مرات عديدة ان الملوك كانوا يرغبون في ضم كتائب من فرسان العرب الى حملاتهم دون ذكر قبائل ومشايخ مما جعلنا لا نورده فكان امراء الجند يصرفونهم عن ذلك لئلا يبطروا ويفسدوا الامر الذي له دلالة خطيرة على ما كان عليه العرب من قوة .

٢٢ ــ حضر الى الابواب الشريفة حينما زحف السلطان سليم العثماني نحو مصر سنة ٩٢٣ هـ بعد معركة دابق التي كان له النصر فيها جماعة من طوائف العربان من غزالة ومحارب وهوارة وكان السلطان طومانباي قد الزم مشايخ العربان بان يأتوا وصحبتهم جماعة من اشجع الفرسان حتى يتوجهوا صحبة التجريدة فلما حضروا نزلوا بالجيزة واجتمع بها الجمع الغفير من العربان ثم دخلوا الرميلة ونزلوا بها حتى يستعرضهم السلطان . وقد انحط امر الترك عند العرب والفلاحين بسبب

---

(١) ج ٣ ص ١٧١
(٢) ص ٣٤٦ و ٣٥٧
(٣) ج ٣ ص ١٥ ــ ٢٥

الكسرات التي مني بها العسكر وتملك ابن عثمان بلاد الشام • ومع ذلك فقد اقنع امراء الجند ثانية السلطان بضرر استصحابه فرسان العرب في التجريدة (١) •

٢٣ ـ حينما وردت اخبار انكسار الغوري اعلن عربان الشرقية بنو عطية بزعامة الامير احمد بن بقر شيخ مشايخ الشرقية تمردهم وامتناعهم عن الخراج واخذوا ينهبون السابلة والضياع (٢) •

٢٤ ـ كان مشايخ العرب يتولون جباية الضرائب على طريقة الاقطاع والالتزام ونتيجة لهذا كان السلطان المحلي في القبائل لهم على ما يستفاد من خبر اورده المؤلف فحواه ان طومانباي شكى من سوء حالة الخزينة وقال فيما قال ان مشايخ العربان لم يرسلوا الاقساط التي عليهم .• والمتبادر ان هذه الطريقة كانت جارية في الزمن السابق لسلطنة طومانباي • وقد ذكر المؤلف فيما ذكره وفيه ما يدعم ذلك ان السلطان الغوري كان يوكل الكشاف ـ مديري الاقاليم الترك ـ ومشايخ العربان بجمع الاموال المستحقة وايرادات الاوقاف وكان المشايخ يأخذون من الناس اضعاف المستحق عليهم (٣) •

وهذه صورة مهمة في صدد ما كان لمشايخ العربان من حيز وتمكن وعصبية •

٢٥ ـ لما علم السلطان سليم العثماني بتمرد الامير احمد بن بقر شيخ مشايخ الشرقية على طومانباي ارسل يستدعيه الى غزة حيث كان في طريق الزحف على مصر فسارع هذا الى غزة مع جماعة من فرسانه واندمج في حركة الزحف •

ولما استولى السلطان العثماني على مصر خلع على الامير وولده بيبرص وجعل لهما النظر على جهات الشرقية وأمنها • ولقد كان ابن آخر للامير احمد اسمه عبد الدائم مندمجا في حركة التمرد على طومانباي

---

(١) ج ٣ ص ٨٨ ـ ٩٠ (٢) ص ٥٣ ـ ٥٤ (٣) ص٦٠و٩٠

ولكنه لم يذهب مع ابيه الى غزة فلما تم الفتح جاء الى نائب السلطان خير بك عارضا ولاءه فخلع عليه بدوره • وقد نزل من القلعة بعد ذلك في موكب حافل وامامه الاعلام • وكان صاحب اسم مخيف في اثناء حكم الغوري وطومانباي (آخر الملوك الشراكسة) بسبب ما كان من بطشه وحركاته التي ملأ بها يديه بغنائم لا تحصى من اموال المعسكرات والتجار اثناء فترة الارتباك [١] •

٢٦ ــ ولقد استطاع طومانباي ان يكر على العثمانيين عقب دخولهم مصر بقيادة السلطان سليم على ما ذكره ابن اياس ويزلزلهم فسارع العربان الى مهاجمة معسكراتهم ونهبها [٢] •

ثم تمكن العثمانيون من التغلب على طومانباي وهزيمته • ثم ارسل هذا طلبا للسلطان العثماني بالصلح وقال له اني لا اطلب الصلح عن عجز فان معي ثلاثين اميرا ما بين مقدمي الوف واربعينيات وعشراوات ومعي من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين الفا ولكن رأيت الصلح اصلح [٣] • ولم ينته الامر الى الصلح ووقعت مناوشات ومصاولات بين الطرفين وناصر فريق من العربان فيها طومانباي [٤] •

٢٧ ــ في اثناء المصاولات بين طومانباي والسلطان سليم العثماني فر طومانباي الى الغربية ونزل عند الشيخ حسين بن مرعي وشكر ابن اخيه مشايخ البحيرة وكان بينهما صداقة قديمة • وقد حلفهما على المصحف بعدم الغدر به غير انه لم يكد يستقر حتى احاطت به العربان من كل جانب وارسلوا للسلطان العثماني خبرا فارسل من قبض عليه وقيده ثم قتله [٥] •

٢٨ ــ قبض على حسن بن مرعي شيخ عربان البحيرة بعد بدء الحكم العثماني بقليل ــ ولم يذكر المؤلف الاسباب ولعل ذلك بسبب

(١) ج ٣ ٩١ و ١٢٦ و ١٣٧ و ١٤٣ و ١٥٤ و ١٧٧ (٢) ص ١٠٢
(٣) ج ٣ ص ١٠٩ (٤) ص ١١١ ــ ١١٢ (٥) ص ١١٤

تحزبه مع طومانباي أو عدم اعلانه الولاء للحكم العثماني ـ فبرد الحديد الذي في يده وفك قيده ثم تدلى من سور السجن وهرب • ولم يكد خبر هروبه يشيع حتى دب الذعر في الناس فاغلقوا حوانيتهم وهرعوا الى بيوتهم • ولم يكد هو يصل الى عربه حتى تحركوا معه وتحالف معهم عربان الشرقية وعلنوا التمرد والعصيان فسير خير بك نائب مصر حملة للتنكيل بهم فلم تفعل شيئا وجاء اليه شيخ عربان غزالة واخبره ان القبائل أتت الى الجيزة وانها لا تحصى كثرة وربما جاوز عددها العشرين الفا • وقد استمرت الحركة قوية وازعجت السلطات العثمانية ولم تهدأ الا بتوسط شكر بن حسن مرعي حيث ارسل يطلب من خير بك منح الامان لابيه فوافق على ذلك وحينئذ جاء حسن مرعي اليه فاستقبله خير بك استقبالا حافلا وخلع عليه • ومع ذلك فان خير بك غدر به وشنقه بعد هدوء حركته (١) •

٢٩ ـ في سنة ٩٢٤ ه اعلن عبد الدائم بن بقر شيخ عربان الشرقية تمرده وامتناعه عن اداء الخراج • وتفاقم خطبه حتى لقد اخذ خير بك في اسباب تحصين القلعة تحسبا من النتائج • ثم سعى مع اخيه بيبرص ليعمل على تهدئته • وبذل هذا سعيه حتى نجح على ان يمنح خير بك اخاه الامان وخلعة المشيخة ففعل (٢) •

٣٠ ـ في سنة ٩٢٤ ه خرج امير الصعيد علي بن عمر الى غزو النوبة • وهذا الخبر على اقتضابه يدل على ان هذا الامير كان يمارس سلطانا محليا نافذا ممتدا الى ما قبله من آبائه على الارجح • وقد ذكر ابن اياس في حوادث السنة نفسها ان هذا الامير ارسل تقدمة حافلة الى خير بك ملك الامراء ـ هذا لقب والي مصر العثماني اذ ذاك بل لقب كل ولاة الاقاليم الذين كانوا يلقبون كذلك بلقب النائب ـ من سكر ورقيق وجوار وخيل وجمال تصلح للملوك كما ارسل تقدمة

---

(١) ج ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ و ١٦٨ ـ ١٧٠

(٢) ص ١٥٤ ـ ١٥٥

حافلة ايضا للسلطان في الاستانة مع قاصد خاص • وحينما عاد قاصد الامير من الاستانة ووصل الى سرياقوس خرج خير بك لاستقباله وخرج معه الامراء العثمانيون وامراء الشراكسة واعيان المباشرين [1] • وكان الانكشارية يمشون ويرمون بالنفط وكان يوما مشهودا •

وقد ارسل السلطان العثماني مع قاصد امير الصعيد تقدمة حافلة الى سيده ومرسوما باقراره في امارته حسب العادة فتضاعفت بذلك عظمته • وقد ذكر ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٧ ﻫ خبر ارسال الامير للسلطان تقدمة جديدة قومت بستين الف دينار • ثم قال وكان السلطان سليمان ارسل اليه خلعة الاستمرار بامارة الصعيد ـ حينما اعتلى العرش بعد ابيه السلطان سليم على ما هو المتبادر ولعل التقدمة المرسلة من امير الصعيد كانت لهذه المناسبة ـ ثم قال وقد رأى الامير علي في دولة ابن عثمان ما لم ير احد من اجداده من العز والعظمة والمال والجاه [2] • وكل هذا يعزز ما قلناه من المكانة والحيز والسلطان الذي كان لهذا الامير في الصعيد • ومن المؤسف ان المؤرخين لم يمدونا بشيء واف عن هذه الامارة العربية ونشاطها وسلسلة امرائها •

٣١ ـ في سنة ٩٢٤ ﻫ حضر من عربان السوالم ما لايحصى قاصدين حرب ابن بقر شيخ مشايخ الشرقية واظهروا غاية الفساد في هذه الناحية وقد ارسلت الحكومة عسكرا لمطاردتهم فلم يفوزوا منهم بطائل [3] •

٣٢ ـ في سنة ٩٢٦ ﻫ اضطربت احوال الشرقية وثار عربانها فعزل نائب مصر شيخ عربان العائد وعين اخاه نجما للمشيخة وطلب منه اخماد الفتنة [4] •

٣٣ ـ ذكر ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٦ ﻫ خبر تمرد نائب

---

(١) اسم المباشر كان يطلق على الموظفين الاداريين والماليين في المناطق التي كانت في نطاق الكشاف •

(٢) ج ٣ ص ١٦٨ و ١٨٤ و ١٨٧ و ١٨٨ و ٢٥٥

(٣) ص ١٦٦ و ١٦٩

(٤) ج ٣ ص ٢١٣

دمشق جان بردى على الدولة العثمانية واعلانه الاستقلال في بلاد الشام وزحفه في عسكر كثيف قاصدا ديار مصر ومعه طائفة من الاكراد والعربان • فاستدعى نائب مصر مشايخ عربان بني عطاء وبني عطية والسوالم وخلع عليهم وكلفهم بالسير الى لقاء الزحف قبل ان يدخل ارض مصر فخرجوا مع جماعاتهم واشتبكوا مع طرباي شيخ عربان جبل نابلس الذي كان منحازا الى جان بردى وكسروه (١) •

٣٤ — حينما تولى السلطان سليمان بعد ابيه سليم ارسل وفدا يحمل خلعا متنوعة لمشايخ عربان مصر الرئيسيين والثانويين مع مراسيم لكل منهم على انفراد باقراره على مشيخته وعادته • وكانت الخلع لمشايخ العرب الرئيسيين قفاطين مخمل والثانويين قفاطين حرير • وقد ذكرت اسماء الامير علي بن عمر شيخ مشايخ الصعيد وواصل بن الاحدب شيخ مشايخ هوارة والامير احمد بن بقر شيخ مشايخ جذام وامير الرايتين حسام الدين شيخ مشايخ الغربية واسماعيل الحويلي شيخ مشايخ البحيرة • ولم يذكر المؤلف غيرهم ولكنه قال ان عدد قفاطين الحرير التي اتى بها الوفد للمشايخ الآخرين سبعة • وهكذا كان في مصر في اوائل القرن العاشر خمسة مشايخ رئيسيين على المناطق الخمسة الرئيسية وسبعة مشايخ على المناطق الثانوية كمشايخ معترف بهم من قبل الدولة •

٣٥ — في سنة ٩٢٦ هـ ثار عربان الغربية على كاشفها فهرب منهم (١) •

٣٦ — في نفس السنة جاء شيخ العرب بيبرص بن بقر — شيخ عربان الشرقية على ما ذكر قبل — وقابل ملك الامراء فخلع عليه (٣) •

٣٧ — في سنة ٩٢٧ هـ زحف العربان على قطيا ثم وصلوا الى

---

(١) ج ٣ ص ٢٣٨ — ٢٤٤

(٢) ج ٣ ص ٢٤٤ (٣) ص ٢٤٤

الصالحية فننكد ملك الامراء وعين تجريدة لهم وقد ارتكبت هذه التجريدة فسادا كبيرا سلبا وفسقا حتى ضح اهل الضياع منها فاسترجعت دون طائل من العرب الذين ظلوا على حركتهم حتى انهم تعرضوا لامير عين لنيابة طرابلس الشام وخرج من مصر الى محل عمله وكادوا يقتلونه. وكان العربان في هذه الايام في غاية الفساد في البلاد وهم عربان بني عطاء وبني عطية (١) .

٣٨ ــ وفي السنة نفسها عاد عربان الشرقية الى شق عصا الطاعة ونهب الضياع . وزحفت عليهم تجريدة فاشتبكت معهم وكان قائدهم شيخهم بيبرص ولم تفز منهم بطائل ثم كبسوها في الليل فانهزمت فاشتد اضطراب الحالة في الشرقية وتحالفت سبع طوائف من العربان على العصيان منهم بنو عطية وبنو عطا ، وبنو حرام . وقد ازعجت هذه الحركة ملك الامراء وبذل جهده في تهدئتها مع الامير احمد بن الامير بيبرص حتى جعله يقنع والده بالتخلي عن المشيخة ثم خلع عليه وولاه اياها (٢) .

٣٩ ــ اقام ملك الامراء في سنة ٩٢٧ هـ حفلة بمناسبة خلعة الامارة التي جاءته من السلطان سليمان . وقد دعى اليها رؤساء العربان . وقد ذكر المؤلف منهم الامير احمد بن بقر والشيخ حسام الدين بن بغداد وامير هوارة واصل بن الاحدب والشيخ اسماعيل الحويلي والشيخ جريبيش ثم قال وآخرون من مشايخ عربان الشرقية والغربية (٣) .

٤٠ ــ كان الامير احمد بن قاسم بن بقر من رؤساء جذام الذي يعرف بابي الشوارب انحاز الى جان بردى حينما تمرد هذا واعلن استقلاله في الشام . فلما قضي على جان بردى بذل رؤساء جذام مساعيهم مع ملك امراء مصر حتى عفا عنه واعطاه الامان فعاد الى مصر وقابل ملك الامراء فخلع عليه واصبح عنده من المقربين لفترة من الوقت ثم غدر به وقتله (٤) .

---

(١) ص ٢٥٨ (٢) ص ٢٨٤ (٣) ص ٢٩٣

وهذه الصور البارزة المتنوعة التي سجلها ابن اياس بالاضافة الى ذكره مرات عديدة لفساد العربان وشغبهم في مختلف السنين بدون ذكر قبيلة او شيخ بعينه مما لم نر ضرورة الى ايراده تدل دلالة قوية على ما كان للقبائل العربية ورؤسائها من حيز ونشاط كبيرين في القرون الثلاثة . وابن اياس يهتم اكثر ما يكون لتسجيل احداث اواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر بل وان اكبر همه كان تسجيل حوادث السلاطين وامراء الجند . ولذلك لا بد من ان يكون قد فاته شيء كثير من حوادث العربان وصور نشاطهم او ان يكون ذلك قد جعله يقتضب في سرد هذه الحوادث .

ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان حركات الارومات العربية في هذه القرون اذا كانت اقتصرت على نشاط القبائل فسبب ذلك انها هي التي كانت تعيش متكتلة وتتضامن تضامنا قبيليا وهي التي كانت تحوز السلاح . وليس من ريب ان الذين اندمجوا في حياة المدن والارياف من الارومات العربية وصاروا يعيشون عيشة حضرية كانوا اضعاف اضعاف الارومات القبيلية التي سجل لها ابن اياس والمقريزي وابن خلدون ما سجلوه من صور النشاط العظيم .

صور متنوعة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر
مقتبسة من تاريخ الجبرتي

— ٨ —

وفي تاريخ الجبرتي الموسوم بعجائب الآثار في التراجم والاخبار[١] ـ مؤلفه من رجال القرنين الثاني عشر والثالث عشر وقد وقف في تدوين كتابه عند آخر سنة ١٢٣٦ هـ التي توفي بعدها بقليل ـ صور عديدة اخرى من نشاط القبائل العربية في القرنين المذكورين وان كان جاء معظمها بأسلوب عابر لان المؤلف جعل اكبر همه تدوين احداث الحكام والولاة والمماليك والعلماء والاعيان وتراجم حياتهم في الدرجة الاولى • على انه ذكر بعض رؤساء العرب بشيء من الاسهاب فيه صورة قوية لما كان لهم من حيز ونشاط •

ويسير المؤلف في تدوينه لاحداث القرنين المذكورين خاصة شهرا فشهرا من كل سنة واحيانا يوما فيوما من كل شهر • وقد رأينا ان نكتفي بذكر السنين التي حدثت فيها الاحداث التي ذكرها عن العربان •

ففي الجزء الاول منه :

١ ـ في حوادث سنة ١١٢٣ هـ خبر نزاع بين محمد بك حاكم الصعيد وامير آخر من امراء الاجناد المماليك اسمه افرنج احمد • ومما جاء في السياق ان الاول جاء لقتال الثاني ومعه سواد اعظم من العرب

(١) الكتاب في اربعة اجزاء والنسخة التي في يدنا هي المطبوعة بالمطبعة العامرة الشرقية بشارع الخرنفش سنة ١٣٢٢ هـ •

والمغاربة والهوارة [1] .

٢ ــ في حوادث سنة ١١٢٥ هـ خبر حركات تمردية بدرت من عرب الضعفاء حتى قطعوا درب الفيوم . وقد سيرت عليهم حملة فلم تفز منهم بطائل . وطلب قائدها من سالم ابن حبيب احد مشايخ العربان ان يجمع عربان سعد وبلى ويرسلهم مع ابنه لمساعدته على قمع الحركات فتلكأ [٢] .

٣ ــ في حوادث سنة ١١٣٥ هـ خبر نزول سالم بن حبيب شيخ العرب الى بركة الحج وسلبه خيل البريد وكل من صادفه في الطريق . وكان صحبته عرب الجزيرة والمغاربة . وسبب ذلك ان احد امراء الجند قيطاس بك سار بحملة عليه ومعه جمع كبح من العربان وقاتله وقتل بعض اولاده . فقام بحركته هذه على سبيل المقابلة والانتقام . وقد سار عليه امير الحاج وكاشف القليوبية ومعهم عرب الصوالحة من بني حرام . غير ان سالما تمكن من هزيمتهم ونهب مخيم الكاشف وجماله [٣] .

٤ ــ في السنة نفسها خبر ارسال فرمان لجميع العرب بالتعمير في اوطانهم عدا سالم بن حبيب واخوته ومن يلوذ به . وسيرت عليه تجريدة جديدة فسار بجماعته الى جهة غزة فعادت التجريدة بدون طائل [٤] .

٥ ــ في سياق ترجمة احد كبار امراء الجند ايواظ الشركسي خبر محاربته مع العربان وفرارهم منه ثم تجمعهم ثانية وكبسهم له ثم تجمعهم ثالثة بقيادة ابي زيد بن وافي وانهزامهم بعد ذلك الى الواحات واقامتهم فيها حتى اخربوها ثم هبوطهم الى صعيد مصر بمحاجر الجعافرة بالقرب من اسنا وصحبتهم علي ابو شاهين شيخ النجمة واشتباكهم مع عربان هوارة وانتقالهم بعد ذلك الى منفلوط ثم الى الفيوم ثم الى المنوفية وقد

---

(١) ص ٤١ (٢) ص ٥٤

(١) ص ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٥٦ (٢) ص ٢٥٨

كان ايواظ بك يطاردهم من مكان الى مكان حتى شتت شملهم [1] .

٦ ـ في حوادث سنة ١١٧٧ هـ وفي سياق خبر حركة علي بك الكبير ومحمد بك ابي الذهب زميله وتناحرهما مع خصومهما من امراء المماليك في سبيل السيطرة على حكم مصر خبر اندماج شيخ العرب همام في الحركة وامدادها من قبله بالعطايا والمال والرجال [2] .

٧ ـ في حوادث سنة ١١٨٢ هـ خبر تسيير علي بك الكبير بعد نجاحه في السيطرة على حكم مصر تجريدة على سويلم بن حبيب شيخ العرب وعرب الجزيرة . وقد هرب سويلم بمن معه الى البحيرة والتجأ الى عرب الهنادي [3] .

٨ ـ في حوادث السنة نفسها خبر خلاف ومنابذة بين شيخ العرب همام وعلي بك ومحمد بك وسير الاخير بتجريدة اليه لقتاله . فلما قربت التجريدة من بلاده ترددت الرسل بينهم الى ان تم الاتفاق على الصلح على ان يكون حكمه الى حدود برديس ولا يتعداها . والخبر مهم لانه يفيد انه كان لهمام في الصعيد الحكم والسلطان .

ومما جاء السياق وفيه طرافة انه ولد في هذه الاثناء لمحمد بك ولد فارسل الى همام يبشره بذلك ويخبره بانه تجاوز له عن حكم برديس ايضا فرحا بمولوده [4] .

٩ ـ في سنة ١١٨٣ هـ ارسل علي بك الكبير للشيخ همام يقول له انا وافقت على الصلح وشروطه على شرط ان تطرد الامراء المصريين [5]

---

(١) ص ٩٨ ـ ٩٩ (٢) ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ (٣) ص ٣١٠
(٤) ص ٢١٠

(٥) المقصود من الامراء المصريين على ما يفيده السياق هم امراء المماليك الذين كانوا يناوئون علي بك ويتصاولون معه ، وقد فروا من امامه الى الصعيد حينما تم له الاستعلاء والغلبة على الحكم . وكان امراء المماليك يعتبرون انفسهم مصريين على اعتبار انهم اولاد واحفاد الذين كانوا مستقرين في مصر قبل الفتح العثماني وكانوا يعتبرون ولاة الدولة العثمانية وقوادها وجندها غرباء ، بل وكان المصريون يعتبرونهم كذلك ايضا .

من دائرتك فجمعهم همام واخبرهم بذلك وقال لهم اذهبوا الى سيوط واملكوها فان فعلتم ذلك كان لهم بها منعة وقوة وانا أمدكم بعد ذلك، بالمال والرجال ففعلوا واستولوا على سيوط وتحصنوا بها • وساق عليهم علي بك تجريدة بقيادة زميله محمد بك ابي الذهب فتغلبت عليهم ثم سارت نحو الجنوب لضرب الشيخ همام وعربه بسبب مخامرته • وراسل محمد بك اسماعيل ابن عم همام واستماله ومناه برئاسة بلاد الصعيد فصدق وتثبط عن القتال وخذل جماعته عنه • وبلغ ذلك هماما فاسقط في يده واضطر الى الخروج من فرشوط ــ والمتبادر انها كانت مقر امارته ــ وبعد عنها مسافة ثلاثة ايام ولم يلبث ان مات كمدا • وجاء محمد بك الى فرشوط فملكها واخذ جميع ما كان بدوائر همام واقاربه من اموال واغلال وذخائر وزالت دولة همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ • وقد جاء درويش ابن همام الى محمد بك خاضعا فاخذه معه واسكنه مصر مدة من الزمن ثم اعطاه علي بك بشفاعته بلاد فرشوط فجاء اليها ولكنه لم يحسن السير والتدبير فانحل امره وعاد الى مصر فاكرمه محمد بك وانزله بجواره • فلما وقع النزاع بين محمد بك وعلي بك بعد سفرة الشام وخرج محمد بك الى الصعيد مغاضبا لعلي بك ذهب درويش معه [1] •

---

(١) ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨

ترجمة شيخ العرب الشيخ همام ودلالتها
على خطورة مركزه ونشاطه

ولقد اعقب الجبرتي السياق السابق بترجمة طنانة رنانة للشيخ همام [1] تدل على ما كان له من جاه ومال وسلطان حيث قال : ومات الجناب الاجل والكهف الاظل الجليل المعظم والملاذ الافخم الاصيلي الملكي • ملجأ الفقراء والامراء ومحط رجال الفضلاء والكبراء شيخ العرب الامير شرف الدولة همام بن يوسف بن احمد بن همام بن صبيح ابن سيبية الهواري عظيم بلاد الصعيد ومن كان خيره وبره يعم القريب والبعيد • وقد جمع فيه من الكمال ما ليس فيه لغيره مثال • تنزل بحرم سعادته قوافل الاسفار وتلقي عنده عصا التسيار واخباره غنية عن البيان مسطرة في صحف الامكان • وكان اذا نزل بساحته الوفود والضيفان تلقاهم الخدم وانزلوهم في اماكن معدة لامثالهم واحضروا لهم كل ما يلزم من فرش واثاث وطعام ، وكان ذلك لمن يعرف ومن لا يعرف ولو اقاموا شهورا • واذا كان الوافد ممن يرتجى البر والاحسان اكرمه وابلغه اضعاف ما يترجاه • وكان عنده من الجواري والسراري والمماليك والعبيد شيء كثير • وكان له برسم زراعة قصب السكر فقط اثنا عشر الف ثور بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال والسواقي والطواحين والجواميس والابقار الحلابة وغير ذلك • اما شون الغلال وحواصل السكر والتمر بانواعه فشيء لا يعد ولا يحد • وكان الانسان الغريب اذا رأى شون الغلال من بعد ظنها مزارع مرتفعة لانه كان ينزل عليها ماء المطر فتنبت وتخضر ثانية لكثرتها التي لا تنفذ بالاتفاق • وكان عنده من الاجناد والقواسة واكثرهم من بقايا القاسمية — نسبة

---

(1) ج ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٧

لاحد كبار امراء المماليك قاسم بك ــ انضموا اليه وهم عــدة وافرة وتزوجوا وتوالدوا وتخلقوا باخلاق تلك البلاد ولغاتهم • وله دواوين وعدة كتبة من الاقباط والمستوفيــين والمحاسبين لا يبطل شغلهم ولا حسابهم ولا كتاباتهم ليلا ونهارا • وكان يجلس معهم حصة من الليــل في مجلسه الداخلي يحاسب ويملي ويأمر بكتابة المراسيم ولا يعزب عن فكره شيء • وكان له صلات واغداقات وغلال يرسلها للعلماء واربــاب المظاهر بمصر ــ الغالب انه يريد القاهرة ــ في كل سنة وكان ظلا ظليلا بارض مصر • ولم يزل هذا شأنه حتى ظهر امر علي بك وحصل ما تقدم شرحه من وقائعه مع خشداشينه (رفاقه) وذهابه الى الصعيد وانضمام صالح بك اليه وامداد المترجم ــ الشيخ همام ــ لهما بالمال والرجــال حتى تم لهما الامر • ثم غدر علي بك بصالح بك وخرج رجاله واتباعــه الى الصعيد واعلموه بما وقع لهم من علي بك فاغتم غما شديدا واشار عليهم بالذهاب الى سيوط وتملكها وامدهم شيخ العرب حتى ملكوها • وقــدر الله بخذلانهم ونــافق كبار الهوارة واقاربه عليه فلم يسعه الا الارتحال من فرشوط ثم لم يلبث ان مات في مهجره ، فاستولى علي بك على ما لا يقع تحت حصر من امواله ومقتنياته ومخازنه واوانيه وعبيده ومماليكه •••••

والترجمة مهمــا احتوت اطنابا اعتاده المؤلف في سيــاق التراجم الاخرى بــل جرى عليــه جميــع كتــاب التراجم الاقدمون فالحقيقة فيها بارزة تشهد بما كان للشيخ همام من سلطان وحيز وقوة ومــال وجاه ومزايا • وفيها دلالة على ان امارته او سلطانه في الصعيد لم يكن سلطانا بدويا بل كان سلطانا حضريا وشاملا لكل ما في الصعيد من مدن وقرى وقبائل • وهو ما يفيده الاتفاق الذي تم بينه وبين محمد بــك وذكرناه قبل على ان يكون حكمه الى برديس بدون استثناء ، كما فيهــا دلالة على ان امارته هذه كانت امتدادا لامارة آبائه من قبل وانلم يمكن ان يقال شيء غير ذلك في صددهم •

صور متنوعة
لنشاط وحيوية مشايخ العرب حبيب وولديه
سالم وسويلم واولادهم

في النبذ التي مرت ذكر لسالم وسويلم ولدي حبيب في سياق بعض الاحداث . ولقد مات سويلم في السنة التي مات فيها الشيخ همام أي ١١٨٣ هـ فعقد له الجبرتي ترجمة بعد ترجمة همام هي الاخرى طنانة رنانة [1] . وفيها ذكر لاحداث عديدة له ولاخيه سالم وابيهما حبيب وبعض اولادهم انطوت على صورة ماكان لهم من نشاط وجاه ونفوذ وحيوية وشجاعة وثروة طائلة وحيز في مجال الحكم المحلي . وقد جاء في مطلعها « ومات جناب الكبير والمقدام الشهير من سارت بذكره الركبان وطار صيته بكل مكان الفارس الضرغام النجيب شيخ العرب سويلم بن حبيب من اكابر عظماء مشايخ العرب بالقليوبية ومسكنهم دحوة على شاطىء البحر . وهو كبير نصف سعد مثل ابيه حبيب بن احمد . وليس لهم اصل مذكور في قبائل العرب وانما اشتهروا بالفروسية والشجاعة واصل حبيب من شطب قرية قريبة من اسيوط ولما مات خلف سالما وسويلما وكان سالم اكبر فتولى الرياسة بعد ابيه [1] واشتهر بالفروسية وعظم امره وطار صيته وكثرت جنوده وفرسانه ورجاله وخيوله واطاعه جميع المقادم وكبار القبائل ونفذت كلمته فيه وعظمت صولته عليهم وامتثلوا امره ونهيه لا يفعلون شيئا بدون اشارته ومشورته . وصارت

---

(١) ص ٣٤٧ - ٣٥٢ ج ١

(١) من العجيب ان يقول المؤلف انهم ليس لهم اصل مذكور في قبائل العرب فكيف صارت لهم الرئاسة فيهم وليس من عادة العرب وتقاليدهم ان يرؤسوا عليهم من ليس له اصل في الرئاسة ...

له خفارة البرين الشرقي والغربي من ابتداء بولاق الى رشيد ودمياط وكان هو وفرسه مقوما على انفراده بالف خيال • وكان ظهور حبيب في اوائل القرن واتفق له ولابنه سالم هذا وقائع وامور مع اسماعيل بك بن ايواظ بك وغيره • منها ان في سنة ١١٢٥ ه ارسل حبيب ولده سالما الى خيول الامير اسماعيل وهجم عليها بالمربع وجم معارفها واذنابها (قص شعرها) وتركها وذهب دون ان يأخذ شيئا وذلك باغراء قيطاس بك وغيره • فاخبر امير الاسطبل مخدومه بذلك فاغتاظ وعزم على الركوب عليه ثم عدل عن ذلك واحضر شخصا مشهورا بالشجاعة اسمه حسن ابو دفية زعيم مصر سابقا ـ كذا ـ وارفقه برجال وجهزه بالذخائر وطلب منه ان يطارد حبيبا ويقتله ان امكن فذهب واخذ يدبر امره لتحقيق المطلوب • وفي هذه الاثناء مر سالم بالمنطقة التي فيها هذا الزعيم وصحبه فخرج اليه واشتبك معه وقتل بعض رجاله فجاء واخبر اباه بما وقع له فارسل الى عرب الجزيرة فاحضر منهم فرسانا كثيرة وكذلك من اقليم المنوفية وركب الجميع والتقوا واشتبكوا بالقتال فتغلب عليهم حسن ابو دفية لتفوقه عليهم بالذخائر والمدافع • وعادوا فجمعوا جموعا غفيرة اخرى واستمدوا بغيطاس بك الذي حرضهم على ابن ايواظ فامدهم بفرسان وضاربي نار فكتبت لهم هذه المرة الغلبة وقتلوا عددا من جماعة حسن واخذوا عددا من خيله وهزموه ولكن ابن ايواظ عاد فجهز رجالا آخرين لمطاردة حبيب وابنه ورجالهم وانذر سائر القبائل العربية وحذرهم من قبول حبيب واولاده او التجمع عليه فلم يسعهم الا ان ذهبوا الى غزة حيث نزلوا على عربهم وظلوا هناك الى ان مات خصمهم اسماعيل بك فجاء سالم الى قليوب سرا ووسط الشواربي شيخ الناحية فاخذ مكاتبة الى ابن وافي المغربي من ابراهيم بك ابي شنب احد امراء المماليك بتوطينهم عنده الى ان يحصل لهم على اجازة ومن ثم ذهب الاب وابناه وجماعتهم الى الجبل الغربي ونزلوا عند شيخ المغاربة واقاموا الى سنة ١١٣٦ ه وكان ابو شنب يواسيهم ويرسل اليهم غلالا فلما مات في هذه

السنة ضاقت معيشتهم فجاء سالم الى مصر ودخل بيت السيد محمد دمرداش وسلم عليه وشكا له حال غربتهم فاخذه الى ابن اسماعيل بك وجعله يصفح عنهم ويسمح بعودتهم الى بلدهم فرجعوا الى قليوب وعمروا مساكنهم ودواوينهم واتتهم القبائل العربية ومشايخ البلاد ومقادمها للسلام ومعهم الهدايا والتقادم واخذوا يستقرون ويعمرون الدور العظيمة والبساتين والسواقي والمعاصر والجوامع واستقام حال سالم خاصة واشتهر ذكره وعظم صيته واستولى على خفارة البرين ونفذت كلمته بالبلاد البحرية من بولاق الى البغازين وصارت المراكب والرؤساء تحت حكمه وضرب عليها الضرائب والعوائدالشهرية والسنوية وأنشأ الدوائر الواسعة والبستان الكبير بشاطيء النيل وكان عظيما جدا وعليه عدة سواق وغرس به اصناف النخيل والاشجار المتنوعة واحضر لها الخولة (البستانية) من الشام ورشيد • ولما وقعت الوقائع بين الاميرين ذي الفقار بك ومحمد بك شركس وحضر الاخير من اللموم الى قرب المنشية وخرجت اليه عساكر مصر انضم اليهم سالم بفرسانه وعبيده وحارب معهم حتى تمت الهزيمة على الشركس وتبعه سالم والاجناد وتلاقوا ثانية في معركة قوية حتى قتل • ورجع سالم بغنائم عظيمة واشتهر امره واشترى السراري البيض ولم يزل حتى توفي سنة ١١٥٠ هـ وخلف ولدا اسمه علي اشتهر ايضا بالفروسية والنجابة والشجاعة • ولما مات ترأس اخوه سويلم على مشيخة نصف سعد فسار بشهامة واشتهر ذكره وعظم صيته بالاقليم المصري زيادة عن اخيه ووسع الدواوير والمجالس • ثم ان الامير عثمان بك الفقاري امير الحج تغير عليه لسبب من الاسباب فركب اليه ثم تدخل بعض الامراء واصلحوا بينه وبين عثمان وقدم لهم التقادم والخيول • ووقع نزاع بين سويلم وبعض الامراء فجمع رجاله وضرب ناحية شبرا المعدية فانفسد ما بينه وبين عثمان بك ثانية غير ان الحالة عادت فصفت بينهما • واستقر سويلم بعد ذلك بدجوة وبنى دوارا عظيما فيها وبداخله مسجدا وبداخل حوش الدوار مصاطب ومضايف لاضافة الناس وأنشأ عدة مراكب

تسمى الحرجات ولها شراقات وقلوع عظيمة وعليها رجال غلاظ شداد كانوا يتعرضون للسفن فيأخذون منها ما احبوا طوعا او كرهـا • وكان له قواعد واغراض وركائز واناس من الامراء واعوانهم بمصر (القاهرة) يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه • وله عدة من العبيد السود البخـارية الفرسان ملازمين له وكان يعمل بعد الفجر ديوانا ويحضر بين يـديه عدة من الكتبة ويتقدم اليه اربـاب الحاجات ما بين مشايخ بـلاد واجناد وملتزمين وعرب وفلاحين والجميع وقوف بين يديه والكتـاب يكتبون الاوراق والمراسلات الى النواحي • وغالب بـلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية اقاربه (١) واولاده ولهم فيها الشركـاء والزروع والدواوير الواسعة المعروفة بهم والمميزة عن غـيرها بالعظم والضخامة • ولا يقدر ملتزم ولا قائممقام على تنفيذ امر مع فلاحيـه الا باشارته او باشارة من في البلد من اقاربه وكذلك مشايخ البـلاد مع استاذيهم (الامراء الخاضعين لهم) وكان لهم طرائق واوضاع فـي الملابس والمطاعم فيقول الناس سرج حبايبي (نسبة الى حبيب الاب) وشال حبايبي ومركوب حبايبي الى غير ذلك • وكان مع شدة مراسه وقوة بأسه يكرم الضيفان ويحب العلماء وارباب الفضل ويأنس بهم ويتكلم معهم في المسائل ويواسيهم ويهاديهم • ولم يزل هذا شأنه وشأن اقاربه حتى جرد عليهم علي بك فهرب سويلم الى البحـيرة في السنة الماضية (١١٨٢ هـ) ثم جرد عليهم في هـذه السنة وعلى الهنادي فقتل سويلم وخمسة واربعون شخصا من الحبايبة وأتوا برأسه فعلق بالرميلة ثلاثة أيام • وبقي من اولادهم خمسة وهم سيد واحمد وسالم ومحمـد (لم يذكر المؤلف الا الاربعة) فنزلوا على حكم اسماعيل بك فـارسل هذا الى علي بك يطلب لهم الامان فوافق بعد تردد بشرط ان لا يسكنوا محلهم ولا يكون لهم ذكر وشتت قبيلتهم (٢) الى ان تغلب محمـد ابو

---

(١) و (٢) نسي المؤلف انه قال انهم لم يكن لهم اصل مذكور في قبائل العرب وان اباهم حبيب جاء من قرية شطب ولم يكن معه الا ابناه سالم وسويلم !...

الذهب على علي بك فشفع بهم مراد بك تابعه وجعل محمد بك يعين احمد بن علي بن سويلم رئيسا وشيخا للعرب ولكن دون الحالة الاولى بكثير من غير صولة ولا خفارة ولا تعد • وكان ذلك سنة ١١٨٧ هـ • وقد كان احمد وجيها محتشما مقتصرا على حاله وشأنه وكان معه اخوه شيخ العرب محمد علي مثل حاله ويزيد عنه بالاختلاط مع الناس • وكان ابوهما الشيخ علي قد نزل على بقليوب وسكن دارا فيحاء وكان حسن الخلق والخلق وله حشم واتباع وهيبة وكان فصيحا مفوها •

وقد نكون اطلنا في ايراد معظم ما ذكره الجبرتي • غير اننا اردنا من ذلك ان يأخذ القارىء صورة لما كان لهذه الارومة من حيز وجاه ونفوذ ونشاط ومال طائل ولما كان يقع باستمرار من تطور في حياة الارومات العربية في مصر وانتقالها من حياة البداوة الى حياة الحضارة •

ولقد ذكر الجبرتي هذه الارومة في الجزء الثاني من كتابه في سياق حوادث سنة ١٢٠٠ هـ ، وفي ظروف بروز الاميرين مراد بك وابراهيم بك ــ بعد علي بك ومحمد بك ابي الذهب ــ ومحاولتهما توطيد سيطرتهما على مصر حبث ذكر المؤلف خبر قدوم حسن باشا الوزير وقائد الاسطول الى ثغر رشيد وارساله مراسيم الى مشايخ العرب واكابرهم يستميلهم فيها اليه ويصف الاميرين بالخائنين للدين والدولة ويطلب منهم القدوم اليه • وكان ابناء حبيب من جملة من ارسل اليهم مرسوم ودعوة • وقد لبوا الدعوة فيمن لباها [1] •

ومما ذكره الجبرتي انه كتبت فرمانات (مراسيم) لشيخ العرب احمد بن حبيب بغفر البرين والموارد من بولاق الى حدود دمياط ورشيد على عادة اسلافه ، وكان ذلك مرفوعا عنهم من ايام علي بك ونودي له بذلك على ساحل بولاق [2] •

ولم يذكر المؤلف الجهة التي كتبت الفرمانات • والمتبادر انها

---

(١) ص ١١٦ ــ ١١٨ (٢) ص ١٢٥

السلطات العثمانية او حسن باشا نفسه وتتيجة لما كان من استجابة مشايخ العرب اليه • فقد تمكن من التغلب على مراد بك وابراهيم بك والجائهما الى الانسحاب الى الصعيد مع استمرار التصاول بينه وبينهما وورد اليه مرسوم بولاية مصر فمارس الحكم فيها بشيء من السلطان والهيبة • وهكذا عادت هذه الارومة فانتعش اسمها ونفوذها •

صور متنوعة مقتبسة من الجزء الثاني من تاريخ الجبرتي

وفي الجزء الثاني من كتاب الجبرتي بالاضافة الى هذا الخبر عن هذه الارومة بعض اشارات الى نشاط القبائل العربية في اواخر القرن الثاني عشر • من ذلك :

١ ــ في حوادث سنة ١١٩١ هـ وفي سياق خبر التناحر بين امراء المماليك وبين الوالي طلب الوالي من العربان والهوارة ان يذهبوا الى الصعيد لقتال بعض الامراء المتمردين الذين يقومون بحركة ثورية في الصعيد وخلع على مشايخهم ووعدهم بالخير • وقد ذهب العربان والهوارة واشتركوا في القتال الذي كتبت الدائرة فيه على الامراء [١] •

٢ ــ في حوادث سنة ١١٩٢ هـ وفي سياق التناحر بين امراء المماليك ايضا قال المؤلف ان العربان خرجوا على الاميرين رضوان بك وحسن بك الجداوي الذين كانا يقودان حركة التمرد وطاردوهما وازعجوهما وكانوا بزعامة شيخ العرب سعد صحصاح وشيخ العرب رثيمة [٢] •

٣ ــ في سنة ١٢٠٠ هـ ذهب مشايخ عرب الهنادي والبحيرة الى الاسكندرية استجابة لدعوة احمد باشا الجداوي امير الحاج ووالي جدة فالبسهم خلعا واعطاهم دراهم [٣] •

٤ ــ في السنة نفسها جاء الوزير قائد الاسطول حسن باشا وارسل فرمانات بالعربي الى مشايخ واكابر العربان والمقادم يدعوهم اليه لاجل

(١) ص ١١ (٢) ص ٢٣ ــ ٢٤ (٣) ص ١١٥

التنكيل بالاميرين مراد بك وابراهيم بك ويعلنهم ان ضريبة فدان الزراعة قد تقررت سبعة انصاف ونصف فطار الناس فرحا وانحرفوا عن الامراء المصريين ــ وهذا ما كان يسمى به امراء المماليك ــ كما قلنا قبل وتمنوا زوالهم • وقد ذهب المشايخ الى رشيد واجتمعوا مع حسن باشا ثلاث مرات • وبلغهم ان السلطان اوصاه بالرعية خيرا وحرضهم على مراد بك وابراهيم بك وطلب مساعدتهم عليهما ونعتهما بالكفار [1] •

٥ ــ في سنة ١٢٠٢ هـ استدعى اسماعيل بك الكبير شيخ البلد الذي طمح الى السلطة الشاملة عرب البحيرة والهنادي فحضروا بجمعهم واخلاطهم وانتشروا في الجهة الغربية من رشيد الى الجيزة ينهبون البلاد ويأكلون الزروع ويضربون المراكب في البحر ويعتدون على ارواح الناس • وكذلك فعل عرب الشرق والجزيرة بالبر الشرقي فتعطل السير برا وبحرا [2] •

٦ ــ في السنة نفسها اغتنم العربان فرصة الفوضى في الحكم فربطوا لقافلة تجارية وموكب للحج آت من السويس فنهبوها وكان فيهما اموال ونفائس لا تحصى • وكان العربان من العيايدة •

وقد جاء مشايخهم بعد قليل الى مصر وقابلوا اسماعيل بك وصالحوه على شيء من المال ، فقبل منهم وخلع عليهم واتفق معهم على نقل ذخيرة امير الحج ! [3] •

وهذه النبذ بالاضافة الى دعوة حسن باشا لمشايخ العربان والاستعانة بهم على ابراهيم بك ومراد بك مهمة في بابها لانها تنطوي على ما هو المتبادر على اعتراف السلطات الحاكمة عثمانية ومملوكية على السواء بما كان للعربان ومشايخهم من قوة وحيز وحيوية في البلاد •

---

(١) ص ١٦٦ ــ ١١٨

(٢) ص ١٧٢ ــ ١٧٣

(٣) ص ١٧٠

صور متنوعة

مقتبسة من الجزء الثالث والجزء الرابع من تاريخ الجبرتي

وفي الجزء الثالث من كتاب الجبرتي نبذ عديدة عن نشاط وحيوية القبائل العربية وحركاتها في سياق احداث الحملة الافرنسية التي غزت مصر سنة ١٢١٣ هـ بقيادة نابوليون نوجزها فيما يلي :

١ ــ حينما نزلت الحملة الى ثغر رشيد في محرم سنة ١٢١٣ هـ انضم العربان الى اهل الثغر لمقاومة الغزاة (١) .

٢ ــ اغتنم بعض العربان فرصة الذعر الذي انتشر بسبب الغزوة الافرنسية فاخذوا يعيثون فسادا وينهبون ما تصل اليه ايديهم فحصلوا على ما لا يدخل تحت حصر من الاموال والامتعة (٢) .

٣ ــ اشترك العربان مع الغز الاتراك في مطاردة الافرنسيين في جهة الفيوم وتمكنوا من نهب اثقالهم (٣) .

٤ ــ قتل الافرنسيون شيخ العرب سليمان الشواربي شيخ قليوب وثلاثة من مشايخ عرب الشرقية لانهم اطلعوا على كتابات لهم لاهل سرياقوس فيها تحريض عليهم (٤) .

٥ ــ خرجت طوائف من الافرنسيين للتفتيش الى مخيمات عرب العيايدة في الخانكة فوجدوا عندهم كثيرا من اسلحة وامتعة افرنسية منهوبة فقتلوا منهم جماعة واسروا جماعة من الرجال والنساء وسجنوهم في القلعة واستولى على ما في مخيماتهم من اموال ومواشي ومنهوبات

---

(١) ص ٣ (٢) ص ١٨

(٣) ص ٦ ــ ١٤ (٤) ص ٣٧ ــ ٣٨ و ٤٠

ثم ذهبوا الى جهات ضافر واجهور الورد وقرنفيل وكفر منصور وبلاد اخرى للتفتيش على العرب • وكانوا يجدون اسلحة وامتعة افرنسية منهوبة ويفعلون في من يجدونها عندهم مثل ما فعلوا بالعيايدة (١) •

حيث يفيد هذا ان العربان نشطوا في تعقب الزحف الافرنسي ونهب ما امكنهم نهبه من اسلحة الافرنسيين وامتعتهم •

٦ ــ جاء ستمائة مجاهد من الينبع الى البر المصري فانضم اليهم جماعة من عربان الصعيد وحاربوا الافرنسيين معا (٢) ••

٧ ــ ذهب بعض امراء المماليك الى عرب الجزيرة لاجئين في موقف من مواقف المقاومة ضد الافرنسيين فآووهم وارسل الافرنسيون قوة لتعقبهم فلم تفز بطائل (٣) •

٨ ــ ذهب محمد الالفي كبير المماليك الذي كان يتولى قيادة المقاومة ضد الافرنسيين الى عرب الجزيرة ايضا ومعه جماعة كبيرة من الغز والمماليك شاردين من وجه الافرنسيين في موقف من المواقف فقدم اليهم العربان الكلف والمؤن وارسل الافرنسيون قوة لتعقبهم فلم تفز بطائل ايضا (٤) •

٩ ــ جاء فريق من عرب البحيرة الى دمنهور وقتلوا عددا من الافرنسيين وعاثوا في نواحي البلاد حتى وصلوا الى الرحمانية وهم يقتلون من يجدونه منهم ويأخذون سلاحهم وامتعتهم (٥) •

١٠ ــ جاءت قوة افرنسية الى بني عدي في بلاد الصعيد يطالبونهم بالكلف والضرائب فامتنعوا فضربوهم وقصفوهم بالمدافع واسرفوا في قتلهم (٦) •

١١ ــ حينما عاد نابليون مرتدا خائبا من فلسطين اذاع منشورا

---

(١) ص ٤٣ — (٢) ص ٤٦ — (٣) ص ٥٨ — (٤) ص ٥٨
(٥) ص ٦٠ — (٦) ص ٦٠

ذكر فيه ان من اسباب عودته رغبته في تأديب العربان من بلي والعيايدة وغيرهم الذين يناصرون المماليك ويحركون الفتن في الاقاليم في غيابه ويعيثون في البلاد فسادا ونهبا [1] • وفي هذا اعتراف بما كان للعربان من نشاط وحيوية وما كان لذلك من اثر في ما لقيه الافرنسيون من مقاومة ومتاعب •

١٢ ــ جاء الف عسكري افرنسي الى الشرقية وضربوها لان عربانها تجمعوا مع المماليك لمحاربة الافرنسيين [2] •

ولقد ذكر الجبرتي العربان كثيرا في هذا الجزء وفي الجزء الرابع من كتابه بعد جلاء الافرنسيين وخاصة في سياق مصاولة المماليك مع ولاة الدولة العثمانية ثم في سياق مصاولتهم مع محمد علي حيث كان جمهور العربان يناصرون المماليك الذين كانوا يعتبرون انفسهم مصريين ويعتبرهم العربان مصريين وينعتهم الجبرتي نفسه بنعت الامراء المصريين والمصرلية ايضا ، واليك ما ذكره من احداثهم في الجزء الثالث :

١ ــ بعد خروج الافرنسيين من مصر سنة ١٢١٧ هـ صدر فرمان سلطاني الى مشايخ عرب الهنادي فيها اقرارهم على منازلهم القديمة في فيافي البحيرة وفدافدها جريا على ما كان عليه امر آبائهم استجابة لعرائض قدموها على شرط ان لا يعتدوا على احد ولا يقطعوا الطريق • وقد احضر كاشف البحيرة المشايخ وتلا عليهم الفرمان واخذ منهم التعهد [3] •

٢ ــ في سنة ١٢١٧ هـ وصلت الاخبار بكثرة عربدة الامراء القبالي ــ يعني على ما يفيده السياق امراء المماليك الذين في الوجه القبلي ــ وتجمع الكثير من العربان عليهم وخوف العساكر العثمانية منهم وتحصنهم • وكان اهل الريف نافرين منهم لظلمهم وفجورهم وفسقهم وانضموا بدورهم الى الامراء المصرلية [4] •

---

(١) ص ٧٣ ــ ٧٥ (٢) ص ٦١
(٣) ص ٢٧ (٤) ص ٢٣٥

٣ ــ سافرت في نفس السنة قوة عسكرية الى جهة البحيرة لكثرة عيث عربان بني علي بالبحيرة ودمنهور [١] .

٤ ــ كتب الوالي والقواد العثمانيون في سنة ١٢١٧ هـ الى مشايخ العربان تحذيرات من مسالمة الامراء المصريين المغضوب عليهم ومناصرتهم [٢] .

٥ ــ امر الباشا العسكر بالخروج الى جهة العادلية لدفع العربان الذين فحش امرهم واكثروا من العدوان على نواحي المدينة وطريق بولاق يخطفون وينهبون ما قدروا عليه [٣] .

٦ ــ امر الباشا عسكرا آخر بالسفر الى جهة عرب الجيزة بسبب غارة موسى خالد شيخ العرب وجماعته على البلاد وقطعهم الطريق [٤] .

٧ ــ ضاق ذرع الناس من تطويل الامور في تحقيق ظلاماتهم من قبل الوالي والموظفين العثمانيين حتى كرهوهم وتمنوا لهم الغوائل وعصا اهل النواحي وعربد العربان وقطعوا الطرق . وانتمى العربان القبليين الى الامراء المصرلية وساعدوهم على العثمانيين . ولما انحدر الامراء الى الوجه البحري انضم اليهم جميع قبائل الغربية والهنادي عرب البحيرة وغيرهم واخذت تقع الاشتباكات بينهم وبين القوات العثمانية وكانت الغلبة تدور عليها فازداد بذلك العربان جسارة وصاروا يقطعون الطرقات على المسافرين برا وبحرا وينهبونهم ويقتلون من يمتنع عليهم وفحش الامر جدا في الوجهين القبلي والبحري حتى توقف حال الناس [٥] .

٨ ــ في سنة ١٢١٨ هـ ارسل الباشا ــ الوالي العثماني ــ من

---

(١) ص ٢٤٢ (٢) ص ٢٤٥ (٣) ص ٢٤٩

(٤) ص ٢٤٩ (٥) ص ٢٥٠ ــ ٢٥١

الاسكندرية الى محمد علي وكبار الارناؤوط ومشايخ العربان والبلاد المشهورين كتبا يستميلهم اليهم ويعدهم ويمنيهم ان هم قاموا بنصره ضد العصاة المتغلبين الامراء المصريين ويحذرهم من موافقتهم (١) .

٩ ــ لما رجع محمد الالفي كبير المماليك من بريطانية الى مصر في سنة ١٢١٨ هـ واخذ يطارده الوالي العثماني والقوات العثمانية دخل الى نجع عرب الحويطات مع طائفة من المماليك كانت معه والتجأ الى امرأة من العرب فاجارته واعطته هجنا وسيرت معه شخصين من العرب . وفي طريقه الى الخانكة خرج عليه جماعة من عربان بلي بزعامة شيخهم سعد ابراهيم واحاطوا به فامر المماليك بمشاغلتهم وحاول النجاة بنفسه ولكن العرب تغلبوا على المماليك ولحقوا به فما كان منه الا ان رمى ما معه من ذهب وجوهر وفراء فشغلوا بها فنجا (٢) . واختفى عند شخص من العرب اياما واشتد عليه الطلب فخرج من مخبأه وتمكن من الوصول الى عرب المعازة حيث لقى مأمنه عندهم لفترة من الوقت (٣) .

١٠ ــ في السنة نفسها عبر كثير من العسكر الى بر الجيزة واشتبكوا مع جماعة العربان الذين كانوا يناصرون الامراء فصمدوا لهم (٤) .

١١ ــ في السنة نفسها بدأت المصاولات بين محمد علي وامراء المماليك وقد خرجت عساكر كثيرة عثمانية من جماعة محمد علي الى البر الغربي واشتبكت بالقتال مع المصرلية والعربان واضطر محمد علي وعساكره الى التراجع . وانسحب المصرلية والعربان بدورهم ايضا (٥) .

١٢ ــ في سنة ١٢١٩ هـ خرج المصرلية (امراء المماليك) والعربان

---

(١) ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ (٢) ص ٢٩٨

(٣) ص ٣٠٥ (٤) ص ٣٠٥ (٥) ص ٣٠٦

الى اقليم الجيزة وانتشروا فيه حتى وصلوا الى انبابه ونهبوها وفر اهلها الى البر الشرقي • وخرج محمد علي بعسكره الى بر انبابه وعملوا المتاريس وركبوا المدافع واستعدوا للحرب • وقد كبس المماليك والعربان متراسا في الليل فقتلوا جملة من حراسه وهرب الباقون والقوا انفسهم في البحر ثم هاجموا المتاريس الاخرى وكانت وقعة عظيمة ابلى فيها الطرفان ثم انكفوا عن بعضهم (١) •

١٣ ـ انتشر العربان والمماليك بعد هذه الوقعة في اقليمي الشرقية والقليوبية يعيثون فيها فسادا وينهبون الغلات المدروسة والمواشي ويحرقون غير المدروس وذهبت طائفة منهم الى بلبيس فحاصروها وفيها الكاسف ثم نقبوا الحيطان حتى تمكنوا من الدخول اليه وقتلوا جملة من عساكره واخذوه اسيرا مع اثنين من كبار العسكر • وجاء شيخ العائد ابو طويلة الى الامراء ولامهم على النهب والحرق وقال لهم ان أكثر الزرع للعربان وطلب منهم ان يكفوا عن ذلك • واغتاظ العربان الذين مع الامراء من ابي طويلة وكادوا يقتلونه • وذهب العربان والامراء بعد ذلك الى القليوبية وحصروا كاشفها ولكنه تمكن من النجاة فنهبوا متاعه وجبخانته وطالبوا مشايخ النواحي مثل شيخ الروامل والعائد وقليوب والزموهم بتقديم المؤونة لهم وفرضوا على القرى التكاليف واخذوا يطوفون لجبايتها ويقاتلون من يستعظم التكاليف ويمتنع عن ادائها وينهبونه ويسلبونه ويحرقون جرونه فكانت محنة عظيمة وامتنع السير وانفقدت الغلال وغلت الاسعار • وخرج الوالي ومحمد علي بالعساكر لمحاربتهم وكانت وقعة عظيمة قتل وجرح كثير من الطرفين (٢) •

١٤ ـ في السنة نفسها قطع العربان الطريق وشلحوا وضربوا ونهبوا العائدين من مولد البدوي (٣) •

---

(١) ص ٣٠٩ ـ ٣١٠
(٢) ص ٣١٢ ـ ٣١٣
(٣) ص ٣١٣

١٥ ــ خطف العربان في السنة نفسها جراية العساكر من عقبة الحمراء .

١٦ ــ في السنة نفسها عدي (عبر) محمد علي ومعه كثير من العسكر الى بر الجيزة فنزل عليهم جملة من العربان فحاربوهم وقتلوا وجرحوا منهم (١) .

١٧ ــ في نفس السنة وقع هرج ومرج واشاعات ثم تبين ان طائفة من العربان والمماليك وصلوا الى خارج باب النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران ورمحوا على من صادفوه وحالوا بين العسكر الخارجيين والداخليين واخذوا ما مع الاولين من جراية وجبخانة وعلف فنزل الباشا ومعه عسكر الى جهة بولاق والزاوية الحمراء واغلقوا ابواب المدينة (٢) .

١٨ ــ وصلت طائفة من العربان الى جهة بولاق وجزيرة بدران وخطفوا ما قدروا عليه وذهبوا به (٣) .

١٩ ــ ارسلت العساكر جبخانة ولوازم على ستين جملا فلما توسطت القافلة البرية احاط بهم العرب واخذوا ما معهم (٤) .

٢٠ ــ جاء فريق من الامراء القبليين ومعهم طوائف من العربان الى ناحية بهتيم وطلبوا من اهل المطرية الجلاء ورمح العرب في نواحي بولاق (٥) .

٢١ ــ في سنة ١٢١٩ هـ حضر الى الباشا مع اخبره ان طائفة من عربان اولاد علي نزلوا بناحية الاهرام بالجيزة فركب عليهم فوجدهم ارتحلوا ووجد هناك قبيلة عربية اسمها الجوابيص فنهبها (٦) .

٢٢ ــ في السنة نفسها نهب العربان قافلة التجار الواصلة من السويس وكانت اربعة آلاف جمل (٧) .

---

(١) ص ٣١٥   (٢) ص ٣١٧   (٣) ص ٣١٨

(٤) ص ٣٢١   (٥) ص ٣٢٢

(٦) ص ٣٣٤   (٧) ص ٣٣٤

٢٣ ــ جاءت الاخبار بوقوع قتال بين العساكر والعربان والمصرلية في المنية حيث كبس الاولون الآخرين على حين غرة فكر الآخرون عليهم وقتلوا مقتلة عظيمة منهم وردوهم [١] .

٢٤ ــ وصلت طائفة من الامراء القبالى والعربان الى نواحي الجيزة وطلبوا نقودا ومؤونة وضربوا من عصى وامتنع [٢] .

وخرج اليهم الكاشف مع عسكره فانهزموا امامه فطمع بهم وتبعهم فخرج عليه كمين منهم واحتاطوا به وقتلوه واخذوا رأسه ورأس ستة من عسكره ورفعوها على مزاريقهم وذهبوا بها [٣] .

٢٥ ــ في اول سنة ١٢٢٠ هـ حضر محمد الالفي وطائفة من الامراء ومعهم العربان فانتشروا في جهة الجيزة واستقر الالفي بالمنصورية قرب الاهرام وسايرهم محمد علي وعمر مكرم النقيب وسكتوا عليهم لانهم كانوا يتصاولون مع الوالي العثماني [٤] .

وهذا يفيد ان المصاولة كانت في هذا الظرف ثلاثية الاطراف بين الوالي والمماليك وعربانهم وبين محمد علي والمماليك وعربانهم ثم بين الوالي ومحمد علي وزعماء مصر .

٢٦ ــ افحش العربان والالفي وجماعته في نهب البلاد بما لم يسمع بمثله فارسل محمد علي فريقا من عسكر الدالاتية لهم ولكنهم لم يذهبوا الى ما وجهوا اليه بل اخذوا بدورهم ينهبون القرى وقتلون ويفسقون فيهــا [٥] .

---

(١) ص ٣٣٨ (٢) ص ٣٣٨ (٣) ص ٣٣٩

(٤) ص ٣٥٠

(٥) ص ٣٥٤ ننبه على ان الجبرتي ذكر المماليك وحدهم في مواقف كثيرة من مصاولاتهم مع محمد علي ولم نذكر الاحداث التي اوردها لانه لم يذكر العربان فيها مع اننا نرجح اذا لم نقل نجزم ان العربان كانوا مع المماليك في هذه المصاولات التي كثيرا ما كانت تؤدي الى القتال قياسا على ما ذكره الجبرتي من ذلك .

٢٧ ـ حضر جماعة من الالفية (نسبة الى كبير المماليك محمد الالفي) الى بر الجيزة وطلبوا تكاليف من الاقليم واخذوا ما طلبوا فمضى في اثرهم عربان اولاد علي وعاثوا بدورهم بالجيزة [١] .

٢٨ ـ صار الناس في رمضان هذه السنة في كرب شديد وضيق اقوات وغلاء لان العساكر من جهة والعربان من جهة اخرى كانوا يخطفون ما كان الفلاحون يأتون به من سمن وجبن وبيض وتين حتى امتنع الجلب برا وبحرا [٢] .

٢٩ ـ وصل جماعة من الالفية وطوائف العربان الى سقارة والجيزة مرة ثانية وطلبوا تكاليف فامر محمد علي بخروج العسكر اليهم وركب معهم فرأوا خيالة العرب متفرقين شرازم فهجموا عليهم فانهزموا من امامهم فتبعوهم فخرج عليهم كمائن من العرب وضربوهم من خلفهم فكتبت الهزيمة على محمد علي وعسكره [٣] .

٣٠ ـ جاء الالفية والعربان في نفس الوقت الى بر انبابه وازعجوا القرى ولم يعفوا عن اخضر ولا يابس [٤] .

٣١ ـ في محرم عام ١٢٢١ هـ انتشب القتال بين العساكر والعربان والامراء المصرية بناحية جزيرة الهوا وهرب طائفة من العساكر وانضموا الى المصرية [٥] .

٣٢ ـ اعتزم محمد علي الخروج لمحاربة الالفي في صفر عام ١٢٢١هـ ـ وقد دخلت المصاولة بين الفريقين في دورها الحاد في هذا العام ومابعده الى ان انتهت بتغلب محمد علي ـ وجاء الالفي ومن معه الى ناحية دمنهور . ولم يقع حرب . ولكن العربان افحشوا في الخطف والتشليح وقطع الطرق [٦] .

---

(١) ص ٣٦٩ (٢) ص ٣٦٩

(٣) ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ (٤) ص ٣٧٣

(٥) الجزء الرابع ص ٣ وما يأتي بعد هذا هو من هذا الجزء .

(٦) ص ٦ ـ ٨

٣٣ ــ جاءت مراكب عثمانية فيها عساكر من النظام الجديد وتتر (وكلمة تتر كانت تعني في ذلك الوقت حامل بريد من الاستانة او الحكام) وجماعة من الانكليز معهم رسائل الى الالفي بعفو الدولة عنه وعن جماعته فاقام الزينات واحتفى بالرسل وارسل الى الامراء في الوجه القبلي والى مشايخ العربان في الوجهين البشائر . ومن جملة من ارسل اليهم مشايخ الحويطات والعائد والجزيرة[1] . وفي هذا الظرف جاء امر سلطاني بنقل محمد علي الى ولاية سلانيك ــ وكان هذا نتيجة لمساعي الانكليز وشكايات الوالي وتخويفه من مطامع محمد علي ــ فكتب زعماء مصر مكرم والشرقاوي وغيرهما مضابط بضرورة محمد علي في ولاية مصر [2] . واعتزم الباشا الخروج الى الالفي وعبر الى بر انبابة وارسل رسائل الى بعض العربان للقدوم عليه والسير معه . واستجابت طوائف من عرب الحويطات وبني حرام فجاء عدد كبير منها الى بولاق وقابلهم محمد علي بالحفاوة وضرب لقدومهم المدافع[3] . والخبر مهم في بابه حيث جنح محمد علي بدوره الى الاستعانة بالعربان فصار العربان نتيجة لذلك من عمد المصاولة بين الطرفين !.

٣٤ ــ دهم عسكر محمد علي قبيلة الجوابيص في جهة الجيزة ونهبها فشاع ان العسكر اشتبك مع الالفي وجماعته وقتلوا منهم ونهبوا وأسروا [4] . مما فيه دلالة على ما كان العربان يشغلونه من حيز في الحركات القائمة بين محمد علي والمماليك .

٣٥ ــ اشتبك الالفي ومن معه من العربان عند النجيلة مع عسكر محمد علي وكانت النصرة له . وهرب العسكر واستولى الالفي على خيولهم وخيامهم وذخائرهم وقتل منهم واسر كثيرا . وانتشر جماعة الالفي نتيجة لذلك في بر الجيزة [5] .

---

(١) ص ٩ ــ ١٠ (٢) ص ١١ ــ ١٣
(٣) ص ٤ ــ ١٥ (٤) ص ١٥ (٥) ص ١٦

٣٦ ـ ارسل مشايخ مصر وزعماؤها مضابط جديدة بوجوب تثبيت محمد علي ومن الاسباب التي ذكروها انه هو القادر على كفالة الامن ودفع العربان الذين يقطعون الطرق ويعتدون على الناس وينهبون مواشي القرى وزروعها (١) .

٣٧ ـ وقع نزاع في عرب الحويطات والعبايدة وتجمعوا وتقاتلوا وانقطعت السبل بسبب ذلك وانتصر الباشا للحويطات وخرج من اجلهم الى العادلية ثم تدخل عمر مكرم وصالح الطرفين (٢) .

وننبه ان العبايدة كانوا من المناصرين للالفي بينما صار الحويطات مناصرين لمحمد علي . ولعل النزاع كان نتيجة لذلك .

٣٨ ـ في اول سنة ١٢٢٢ هـ غزا الاسطول الانكليزي ثغر رشيد فارسلت الرسائل الى مشايخ العربان يدعون فيها الى الحرب والجهاد (٣) .

٣٩ ـ ارسل الباشا عسكرا وارفقهم بطائفة من عرب الحويطات بزعامة شديد احد مشايخهم لقتال ياسين بك احد امراء المماليك. والتجأ هذا الى شيخ عرب قليوب الشواربي فاخذ له امانا (٤) .

٤٠ ـ عاد ياسين بك الى الحركة فخرج في آخر السنة بعساكره وعربانه الى المنية واشتبك مع سليمان بك الالفي احد امراء المماليك الذين انضموا الى محمد علي بعد موت الالفي ـ مات هذا في اواخر سنة ١٢٢٢ هـ ـ فكتبت الهزيمة على ياسين ففر الى المنية وخرج عليه في الطريق كمين قتله (٥) .

٤١ ـ جاء في اول سنة ١٢٢٣ هـ عرب الهنادي وجهينة وصالحوا على انفسهم على ان يرجعوا الى منازلهم بالبحيرة ويطردوا اولاد علي

---

(١) ص ١٨ (٢) ص ١٨ (٣) ص ٥١
(٤) ص ٦٢ (٥) ص ٧٩ ـ ٨٠

الذين كانوا تغلبوا على الاقليم وكانوا يعيثون فيه فسادا وتمت المصالحة بيد شاهين بك الالفي وسار معهم الى ناحية دمنهور فارتحل اولاد علي الى حوش عيسى فتبعهم شاهين بك وحاربهم وقتل واسر جماعة منهم واستولى على مقادير كبيرة من اموالهم فتشردوا في انحاء الفيوم . ثم راسلاو الباشا ودفعوا له مئة الف ريال لاجل رجوعهم للبحيرة واخراج الهنادي منها فاجابهم الى ذلك ولكن الهنادي رفضوا وقاوموا فاضطروا اولاد علي الى الارتحال من الاقليم (١) .

٤٢ ــ في اوائل سنة ١٢٢٥ هـ خرج جميع من كان بمصر ــ القاهرة ــ من الامراء والاجناد المصريين بخيلهم ومتاعهم الى بر الجيزة ورتبوا انفسهم ثلاثة اقسام وارسلوا كتبا الى مشايخ العربان للانضمام اليهم . ونتيجة لذلك تفاقم الامر بينهم وبين الباشا بعد ان هدأت حدة المصاولة بينهم بعد موت الالفي ، وركب الباشا الى ناحية كرداسة حيث بلغه ان طائفة من العربان مسافرة للالتحاق بالامراء فلم يجد احدا وصادف نجعا من العربان فنهب مواشيه (٢) .

٤٣ ــ حضر مشايخ عربان اولاد علي الى الباشا فكساهم وخلع عليهم والبسهم شالات كشمير وانعم عليهم بمئة وخمسين كيسا . وحضر مشايخ الهنادي الى الامراء المصريين واعلنوا انضمامهم اليهم مع عربهم (٣) .

٤٤ ــ جنح شاهين بك احد الامراء الى المصالحة مع الباشا وكان هذا صاحب الزعامة الشاملة ولكن بعض الامراء لم يوافقوا فدب الخلاف والتخاذل في صفوف الامراء وكان ذلك نتيجة لدسائس محمد علي . وقد جاء على اثر ذلك عدد من مشايخ العربان الذين كانوا مع الامراء

---

(١) ص ٨٣ ــ ٨٨ اوردنا الحادث لان فيه صورة من صور نشاط العربان في النطاق القبلي على كل حال .

(٢) ص ١٢١ ــ ١٢٢ (٣) ص ١٢٢

الى محمد علي وطلبوا منه الامان فمنحهم ما طلبوا وانعم عليهم وكساهم فدخلوا هم وعربانهم في طاعته (١) .

٤٥ ـ أدت الاحداث السابق ذكرها الى وهن في صفوف الامراء ورجع كثير منهم الى مصر مظهرا الولاء لمحمد علي . ولكن محمد علي لم يعد يأمن لهم فدبر في صفر عام ١٢٢٦ هـ المكيدة التي قضى بها على عدد كبير من رؤسائهم (٢) فانتهت بذلك المصاولة التي امتدت بينه وبينهم اكثر من سبع سنوات . ولم يعد الجبرتي يذكر شيئا مهما من نشاط العربان بل انه لم يذكرهم في سني ١٢٢٧ و ١٢٢٨ و ١٢٢٩ هـ . وقد ذكر في حوادث شهر رجب من عام ١٢٣٠ هـ ان كريم شيخ عرب ترهونة في الوجه القبلي وكان عاصيا على الباشا جاء طائعا الى ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حينما كان هذا على رأس حملة الحجاز نتيجة لمساعي ابراهيم فأمنه . ولما عاد الاب من الحجاز اتاه الشيخ على امان ابنه ومعه هدية اربعون جملا فقبل الهدية ثم امر برمي عنقه في الرميلة (٣) ! ثم ذكر في حوادث شهر صفر من عام ١٢٣٤ هـ ان الحجاج جاؤوا ودخلوا مصر على حين غفلة وقال ان هذا لم يتفق نظيره فيما وعيناه . وسببه أمن الطرق وانكماش العربان (٤) . حيث ينطوي في هذا ان هيبة محمد علي بعد قضائه على امراء المماليك واستتباب الحكم له قد ملأت قلوبهم وجعلتهم ينشدون السلامة في الخضوع والسكون . وآخر مرة ذكرهم الجبرتي كانت في سياق حوادث جمادى الاولى من عام ١٢٣٥ هـ حيث ذكر ان الباشا جرد حاكم البحيرة على واحة سيوه فسار اليها بجنده ومعه طائفة من العرب ... (٥) .

---

(١) ص ١٢٥

(٢) انظر تفاصيل المكيدة ص ١٣٤ ـ ١٤١

(٣) ص ٢٣٦

(٤) ص ٣٢٠

(٥) ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩

ومهما بدا من ثغرات واقتضاب في نبذة الجبرتي فان فيها دلالة قوية على ما كان للعرب من قوة نشاط وسعة حيز وانتشار امتدادا لما كان لهم من ذلك في القرون السابقة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر .

ونقول هنا ما قلناه في اعقاب اقتباسنا من ابن اياس بسبب اقتصار الجبرتي على ذكر نشاط القبائل العربية حيث كان هو المتسق مع طبيعة الواقع والامكان وحيث كانت الآلاف المؤلفة من الارومات العربية الاخرى في مصر قد اندمجت في الحياة الحضرية وانصرفت لمقتضياتها .

ويلحظ ان بين اسماء القبائل التي ذكرها الجبرتي ما هو جديد . فاما ان يكون هذا الجديد اسماء فروع تفرعت عن القديم واشتهرت القبائل بها واما ان تكون قبائل جديدة تسربت الى مصر جريا على العادة المستمرة ، وقد يكون الامران معا . فقد كان في سيناء قبائل عديدة تسرب منها فروع وبطون الى مصر على ما سوف نذكره في النبذة التالية .

صور متنوعة من كتاب تاريخ سيناء وجغرافيته

لنعوم شقير

— ٩ —

ولقد كتب نعوم شقير كتابا ضخما عنوانه تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ضمنه ابحاثا متنوعة قيمة في جغرافية سيناء وتاريخها ومكانها وقبائلها غابرا وحاضرا . والحق به خاتمة فيها خلاصة لتاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بين هذه الاقطار من علائق تجارية وحربية وغيرها عن طريق سيناء منذ اول عهد التاريخ الى اليوم . وفي بحث خلاصة تاريخ مصر من هذه الخاتمة بيان بقبائل البدو الموجودة في الاقليم المصري ــ باستثناء سيناء ــ في سنة ١٩٠٦ م الموافقة لعام ١٣٢٢ هـ نقلا عن نشرة رسمية [١] .

وفي الكتاب اشياء كثيرة متصلة بموضوعنا ، نقتبس منها ما يلي كتتمة لما اقتبسناه من الكتب السابقة .

ونبدأ أولا بما جاء في الكتاب عن سيناء التي هي موضوع الكتاب الاصلي :

قال المؤلف في مطلع الفصل الذي عقده على سكان سيناء [٢] في صدد سكانها الاصليين ان الآثار التي خلفها الفراعنة في سيناء تدل على ان سكان هذه الجزيرة كانوا منذ بدء التاريخ من اصل سامي كسكان

---

(١) الكتاب مطبوع في سنة ١٩١٦ م ويستفاد من مقدمته ان مؤلفه كان منتدبا في مهمة رسمية في سيناء انتهى منها سنة ١٩٠٧ م ودرس احوال المنطقة خلالها ثم زاد على ما دونه في ذلك ما رأى زيادته مفيدة وطبع كل ذلك في هذا الكتاب .

(٢) ص ١٠٦ ـ ١٠٧

سورية وكانوا يتكلمون لغة غير لغة المصريين وقد عرفوا على الآثـار المصرية باسم هيروشاتيو أي أسياد الرمال • وقال في الخاتمة التـاريخية التي ذكرنا عنوانها آنفا كمبرر لاقحامها في الكتاب ان الباحث في تاريخ مصر والشام والعراق كلما تعمق في البحث وجد ان معظم سكان هذه البلاد كانوا في كل عصور التاريخ كما هم في هذا العصر عربا او مـن اصل عربي وكانت لغتهم العربية او اختا لها ، وكانت الصلة الهامة التـي تربط هذه البلاد ببعضها هي الصلة الجنسية العربية ، وان سيناء كانت قبل تقدم الملاحة هي الرابطة التي تربط بينها لانـه لم يكن بين مصـر وجاراتها واخواتها اتصال الا بطريقها وكانت بالتالي طريق الفاتحين من الشمال الشامي الى مصر كما كانت طريق فراعنة مصر الى الشام والعراق بدورها [١] •

وهذا متسق مع ما شرحناه في التمهيد كما هو المتبادر ، فلا نرى محلا لزيادة الا تنبيها هاما يحسن ان ننبه اليه وهو ان الجنس العربي قد طبع طابعه الخالد على سيناء في اسمها العربي القديم • فسيناء من سين • وسين هو اسم الاله القمر في جنوب جزيرة العرب ثم في العراق قبل الميلاد المسيحي بعشرات القرون [٢] • •

ومما قاله المؤلف في بحث سكان سيناء الاصليين الذين بادوا بعد ذكره اسياد الرمال [٣] انه رأى في درج في دير سيناء ان سكان الجزيرة في عهد يوستيانيوس ــ ملك بيزانس في اوائل القرن السادس للمسيح هم الاعراب بنو اسماعيل ــ ثم قال ان يوستيانيوس المذكو بنى ديرا لرهبان طور سيناء وبعث اليه بحامية خليط من اروام ومصريين عرفوا

---

(١) ص ١٠٦ ــ ١٠٧ و ٦١٧ ــ ٦١٨

(٢) انظر الجزء الاول مـن تاريـخ الجنس العربـي للمؤلف ص ٨٧ ــ ٨٨ ومقدمة في الحضارات القديمة لطه باقر ج ١ ص ٢٢٤ ــ ٢٧٩ والقرون القديمة لبريستيد ترجمـة قربان ص ٩٠

(٣) ص ١٠٦ ــ ١٠٧

بالجبالية نسبة الى جبل الطور وما زالوا يسكنون ضواحي الجبل الى اليوم • ولما ظهر الاسلام وفتح المسلمون العرب جزيرة سيناء وتغلبوا على اهلها الاصليين ابادوا اكثرهم واستبعدوا الباقين أو أجلوهم عن البلاد وسكنوها الى هذا العهد ، ويستمر المؤلف في سياقه فيقول ان اقدم القبائل الاصلية التي بقي لها اثر في الجزيرة بعد ان افتتحها العرب المسلمون هم الحماضة والتبنة والمواطرة في بلاد الطور والبدارة في جبال العجمة من بلاد التيه • وقد دخلوا في حمى العرب الفاتحين واتخذوا لغتهم وديانتهم وعاداتهم ولكنهم ما زالوا منفصلين عنهم في الجنس فالبدو الفاتحون لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ولا يقيمون حربا عليهم الى اليوم •

وفي سياق المؤلف شيء من التناقض حيث يقول ان الفاتحين المسلمين ابادوا اكثر سكان جزيرة سيناء الاصليين واجلوا باقيهم ثم يذكر ان بقايا الجبالية والحماضة والتبنة والمواطرة ما تزال في سيناء الى اليوم وانها دخلت في حمى الفاتحين واتخذت لغتهم وديانتهم وعاداتهم • وقوله انهم ظلوا مع ذلك منفصلين عن البدو الفاتحين فيه نظر ايضا • فان اسماءهم تحمل الطابع العربي الصريح • وقد تكون من متنصرة العرب كما كان شأن كثير من قبائل الشام العربية فلا يعقل ان لا يندمجوا بالفاتحين بعد اعتناقهم الاسلام اسوة بجماهير النصارى الذين اندمجوا فيهم • واذا كان بعض قبائل جزيرة سيناء منكمشة عن بعضها اليوم على ما يفيده كلام المؤلف الذي ربما كان مستندا الى مشاهدته او سماعه فالارجح ان يكون ذلك لاسباب اخرى •

ومما قاله عن القبائل المذكورة التي نعتها بالاصلية (١) ان المشهور ان الحماضة كانوا اسياد البلاد قبل الصوالحة ــ وهؤلاء طارئون جديدون على سيناء سيرد ذكرهم بعد ــ وان مجتمعهم كان في حديقة

---

(١) ص ١٠٧

فيران ـــ ناحية بهذا الاسم كما هو المتبادر ـــ وانهم الآن شرذمة قليلة لا يزيدون عن اربعين بيتا وقـــد دخلوا في حمى العليقـــات ـــ وهؤلاء طارئون جديدون على سيناء سيرد ذكرهم بعد • اما التبنة فكانوا سكان حديقة فيران الاصليين يزرعون ارضها ويلقحون نخيلها الى اليوم • اما المواطرة فيسكنون في حديقة الحمام قرب مدينة الطور يزرعون ارضها ويلقحون نخيلها كذلك كالتبنة في فيران وقال المؤلف في سياق كلامه انه رأى لهم ذكرا في بعض كتب الدير القديمة يرجع تاريخها الى سنة ١٠٠١هـ ـــ ١٥٩٢ م ويظهر ان التبنة والمواطرة من اصل واحد وانهما اعرق فـــي القدم من الحماضة • واما البدارة ويبلغ عددهم نحو خمسين بيتا فانهم يسكنون جبال العجمة وكانوا اولا حلفاء قبيلة التياها ثم اختلفوا معهم منذ عهد قريب فحالفوا الصفايحة اللحيوات ـــ وهم طارئون جديدون على سيناء كذلك ـــ ولهم علاقة حسنى مع العلقيات الذين هم بـــدورهم طارئون جديدون كذلك •

وفي بحث «سكان جزيرة سيناء العرب المسلمون الذين هجروها» قال المؤلف [١] ان في تقاليد بدو سيناء انه قد هاجر من العرب المسلمين ٧٥ قبيلة من نجد والحجاز في سنة واحدة فسكنوا مصر وسيناء وجنوب فلسطين غير ان من سكن سيناء منها لم يثبت فيها كلها بل هاجر كثير منها الى مصر او سورية وان الباقين ضعفوا او انقرضوا كلهم ، ومن هؤلاء الوحيدات والرشيدات والرتيمات والجبارات والعايد والمعازة والطميلات وبنو واصل وبنو سليمان والعيايدة والنفيعات ، وقد ذكر صاحب درر الفرائد في رحلته الى الحجـــاز سنة ٩٥٥ هـ ـــ ١٥٤٨ م الوحيـــدات والرشيدات وقال انهما فرعان من بني عطية وان عليهما درك النقب بينما لا يوجد الآن احد منهما في سيناء ويوجد بقية من الوحيدات في بلاد غزة • واما الرتيمات والجبارات فقـــد كانت مساكنهما في بلاد العريش

(١) ص ١٠٨ ـ ١١١

الشرقية فطردهما الترابين ــ احدى القبائل الطارئة وسيرد ذكرها بعد ــ منها الى بلاد غزة في اوائل القرن التاسع عشر بعد حرب دامت عشرين سنة • وأما العائد فهم الآن من سكان مديرية الشرقية في جهة بلبيس وقد تحضروا وتركوا البادية • وقال المؤلف بعد هذا انه ليس لدينا دليل على انهم سكنوا جزيرة سيناء ثم ناقض نفسه فقال ولكنا نرى الحكومة المصرية عهدت اليهم قديما خفر المحمل من مصر الى العقبة وان ذكرهم ورد في كتاب الام المحفوظ الآن في الدير بان لهم الاشراف على قبائل الطورة في سيناء وفي بيت شيخهم تعقد شروط الاتفاق بين عرب الطورة ورهبان دير سيناء بشأن تأجير الابل وتأمين الطرق ! ثم قال ان العايد الآن فريقان فريق يرجع بنسبه الى ابراهيم العايدي وفريق الى حسن اباظة • ومن هذا الفريق أسرة اباظة المشهورة • وينتهي نسب العايد الى عقبة الى جذام الى قحطان وكانت جذام في جملة من دخلوا مصر مع عمرو بن العاص (١) واما المعازة والطحيلات فانهم رحلوا من سيناء الى مصر وبقي لهم الى الآن بعض املاك في بر قطية من بلاد العريش • واما بنو واصل فقد اجمع ثقات سيناء على انهم من بني عقبة من عرب الحجاز وانهم هاجروا الى بلاد الطور من عهد بعيد واقتسموا البلاد مع الحماضة حيث اخذوا القسم الجنوبي الى وادي فيران واخذ الحماضة القسم الشمالي أي وادي فيران وشماليه الى جبال التيه وكانت منافع البلاد مقسومة بينهما بالسوية ثم قامت حرب بينهما بشأن نقل الحجاج الذين كانوا يأتون بطريق الطور وكانت الواقعة الكبرى في المكان المعروف بكون الحماضة قرب وادي وردان فادت الى ضعفهم جميعا • وجاء بعد قليل الصوالحة والنفيعات من بر الحجاز واستولوا على البلاد واقتسموا منافعها وانضم من بقي من الحماضة الى النفيعات ثم الى حلفائهم العليقات وانضم من بقي من بني واصل وهم الآن نحو

---

(١) ورد ذكر العائذ بالذال المعجمة في رسالة المقريزي والعائد بالدال المهملة في صبح الاعشى كفرع من فروع جذام على ما مر بيانه قبل .

(٢٠) بيتا الى الصوالحة ، ويقول المؤلف انه رأى ذكرا لبني واصل في كتاب الام في سياق ذكر عدوان ببني عقبة اصحاب الدرك في قلعة المويلح على تجار بني واصل في صفر عام ١٠٠٢ هـ ، وان في مديرية جرجا في مصر قبيلة من بني واصل • واما عرب بني سليمان ـ والسياق جميعه لشقير المؤلف ـ فالظاهر انهم كانوا قبيلة قوية في الجزيرة ـ جزيرة سيناء كما هو المتبادر ـ ولعلهم دخلوها مع بني واصل وكانوا حلفاءهم ثم ضاق بهم العيش فرحلوا الى مصر وسكنوا مديرية الشرقية ولم يبق منهم في الجزيرة الآن سوى بيت واحد انضم الى القرارشة الصوالحة • واما العيايدة فانهم استوطنوا بلاد الطور مدة ثم رحلوا عنها بسبب القحط على الارجح الى مصر فسكنوا مديرية الشرقية وغربي بلاد العريش وبقي لهم كرم نخيل في وادي فيرا نالى عهد قريب باعه صاحبه لرجل من العوارمة سنة ١٩٠٥ م • واما النفيعات فالراجح انهم دخلوا بلاد الطور مع الصوالحة فوجدوا الحماضة وبني واصل في ضعف فاستولوا على البلاد معهم واقتسموها فيما بينهم واقتسموا كذلك غفر الدير ونقل الحجاج والسياح • ثم جاء العليقات من بلاد الحجاز وحالفوا النفيعات وصاروا معهم حزبا واحدا رئيسهم النفيعي • وسكن العليقات اولا جهة عين حدرة والنويبع ثم حصل قحط في الجزيرة فرحل النفيعات الى مصر وسكنوا مديرية الشرقية وحل محلهم في الجزيرة حلفاؤهم العليقات وترك النفيعات في الجزيرة بدنة منهم ـ المقصود بطن او فرع كما هو المتبادر ـ يقال لها السواعدة فسكنت مع العليقات الى اليوم • ولا يزال للشيخ ابراهيم منصور عمدة النفيعات الحالي ـ ١٩٠٧ ـ ١٩١٦ ـ املاك في اودية فيران والنصب وبعبعة من بلاد الطور وفي بر قطية من بلاد العريش ـ ويقول المؤلف في سياقه انه رأى في كتب الدير ذكرا للنفيعات يرجع تاريخه الى سنة ١٠٠١ هـ ـ ١٠٩٣ م وهم ينتسبون الى نافع بن مروان بطن من ثعلبة من نجد الحجاز !

واستطرد المؤلف بعد هذا الى ذكر حرب وقعت بين الصوالحة

والعليقات نتيجة لاختلافهم على قسمة منافع البلاد ونقل الحجاج وكانت بينهم وقعة عظيمة في وادي الحمام قرب مدينة الطور كان النصر فيها للصوالحة وادى ذلك الى ضعف العليقات • واتفق في اثناء ذلك قدوم جماعة من مزينة من قبيلة حرب الى سيناء فطلبوا من الصوالحة الاذن لهم بالاقامة معهم فشرطوا عليهم جعلا قدره نصفان من الدراهم على كل بنت يزوجونها فابوا وحالفوا العليقات على ان يكون لكل من القبيلتين نصف منافع الجهة ما عدا منافع الدير حيث تبقى للعليقات وحدهم ، وان هذا الحلف قوى العليقات وجعلهم يشعرون بقدرتهم على اخذ ثارهم من الصوالحة ، وانهم انقضوا على خصومهم وهم مستغرقون في النوم في أثناء زيارتهم لمقام اسمه الشيخ صالح فقتلوهم شر قتلة • ثم اجتمع كبراء الطرفين في بيت عربي في مصر يدعى الودي وعقدوا صلحا على ان يعود كل فريق منهم الى الاملاك التي كانت له قبل الحرب من نخيل ومزارع وان تعود منافع البلاد من خفر الدير ونقل حجاجه ونقل حجاج المسلمين قسمة بالسوية بينهما •

ويلحظ في كلام المؤلف شيء من التناقض هنا ايضا • فهو يعنون بحثه بعنوان « سكانها العرب المسلمون الذين هجروها » ولكنه يذكر وجود بعضهم الى الآن فيها •••

والمستفاد من سياق المؤلف الذي ورد تحت هذا العنوان ان كلامه مبني على روايات سمعها من البدو • ولا يبعد ان يكون شابها شيء غير يسير من الخيال • غير اننا نرجح ان فيها حقائق ايضا • ويلمح فيها صورة من صور التموج العربي المستمر بين سيناء ومصر كما هو ظاهر ••••

وقد عقد المؤلف بعد هذا بحثا عنونه بعنوان «سكانها الحاليون»[1] وقد ذكرهم تحت ثلاثة اقسام •

---

(١) ص ١١٢ — ١٢٥

الاول : قبائل بلاد الطور • وقد قال في صدد ذلك انه يسكن الآن بلاد الطور قبائل العليقات ومزينةوالعوارمة واولادسعيدوالقرارشة والجبالية ويطلق عليها كلها اسم « الطورة » ويطلق على العوارمة واولاد سعيد والقرارشة اسم الصوالحة • وقد يطلق اسم الصوالحة على العوارمة وحدهم •

ثم ذكر بعض البيانات عن هذه القبائل نوردها ملخصة كما يلي :

١ ـ العليقات : اهم فروعها اولاد سلمى والتيلات والحمايدة والخريسات ، وينضم اليها الحماضة والسواعدة من النفيعات ،وشيخها الحالي مدخل سليمان من اولاد سلمى • وتمتد بلادها من الرملة الى وادي غرندل • والمشهور انها هي والعليقات القاطنين في مديريتي القليوبية واسوان من اصل واحد •

٢ ـ مزينة : اهم فروعها العلاونة والشذاذنة والعويصات واولاد علي • وشيخها الحالي خضر عامر من العويصات • وتبدأ بلادها من جنوب مدينة الطور وتمتد على الشطوط البحرية حول رأس محمد الى النويبع فالرملة • وقد اشتهروا بحب السلام ولين العريكة والامانة• ومن اشغالهم صنع حجارة الرحى والفحم وصيد السمك • ويسكن معهم نفر من العزايزة يصيدون السمك ولهم نخيل قديم في ارض مزينة ولعلهم من العزايزة الساكنين غزة •

٣ ـ العوارمة : فروعها العوارمة والفوانسة والرويسات والنواصرة والمحاسنة • وشيخهم سليمان غنيم من الفوانسة • ويسكن الآن فريق من العوامرة قرب قليوب في مصر • ولبعضهم املاك من النخيل في فيران الى اليوم وكبيرهم هندي ابو شعيرة من النواصرة •

٤ ـ اولاد سعيد : فروعها اولاد سعيد والزهيرات والعوامرة واولاد مسلم واولاد سيف والرزنة • والفرع الاخير ملحق بهم وليس من اصلهم • وشيخهم صالح العلي من العوامرة •

٥ ــ القرارشة : فروعها النصيرات واود تيهي • ومما قيل عنهم أنهم من عرب قريش جاؤوا الى سيناء مع العوارمة واولاد سعيد • وبالنظر لرفعة نسبهم يكون شيخهم في الغالب شيخا للطورة كافة • وشيخهم الحالي نصير موسى من النصيرات وكان ابوه شيخ مشايخ الطورة كافة • وهو اعظم رجل انتجته الجزيرة في هذا العصر •

٦ ــ الجبالية : فروعها الحمايدة والسلايمة والوهيبات واولاد جندي • وشيخهم الحالي عطية ابو غنيمات من الوهيبات • وهم خليط من اروام ومصريين وكانوا يدينون بالنصرانية ثم اجبروا على اعتناق الاسلام وعاشوا عيشة البادية • والبدو العريقون في البادية يترفعون عنهم فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم [1]•

والقسم الثاني من قبائل سيناء الحاليين قبائل بلاد التيه • حيث يسكن في هذه البلاد فروع من قبائل التياها والترابين واللحيوات والحويطات •

١ ــ فالتياها : تسكن بلاد التيه وجنوب سورية • وبرية بئرالسبع وقد ذكرناها في فصل قبائل بلاد الشام نقلا عن كتاب تاريخ بئر السبع وقبائلها لعارف العارف ــ واهم فروعها التي تسكن بلاد التيه هي الصقيرات والبنيات والشتيات والقديرات والبريكات • وشيخهم الحالي حمد مصلح من الصقيرات •

والمشهور ان هذه القبيلة هي اقدم قبائل التيه ، وانها سميت باسمها لانها اول قبيلة سكنت ببلاد التيه • وفي تقاليد شيوخها ان اصلهم من

---

(١) هذا الكلام من دعاوى المبشرين وتلامذتهم التي لا سند لها بدليل ان شراذم كثيرة من نصارى العرب الصرحاء وغير الصرحاء في بلاد الشام ومصر احبوا ان يحتفظوا بدينهم فكان لهم ذلك وظلوا كذلك الى الان وسط خضم المسلمين الذي كان يحيط بهم وفي ظل السلطان الاسلامي القوي الشامل الذي استمر كذلك ثلاثة عشر قرنا في هذه البلاد . أما ترفع البدو العريقين عنهم فالارجح انه لاسباب اجتماعية واخلاقية .

بني هلال من ظعن سليمان العنود من برية نجد وانهم دخلوا مع الترايين — وهي من قبائل بئر السبع وسيناء معا — وسكنوا معا بلاد التيه ثم وقعت حرب بينهما كان الفوز فيها للتياها فانهزم الترايين الى مصر ثم عادوا الى جزيرة سيناء واصطلحوا مع التياها في بلدة نخل على ان يكون لهؤلاء ارض الجلد وللترايين ارض الومث فسكن التياها من جبل الحلال الى نقب الراكنة شمالا جنوبا ومن مطلة نخل الشرقية الى جبيل حسن شرقا غربا وسكن الترايين شمالي جبل الحلال وامتدوا شمالا بشرق الى غزة [1] .

٢ — الترابين : اهم فروع هذه القبيلة في التيه الحررة والحسابلة والشبيبات . والاولى في شياخة خضر الشنوب والثاني في شياخة سلامة حجازي والثالث في شياخة عودة الباسلي .

واشهر مراكزهم الجورة والبرت والبواطي والمقضبة والعمر وام قطف والرافعة وجبل المغارة والجفجافة وجبل الراحة . ومعظم الترابين في بلاد غزة . ومنهم طائفة في مديرية الجيزة بمصر .

وقد اورد المؤلف رواية في اصل الترابين هي اقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة لم نر طائلا في ايرادها . ثم قال ان مؤلف درر الفوائد ذكران الترابين والوحيدات والحويطات واللحيوات من اصل واحد أي من بني عطية .

٣ — اللحيوات : فروعها النجمات والحناطلة والكساسبة والسلاميين والغريقانيين والمطور والكرادمة والحمدات والصفايحة والخواطرة والخلايفة .

وفي تقاليد هذه القبيلة انهم من بني عطية المساعيد المنتسبين الى مسعود بن هاني ، وان المساعيد ارتحلوا هم وبنو عقبة من نجد الى وادي العربة ، وان المساعيد تفرقوا ثلاث فرق فرقة سكنت الفارعة وراء

---

(١) ذكرنا قبيلة الترايين في برية السبع في فصل قبائل بلاد الشام .

حوران [1] وفرقة سكنت ارض مصر وعرفت باولاد سليمان وفرقة بقيت في بر قطية غرب العريش وحافظت على اسم المساعيد • وفرقة ذهبت جنوبا بشرق فسكنت وادي الليف في البدع على نحو خمسين ميلا من العقبة • وتخلف من هذه الفرقة قوم في وادي الجرافي هم الذين عرفوا بالوحيدات او اللحيوات نسبة الى نبت اسمه الحوى كانوا يقتاتون به!

وقد تفرع عنهم فروع عديدة هي الشوافون والكرادمة والحمدات والنجمات والحناطلة والكساسبة والسلاميون والغريقانيون والمطور والصفايحة • وهناك عشيرتان منضمتان اليهم وليستا من اصلهم وهما الخواطرة والخلايفة •

وبلاد اللحيوات شرقي بلاد التياها وغربيها • واشهر مراكزهم جبل المغارة والجفجافة وسر الحقيب وعين سدر وجبل بضيع وهذه البلاد مساكن الصفائحة •

أما باقي الفروع فيسكنون شرقي التياها ويمتدون من مطلة نخل الشرقية الى وادي العربة شرقا وغربا ومن جبل الاحيقبة الى خليج العقبة شمالا وجنوبا •

وقد كان للحيوات درك درب الحج المصري من مطلة نخل الشرقية الى العقبة ثم صار لعرب الحويطات • ومشايخ اللحيوات من فرع النجمات ذرية نجم بن سلامة بن غانم بن شوفان بن سعد صادق الوعد • وكان نجم هذا اول من اخذ الصرة من الحكومة المصرية لحماية طريق الحج • وقد تولى المشيخة بعده ابنه علي ثم حمدان بن نجم ثم مسمح ابن عليان بن نجم ثم عليان بن مسمح ثم سليمان بن سالم بن نجم ثم علي بن سليمان ثم عليان بن سليمان وهو الشيخ الذي كان عند كتابة شقير كتابه •

---

(١) الفارعة اسم لماء في غور بيسان اريحا وبعرف الغور الذي فيه هذا الماء باسم غور الفارعة وهو قريب لنابلس للشرق . وفيه فعلا قبيلة تعرف بالمساعيد . **(المؤلف)**

٤ ــ الحويطات : منهم في بلاد التيه شراذم من بدنات (فروع او بطون) شتى جاؤوها حديثا من مصر والحجاز واقدمهم فيها الديور وهم يتجرون بالحطب والفحم مع السويس • وشيخهم سعد ابو نار • وتمتد بلادهم من طاسة العلو تجاه الاسماعيلية الى وادي غرندل شمالا وجنوبا ومن جبل حسن الى البحر الاحمر شرقا وغربا • واشهر مراكزهم بئر مبعوق وبئر المرة في وادي الراحة • وعين سدر في وادي سدر •

ومن الحويطات قبيلة كبيرة في مصر في مديرية القليوبية وعمدتهم الشيخ سعد بن شديد • وله منزل في القاهرة وآخر في أجهور الصغرى وهو من المشايخ النبلاء •

ومنهم حويطات حسما والعقبة • وهم فريقان العلويون وكبيرهم الشيخ حسن بن جاد والعمران وكبيرهم الشيخ قاسم الهليل •

القسم الثالث : قبائل بلاد العريش • وهي السواركة والرميلات والمساعيد والعيايدة والاخارسةوالعقايلةوبلي البررة واولاد علي والقطاوية والبياضيين والسماعنة والسعديون والدواغرة • واهمها السواركة والرميلات • وهم يسكنون القسم الشرقي من بلاد العريش • اما بقية القبائل فتسكن القسم الغربي وتعرف بعربان بر قطية وهي فروع صغيرة من قبائل معروفة بنفس اسمائها في مديرية الشرقية والقليوبية بمصر الا المساعيد فان اخوانهم في مصر يعرفون باولاد سليمان •

واليك تفصيل عن كل منها :

١ ــ السواركة : هي اكثر قبائل سيناء عددا • وفروعها الرئيسية العردات والدهيمات والمحافيظ والفلافلة والخناصرة • وشيخها الشيخ سلام العردة من العرادات • ويقال لهم غز العرب لامتيازهم عن سائر البدو جيرانهم بنظافة المأكل والملبس • ومساكنهم القسم الشرقي من بلاد العريش أي القسم الواقع بين خط الحد الشرقي وبئر العبد شرقا وغربا وبين البحر المتوسط ورجم القبلين شمالا وجنوبا •

٢ ــ الرميلات : اهم فروع هذه القبيلة هي البسوم والشرطيين والعوابدة والسننة والعجالين • وشيخهم الحالي سليمان معيوف من البسوم الذي هو اكبر الفروع • وكان الرميلات يسكنون الغرارة في برية خان يونس من اعمال فلسطين ثم ارتحلوا الى بلاد العريش بسبب حروب نشبت بينهم وبين الترابين وانضموا الى السواركة بالاخوة وصاروا معهم قبيلة واحدة • وهم مشهورون بحب الخصام حتى قيل عنهم ان كان الحق لهم اخذوه عنوة واقتدارا وان كان عليهم لم يمكنوا خصمهم منه الا بكل مشقة • ويسكنون الآن في جهة رفح على الحدود •

٣ ــ المساعيد : عمدتهم الشيخ عودة عطية • وهم واللحيوات من اصل واحد • وهم اقوى القبائل بعد السواركة •

٤ ــ العيايدة : تمتد بلادهم من ضواحي القنطرة الى تل حبوة فالمرقب فام ضبان فالشيخ حميد فجبل الريشة • وفي شمالهم المساعيد وفي جنوبهم فرع الصفايحة من اللحيوات ومن شرقهم بلي البررة ومن غربهم ترعة السويس • وشيخهم مسلم ابو السباع •

٥ ــ الاخارشة : تمتد بلادهم على شاطىء البحر المتوسط من غراقد الحنة شمالي بركة الجمل الى قلعة مفرج • واهم مراكزهم القلس • ومن مشايخهم ابراهيم عطية وعبد العال محمد •

٦ ــ العقايلة : شيخهم عطوان السعدون •

٧ ــ بلي البررة : شيخهم جدوع الشلبي •

٨ ــ اولاد علي : شيخهم عمر ابو الرايات •

٩ ــ القطاوية : هم سكان حديقة قطية • وشيخهم سعيد ابو بطيحان •

١٠ ــ البياضيين : من مشايخهم الحاج علي سالم الهرش •

١١ ــ السماعنة : من مشايخهم محمد خضير وحسين شبانه •

١٢ ــ السعديين : شيخهم مقبول نصر ، وهم مجاورون للبياضيين والسماعنة .

١٣ ــ الدواغرة : هم من عرب مطير ، ويسكنون الزقبة ، وكانوا قديما يعيشون مع جيرانهم البدو بالخوة ، ولكنهم صاروا احرارا بحماية الحكومة لهم ، ومن مشايخهم عيد سويلم وسالم مصبح .

ومن القبائل التي تزرع الزقبة مع الدواغرة الاخارسة والبياضيين والسماعنة والسعديين .

وقد قال المؤلف في النهاية لكل عشيرة من عشائر بلاد العريش قسم معين من درك الطريق . فدرك العيايدة من القنطرة الى تل حبوة والمساعيد الى بئر الدويدار والاخارسة الى بئر النصف والعقايلة وبلي البررة واولاد علي الى سبخة قطية . والقطاوية الى بئر حجاج . والبياضيين الى بئر العبد من الجبل الى البحر . والدواغرة الى الجنادل والسواركة الى الشيخ رويد والرميلات الى رفح .

ولقد ذكر نعوم شقير بعد هذا [1] بضع قبائل اخرى تحت عنوان ملحقات قبائل سيناء نذكرها كما يلي :

آ ــ العبيد السود : وقد قال المؤلف انهم نسل عبيد كانوا عند القبائل العربية منذ القديم . وانه يوجد عدد كبير منهم يعملون في رعي السائمة وحراثة الارض ولا يزالون يعتبرون رقيقا مملوكا لمن عندهم . وهم مستعربون لغة وتقاليد .

ب ــ الشرارات : وهم من مجموعة قبائل تعرف بالهتيم تعيش في حمى القبائل القوية وتدفع لها خاوة . ومعظم الشرارات في بلاد نجد ولا يوجد منهم في سيناء الا عدد قليل .

---

(١) ص ١٢٣ ـ ١٢٥

ت ــ مطير : وهم ايضا من قبائل الهتيم • ويسكن فرع منهم الزقبة من بلاد العريش •

ث ــ العرنيات : وهم كذلك من الهتيم • ويسكنون فرع البنيات من التياها في جبل الحلال • ومنهم جماعة على شاطىء البحر يشتغلون بصيد السمك •

ج ــ الملالحة : وهم ايضا من الهتيم • ويسكنون في العجرة مع الترابين والسواركة •

وقد قــدر نعوم شقير عــدد سكان جزيرة سينــاء في سنة ١٩٠٦ بخمسين الفا منهم (١) اربعون الفا بدوا وعشرةآلافسكان مدن العريش ونخل والقنطرة ومدينة الطور والقرى التابعة لها • وعدد البــدو مقسم كما يلي :

مزينة ٤٢٠٠ العليقات ٢٤٠٠ العوارمة ١٥٠٠ القرارشة ١٥٠٠اولاد سعيد ٩٠٠ الجبالية ٤٨٠ اللحيوات ٤٢٠٠ التياها ٤٢٠٠ الترابين ٣٠٠٠ الحويطات ١٥٠٠ السواركة والرميلات ١٢٠٠٠ قبــائل بــلاد العريش الاخرى المسماة بعربان بر قطية ٤١٢٠

وفي بحث سكان مصر ــ في فصل خلاصة تاريخ مصر ــ في الجزء الاخير من الكتاب ذكر لقبائل البدو في مصر وقد قال المؤلف ان عددهم في التعداد الاخير أي تعداد سنة ١٩٠٧ م المذكور آنفــا هو ٦٣٥٠٠٠ منهم • ٩٧٣٨٠ قــدروا تقــديرا • وهم قبــائل شتى وكلهم مسلمون وينتسبون الــى عرب الحجــاز (٢) • ولا يزالون يتمتعون بامتيــازات

(١) ص ١٢٥ ــ ١٢٩

(٢) قول المؤلف هذا جزاف . فقد كان العرب الذين طرأوا على مصر في مختلف الادوار حجازيين ويمنيين او بالاصطلاح التقليدي قحطانيين وعدنانيين على ما مر شرحه . ومما قاله المؤلف في بحث سكان مصر ايضا ان عدد سكان مصر في سنة ١٩٠٧ حسب التعداد الرسمي كان ١١٫٢٨٧٫٣٥٩ منهم ١٠٫٢٦٩٫٤٤٥ مسلمون و ٧٠٦٣٢٢ اقباط نصارى و١٧٥٣٧٠نصارى

جمة أهمها اعفاؤهم من القرعة العسكرية ومحاكمتهم بموجب قانون خاص ينطبق على عرفهم وعادتهم • ثم اخذ يذكر اسماء هذه القبائل واماكنها وزعمائها نقلا عن نشرة قانون العربان الرسمية المؤرخة في ٧ يناير سنة ١٩٠٦ م كما يلي :

١ ـ في مديرية القليوبية : العليقات ـ الحويطات ـ العيايدة بحري ـ جهينة ـ الصهب ـ بلي بحري ـ الصوالحة •

ولم يذكر المؤلف الا عمدة الحويطات وهو سعد بك شديد •

٢ ـ في مديرية الشرقية : الهنادي ـ الطميلات ـ العيايدة بحري ـ مطير ـ النفيعات ـ السعديين ـ السماعنة ـ اولاد موسى ـ ابياضيين ـ اولاد سليمان ـ عبس ـ العقايلة ـ الاخارسة ـ بني غازي ـ القطاوية ـ العتبيين ـ جهينة الشرقية ـ اولاد علي الشرقية • وقد ذكر المؤلف اسم منصور بك نصر الله كعمدة النفيعات ومحمد بك ثلجي كعمدة للسعديين وامين بك بدران كعمدة لاولاد موسى •

٣ـ في مديرية المنوفية : القدادفة •

٤ ـ في مديرية الغربية : بنو عون ـ البهجة ـ الضعفا البحرية ـ الفواخر ـ الهداهيد •

سوربون وافرنج اكثرهم طليان • وان من المحتمل ان يكون ثلثا المسلمين من اصل قبطي والباقي من اصل عربي واقلية ضئيلة من اصل تركي وعجمي عددها ٢٧٥٩١ وتعليقا على هذا نقول انه مع ان معظم سكان مصر القدماء الذين صاروا يعرفون باسم الاقباط يمتون في اصلهم الى الجنس العربي قبل العروبة الصريحة على ما ذكرناه في تمهيد الفصل فان قول المؤلف ان ثلثي المسلمين من اصل قبطي جزاف ايضا ويتحمل التوقف • فلقد ظلت القبائل الصريحة العروبة تتدفق دون انقطاع على مصر منذ الفتح الاسلامي وتعمر ريفها ومدنها وصحاريها وكان عدد الذين لم تمتصهم المدن والقرى امتصاصا تاما منهم وظلوا يعيشون عيشة عشائرية في سنة ١٩٠٧ على ما ذكره نعيم شقير واوردناه بعد (٦٣٥٠٠٠) فليس من المعقول ان يقدر انسال القبائل الصريحة العروبة التي تدفقت على مصر خلال الف وثلاثمائة عام بثلث السكان فقط ، بل العكس هو الاصح ان لم يكن اكثر فيما هو المتبادر •

٥ ــ في مديرية البحيرة : اولاد علي ــ الجميعات ــ الدمنيات ــ الجوابيص ــ التمايم ــ هوارة ــ الربايع الازد • وذكر المؤلف اسماء فروع لاولاد علي هي اولاد علي الاحمرواولاد خروق والسننة والسناقرة وقال ان عمدتهم عمر بن خير الله الدجن •

٦ ــ في مديرية الجيزة : النجمة ــ الترابين ــ النعام ــ العيايدة قبلـــي •

٧ ــ في مديرية بني سويف : المشارقة ــ خويلد ــ السعــادنة ــ فزارة الضعفا •

٨ ــ في مديرية الفيوم : الحرابي ــ الصبيحات ــ الفرجــان ــ الرماح ــ البراعصة ــ الحوتة • وذكر المؤلف اسم عبد الستار بــك الباسل كعمدة للحرابي •

٩ ــ في مديرية المنيا : الفوايد ــ المعازة ــ الفرجان ــ الجوازي البيض ــ الجوازي الحمر ــ الجلالات • وذكر المؤلف اسم للوم بــك السعدي كعمدة للفوايد •

١٠ ــ في مديرية اسيوط : مطير ــ الجهمة ــ السعادنة ــ العطيات ــ العطيات قبلي ــ العطيات التابعة للجهمة ــ طرهونة ــ اندارة التابعة لطرهونة ــ الطرشان واجلاص التابعة لطرهونة ــ العمايم ــ الشنابلة ــ الكليبات ــ الاطاولة • وذكر المؤلف اسم مهنا بك سيف النصر كعمدة لطرهونة •

١١ ــ في مديرية جرجــا : بلي ــ بنو واصــل ــ الرشاديــة ــ الحروبة الصبحة •

١٢ ــ في مديرية قنا : الكلاحين ــ العوازم ــ العزازمة ــ الهلالي ــ جهينة قبلي •

١٣ ــ في مديرية اسوان : العليقات ــ العبابدة ــ وذكر المؤلف فروعا للعبابدة هي العشابات والفقرا والمليكاب والعبودين والشناتير •

وهكذا تنتشر القبائل البدوية العربية في كل مديرية من مديريات مصر في الوجهين القبلي والبحري • ومنها ما يأتي اسمه جديدا • ومن المحتمل ان يكون هؤلاء قد بدلوا اسما باسم او طرأوا حديثا • ومنها ما سبق ذكره في كتب الجبرتي وابن اياس والقلقشندي وابن خلدون • ومنها ما يمت الى قبائل سيناء •

ولقد مر على كتاب نعوم شقير خمسون سنة من المفروض انيكون عدد افراد القبائل قد تضاعف بنسبة تضاعف عدد سكان مصر • أي نحو ضعفين عما كان عليه في سنة كتابته كتابه • وقد يكون مع هذا كثير من الذين ذكرهم هذا المؤلف كقبائل بدوية قد اندمجوا في الحياة الحضرية خلال هذه المدة • غير ان الواقع الراهن هو انه مايزال في القطر المصري عدد عظيم من هذه القبائل يتسمون بسمة البداوة لهجة وزيا وتقاليد •

قبائل الصحراء الغربية :

بالاضافة الى هذه القبائل التي تعيش في مديريات مصر عيشة شبه حضرية فقد ذكر نعوم شقير قبائل اخرى تحت اسم قبائل الصحراء الغربية • وقد قال في صددها (١) استنادا الى ما سمعه من الخبراء انه يسكن الصحراء الغربية فريقان من البدو هما المرابطون والسعادي • ويمتد انتشارهما من النيل الى جالو والكفرة ، أي انهما موزعان بين القطر المصري وليبية حسب التقسيم السياسي الحاضر ، والمرابطون اقدم من السعادي ويعرفون ايضا بالصدقان او الاصدقاء • واهم قبائلهم زوي والمجابرة والاواجلة والمنفة والموالك والشواعر والجرارة والقطعان والحونة والقبائل والتراكي ومسراته والشهيبات والفواخر وترهونة والعوامة والصوانعة والسلاطنة وسعيط والقدادفة •

أما السعادي فهم فريقان فريق يسكن الصحراء من حدود النيل

---

(١) ج ٥ ص ٧٢٥

الى بني غازي • ويقال لهم اولاد سعدي وفريق يسكن الصحراء من بني غازي الى حدود جالو •

واولاد سعدي متفرعون الى ثلاثة فروع رئيسية هي فروع عقار وجبريل وبرغوث • وكل من هذه الفروع يتفرع الى فروع ثانوية ومنها ما يتفرع منه فروع فروع ايضا • وفروع عقار هي اولاد علي والحرابي والهنادي وبنو عونة • وفروع جبريل هي العواقير والعريبات والمغاربة والجوازي • وفروع برغوث هي العبيدوالعرفة والفوائد • ومن تقاليدهم ان سعدي اسم جدهم الاكبر وان عقار وجبريل وبرغوث هم اولاده •

اما الذين لا ينتمون الى اولاد سعدي من السعادي فهم قبائل الفرجان والحسون واولاد ابي سيف ورفلا والمحاميد والمتارحة واولاد سليمان والرماح •

ومما ذكره المؤلف ان قبائل السعادي حينما طرأت على هذه البلاد غلبت فيها قبائل المرابطين التي كانت فيها قبلها وفرضت عليها جزية سنوية وان قبائل السعادي تقاسمت فيما بينها قبائل المرابطين فصارت كل قبيلة من الاولى هي التي تتقاضى الجزية من القبيلة التي خصصت لها •

هذا • وقد يلحظ ان الاسماء والاحداث والصور التي نقلناها عن كتب البلوي وابن خلدون والمقريزي وابن اياس والجبرتي وشقير خاصة بالقبائل التي كانت تعيش عيشة القبيلة والبداوة • وهذا هو المتسق مع طبيعة الواقع فيما هو المتبادر • فالقبائل هي التي كانت تعيش متكتلة متكاثفة في نطاق التقاليد القبيلية التي كانت تجعل العصبية فيها قوية • وكانت هي التي تحمل السلاح • فكان هذا مما يبعث فيها الاعتداد والعنجهية ويجعلها تقف مواقف التمرد والجموح • وكانت على ما يبدو كثيرة جدا منتشرة في جميع انحاء القطر فكان لها بسبب ذلك هذا النشاط والحيز الكبيران • وقد كان السلاطين وامراء الجند والولاة يدركون ذلك فيحملهم على المسايرة والملاينة من جهة والاهتمام والحفاوة من جهة اخرى •

ومما لا شك فيه ان هذه القبائل التي ذكرت تلك الكتب اسماءها ونشاطها في النطاق القبيلي ليست هي جميع القبائل العربية الصريحة التي طرأت على القطر المصري بعد الاسلام • بل هي جزء منها • وهو الجزء الذي لم يكن قد اندمج في الحياة الحضرية اندماجا تاما • ويمثل حركة التموج القبيلي العربي في هذا القطر كما يمثل مثله هذه الحركة في بلاد الشام والعراق على ما شرحناه قبل ويكون دليلا حيا على هذه الحركة التي كانت منذ اقدم الازمنة والتي ستظل مستمرة طالما وراء بلاد الشام والعراق ووادي النيل جزيرة العرب الخالدة التي شبهت بحق بالحوض الذي تجري اليه المياه حتى يمتلأ فيفيض منه الفيض بعد الفيض وحقبة بعد اخرى الى اطرافه من لم يستطع ان يجد مجالا للاستقرار فيه مما لم يكد يكون له مثيل ومما يكمن فيه سرحيوية الجنس العربي العظيم المستمرة •

العرب والعروبة في الشطر الجنوبي

من وادي النيل

— ١ —

للعروبة في هذا الشطر جذور بعيدة الغور كما هو الحال في الشطر الشمالي حيث كان هو ايضا مباءة للتموج العربي منذ اقدم الازمنة فكانت الموجات العربية في دور العروبة غير الصريحة تنساح اليه اولا من جزيرة العرب عن طريق باب المندب فيستقر فيه منها ما يستقر وينساح منها الى الشمال ما ينساح على ما شرحناه في التمهيد •

ولقد ظلت حركة التموج العظيمة هذه مستمرة الى الفتح الاسلامي وبعده الى الآن وكانت وما تزال قوية الاثر والنشاط في مختلف انحاء الشطر الجنوبي الذي يبدأ من بعد الشلال الاول ويشمل مناطق السودان الواسعة في شرق امتداد نهر النيل وغربه الى الحبشة من جهة والى البحر الاحمر من جهة والى صحراء السودان الغربي الكبرى من جهة • وقد سجل لها التاريخ مظاهر وشواهد بروز عديدة في مجال الحكم والسلطان ايضا •

ولنعوم شقير كتاب ضخم عنوانه تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته في ثلاثة اجزاء كتبه سنة ١٩٠٣ م وضمنه فصولا قيمة تاريخية واجتماعية وحربية وجغرافية استند فيها الى مصادر كثيرة متنوعة قديمة وحديثة وعربية وأعجمية بالاضافة الى دراساته ومسموعاته الشخصية حيث كان يتولى وظائف ومهمات رسمية شهد خلالها كثيرا من الوقائع

الجارية في اواخر القرن التاسع عشر [1] • وسوف يكون معولنا في هذا وخاصة بالنسبة للسودان على هذا الكتاب في الدرجة الاولى •

— ٢ —

ولقد عقد نعوم شقير في الجزء الاول من كتابه فصلين على سكان السودان واخلاقهم وعاداتهم [2] • يستفاد منهما ان هذه البلاد مسكونة اليوم بجماعات سوداء وجماعات شبه سوداء وجماعات صريحة العروبة نسبة ولغة • ومن الجماعات السوداء من هم زنوج افريقيون في ملامحهم وسحنهم وشعرهم وعيونهم وانوفهم يسكن غالبهم الجزء الجنوبي من السودان • غير ان بينهم جماعات كبيرة لا يشبهون في سحنهم وقاماتهم وشعورهم وتقاطيعهم واسنانهم وعيونهم وانوفهم الجنس الزنجي ، وهم اقرب في كل ذلك الى الجنس العربي والاسلام فيهم غالب مما قد يسوغ القول انهم انسال موجات عربية اكتسبت ما اكتسبته من ملامح ولهجة زنجية نتيجة لطول اقامتهم في جنوب السودان وامتزاجهم بالقبائل الزنجية فيها وهم : ١ — قبائل الشلك التي تسكن غربي النيل الابيض بين جزيرة ابا وبحيرة نوء • وبلادهم سلسلة من القرى متصلة ببعضها وعلى كل منها شيخ وعلى كل مجموعة منها ناظر وعلى جميعها ملك يقيم في فاشودة • وهي من اقوى قبائل السود واطولها قامة • ٢ — قبائل الدنكا التي تسكن شرقي النيل الابيض تجاه الشلك وهي اشد قبائل السود سوادا ومن اجملها شكلا ٣ — قبائل النوير التي تسكن بين بحر سبت وبحر الغزال ٤ — قبائل الباري التي هي افرس قبائل السود واحسنها خلقا وابهاها طلعة • واشهر اماكنها كوندوكرو وباري ٥ — قبائل المادي وهي في جنوبي قبائل الباري وشبيهة لها في الهيئة والاخلاق

---

(١) انظر الجزء الاول من الكتاب ص ١ — ٨

(٢) ص ٤٥—٦٤ و ٨٥—٢٤٤ وجميع البيانات التالية مرجعها هذه الصحف من الفصلين •

والعادات • ٦ ـ قبائل الشلى التي تسكن في رأس بحر الجبل شمالي بحيرة نيانزا • وبين لغتهم ولغة الشلك مشابهة كلية حتى قال بعضهم انهم والشلك من اصل واحد • ٧ ـ قبائل اللاتوكا التي تسكن في شرق بحر الجبل وقد اجمع السياح الذين اجتابرا بلادهم على انهم والقالا الذين في جنوبي الحبشة من اصل واحد • ٨ ـ قبائل المكارك التي تسكن غربي بحر الجبل بجوار قبائل المادي ويمتازون عن الامم المحيطة بهم بان انوفهم اقل فطسا وخدودهم اقل بروزا وزاويةوجوههم اكثر انفراجا وشعورهم اطول واسبط • ٩ ـ قبائل الجانقي وهي فرع عظيم من الدنكا واكبر قبائل بحر الغزال واشدها بأسا واطولها قامة وسكناها السهول الواطئة الشمالية ، ١٠ ـ قبائل البنتو التي تسكن السهول المرتفعة جنوبي الجانقي وهي ارقى قبائل بحر الغزال بل هي في رأي شوينفرت السائح الالماني الشهير ارقى عقلا من سائر قبائل السود وتمتاز عنها بالوداعة ولين الجانب وحب العمل • ١١ ـ قبائل القولو التي تسكن غربي البتو والتي تشبهها فيهيئاتهاواخلاقهاوعاداتها ١٢ ـ قبائل الجور التي تسكن بين بلاد الدنكا والبنتو وترجع في انسابها الى الشلك وتتكلم لغتها • ١٣ ـ قبائل الاجار التي تسكن على نهر الرول من فروع بحر الغزال وهي فرع من الدنكا • ١٤ ـ قبائل المدور التي تسكن على نهر ياي في جوار الاجار ١٥ ـ قبائل الديور التي تسكن غربي الدنكا والتي هي فرع من الشلك ، ١٦ ـ قبائل الفراتيت التي تسكن في شمال بحر الغزال الغربي • وعدد الزنوج الاقحاح من الجماعات السوداء اقل من عدد الذين لا يشبهونهم منها وربما كان الاولون ثلث المجموع • والى هذا فان من هؤلاء مسلمين وان كانت اكثريتهم لا تزال وثنية •

اما الجماعات شبه السوداء فتقرير ما قررناه بشأن الجماعات السوداء التي لا تشبه الزنوج في سحنتها وملامحها وقامتها وشعورها

يمكن ان يكون باسلوب اقوى • فهم اقل سودا واوفر عقلا وارقى حضارة • وهم في الملامح اقرب الى العرب منهم الى الزنوج • ومعظمهم مسلمون واقلهم وثنيون • ويقرر الباحثون انهم غير افريقيين وانهم أنسال موجات طارئة من آسيا • ويقول بعضهم انهم ساميو الاصل أي عرب حسب اصطلاحنا الاصح — ومعظم سكان منطقة دارفور وهي المنطقة الغربية من السودان من هؤلاء كما ان معظم سكان مناطق داي والتمائم وباجرمي وبورنو وسكوتو التي تلي السودان للغرب منهم ايضا • وكل ما في الامر ان قبائل زنجية افريقية كانت تعيش الى جانبهم فنشأ امتزاج وتزاوج بينهم فتكون قبيل تغلب عليه اللمحة السودانية الافريقية وتغلب على لغته اللهجة السودانية الافريقية • ولقد نزل في منطقة دارفور قبائل صريحة العروبة فامتزجت بالجماعات شبه السوداء الموجودة فيها فانطبع كثير منها بدوره بالطابع العربي الصريح ، مما قد يكون فيه دلالة على وحدة الاصل • كذلك فان كثيرا من سكان منطقة كردوفان الواقعة شرقي منطقة دارفور من الجماعات شبه السوداء هذه• وقد نزلت هنا كذلك قبائل صريحة العروبة فامتزجت بهم فانطبع اكثرهم بطابع العروبة الصريحة •

واشهر الجماعات شبه السوداء : ١ — الفور ومركزهم جبل مرة • وقد اختلط بهم العرب فاسسوا معهم مملكة قوية في دارفور • ومن فصائلهم (الكنجارة) ومنهم ملوكهم الاولون ويدعون النسبة الى بني العباس و (المسبعات) وقد حكموا دارفور و (التنجر) ومركزهم جبل حريز على يومين الى الشرق من جبل مرة وشارتهم العمامة السوداء التي قيل انهم يلبسونها حدادا على الملك الذي كان لهم فاغتصبه الكنجارة • و (الجبلاويون) سكان جبل مول • ٢ — البرقد ومركزهم جبل سكو بين جبل حريز وجبل مرة • ومنهم فصيلة تعرف باب درق استعربت استعرابا تاما • ٣ — الميمة ومركزهم فافا • ومنهم فصيلة في كردوفان

استعربت استعرابا تاما • ٤ ــ المراريت ومركزهم جلــي وهم ايضــا استعربوا استعرابا تامــا • ٥ ــ العبورة وهم مجــاورون للمراريت • ٦ ــ كبقة وهم الى الشمال الغربي من جبل مرة • ٧ ــ كاجة البدو ، وبلادهم الى الشمال الشرقي من ام شنقة ٨ ــ الداجو ومركزهم جبل داجو ويقال انهم ملكوا البلاد قبل التنجر • ٩ ــ رنق وهم الى الجنوب الغربي من الداجو • ١٠ ــ البيقو وهم الى الجنوب من دارة • ١١ ــ الفمر ومركزهم ابو عشر وملوكهم مصاهرون لسلاطين الفور ، ١٢ ــ تامه وهمجاورون للقمر من جهة الغرب، ١٣ ــ المساليت وهممجاورون للقمر من جهة الجنوب ، ١٤ ــ سميــار وهم في جوار المساليت ، ١٥ ــ الزغاوة وهم فريقان زغاوة كبا في شرق دار قمر وزغاوة الدور في شمال الناشر • ومن هؤلاء فرع يقال لهم الكملة في بلاد دارا استعرباستعرابا تاما ، ١٦ ــ البرتي ومركزهم جبــل تقابو في شمال الناشر وهم قبيلــة جسيمة ويتكلمون العربية ، ١٧ ــ اسمور وهم في اقصى الشمال الغربي ١٨ ــ الميدوب ومركزهم جبل ميدوب ، ١٩ ــ البديات في غرب آبــار النطرون •

ومن الجماعات شبه السوداء جماعة البجة سكان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر • وهم من غير ســلالات السود ومن ســكــان اثيوبيا القدماء ويشبهون عرب البادية في الملامح والعادات الا انهم اشد منهم سمرة • ويرجح الباحثون انهم طارئون على افريقية ويقول بعضهم باصلهم السامي أي العربي حسب اصطلاحنا • وكــل ما في الامر انهم اكتسبوا ملامحهم الخاصة من طول الاقامة في السودان والامتزاج بالقبائل الزنجية • وقد نزل بينهم قبائل صريحة العروبة بعد الفتح الاسلامــي فامتزجوا معها وانطبع كثير منهم بالطابع العربي الصريح حتى ان بعضهم صار ينتسب الى اصل عربي قبــل الاســلام او بعــده واعتنق جميعهم الاسلام • وهم قبائل عديدة نذكرهاا فيما يلي :

١ ــ العبابدة : وينقسمون الى اربع عمائر تعرف بالبدنات • وهي (العشابات) وينتشرون في الصحراء بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم أصوان و (المليكاب [1]) وينتشرون بـين دراو وبوبو ومركز شيخهم دراو شمالي إصوان • و (الفقراء) وينتشرون في شرق النيل وغربـه بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم الرمـادي قرب ادفو و (العبودين) وينتشرون شرقي النيل بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم السيالة شمالي كورسكو • واكثرهم تابع لمصر ويخالطون الحضر علـى النيل وفـي تقاليدهم انهم قوم الزبير بن العوام ولعل قوم الزبير ــ وهـذا كـلام شقير ــ اختلطوا بهم فكانوا رؤوسهم •

٢ ــ البشارين • وهم ثلاث فرق • واحدة على البحر الاحمر من القصير فصاعدا جنوبا الى حدود سواكن ، وثانية على الاتبره (لعلهـا العطبرة) وثالثة في جزيرة عتباي بينهما • وكل من الفرق يتفرع بدوره الى عدة بدنات •

٣ ــ الامرار : وهم قبيلة جسيمة في طريق بربر بين سواكن وبئر ارباب • وينقسمون الى بدنات شتى اهلها الموسياب ولعلها (الموسىاب) وهم شيوخ القبيلة ومركزهم أرباب •

٤ ــ الهدندوة : وهم اقوى قبائل البجة واوفرهم عددا قيل انهم يبلغون نصف ميليون او أكثر ويسكنون الصحراء الواقعة بـين خور بركة والاتبرة وطريق بربر وسواكن وينقسمون الى بدنات شتى اهمهـا الويل الياب [1] (لعلها علي اب) وهم شيوخ القبيلـة ومركزهم فلك الى الشمال من كسلا •

٥ ــ الحلانقة : مركزهم كسلا •

---

(١) لقد كثر ملحق اب في اسماء القبائل السودانية العربية وشبه السوداء التي هـي عربية ايضا . ويقول نعوم شقير (ص ٥٥) ان معناه عائلة او قبيلة والارجح انه يعني بني فلان او ابناء فـلان .

٦ ـ بنو عامر : وهم من شرق خور بركة من عقيق الى سنهيت • وقد قامت فيهم قديما مملكة خضعت لسنار وهم منقسمون الى ست عشرة بدنه او اكثر اشهرها النابتاب (النابت أب) وهم رؤوسهم وينتسبون للجعليين • ومنهم فصيلة تعرف بالبجة أي باسم الجنس كله ومنهم كذلك فصيلة تعرف بالخاسة •

٧ ـ الحباب : وهم في شرق بني عامر ويمتدون من رأس قصار الى مصوع •

ومن الجماعات شبه السوداء جماعة النوبة ايضا • وهم المعروفون في مصر بالبرابرة والذين يعيشون بين الشلال الاول والرابع من وادي النيل • والصفات التي وصفت بها جماعة البجة تنطبق على هذه الجماعة ايضا حتى لقد قال بعض الباحثين ان الجماعتين من اصل واحد • وقد نزل بينهم قبائل قربية قام مع الزمن امتزاج بينها وبينهم وادى الى انطباعهم بالطابع العربي والى اعتناقهم الاسلام • ومن الجدير بالتنبيه ان القبائل العربية التي نزلت بينهم كانت اكثر منهم اضعافا مضاعفة حتى انها اليوم تؤلف القسم الاكبر من القبائل التي تسلك في سلك جماعة النوبة •

وأهم هذه القبائل :

١ ـ الدناقلة : وهم سكان النيل بين الشلال الثالث والرابع ويتفرعون الى فروع عديدة كل فرع كأنه قبيلة بذاتها واشهرها قبيلة الاشراف التي تدعى النسبة الى آل البيت ومنها محمد احمد المهدي • وقد قام منهما قديما ملوك ني الدفار ودنقلة العجوز والخندق وجزيرة ارقو ولا تزال ذريتهم فيها الى اليوم •

٢ ـ المحسن : وبلادهم بين الشلال الثالث وجبل دوشةوهميدعون النسبة الى بيد بن كعب العباس ويقولون انهم كانوا عند مجيئهم الى

دار المحسن سبعين الفا • وقد كان لهم قبل فتح مصر للسودان ملك في جبل ساس لا تزال ذريته مقيمة هناك الى اليوم •

٣ ـ اهل سكوت : ويسكنون بين جبل دوشة والشلال الثاني عند حلفا •

٤ ـ اهل حلفا والدر : وهم بين حلفا والسبوع •

٥ ـ الكنوز : وهم بين السبوع والشلال الاول • وقيل انهم جاؤوا من نجد والعراق •

ومما يقوله المؤلف عن هذه القبائل انهم قد يطلق عليهم جميعا اسم الدناقلة وانهم يتعاطون الزراعة وحياكة الدمور ويقتنون البقر والضأن والخيل • ويأتي بعضهم الى مصر فيشتغل الصغار في مسح الاحذية ويتعاطى الكبار الخدمة وسياسة الخيل وحراسة العمارات (بوابين) ويذهب بعضهم الى داخل السودان فيتعاطون التجارة والكتابة والفقه ونجارة المراكب •

والى جانب من تقدم ممن عروبتهم مرجحة وممتدة الى ما قبل الاسلام ومزيجة بعروبة صريحة طارئة بعده قبائل كثيرة جدا صريحة العروبة طرأت على السودان بعد الفتح وفي ظروف مختلفة ومتفاوتة حتى ان منهم من طرأ في عهد قريب • وهم معظم سكان السودان وارقاهم حضارة واوفرهم عقلا • وجميعهم مسلمون • وهم حضر وبدو واكثر الحضر على النيل الكبير والنيلين الازرق والابيض • اما البدو فاكثرهم في البطانة وصحارى البيوضة وكردوفان ودارفور • واسم « العرب » يطلق في السودان على البدو •

١ ـ واشهر قبائلهم على النيل الكبير :

آ ـ الشايقية : وهم حضر وبدو • ويتفرعون الى عدة بدنات اشهرها العادلاناب والسواراب والحنيكاب والعماراب • وقد اشتهر لهم في ايام سلطنة الفونج مملكة قوية وحاربوا اسماعيل باشا

وهو سائر لفتح سنـار • وهم موصوفون بالشجاعة والكرم والضيافة وحب العلم والفقهاء • وفقهاؤهم فريقان : (الدويحية) و (العونيـة) والاولون من ذرية عبد الرحمن ودحاج (ولد حاج على الارجح) الذي جاء من مكة واشتهر بالصلاح والتقوى وله قبة تزار في الـدويم بقرب مروى •

ب ــ المناصير : وهم يسكنون بين الشلال الرابع وابي حمـد • وينقسمون الى خمس بدنات وهي الوهابـاب والكبانـة والسليمانية والكجوباب والخبراء •

ت ــ الرباطاب : وهم في جنوبي المناصر • وينقسمون الى ثـلاث بدنات هي البديرية والفرانيب والضعيفاب • وهم مشهورون بسرعـة الخاطر والجواب المفحم • وهم في عرف اهل السودان اصحاب ككر وطاقية أي اصحاب ملك والككر هو الكرسي الذي يجلس عليه الملوك والطاقية عبارة عن التاج وهي لباس للرأس له قرنان •

ث ــ الميرفاب : وهم الـى جنوبـي الرباطـاب ومركزهم بربر • وفروعهم الصيام والمصطفى اب واللبيساب والرحمـاب • وهم اهـل ككر وطاقية ايضا •

ج ــ الجعليون : وهم الى جنوب الميرفاب • وهم اشهر قبـائل العرب في السودان • وقد عرفوا من اول عهدهم بالشجاعة واقتحـام الاخطـار وحب الاسفار فنراهم منتشرين في جميـع اقطـار السودان والحبشة • وحيث يذهبون يستوطنون وينشئون حلـة (أي محلة أو مخيما او جماعة) تنسب اليهم • وهم اهل ككر وطاقية • وكـان بينهم وبين الفنج وقايع عديدة كما كانوا في حروب مستمرة مع الشايقية واهل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة • وهم منقسمون الى اكثر من ثلاثين بدنة منها العمراب والمجاذيب والعبايسة والزراقية ــ وهؤلاء فقهاؤهم ــ والسعداب ــ وهم ملوكهم ــ والعوضية ــ واليهم ينتسب

وزراء الفنج ـ والنفيعاب والنافعاب والمكـابراب والاتقرياب • وقد اطلق في مصر اسم الجعليين على جميع سكان جبل النيل بين ابـي احمد والخرطوم ولكنهم في الحقيقة بين الدامر وعقبة قرى •

ح ـ الجيمعاب : ويسكنون النيل بين عقبة قرى والشيخ الطيب •

خ ـ السروراب : وهم الى جنوبي الجميعاب •

د ـ العابدلاب (العبد الله اب) ومركزهم الحلفاية تجاه الخرطوم• وقد سموا باسمهم نسبة الى كبير لهم اسمه عبد الله جماع اسس مملكة سنار مع الفنج وصار قسيما لهم فيها •

٢ ـ واشهر قبائل العرب على النيلين الابيض والازرق والجزيرة التي بينهما :

آ ـ الجموعية : وهم يسكنون غربي النيل الابيض بين امدرمان والترعة الخضراء • وهم اهل ككر وطاقية ومن فروعهم الفتيحاب سكان أم درمان والخرطوم الاصليون •

وقد قال المؤلف ان عرب الجموعيـة والسـروراب والجميعـاب والجعليين والميرفاب والرباطاب والشايقية المتقـدم ذكرهم يقولون ان جدهم واحد وهو ابو مرحة المتصل نسبه بالعباس وانـه كان لعم لـه سبع بنات ولما لم يكن من اهل السودان من هو كفوء لهن فانه تزوج بنات عمه الواحدة بعد الاخرى فصار جدا للقبائل السبع المذكورة !

ب ـ الحسنات : وهم في جنوبي الجموعية شرقي النيل وغربيـه ومركزهم القطنية •

ت ـ دغيم : ومنهم على ود ثاني خلفاء المهدي •

ث ـ كنانة : وهم ابناء عم دغيم ومركزهم جمعان • وكـلاهما في جهة جزيرة ابا شرقي النيل الابيض وغربيه •

ج ـ سليم : وهم في جنوبي كنانة •

ح ــ الرفاعيون : ومركزهم الكاملين على النيل الازرق • وهم ينتسبون الى جهينة •

خ ــ المسلمية : ومركزهم الحلة المعروفة باسمهم على النيل الازرق •

د ــ الحلاويون : ومركزهم في ظاهر المسلمية بالجزيرة • وهم ينتسبون الى جهينة •

ذ ــ المدنيون : ومركزهم ود مدني المسماة باسم جدهم المدفون هناك والذي له مقام يزار الى اليوم •

ر ــ العراكيون : وهم في بلاد ابي حراز وعبود ود مدني • ويدعون النسبة الى جعفر الطيار •

ز ــ الخوالدة : واكثرهم في جهة عبود في باطن الجزيرة • وينتسبون الى جهينة •

س ــ الكواهلة : وهم في جهتي عبود وود مدني • وينتسبون الى الزبير بن العوام • ومنهم بدو يسكنون غربي الرهد • ومن فروعهم الشهيرة الحسنات المار ذكرهم • والسنابلة • وهم مشهورون بالغنى والتجارة • وقد كان منهم مشيخة في زمن الفنج ومركزهم المسلمية •

ش ــ الشامباتة : ومركزهم شمباتة بين ود العباس وسنار • واكثرهم تجار •

ص ــ اليعقوباب : ويسكنون جنوبي سنار • وقيل ان نسبهم متصل بالجعليين •

ض ــ بقارة محارب : وهم منتشرون في الجزيرة بين سنار وجبلي سقدي وموية •

ط ــ العقليون : واكثرهم بدو ويسكنون بين الدندر والنيل الازرق •

ظ ــ الحمدة : وهم حضر وبدو • ويقيمون بين الدندر والرهد ولهم مشيختان واحدة في دبركي على الدندر واخرى في دنكر في آخر حدود سنار من جهة الحبشة •

ع ــ القواسمة : ويسكنون شمالي سنار في شرق النيل وغربه • وهم اشهر قبائل سنار • ومنهم بدو يسكنون غابة التريرة جنوبي سنار • ومنهم العابدلاب المتقدم ذكرهم والكماتير ويسكنون شرقي النيل الازرق بين رنقة والرصيرص • ومركزهم كركوج • وقد قام منهم في زمن الفنج مشيخة كبيرة •

غ ــ اللحويون : واكثرهم بدو ويسكنون في شرقي النيل الابيض بين الكوة والجبلين ويمتدون في داخل الجزيرة الى جبلي سقدي وموبه •

ف ــ بو حسين : ويقال لهم اولاد ابو روف ايضا • ومعظمهم بدو يمتدون من جبلي سقدي وموبه الى خور الدليب آخر حدود سنار في الجزيرة • واشهر مراكزهم (ابو حجار) قرب سيرو على النيل الازرق و (المرفوم) في باطن الجزيرة • وهم قبيلة جسيمة •

ق ــ العلاطيون : واكثرهم بدو يسكنون غرب النيل الازرق من الحديبات الى مشروع تولة •

وقد قال المؤلف بعد هذه القبيلة ان القبائل الست الاخيرة تنتسب الى جهينة • ويقال للحمدة والعقليين رفاعة الشرق او جهينة الشرق وللقواسمة واللحويين وبني حسين والعلاطيين رفاعة الهوى او جهينة الغرب و (الهوى) هي شبه جزيرة سنار واما رفاعة فهي اسم بلدة شهيرة على النيل الازرق •

ك ــ الزبالعة : ويسكنون جزيرة سنار والبلاد التي بين الرهد والدندر • وهم شيعة خاصة عرفت في السودان بالملة الخامسة • وفي تقاليدهم ان مؤسس شيعتهم أو نحلتهم شخص اسمه ابوجريد ويعتقدون بنبوته بل ولا يعرفون نبيا آخر سواه • وله قبر في حلة بنزقا شرقي النيل الازرق بين كركوج والرصيرص • ويجتمعون في مزاره مساء كل احد وثلاثاء فيعقدون حلقة ذكر ويرددون قولهم « لا اله الا الله ابو جريد نبي الله » ويقال انهم يستبيحون الاعراض في اجتماعاتهم • ونساؤهم من

اجمل نساء السودان ولون الكثيرات منهن ابيض مشرب بحمرة • وكلهم اصحاب تنعم ورفاهة ويعنى رجالهم بالطيب حتى انهم يدهنون اجسادهم به • وهم يتجنبون مصاهرة العرب والعرب يتجنبون مصاهرتهم غير ان العرب يستطبون منهم ويعتقدون فيهم السحر •

ل ـ الفنج : وهم الذين اسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب • وقد اختلف في اصلهم فهناك من يقول انهم عرب وهناك من يقول انهم سود تعربوا • أما هم فانهم يدعون النسبة الى بني امية ويقولون انهم انسال جماعة منهم فروا الى السودان من العباسيين • وفي اقصى جنوب الجزيرة جبال تعرف باسمهم ومنهم جماعة تسكن رتقة من اعمال سنار ودبة ودنقلة •

م ـ الهمج : وهم وزراء الفنج في ايام دولتهم في سنار • ويدعون النسبة الى العوضية الجعليين • ومركزهم جبل قلي على ثلاثة ايام الى الجنوب من كركوج • وقد عرفت جبال الفنج باسمهم ايضا لانهم حكموها بعد الفتح المصري • وقد عرفت كذلك بجبال ادريس وهو اسم اول من حكمها منهم •

٣ ـ واشهر قبائل العرب البادية في البطانة :

آ ـ الشكرية : وهم قبيلة جسيمة من اكبر القبائل واقواها • وفيها تسعون عميرة (بطن) ونيف وتنتسب الى جهينة • وكان بينها وبين الفنج وقائع مشهورة وكان عددهم قبل ثورة المهدي نحو نصف مليون فنزل بعد هذه الثورة الى الربع لان الثورة نكلت بهم تنكيلا شديدا بسبب بقائهم على ولاء الحكومة المصرية [1] • ومن مراكزهم الشهيرة رفاعة على النيل الازرق والفاشر على الاتبرة (العطيرة)

---

(١) نعتقد ان الرقم مبالغ فيه كثيرا لان معناه ان الثورة المهدية قضت على ٣٧٥٠٠٠ منهم ! والمؤلف كان من رجال الحملة الانكليزية ضد الثورة . انظر ما ذكره في صدد ذلك الصفحة ١ من ديباجة الكتاب .

والقضارف والقلعة وارانج وبير وريرة وشق الوالية وابو دليق •

ب ـ البطاحين : وهم الى شمالي الشكرية وخصوم لهم • وينتسبون الى الجعليين •

ت ـ الضباينة : وينتسبون الى جهينة • وينقسمون الى سبع عمائر كبيرة • وقد تعرضوا لتنكيل الثورة المهدوية حتى سحقتهم سحقا • وينزلون في الصيف بين بحر ستيت وباسلام من فروع الاتبرة وفي الخريف ينزحون الى البطانة • ومن اماكنهم الشهيرة التومات على الاتبرة والجبرة على بحر ستيت ودوكة في البطانة •

ث ـ الحمران : وهم قليلو العدد لكنهم من افرس قبائل العرب واعظمهم جرأة واقداما واعزهم شأنا • ونساؤهم من اجمل نساءالسودان واشدهن تحصنا وعفافا •

٤ ـ قبائل العرب في الصحراء الشرقية المعروفة بصحراء البجة

ليس في هذه الصحراء الا قبيلة واحدة اسمها « الرشايدة » وهم حديثو العهد في البلاد حيث هاجروا اليها من الحجاز في سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١م بسبب نزاع وقتال بينهم وبين بعض القبائل فعبروا البحر الاحمر ونزلوا في ارض الحباب • وكانوا نحو الف رجل ومعهم اسلحتهم واولادهم وابلهم • وقاومتهم قبائل الحباب فاشتبكوا معها واستطاعوا في النهاية ان يقيموا • وهم الآن فريقان احدهما تابع لحكومة السودان والآخر لحكومة الارثريا •

ولعل انسياح هذه الموجة الحديث العهد على الوجه المروي من الادلة الحية على بعض صور انسياح القبائل العربيةالىالساحل الافريقي الاثيوبي عبر البحر الاحمر ، مما كان يتكرر دائما آنا بعد آن دون ما انقطاع من اقدم ازمنة التاريخ •

٥ ـ قبائل العرب في صحراء البيوضة • اشهر هذه القبائل هي :

آ ــ الحسانية : ومركزها جبل الجلف في صحراء الجكدول وتنتسب الى الكواهلة •

ب ــ الهواوير : ويقال ان اصلهم من عرب الهوارة بصعيد مصر • ويسكنون صحراء جبرة •

ت ــ الخواوير : وهم مجاورون للحسانية والهواوير •

٦ ــ قبائل العرب في بلاد كردوفان • اشهر هي هذه القبائل هي :

آ ــ الجوامعة : وهم فريقان الاول الحمران ومركزهم بارة والثاني الجميعية واكثرهم في الطيارة •

ب ــ البديرية : ومن اماكنهم خورس والطيارة وفيهم نسب للجعليين على ما قيل •

ت ــ التمام : وهم يسكنون مع البديرية •

ث ــ الغديات : واهم مراكزهم البركة •

وهذه القبائل الاربع حضر وبقية سكان كردفان بادية يقتني بعضهم الابل وهم الذين في الشمال وبعضهم البقر وهم الذين في الجنوب • ومن الاولين :

آ ــ الكبابيش : وهم اقوى بادية كردوفان وابلهم اشهر الابل • ومن مراكزهم آبار الصافية وكجمر وعين حامد • وهم عدة عمائر وافخاذ • وكان عددهم نحو ربع مليون فتعرضوا لتنكيل الثورة المهدية الشديد حتى نقص عددهم الى الربع (١) •

ب ــ دار حامد : وهم مجاورون للكبابيش • واعداء لهم • واهم مراكزهم بارة • وهم عدة عمائر اشهرها الجليدات والمجانين والمساعيد والمرامرة والنواهية والعريفية •

ت ــ بنو جرار • وهم شرقي كردوفان وفي بلادهم يكثر النعام والغزلان •

---

(١) وهذا ايضا من مبالغات المؤلف على ما نرجح •

ث ـ حمر : وهم غربـي كردوفـان • ومن مراكزهم ابـو حراز والنهود • ومن الآخرين أي البقارة :

آ ـ الحوازمة : وهم جنوبي كردوفان • واهم مراكزهم البركة •

ب ـ الجمع : وهم في الجنوب الشرقي ومركزهم شركيلة • وقيل انهم سموا باسمهم لانهم خليط من قبائل شتى • واكثرهم من الجعليين •

ت ـ الهبانية : وهم بين الحوازمـة والجمـع • واهم مراكزهم شركيلة • ويكثر في بلادهم السباع والفيلة • ومنهم الادلاء لجبال النوبة لانهم اعرف العرب بطرقها •

ث ـ اولاد حميد : وهم مجاورون للهبانية •

ج ـ الاحامدة : وهم في جوار الجمع •

ح ـ الحمر : ومركزهم الاضية بين البركا وشكا •

خ ـ المسيرية : وهم في جوار الحمر •

٧ ـ واشهر قبائل العرب في دار فور من الابالـة أي اصحـاب الابل هي :

آ ـ الزيادنة : ومركزهم ملبط • وينتسبون الى ابي زيد الهلالي من عرب نجد ويتجرون في النطرون والملح •

ب ـ الماهرية : ومركزهم الدور • وقيل انهم ينتسبون الى القبائل اليمنية المعروفة باسم المهرة كما قيل انهم والزريقات قبيلة واحدة سكنوا هم الشمال واقتنوا الابل وسكن الزريقات الجنوب واقتنوا البقر •

ت ـ العطيفات : ومركزهم انكا بالقرب من مليط •

ث ـ المعالية : واكثرهم حضـر • ومن مراكزهم كركود شمالـي الطويشة • وقوز المعالية المنسب اليهم •

ج ـ العريقات : ومركزهم كتم • ويظن ان اصلهم من العليقـات القاطنين على النيل في فم وادي العلاقي شمال كوروسكو •

٨ ـ واشهر قبائل العرب في دارفور من البقارة هي :

آ ــ الزريقات : وهم اكبر قبائل دارفور • ومركزهم شكا • وهم ثلاث عمائر وهي الماهرية وام احمد والمحاميد • والمحاميد اقواهم• وفيهم قليل من الحضر •

ب ــ الهبانية : وهم من اهم بادية دارفور ومركزهم الكلكة • وهم والذين هم في كردوفان من اصل واحد •

ت ــ المسيرية : وهم والمسيرية في كردوفان من اصل واحد • وهم اشداء مشهورون بالفروسية •

ث ــ التعايشة : ومركزهم مندوة قرب الكلكة وبلادهم مجاورة لبلاد الفراتيت • ومنهم الخليفة الاول للمهدي عبد الله التعايشي • وينسبون الى جهينة • كما ينتسب الى جهينة اولاد حميد والخوازمة والحمر والمسيرية وسليم والزريقات ايضا •

ج ــ بنو هلبة : ومركزهم بلبل غرب دارة • وهم قبيلة جسيمة • ويدعون النسبة الى جهينة ايضا وقيل انهم من هوارة مصر •

ح ــ البشير : ومركزهم عربدة • وهم قبيلة جسيمة • غير ان المهدوية اضعفتهم •

خ ــ بنو فضل : وهم اهل زراعة وينتسبون للزيادنة • ومن مراكزهم ساني كرو على يومين الى الجنوب الشرقي من الفاشر •

د ــ بنو حسين وهم مجاورون للمساليت الذين مر ذكرهم في عداد القبائل السود ذوي الملامح العربية •

ذ ــ الترجم : وهم مجاورون للمساليت ايضا •

ر ــ خزام : وهم كذلك مجاورون للمساليت •

ز ــ المهاري : وهم ايضا مجاورون للمساليت •

س ــ الكروبات : وهم في شرق كبكبية • واكثرهم تجار وفيهم علماء أجلاء •

ش ــ الحونية : وهم في غرب كبكبية •

ص ـ البرياب : ومركزهم تولو • واكثرهم تجار •

ض ـ الخوابير : ومركزهم ودعة • وقنيتهم الابل والبقر والخيل• وهم حضر وبادية •

وهكذا تنتشر القبائل العربية الصريحة في مختلف انحاء السودان بمقياس واسع واعداد عظيمة بالاضافة الى القبائل القديمة العربية الجنس التي اندمجت كليا او جزئيا في هذه القبائل الصريحة الطارئة بعد الفتح العربي حتى غدت العروبة الطابع الشامل القوي لهذا القطر •

ويلحظ ان بعض اسماء القبائل العربية الواردة في هذه النبذة قد وردت ضمن اسماء القبائل العربية في مصر ممن ذكرها نعوم شقير في كتابه تاريخ سيناء ، والقلقشندي والمقريزي حيث يفيد هذا ان التموج استمر يعمل عمله بين شمال وادي النيل وجنوبه •

وكتاب نعوم شقير الذي نقلنا عنه ما تقدم مؤلف في سنة ١٩٠٣ كما قلنا قبل • ولقد قرأنا في مجلة آخر ساعة المصرية فصلا في عددها ٢٦ آب ١٩٥٣ كتبه كاتبه نتيجة لتحقيق واستقراء رأينا من المفيد ان ننقله في هذه المناسبة لان فيه تدعيما لما قلناه من جهة وصورة اخرى من صور التموج بين القبائل العربية في السودان ومصر من جهة اخرى • ولقد جاء في هذا الفصل ان نحو ثلاثمائة قبيلة عربية مشتركة اليوم بين مصر والسودان • وان بعض فروع هذه القبائل يعيش في انحاء مصر بينما يعيش بعضها الآخر في السودان • وهذه اسماؤها ومنازلها كما يلي :

١ ـ الرواتب والزمر والمحاذرة في مصر في ابي شوشة وفي السودان في كردوفان •

٢ ـ مطاوع في مصر في ابي صوير وفي السودان في منطقة الجبلين في النيل الازرق •

٣ــ البراغيث في مصــر في ابي طشت وفي السودان في الرهــد بكوردوفان •

٤ ــ الحسنات في مصــر في ابــي طشت وفي السودان في الجزيرة بالنيل الأزرق •

٥ ــ الزرقة في مصــر في ابــي طشت • وفي السودان في جنوب دارفور •

٦ ــ رفاعة في مصر في ابي طشت وفي السودان على النيل الأزرق•

٧ ــ الزابدية : في مصر في ابي طشت • وفي بربر في السودان •

٨ ــ السلافة : في ابي طشت بمصر وفي المسلمية في السودان •

٩ ــ العوامر : في ابي طشت بمصر وفي جبل برية في السودان •

١٠ ــ المشايخ : في ابي طشت في مصر وفي سنار في السودان •

١١ ــ بنو حسن : في ابي قرقاص في مصروفيكوستي فيالسودان•

١٢ ــ العوامرة : في الرحمانية في مصــر وباطــاب ابو حمــد في السودان •

١٣ ــ عبود : في ابي كسا في مصر والنيل الازرق في السودان •

١٤ ــ علوان : في ابي كسا في مصر والنيل الابيض في السودان•

١٥ ــ الفقراء : في ادفو البلد في مصر ودنقلا في السودان •

١٦ ــ العوضلات : في ادفو البلد في مصر وبربر في السودان •

١٧ ــ فزارة : في ادفينا في مصر وكوردوفان في السودان •

١٨ ــ الطويلة : في ادكو في مصر وكوستي في السودان •

١٩ ــ الزريقات : في ارمنت في مصر وابو جابرة في كوردوفــان السودان •

٢٠ ــ العبابدة : في ارمنت في مصر والنيل الازرق في السودان •

٢١ ــ الدراويس : في اسنا في مصر وطيبة في السودان •

٢٢ ــ الجعلاب : في اسوان في مصر وبربر في السودان •

٢٣ ــ الكرادمة : في الدر في مصر ودنقلا في السودان •

٢٤ ــ العشابية : في الدر في مصر وبربر في السودان •

٢٥ ــ علباب : في الدر في مصر والدامر في السودان .
٢٦ ــ الشفاينة : في الدوير في مصر والنيل في السودان .
٢٧ ــ المسلمية : في الزقازيق في مصر والنيل الابيض في السودان.
٢٨ ــ ام رماد : في الزقازيق في مصر والنيل الازرق فيالسودان .
٢٩ ــ العجابرة : في السراج في مصر وكوردوفان في السودان .
٣٠ ــ البراسي : في السراج في مصر والنيل الازرق فيالسودان .
٣١ ــ الرحماب : في السراج في مصر وابو حمد في السودان .
٣٢ ــ العشابات : في السراج في مصر وبربر فيالسودانوامدرمان.
٣٣ ــ التعايشة : في السنطة في مصر والحبلين في السودان .
٣٤ ــ محارب : في السيالة في مصر وكوستي في السودان .
٣٥ ــ الحجايزة : في السنهورية في مصر وام جر في السودان .
٣٦ ــ المشايخ : في الشين في مصر وسنار في السودان .
٣٧ ــ العساكرة : في الصالحية في مصر وسودي كوردوفان في السودان .

٣٨ ــ العبايسة : في الصالحية في مصر وكوردوفان في السودان .
٣٩ ــ العوضية : في العبرية في مصر وشندي في السودان .
٤٠ ــ عمار : في الصوامعة في مصر وبربر في السودان .
٤١ ــ بنو هلال : في الصوامعة في مصر والنيل الازرق في السودان .

٤٢ ــ الرملية : في العسيرات في مصر والخرطوم في السودان .
٤٣ ــ البطاحين : في العلاقي في مصر والنيل الازرق فيالسودان.
٤٤ ــ العوايضة : فيالقصاصينفي مصروالنيل الازرقفيالسودان.
٤٥ ــ الحنفرية : في القصاصين في مصر وابي جمعة في السودان .
٤٦ ــ النصاصرة : في الكردي في مصر ودار الجمع بكوشي في السودان .

٤٧ ــ العلياب : في المراغنة في مصر والدامر في السودان .

٤٨ ـ العرامة : في المنتزه في مصر وام درمان وكوردوفـان فـي السودان .

٤٩ ـ الملاحة : في المنتزه في مصر والنيل الازرق في السودان .

٥٠ ـ العصابلة : في المنزلة في مصر والنيل الازرق في السودان .

٥١ ـ العمارة : في المنشاة في مصر والنيل الابيض في السودان .

٥٢ ـ المناصرة : في المنصورة في مصر والنيل الابيض فيالسودان.

٥٣ ـ الجعافرة : في بردين في مصر والدويم في السودان .

٥٤ ـ الكوامل : في المنصورة في مصر ودلجو في السودان .

٥٥ ـ بنو حسين : في بني حسين في مصر والنيل الازرق فـي السودان .

٥٦ ـ الحافرية : في بلطيم في مصر والدامر في السودان .

التاريخ السياسي

للجماعات العربية في السودان

تمهيد

لقد احتوى كتاب نعوم شقير فصولا عديدة في التاريخ السياسي للجماعات العربية في السودان . سواء ما كان منها صريح العروبة وكان طروؤه على السودان بعد الفتح الاسلامي ام ما كان طروؤه على السودان قبل ذلك ولم تكن عروبته صريحة او كانت عروبته متطورة . ومن هذه الفصول ما هو في حقبة التغلب التركي ومتصل بها ومنها ما هو سابق لها أو في هذه الحقبة ولكنه غير متصل بها . وقد رأينا من المفيد ان يطلع القارىء عليها جميعا في هذا الفصل الذي يدور موضوعه في الوقت نفسه على العرب والعروبة في وادي النيل .

النوبـــة

ـ قبل الاسلام ـ

ـ ١ ـ

اورد نعوم شقير في الفصل الـــذي عقـــده على النوبة [١] نقلا عن المسعودي انه كان للنوبة في عهد النصرانية مملكتان واحـــدة سفلى وعاصمتها سوبة وان اهل سوبة يقال لهم علوه ايضا • ونقل عن المقريزي الذي يعزو الى كتاب اسمه اخبار النوبة والمغرة وعلوه والبجة والنيـــل تأليف عبد الله بن احمد بن سليم الاسواني انه كان يسكن في بلاد النوبة السفلى قوم يقال لهم المقرة واول ارضهم قرية تعرف باسم تافه على مرحلة من اسوان وعاصمة ملكهم مدينة اسمها نجراش على اقل من عشر مراحل من اسوان ، وانه كان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية وكـــانوا يعبدون الكواكب وينصبون لها التماثيل ثم تنصروا جميعا وصارت دنقلة دار مملكتهم ، وانه كان للعلوة مملكة عاصمتها مدينة سوبـــة واقعـــة شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الابيض والازرق فيها ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ورباط فيه جمـــاعة من المسلمين ، وان ملك علوة اكثر مالا واعظم جيشا من ملك المقرة وبلاده اخصب واوسع والنخل والكرم عنده يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب • ودينهم النصرانية وهم يعاقبة المذهب وتنصب اساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة •

وليس في فصل شقير شيء من تاريخ النوبة في عهـــد نصرانيتهم • وقد قال في صدد انتشارها بينهم ان رسلا جاؤوا اليهم في سنة ٥٤٥ م

---

(١) ج ٢ ص ٣٧ ـ ٥٧

فبشروا بها ونجحوا في تبشيرهم حيث تحول النوبة الى النصرانية وكانوا يعبدون الاوثان • ثم قال انه لا يعرف من تاريخهم بعد ذلك شيء حتى كان الاسلام وفتح المسلمون مصر سنة ١٨ ﻫ فغزوا النوبة ورجعوا بالجراحاب وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق وعزاهذا الى ابن الاثير •

وكلام شقير الآنف الذكر ورد في بحث عقده في الفصل نفسه بعنوان تاريخ النوبة السفلى • وقد عقد بحثا في الفصل نفسه كذلك بعنوان تاريخ النوبة العليا قال فيه : اما النوبة العليا المعروفة عند مؤرخي الاسلام بمملكة علوة وفي السودان بمملكة العنج فظاهر ان النصرانية امتدت اليها من النوبة السفلى • غير ان التاريخ لم يحفظ لنا من اخبارها في النصرانية غير ما تقدم روايته عن المقريزي نقلا عن كتاب الاسواني •

بعد الاسلام

ان العرب لم ينفضوا يدهم من بلاد النوبة التي انصرفوا عنها في سنة ١٨ ﻫ اذا صحت رواية ابن الاثير حيث عادوا اليها في سنة ٢١ ﻫ ثم استمر تاريخهم بها متصلا •

ومما رواه شقير في فصل النوبة في صدد ذلك عن المقريزي انعمرو ابن العاص بعث في سنة ٢١ ﻫ بعبد الله بن ابي سرح في عشرين الفا الى النوبة فمكث بها زمنا وصالحهم على شيء معين من المال • وهذا يعني ان السلطان العربي الاسلامي امتد في عهد مبكر الى هذه البلاد وانها خضعت له وقبلت ان تؤدي اليه الجزية كما بفيد انها ظلت تحت حكم ملوكها المباشر استمرارا لما كان عليه الامر قبل • وفي ولاية عبد الله بن سعد بن ابي سرح لمصر في خلافة عثمان بن عفان نقض النوبة الصلح وارسلوا سراياهم الى صعيد مصر

فاخربوا وافسدوا فغزاهم عبد الله مرة ثانية سنة ٣١ هـ وحاصر مدينة دنقلا ــ عاصمتهم ــ حصارا شديدا ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك وطلب ملكهم قليدرون الصلح وخرج الى عبد الله مظهرا التواضع والمسكنة فتلقاه ورفعه وقربه وقرر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأسا من الرقيق في كل سنة ووعده بحبوب يهديها اليه حينما شكا له قلة الطعام في بلده وكتب له كتابا اورد شقير نصه نقلا عن المقريزي . والكتاب يحدد ارض النوبة التي جرى الصلح عليها من حد ارض اسوان الى احد ارض علوة ويسمى ملك النوبة بعظيم النوبة ويعلن لاهل النوبة الامان وان لا يحاربهم المسلمون ولا يغزوهم ما اقاموا على الشروط ويأذن لهم بدخول بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين وبحق المسلمين بدخول بلادهم مجتازين غير مقيمين كذلك ، ويوجب عليهم حفظ من نزل ببلدهم من المسلمين والمعاهدين حتى يخرجوا وبرد كل آبق من عبيد المسلمين وعدم التعرض لمسلم وحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمين بفناء مدينتهم وكنسه واسراجه وتكريمه وعدم منع المصلين فيه ، ويذكر انه ليس على المسلمين دفع عدو لهم ولا منعة عنهم . وكانت الجزية السنوية من الرقيق المفروض على النوبة تسمى بقطا . وكان هناك عامل خاص يتولى استلام البقط .وكان والي مصر يهديهم الف اردب من القمح ومثلها م نالشعير ومئة ثوب من القباطي ، وكان يعطي لعمال البقط هدايا من كل ذلك ايضا . وظل الامر على هذا المنوال في عهد الدولة الاموية وشطر من عهد الدولة العباسية .

ومما اورده شقير نقلا عن المقريزي الذي يعزو بدوره الى ابن وصيف شاه انه لما انتقلت الخلافة الى بني العباس وجاء عبد الله بن علي العباسي الى الشام ثم الى مصر سنة ١٣٢ هـ في طلب بني امية حمل الوالي الاموي لمصر الامير عبيد الله بن محمد بن مروان ما في خزانته من اموال وذخائر وهرب الى بلاد النوبة ، واتصل بملكها وطلب منه اجارته

وحمايته . وجاء اليه الملك في المكان الذي نزل فيه من ارضه وحاوره فيما نزل بالدولة الاموية من نازلة وقال له ان ذلك تأتي عن انحراف المسلمين وملوكهم عن تعاليم دينهم ثم طلب منه الرحيل حتى لا يحل شؤمه في بلاده [1] . فعاد الى مصر حيث ظفر به عبد الله بن علي وقتله في جملة من ظفر بهم وقتلهم من بني امية ...

كذلك مما اورده شقير نقلا عن المقريزي الذي يعزو بدوره الى الليث بن سعد ان النوبة ظلوا يؤدون البقط في كل سنة ويدفع لهم ما تقدم ذكره الى ايام المعتصم العباس (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ) وكان ملكهم آنذاك ذكريا بن يحنس ، فانكر ابن له اسمه فيرقي على ابيه استمرار خضوعه وادائه الجزية فقال له ابوه ان هذا شيء رآه السلف من آبائنا صوابا واني اوجهك رسولا الى ملكهم لدراسة الحالة فذهب الابن الى بغداد وكان يستقبل في كل منزل بحفاوة ولقي المعتصم وانبهر بما رآه من حال العراق في كثرة الجيوش وعظم العمارة وكان معه رئيس البجة. وقد قربه المعتصم واحسن اليه وكافأه على ما قدمه من هدايا باضعافها مما جعل الولد يرى في ما كان صوابا . فاستمر الرسم جاريا على ماهو عليه الى ان ملكت الدولة الفاطمية مصر .

ومما اورده شقير نقلا عن المسعودي انه كان للمسلمين من اهل اسوان ضياع كثيرة بارض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وانهم ابتاعوا هذه الضياع في صدر الزمان في دولة بني امية وبني العباس ، وان ملك النوبة راجع المأمون العباسي في امر هذه الضياع وطلب استردادها فلم يجبه الى طلبه لان اصحابها اثبتوا حقهم عليها .

ومما اورده عن المقريزي ان ملك النوبة أغار في سنة ٣٤٤ هـ على أسوان وقتل جمعا من المسلمين فخرج اليه محمد بن عبد الله الخازن

---

(١) الصنعة بادية على هذه القصة وعلى ما ذكره الراوي من حوار ملك النوبة . ويغلب ان يكون ذلك من اختراعات اعداء الامويين ودعاياتهم في العهد العباسي مما سجلتا كتب التاريخ والآداب كثيرا من امثاله .

على عسكر مصر من قبل انوجور بن الاخشيد في حملة برية وبحرية فاوقع بملك النوبة وقتل واسر كثيرا منهم وفتح مدينة ابريم وسبى اهلها . وهذا يفيد ان ملك النوبة حاول التفلت من السلطان العباسي الذي كان يمثله الاسرة الاخشيدية فاخفق . وقد اورد المؤلف بيتا للمتنبي في قصيدة مدح بها كافورا الذي كان صاحب اليد في الدولة الاخشيدية جاء فيه :

يصرف الامر من مصر الى عدن   الى الحجاز فارض الزنج فالنوب

حيث يفيد ان سلطان الاخشيديين ظل مستتبا على النوبة .

ومما اورده شقير عن ابن الاثير ان اباركوة ـ وهذا خارجي اموي خرج على الحاكم بامر الله الفاطمي في برقة وامتدت حركته الى الصعيد وقد مرت اشارة اليه في مناسبة سابقة ـ سار الى بلد النوبة في سنة ٣٩٧ ﻫ فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن الجبل اظهر لصاحبه انه رسول من الحاكم ـ الفاطمي ـ الى ملكه فقال له صاحب الحصن لا بد من استخراج امر الملك في مسيره اليه وبلغ الخبر الفضل فارسل الى صاحب الحصن بالخبر على حقيقته فوكل به من يحفظه وارسل الى الملك بخبره وكان الملك قد توفي فامر ابنه الذي حل محله ان يسلم الى نائب الحاكم فنسلمه رسول الفضل وسار به اليه فحمله الى مصر حيث اشهر بها وطيف به ثم قتل . والخبر يدل على ان النوبة ظلت على عهدها مع ملوك مصر وكان للخلفاء الفاطميين نواب مقيمون عند ملكها . والراجح ان الفضل المذكور بدون صفة كان هو نائب الحاكم الفاطمي . وهذا ما يتبادر من السياق .

ومما اورده شقير نقلا عن المقريزي ان شمس الدولة توران شاه ابن ايوب اخا صلاح الدين سار في سنة ٥٦٨ ﻫ من مصر الى بلد النوبة بقصد التغلب عليه وتملكه حتى يكون موئلا لاسرته ورجالهم في ما اذا تفاقم الخلاف بينهم وبين السلطان نور الدين زنكي وعجزوا عن الاقامة في مصر وانه نازل قلعة ابريم وحاصرها وقاتله اهلها ثم استسلموا له فملكها واقام بها . غير انه لم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجلها فتركها

وعاد الى مصر بما غنمه من غنائم معظمها عبيد وجوار •

ويستمر شقير في سياقه فيقول نقلا عن المقريزي كذلك ان صلاح الدين اعطى اخاه توران شاه قوص واسوان وعيذاب اقطاعا وان توران شاه خرج في سنة ٥٦٩ ه الى غزو النوبة ثانية وفتح قلعة البريم وسبى وغنم ثم عاد بعد ما اقطع ابريم بعض اصحابه • وهذا يفيد ان بلادالنوبة ظلت على خضوعها للفاطميين الى آخر عهدهم •

وفي سنة ٦٧٤ ه كثر خبث داود ملك النوبة ــ والكلام ينقلهشقير عن المقريزي ايضا ــ واقبل الى ان قرب من مدينة اسوان وحرق عدة اسواق بعد ما افسد بعيذاب ، فمضى اليه والي قوص فلم يدركه وقبض على قائد خيالته وجملة من رجاله وحملهم الى السلطان الظاهر بيبرص فقتلهم •

وعدم ذكر شيء عن حركات النوبة الا في هــذه السنة قد يــدل على انها ظلت خاضعة لسلطان الدولة الايوبية وان كان يفيد في الوقت نفسه انها كانت تترقب الفرص للتفلت بل وللعدوان ايضا على مصــر ولعلل الملك داود ظن ان تحول الملــك من الايوبيين للترك فرصــة سانحة لذلك •

ومما ذكره شقير نقلا عن المقريزي ــ وفيه دلالة علىما ذكرناه ــ ان اسكنده ابن اخت داود ملك النوبة جاء الى الملك الظاهر فــي السنة نفسها (٦٧٤ ه) متظلما من خاله فجرد الظاهر معه جيشا بقيــادة أق سنقر الفارقاني فيه زراقين ورماة ورجال حراريق وجمــاعة من عربــان الوجه القبلي واخرج الملك جيشا بقيادة نائبه قمر الدولة فاقتتل الجيشان ودارت الــدائرة على جيش الملــك داود واوغل جيش الظاهر في ارض النوبة برا وبحرا يقتل ويأسر ويسبي وينهب فحاز ما لا يقع تحت عــد وطلب قمر الدولة الامان على ان يعترف بالملك لاسكنده فمنحه أق سنقر اياه وحلف قمر الدولة بالطاعة لاسكنده وحصر جيش الظاهر الملك داود

واسرته في برج حتى استولى عليه وتمكن داود من الهرب مع اسرته فسار العسكر في اثره ففر الى النوبة العليا مع جماعة من عسكره فلقيه ملكها وقاتله واسره وبعث به مقيدا الى الظاهر الذي اعتقله في القلعة الى ان مات • وقام على الملك اسكنده الذي تعهد بجزية سنوية مؤلفة من ثلاثة افيال وثلاث زرافات وخمسة فهود ومئة نجيب اصهب واربعمائة رأس من البقر واعترف بالاضافة الى ذلك بان يكون نصف بلاد النوبة ـ أي نصف ايرادها على الارجح ـ للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها عدا بلاد الجنادل التي تكون كلها للسلطان لقربها من اسوان وتبلغ نحو ربع بلاد النوبة فيحمل له تمرها وقطنها والحقوق الجارية بها من قديم الزمان ثم بالاضافة الى جزية ستة دنانير عن كل بالغ مابقوا على النصرانية • وقد قبض أق سنقر على عشرين اميرا من امراء النوبة وافرج عمن كان بايدي النوبة من المسلمين والبس سكنده تاج الملك بعد ان حلف والتزم بحمل جميع ما لداود ولكل من قتل واسر من مال ودواب الى السلطان مع البقط القديم على ان يهدي اليهم الف اردب من القمح كالعادة •••

ونقل شقير بعد هذا عن ابن خلدون ان الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ) بعث سنة ٦٨٦ هـ العساكر الى النوبة مع علم الدين سنجر واستنفر العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر واولاد شيبان واولاد كنز الدولة وجماعة من الغرب وبني هلال فساروا الى دنقلة ، وملكهم آنئذ بيت مأمون اخو سكنده فاخرج جيشه للقاء الزحف فكتبت عليه الهزيمة واتبعهم الزاحفون خمسة عشر يوما وراء دنقلة ثم اعلن قائد الجيش القلاووني خلع الملك بيت مأمون واقامة ابن اخته مكانه •والخبر قد يدل على ان بيت مأمون حاول التفلت من سلطان الدولة التركية أو اعلن تمرده وعصيانه عليها كما هو المتبادر • ويستمر ابن خلدون في كلامه الذي يورده شقير فيقول ان بيت مأمون رجع الى دنقلة بعد عودة الجيش القلاووني فاستولى على البلاد ولحق ابن اخته بمصر صريخا

بالسلطان فبعث معه عسكرا بقيادة قائد اسمه الافرم عز الدين ايبك في سنة ٦٨٨ ﻫ حتى وصلوا الى دنقلا فهرب بيت مأمون وامتنع بجزيرة وسط النيل على خمس عشرة مرحلة وراء دنقلا وتبعته العساكر فخرج من الجزيرة ولحق بالنوبة فرجع العسكر الى دنقلا وكان ابن اخت بيت مأمون قد توفي فاقيم ابن اخي سكنده داود ملكا ، ولما عادت العساكر الى مصر عاد بيت مأمون ثانية الى دنقلا وقتل الملك داود ثم ارسل رسولا الى السلطان يبدي الرغبة في الصلح على ان يؤدي الضريبة المعلومة فاجيب الى طلبه •

واورد شقير بعد هذا نقلا عن ابن اياس ان صاحب دنقلا حضر في سنة ٧٠٤ ﻫ الى الابواب الشريفة وكان معه هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار وحشية وغير ذلك فخلع عليه السلطان (وكان الناصر بن المنصور ٦٩٣ ــ ٧٤١ ﻫ) وانزله بدار الضيافة • حيث يفيد هذا ان ملك النوبة ظل على ولائه وخضوعه الى هذه السنة •

واورد شقير بعد هذا نقلا عن ابن خلدون انه نزع من بيت ملك النوبة رجل اسمه نشلي فجاء الى مصر فاسلم وحسن اسلامه واجرى له السلطان الناصر بن قلاوون رزقا •

فلما كانت سنة ٧١٦ ﻫ امتنع ملك النوبة كربيس الذي جاء بعد بيت مأمون عن اداء الجزية فجهز له السلطان العساكر وبعث معها عبدالله نشلي فلما وصلوا الى بلاد النوبة فر كربيس الى بلاد الابواب فاقيم نشلي ملكا مكانه • وارسل السلطان الى ملك الابواب (النوبة العليا كما فسرها شقير) في كربيس فبعث به اليه ، فلما وصل الى مصر اسلم على يد السلطان واقام ببابه • وفي سنة ٧١٩ ﻫ ثار اهل النوبة على نشلي فقتلوه فبعث السلطان بكربيس فملكها وحمل اهلها على الاسلام فاسلموا جميعهم ، ثم انتشر احياء العرب من جهينة في بلاد النوبة واستوطنوها وملكوها وملأوها عيبا وفسادا ــ والكلام لابن خلدون الذي يورده شقير ــ وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا عنهم

ثم صاروا الى مصانعتهم بالصهر وانقسمت المملكة وصار بعض ابناء جهينة من بنات ملوك النوبة ملوكا في بعض اقسامها فغدت البلاد شيعا لهذا العهد • أي عهد ابن خلدون الذي توفي اوائل القرن التاسع الهجري •

وعقب شقير على كلام ابن خلدون قائلا وبقوا شيعا على كل شيعة منهم رئيس او ملك الى ان قام الفنج في سنار سنة ٩١٠ هـ • فملكوها الى الشلال الثالث • ثم كان الفتح العثماني لمصر فارسل السلطان سليم الفاتح سنة ١٥٢٠م — ٩٢٣هـ سرية من عساكره الى النوبة السفلى فملكوها من اسوان الى الشلال الثالث وعرفوا بالغز وعرف حكامهم بالكشاف • وهكذا انقسمت بلاد النوبة السفلى بين ملوك الفنج والكشاف الى ان كان الفتح المصري للسودان سنة ١٢٣٦ هـ — ١٨٢١ م فخضعت هذه البلاد لمصر •

وفي صدد النوبة العليا في الاسلام قال شقير في بحث تاريخ النوبة العليا ان العرب المسلمين اخذوا يهاجرون فرارا من الحكام او طلبا للرزق الى بلاد النوبة السفلى ثم الى بلاد النوبة العليا حتى ملأوها وتغلبوا عليها بعنصرهم وطابعهم • وكان اكثرهم من جهينة وبني العباس • وقد بقوا مع ذلك خاضعين لحكم العنج حكام النوبة العليا حتى قام الفنج في جزيرة سنار فاتحد معهم العرب وهاجموا العنج فقتلوهم شر قتلة وخربوا سوبه تخريبا تاما ثم ساروا الى قرى عند جبل الروبان شمالي الخرطوم فقتلوا ملكها واستولوا عليها واسسوا مملكة في سنار ملوكها من الفنج ومشيخة في قرى مشايخها من العرب • وقد انقرض النوبة وانقرضت لغتهم واعتنقوا الاسلام واتخذوا لغة العرب لغة لهم •

والمقصود بالعبارة هو زوال الصفة المميزة لملامح النوبة العليا ولغتهم كما هو المتبادر •

وهكذا شمل الاسلام والطابع العربي الصريح اهل النوبة العليا

كما شملا اهل النوبة السفلى على ما مر ذكره .

ويلحظ ان تاريخ النوبة العليا لم يحظ من الاسهاب بما حظي بــه تاريخ النوبة السفلى . والمتبادر ان ذلك راجع الى قرب هذه لمصر وبعد تلك . ومع ذلك فان ما ذكر في تاريخ النوبة السفلى قــد يدل على ان ملوك النوبة العليا كانوا موادين أو موالين او خاضعين لملوك مصر وعلى الاقل في عهد دولة مماليك الترك كما كان شأن ملوك النوبة السفلى مع احتفاظهم بسلطانهم المحلي .

البجـــة

ـ قبل الا سلام ـ

ـ ٢ ـ

بدأ شقير فصله عن البجة بتمهيـــد جغرافي جـاء فيه انهم سكان الصحراء الشرقية وانهم عرفوا عند كتاب الرومان باسم البلاس . والبعض يظن انهم البوقة الذين ورد اسمهم في الآثار المصرية او البوقيته الذين ورد اسمهم في آثار اكسوم . وقدذكرهم مؤرخوالعرب في صدر الاسلام باسم البجة او البجاه .

ولقد نقل المؤلف نبذا عديدة عن مؤرخي العرب وجغرافييهم مثل القزويني وابي الفـــداء والمقريزي وابن الوردي عن البجـــة فيها الغث والسمين والحقيقة والخرافة كذلك .

ومما جاء في هذه النبذ ان بلادهم بين بحر القلزم وبحر النيـــل فوق بلاد الحبشة وانهم شديدو السواد وانهم اهل امانة وحسن مرافقة للتجار . وفي بلادهم معادن الذهب والزمرد الاخضر والفضة والنحاس والحديـــد والرصاص . وينبت في اراضيهم شجر المقل والاهليلـــج والاذخر والشيح والسنا والحنظل والبان والكرم والنخل والرياحـــين وغير ذلك وفيها مختلف انواع الوحوش من سباع وفيلة ونمور وفهود وقردة وقطط الزباد ودابة تشبه الغزال حسنة النظر لهـــا ذنب بلون الذهب وتكثر في بلادهم الافاعي وتعظم . وهم يركبون النجب الصهب وعندهم الكثير من الجمـــال العربية والبقر والغنم . وسلاحهم الحراب السباعية التي تكون حديدتها ثلاثة اذرع وعودها اربعة اذرع والتـــي

---

(١) ج ٢ ص ٥٨ ـ ٧٠

يصنعها نساؤهم ، ويصنعون دروقامن جلود البقر والجاموس ويستعملون الاقواس والنبال ويسقون النبال بسم يستخرجونه من عروق شجر الغلف ، ومنهم من يعبد الاوثان ومنهم الصابئة ولكل بطن منهم كاهن مطاع ومنهم فريق يعرف باليلبون نصارى على مذهب اليعاقبة اهل عزم وشجاعة يهابهم كل من حولهم ، ومنهم حبش يقال لهم البازة • ومما يقال انهم من الحبشة الا انهم اشد سوادا منهم وهم الى هذا يتزيون بزي العرب ويتفرعون مثلهم قبائل وافخاذا لكل منها رئيس خاص • ولهم عدة ممالك ولكن ليس بارضهم من القرى الا النادر ، وكان لهم قديما رئيس يرجع جميع رؤسائهم الى حكمه يسكن قرية اسمها هجر ، وكان فراعنة مصر يغزونهم ويوادعونهم احيانا لحاجتهم الى معادنهم • وقد فعل الروم كذلك حينما ملكوا مصر • ولما جاء المسلمون الى مصر سمعوا بخبر هذه المعادن فكثرت سراياهم الى بلادهم وانتفعوا بالمعادن انتفاعا عظيما •

ـ بعد الاسلام ـ

وانتقل نعوم شقير بعد التمهيد الجغرافي الذي لخصنا عنه ما تقدم الى تاريخهم • فروى عن المقريزي الذي يروي عن عبد الرحمن بن عبدالله ابن الحكم ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح والي مصر في عهد عثمان بن عفان هان عليه امرهم فتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح ، وان اول من هادنهم هو عبيد الله بن الحبحاب والي مصر في اواخر القرن الاول للهجرة حيث وجد في نسخة كتاب له انه فرض عليهم ثلاثمائة بكر في كل عام حين ينزلون الريف مجتازين تجارا غير مقيمين وشرط عليهم ان لا يقتلوا مسلما ولا معاهدا وان لا يؤوا عبيد المسلمين ويردوا آبقيهم وانه كان يؤخذ منهم بكل شاة يأخذونها اربعة دنانير وبكل بقرة عشرة ، وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين ، ثم كثرت اذيتهم على المسلمين في خلافة المأمون العباسي فاخرج هذا اليهم عبد الله بن الجهم

قائد الغزاة ــ وكان والي مصر اذ ذاك الامير اسحق بن الرشيد ــ سنة ٢١٦ هـ فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بذلك كتابا الى رئيسهم الكبير كينون بن عبد العزيز الذي يكون في قريتهم هجر ، وقد اورد شقير نص الكتاب نقلا عن المقريزي عن ابن عبد الله بن عبد الحكيم وهو طويل يسجل ابن الجهم فيه على كينون الذي يلقبه بعظيم البجة انه طلب الامان له ولاهل بلده فاجابه الى ذلك على ان يكون سهل بلده وجبلها من منتهى حد اسوان من ارض مصر الى حد مابين دهلك وباضع ملكا لامير المؤمنين المأمون ، وان يكون هو وجميع اهل بلده عبيدا له على ان يظل ملكا عليهم كما كان قبل وان يؤدي الخراج كل عام كما كان سلفه يؤديه وهو مئة من الابل او ثلاثمائة دينار وافية ، وان يمتنعوا عن ذكر النبي والقرآن والاسلام بما لا ينبغي وان لا يقتلوا مسلما عبدا كان او حرا ولا يعينوا اعداء المسلمين عليهم بمال ولا ادلة ، وان يضمنوا الامان لكل من يدخل بلادهم من المسلمين وان يردوا كل عبد آبق اليهم او كل مال لهم وصل اليهم وان لا يهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون في صيحه وهجر وغيرهما في طول البلاد وعرضها وان يقيم كينون بريف صعيد مصر ليفي للمسلمين باشرط عليه . واقام البجة على هذا العهد ــ والكلام استمرار لسياق المقريزي عن ابن عبد الحكم ــ برهة ثم عادوا الى غزو الريف من صعيد مصر وقتلوا من وجدوه بالمعدن (في المناجم) من المسلمين وكان ذلك في ايام المتوكل على الله العباسي فولى هذا محمدا بن عبد الله القمي اسوان وما يليها وامره بالسير اليهم وامر والي مصر باعطائه ما يحتاج اليه من سلاح وجند ومؤونة فسار اليهم في عشرين الفا حتى جاوز المعادن التي يستخرج منها الذهب وانتهى الى حصونهم وقلاعهم فخرج اليه ملكهم واسمه علي بابا في اضعاف جيشه واخذت الاشتباكات تقع بين الطرفين الى ان كتب النصر للجيش العباسي الذي قتل منهم واسر عددا لا يحصى وكان ذلك سنة ٢٤١ هـ

فطلب ملكهم الامان من القمي فأمنه على اداء الخراج عن السنين الاربع التي لم يؤد خراجها وعلى ان يطأ بساط المتوكل في بغداد ولا يمنع المسلمين من العمل في المعدن • وسار معه الى المتوكل بعد ان استخلف ابنه فيعس فرحب المتوكل به وخلع عليه وعلى اصحابه وولى البجة طريق ما بين مصر ومكة ؟ وولى عليهم سعد الايتاخي الخادم وكان مع علي بابا صنم من حجارة يسجد له • ولما كثر المسلمون في المعدن واختلطوا بالبجة قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان • وفي سنة ٢٥٥ ﻫ قدم عليهم ابو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب بعد محاربته النوبة فكثرت بهم العمارة حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة اليهم من اسوان ستين الف راحلة غير التي تحمل من القلزم الى عيذاب ومالت البجة الى ربيعة وتزوجوا منهم • وفي سنة ٢٥٩ ﻫ اقبل البجاة فنهبوا وعادوا وفعلوا على مرات فخرج اليهم عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وكمن لهم في طريقهم فلما عادوا خرج عليهم وقتل مقدمهم ومن معه ودخل بلادهم ونهبها وقتل وسبى ما لا يحصى وتابع عليهم الغارات حتى ادوا اليه الجزية ، وهنا ينتهي سياق ابن عبد الله بين الحكم الذي نقله المقريزي • وقد نقل المقريزي بعد هذا عن ابي حسن المسعودي ان قبائل ربيعة دخلوا بلاد البجة واشتدت فيها شوكتهم ونزحوا من البجة فقوي الطرفان ببعضهما على من جاورهما من القبائل ، وان صاحب المعدن في وقتنا أي سنة ٣٣٢ ﻫ هو بشر بن مروان بن اسحاق من ربيعة ويركب في ثلاثة آلاف من ربيعة واحلافها من مضر واليمن وثلاثين الف حراب على النجب من البجة والداخلة من البجة بالحجف وهم الحدراب وهم المسلمون من بين سائر البجة والداخلة من البجة كفار يعبدون صنما لهم • وبعد هذا قال المقريزي ثم كثر الاسلام في المعدن فخالطوا البجة وتزوجوا فيهم واسلم كثير من الجنس المعروف بالحدراب وهم شوكة القوم ووجوههم مما

يبي مصر . وقيل اسلموا قبل ذلك في امارة عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وما زال الاسلام يمتد حتى عم صحراء البجة كلها وزالت منها عبادة الاوثان .

ومن العجيب ان يذكر في السياق ان علي بابا كان وثنيا وله صنم مع ان اسمه اسلامي صريح . ويلحظ ان اسم والد كينون الذي عقدمعه ابن الجهم عهدا هو عبد العزيز وهو اسلامي ايضا ، وهذا وذاك يحملان على التوقف في صحة رواية وثنيتهما وعلى ترجيح القول الآخر بان ملوك البجة وكثير من رعاياهم قد اسلموا في وقت مبكر .

- ٣ -

الفنج ومملكة سنار
ظروف نشأة المملكة والعنصر العربي فيها
واسمـــاء ملوكهـــا

ان نعوم شقير سرد تاريخ الفنج السياسي في الباب الذي عقـــده على تاريخ مملكة سنار • وممـــا قاله ان المؤرخين اختلفوا في اصلهم فمن قائل انهم فرع من السلك ومن قائل انهم من سكان دارفور الاصليين غير ان الـــذي عليه التقاليد السودانية وتدعيه سلالتهم انهم من بني امية • فقد لجأ بعض رجالهم حينما طـــاردهم العباسيون الـــى الحبشة وطلبهم هؤلاء من النجاشي فصعب عليه تسليمهم او حمـــايتهم فامرهم بالخروج من بلاده فخرجوا وسكنوا الجبال التي في اعالي جزيرة سنار وكان سكانها من السود ففرضوا سلطانهم عليهم وتزوجوا منهم فتغـــير لونهم ولكن اصلهم لم يتغير فلم يزالوا عربـــا ممتازين • وعقب شقـــير على هذا بقوله ان من جملة القائلين بهذا الشيخ عبد الدافع مؤلف تاريخ الفنج ، وان ما من قبيلة اشتهرت في السودان الا ادعت لنفسها نسبـــا يتصل بآل البيت والعرب ولعـــل الفنج لم يخرجوا عن هـــذا الحكم ، والاقرب الى الصواب انهم خليط من كبراء العرب والسود الذين كانوا يسمون الفنج • وواضح من كلام شقير ان المقصود في الخلاف هم ملوك الفنج • وعلى كل حال فان من السائغ ان يكون هذا القبيل الذي عرف باسم الفنج خليط كما قال من العرب الصرحاء ومن جماعة من الجماعات شبه السوداء التي ليست ذات ملامح زنجية والتي يرجح ان تكون من

موجات عربية قديمة قبل العروبة الصريحة انسكبوا مع الزمن وصار طابعهم العروبة الصريحة .

ومن الجدير بالذكر ان ارومات عربية صريحة عديدة كانت وظلت موجودة في المنطقة التي قامت فيها مملكة الفنج مما في ذلك تأييدا لما قلناه وعامل من عوامل طبع المنطقة وما يحتمل ان يكون فيها منجماعات شبه سوداء بالطابع العربي الصريح .

وقد روى شقير عن الشيخ عبد الدافع بداية ملك الفنج التي قال في صددها ان الفنج ــ والمقصود عشيرة الملوك ــ انتقلوا من جبال الجنوب الى جبل موية المجاور لجبل سجدي على مقربة من سنار وكانوا تحت زعامة كبير لهم اسمه عمارة ود [1] دنقس وكان في جوارهم قبيلة من عرب جهينة اسمها القواسمة على رأسها شيخ شديد البأس اسمه عبد الله جماع فاتفق الزعيمان على جمع كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ونزع الملك من ايدي العنج فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبة فقتلوهم شر قتلة واخربا سوبة ثم سارا الى قري فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها . وكان ذلك سنة ٩١٠ هـ وبعد ذلك اتفق الزعيمان على ان يكون الملك الاعظم لعمارة وان تكون مشيخة قري او ملكها لعبدالله ثم اختط عمارة مدينة سنار وجعلها كرسي مملكته .وكانعمارة وعبدالله كالاخوين الا ان رتبة عمارة اعلى فكانا اذا حضر معا تقدم عمارة واذا غاب هذا قام ذاك مقامه ولم تزل هذه العادة متبعة الى انقضاء المملكة .

ومملكة سنار من اعظم الممالك العربية التي قامت في السودانوقد عمرت ثلاثة قرون ونيفا أي من سنة ٩١٠ هـ الى ١٢٣٦ هـ ــ ١٥٠٥ ــ ١٨٢١ م ــ وتولى عرشها تسعة وعشرون ملكا وامتدت حدودها من

---

(١) تكررت كلمة ود في اسماء ملوك ورجال الفنج . وهي بمعنى ابن او ولد على مايفيد السياق هنا وفي أي مكان آخر .

الشلال الثالث الى اقصى جبال فازوغلي شمالا وجنوبا ومن سواكن على البحر الاحمر الى النيل الابيض شرقا غربا • وكان الحد بين مملكة سنار ومشيخة قري مدينة اربجي بقرب المسلمية • فمن هذه المدينة فجنوبا كان لملوك الفنج ومنها فشمالا الى الشلال الثالث كان لمشيخة قري التي كانت تحت سيادة ملوك الفنج • وكانت المملكة منقسمة الى عدة ممالك ومشيخات ، تتمتع بنوع من الاستقلال وتدفع الجزية لملوك سنار •

وفد اثبت شقير قائمة بملوك الفنج حسب رواية الشيخ عبدالدافع واخرى حسب رواية مؤلف افرنسي اسمه الموسيو كايو كما يلي :

الاسماء حسب رواية الشيخ عبدالدافع		الاسماء حسب رواية الموسيو كايو	
بداية الملك حسب هذه الرواية سنة ٩١٠ هـ ونهايته ١٢٣٦ و ١٥٠٥ — ١٨٢١		بداية الملك حسب هذه الرواية ٨٩٠ هـ ونهايته ١٢٣٦ هـ	
	مدة ملكه سنة		مدة ملكه سنة
١ — عمارة	٣٠	١ — عمارة دنقس	٤٢
٢ — ابنه عبد القادر	١٠	٢ — نايل	١٢
٣ — اخوه نايل	١٢	٣ — عبد القادر	١٠
٤ — اخوه عمارة ابو سكاكين	٨	٤ — عمارة الثاني اخوه	٨
٥ — دكين بن نايل	١٥	٥ — دكين صاحب العادة	١٧
٦ — طبل الاول	١٢	٦ — ضرر ابنه	٨
٧ — أنسة الاول	١٠	٧ — طبل بن عبد القادر	٤
٨ — عبد القادر الثاني	٦	٨ — أنسة ابنه	١٢
٩ — عدلان بن أبه	٧	٩ — عبد القادر الثاني	٣
١٠ — بادي سيد القوم	٣	١٠ — عدلان	٤
١١ — رباط ابنه	٢٩	١١ — بادي ابو رباط	٧

الاسماء حسب رواية الشيخ عبد الدافع	مدة ملكه سنة	الاسماء حسب رواية الموسيو كايو	مدة ملكه سنة
١٢ ـ بادي ابو ذقن	٣٦	١٢ ـ رباط	٢٧
١٣ ـ أنسة الثاني	١٢	١٣ ـ بادي الثاني	٣٧
١٤ ـ بادي الاحمر	٢٧	١٤ ـ أنسة الثاني	١٢
١٥ ـ أنسة الثالث	٣	١٥ ـ بادي الثالث	٣
١٦ ـ نول	٣	١٦ ـ أنسة الثالث	٣
١٧ ـ بادي امو شلوخ	٣٩	١٧ ـ نول	٤
١٨ ـ ناصر	٧	١٨ ـ بادي الرابع	٤٠
١٩ ـ اسماعيل	٩	١٩ ـ ناصر	٨
٢٠ ـ عدلان الثاني	١٢	٢٠ ـ اسماعيل	٧
٢١ ـ اوكل	٠	٢١ ـ عدلان الثاني	١٢
٢٢ ـ طبل الثاني	٠	٢٢ ـ رباط	٣٠
٢٣ ـ بادي الخامس	٠	٢٣ ـ اوكل بن أنسة	١
٢٤ ـ حسب ربه	١	٢٤ ـ طبل	٢
٢٥ ـ نوار	١	٢٥ ـ بادي الخامس	١
٢٦ ـ بادي بن طبل اول مرة	٠	٢٦ ـ نوار	١
٢٧ ـ رانفي		٢٧ ـ بادي السادس	
٢٨ ـ بادي بن طبل ثاني مرة	٣١	٢٨ ـ رانفي	٥
٢٩ ـ مجموع مدة ملكهم	٣٢٦	٢٩ ـ بادي السادس مرة ثانية	١٦

ويلحظ شيء من الخلاف في ترتيب الملوك وسنيهم بين المصدرين مما مرده على ما هو المتبادر الى اختلاف المصادر .

ولقد سرد شقير سيرة ملوك الفنج عزوا الى كتاب الشيخ عبد الدافع المذكور قبل والى كتاب آخر اسمه تاريخ الزبير والى عالم من علماء الخرطوم اسمه ضوه وبعض كبارها الحاليين .

ويستفاد من كلامه ان الملوك ليسوا من أسرة واحدة ، فقدتسلسل الملك في ذرية عمارة الـى أنسة الثالث ١١٢٧ ـ ١١٣٠ هـ ، ١٧١٥ ـ ١٧١٨ م الذي خلعه جنوده بسبب انهماكه في اللهو والفاحشة • وعينوا مكانه الملك نول الذي يتصل من جهة الرحم بالملوك المتقدمين والذي تسلسل الملك في ذريته الى النهاية •

سيرة الملك عمارة وخلفائه
من ذريتـه (١)

ومما ذكره من سيرة عمارة ان السلطان سليم العثماني امتلـك في زمنه سواكن ومصوع ودخل الحبشة بقصد الزحف على سنار ودعـا ملكها الى الطاعة فاجابه بقوله لا اعلم ما الـذي يحملك على حربـي وامتلاك بلادي فان كان لاجل تأييد الاسلام فاني انا واهل مملكتـي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وان كان لغرض مادي فاعلم ان اكثر اهل مملكتي عرب بادية وقد جاؤوا الى هـذه البـلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تـأخذ منه جزية ، وارسل اليه مـع هـذا الجواب كتاب انساب قبائل العرب في مملكتهوضعهله الامام السمرقندي احد علماء سنار فلما وصل الكتابان للسلطان اعجبه ما فيهما وعـدل عن حرب سنار •

والكلام المروى عن عمارة للسلطان سليم مهم في بابه حيثينطوي فبه تقرير شمول العروبة والاسلام مملكة الفنج وفيه بالتالي تأكيد لما ذكرناه قبل من ذلك •

ولم يذكر المؤلف شيئا من سيرة عبد القادر ونايل وعمارة ابي سكاكين الا خبر موت عبد الله جماع شيخ قري في عهد الاخير وتعيـين ابنه الشيخ عجيب مكانه •

---

(١) ج ٢ ص ٧٣ ـ ٨٠

وذكر في صدد الملك دكين انه كان يلقب بالعادل لحبه للعدل وانه رتب دواوين حكومته احسن ترتيب ونظم البلاد فاقام على كل جهة رئيسا وضرب عليه جعلا معلوما وجعل دخول الرؤساء عليه حسب رتبهم •

ولم يذكر المؤلف شيئا من سيرة طبل وانسة وعبد القادر الثاني وذكر في صدد سيرة عدلان بن ابه ــ او عدلان بن أنسه حسب رواية كايو ــ ان الشيخ عجيب شيخ قري خرج عن طاعته فارسل عسكرا تمكنوا من قمع الحركة وقتل الشيخ عجيب • وفر اولاده الى دنقلة فارسل اليهم عدلان امانا مع عالم اسمه الشيخ ادريس فرجعوا وبالغ الملك في اكرامهم وولى احدهم العجيل المشيخة• واستطرد المؤلف الى الشيخ ادريس وقال نقلا عن مصادره انه من رجال الدين الذين اشتهروا في السودان بالصلاح والتقوى وقد لقب بسلطان الاولياء وكان له ولذريته مكانة رفيعة عند ملوك سنار وان اباه قرشي تميمي ؟ ولعله (تيمي) وامه من نسل الحسين بن علي ، وانه يروي عنه كرامات كثيرة ، ثم استطرد الى ذكر شيخ آخر اشتهر بعد الشيخ ادريس بالصلاح والتقوى في سنار اسمه الشيخ حسن ودحسونة جاء الى هذه البلد من الاندلس في حياة الشيخ ادريس وكان بين الشيخين محبة عظيمة • ثم ذكر المؤلف اسماء ثلاثة علماء قدموا في عهد الملك عدلان الى سنار وكان لهم فضل عظيم في نشر العلم والتقوى وهم الشيخ ابراهيم ابن جابر البولادي من مصر والشيخ محمد عيسى سوار الذهب والشيخ محمود العركي • ثم قال وكان قبله في بلاد سنار اولاد ضيف الله المعروفة مقابرهم في ابي حليمة ، وان اول دخول الاسلام الى هذه البلاد كان في خلافة هرون الرشيد •••

ولم يذكر المؤلف شيئا من سيرة الملكين بادي سيد القوم وابنه رباط • وذكر في صدد سيرة الملك بادي ابي ذقن انه غزا الشلك وفتك بهم ثم غزا جبال تقلى فدوخها بسبب عدوان ملك هذه البلاد على احد تجار سنار ، وانه اشتهر بالشجاعة والكرم والعفة والتعبد وتعظيم اهل

العلم والدين ، وانه كان بينه وبين علماء مصر اتصال حسن وقد أشتهرت مناقبه عندهم ومدحوه بقصائد عديدة اورد نص واحدة منها للشيخ عمر المغربي جاء فيها فيما جاء :

ابا راكبا يسرى على متن ضامر   الى صاحب العلياء والجود والبر
الىحضرةالسلطانوالملك الذي   حمىبيضةالاسلامبالبيضوالسمر
هو الملك المنصور باديالذي له   مدائح قد جلتعن العدوالحصر
له في صميم الملك مجد مؤثل   تلقاه عن اسلافه السادة الغر

وقد بنى هذا الملك في سنار جامعا وقصرا للحكومة ذا خمس طبقات ومخازن للاسلحة وديوانا لجلوسه ودواين اخرى واحاط جميع ذلك بسور له تسعة ابواب • وقد بقيت آثار هذه المنشآت الى زمن الفتح المصري •

ولم يذكر من سيرة أنسة الثاني الا خبر غلاء وجوع شديدان مات بسببهما خلق كثير •

وذكر في صدد سيرة بادي الاحمر ان اهله الفنج خرجوا عن طاعته بمؤازرة الشيخ ارداب ابن الشيخ عجيب شيخ قري واقاموا عليهم ملكا اسمه اوكل وجمعوا الف فارس لقتاله وارغامه على التخلي عن الملك ولكنه صمد لهم وقاتلهم وانتصر عليهم وقتل الشيخ ارداب محركهم •

وذكر في صدد سيرة أنسة الثالث انه انهمك في اللهو وارتكاب الفحشاء فبلغ ذلك جنوده الذين يعرفون باسم لولو والموجودين في الصعيد فجاؤوا الى قرب سنار وعينوا ملكا ثم ارسلوا الى أنسة يطلبون منه قتل وزيره فقتله فاشتدت وطأتهم عليه فاستأمنهم على نفسه واسرته وخرج من دار الملك فعينوا مكانه الملك نول الذي كان متحليا بالعقل والعدل وحسن التدبير والذي كان متصلا بالملوك الاقدمين من جهة الرحم ••••

سيرة الملك نول وخلفائه (١)

لم يرو المؤلف شيئا من سيرته • وقال في صدد سيرة بادي ابي شلوخ ابنه الذي خلفه انه اشهر ملوك سنار • وكانت شهرته بسبب حربه مع الحبشة وانتصاره على ملكها ياسو ، وقد روي المؤلف ان لويس الرابع عشر ارسل هدايا فاخرة الى ياسو ملك الحبشة مع رسول اسمه رول فجعل هذا طريقه على سنار فقابله ملكها بالترحاب وقد قدم رول اليه هدية سر بها واهداه هدية مقابلة ، وان الملك تلقى بعد ذلك رسائل من مصر • ذكرت له ان رولا ذاهب الى الحبشة لتحويل مجرى النهر الازرق عن سنار فثارت مخاوفه منه فلما خرج من سنار قاصدا بلاد الحبشة ارسل من خلفه كتيبة ادركته فقتلته مع من كان معه واخذت جميع ما كان معه من هدايا وامتعة • وبلغ ذلك الملك ياسو فجرد جيشا جرارا وسار على رأسه قاصدا سنار • وجمع الملك بادي جموعه ونصب عليها الامين ودمسمار شيخ قري قائدا عاما وجعل الشيخ محمدا ابا اللكليك كبير القبيلة المعروفة بالهمج من عرب الجعليين والذي صار هو وذريته من بعده وزراء مملكة سنار واصحاب السلطان فيها على الفرسان خاصة ، والتقى الجيشان في شرق الدندر واقتتلا قتالا شديدا دارت الدائرة فيه على جيش ياسو فانهزم بعد قتل عدد عظيم منه • وقد طار خبر هذا النصر حتى طبق الآفاق وبلغ مصر والشام والحجاز والهند والاستانة وتونس وتقاطر الناس الى سنار من كل الجهات افواجا • وقد قويت شوكة الملك بادي بعد هذا النصر وطمحت نفسه الى مد سلطانه الى الكردوفان التي كانت تحت حكم سلاطين الفور ، وكان من قواد الجيش الشيخ عبد الله ود عجيب شيخ قري واخوه تمام وابنه العجيل والشيخ محمد ابو اللكليك • وقد مني الجيش في الجولة

---

(١) ج ٢ ص ٨٠ — ٩٨

الاولى بالهزيمة وقتل الشيخ عبد الله وتمام والعجيل • وعين الملك ابا اللكليك قائدا عاما وامده بالمدد فكر على جموع الخصوم فكتب له النصر واستولى نتيجة لذلك على كردوفان • وكان ذلك في سنة ١١٦٠هـ واقام ابو اللكليك فيها حاكما الى سنة ١١٧٤ هـ ثم تركها لحكامها السابقين وعاد الى سنار ناقما على الملك لتصرفات بلغته عنه وتحريض جاءه عليه من اكابر الفنج بسببها • وقد تمكن هو وهؤلاء الاكابر من خلع الملك وولوا ابنه ناصرا مكانه وكان هذا متآمرا معهم ضد ابيه • وخرج الملك المعزول الى سواكن بعد حكم امتد ٣٩ سنة • وكان هو آخر من تمتع بعز الملك من ملوك الفنج حيث صاروا بعده يتولونه رسما لا حقيقة واصبحت السلطة الحقيقية وتولية الملوك وعزلهم بيد وزرائهم من الهمج الذين كان اولهم الشيخ محمد المذكور •

وروى المؤلف في صدد سيرة اسماعيل انه كان دينا عادلا ازال فنفاه الى حلة البقرة قرب سنار وانه اخذ يسعى في العودة الى ملكه والتآمر على الوزير والفتك به فعلم الوزير بذلك فارسل ابن اخيه بادي مع ثلة من العسكر اليه فاغتالوه في منزله • وولى الوزير مكانه اخاه اسماعيل •

وروى المؤلف في صدد سيرة اسماعيل انه كان دينا عادلا ازال المظالم واحسن الى الفقراء والفقهاء • وتوفي الشيخ محمد في زمنه فخلفه على الوزارة ابن اخيه الشيخ بادي • واجتمع الفنج عند اسماعيل يريدون خلع بادي والتخلص من سطوة الهمج فعلم بذلك فعزل اسماعيل ونفاه الى سواكن وولى مكانه عدلان الثاني •

وروى المؤلف في صدد سيرة هذا ان الوزارة استقامت للشيخ بادي وعدل في الرعية وقهر جميع خصومه وفاق على عمه الشيخ محمد في الشجاعة وقوة البطش • وخرجت قبيلة الشكرية عن طاعته فخرج اليها على رأس عسكره وواقعها وقتل شيخها ابا علي واجبرها على الطاعة

ولكنهم بقوا على نوع من الاستقلال الى ان دخلت الحكومة المصرية بلاد السودان فخضعوا لها • وارسل بادي الشيخ عجيب بن عبد الله شيخ قري لمحاربة الحلانقة ــ الذين يظهر انهم تمردوا عليه ــ ولكنهم انتصروا على الشيخ عجيب وقتلوه • وقد تولى مشيخة قري بعد عجيب ابنه محمد الامين • غير ان الوزير بادي لم يلبث ان عزله ونفاه • وقد عزل كذلك الشيخ محمد ود علي شيخ ديار خشم البحر • وضرب ابن اخ له اسمه ناصر ضربا مبرحا فاثار اخوة ناصر وجعلهم يهيجون عليه ؛ وقد واقعهم الملك وانضم اليهم محمد الامين والشيخ محمد المعزولين وجمعوا جموعهم وساروا لقتاله في رفاعة حيث كان اتخذها مركزا له • وسارع هو بجيشه نحو سنار فالتقى بجموع اعدائه في الطريق فاقتتلوا قتالا شديدا غير ان محمد الامين ضربه ضربة اثخنته فوقع على الارض مجندلا ثم اجهز عليه • على ان هذا الحادث لم يفت في عضد الهمج وسطوتهم حيث خلف بادي في الوزارة الشيخ رجب اكبر اولاد اخيه الذي استطاع ان يفرض نفسه على الملك والمملكة كسابقه • ولقد سار على رأس جيشه بعد ذلك الى كردوفان لفتحها فاغتنم الفرصة محمد الامين شيخ قري الذي عاد الى المشيخة بعد قتله لبادي فاعلن تمرده فامر رجب اخاه ابراهيم الذي تركه وكيلا عنه في سنار بالسير عليه وقمع حركته • وقد سار هذا وحارب محمد الامين الذي كان مقيما بالهلالية شرق الازرق وغلبه وهزمه وخلعه من المشيخة وولى اخاه بادي بن مسمار مكانه وكان ذلك سنة ١١٩٨ هـ •

وثقل على الملك سيطرة الوزير وأسرته • فكاتب اعداءهم وفي طليعتهم محمد الامين واتفق معهم على القضاء عليهم • وقد قبضوا على ابراهيم اخي الوزير ونائبه وقتلوه • واسترق الملك بنات الشيخ محمد ــ اخوات الوزير ــ وفرقهن على رؤساء عسكره • وكان رجب قد عاد الى رفاعة فسارع الى سنار بجموعه واشتبك مع جموع الملك وحلفائه فدارت الدائرة عليه وقد قتل في الميدان وتشتت جموعه • غير ان

الشيخ ناصر اخا رجب جمع شتاتهم واخذ يستعد للكرة • وارسل الملك عدلان جيشا لقتالهم واشتبكوا في معركة حامية كتب النصر فيها لهم فانهزم جيش الملك فتبعوه الى سنار واوقعوا فيه واستولوا على المدينة • وقد مات عدلان في هذه الاثناء قهرا • وتمكن ناصر من فرض سلطته على المملكة • وانكسرت شوكة ملوك الفنج بعد ذلك فلم تقم لهم قائمة وصار ناصر وخلفاؤه هم اصحاب السلطان الحقيقي يولون الملك من شاؤوا ويعزلون او يقتلون من يستشعرون منه قوة وطموحا • وكان ذلك سنة ١٢٠٣ هـ •

ولقد ولى ناصر الملك بعد عدلان اوكل وهو ابن أنسة الثالث في قائمة كايو فتخلى عن الملك بعد بضعة اشهر لانه لم يطق البقاء فعين الوزير مكانه طبلا • وكان محمد الامين شيخ قري المعزول وبعض الكبراء المناهضين للوزير وأسرته قد نصبوا رباطا بن عدلان ملكافخرج ناصر واخذ معه طبلا لقتالهم فدارت الدائرة عليه وقتل طبل في المعركة • ولم يفت هذا في عضد الناصر حيث عادالى سنار فنصب بادي الخامس ملكا ــ وهو ابن دكين حسب قائمة كايو ــ وخرج به ثانية لقتال خصومه • ودارت الدائرة عليه ثانية وقتل الملك الجديد كما قتل رباط الذي نصبه الخصوم • ولم يفت هذا في عضده ايضا حيث عاد الى سنار فنصب حسب ربه ملكا فما لبث ان مات فنصب نوارا ملكا ، وبدا من هذا طموح الى السطوة فعاجله واغتاله ونصب مكانه بادي السادس بن طبل • وكل هذه الاحداث جرت في خلال ثلاث سنين ١٢٠٣ ــ ١٢٠٥ هـ •

وقد قدر لبادي السادس ان يبقى في الملك الى الفتح المصري الذي تم في سنة ١٢٣٦ هـ وقد خلع مرة من الملك ثم عاد اليه ثانية وظلت أسرة الهمج هي صاحبة الوزارة والسلطة الفعلية خلال ذلك •

ولقد اشتدت وطأة ناصر على اخوته وعلى كبراء الدولة معا فاثارهم ضده وجعلهم يتحالفون مع اعدائه ويحشدون حشودهم لارغامه •

وحاول استرضائهم فأبوا الا ان يتنازل ورأى ان لا طاقة له بهم فترك سنار وسافر الى الجنوب فتولى احد اخوته ادريس كرسي الوزارة مكانه • وقد حاول ناصر ان يقوم ببعض الحركات بقصد استعادة مركزه فدارت الدائرة عليه ووقع أسيرا وأتى به الى ادريس فسلمه الى حياص بن الملك بادي الخامس فقتله بثأر ابيه • ولقد بدا من الملك بادي ما أساء الوزير فلم يكن منه الا ان عزله وولى مكانه رانفي • وبدا من الشيخ عبد الله عجيب شيخ قري ما اغضبه فزحف عليه وقاتله وقتله وعين الشيخ ناصر بن الامين مكانه • وطمح الوزير الى مد سلطانه الى مملكة الجعليين فسير اخاه عدلان على رأس جيش لهذا القصد فتمكن من تحقيق قصده حيث تغلب على ملكها وعزله وعين آخر تعهد بالخضوع • غير ان هذا لم يستمر لان الملك المغلوب تمكن من التغلب بعد قليل على الملك الجديد والعودة الى الحكم •

وتوفي ادريس سنة ١٢١٨ هـ فتولى الوزارة اخوه عدلان • وقد انهمك في الملذات واهمل امور الدولة فتحرك ضده محمد بن اخيه رجب بالتآمر مع الملك وبعض رجال الدولة وادى ذلك الى انقسام ونزاع وقتال بين رجال الدولة وكان من نتيجته قتل عدلان اولا وحلول محمد في الوزارة ثم قتل محمد والملك رانفي وعودة الملك بادي السادس وحلول محمد بن عدلان في الوزارة وقد قبض هذا على جميع اعدائه واعداء ابيه ومن جملتهم اولاد عمه رجب وقتلهم فاستتب له الامر وظل في الحكم الى آخر عهد الدولة • وكان يقيم احيانا في مدينة ود مدني •

وفي سنة ١٢٢٥هـ استاء الوزير من الشيخ ناصر الامين شيخ قري الذي كان يقيم في حلفاية وصار يسمى شيخ حلفاية ايضا بسبب ذلك فزحف لمحاربته ففر من وجهه الى شندي حيث اقام فيها الى ان عاد الوزير الى سنار فعاد الى حلفاية • وفي سنة ١٢٢٦ هـ نشب قتال بين السعداب والجميعاب انتصر فيه الآخرون وقويت شوكتهم فارتفعت رؤوسهم على ملوك الجميعاب وعلى مشايخ حلفاية معا • وفي سنة

١٢٢٩ هـ خرج الملك من سنار متفقا مع زعيم عشيرة الكاتير على قتال ود عدلان وزيره الذي كان يقيم في عبود فسارع هذا اليهم وحاصرهم في مكان اسمه حلة الكبر واضطرهم الى الرضوخ والمصالحة • وفي سنة ١٢٣١ هـ زحف الوزير على حلفاية ثانية لقتال الشيخ ناصر ففر الى شندي كما فعل في المرة الاولى فلما عاد الوزير الى سنار عاد بدوره الى حلفاية •

وفي هذه الاثناء كان نجم محمد علي الذي تولى ولاية مصر منذ سنة ١٢٢١ هـ يتألق وسلطانه يتوطد فاغتنم فرصة المنازعات والاضطرابات التي كثرت في السنين الاخيرة في مملكةسنار وغيرهامن ممالكومشيخات السودان وطمح الى مد سلطانه اليها واستغلال خيراتها ومعادنها • وكان هذا ديدن كل من حكم مصر من اقدم الازمنة • وقد جاء اليه بعض الزعماء الحانقين يحرضونه على ذلك ويهونون عليه الامر كما فعل هذا بعض التجار المصريين الذين كانوا يترددون على السودان • وكان قد استقر في دنقلة بعض امراء المماليك الذين استطاعوا ان ينجوا منه بعد مذبحة القلعة والذين كان محمد علي يعتبرهم شوكة من ورائه يجب قلعها فصحت عزيمته على فتح السودان • واولى خطوة خطاها الى ذلك ارساله وفدا الى ملك سنار يطلب منه طرد المماليك من دنقلة وقد بعث اليه مع الوفد هدية فاخرة ووصاه بدراسة الاحوال • وعاد الوفد فقدم تقريرا مشجعا اليه فخطا خطوته الثانية بتجهيز حملة كبيرة مؤلفة من فرسان ومشاة ومدفعية وترك وارناؤوط وبدو وفريق من قبائل العبابدة النازلين في حدود السودان وتسييرها من البر والبحر بقيادة ابنه اسماعيل سنة ١٨٢٠ م ـ ١٢٣٥ هـ • وقد تمكنت الحملة بشيء من اليسر من فتح دنقلة والاستيلاء بعدها على بلاد النوبة ثم على بلاد سكوت ثم على مشيخات المحسن وارقو وغيرها • وقد خضع معظم مشايخ وملوك هذه البلاد بدون قتال فكان اسماعيل يؤمنهم ويقرهم على اماكنهم • وفي منطقة عربان الشايقية بدا شيء من المقاومة حيث

جمع ملوكها الثلاثة صبير كبير النيكاب وشاويش كبير العادلاناب وعمر كبير العمراب جموعهم واستعدوا للقتال • وعرض اسماعيل عليهم الصلح وطلب منهم تسليم السلاح فرضوا بالصلح وابوا تسليم السلاح وحينئذ اخذت الاشتباكات تقع بينهم وبين قوات اسماعيل باشا • وكانت الغلبة تكتب لهذه القوات لتفوقها بالاجهزة والفن والتنظيم ، واخذ سلطان مصر تتيجة لذلك يتوطد على البلاد مكانا بعد مكان • وكان بعض الملوك والمشايخ يجنحون الى اعــلان الطاعة والخضوع فيقبل اسماعيل منهم ويقرهم على ما في ايديهم الى ان وصلت الحملة الى قرب سنار ، فارسل اسماعيل الى ملكها يطلب منه الطاعة فاجابه بجواب ما يزال اهل سنــار يتحدثون عنه حيث قال فيه له « لا يغرنك انتصارك علــى الجعليــين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية » ثم اخذ يستعد للمقاومة هو ووزيره ويهيئون الاجناد والغلال • غير ان الريح جرت على غير ما يشتهيان • فان حسنا ابن الوزير السابق رجب ارسل بعض رجاله فاغتالوا الوزير الذي كان فارسا مقداما ذا عزم وتدبير والذي كان عليه المعول الاول في المقاومة وثار حزب الوزير فجمعوا جموعهم وهاجموا حسنا وجماعته في جنوبي سنار فانتصر عليهم وكــاد يفرض نفسه وزيرا لو لا وصول اسماعيل بحملته الى ود مدني ومسارعة رجب ود محمد عدلان اليه يعلن له الطاعة ويستعديه على حسن مما جعل حسنا يفر الى جبل فرنيس في حدود الحبشة مع بعض رجاله وقتلة الوزير • وقد فت قتل محمد ود عدلان واستسلام ابنه اسماعيل في عضد الملك بادي فخرج بدوره طائعا الى اسماعيل وقدم اليه اربعة رؤوس من جياد الحبشة فكساه اسماعيل كسوة فاخرة وقرره ملكا على اهله وعشيرته ــ لا على المملكة ــ واجرى له ولعائلته مرتبا من المال والحبوب • ثم دخل سنار بالابهة العسكريــة وهناك قابله العلماء والاعيان فتلقاهم بالبشر واجزل لهم العطاء ووطد الحكم المصري في المملكة وكان ذلك في حزيران عام ١٨٢١ م ــ ١٢٣٦ هـ فكان ذلك نهاية هذه المملكة بل الامبراطورية العربية الكبرى التــي

كانت تضم العدد الكثير من المشيخات والممالك الخاضعة لسيادتها على ما سوف نذكره بعد وكانت تشغل النصف الشرقي من بلاد السودان العظمى ٠

ولقد توجه اسماعيل بعد ذلك الى بلاد فازوغلي الآتي ذكرها فشاع انه قتل فتحرك اهل بلاد سنار للانتقاض على الحكم المصري وبلغ الخبر اسماعيل فسارع بالعودة الى سنار وتمكن من قمع الحركة وقبض على زعيم اسمه ود عجيلاني الذي يبدو انه كان محركا للثورة وقتله ثم امر بالرفق في تحصيل الضرائب ٠ وقد ذكر شقير في سياق قصة حملة اسماعيل [١] ان نار الثورة مع ذلك بقيت تحت الرماد وان بعض الرؤوس ظلوا يترقبون الفرصة لاضرامها وان رجب ود عدلان واخوه علي قاما بمحاولة في هذا المجال فارسل اسماعيل بعض عساكره فقتلوا رجبا واسروا عليا واخذوه الى اسماعيل فشنقه ، فكان ذلك على ما يظهر مخمدا للنار وموطدا للحكم المصري في سنار ٠

---

(١) ج ٣ ص ١٣

الممالك والمشيخات العربية الاخرى
في نطاق سيادة مملكة سنار

— ٤ —

لقد ذكر شقير عددا من الممالك والمشيخات العربية التي كانت تتمتع باستقلال محلي بزعامة رؤسائها مع خضوعها لسيادة مملكة سنار • والمستفاد من كلام المؤلف ان الممالك هي التي كان لرؤسائها طاقيه وككر وكانوا يتلقبون بلقب الملك •

واليك هي حسب ترتيب ورودها في تاريخ السودان :

١ ــ مشيخة العابدلاب [1] :

هذه المشيخة اهم المشيخات والممالك المذكورة تحت العنوان • وقد عرفت بمشيخة قري اولا ثم بمشيخة حلفايه نسبة الى قريتي قري وحلفاية اللتين كانتا مركزين لامرائها بالتوالي ، وقد عرفت كذلك بمشيخة العابدلاب اختزالا من اسم مؤسسها واميرها الاول الذي كان اسمه عبد الله • وهو الشيخ عبد الله جماع زعيم قبيلة القواسمة الجهينية العربية الصريحة الذي تحالف مع عمارة ود دنقس زعيم الفنج وقضيا على حكم العنج البجاويين واقاما مملكة الفنج التي جعلت منطقة قري احدى مناطقها الهامة تحت حكم الشيخ عبد الله على ما شرحناه في البحث السابق •

وقد كانت حدود هذه المشيخة تمتد من حجر العسل الى سوبة ، وكان لها السيادة على جميع البلاد الواقعة من اريجي الى الشلال الثالث•

---

(١) كتاب نعوم شقير ج ٢ ص ٩٩ ــ ١٠١

وقد عمرت ثلاث قرون ونيفا كمملكة سنار وتولى زعامتها سبعة عشر شيخا وهم حسب ما رواه المؤلف عن عبد الدافع وكايو الافرنسي معا •

١ ــ عبد الله جماع الاول

٢ ــ ابنه الشيخ عجيب الذي تمرد على طاعة ملك الفنج في زمن الملك عدلان فقتل في الحرب التي وقعت بينهما •

٣ ــ العجيل بن عجيب •

٤ ــ حمد السميح •

٥ ــ عثمان بن حمد •

٦ ــ عبد الله الثاني بن عجيل •

٧ ــ مسمار بن عبد الله •

٨ ــ ارداب ود عجيب الذي قتله ملك الفنج بادي الاحمر •

٩ ــ الامين ود مسمار •

١٠ ــ عجيب بن عبد الله •

١١ ــ عبد الله الثاني ود عجيب

١٢ ــ عمر اخو عجيب •

١٣ ــ محمد الامين بن مسمار ثانية •

١٤ ــ بادي بن مسمار •

١٥ ــ عبد الله الرابع ود عجيب الذي قتله الشيخ ادريس الوزير •

١٦ ــ ناصر ود الامين •

١٧ ــ امين الثاني بن ناصر •

١٨ ــ ناصر ود عجيب •

وقد كان الاخير هو الحاكم حينما جاء اسماعيل بن محمد علي على رأس حملة الفتح سنة ١٢٣٦ ــ ١٨٢١ م فعزله فكان ذلك نهاية هذه الامارة •

وقد تقلبت حالة مشايخ هذه الامارة مع ملوك الفنج حيث كان بعضهم يسيرون مع الملوك في وفاق وتضامن كما كان بعضهم يقفون منهم

موقف العصيان والتمرد مما مر امثلة عديدة منه في الفصل السابق •

ولم يذكر شقير شيئا كثيرا في فصله الخاص عن هذه المشيخة من سيرة مشايخها اكتفاء بما مر من سيرتهم في فصل مملكة الفنج على الاغلب ، وقد تابعناه في ذلك فلم نكرر ما جاء في ذلك الفصل هنا •

ومما ذكره ان الشيخ عجيب ثاني امرءاء هذه الامارة كان يلقب بلقب الما نجلوك الذي فسره بانه مركب من جملة ما نجل الاك والذي قال ان منه لقب ما نجل الذي يخاطب به شيوخ العابدلاب الى اليوم • وان العابدلاب يعرفون باولاد عجيب ايضا نسبة اليه •

ومما ذكره ايضا أن أسرة العابدلاب كانت حينما يموت الشيخ الحاكم تختار خلفه وتطلب من ملك سنار تأييده ، وان مشايخ المشيخة كانوا بدورهم يصادقون على من تختاره القبائل والمناطق شيخا لها حينما يموت شيخها ، وكانت تأتي بمرشحها الى الشيخ العابدلابي فيلبسه طاقية ذات قرنين محشوة قطنا ويجلسه على الكرسي الذي كان يسمى ككر ويخاطبه بلقب مك أي ملك ثم يباركه فيقبل الشيخ الجديد يده ويدعو له ويأمر الشيخ العابدلابي حينئذ بضرب النحاس اشهارا لملكه أو مشيخته ، وان ناموس الوراثة لم يكن متبعا باطراد في المشيخات والزعامات بل كان الشيخ يولي الاكثر موافقة له والاقدر على جمع الزكاة وتقديم الهبات • وقد ذكر المؤلف فيما ذكره ان مشايخ العابدلاب كانوا هم المتقدمين على جميع المشايخ عند ملوك الفنج وانهم كانوا يخاطبون هؤلاء الملوك بلقب « طويل العمر » •••

٢ ـ مشيخة خشم البحر (١) :

قامت هذه المشيخة على شرق النيل الازرق بين رنقة والرصيرص ومركزها رنقة • وقد عرفت ببلاد خشم البحر او فم البحر لان بحر النيل

---

(١) ج ٢ ص ١٠١

لا يصلح للسفر منها جنوبا بسبب شلال الرصيرص • ويقال ان لمشايخها صلة من جهة الرحم مع الفنج وهم في الاصل قواسمة أي من قبيلة جهينة •

ولم يذكر المؤلف الا اربعة من مشايخ هذه المشيخة • ومن المحتمل ان يكونوا هم المشهورون المعروفون من مشايخها وهم :

١ ـ احمد ود علي وهو جدهم • ولذلك يعرفون ايضا باولاد احمد •

٢ ـ صباحي ود عدلان ، وكان في زمن ملك الفنج عدلان الثاني •

٣ ـ الشيخ محمد كمتور • وتسمى هذه المشيخة باسم مشيخة الكماتير نسبة اليه •

٤ ـ الشيخ ضرار اخو الشيخ محمد • وهو الذي قتله محمد ود عدلان آخر وزراء الهمج •

ولم يذكر شقير شيئا من سيرة هؤلاء الملوك ايضا • غير انه ذكر الشيخ محمد كمتور اكثر من مرة في سياق سيرة ملوك الفنج يبدو منها انه كان قوي الشخصية ذا فعالية ونشاط في الدولة وما كان يقع بين الوزراء والملوك من تجاذب وتشاد •

ومما ذكره شقير من اخباره المهمة ارساله عسكرا لقتال التكارنة الذين هم في القلابات على حدود الحبشة حيث يدل هذا على طموحه وتمتعه باستقلال واسع (١) •

٣ ـ مملكة فازوغلي (٢) :

قامت هذه المملكة على ما ذكره شقير في جنوبي مشيخة خشم البحر وامتدت من الرصيرص الى فداسي • وكانت عاصمتها فازوغلي ومن بلادها المشهورة فداس على نهر يابوس من فروع النيل الازرق وكان يأتيها من الحبشة الخيل والحديد والسكاكين والفؤوس والفهود

---

(١) انظر ص ٩٠ ـ ٩٦ ج ٢ (٢) ص ١٠١ ـ ١٠٢

والعسل والبهارات ومن دار البرتات التبر • ودين اهلها الاسلام ولغتهم العربية • ويسكن بينهم كثير من اهل دار البرتات وعبدة الاوثان • ورؤساء هذه المملكة من سلالة الفنج ولذلك تلقبوا بلقب الملك وكان لباسهم كنباس ملوك الفنج • وهذه اسماء ملوك المملكة الذين قال المؤلف انه اخذها من آخر ملوكها الملك حسن الذي عزله اسماعيل باشا [1] :

١ ــ كلاح ومدة ملكه ٥٠ عاما •
٢ ــ يمني ومدة ملكه ٤٠ عاما •
٣ ــ ابنه ادريس ومدة ملكه ٣٠ عاما •
٤ ــ حابر ومدة ملكه ١٥ عاما •
٥ ــ جابر الثاني ابنه ومدة ملكه عامان •
٦ ــ زنقر ومدة ملكه عاما واحدا •
٧ ــ رويا ومدة ملكه عامان •
٨ ــ امبدي ابنه ومدة ملكه ٤ اعوام •
٩ ــ اتورو ابن جابر الثاني ومدة ملكه ٣٠ عاما •
١٠ ــ ادرلا ومدة ملكه ١٥ عاما •
١١ ــ مطر ابنه ومدة ملكه ١٦ عاما •
١٢ ــ فنقرو ابن مطر ومدة ملكه ١٦ عاما •
١٣ ــ قلبوس ابنه ومدة ملكه عام واحد •
١٤ ــ قمبو اخو قلبوس ومدة ملكه عامان •
١٥ ــ قمبار ومدة ملكه ٥ اعوام •
١٦ ــ اموشت اخوه ومدة ملكه عام واحد •

---

(١) قول شقير انه اخذ الاسماء عن ملكها الاخير حسن عجيب لانه لايعزو ذلك الى مؤلف آخر . وحسن عزل سنة ١٨٢١ والمؤلف عاش الى ما بعد سنة ١٩١٦ التي طبع فيها كتابه عن سيناء ، الا اذا كان يريد ان ان يقول ان الراوي رواها له عن حسن او كان كلامه رواية عن مؤلف آخر .

١٧ ــ حسن ابن مطر ومــدة ملكه ١٢ عاما •

ولم يذكر المؤلف شيئا من سيرة ملوك هذه المملكة عــدا اشارة تجاه اسم قلبوس جاء فيها ان اخاه قمبر قتله وحل مكانه ، واشارة ثانية تجاه اسم اموشت جاء فيها ان عدلان ــ ملك الفنج على ما هو المتبادرــ قتله ، واشارة ثالثة تجاه اسم حسن جاء فيها ان اسماعيل عزله •

٤ ــ مشيخة الحمدة [١] :

كل ما ذكره شقير عن هذه المشيخة انها قامت على الدندر شــرق مشيخة الكماتير وان مركزها دبركي على الدندر وان مشايخها كــانوا يخاطبون بلفظ مانجل كمشايخ العابدلاب •

٥ ــ مملكة بني عامر [٢] :

قال شقير في صدد هذه المملكة انها قامت في الصحراء الشرقيــة بين البحر الاحمر وخور بركة شرقا لغرب وبين عقيق على البحر الاحمر وبلاد الحبشة شمالا لجنوب ، وانها مؤلفة من اربع قبائل مختلفة هــي البجة والخاس وبنو عامر والنابتاب • وان مما قيل ان بني عامر جاؤوا من الحجاز فملكوا البجة والخاس [٣] • ثم جاء النابتاب اولاد نــابت من الجعبليين وملكوهم جميعا وصاروا اصحاب الزعامة عليهم واعطاهم ملك سنار كنكروطاقية وتلقبوا بلقب الملك ورجال قبيلتهم يلقبونهم بلقب دقلل وهو بمثابة ارباب عند ملوك العرب • وكان ملوك هذه المملكــة يلبسون اقراطا من الذهب في الاذن اليمنى وزن كل منها نصف اوقيــة ولا تنزع منهم الا بعد وفاتهم •

٦ ــ مملكة الحلانقة [١] :

قال شقير في صدد هذه المملكة ان الحلانقة قبيلة من البجة غير انهم

---

(١) ج ٢ ص ١٠٢ (٢) ص ١٠٢ ــ ١٠٣

(٣) طائفة من البجا على ما يستفاد من كلام للمؤلف فيسياق تاريخ البجة انظرج٢ص٦٧

يدعون انهم من ذرية احمد الحلاق من قبيلة بني سعد مزين النبي عليه السلام • ولغتهم البجاوية ومركزهم جبل كسلة على القاش • وكان بينهم وبين الهدندوة وبني عامر منذ القديم حروب وغزوات • وكان كبيرهم يلقب بلقب الشيخ الى ايام احدهم الشيخ عوض مسمار الذي تزوج ببنت من العابدلاب او الفنج فألبسه ملك سنار طاقية الملك لتعزيز مقامه • فصاروا يتلقبون بلقب الملوك • وقد دامت مملكتهم الى سنة ١٨٤٠ م أي الى ان تم فتح بلاد التاكا من قبل مصر •

٧ ــ مشيخة الشنابلة (١) :

ذكر شقير هذه المشيخة تحت عنوان « الممالك والمشيخات التي خضعت للفنج بواسطة العابدلاب » وقال في صددها انها قامت على النيل الازرق شمالي سنار وان مركزها المسلمية وان اشهر مشايخها الشيخ شنبول الذي قتل في ايام الملك عدلان الثاني •

٨ ــ مملكة الجموعية (٢) :

وهذه ايضا ذكرها شقير تحت العنوان المذكور وقال في صددها انها امتدت من غربي النيل الكبير الى النيل الابيض ومن عقبة قري الى الترعة الخضراء وكان مركزها القيزان ، وكان أهم فروعها الجميعاب والسروراب والفتيحاب • وكان الجميعاب اقواها • والمتبادر ان قصده من جملة « اهم فروعها » هو « اهم القبائل التي كانت تقيم في نطاق هذه المملكة » وهذه القبائل مع قبيلة الجموعية من القبائل العربية الصريحة على ما مر ذكره في فصل سابق •

٩ ــ مملكة الجعليين (١) :

وهذه ايضا ذكرها شقير تحت العنوان نفسه • وقال في صددها

---

(١) ص ١٠٢   (٢) ص ١٠٣

انها قامت في شمالي مشيخة العابدلاب على انقاض مملكة مروي القديمة بين حجر العسل والدامر ، وكان مركزها شندي . وكانت مملكة قوية تولى الملك فيها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب ، وبلغ عدد الملوك الذين تولوا حكمها ستة عشر والمدة التي حكموا فيها ٢٣٥ سنة . وقد عزا المؤلف العدد والمدة الى كايو الافرنسي وروي عنه اسماء الملوك كما يلي :

١ ـ سعداب دبوس ومدة ملكه ٢٠ سنة .

٢ ـ سليمان العداد ومدة ملكه ٧ سنوات .

٣ ـ ادريس ابنه ومدة ملكه ٣٥ سنة .

٤ ـ عبد السلام ومدة ملكه سنة واحدة .

٥ ـ الفحل ابن عبد السلام ومدة ملكه ١٥ سنة .

٦ ـ ادريس الثاني اخوه ومدة ملكه ست سوات .

٧ ـ ديــاب اخوه مدة ملكه ١٢ سنة .

٨ ـ قنبلاوي ومدة ملكه ثلاث سنوات .

٩ ـ بسارة ومدة ملكه ٧ سنوات .

١٠ ـ سليمان بن سالم ومدة ملكه ١٥ سنة .

١١ ـ سعد اخوه ومدة ملكه سنتان .

١٢ ـ ادريس الثالث ومدة ملكه ٢٠ سنة .

١٣ ـ سعد الثاني ابنه ومدة ملكه ٤٠ سنة .

١٤ ـ مساعد بن سعد ومدة ملكه ١٣ سنة .

١٥ ـ محمد الملك ومدة ملكه ١٣ سنة .

١٦ ـ ابنه نمر ومدة ملكه ١٧ سنة .

ولم يرو شقير شيئا كثيرا من سيرة واحداث هذه المملكة . وفي جدول الاسماء الذي اورده شقير عزوا الى كايو اشارة تجاه اسم الملك عبد السلام بانه قتله فنج سنار ، واشارة تجاه الفحل بانه قتله الجعليون

واشارة تجاه ادريس الثاني بانه قتله الكواهلة واشارة تجاه نمر ابن محمد بانه عزله اسماعيل •

ومما اورده شقير من سيرة ملوك هذه الدولة ان ادريس الثالث كان اقوى فرسان زمانه وانه لم يبارز فارسا الا غلبه وانه خلف ولدين هما محمد وسعد فاقتسما الدار بينهما بعده فملك محمد البر الشرقي في شندي وسعد البر الغربي في المتمة • ولما توفي محمد خلفه ابنه نمر في قسمه ولما توفي سعد خلفه ابنه مساعد • وقد دام ملكهما الى الفتح المصري •

ومما قاله ان الجعليين اشتهروا في السودان بالفروسية واقتحام الاخطار ولهم وقائع معدودة مع الفنج والشايقية وقبائل البادية المجاورين لهم كالشكرية والكواهلة والبطاحين •

وقد نوه بشندي وآخر ملوكها نمر بن محمد فقال ان شندي كانت قبل الفتح المصري من اهم مراكز التجارة في السودان وكان فيها سوق للرقيق يأتيه التجار من الحبشة وكردوفان ودارفور والدنكا وفرتيت ، وان كايو ــ المؤلف الافرنسي الذي ينقل عنه على ما هو المتبادر ــ وصفها بانها بلدة عامرة فيها (٩٠٠) بيت و(٧٠٠٠) نسمة وبيوتها مربعة الشكل وكلها طبقة واحدة عدا بيت الملك الذي كان طبقتين ، وانه كان عند الملك نمر نحو ٣٠٠ فارس واربعين عبدا مسلحين بالبنادق وهم رجاله الاخصاء • غير ان الجعليين يقومون كلهم لنصرته اذا هاجمه عدو •

وقد ذكر شقير الملك نمر اكثر من مرة في الباب الذي عقده على سير حملة الفتح • فروى انه جاء الى اسماعيل حينما وصل الى بربر طائعا فأمنه وكساه واقره على بلاده • وانه سار معه هو وابن عمه الملك مساعد الى الحلفاية حيث تقبل اسماعيل طاعة كبير العابدلاب •

وكان ذلك قبل فتح سنار [١] •

ثم ذكره بعد ذلك [٢] في سياق موقف خطير وقفه ضد حملة اسماعيل أدى الى قتل اسماعيل وجمع من عساكره حرقا وانتقاض مناطق عديدة من السودان بعد رضوخها لاسماعيل • ومما رواه في صدد ذلك انه لما تحرك اهل سنار بعد ان غادرها اسماعيل الى بلاد فازوغلي تحفز الملك نمر بدوره للانتقاض ايضا • وجهز اسماعيل بعض عساكره وارسلها في المراكب وذهب بنفسه الى شندي • وحينما وصل احضر الملك وتهدده وضرب عليه جزية قدرها الف اوقية من الذهب والف جمل اصهب والف ناقة منتجة والف بقرة والف شاة والف عبد والف جارية فاظهر تمام الامتثال ثم اولم وليمة فاخرة دعا اليها اسماعيل وعساكره فاكلوا واكثروا من شرب المريسة فسكروا وناموا وجمع نمر عبيده وذوي قرباه واخبرهم بمطالب اسماعيل وتهديده فاتفقوا على قتله مع عساكره واحاطوا المنزل بالهشيم واشعلوا فيه النار فاحترقوا جميعا ومن جملتهم اسماعيل • وانتشر خبر ذلك في اقطار السودان فنشط الكثير من الرؤوس للثورة • وسارع الدفتردار ـ الرجل الثاني في حملة اسماعيل ـ الذي كان في كردفان بمعظم عساكره الى المتمة ـ مركز مساعد ابن عم نمر ـ فوجد اهلها مجتمعين جمهورا واحدا طالبين الامان فأمنهم غير ان رجلا منهم وثب عليه وطعنه بحربة فاشتعل غيظا وامر بقتلهم جميعا ولجأ بعضهم الى خلوة يعتصمون فيها فامر باحراقهم فيها ثم عبر الى شندي فاحرقها وسار الى الحلفاوية فاحرقها واجتاز النيل الى جزيرة توتي فقتل فيها خلقا كثيرا ثم ذهب الى العيلفون وكان اهلها قد تجمعوا للمقاومة فاحدث فيهم مجزرة عظيمة واحرق الحلة بالنار وسبى الكثير من العبيد والاحرار • ثم توجه الى ود مدني فبلغه ان اهالي البحر الابيض قد شقوا عصا الطاعة

---

(١) ج ٣ ص ٦ ـ ٧

(٢) نفس الجزء ص ١٣ ـ ١٦ و ٣٤ ـ ٣٧

فارسل حملة عليهم اثخنت فيهم قتلا وسبيا • وعاد بعد ذلك الى كردوفان فعاد الملك نمر الى شندي فرجع الدفتردار ثانية ففر نمر منها ومعه الملك مساعد فارسل اليه بعض العساكر التركية والشايقيةفاشتبك معهم في وقعة شديدة دارت فيها الدائرة عليه وقتل من جماعته خلق كثير ومن الجملة الملك مساعد ، واستطاع هو وفريق من جماعته ان ينجوا • وقد وقع كثير من جماعة نمر في الاسر فوضعوا في زريبة من شوك واجرى عليهم الماء فمات اكثرهم واستعبد الباقين وارسلهم الى مصر •

وكان الشيخ بشير ود عقيد الجعلي هو الذي دل الدفتردار على زعماء الثورة من الجعليين فقربه وجعله رئيسا للجعليين مكان الملك نمر •

وقد قصد هذا الملك بلاد الحبشة لاجئا فلما بلغها استأذن ملكها الرأس علي في الاقامة في حدود بلاده فاذن له واجرى عليه مرتبا من الغلال والخرفان والبقر والسمن والعسل وامر باكرامهم فاقام هو واولاده واتباعه سنتين في غبطة • ثم توفي فخلفه ابنه عمر وسمع الجعليون وسكان النيل بما صار لهم من امن وحظ فاخذ يأتي اليهم خلق كثير ممن كان ناقما على الحكم المصري حتى كثر عددهم فاستأذنوا زعيم الحبشة بالانتقال الى ميقبة فأذن وكان فيها اودية خصيبة وارض زراعية واسعة فاقاموا فيها على ازدياد حتى عظمت نفوسهم فاخذوا يغزون بلاد بني عامر والشكرية والضبابية والقطارنة من البلاد الخاضعة للحكم المصري ويملأون ايديهم منهم • وجاء اليهم فيمن جاء رجل من قبيلة الهنادي في مصر اسمه ابو رواش ومعه صهر له اسمه محمود المحلاوي ومعهم جمع كبير فكانوا لهم اكبر نصير في ما استمروا عليه من غارات وغزوات وفرض اتاوات • وقد كان عمر واخوته قبل مجيىء هؤلاء طلبوا من الحكومة الامان للعودة الى السودان وكانت الحكومة تود تأليفهم فبعث اليهم سعيد باشا بالامان ، وقد اورد شقير نسخة

المرسوم المؤرخ في سنة ١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٤ م وقد وجه فيه الخطاب « الى عمدة امثاله المكرمين الشيخ عمر ولد نمر » بذل له الامان ووعد فيه بالمقابلة بما يليق به بل وبالعودة الى محله واعادة جميع اطيانهم واملاكهم •

فلما جاء ابو رواش وجماعته قووا به فثنوا عزمهم عن التسليم واستمروا على ما كانوا عليه من غارات وغزوات الى سنة ١٢٨٢ هـ حيث تعرضوا لضربة قاضية من احد رؤساء الحبشة وهو الراس طرزة الذي ثار على الملك فطلب من عمر المساعدة بالاسلحة فامتنع فغضب واغار عليه في ميقبة فقتله واكتسح بلاده • وقد فر من سلم من جماعته الى القضارف وارسلوا يطلبون العفو من الحكومة المصرية فاستجابت لطلبهم فحضر بعضهم بقيادة اكبرهم عمارة بن نمر الى شندي ومعه محمد بن عمر فعينت الحكومة جماعتهم بزعامة خالد بن الملك عمر حيث هم الى ان كانت الثورة المهدية فكانوا من اعز انصارها •••

١٠ ـ مملكة الميرفاب [١] :

ذكر شقير هذه المملكة تحت عنوان الممالك والمشيخات الخاضعة للفنج بواسطة العابدلاب ايضا • وقال انها قامت في شمالي الجعليين بين المغرب ووادي السنيقر وان مركزها بربر • وان ملوكها اصحاب ككر وطاقية ولذلك تلقبوا بلقب الملك وانهم اشتهروا بالكرم والنباهة كما اشتهروا بالشجاعة ، ولم يذكر من ملوك المملكة الا آخرهم الملك نصر الدين الذي روى ان الهمج ـ وزراء مملكة الفنج ـ اساؤوا أليه فذهب الى مصر وحرض محمد علي باشا على فتح سنار انتقاما لنفسه منهم !

والميرفاب فرع من قبيلة المناصير احدى القبائل العربية الصريحة على ما مر بيانه قبل •

---

(١) ص ١٠٥

وقد روى شقير في باب قصة حملة اسماعيل ان هذا لما وصل الى بربر قابله ملكها نصر الدين بالترحاب وهنأه بالنصر فأقره على بربر لفترة من الوقت •

١١ ــ مملكة الرباطاب [١] :

ذكر شقير هذه المملكة تحت العنوان نفسه كذلك • وقال انها امتدت من وادي السنيقر الى الشامخية فيما وراء ابن حمد • وكان رؤسائها ككروطاقية • وكانوا في حرب دائمة مع الميرفاب الى زمن الفتح المصري •

١٢ ــ مشيخة المناصير [٢] :

ذكرها شقير تحت العنوان نفسه وقال انها امتدت من الشامخية الى الشلال الرابع وان مركزها السلامات •

١٣ ــ مملكة الشايقية [٣] :

ذكرها شقير كذلك تحت العنوان نفسه وقال انها قامت على اطلال مملكة نباتا القديمة وامتدت الى الشلال الرابع الى ابي دوم قشابي وان مركزها مروي وانها مملكة عربية محضة • وان الشايقية اشتهروا في السودان بالشجاعة وحب الغزو كما اشتهروا بالضيافة والكرم وكانوا في حروب دائمة مع ملوك النوبة • وقد تجمعوا بخيلهم ورجلهم في اواسط القرن الثامن عشر وهاجموا ممالك النوبة فتغلبوا عليها جميعا وخربوا دنقلة العجوز وقتلوا الكثير من اهلها وتشتت من سلم منها في الجهات • ثم صالحهم ملوك دنقلة على جزية سنوية تساوي نصف دخل بلادهم • وقد قويت شوكتهم بعد ذلك فامتنعوا عن اداء الجزية لملوك سنار •

---

(١) ص ١٠٥ : والرباطاب عرب صرحاء على ما مر بيانه في سياق القبائل العربية الصريحة في السودان •

(٢) ص ١٠٥ (٣) ص ١٠٥ ــ ١٠٦

ومما ذكره شقير في سياق سيرة هذه المملكة ان جماعة المماليك الذين سلموا من محمد علي فروا الى الصعيد وتحصنوا في جبال اسنا فطاردهم ابراهيم باشا فانهزموا وتوغلوا في السودان ووصلوا الى ارقو فصادفوا محمود العاندلاناب من رؤساء الشايقية فيها لجمع الجزية فقالوا له انهم سائرون الى ملك سنار فاضافهم واكرم مثواهم مدة شهر وكان عددهم نحو ٣٠٠ نفر ومعهم ٣٠٠ عبد بسلاحهم ، ثم غدروا به بالتواطىء مع حاكم ارقو من أسرة الزبير فقتلوه وقتلوا الكثير من حاشيته وانتشروا في البلاد يجمعون ما كان مرتبا عليها من الاموال للشايقية ، وكان ذلك سنة ١٨١٢ م ثم تجهزوا في السنة التالية وساروا لغزو الشايقية في مروي وعلم هؤلاء بحركتهم فارسلوا فرقة من رجالهم بطريق الصحراء فأتوا المماليك من وراء فقتلوا اتباعهم في الخندق وارقو واضطروهم الى الرجوع عن غزو الشايقية فنزلوا في مراغة حيث بقوا فيها الى ان جاء اسماعيل باشا فاتحا فمنهم من سلم له في الحال ومنهم من فر من وجهه الى شندي حيث سلم له فيها بدوره حينما جاءها •

ولقد ذكر شقير الشايقية اكثر من مرة في سياق قصة حملة اسماعيل (١) • ومما رواه ان اسماعيل حينما دخل بلادهم في نوفمبر عام ١٨٢٠ ــ قبل فتح سنار ــ رآهم قد تجمعوا لقتاله في مدينة كورتي مشاة وركبانا • وكان عليهم اذ ذاك ثلاثة ملوك وهم الملك صبير كبير الحنيكاب الذي كان حده بين العفاض وحنك ومركزه حنك ، والملك شاويش كبير العادلاناب الذي كان حده من حنك الى مروي ومركزه مروي ، والملك عمر كبير العمراب الذي حده من مروي الى بلاد المناصير • وكان اكبرهم الملك شاويش • فطلب منهم اسماعيل الجزية والطاعة والسلاح والخيول فاجابوه باستعدادهم للجزية وعدم تسليمهم سلاحهم وخيولهم الا بالحرب فجنح الى حربهم وقد ارسل اليهم طليعة

---

(١) ج ٣ ص ٤ – ٦ و ٧ و ١٥

من مئة فارس فاحاطوا بها وانقضوا عليها كالنسور وقتلوا ٧٥ من رجالها ونجا الباقون مثخنين بالجراح فلما علم اسماعيل بذلك طار صوابه فزحف عليهم • وقد كانوا الف فارس و ٢٥٠٠ راجل مسلحون بالسيوف والحراب فقط عدا رؤسائهم الذين كانوا متدرعين ومسلحين بالبنادق واشتبك الفريقان في قتال شديد حاربا فيه حرب الابطال ودارت الدائرة في النهاية على الشايقية الذين كانوا يقتحمون النار ظانين انها لا تضر بهم لان عليهم احجبة • فقتل من مشاتهم نحو ٨٠٠ رجل ونجا معظم الفرسان ثم اذاع اسماعيل منشور امان لمن يستسلم فاخذوا يستسلمون طائفة بعد اخرى ثم صاروا من انصار الحملة ومساعديها •

والسياق يفيد ان مملكة الشايقية كانت ثلاث ممالك في ثلاث مناطق مع الاعتراف بملك العادلاناب رئيسا • وهذا ما لم يذكره شقير في ذكره لمملكتهم •

١٤ ــ مملكة الدفار [١] :

ذكر شقير هذه المملكة تحت العنوان نفسه ايضا وقال انها قامت في حلة الدفار ودامت الى ما قبل الفتح المصري بقليل اذ خربها الشايقية وطردوا اهلها منها الى جزيرة قانتي حيث لا يزال ذريتهم الى اليوم • ثم قال ان في الدفار آثار قلعة قديمة وكنيسة من بقايا نصارى النوبة • ولم يذكر هوية ملوك هذه المملكة ولا شيئا عنهم بل ولا اسما من اسمائهم • ومن المحتمل ان يكونوا من بقايا النوبة الذين رجحنا انهم من موجات عربية قديمة • وهذا ما جعلنا نسلك هذه المملكة في سلك الممالك والمشيخات العربية في نطاق مملكة سنار •

١٥ ــ مملكة دنقلا العجوز [٢] :

ذكر شقير هذه المملكة تحت العنوان نفسه كذلك وقال انها قامت على انقاض مملكة نصارى النوبة منذ اوائل القرن الرابع عشر

---

(١) ج ٢ ص ١٠٧ (٢) ص ١٠٧

للميلاد واستمرت الى ان خربها الشايقية قبيل الفتح المصري • وفيها جامع قائم فوق كنيسة قديمة لنصارى النوبة وفي واجهته حجر مكتوب عليه بالعربية « كان افتتاح دنقلا التي هي كرسي النوبة في ٢٠ ربيع الاول سنة ٧١٧ هـ على يد سيف الدين عبد الله الناصر [١] • » وقد قال شقير بعد هذا قيل ان مؤسسها هو جد مرغني ود سوار الذهب الذي اشتهر في تاريخ الثورة المهدية • ولعله يقصد من هذا انه عمرها بعد تخريب الشايقية لها • ولم يذكر شقير شيئا غير ذلك عن هذه المملكة ولا اسما من اسماء ملوكها وهويتهم • ومن المحتمل انهم كانوا ايضا من بقايا النوبة كما خمنا ذلك بالنسبة لمملكة دفار •

١٦ ــ مملكة الخندق [٢] :

ذكر شقير هذه المملكة تحت العنوان نفسه وقال انها قامت في حلة الخندق وان في قربها آثار قصر فخم لاحد ملوكها المدعو ود نمير وانه يقال ان ملوكها من ذرية الفنج • ولم يزد على ذلك •

١٧ ــ مملكة ارقو [٣] :

ذكرها شقير كذلك تحت نفس العنوان وقال انها في جزيرة ارقو على انقاض مملكة قديمة من زمن الجاهلية وانه حكم فيها عائلة عرفت بعائلة الزبير لا تزال ذريتها باقية الى الآن واكبرهم في هذا العهد الملك طبل والملك ممدود الملك اللذان اشتهرا في الثورة المهدية •

ثم قال شقير : ومملكة ارقو هي اقصى الممالك التي خضعت للفنج من جهة الشمال • اما البلاد التي بينها وبين الشلال الاول فقد تولاها الكشاف الاتراك •

وفي ملحق الكشاف الاتراك الذي اورده بعد ذلك[٤] قال ان عساكر

---

(١) خبر هذا الحجر في ص ٥٥ ج ٢

(٢) ص ١٠٧

(٣) ص ١٠٧

(٤) ص ١٠٨ ــ ١١٠

السلطان سليم العثماني التي ارسلها الى بلاد النوبة ملكت الى الشلال الثالث . وكان بين الشلال الاول والثاني عرب الجوابرة من ذرية جابر الانصاري وعرب الغربية من الزناتية وعرب الكنوز الذين جاؤوا من نجد والعراق وسكنوا بين الشلال الاول والسبوع وعرفت هذه البلاد لذلك الى اليوم ببلاد الكنوز ، وكان يسكن في بلاد سكوت بين الشلال الثاني وجبل دوشة والشلال الثالث قوم ينتسبون الى قريش وقد اسسوا مملكة في جبل ساس دامت الى الفتح المصري . وكان ملك المحسن في ايام هذا الففتح الملك صبير جد الملك صبير كبير المحسن في هذه الايام ، ومما قيل ــ والكلام لشقير ــ في سبب دخول العسكر التركي الى النوبة ان الجوابرة استقووا على الغربية فاستنجد هؤلاء بالسلطان سليم فارسل عسكره فطردوا الجوابرة الى دنقلة حتى لم يبق منهم الا القليل في حلفاية . فرمم العسكر القلاع القديمة في اسوان وابريم وساي واقاموا فيها وكان اسم قائدهم حسن قوس فصار هو الحاكم على بلاد النوبة وكان يتمتع باستقلال ذاتي ويرسل جزية الى حاكم مصر . ومات فتولت ذريته الحكم من بعده وجعلوا عاصمتهم الدر وعرفوا بالكشاف الغز . وقد ظل الحكم في هذه الذرية الى قدوم حملة اسماعيل . وكان الحاكم على الدر منها آنذاك حسين بن سليمان فاراد ان يقف في وجه اسماعيل فلم يوافقه اخوه حسن ففر حسين بعبيده الى كردوفان ولجأ الى المقدوم مسلم حاكمها وحارب معه الحملة المصرية التي جاءت الى كردوفان بقيادة الدفتردار ولما قتل المقدوم مسلم فر حسين ومعه حرم المقدوم وخزينته الى سلطان دارفور وتزوج ببنت سلطانها ولا تزال ذريته الى اليوم . وقد ولى اسماعيل حسنا على بلاد النوبة من اسوان الى حلفا ، فبقي هو وابناؤه من بعده الى ان قامت الثورة المهدية . ولقد اختلط العسكر التركي وقواده بعرب الجوابرة والغربية وتزوجوا منهم ونسوا لغتهم وان كانوا لا يزالون متميزين في الهيئة والاخلاق الى اليوم .

— ٤ —

الفور ومملكة دارفور

— ١ —

العناصر العربية في الفور ومملكة دارفور
وظروف نشأتها واسماء ملوكها

الى جانب مملكة سنار والفنج في القسم الشرقي من بلاد السودان قامت مملكة عربية كبرى في القسم الغربي من هذه البلاد عرفت بمملكة دارفور ، وهي كالاولى امبراطورية كبرى بشاسع مساحتها وكثرة الممالك والمشيخات التي كانت خاضعة لها • وكان قيامها اسبق من قيام مملكة الفنج في سنار بمدة غير يسيرة حيث قامت في اواسط القرن التاسع الهجري وامتدت مدة اطول من سابقتها بقليل حيث ظلت قائمة الى اواخر القرن الثالث عشر •

وقد عقد شقير في الجزء الثاني من كتابه فصلا خاصالها[1] سيكون معولنا عليه في كتابة هذه النبذة • وقد استقى مادته من كتب خاصة وعامة ومن دراساته ومسموعاته الشخصية •

وقد قال في صدد نشأتها ــ ومقصوده من ذلك سلاطين او ملوك المملكة ــ ان التقاليد السودانية مجمعة على ان سلطنة دارفور هي من اصل عربي وان سلالتهم الموجودة اليوم تدعى انهم من بني العباس وتروى ان جدهم المسمى احمد سفيان جاء مهاجرا الى جبل مرة من اعمال دارفور واتصل بملك الجبل شاو فاعجب بعقله وادبه فاكرمه

(١) ص ١١١ ــ ١٤٧ انظر ايضا الجزء الثالث ص ٦٠ ــ ٨٨ و ١٠٩ وما بعدها •

وعهد اليه بتدبير منزله وسياسة مملكته وزوجه ببنته • ومات احمد في حياة الملك مخلفا ولدا اسمه سليمان • فلما مات الملك نادى به اهل الحمل والعقد ملكا وبايعوه على السمع والطاعة • وكان ذلك سنة ٨٤٨ هـ ــ ١٤٤٥ م • اما اهل البلاد الاصليون فهم قبائل الفور شبه السوداء الذين رجحنا صلتهم بالجنس العربي بسبب ملامحهم التي تشابه ملامح هذا الجنس • وقد حل عندهم قبائل عربية صريحة ذكرناها في سياق ذكر القبائل واهمها الهبانية والزريقات والمسيرية والتعايشة وبنو هلبة والمعالية في الجنوب والحمر في الشرق والزيادية في الشمال والماهرية والمحاميد وبنو حسين في الغرب ، فكان ذلك مما جعل الطابع العربي اشمل واقوى • وقد يكون في البلاد بعض العناصر الافريقية فادى ذلك الى ما صار لاهل المملكة من سمة وسحنة ولهجة خاصة بالاضافة الى تأثير المناخ •

وقد تعاقب على عرش المملكة من ذر ية سليمان الاول الذي حكم ٣٢ سنة وتوفي سنة ٨٨٠ م على ما يرويه المؤلف خمسة وعشرون ملكا او سلطانا قبل الفتح المصري الاول ، وهم :

عمر بن سلمان ومدة حكمه ١٧ سنة
عبد الرحمن ومدة حكمه ٢١ سنة •
محمود ومدة حكمه ١٦ سنة •
محمد صول ومدة حكمه ٢٥ سنة •
دليل ومدة حكمة ١٠ سنوات •
شرف ومدة حكمه ٢٤ سنة •
احمد ومدة حكمه ١٠ سنوات •
ادريس ومدة حكمه ١٢ سنة •
صالح ومدة حكمه ٢٢ سنة •
منصور ومدة حكمه ١٥ سنة •
شوش ومدة حكمه ٢٠ سنة •

ناصر ومدة حكمه ١٢ سنة •
ثوم ومدة حكمه ١٤ سنة •
كورو ومدة حكمه ١٢ سنة •
سليمان الثاني ومدة حكمه ٢٠ سنة •
موسى ومدة حكمه ١٢ سنة •
احمد بكر ومدة حكمه ٢٠ سنة •
محمد دومدة حكمه ١٢ سنة •
عمر الثاني ومدة حكمه ٧ سنوات •
ابو القاسم ومدة حكمه ٤ سنوات •
تيراب ومدة حكمه ٢٠ سنة •
عبد الرحمن ومدة حكمه ١٤ سنة •
محمد الفضل ومدة حكمه ٣٩ سنة •
محمد حسين ومدة حكمه ٣٦ سنة •
ابراهيم ومدة حكمه سنة واحدة •

وقد دخلت هذه المملكة في الحكم المصري في سنة ١٢٩١ م بعد ان قتل سلطانها ابراهيم في واقعة بينه وبين القوات المصرية التي كانت بقيادة الزبير باشا •

ولكن الاسرة المالكة لم تنفض يدها حيث قام اربعة منها واحد بعد آخر بمحاولات لاستعادة سلطانهم خلال الحكم المصري في المرحلة الاولى ١٢٩١ ــ ١٣٠٢ هـ ــ ١٨٧٤ ــ ١٨٨٥ م وهم :

١ ــ حسب الله بن محمد الفضل •
٢ ــ الامير بوش اخوه •
٣ ــ هارون بن سيف الدين بن محمد الفضل •
٤ ــ دود نبقة بن بكر بن محمد الفضل •

ثم قام ثلاثة آخرون منها بسبيل ذلك في عهد حكم المهدي ١٣٠٣ ــ ١٣١٦ هـ ، ١٨٨٥ ــ ١٨٩٩ م وهم :

١ ــ يوسف ابن ابراهيم •
٢ ــ اخوه ابــو الخــيرات •
علي دينار بن زكريا بن محمد بن الفضل •

وقد ظل الاخير الى الفتح المصري الثاني وخضع لحكومةالسودان المصرية الانكليزية التي قامت نتيجة لهذا الفتح بالاشتراك بين مصــر وانكلترة •

ولقد روي المؤلف في سياق سيرة السلطان تيراب انه كان للسلطان سليمان الثاني الذي كان يلقب بصولون اخ اسمه مسبع فلما مات ابوهما تقاسما المملكة فتولى سليمان الملك في دارفور وتولى مسبع الملــك في كردوفان وتعاهد الاخوان على ان يقنع كل منهما بملكه فلا يطمع بملك الآخر • وعاشا بسلام وامان ودام الحال في ابنائهما الى ايــــام السلطان تيراب ، حيث تفيد الرواية ان كلا من القسمين كان مستقــلا كل الاستقلال عن الآخر • ولم يرو المؤلف من اسماء ملوك كردوفان غير اسم واحد هو اسم السلطان هاشم الذي ذكر في سيــاق سيرة تيراب انه اعتدى على حدود مملكة تيراب ثم طمع فيها وادى ذلك الى قتال بين الملكين انتهى بانتصار تيراب وموت هاشم ودخول مملكــة كردوفان تحت حكم تــيراب في نطاق مملكة الفور الكبرى عــودا على بــدء •

احداث المملكة وسيرة ملوكها

- ٢ -

قال شقير ان من الرواة من لا يعترف بالسلاطين السابقين للسلطان سليمان الثاني ويؤكدون ان هذا هو اول سلاطين الفور وينسبون اليه كل ما نسب الى سليمان الاول ولكن الامام الذي اخذنا عنه قد ذكر لنا اسماء السلاطين السابقين لسليمان الثاني واكد لنا سلطتهم •

ومع قوله هذه فانه لم يذكر شيئا من سيرة السلاطين السابقين لسليمان الثاني باستثناء سليمان الاول الذي ذكر من سيرته انه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مرة مساجد فبنى المساجد واقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين واستعان بعرب البادية المنتشرين في البلاد فاخضع ملوك شبه السود المحيطين بجبل مرة الى سلطانه وعلمهم دين الاسلام واخضع بعض ملوك السود البعيدين عن جبل مرة لسلطانه غير انهم بقوا على وثنيتهم ، فاصبحت دارفور كلها سلطنة واحدة • وكان عدد الذين خضعوا له وبقوا خاضعين الى نهاية مدة المملكة سبعة وعشرين ملكا سبعة منهم مجوس من السود والباقون مسلمون من شبه السود • وممالك السبعة الاولين هي كارة ودنقو وفنقرو وبنه وبابه وفروقي وشالا • وجميعها الى الجنوب الغربي من دارفور في البلاد التي تسمى فرتيت • اما الممالك الاخرى التي صارت اسلامية فهي البرقد والتنجر وكبقة والميمة والمسبعات في شرقي جبل مرة • والمراريت والعورة وسميار والمساليت والقمر وتامه والجبلاويين واب درق وجوجة واسمور في الغرب والشمال الغربي • وزاوة كبا والميدوب في الشمال والشمال الشرقي • والبيقو والداجور ورنقا في الجنوب والجنوب الغربي •

ومما رواه المؤلف من سيرة السلاطين بعد سليمان الثاني ان موسى ابنه الذي تولى بعده كان مثال ابيه في العدل والاحسان ، وان احمد بكر ابن موسى اشتهر بكثرة الاولاد حتى قيل انه كان له مئة ولد وان محمد دورة ابنه كان ثاني اولاده فقتل اخاه الاكبر ليخلوا الملك له وبعد ان ملك شرع في قتل بقية اخوته ليخلو الملك لاولاده فقتل منهم نحو خمسين واخفى الباقي امهاتهم في ثياب النساء فنجوا . وان ابنه عمر الثاني كان من اعدل سلاطين الفور واشدهم محافظة على الكتاب والسنة، وانه كان يشدد على عماله بالعدل في الرعية ويعاقب من يشذ عن ذلك حتى انه امر بذبح ثلاثين عاملا من المقاديم والجنود لسوء تصرفهم وشكاية الرعية منهم فوقعت الرهبة في قلوب الجميع وانقطع الظلم ، وان الله بارك في البلاد بسببه حتى غزرت مياه جبل مرة وكثرت مواشيها وعظمت خيراتها . وانه خرج في زمن السلطان ابي القاسم الذي تولى بعده وهو عمه رجل عربي اسمه عبد الكريم الى دار وادي التي كانت في حكم التنجر فاغتصبها وابى ان يدفع الجزية عنها للسلطان وسار هذا على رأس جيشه للتنكيل به ولكنه جرح في المعركة جرحا مات منه [1] ، وان اولاد السلطان تيراب تفرقوا في البلاد واخذوا يعيثون فيها فسادا ويغتصبون كل شيء نفيس وان الناس ضجوا منهم ولكن اباهم لم يعبأ بشكاويهم ، وانه نقل كرسي مملكته من جبل مرة الى بلدة شوية قرب كبكبية وبنى فيها منزلا فاخرا ومسجدا فخيما ، وان السلطان هاشم الذي كان شجاعا ميالا للحرب والغزو اخذ يغزو العرب في حدود دارفور حتى قهرهم فسولت نفسه له اخضاع دارفور فجمع جيشا من السود وآخر من العرب واخذ يغزو بهما اراضي دارفور

(١) وصف المؤلف عبد الكريم هذا في فهرس كتابه الهجائي (ص ٧٢٤ ج ٣) بانه مؤسس سلطنة وداي مع انه لم يذكر هذا في سياق ذكر خروجه واغتصابه دارودداي من التنجر صراحة وان كانت العبارة تفيد ذلك لان السلطان جرح ومات وبقي عبد الكريم باسط اليد على دارودداي .

ويقتل ويسبي ويغنم منها فكتب تيراب اليه كتابا يطلب منه الكف عن ذلك فلم يعبأ به واستمر على ارسال السرايا لغزو بلاد دارفور فجعل هذا السلطان تيراب يتجهز لقتاله ويخرج اليه بجيش كثيف مجهز منظم، مما اخاف هاشم ورجاله فتفرق اكثرهم عنه وفر هو بحاشيته واسرته لاجئا الى ملك سنار • وتبعه تيراب حتى وصل قرب ام درمان فقابله جيش العابدلاب من قبل ملك سنار فجرت بين الطرفين معركة عنيفة دارت فيها الدائرة على هذا الجيش ففر معظمه بعد قتل عدد كبير منه وغنم السلطان آنية من نحاس لهم يسمونها المنصورة ويعتزون بها ، وكان يود ان يسير الى سنار ولكنه لم يكن يملك وسائل لاجتياز النهر فاقام في ام درمان لاعدادها لانه اقسم ان لا يرجع الا برأس هاشم وفي أثناء ذلك مرض فحمل الى دارفور فمات في الطريق • وقد اتسعت المملكة في ايامه ــ وهذا كلام المؤلف ــ اتساعا لم يكن مثله قبله وبعده حيث كان حدها من الشمال بئر النترون في الصحراء الكبرى ومن الجنوب بحر الغزال ومن الشرق بحر النيل ومن الغرب مضيق ترجة ، وكان طولها مسيرة ثلاثة اشهر على القوافل وعرضها مسيرة شهرين • وكان اخوه عبد الرحمن معه في الجيش فلما توفي السلطان عقد الاعيان ورؤساء الجيش والعلماء مجلسا لاختيار خلف له وحلفوا اولاده الذين كانوا معه على قبول من يختارونه ثم اختاروا بالاجماع عبد الرحمن هذا لانه كان عادلا صالحا محبوبا فبايعه الناس وبايعه اولاد اخيه مضطرين • غير ان واحدا منهم كان وكيلا عن ابيه في دارفور اسمه اسحق رفض الطاعة له وهيأ جيشا لقتاله فجرت بينه وبين عمه وقائع عديدة وكتب النصر في النهاية للعم واصابت اسحق رصاصة كان فيها حتفه فاستتب السلطان لعبد الرحمن الذي نقل كرسي السلطنة الى الفاشر حيث ظلت عاصمة المملكة الى نهاية مدتها • وقد نال عبد الرحمن على ما ذكره شقير شهرة لم ينلها غيره من سلاطين الفور الذين تقدموه• وهادى السلطان العثماني الذي كان على ما يبدو يعترف بخلافته وتلقى

شكرا منه ، وكان له علاقة بمصر ايضا وانتشر في ايامه العلم واتسع نطاق التجارة وقويت شوكة الديانة الاسلامية .

ويظهر ان المماليك ضيقوا على القوافل التي كانت تذهب من دارفور الى مصر وعطلوا التجارة بين البلدين فلما دخل بونابرت مصر في اواخر القرن الثامن عشر ونكل بالمماليك كتب اليه السلطان عبد الرحمن يهنئه بفوزه عليهم على ما رواه المؤلف الذي اورد نص كتابه الى بونابرت ونص جواب هذا اليه . وقد طلب بونابرت في جوابه من السلطان ان يرسل اليه الفي عبد من الاشداء من فوق سن السادسة عشرة مقابل الثمن ....

وتولى بعد عبد الرحمن ابنه محمد الفضل الذي يلقب بقمر السلاطين على ما يرويه المؤلف الذي روى فيما رواه من سيرته انه من أم سوداء من قبيلة البيقاوية وانه اول اعماله تحرير هذه القبيلة ومنع اخذ الرقيق وبيعه منها . وكان عمره حينما حضرت الوفاة اباه اربعةعشر عاما فعين رئيس خصيانه كرة ابا شيخ قيما عليه وكان صادقا شجاعا حسن الدراية فقام بمهمته بامانة واخلاص فترة من الوقت ثم حقد على السلطان بسبب اهانة مسته منه واخذ يستعد لخلعه من الملك واغتال اكثر الملوك الذين كان يخشى مخالفتهم له وقد اخفق في قتل احدهم وهو الملك ابراهيم ود رماد ملك النحاس وذهب هذا فاعلم السلطان بحركة ابي شيخ فاستعد هذا بدوره والتقى الطرفان برجالهم ونشب بينهما قتال عنيف كتب النصر فيه للسلطان وجماعته وقتل فيه أبو شيخ فاستتب الملك لمحمد الفضل . وكانت قبائل بني‌هلبة والعريقات والزريقات العربية قد خرجت عن الطاعة وكانت الزريقات خاصة قبيلة قوية طالما عصت على سلاطين الفور . وقد تمكن من اخضاع بني هلبة والعريقات بسهولة كما تمكن من اخضاع الثالثة بعد شيء من الجهد وقد اثخن فيها اثخانا شديدا وشتتت شملها ثم فرقها في السكنى. ومما رواه المؤلف ان السلطان محمد الفضل طلب فرسا مشهورا بالسبق من السلطان آدم سلطان وداي فطلب هذا منه تزويجه باخته مقابل

ذلك فطار صوابه من شدة الغضب • وكان لآدم اخ هارب منه اسمه محمد شريف فجهز محمد الفضل جيشا عرمرما وارسل معه هذا الاخ لتنصيبه مكان اخيه وجمع آدم جيشه لقتال الجيش الزاحف وجرت بين الجيشين معارك عديدة وكتب النصر في النهاية لجيش محمد الفضل ووقع آدم اسيرا ونصب اخوه مكانه سلطانا على وداي • وتمكن آدم من الفرار من الاسر فارسل السلطان الجديد من تعقبه وظفر به وقتله •

وقد ذكر المؤلف في سياق هذه الرواية ان آدم هذا هو الثامن من سلاطين وداي وان اسم السلطان الذي قبله عبد الكريم وان الذي خلف السلطان شريفا حينما مات ابنه علي ثم اخو هذا يوسف ثم ابن هذا ابراهيم ثم احمد ابن علي ثم محمد دود مرة اخو ابراهيم وهو السلطان الحالي أي حين ما كتب المؤلف كتابه في اواخر القرن التاسع عشر •

وقد قال المؤلف بعد هذا ان بعض الرواة يذكرون ان حادث الفرس لم يكن بين السلطان محمد الفضل والسلطان آدم بل كان بين سلطاني وداي وبرنو وان سبب الحرب بين محمد الفضل وآدم هو استنصار أخي آدم شريف بمحمد الفضل على اخيه •

ثم قال المؤلف ان حملة اسماعيل باشا لفتح السودان كانت في ايام محمد الفضل وان جيشا بقيادة الدفتردار صهر محمد علي جاء الى كردوفان لفتحها وكان فيها مقدوم من قبل السلطان محمد اسمه مسلم فتغلب عليه الدفتردار وامتلك البلاد منه بعد واقعة شديدة ، وسير السلطان جيشا بقيادة قائد اسمه ابو اللكيلك لقتال الدفتردار والتقى الجيشان في سودره ونشب بينهما معركة شديدة حارب الفور فيها حرب الرجال حتى قتل قائدهم فانهزموا الى الفاشر ، وحينئذ اخذ السلطان محمد الفضل يحشد قواته • ويحصن مملكته ، فكان ذلك مما أخر فتحها فترة من الزمن • وقد كان لمحمد الفضل اخ اسمه ابو

مدين ناقم عليه ومزاحم له فذهب الى مصر وهون على محمد علي باشا امر اخيه فارسله الى المدير الذي نصب على كردوفان ليتعاون معه على غلبة اخيه . ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا . وفي سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٠ م ارسل محمد علي كتابا الى محمد الفضل يدعوه فيه الى التسليم فاجابه بجواب قوي اورد المؤلف نصه وقال انه اخذه من نسخته التي في يد الزبير باشا جاء فيه فيما جاء عن نفسه « من حضرة من أمن الله به البلاد وجعله مسموعا من كل احد وصيره في قلوب الاعداء نارا تستعر وجمرا يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد وضل وتعند الخ ... » ومما جاء فيه انكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا فهل بلغكم اننا كفار وجب لكم قتالنا وابيح ضرب الجزية علينا ام غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية . ونحن مسلمون لا كافرون ولا مبتدعون نؤدي الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونؤدي الزكاة ونرد الامانات ونعطي كل ذي حقه . حتى دانت لنا القبائل العظام وقد قال رسول الله (لو بغى جبل على جبل لدك الباغي) أما علمت ان دارفور محروسة محمية بسيوف هندية وخيول جرد ادهمية وكهول وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية ... » .

ويظهر ان محمد علي سكت عن هذه المملكة حيث استمر المؤلف على ذكر سيرتها فقال ان السلطان محمد الفضل توفي سنة ١٢٥٤ هـ ١٨٣٨ م فخلفه ابنه محمد حسين وكان معاصرا لواليي مصر بعد محمد علي وهما سعيد باشا واسماعيل باشا وانه تبادل معهما الهدايا ، وانه الف جيشا ينيف عدده على عشرة آلاف مقاتل وسلحه بالاسلحة النارية فكان اول من استعمل هذه الاسلحة في جيش دارفور ، وكان له اخت تسمى ايا باسي زمزم اشتهرت باتساع الثروة وكان لها نفوذ تام في السلطنة ، وان عربان المعالية في زمنه قطعوا الطريق على قافلة آتية من مصر الى دارفور ونهبوها فغضب واستدعى الشيخ مكي ود منعم شيخ عربان

حمر الذين كان بينهم وبين عربان المعالية عداوة وقال له اني ابحت لك دماءهم واموالهم فجمع الشيخ مكي رجاله وحلفاءه وغزا المعـالية وجرت بين الفريقين معركة شديدة كان النصر فيها لعربان الحمر ... وحينما حضرت السلطان الوفاة وصى بالملك بعده لابن له اسمه ابراهيم ليس اكبر اولاده ووصى وزيرين له بالعمل على تنفيذ وصيته هـذه فنفذاها واخذا البيعة لابراهيم من اهل الحل والعقد . وابراهيم هـذا هو آخر سلاطين الفور المستقلين ، وقد قضى على استقلال المملكـة واخضعها للحكم المصري شخص عربي ينتسب الى قبيلة الجميعاب التي تنتسب الى العباسيين اسمه الزبير ، وكان تاجرا في بـلاد بحر الغزال ثم برز وفرض نفسه ملكا عليها . وقد سرد المؤلف سيرته فـي فصل خاص في الجزء الثالث من كتابه استقاها من الزبير نفسه (١) . وقد جاء في هذا الفصل في صدد القضاء على مملكة دارفور ان قبيلة الزريقات التابعة لهذه المملكة والتي كانت تنزل بلاد شكا وكان بينهـا وبين الزبير عهد نقضت العهد واخذت تعتـدي على القوافل فكتب الزبير للسلطان ابراهيم كتابا طلب فيه مساعدته على ايقافها عند حدها ـ وقد اورد شقير نص الكتاب المحرر في سنة ١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣ م ـ فلم يجبه فسار بقواته وانشب مع القبيلة القتال وانتصر عليها واستولى على بلادها . وفر اثنان من مشايخها الى السلطان ابراهيم فارسل الزبير اليه كتابا يحذره منهما ويطلب اعادتهما اليه فلم يجبه بل ارسل الـى مشايخ الزريقات كتبا يشتم فيها الزبير ويتوعده بالحرب والنكـال فاطلع الزبير عليها وارسل اليه كتابا يعاتبه فيه ويحذره ولكن السلطان امر مقدوم الجنوب احمد شطه ومقدوم الشرق سعد النور بالسـير على رأس جيشهما للتنكيل به . وكان الزبير ارسل الى حاكم السودان يخبره بامره فجاءه جواب بالولاية على البلاد التي في يده بأمر مـن الخديوي كما جاءه مدد خليط من عسكر نظامي ومتطوعة وعربـان

---

(١) ج ٣ ص ٦٠ ـ ٨٨

وتحريض على فتح المملكة بالتعاون مع القوات المصرية الاخرى فاشتبك الزبير مع جيشي المقدومين وانتصر عليهما وكان المقدومان من جملة القتلى • وجمع الشرتاي احمد نمر كبير البرقد شتات الجيشين المهزومين وكربها ولكن الزبير انتصر عليه وقتله وهزم الجيش • ثم ارسل للسلطان ابراهيم يطلب منه التسليم • وطار صواب هذا وجهز جيشا عرمرما ـ روى المؤلف ان عدده نيف على مئة الف ـ وجعل قيادته لعمه حسب الله واصحبه معه نخبة من رجال الدولة والمقاديم والتقى الجيشان وكتبت الهزيمة على جيش السلطان وقتل منه مقتلة عظيمة فيهم ٤٠ من اولاد السلاطين وغنم منه غنائم لا تحصى من السلاح والعتاد والمؤن • وجمع السلطان جموعا جديدة بلغ عددها حسب الرواية مئة وخمسين الفا والتقى الفريقان في مكان اسمه دارة ودارت بينهما رحى الحرب وتكررت الوقائع وكتبت الهزيمة على جيش السلطان الذي قتل منه خلق كثير فيهم عدد من ابنائه واعمامه وعماته واولاد اخيه • وانسحب السلطان الى منواشي بفلوله فتعقبه الزبير وانشب القتال معه وكتبت الهزيمة في النهاية عليه وقتل هو نفسه في المعركة • وحينئذ استولى على الفاشر واعلن الامان للناس فاطمأنوا على دمائهم واموالهم واخذوا يفدون اليه مقدمين الطاعة والامتثال ولم يمض قليل حتى دان له جميع اهل السلطنة من اعاجم وعربان وحضروبادية • وبعد قليل جاء اسماعيل باشا ايوب قائد حملة دارفور من الشرق فدخل الناشر في شوال ١٢٩١ فاحتفى الزبير بدخوله وتلقى شكره على ولائه وحسن بلائه •

وكان المتخلفون من جيش الفور ولوا حسب الله عم الامر الملك مكان السلطان ابراهيم القتيل وذهبوا معه الى جبل مرة حيث تحصنوا فيه • وسار الزبير وراءهم وحاصرهم • ورأى حسب الله انه لا طاقة له بالمقاومة فسلم بلا قتال • وكان معه نحو ١٢٠٠ من اعيان البلاد وابناء السلاطين • وقد ارسل حسب الله وابناء السلاطين الآخرون الى

مصر حيث اقاموا فيها تحت اشراف الحكومة .

وطلب حسب الله من الزبير التوسط له ليتولى الحكم في الفاشر على ان يكون خاضعا لحكومة مصر مقابل جزية سنوية قدرها مئة الف جنيه . ولكن الحاكم رفض ذلك . وكان الامير بوش احد ابناء السلطان ابراهيم قد نجا من الاسر فجمع من نجا مثله من ابناء السلاطين وغيرهم من الانصار واعلن الثورة بعد شهر من استسلام حسب الله واخذ يعيث في البلاد فامرت الحكومة المصرية الزبير باخماد حركته . وقد تمكن من ذلك وظفر ببوش واخ له اسمه سيف الدين وقتلهما وقتل معهما عددا كبيرا من الرجال الذين التفوا عليهما .

على ان البلاد عادت فشقت عصا الطاعة استثقالا للضرائب المفروضة عليها ونادت بالامير هارون حفيد السلطان محمد الفضل سلطانا وكان ذلك في سنة ١٨٧٧ م وقد حاصر الثوار حاميات الفاشر ودارة وكلكل وكادوا يستولون على الفاشر، وكان مع الثوار بالاضافة الى السلطان الملك سعد كبير البرتي والمقدوم آدم مقدوم الشمال . وتمكن حسن باشا قائد القوات المصرية من رفع الحصار والايقاع بالثوار وهزيمتهم . غير ان هارون عاد في سنة ١٨٧٩ الى الحركة مما جعل غوردون باشا الذي كان يمارس مهمة الحاكم العام ان يقتنع ان البلاد لا تصلح الا تحت حكم رجل من اهلها يكون بدوره خاضعا للحكومة فبعث الى مصر بطلب الارشد من اولاد السلطان ابراهيم ، وارسل الارشد ولكنه توفي في دنقلة . وطارد مدير كردوفان سلاطين باشا هارون وتمكن من هزيمة رجاله ثم من قتله سنة ١٨٨٠ م ، غير انه لم يقض على المقاومة قضاء تاما حيث تجمعت فلول الثوار على الامير دودنبقة بن الامير بكر بن السلطان محمد الفضل وظل متمردا على الحكومة متحصنا في جبل مرة الى ان انفجرت الثورة المهدية [1].

---

(١) ج ٣ ص ٩٣ – ٩٦

ولما استولى المهدي على السودان كتب محمد خالد زقل الذي عينه المهدي عاملا عاما على دارفور الى دود يطلب منه التسليم فاجابه اني قاومت الحكومة المصرية التي هي اشد بأسا واعظم قوة من الدراويش وانك لست الا عبدا في سلطنة أبائي • وحينئذ اخذت المناوشات تقع بين دود ورجاله وبين رجال زقل الى ان لم يعد في دود طاقة فاستسلم فارسل الى الخرطوم حيث اقام في باب المهدي في سنة ١٨٨٤ م [١] •

ولما سقطت الفاشر مركز مديرية دارفور في يد انصار المهدي واستدعى الخليفة التعايشي واليها زقل سنة ١٨٨٦ ه اقام الامير يوسف ابن السلطان ابراهيم اميرا عليها خلفا له • وقد عاودت هذا الامير ذكريات آبائه ورأى في امارته بعثا جديدا لملكهم فعقد النية على حفظه والاستقلال على ما قاله شقير الذي استمر في سياقه فقال فيما قاله انه جاء الى الفاشر في هذه الاثناء زعيم من انصار المهدي اسمه كرم الله كانت له قيادة الحركات الجهادية في المنطقة ابان حركة المهدي فخشي يوسف ان يعكر صفوه فعمل على مضايقته حتى اكرهه على الخروج من الفاشر فشكا للخليفة قائلا ان الفور (أي سلاطين الفور) شرعوا بالفساد وأعادوا الى البلاد نظام حكومة آبائهم السابقين وعاداتهم في شرب الخمر والدخان • فاهتم الخليفة لذلك واستدعى يوسف الى الخرطوم فاعتذر فتيقن من نينه على التمرد فكتب الى عامله علي كوردوفان فجهز جيشا عظيما زحف به الى الناشر • وخرج يوسف برجاله وانصاره الى لقائه فكتبت عليه الكسرة ففر بفلوله الى جبل مرة ، فارسل قائد الجيش من طارده حتى ظفر به وقتله وكان ذلك في سنة ١٨٨٨ م — ١٣٠٥ ه [٢] •

وبايع انصار الفور اخاه ابا الخيرات سلطانا واخذوا يبثون الدعاة

---

(١) ج ٣ ص ١١١

(٢) تاريخ السودان ج ٣ ص ٤٥٨ — ٤٦٠

في اكناف البلاد لاستنفار الانصار للقتال • واهتم قائد الجيش المهدوي للامر فزحف على مكان احتشادهم وانشب معهم القتال فكتبت الكسرة عليهم وفر ابو الخيرات بفلوله الى جبل مرة حيث اعتصم فيه الى سنة ١٨٩١ م فثار عليه عبيده فقتلوه وذهبوا الى الفاشر مستسلمين[١] •

وجمع انصار الفور شملهم مرة اخرى وبايعوا الامير علي دينار بن الامير زكريا بن السلطان محمد الفضل سلطانا • واعتصم معهم في جبل مرة • واستدعاه والى الفاشر فاجابه وجاء اليه مسلما ثم عاد الى معصمه• ثم استدعاه التعايشي خليفة المهدي الى ام درمان فلبى فابقاه عنده الى سنة ١٨٩٨ م لانه على ما يظهر لم يرق له ان يقوم حكم الفور من جديد • وكانت الحكومة المصرية بالاشتراك مع الانكليز قد سيرت حملتها الجديدة للقضاء على حركة المهدي في السودان واخذت هذه الحملة تستنفد جهود الخليفة التعايشي واوقاته فاغتنم علي دينار الفرصة وعاد خلسة الى دارفور ، وهناك جمع شمل انصاره وسار على رأسهم الى الفاشر واستطاع ان يستولي عليها ويطرد عمال المهدي منها ويفرض سلطانه عليها • ثم كتب الى (سردار) قائد الحملة بذلك واعلنه باستعداده للطاعة واداء جزية لحكومة السودان فقبل منه • وقد انتهى شقير كتابه وهذا السلطان ما يزال صاحب الحكم في دارفور تحت سيادة الحكم المصري الانكليزي المشترك مقابل جزية يؤديها [٢] •

---

(١) نفس الجزء ص ٤٦٠ – ٤٦٣

(٢) نفس الجزء ص ٥٤٦ – ٥٤٧ و ٦٧٢ ولقد كتبنا رسالتين الى استاذ التاريخ الاسلامي والعربي في كلية الآداب في جامعة الخرطوم عاصمة السودان نسأله عن تاريخ وفاة السلطان دينار وعما اذا كان خلفه خلفاء من اسرته وعن كيفية وتاريخ انتهاء سلطنة الفور فلم نتلق عليهما جوابا فنكتفي آسفين بتسجيل ما سجلناه من سيرة هذه الارومة العربية العظيمة .

بعض تنظيمات مملكة الفور وتقاليدها

- ٣ -

وبالاضافة الى ما رواه شقير تحت عنوان تاريخ السلاطين الفور واوردنا خلاصته آنفا فانه عقد نبذة اخرى بعنوان حكومة سلطنة الفور وبعض اخبارها [١] روى فيها ايضا امورا عديدة من الاخبار والتنظيمات .. ولا يعزو ما رواه الى مصدر ونرجح انه سمعه من احياء كانوا يتداولونه جيلا بعد جيل .

ومما جاء في هذه النبذة ان حكومة سلطنة الفور كانت من النوع الملكي المطلق وان السلطان سليمان الاول لما اخضع ملوك البلاد خلعهم من مناصبهم وولى على البلاد نوابا من اهلها وجعل مع كل نائب عدة مدراء كانوا يسمون شراتي ومع كل شرتاي عدة مأمورين كانوا يسمون دمالج ومع كل دملج عدة مشايخ بلد ، وان هذا النظام ظل معمولا به الى ايام السلطان موسى فرأى عدم الاخلاص من النواب الوطنيين فعين عليهم اربعة مقاديم من رجاله الاخصاء في كل جهة من الجهات الاربع مقدوما وجرد النواب من السلطة وجعلها للمقاديم واستمر ذلك الى نهاية السلطنة . وكان المقدوم يعين بمرسوم سلطاني يتلى على النواب والشراتي والدمالج ومشايخ البلاد والعربان واصحاب الحواكير وغيرهم . وكان لباس المقدوم كلباس السلطان وحكمه نافذ حتى في القتل الا في بعض الاحوال الخاصة حيث يرجع في حكمه الى السلطان . اما رجال حاشية (حكومة) السلطان الذين بيدهم سياسة البلاد المركزية فاهمهم « الوزير » وعليه ادارة شؤون البلاد سياسيا

---

(١) ص ١٣٦ - ١٤٨

واداريا وحربيا و « ابو شيخ » وهو كبير الخصيان ومقامه اكبر مقام في السلطنة وهو المرجع الاعلى لقانون المملكة الذي يسمى دالي والعادات والاعراف المحلية . وكلمة دالي في لسان الفور تعني لسان وجملة قانون دالي تعني لسان السلطان او اوامره . ولابي شيخ الى هذا الفصل في الخلاف الذي يقع في حريم السلطان وهو مقدوم جهة الشرق رسما والمحافظ على نحاس السلطنة . ومن رجال الادارة المركزية الى جانب اصحاب الوزير وابي شيخ : ملك النحاس وملك الدادادات وملك خوالي السلطان وملك الفاشر العاصمة او محافظها وملك الجباة وملك الحدادين . وكان لكل سلطان من سلاطين الفور وكيل رسمي من ذرية السلطان شاو ملك الفور الذي انتقل الملك منه الى سليمان الاول يسمى « الكامنة » وكانت اخوات السلاطين اللائي يطلق عليهن اسم الميارم وجداتهم اللائي يطلق عليهم اسم الحبوبات من اهل الحل والعقد في السلطنة . وكان السلاطين يحتفظون عندهم برهائن من النواب المسلمين والمجوس . وكان كل منهم يرسل ولي عهده رهينة فيتعلم عند السلطان ويتربى ويكون في خدمته حتى اذا مات النائب او الملك اعطى السلطان ولي عهده كسوة فاخرة وعكازا مفضضا وطاقية مقصبة بقرنين ونعلين ونقارة نحاس وارسله حاملا مرسوما سلطانيا ليتولى مكان سلفه . وكان على كل من الملوك والنواب جزية سنوية معلومة من الرقيق والسمن والعسل . وهذا يفيد كما هو المتبادر ان الاقاليم او الممالك التي كانت في نطاق المملكة كانت تتمتع بشيء من استقلالها الذاتي وشخصياتها المحلية .

ومما ذكره المؤلف ان السلطان موسى قسم بلاد الحضر الى حواكير او اقطاعات ووزعها على اهله واخصائه وكبار قومه بحجج مختومة بختمه فعاشوا بريعها هم واهلها المزارعون . وقسم كذلك قبائل البادية فخص كل قبيلة بامير من ابناء السلاطين او بعين من الاعيان تجبي زكاتها له . وكان للسلطان الزكاة والفطرة والعشور

من الحضر • وكان السلطان احيانا يتنازل عن نصيبه في الحاكورة او القبيلة فيعطى صاحبها حجة فلا يقربه احد من الجباة او المقاديم •

وقد جرى جميع السلاطين من بعد موسى على هذا النظام الى انتهاء السلطنة •

ولقد كان يفرض على التجار والحدادين ورؤوس الناس ضرائب أخرى تدخل في خزينة السلطان فضلا عن الهدايا التي كانت تأتيه من الحكام واصحاب الحواكير والتجار حيث لم يكن احد يدخل للسلام عليه سواء أكانوا من الموظفين ام الرعية الا بهدية نفيسة تسمى هدية السلام من الرقيق والابل والخيل والبقر والغنم والتكاكي والاطواق والطاقيات والذهب والفضة والسمن والسن والريش • وكانت هناك الى هذا كله غرامات تفرض على الناس بموجب قانون الدالي ، وكانت تقسم هذه الغرامات بين السلطان والمقاديم والشراتي والدمالج • وكان يقدم لهؤلاء هدايا من اصحاب الحواكير والاقطاعات •

ومما جاء في النبذة انه كان في كل بلدة شهيرة مسجد جامع باستثناء العاصمة الفاشر وبلدة كوي حيث كان في كل منهما مسجدان جامعان • وكان الى هذا في كل بلدة مسجد او اكثر يقام فيها الصلوات ويتعلم فيها في الوقت نفسه الاولاد القراءة والكتابة والقرآن • وكان يلحق بالمساجد خلوات يقيم فيها طلاب يتعلمون العلوم الشرعية على يد الائمة والعلماء • وكان لكل مسجد حاكورة ينفق من ريعها على المسجد وموظفيه وطلابه • وكان يرسل بعض الطلاب الى الازهر في القاهرة لاتمام علومهم فكانوا يقيمون في رواق خاص بهم يسمى رواق دارفور •

ومما ذكره المؤلف في النبذة ان سلاطين الفور كانوا يختمون كتبهم بختم كبير منقوش فيه اسم السلطان صاحبه ونسبه الى ان يصل الى السلطان سليمان الجد الاعلى وقد اورد صورة ختم السلطان محمد حسين كنموذج •

كذلك مما ذكره ان سلطنة الفور كانت ترسل كل سنة هدية الى الحرمين الشريفين مع موكب محمل الحج الذي يسافر سنويا • وكان هذا الموكب يحمل كمية من الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد الى مصر فتباع هناك وتحول الى نقد يحملها الموكب الـــذي يسافر مع الموكب المصري •

وكانت التجارة نشيطة بين دارفور وكردوفان وبحر الغزالووداي من ناحية ومصر من ناحية اخرى • وكـــان يرد منها الى مصر في السنة من عشرة آلاف الى خمسة عشر الف جمل تحمل الرقيق والسن(العاج) والريش والصمغ والتمر الهندي والنحاس والنطرون والجلود والاقداح الخشبية والاطباق والعسل وتعود محملة بالانسجة المتنوعة والبنادق والسيوف والسروج والحلى •

وكان جيش السلطنة يتألف من عبيد السلطان ومن تجريدات يرسلها المقاديم من انحاء المملكة •

وكان السلاطين يخرجون الى صلاة الجمعة في مواكب فخمـــة ، وكان لهم في الجامع غرفة خاصة يخلعون فيها ثياب الملك ويلبسون لباسا خاصا بسيطا وهو عمامة بيضاء وجبة وثوب ابيض ثم يخلعونـــه ويلبسون ثياب الملك بعد انتهاء الصلاة ويعودون بموكبهم الفخم الى منازلهم •

وقد ذكر المؤلف وصفا لمنزل السلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور المستقلين فقال ان محيطه نحو ثلاثة اميال وانه محاط بسور علوه نحو عشرين قدما وله بابان كبيران واحد للرجال وآخر للحريم والمنزل في الوسط ويلحق به منازل للضباط والحاشية • ومنزل السلطان مبني بالطوب الاحمر غرفا مستوية السطوح • وغرف منامه وجلوسه مكسوة جدرانها وسقوفها بالجوخ الملون • اما لباس السلطان فهو قميص مقصب فوقه برنس مقصب يجلله شال من الكشمير وعلى رأسه تاج مزركش بالذهب تحف به سبع ريشات رهيفة من الذهب والفضة وعلى جنبه سيف محدب محلى بالذهب • ويجلس عادة على عنكريب او سجادة

على الأرض وعن يمينه مخدة من القطن وحينما يجلس للناس للمبايعة او في المواسم يجلس على كرسي ويحمل في يده اليمنى صولجانا وهو عصا طويلة ملبسة بالفضة المحلاة بالذهب وفي يده اليسرى سيف مستقيم وعلى جنبه الايسر سيف محدب •

ومما ذكره ان سلاطين الفور يقتنون اربع زوجات شرعيات وعشرات من النساء محظيات وانهم كانوا يكرمون رجالهم الـذين يصدقونهم الخدمة حتـى انهم كـانوا يزوجونهم بناتهم ويمهرونهم الحواكـير والعربان •

وقد اورد شقير نصوص ثلاثة مراسم سلطانية صادرة من السلطان محمد حسين وهو السلطان الخامس والعشرون واحد بهبته حاكورة لصهر له مع الرقيق الذي فيها ولذريته من بعده وواحد بالموافقة على هبة هذه الحاكورة من صهره لزوجته وهي بنت الملك وواحد بالموافقة على هبة صهره لبنته منافع اشخاص كان الملك منحها له !

وقد لقب السلطان في احد هذه المراسيم بلقب امير المؤمنين المهدي المنصور وفي احـدها بلقب سلطان المسلمين وخليفة سيد المرسلين • ولا ندري هل السلاطين السابقون كانوا يتلقبون بهـذه الالقـاب أم لا •••

وقد رأينا ان ننقل نص ثالث المراسيم على سبيل المثال لطرافتـه واليك هو :

من حضرة سلطان المسلمين وخليفة سيد المرسلين سيدنا ومولانا السلطان محمد الحسين المهدي المنصور بالله تعالى آمين • الى كل من يقف على هـذا الرسم من ولاة الامور والامـراء والوزراء والملوك والشراتي والدمالج وابناء السلاطين والميارم والحبوبات وملوك العربان والمشايخ والكراسي والخدامين ومقاديمهم وكافة اهل الدولة مـن الخدام • اما بعد فاني سابقا تفضلت واعطيت صهرنا الحاج عيسى عربا

من الماهرية جماعة الشيخ دلم واسماؤهم عبد النعيم ونعمان والـداني واحمد وحسين وحامد وزرزار وطاهر وعجز واحمد هؤلاء الرجـال كسرت عظمهم واتبعتهم لصهرنا الحاج عيسى وعفوت له بجميع منافعهم وصاروا تبعا له ولذريته . والآن اعطاهم صهرنا المذكور لابنته الميـرم زهرة في زيانة رأسها واعلمني به فانا اتممته لها وقابلتها بجميع منافعهم الشرعية والعادية من الزكاة والفطرة والدم والفستق والهامل وغير ذلك ليس عيهم شوبة ولا نوبة ولا خدمة جميع امرهم مقابل اتنانيتا (أي بنت بنتنا) الميرم زهرة لا يتعرض لها فيهم معترض ولا ينازعها منازع بل صاروا عربا لها ورعاتها لها ولذريتها من بعدها. هذا جوابي ومشراطي ومهري لمن يعرفه تحريرا في عام ١٢٦٨ هـ .

سلطنة وداي

— ٥ —

ذكرنا في سياق سيرة مملكة الفور السابقة نقلا عن شقير [١] ان عربيا اسمه عبد الكريم استولى في عهد السلطان ابي القاسم على دار وداي عنوة ، وكانت من بلاد التنجر احدى الممالـك التابعة للمملكة فاسس فيها سلطنة لنفسه • وقد ذكر من ملوكها او سلاطينها السلطان آدم وقال انه الثامن من سلاطينها بعد عبد الكريم ، ثم ذكر ثمانيـة سلاطين آخرين بعد آدم وهم محمد شريف اخوه ثم ابنه علي ثم يوسف اخو علي ثم ابراهيم بن يوسف ثم احمد الغزالي بن علي ثم محمد دود مرة ثم ابراهيم اخو محمد الذي قال عنه انه السلطان الحالي [٢] •

والمستفاد من سياق شقير ان هذه السلطنة كانت مستقلة استقلالا تاما وانها ظلت قائمة الى اوائل القرن الرابع عشر الهجري [٣] • ولعلها لم تزل موجودة الى الآن بشكل ما •

وقد رأينا أن نسجل وجودها في هذه النبذة كارومة عربية حاكمة ولو لم يكن هناك ما يساعد على ايراد شيء من سيرتها •

وقد اوردنا في سيرة السلطان محمد الفضل ما كان من استنجاد محمد شريف شقيق السلطان آدم بالسلطان محمد الفضل وما كـان من مساعدة هذا لمحمد شريف على تولية السلطنة مكان اخيه [٤] •

ولقد ذكرها شقير اكثر من مرة في ابان حركة المهدي ١٨٨١ ــ ١٨٩٩ م ، ١٢٩٨ ــ ١٣١٦ هـ حيث كان سلطانها حين ما استتب الامـر

---

(١) ج ٢ ص ١١٦ (٢) ص ١٢٨ ــ ١٢٩ (٣) ج ٣ ص ٤٦٣

(٤) ج ٢ ص ١٢٨ ــ ١٢٩

للمهدي في سنة ١٣٠٢ ــ ١٨٨٥ محمد يوسف من جملة من كتب اليهم المهدي ودعاه الى اتباع طريقته والتضامن معه فاجابه بالتصديق دون عمل آخر •

ولما صار الامر بعد وفاة المهدي الى خليفته التعايشي ١٣٠٣ــ١٣١٦هـ ١٨٨٥ ــ ١٨٩٩ م كتب هذا اليه اكثر من مرة يعاتبه على عدم ظهور حركة ايجابية منه في سبيل التضامن مع المهدوية ويذكر له ما صار لها من اقبال وانتصار ويكرر دعوته الى الانضواء اليها ، فلم يجبه بشيء • غير انه كان يعتبر نفسه عاملا للمهدية على ما يفيده نص كتاب ارسله الى والي كردوفان المهدوي جوابا على كتاب ارسله هذا اليه بشـأن بعض المتمردين والتحذير من ايوائهم في بلاده ويؤكد اخلاصه للمهدوية ويذكر مسارعته الى التصديق بالمهدي ومبايعته له لاول وهلة •

ويظهر ان الوالي شعر بمراوغة منه فسأل الخليفة عما ينبغي ان يفعله معه فاجابه بوجوب مخاطبته باللين وعدم التحرش به حيث يفيد هذا ان صفة عامل للمهدي التي انتحلها كانت شكلية دون ان يكون لها على استقلاله التام تأثير ما •

ولقد اورد شقير نص جواب السلطان وقال انه مختوم اعـلاه بخاتم عليه اسمه هكذا « ملك السلطان محمد يوسف بن السلطان محمد شريف بن السلطان محمد صالح ابن السلطان صليج العبـاسي سنة ١٢٩٣ هـ » والنقش يفيد ان هذه الارومة كانت تدعى النسبة الى العباسيين شأن اسرة ملوك مملكة الغور على ما سبق شرحه •

الزعيم العربي الزبير

بروزه ومغامراته واولاده من بعده

ذكرنا في سياق تاريخ مملكة الفور ما كان من الزبير من تضامن مع السلطات المصرية في اخضاع هذه المملكة ، وقلنا ان نعوم شقير عقد نبذة في الجزء الثالث من كتابه على سيرته يبدو منها انه كان جم النشاط والطموح وانه شغل حيزا مهما في مجال الحكم والسلطان . ولما كان هذا الرجل من ارومة عربية وهي قبيلة الجميعاب التي تنتسب الى العباسيين فصار من المقتضى عقد نبذة خاصة به تلخص فيها سيرته التي قال شقير انه استقاها منه شخصيا .

ولقد بدأ الرجل حياته بعد ان وصل الى سن الشباب بالتجارة في الخرطوم ثم سافر في سنة ١٢٧٣ ﻫ الى بحر الغزال وعمره سبع وعشرون سنة . وبعد سنة قام جماعة من بحر الغزال بحركة عدوانية على التجار فهاجموا مخازنهم وسلبوا اموالهم وقتلوا بعضهم فجمع الزبير بعض الرجال واشتبك مع المعتدين وقتل بعضهم وهزم باقيهم ، ثم استأجر بعض الانفار وسلحهم بالبنادق ليكونوا حرسا دائما معه ، واخذ يتنقل في بلاد القولو متاجرا وكان يصيب نجاحا ويزداد ثروة . ثم ذهب الى بلاد النمائم الواقعة في الجنوب الغربي من بلاد القولو التي تقع فيها بحر الغزال واهدى سلطانها تكة ــ وكان مسلما ــ بعض الهدايا واستأذنه في التجارة فأذن له ثم عظم مقامه عنده فزوجه ببنته . وكان في هذه الاثناء يزيد عدد حراسه المسلحين حتى بلغوا خمسمائة مما جعل السلطان يوجس منه خيفة ويفكر بقتله . وشعرت زوجته بنية ابيها فانذرت زوجها فاحتال حتى خرج برجاله وامواله وذهب الى بلاد ملك آخر واسمه دوية كان عدوا لملك النمائم . وارسل هذا

عسكرا لمطاردة صهره فكر عليهم وهزمهم • ولما وصل الى بلاد دوية استقبله بالترحاب حينما علم بقصته وانزله في جواره • ولكن تكمه لم يتركه بل سير جيشا الى بلاد دويه واستطاع ان يتغلب عليها ويقصي ملكها عنها ، واضطر الزبير الى الخروج منها فعاد الى بلاد القولو ولكن ملكها عدوه ابى عليه المقام فيها ، ورأى الزبير في نفسه القوة عليه فقاتله بمن معه من الرجال وتغلب عليه وقتله وأسر ابنه الذي خلفه وفرض نفسه ملكا على هذه البلاد واتخذ مدينة بايه عاصمة له واخذ ينشط في سبيل توطيد ملكه وتقوية حرسه وتشجيع النشاط التجاري والعمراني مما جعل الناس يتقاطرون اليه من كل صوب فيزداد بذلك نشاطا وقوة • وكان ذلك في سنة ١٢٨٢ هـ •

ولقد اراد ان يكفل طريق القوافل فاتصل بمشايخ عرب الزريقات الذين كانوا في طريقها وعقد معهم عهدا وجعل لهم جعلا معينا يتقاضونه من التجار فاستتب الامن وكثر اقبال التجار ونشاطهم •

وبعد بضع سنين جاء رجل اسمه البلالي على رأس كتيبةعسكرية مصرية لفتح بحر الغزال (سنة ١٢٨٦ هـ — ١٨٦٩) ومعه مرسوم بمديريته على الاقليم بعد فتحه فاطاعه بعض الناس وحاربه بعضهم غير انه وطد قدمه في الاقليم ثم توجه على رأس الكتيبة نحو عاصمة الزبير فسار هذا الى لقائه وكمن له في الطريقوتمكن من قتله وقتل بعض عساكره وأسر الباقين • وكانت هذه الحادثة من اسباب انتشار صيته واسمه وتقاطر الناس عليه للانتظام في جيشه او الاتجار في بلاده حتى غدا صاحب ملك عظيم •

ولم يرق لصهره السلطان تكمه ما صار اليه امره فاخذ يعتدي على حدود بلاده ثم انذره بالرحيل وتوعده بالنكال فلم يأبه فجرد عليه جيشا كثيفا فقابله بجيشه واخذت الاشتباكات تقع بين الجيشين مدة عام طويل وكتب النصر في النهاية للزبير حيث قتل السلطان في بعض المعارك وانهزم جيشه وتمكن نتيجة لذلك من فرض سيطرته على بلاده واعلن ملوك البلاد الطاعة والولاء له •

وفي هذه الاثناء نقض الزريقات عهدهم واخذوا يعتدون على القوافل فانذرهم الزبير فلم يرعووا فكتب للسلطان ابراهيم آخر سلاطين الفور ملتمسا مساعدته على وقفهم عن العدوان فلم يجبه هذا ولم يتوقف الزريقات فزحف بجيشه نحوهم وقاتلهم وانتصر عليهم وفرض سيطرته على بلاد شكا التي كانوا ينزلون فيها • وفر اثنان من مشايخهم الى السلطان ابراهيم فارسل الزبير الى هذا كتابا يطلبهما منه ويحذره من دسائسهما لئلا يتفاقم الامر ويقع في حرب مع الدولة المصرية ذات السطوة الغالبة ويذكره بما كان بين السلطان محمد الحسين وخديوي مصر من المودة • ولم يجبه السلطان ايضا بل وارسل الى بعض مشايخ الزريقات كتبا فيها شتيمة له ووعيد بانه سوف يطرده من البلاد • ووقع بعض الكتب في يد الزبير فارسل الى السلطان كتابا فيه عتاب وتحذير وانذار من جهة وارسل الى حاكم السودان في الخرطوم يخبره بامره من جهة اخرى ويطلب منه ان يرسل من يتولى حكم البلاد التي فتحها في مناطق بحر الغزال ودارفور بالنيابة عن الخديوي • وقد ورد اليه جواب من الحاكم مستند الى امر من الخديوي فيه ثناء عليه وانعام بالرتبة الثانية التي يتلقب صاحبها بلقب بك وتولية له على البلاد التي فتحها على ان يدفع لخزينة مصر عنها جزية سنوية مقدارها ١٥٠٠٠ جنيه (١) •

ولم يطق السلطان ابراهيم صبرا على الزبير فكان بين الرجلين ما فصلناه في سيرة مملكة الفور قبل هذه النبذة الذي انتهي بانتصار الزبير ودخوله الفاشر عاصمة المملكة وقضائه على المملكة وانبساط الحكم المصري عليها •

---

(١) هذا السياق يفيد ان الزبير لم تكن له علاقة بحكومة مصر قبل تلقيه جواب الحاكم المؤرخ في ١ شوال سنة ١٢٩٠ هـ وان ما قام به من نشاط كان على حسابه ومسئوليته • على ان الزبير وصف نفسه في الكتاب الذي ارسله للسلطان ابراهيم لاول مرة يطلب فيه وقف عدوان الزريقات والمؤرخ في جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ بانه من عبيد افندينا ولي النعم خديوي مصر المعظم • والظاهر ان الزبير اعتبر نفسه من رعايا خديوي مصر الذي كان سلطانه قد انبسط على السودان وانه كان ينشط في منطقة بحر الغزال على هذا الاعتبار •

وقد ذكر شقير فيما ذكره من سيرة الزبير انه بعد ان قضى على ثورة الامير بوش على ما شرحناه في سيرة مملكة الفور توغل بقواته في الانحاء الغربية من بحر الغزال فدانت له ديار تامه والمساليت وقمر وسلا ، وكانت هذه في حدود مملكة وداي ، فارسل الى سلطانها علي ابن السلطان محمد شريف كتابا يدعوه فيه الى طاعة الحكومة المصرية ولم ينتظر جوابا بل دخل بقواته في ارض هذه المملكة ، فالتقاه رسل السلطان يحملون جوابه الذي يتضمن قبوله الدخول في طاعة مصر وتعهده بدفع جزية سنوية للخديوي • ويظهر ان سلطان وداي استاء من عدوان الزبير على بلاده فارسل في الوقت نفسه وزيره احمد تنقه الى الخديوي ـ وكان اسماعيل باشا ـ ليشكوه اليه فجاءه امر بالانسحاب والرجوع فكان ذلك آخر غزواته •

كذلك مما ذكره شقير من سيرة الزبير انه نصح حاكم السودان بعدم اثقال كاهل الناس بالضرائب وان الحاكم تكدر من نصحه وكلمه بحدة زائدة ولكن الزبير أكد نصيحته بكتاب خطي فزاد الكتاب من غيظ الحاكم وحدته واصدر اليه امرا بالعودة الى منطقة حكمه الاصلية وهي بحر الغزال فامتثل • وحينما وصل الى (داره) ـ مركز عمله على ما يظهر ـ جاءه من الخديوي برقية يأمره فيها بعدم التعرض للحاكم في ادارة البلاد مما جعله يفهم ان الحاكم شكاه فاعتزم السفر الى مصر لشرح الامر للخديوي وحصل على اذن من الخديوي فسافر الى القاهرة واجتمع بالخديوي وقدم له ما حمله من هدايا جسيمة من خيل وسن فيل واسود وفهود وببغاوات • وقد اكرمه الخديوي وانزله في احدى سرايات العباسية ورتب له ولرجاله ما يحتاجون اليه وبعد قليل امره بالاستعداد للعودة ثم عاد فامره بالبقاء في القاهرة •

وكان الزبير حين مغادرته دارة قد اناب عنه ابنه سليمان وجعل الجيش تحت قيادته وكان عدده ٤٠٠٠ فخرج من دارة به الى شكا • ولما جاء غوردون الى دارة استدعاه وفرق جيشه لان بعضهم خوفه

من تمرده وقال له ان اباه وصاه بذلك اذا لم يعد من مصر ، ثم عينه مديرا على بحر الغزال • وكان يقوم بالمديرية شخص من دنقلة اسمه ادريس ابتر فوجده انه كان يسيء التصرف فاراد محاكمته ففر الى غوردون وقال له ان سليمان يريد ان يستقل في بحر الغزال ويقول انها بلاد ابيه وليس للحكومة فيها شيء • وقد صدقه غوردون وعينه للمديرية وامر سليمان بتسليمه المنصب ولكن هذا ابى فجمع ادريس بعض الرجال وحاول ارغام سليمان وقابله سليمان بالقوة وتمكن من هزيمة رجاله وقتل اخيه الذي كان يقودهم • ورجع ادريس الى غوردون شاكيا باكيا • فجهز هذا حملة بقيادة انكليزي اسمه جسبي واستعد سليمان لمقابلة القوة بالقوة حتى انه حشد نحو ١٠٠٠٠ مقاتل • والتقى الجيشان قرب مكان اسمه قنده واشتبكا في القتال ولم يفز احد منهما بطائل من الآخر • وانسحب سليمان الى بلدة الديم وجاء الى جسبي مدد فقوي به وتبعه واشتبك الطرفان ثانية فكتبت الهزيمة على سليمان واستولى جسبي على اثقاله وامواله وذهب سليمان الى غرة من اعمال دارفور فاقام مترقبا فيها • وارسل اليه جسبي يطلب منه التسليم • وكان ابوه علم بحركته فارسل اليه كتابا اكد عليه فيه بالطاعة والامتثال وقال له ان عصيانه يضر بمركزه الادبي وانه تيقن من انه اذا ما سلم وقابل غوردون سيقابل منه بالصفح وحسن المعاملة لان شرف بريطانية وكرم سجية غوردون يوجبان عليه ذلك ، فصدع سليمان واستسلم مع رجاله واقاربه من رجال الجميعاب لجسبي الذي لم يلبث الا قليلا حتى غدر به وبمن معه فاوثقهم وامر باطلاق النار عليهم • وقد ذكر شقير نقلا عن الزبير ان جسبي فعل هذا لان جماعة من الدناقلة والجعليين خوفوا جسبي وقالوا له ان تسليم سليمان خدعة ••••

وكان ابن آخر للزبير اسمه رابح لم يستسلم مع اخيه فجمع حوله الف مسلح واخذ يدوخ البلاد الى ان وصل بورنو ففتحها واسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوة في جنوبي بحيرة تشاد •

وقد بقي صاحب السلطان في هذه البلاد الى سنة ١٩٠٠ م حيث اصطدم مع القوات الافرنسية التي حلت في هذه البلاد محاولة بسط نفوذ دولتها عليها ، وقد تغلب عليه الافرنسيون وشتتوا شمل جيشه وكان هو من جملة القتلى • وجمع شعث ابن رابح فلول جيش ابيه وانبرى للمصاولة مع الافرنسيين ولكن هؤلاء استطاعوا ان يغلبوه ويقتلوه ويأسروا الناجي من جيشه (١) •••

ولقد ظل الزبير مقيما في مصر ومواليا لحكومتها اثناء حركة اولاده برغم ما كان من الغدر بابنه سليمان الذي استسلم بناء على كتبه اليه التي ألح عليه فيها بالتسليم والتي اورد شقير نصوصها ثم برغم مصادرة امواله في الخرطوم • غير ان الحكومة ظلت منه على حذر • ولقد كلفته ان يشترك في حملة سواكن لقتال عثمان دقنة زعيمها الذي اعلن العصيان وانضم الى حركة المهدي سنة ١٨٨٣ م فوافق على ان لا يكون تابعا لقائد آخر فلم توافق الحكومة على شرطه • وفي سنة ١٨٨٥ م هاجم البوليس منزله وفتشه ثم قبض عليه بسبب وشاية بانه يفاوض المهدي سرا وقد نفي الى جبل طارق رغم انه لم يعثر على ما يريب في بيته حيث بقي منفيا ثلاثين شهرا ثم اطلق سراحه واعيد الى مصر سنة ١٨٨٧ م وبعد القضاء على حركة المهدي سمح له بالرجوع الى بلاده (السودان) واعيدت اليه املاكه فذهب الى الخرطوم وزار اهله ودبر املاكه ثم عاد الى مصر حيث ابتنى منزلا فخما في حلوان • وطالب الحكومة بتعويضات طائلة عما بذله في سبيل فتح بلاد بحر الغزال فربطت له مرتبا مقداره ٢٩٠ جنيها •

وآخر ما ذكره شقير عنه (٢) ان غوردون باشا حاكم السودان الذي فوض بتسليم السودان لاهله وسحب القوات المصرية منه

(١) نبذة حركة سليمان ورابح وشعث من ج ٣ ص ٩٦ ـ ١٠٢
(٢) ج ٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

حينما تفاقمت حركة المهدي وشملت معظم السودان وتغلبت على القوات المصرية اقترح تعيينه سلطانا على السودان الى حد الخندق من اعمال دنقلة ليكون ندا للمهدي الذي اعلن تعيينه سلطانا على كردوفان فيمنع انضمام السودان الشرقي اليه ، ومنحه الحرية المطلقة في التنظيم والترتيب ، واعطائه مليونين ونصف من الجنيهات لمدة سنتين لتنظيم شؤون سلطنته ، وترك جميع ما في السودان من ذخائر واعتدة له . ولكن اقتراحه رفض . ويقول شقير ان الحكومة ورجال الانكليز في مصر حبذوا الاقتراح ولكن جمعية ابطال الرقيق في لندن عارضته فأهمل . والارجح ان الحكومة الانكليزية لم تستصوبه لانها كانت ترسم المشاركة في فتح السودان والسيطرة عليه فرأت في تعيين الزبير سلطانا على القسم الشرقي والمهدي سلطانا على القسم الغربي مضيعا للفرصة ومحبطا لما كانت ترسمه ...

صور متنوعة للنشاط العربي
في السودان ابان الحكم المصري

عنون شقير الجزء الثالث من كتابه بعنوان تاريخ السودان الحديث . وفي هذا الجزء تفصيل ما كان من احداث وحركات في السودان تحت الحكم المصري من سنة ١٢٣٦ هـ — ١٨٢١ م التي انبسط فيها الحكم المصري على السودان الى سنة ١٣١٨ هـ — ١٩٠٢م وقد ورد في سياق ذلك كثير من الاحداث العربية منها المهم ومنهاالثانوي ومنها ما مر ذكره في المباحث السابقة ومنها ما لم يذكر :

١ — فمن ذلك حادث تمرد الملك نمر ملك الجعليين (١) ، وقد شرحناه في سياق تاريخ مملكة الفنج شرحا يغني عن تكراره هنا .

٢ — ومن ذلك تقليد الشيخ شنبول شيخ مشيخة الشنابلة في ود مدني المشيخة على جميع البلاد الواقعة بين حجر العسل وجبال الفنج في سنة ١٢٤٠ هـ من قبل والي السودان عثمان بك (٢) .

٣ — ومن ذلك تقليد الشيخ عبد القادر ود الزين شياخة قسم الكوع وكسوته كسوة فاخرة من قبل الوالي محو بك في سنة ١٢٤١هـ ولما جاء الوالي خورشيد باشا ليخلف محو بك في السنة نفسها قدم هذا اليه الشيخ عبد القادر ووصاه بالاخذ برأيه فعمل بالوصية وقربه اليه . وقد دعا مشايخ البلاد الى الخرطوم وسألهم فاختاروا الشيخ نفسه فاستعان به على تعديلها ثم قلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفنج وخلع عليه كسوة فاخرة (٣) .

٤ — وكانت مشيخة الجعليين بعد الملك نمر اسندت من قبل

---

(١) ص ١٣ — ١٦ (٢) ص ١٧ (٣) ص ١٨ — ١٩

الدفتردار في سنة ١٨٢٣ للشيخ ود عقيد الجعلي . وقد ظل هذا يمارس مهمته الى سنة ١٨٢٦ م فعزله خورشيد باشا واعتقله وغرمه مالا جزيلا لظلمه في الرعية [١] .

٥ ــ وكانت مشيخة جبال الفنج اسندت كذلك من قبل اسماعيل باشا في سنة ١٨٢١ للشيخ ادريس ود عدلان من ذرية الوزراء الهمج وقد ذكر شقير ان خورشيد باشا توجه الى جبال الفنج في سنة ١٨٢٨ م فاقر الشيخ ادريس على ما هو عليه [٢] .

٦ ــ وفي سنة ١٨٢٨ م ــ ١٢٤٣ هـ اعلن الشيخ خليفة رئيس قبيلة العبابدة العصيان وهاجم حامية بربر ، غير ان الحامية تمكنت من صده وقتله [٣] .

٧ ــ وفي سنة ١٢٤٧ هـ تحركت قبائل سبدرات فزحف عليها خورشيد باشا وتمكن من اخضاعها [٤] .

٨ ــ وفي سنة ١٢٥٣ هـ هاجم الاحباش بلدة القلابات وكان شيخها الشيخ ميري من عرب الشايقية فقتلوه وقتلوا معه خلقا كثيرا من عشيرته الذين كانوا مجندين عنده . وقد زحف خورشيد باشا بجيشه لرد المعتدين ودخل ارض الحبشة فلم يقابله احد فرجع الى القلابات وحصنها [٥] .

٩ ــ في سنة ١٨٣٩ م زار محمد علي باشا السودان ولما وصل الى جبال فازوغلي استقبله الشيخ الزين والشيخ ادريس ود عدلان شيخ الهمج والشيخ احمد ابوسن شيخ الشكرية وسائر مشايخ العربان فبش لهم وخلع عليهم [٦] .

١٠ ــ في سنة ١٨٤٠ م ــ ١٢٥٥ هـ قام حمد ابن الملك نمر في شدي ببعض الحركات فسار الوالي احمد ابودوان خلفه فلم يدركه ولكنه ادرك ملكا من ملوك الحبشة اسمه كنبال فقبض عليه وقتله [٧] .

---

(١) ص ١٩ (٢) ص ٢٠ (٣) ص ٢٠

(٤) ص ٢٠ (٥) ص ٢٣ ــ ٢٤

(٦) ص ٢٥ (٧) ص ٢٥

١١ ــ اهتم هذا الوالي لتوطيد الحكم المصري في السودان الشرقي فسار بجيشه الى بربر واستدعى مشايخ البجة فاتاه الشيخ محمد دين شيخ الهدندوة العام معلنا التسليم • وابي عوض مسمار كبير الحلانقة الحضور وكان بين الهدندوة والحلانقة ــ وكلتاهما من قبائل البجة ــ عداوة وحروب فطلب محمد دين من الوالي ان يمده بقوة لاخضاع الحلانقة فلم يجبه الى طلبه وسار بنفسه قاصدا الحلانقة • ورأى هؤلاء ان لا طاقة لهم بالمقاومة فعزلوا شيخهم وعينوا مكانه شيخا اسمه محمد ايله وجاء هذا مع وجهاء القبيلة الى الوالي مظهرين الطاعة والتسليم ، فرحب الوالي بهم واقر الشيخ محمد علي شياخة الحلانقة • وقد فر عوض مسمار الى الحجاز ثم امنته الحكومة فعاد الى كسلة ووافقت على تعيين ابنه محمد شريكا في المشيخة ، ولا تزال أسرتا عوض وايله تتناوبان المشيخة الى اليوم (١) •

١٢ ــ في سنة ١٢٥٩ هـ عصت قبيلة الهدندوة على مدير كسلة فرحات بك فاستعان هذا عليهم بالحلانقة واخضعهم وعزل شيخهم وعين مكانه ابن اخيه (٢) •

١٣ ــ ثار اهل السودان الشرقي في سنة ١٢٥٩ هـ بسبب سوء تصرف الموظفين فسار الوالي احمد المنيكلي لقتالهم واستصحب معه الشيخ احمد ايوسن كبير عرب الشكرية والشيخ عبد القادر الزين الذي مر ذكره وشيخ آخر من مشايخ العربان اسمه محمد دفع الله فتمكن من اخماد الثورة (٣) •

١٤ ــ في سنة ١٢٦٦ هـ عزل الوالي عبد اللطيف باشا الشيخ ادريس عدلان من شياخة جبال الفنج وولى محله ابن اخيه عدلان محمد • وقد عين هذا الوالي الشيخ عبد القادر الزين مساعدا له مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة (٤) •

---

(١) ص ٢٦ (٢) ص ٢٦

(٣) ص ٢٧ (٤) ص ٢٨

١٥ ــ في سنة ١٢٦٧ هـ هاج تكارنة القلابات من اعتداءات الملك عمر بن الملك نمر ــ الذي كان يقيم في ميقبة من ارض الحبشة ملكا على جماعته بعد ابيه على ما شرحناه قبل ــ فساروا في جموع كبيرة للغارة على ميقبة حتى دخلت طلائعهم البلدة . وبدا من الملك شيء من التردد والذعر ولكن ابنه محمد تحمس وقاد الجماعة وتمكن من صدد التكارنة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة . وكان هذا الحادث من اسباب اشتهار اولاد الملك نمر بالبأس وازدياد عدد المهاجرين اليهم (١) .

١٦ ــ في سنة ١٢٧١ م مات الشيخ عبد القادر الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار فعين الوالي ابنه الزبير مكانه (٢) .

١٧ ــ في سنة ١٢٧٩ هـ جرت حرب شديدة بين عربان حمر بقيادة رئيسهم الشيخ مكي ود المنعم وبين عربان الكبابيش بقيادة رئيسهم الشيخ فضل الله ود سالم في بادية كردوفان ، واستمرت طويلا وكان النصر في النهاية للحمر . وهذه الحرب من اشهر حروب بادية السودان الغربية في القرن التاسع عشر (٣) .

١٨ ــ في سنة ١٢٧٣ هـ ــ١٨٥٦ م بدأ حركات ومغامرات الزبير مما فصلناه في نبذة خاصة .

١٩ ــ في سنة ١٨٧٤ م ــ ١٢٩٠ هـ ثار عرب الحوازمة في جبال النوبة على الحكومة بسبب ثقل الضرائب . ولم يزد المؤلف على هذا شيئا آخر . وقد ذكر الحادث في سياق خبر قدوم سلاطين باشا الى السودان كسائح لاول مرة لدراسة احوالها ثم تعيينه من قبل غوردون مفتشا في المالية على ان يطوف البلاد ويبحث في اسباب شكاوى الناس وقد رأى ان معظم الضرائب غير موزعة بالقسط وان الرشوة سائدة بين الموظفين عموما وانه لا يمكن اصلاح الا بقلب هيئة

---

(١) ص ٢٩ ــ ٣٠ (٢) ص ٣٣

(٣) ص ٤٠

العمال كلها فرفع استقالته الى غوردون فقبلهـا وعينه مديرا علـى داره [1] .

٢٠ ـ في سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٧ م كانت حركة الامير هرون حفيد السلطان محمد الفضل التي امتدت الى سنة ١٨٨٠ م ثم حركة دود نبقة اللتين شرحناهما في سياق مملكة الفور [2] .

٢١ ـ وفي سنة ١٨٧٧ م ايضا كانت حركة سليمان الزبير التي شرحناها كذلك في نبذة الزبير [3] .

٢٢ ـ وفي سنة ١٨٧٩ م ـ ١٢٩٥ هـ نهض الصباحي احد القواد الذين انفصلوا عن جيش الزبير فألف عصابة من ٤٠٠ رجل واغـار على الاخية في كردوفان فقتل مأمورها وفر الى جبال النوبة فسير غوردون عليه حملة طاردته وأسرته وشتت شمل عصابته . وقد حاكمه وحكم عليه بالاعدام [4] .

٢٣ ـ في سنة ١٢٩٨ هـ ـ ١٨٨١ م بدأت حركة محمد احمـد الدنقلاوي المعروف بالمهدي . وهذه الحركة اهم الحركات العربية في ابان الحكم المصري بل لعلها في الوقت نفسه اهم الحركات العربية ضد الحكم التركي واشدها خطورة وبعد مدى . ولذلك فانها تتحمل ان تشرح في نبذة خاصة .

---

(١) ص ٩٤ ـ ٩٥ (٢) ص ٩٣ ـ ٩٦

(٣) ص ٩٦ ـ ١٠٢ (٤) ص ١٠٣

حركة المهدي وخطورتها في مجال النشاط العربي

اسبابها ونشأة المهدي وحركاته الاولى

لقد عقد شقير في الجزء الثالث من كتابه فصولا عديدة على هذه الحركة وتطوراتها وسيرة المهدي وخليفته وما كان من صيال بينها وبين السلطات والقوات المصرية والانكليزية استغرقت ٥٦٠ صفحة [١] من القطع الكبير وفيها تفصيلات ونصوص مطولة من المناشير والرسائل لا يتحملها الكتاب ولا مناص من ايجازها •

وقد ذكر المؤلف اسبابا عديدة لهذه الحركة ، فعد منها العنف والقسوة التي عمد اليها رجال الحملة المصرية في القمع والتنكيل بالمناوئين وما تركته في النفوس من احقاد وكراهية للحكم المصري ثم فحش الضرائب وثقلها وسوء تصرف الموظفين في جبايتها وما كانوا يفرضونه على الناس من تكاليف باهظة وفشو الرشوة بينهم والتشدد في منع تجارة الرقيق وتمييز بعض القبائل وخاصة عربان الشايقية على غيرهم من القبائل وتمييز الطريقة الميرغنية ورجالها على سائر الطرق ، لاندماجهما وانسجامهما مع الحكم المصري ورجاله اندماجا وانسجاما تامين [٢] •

والمهدي من دنقلة واسمه محمد احمد وينتسب الى قبيلة صبر التي تعرف بالاشراف ايضا لانتمائها الى العترة النبوية • وقد ولد

---

(١) من الصحيفة ١٠٩ الى الصحيفة ٦٧٠

(٢) ص ١٠٩ – ١١٢

سنة ١٢٥٦ هـ ونشأ نشأة دينية واشتهر في شبابه بالزهد والتقوى والتصوف مع الفقه . وانتسب الى طريقة اسمها السمانية على يد شيخها محمد شريف ثم غدا شيخا لها ، واخذ ينشر طريقته في جزيرة ابا في جنوب الخرطوم . وكان سكانها من قبائل دغيم وكنانة العربية . ولم يمض الا قليل حتى اشتهر وكثر اتباعه . وكان من حين لآخر يخرج من الجزيرة فيطوف البلاد داعيا الى الله . وقد طاف في جميع السودان من دنقلة الى سنار شمالا وجنوبا ومن النيل الازرق الى كردوفان شرقا وغربا فلمس ما كان يقاسيه الناس من شدة الضرائب وطريقة جبايتها وقسوة الحكم وسوء تصرف الموظفين وغطرستهم فانبثق في نفسه فكرة ترأس حركة انقاذية . وفي هذه الاثناء وفد عليه رجل فقيه اسمه عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة العربية . ويروي شقير رواية قد تكون صحيحة وقد تكون خيالية ان التعايشي حينما رأى المهدي اغمي عليه فلما افاق اخذ يبكي ويقول له اني رأيت فيك علامات اخبرني ابي ان الذي تكون فيه يكون المهدي المنتظر ، وان المهدي استبشر وتفاءل ولا سيما اسمه على اسم النبي الذي يقال ان المهدي اسمه عليه وانه من سلالة النبي وهذا وذاك من الاوصاف التي يصف بها بعض فرق الشيعة المهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا على ما يروونه من احاديث ويتداولونه من تقاليد ، فضاعف من نشاطه واخذ يبث الدعوة الى الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين وانقاذ المسلمين ويتصل بالزعماء ويتلقب بلقب المهدي ويدعو الى الالتفاف حوله لتخليص البلاد والعباد من حالتهم السيئة [١] .

وقد بدأ المهدي نشاطه في اوائل عام ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م بصورة سرية اولا . وكان يأخذ من الناس الذين يتصل بهم ويؤمنون بمهدويته البيعة على الجهاد في سبيل الله . وكان يعتقد على ما تفيد

---

(١) ص ١١٤ ــ ١٢٧

الرسائل التي كان يرسلها للناس تحمل مواعظه ودعوته والتي اورد شقير نصوص عدد منها بمهدويته حقا ويروي انه يرى رؤى فيها تثبيت له في ذلك ويكفر من لا يؤمن بمهدويته • ولما كثر اتباعه جاهر بالدعوة بعد ان كانت سرية وارسل كتابا لوالي السودان رؤوف باشا يقول له فيه انه المهدي المنتظر وان دعوته لله لا لغرض شخصي وان من تبعه صار من المقربين الفائزين ومن خالفه ولم يصدق خذله الله وكان السيف له مطهرا وانه اوحى اليه انه لا ينتصر عليه احد (١) •

وقد ندب رؤوف مساعده للاجتماع بالمهدي في جزيرة ابا حيث يقيم فلما ذهب المساعد اليه حدثه بما ذكره في كتابه وقال له انا ولي الامر الذي تجب طاعته على جميع الامة المحمدية واخذ يقدم اليه الادلة على مهدويته ولما نصحه المساعد بالكف عن دعواه لانه لا يطيق حرب الحكومة قال له اني سوف اقاتلها بهؤلاء ثم التفت الى مريديه فقالوا نعم نحن باذلون ارواحنا في رضى الله ورسوله ومهديه فعاد المساعد مذهولا من ما رأى • وجهز رؤوف حملة زحفت على جزيرة ابا فجمع المهدي انصاره وعاجل الحملة قبل ان تستجم ففتك بها فتكا ذريعا (٢) •

على انه خشي ان يداهم بما لا قبل به فرأى ان يرتب امره باطمئنان اكثر فانسحب مع انصاره الى جبل قدير في جنوب كردوفان ، وحاول مدير كردوفان ان يقف في وجهه فاخفق ، وتصدى له المختار ملك جبل جرادة فتغلب عليه حتى وصل الى جبل قدير الذي كان عليه ملك اسمه ناصر قابله بالبشر وانزله على الرحب والسعة • وانبرى له مدير فاشودة قبل ان يستقر فصمد له وتغلب عليه وقتل وأسر كثيرا من رجاله كما غنم مقادير وافرة من اسلحته وامتعته • وجهزت حملة قوية مزيجة من العساكر والقوات المتطوعة من الشايقية وغيرهم بقيادة

---

(١) ص ١١٤ — ١٢٧ ايضا •

(٢) ص ١٢٨ — ١٣٠

قائد اسمه الشلالي فارسل اليه كتابا ينصحه ويدعوه الى التسليم فاجابه بجواب مسهب قوي اكد فيه مهدويته وقيام دعوته على امر الله ودينه استهدافا لانقاذ المسلمين واصلاحهم ، ويقينه بالنصر لانه صاحب الحق ، ودعا الشلالي الى الانضمام اليه اذا كان حقا يريد وجه الله ، ومن ثم نشب القتال بين قواته وبين الحملة فانتصر عليها وقتل القائد نفسه وبعض قواد المتطوعين وغنم مقادير عظيمة من الاسلحة والاموال والعتاد والارزاق فافرز منها الخمس ووزع الباقي على انصاره عملا بالقرآن • وفي خلال هذه الاحداث والوقائع كانت تروى عنه الكرامات والمعجزات التي من جملتها ان الرصاص لا يؤثر به وباصحابه وان سيوفه تحرق الاجسام وان اسمه يقرأ على اوراق الشجر الخ ••••• فيزداد بذلك وبالانتصارات التي يحرزها اسمه انتشارا وايمان الناس به قوة ويكثر انصاره الذين كانوا يتوافدون اليه من كل صوب حتى بلغ عددهم في السنة الثانية عشرين الفا ، وقد وثق ارتباطهم به ببيعة اخذها عليهم على الجهاد والثبات بصيغة بيعة النساء القرآنية التي كانت هي صيغة بيعة وفد الخزرج والاوس للنبي بما نصه « بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله وان لا نشرك به احدا وان لا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف • بايعناك على الزهد بايدينا وتركها والرضاء بما عند الله والدار الآخرة وعدم الفرار من الجهاد » مما فيه دلالة على ما كان تأثير المهدي في نفوس انصاره وايمانهم به والرغبة الشديدة على الجهاد في سبيل دفع الظلم واقامة العدل في ظل رايته وحركته ، وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من القطن الابيض ويتمنطق بمنطقة من خوص ويضع على رأسه طاقية قش مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء كعمامة اهل الحجاز ويسدل لها عذبة طويلة ، ويحمل في عنقه مسبحة • وكان مريدوه يقلدونه في

هذا الزي الذي كان زي الدراويش . ومن هنا سميت حركته بحركة الدروايش [1] .

ولقد أنشأ في جبل قدير حكومة جعل غايتها اعادة الاسلام الى ما كان عليه والقضاء على الظلم والبدع والمنكرات . واخذ ينظم القضاء والجيش والجباية على الاسس الاسلامية الاولى . واتخذ ثلاثة وزراء سماهم خلفاء ووصى بتوليتهم الامر بعده على التوالي الى ان تتحقق غاية حركته وهم عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة وعلي ود خلو من عرب دغيم وابن عمه محمد شريف . وعقد لاولهم على جميع قبائل السودان الغربي وخصه براية سوداء ولثانيهم على عرب دغيم وكنانة وخصه برايةحمراءوعينهم قوادا للجهاد في المناطق المذكورة. وقد أنشأ ديوانا سماه بيت المال وعهد به الى احمد ود سليمان من قبيلة المحسن واسند القضاءالى الشيخ احمد ود جباره من علماء الازهر ولقبه بقاضي الاسلام . وكان يستعرض الجيوش في كل يوم جمعه [2] .

ومما ذكره شقير انه كان يريد ان يجعل خلفاءه اربعة بعدد الخلفاء الراشدين وانه جعل المحل الرابع لزعيم السنوسية الامام محمد المهدي وانه كتب له مرة بعد مرة يدعوه الى الالتحاق به والتضامن معهفيحركته لاحياء الدين وانقاذ المسلمين ولكن السنوسي لم يجبه [3] .

تفاقم حركة المهدي واتساع نطاقها

ولقد اخذت حركة المهدي تتفاقم في السنة الثالثة وبعد ان نظم حكومته على الوجه الذي سبقذكرهوصارصداها يتردد فيانحاءالسودان المختلفة . وكان يقوم نتيجة لذلك حركات تمردية في انحاء عديدة من

---

(١) ص ١٣٠ – ١٣٩ (٢) ص ١٣٩ – ١٤١

(٣) ص ١٤٠ و ١٧٠ – ١٧١ والحركة السنوسية مشابهة لحركة المهدوية بعض الشيء وسنذكر خبرها في فصل آخر من هذا الجزء .

دون اشتراك المهدي وتفويضه حيث يدل هذا على ما كان يعتمل في نفوس اهل السودان وجلهم عرب من حقد وكراهية للحكم التركي الممثل في حكومة مصر التركية ومن رغبة في التحرر والانضواء الى حركة المهدي الاصلاحية العربية ٠ وكانت السلطات الحكومية تسارع الى قمع هذه الحركات فتنجح تارة وتخفق اخرى ٠ وكان من هذه الحركات ما يسارع القائمون بها الى الاتصال بالمهدي والاستمداد منه والتواثق معه ، فيكون ذلك من اسباب نجاح حركاتهم ٠ ولقد اخذ المهدي من ناحية ينشط في سبيل توسيع حركته وسلطانه ومده الى مختلف انحاء السودان فيلتقي نشاطه مع تلك الرغبة وذلك التجاوب ٠

ونعوم شقير يسرد الوقائع مفصلا لا فرق بين الرئيسية والثانوية ٠ ولا يتحمل الكتاب مجاراته ٠ ولذلك فاننا سنقتصر على الهام منها الذي كان له اثر في اتساع سلطان المهدي وشموله جميع السودان مع الايجاز ٠

ولقد كان نشاطه في اول الامر في منطقة كوردوفان حيث يقع مركزه (جبل قدير) وحيث تتكثف جهود السلطات المحلية السودانية والمصرية معا في سبيل ايقاف حركته او قمعها ٠ وقد قام في انحاء عديدة منها بعض حركات محلية اصابت بعض النجاح بمساعدته ومدده حتى اذا آنس في نفسه القوة اقدم على خطوة عظيمة وهي غزو عاصمة المديرية مدينة الابيض في آخر سنة ١٨٨٢ م بعشرين الفا وضرب عليها الحصار الشديد الذي امتد نحو اربعين يوما واضطرها الى التسليم ٠ واستولى على نحو (١٦٠٠٠) بندقية ومقادير كبيرة من الذخيرة والنقود وبعض المدافع ٠ وقد انضم اليه نحو خمسة آلاف من السودانيين والمصريين من حاميتها فكان في ذلك قوة ومدد عظيمان له ٠ ولقد كان لانتصاره في هذه الواقعة واستيلائه على الابيض اثر شديد في ازدياد قوته المادية والمعنوية واندفاعه في حركته ٠ وقد بث كتبه ومنشوراته في شرق البلاد وغربها مبشرا الناس بما ناله من النصر ومحرضا اياهم

على شق العصا والاجتماع على عماله ودعاته في الجهات او المهاجرة اليه ومحذرا من ترك الجهاد او البقاء على الحياد فازداد صيته انتشارا وتوافد الناس عليه من كل صوب وقويت الحركات التمردية في مختلف انحاء السودان [1] .

ولقد كان الانكليز احتلوا مصر في هذه الظروف ١٤ ــ ١٨ ايلول ١٨٨٢ م وصار الخديوي توفيق باشا الذي رحب بهم وتواثق معهم قويا بهم بعد ان ثار عليه الضباط الاحرار بزعامة عرابي باشا وكادوا يطيحون به فاتفق معهم على الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد قائده وكثير من ضباطه من الانكليز . ثم اتفق معهم على ارسال حملة للسودان لقمع حركة المهدي . وزحفت الحملة في شباط ١٨٨٣ م بقيادة هكس باشا نحو السودان حتى دخلت منطقة كردوفان . فاذاع المهدي منشورا وجه الخطاب فيه الى المصريين في الحملة يدعوهم فيه اليه ويعظهم ويمنيهم وينذرهم ويذكر غايته الشريفة وطريقته الربانية واطمئنانه بنصر الله . ثم خرج بجيش عدده خمسون الفا وهذا العدد ثلاثة اضعاف عدد الحملة فاحاط بالحملة من جهاتها الاربع ثم ناوشها القتال وكان هو في المقدمة شاهرا سيفه فتبعه جيشه واصوات تكبيرهم وتهليلهم تهز جنبات الارض . وكان معظم سلاح انصاره السيوف والحراب والرماح بينما كانت حملة هكس مجهزة بالاسلحة النارية والمدفعية . ولقد انتصر المهدي على الحملة وفتك فيها فتكا ذريعا حتى لم يكد ينجو منها الا نحو (٣٠٠) وقعوا اسرى . وكان هكس وعدد كبير من ضباط الحملة من انكليز وترك ومصريين في جملة القتلى الذين تراكمت جثثهم كالتلال . واستولى المهدي على مقادير عظيمة من السلاح والعتاد والارزاق والاموال . وكانت هذه الكارثة متممة لكارثة نصر الابيض وسقوطها بالنسبة للحكومة الخديوية كما كانت وسيلة حاسمة الى انضمام من كان يتلكأ من زعماء

---

(١) ص ١٥٢ ــ ١٧٠

السودان الى حركة المهدي . وقد اخذ الناس يفدون عليه افواجا من كل صوب للمبايعة وفي جملتهم الملك آدم ام دبالة ملك جبال تقلى . وانتشر خبر المهدي في العالم الاسلامي كله فجاءته الوفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش مهنئة مؤيدة [1] .

ولقد كانت مديرية دارفور المجاورة لمديرية كوردوفان للغرب الجنوبي في عهدة سلاطين باشا الذي مر ذكره فسارع احد مشايخ الزريقات العرب الشيخ مادبو الى ايقاد نار الثورة في هذه المنطقة . وكان جاء الى المهدي وبايعه فعينه اميرا على دارفور وامره بالجهاد فاخذ يحشد الناس حوله ويقوم بحركات ثورية خلال سنة ١٨٨٢ م ، وكانت اولى حركاته على مدينة شكا فانتصر على حاميتها واستولى على المدينة وما كان في يد الحامية من سلاح وامتعة وعتاد . ثم ارسل الى سلاطين وكان بينه وبينه صداقة ينصحه بالتسليم ويقول له ان البلاد كلها اصبحت مهدية فان لم تسلم فلا بد من قتالك وان كنت صديقك . ولكن سلاطين ركب رأسه وخرج لقمع حركة صديقه واشتبك الطرفان وكتب الانتصار لمادبو حيث كسر قوة سلاطين المؤلفة من عساكر نظامية ومتطوعة والمسلحة بالسلاح الناري وفتك فيها فتكا ذريعا في اقل من ساعة واصيب سلاطين برصاصة غير قاتلة فانسحب الى دارة فسير المهدي عليها حملة تمكنت من الاستيلاء عليها فلم يكن من سلاطين الا ان يعلن اسلامه فانقذ بذلك رأسه [2] ! ثم سارت الحملة الى

---

(١) ص ١٧٤ - ١٨٤

(٢) تسمى سلاطين باسم عبد القادر . ولما جاء المهدي الى حصار الخرطوم جاء معه . ووقع المهدي على كتاب له لغوردون باشا في اثناء الحصار فكبله بالحديد وسجنه . ولما مات المهدي اطلق سراحه التعايشي وجعله ملازما له تحت مراقبة شديدة . وكان يعتبر نفسه اسيرا كما كان الانكليز واهل سلاطين والقنصل النمساوي يعتبرونه كذلك . وقد سعى اهله مع القنصل في سبيل تخليصه وتمكنوا من ذلك في سنة ١٨٩٥ م بواسطة تاجر سوداني مقابل رشوة كبيرة . ولم يكد يعود حتى كتب كتابا عنوانه السيف والنار في

الكبيكية فاستولت عليها ثم الى الفاشر عاصمة المديرية وحاصرتها حصارا طويلا الى ان استسلمت • وهكذا دخلت هذه المنطقة في سلطان المهدي كاختها كردوفان • وكان دود نبقه في جبل مرة في هذه المنطقة معتصما فطلب منه قائد المهدي التسليم والانضمام الى الحركة فهاجمه وضيق عليه حتى اضطره الى الاستسلام بدوره •

وكانت روح الثورة قد سرت الى منطقة بحر الغزال ، وقد حمل لواءها مشايخ الجانقية والجور الذين كانوا هاجروا ايضا الى المهدي وبايعوه وتلقوا امره بوجوب قتال الترك واخراجهم وبشرهم بنصر الله وقال لهم اذا اخرجتموهم من البلاد فانتم امراؤها • ولقد وقعت بينهم وبين حاميات هذه المنطقة وقائع عديدة • كتب لهم فيها الانتصار ثم ضيقوا على عاصمة المديرية (بحر الغزال) وكان مديرها انكليزيا اسمه لبتن فاضطروه الى الاستسلام واعلان الاسلام لانقاذ رأسه كما فعل سلاطين (١) ! •

وبذلك صار القسم الغربي من السودان بكامله في نطاق سلطان المهـــدي •

ولقد سرت روح الثورة الى القسم الشرقي من السودان بدوره ايضا • وكان اول من حمل لواءها في القسم الشمالي منه زعيم اسمه عثمان دقنة من سواكن ، كان جاء الى المهدي في جبل قـــدير وبايعه

السودان حرض فيه الحكومة على استرجاع السودان . وقد عينه الانكليز مساعدا لمـدير قلم المخابرات في الجيش ورافق الجيش في حركات استرداد السودان ج ٣ ص ١٨٠ ــ ١٩٢ و ٥٦٥ - ٥٦٦

ومـــع مـــا ذكره شقـــير عن سلاطـــين ممـــا قـــد يفيـــد انـــه كـــان غـــير صادق في اسلامـــه فـــانه ذكر ان سلاطين ارسل للخليفة كتابا من مصر واورد نصه الذي ضمنـــه اعتذاره عن سفره بدون اذنه وذكره لفضله ومعروفه ورجاءه عدم تصديق ما قد ينقـــل له عنه واعلانه انه سيعود الى خدمته حينما يصل اليه كتاب امان منه وبعد ان يعود من زيارة بلاده واهله وفهم الخليفة من هذا الكتاب ان سلاطين بقي ثابتا على اسلامه (ص٥٨٤).

(١) ص ١٩٢ ــ ١٩٩

فعينه قائدا على بلاده وامره بالجهاد واذاع منشورا دعا فيه اهل هذه المنطقة الى الانضمام اليه والجهاد معه • وعين في الوقت نفسه زعيما اسمه الحسين عبد الواحد قائدا للقسم الجنوبي الشرقي أي البلاد الواقعة بين النيل والعطبرة • ومن ثم اخذت الاشتباكات تقع بين القائدين والحاميات المصرية والتركية التي كان قوادها وبعض ضباطها من الانكليز واستمرت الحركات ثلاث سنين في هذا القسم (١٨٨٢ــ١٨٨٥م) وتمكن عثمان دقنة وانصار المهدي من احراز انتصارات عديدة وبسط سيطرتهم على قسم غير يسير من المنطقة ومدنها والاستيلاء على ما فيها من سلاح ومعدات واسر حامياتها • غير ان مدينتي سواكن وكسلة ظلتا صامدتين بفضل ما كان لهما من حصون وما كان فيهما من اجهزة دفاعية • ولقد استسلمت كسلة بعد وفاة المهدي • اما سواكن فظلت الحامية الخديوية الانكليزية مستمسكة فيها • وكانت من نقط انطلاق استرداد السودان على ما سوف نذكره بعد •

ولقد ضايق المهدويون مركزي القلابات والجيرة الواقعين على حدود الحبشة فطلبت حكومة الخديوي بالاتفاق مع الانكليز من ملك الحبشة المساعدة على انقاذ حامياتها على ان تعطيه المركزين بما فيهما من اسلحة وذخائر • فوافق وارسل جيشا كثيفا ساعد حاميتي المركزين على النجاة وقد استولى على احدهما (الجيرة) اما مركز القلابات فقد سارع انصار المهدي بقيادة قائد اسمه محمد ود ارباب الى احتلاله وحالوا دون استيلاء الاحباش عليه •

وخشيت الحكومة الخديوية من سقوط مصوع في يد المهدويين فاتفقت مع الانكليز على تسليمها للطليان على ان تكون في ايديهم موقتا ووافق الطليان على ذلك فاحتلوها وظلوا محتفظين بها ! [1] •

ولقد سرت روح الثورة الى جزيرة سنار في المنطقة الشمالية

---

(١) ص ٢٠٠ – ٢١٢ و ٣٢٤ – ٣٩٨ و ٣٩٨ – ٤٠٢ و ٥٣٨ – ٥٤٠

الوسطى ، حيث اخذ مشايخها وفقهاؤها يهاجرون الى المهدي في جبل قدير ويبايعونه منذ سنة ١٨٨٢م واول من فعل ذلك الشيخ احمد الكاشف من كبار فقهاء قبيلة الكواهلة . ومع ان الحكومة هنا اصدرت منشورا حذرت فيه الناس من العواقب واظهرت بعض مظاهر الهيبة والشدة فان ذلك لم يمنع من القيام بحركات تمردية بقيادة الشريف طه وعامر عاشف ومحمد ود البصير والشريف انجضو والشيخ غالب خلال سني ١٨٨٢ ـ ١٨٨٥ م بعضها قمع وبعضها نجح واحرز انتصارات استولى نتيجة لها على اماكن ومدن عديدة مثل فامكة وود مدني وفداسي وغنم غنائم كثيرة . وقد صمدت مدينة سنار وما حولها الى ما بعد وفاة المهدي فتم الاستيلاء عليها في زمن خليفته التعايشي [١] .

ولقد اخذ المهدي بعد استيلائه على الابيض ومنطقة كردوفان واستيلاء انصاره على الفاشر ومنطقة دارفور وفتكه بحملة هكس باشا على النحو الذي سبقت الاشارة اليه يستعد للزحف على الخرطوم عاصمة حكومة السودان ويكتب الى كبراء المشايخ في جزيرة سنار للاستعداد لذلك [٢] فرأت الحكومة الخديوية بالاتفاق مع الانكليز تعذر الدفاع عن الخرطوم والمناطق الاخرى التي ظلت في يد السلطات في اواسط السودان وشماله وتعذر سحق حركة المهدي الا بحملة كبيرة تحتاج الى اعداد ووقت ـ والارجح ان الانكليز ارادوا بهذا ان يهيئوا لانفسهم فرصة المشاركة بالفتح والسيطرة على السودان ـ فاتفقوا على الانسحاب من السودان نهائيا موقتا ريثما يتم اعداد حملة تضمن لهم استرداد السودان وقمع حركة المهدي ، وعينوا غوردون من جديد حاكما عاما وعهدوا اليه بمهمة الانسحاب . وجاء هذا بدون قوة لانه لم يكن بسبيل حرب ونضال . ولما وصل الى بربر عقد مجلسا من العمد والاعيان والقى عليهم خطابا قال فيه ان الجناب العالي (كان

---

(١) ص ١٤١ ـ ١٤٤ و ٢٤١ ـ ٢٤٤ و ٤٠٢ ـ ٤١٠

(٢) ص ١٨٥

هذا اللقب من القاب الخديوي) قرر ترك السودان لاهله واني قـادم لارجاع العساكر الى مصر ، ثم الف مجلسا شورويا وعزل الحكام الترك وعين عبد الماجد ابا اللكليك ــ وهذا من ارومة وزراء مملكة الفنج التي كانت تدعى الهمج على ما مر بيانه ــ مأمورا على الوجه البحري الى حلة برتي ومحمد خشم الموسى من كبار قبيلة الميرفاب على الوجـه القبلي الى حجر العسل • واصدر منشورا بتعيين محمد احمد (المهدي دون ذكر هذه الصفة) سلطانا على كردوفان وبفتح الطريق بينه وبين بربر • وسار بعد ذلك الى الخرطوم فجمع الاعيان والعمد والموظفين وتلا عليهم مرسوم ولايته • وثاني يوم جمع سجلات الضرائب ووضع فوقها السياط وآلات الضرب والتعذيب واضرم فيها النار اعلانا لالغاء الضرائب والتعذيب وزار السجون فاخلى سبيل المسجونين جميعهم عدا القتلة • واذاع منشورا جديدا بتعيين الشيخ عوض الكريم ابا سن ــ شيخ عرب الشكرية ــ مديرا على الخرطوم ومحمد احمد ــ المهدي ــ سلطانا على كردوفان وبالغاء الاوامر الصادرة بمنع الرقيق • وطلب من حكومة الخديوي ارسال الزبير ليجعله سلطانا على السودان الشرقي والمتوسط والشمالي ليكون ندا ومناظرا للمهدي الذي عينه سلطانـا على السودان الغربي (١) •

ومع ان تعيين غوردون للمهدي سلطانا على كردوفان كان بمثابة اعتراف بحركته وانبساط سلطانه وادى الى زيـادة هيبته وتوافـد الناس عليه واتساع نطاق حركته فان المهدي ادرك ما تنطوي عليـه خطط عوردون من غايات تفكيكية ومثيرة للمطامح والمطامع فضاعف نشاطه واستعداده للزحف نحو الخرطوم واخذ يذيع المناشير الداعية الى الجهاد والمحذرة من الانخداع بهذه الخطط (٢) • ثم اقـدم على الحركة فسير حملة قوية على مدينة الحلفاية بقيادة الشيخ العبيد لتطويق

(١) ص ١٨٤ ــ ١٨٥ و ٢١٣ و ٢٢٢

(٢) ص ٢١٧ ــ ٢٢٠

الخرطوم وقطع الطريق بينها وبين الشمال الى مصر ، وكانت مؤلفة من ثلاثين الفا وتمكنت الحملة من التغلب على حامياتها الامامية • وعظم على غوردون الامر فقرر المصاولة مع حملة المهدي وصدها عن هذه المنطقة الحيوية واخذ يستعد لذلك ويحشد القوات المبعثرة والتي كان فيها عدد من ضباط الانكليز ويقيم الاستحكامات ويطلب من مصر الامداد ، وزحف المهدي من الابيض نحو الشرق للاشراف على الحركة ، وامر بضرب الحصار على الخرطوم من جهة بينما اخذ يسير السرايا شمالا وشرقا ليتم عزل الخرطوم من جهة اخرى • وكتب قائد القوة المحاصرة لغوردون يدعوه الى الاسلام والاستسلام فاجابه بجواب شديد منكرا مهدوية المهدي ومنذرا مهددا بقوة الحكومة فكتب اليه المهدي رسالة طويلة مؤكدا مهدويته ودعوته الاصلاحية وحركته الانقاذية ومكررا دعوته الى الاسلام والتسليم فاجابه بجواب شديد بدوره ومن ثم اخذ الوطيس يحمى والوقائع تتعدد ويكتب النصر في اكثرها لجماعة المهدي فيزداد قوة ويسارع رؤساء قبائل المنطقة الى الانضمام اليه •

ثم كثفت القوات والجهود على الخرطوم وعين لحصارها قائد جديد كتب ثانية لغوردون يدعوه الى الاسلام والتسليم وينذره ويتوعده ، واشتد الضيق والغلاء في الخرطوم فقام غوردون بحركة مستميتة تمكن بها من هزيمة القوات المحاصرة فتنفست الخرطوم الصعداء لفترة من الوقت واحرز في الوقت نفسه بعض انتصارات حول الخرطوم ولكن ذلك لم يكن ليمنع السيل والقدر المحتوم • وقد ارسل المهدي مددا جديدا وعين قائدا معروفا اسمه النجومي ليكون قائد الحصار ثم جاء الى ميدان المعركة والحصار فقويت معنويات انصاره فحملوا حملة شديدة وتمكنوا بها من الاستيلاء على ام درمان وهي قسيمة الخرطوم فكان لذلك وقع عظيم على من في الخرطوم وعاد المهدي فكتب الى غوردون يدعوه الى الاسلام والتسليم وعاد غوردون يجيبه بالرفض والاباء والتنديد ، وحينئذ قرر المهدي اقتحام خنادق

الخرطوم ونفذ جيشه القرار بحركة انتحارية باسلة تمكن نتيجة لها من دخول المدينة بعد حصار وكر وفر طويل امتد نحو سنة أي من اوائل سنة ١٨٨٤ م ــ ١٣٠٢ ﻫ الى اوائل سنة ١٨٨٥ م . وكان اول من اخترق خط النار ودخل المدينة شيخ بني جرار على رأس رجال قبيلته فسارع الى السراي لحصار غوردون واخذه وكان هذا قد صعد على السطح لمشاهدة المعركة . وتغلب بنو جرار على الحراس ودخلوا السراي فوجدوا غوردون قد نزل من السطح ووقف على رأس السلم بثيابه العسكرية فسألهم اين محمد احمد فكان جوابهم طعنا بالحراب الى ان فاضت روحه ثم قطعوا رأسه وحملوه الى المهدي . وكانت القوات المهدوية في هذه الاثناء قد تغلبت على مقاومة القلاع فلم يلبث ان دخل المهدي الخرطوم في ربيع الثاني عام ١٣٠٢ ــ كانون الثاني عام ١٨٨٥ (١) .

ولقد حاول بعض الضباط الانكليز ان يقوموا ببعض الحركات النضالية لاستبقاء مكان في السودان لوضع القدم فاخفقوا وحينئذ صدرت الاوامر من القاهرة بترك جميع السودان . وشمل ذلك مناطق هرر وزيلع وبربرة والتي كانت تحت حكم مصر رغم بعدها عن مجال السلطان المهدي وحركته لانها في اقصى الجنوب الشرقي . وقد عهد والي هرر بحكمها الى عبد الله محمد الشكور احد انسال حكامها القدماء وترك له عتادا وسلاحا لحامية مقدارها ٣٠٠٠ ، اما زيلع وبربرة وكلتاهما ميناء على ساحل خليج عدن الغربي فقد سلمتا لحكومة عدن الانكليزية . على ان هرر لم تستطع ان تحتفظ بكيانها الجديد . فقد زحف ملك الحبشة عليها سنة ١٨٨٧ م واستولى عليها عنوة وضمها الى مملكته (٢) .

ولقد تجمعت فلول القوات والسلطات المصرية الانكليز اولا في دنقلة وقبضت على اقارب المهدي فيها وطلبت منهم ان يكتبوا اليه ليفديهم بمن في اسره

---

(١) ص ٢١٣ ــ ٣٠٢

(١) ج ٣ ص ٢٣٠ ــ ٢٣١

من الاروربيين وغيرهم من رجال السلطات ففعلوا فارسل المهدي كتابا للقائد الذي كان من الانكليز يهدده ويتوعده ويعظه ويدعوه الى الاسلام ويقول لـه ان الذين عندنا جماعة قد انابوا الى الله ودخلوا الاسلام فصاروا اكرم واعز عندنا من الذين عندكم من جماعتنا ولا يرضون عن الاسلام بديلا • وقد بدأ كتابه « من العبد المعتصم بالله محمد المهدي » فلم يكن منهم الا اطلاق سراح اقاربه والانسحاب من دنقلة وسائر المنطقة الشمالية • وقد اقاموا فيها حكاما من سلالة ملوكها القدماء فجعلوا محمدا الشايقي حاكما على مروي وسعيدا الفرج من سلالة العنج حاكما على الدبة والملك طنبل حاكما على ارقو ودنقلة والشيخ محجوب المرغني حاكما على سكوت والمحسن • غير ان السلطات والقوات لم تكد تترك المنطقة حتى استولى عليها جماعة المهدي ودخل الحكام في طاعته • ومنهم من سارع اليه فبايعه واتى من عنده بقوة احتلت منطقته [1] •

استتباب السلطان للمهدي في السودان وعزيمته على تخليص مصر من الانكليز

ولما تم انسحاب القوات الخديوية ـ الانكليزية من منطقة دنقلة انتقل المهدي الى الخرطوم ثم ما لبث ان تحول عنها الى موقع ام درمان لانه افضل فخطط فيها جامعا وأنشأ لنفسه وكبار رجاله منازل من الحجر والطين • ولم تلبث ان غدت مزدحم الاقدام واقبل عليها الناس من كل صوب • وقد اخذ المهدي بعد ان استقر في ام درمان ينشط في سبيل توطيد سلطانه وتشميله كما اخذ يعين الامراء والولاة والعمال لمختلف انحاء السودان ويرسل اليهم بكتب العهد التي كان يضمنها تعليماته بوجوب اقامة العدل ونصرة الدين والسير على الشريعة

---

(١) ص ٣١٤ ـ ٣٢٠

الاسلامية والجهاد في سبيل الله • وقد اورد شقير نصوص طائفة من كتبه وتعليماته [1] •

ولقد كان بعض اهل جبال النوبة وتقلى في السودان الغربي تخلفوا عن انجهاد ورجعوا الى بلادهم باسلحتهم وظهرت منهم بعض بوادر العصيان حتى انهم قطعوا طريق الخرطوم فبادر الى معالجة الامر وجهز جيشا لذلك ارسله بقيادة قائد اسمه ابو عنجة • وقد امره بدعوتهم اولا الى الطاعة ويحذرهم العاقبة فان ابوا ناجزهم فاتى اولا جبل الدوري من جبال تقلى فدعا اهله فلم يجيبوا فاشعل فيهم نار الحرب وشردهم وغنم ماشيتهم وغلالهم • ثم تقدم الى جبل كراية كرسي مملكة تقلى فرأى ملكها واقاربه واهل بلده ان لا طاقة لهم به فاعلنوا طاعتهم فضمهم الى جيشه • ثم قصد جبل تكمه فوجد اهله مستعدين للحرب فحاربهم وظفر بهم • ثم توجه الى جبل الكجاكجة فوجد اهله متفقين على حربه فحاربهم وقهرهم واتخذ جبلهم ديما (مركزا أو معسكرا) له • ثم دخل بلاد الكواليب فتجمعوا له فحاصرهم حتى دانواله • ثم تفرغ لعرب الحوازمة المنتشرين في اودية تلك الجبال وسهولها وكانوا هم الذين اغروا اهل الجبال بحربه فدعاهم الى الهجرة الى ام درمان فراوغوا فجد في امرهم حتى ظفر برؤوسهم واخضعهم • وبعث بجماعة من اصحابه الى جبل قدير لجمع الغنائم والزكاة فقام عليهم اهل البلاد فقتلوهم فخرج اليهم ونكل بهم واكتسح بلادهم • وفي هذه الاثناء نقض اهل الكجاكجة العهد فاخذ يتعقبهم في المعاقل والجبال حتى ظفر بهم • وقد دانت هذه البلاد نتيجة لذلك ، وقدم أهلها ما عليهم من زكاة واموال • والمستفاد من سياق شقير ان حركات ابي عنجة هذه التي بدأت في عهد المهدي استمرت الى ما بعد وفاته [1] •

---

(١) ص ٣٤٣ — ٣٤٤ و ٣٥٥ — ٣٥٨

(٢) ج ٣ ص ٣٤٤ و ٤٤٩ — ٤٥٠

وقد ظلت حامية كسلة صامدة لحصار انصار المهدي الى ما بعد فتح الخرطوم فارسلت اليه وفدا تطلب امناء من قبله للتسليم فارسل اليهم امناء تم استسلامهم اليهم [1] •

وقد ظلت حامية سنار كذلك صامدة للحصار فبعث لانصاره بمدد كثيف بقيادة ابن عمه • غير انها لم تسقط في ايديهم الا بعد موته [2]•

ولما اطمأنت نفسه الى الحالة الداخلية واستتباب سلطانه انبثقت فيه فكرة التوسع في نشر دعوته وسلطانه الى خارج السودان • وقد اورد شقير نصوص مناشير وكتب له تدل على ايمانه بمهدويته وبعد غايته في سبيل ذلك حتى ليعجب المرء ان لا يعطي الباحثون في حركات البعث العربي الاسلامي الحديثة حركة المهدي الاهمية التي تستحقها وان لا يسلكوها في سلك الحركات التي سلكوا فيها الحركة الوهابية والسنوسية ولم تكن دونهما بعد مدى ومطامح قصد اصلاح وانقاذ •

ولقد جاء في المنشور الذي ارسله الى حسين خليفة الذي عينه عاملا على قبيلته العبابدة وغيرها من القبائل المنتشرة في شمال السودان حتى حدود صعيد مصر :

« اعلم ايها الحبيب وفقني الله واياك الى الصواب وجعلنا ممن اعتصم بحبل الله الوهاب ان الله سبحانه قد اكرمكم بصحبتنا وجعلكم من انصارنا واتم عليكم نعمه ظاهرة وباطنة بسماع وعظنا والتنور بانوارنا فصرتم بذلك من انصار الله واحبابه انه لما كان موضوع امرنا القيام بامر الدين وجهاد اعداء الله الكافرين في السودان قد انتهى عزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلاد فاخترنا الله وجعلناك أمامنا عاملا عموميا على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية عشاباب وشنانير وفقرا وعلى كافة من يرغب الانضمام اليك من القبائل لتبلغهم دعوتنا وتعطيهم بيعتنا وتستنفرهم لاحياء الدين وحررنا لهم

---

(١) ص ٣٤١ — ٣٤٣ و ٣٤٥

(٢) ص ٣٤٥ و ٤٠٢ — ٤٠٩

الاوامر بذلك فخذ الاوامر وتوجه على بركة الله وابذل وسعك في ابلاغ الدعوة واستنفار الناس للجهاد ودلالتهم على الطريق السواء . وكما أذناك في اعطاء البيعة لمريدها فقد أذناك في جهاد الاعداء ترك وغير ترك وفي تولية من ترى فيه صلاح المسلمين وعزل من ترى فيه فسادهم وفوضنا اليك الامر فشمر فيما ندبناك اليه وقم بواجب امرنا وتوكل على الله واعتصم به وليكن اكبر همك الاقبال عليه ومحبة لقائه فان من احب لقاء الله احب الله لقاءه ووصيتنا الجامعة لك ان تتقي الله وتكون مع الصادقين وان تسير في الناس بسيرنا وامارتنا لك على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت او بدلت فلا امارة لك الخ ... » (1)

ولقد كتب المهدي منشورا عاما موجها الى سكان مصر حكاما وتجارا وعمدا وغيرهم ، يخبرهم بعزمه على غزو مصر ويدعوهم الى نصرته . وكتب في الوقت نفسه الى الخديوي كتابا طويلا استغرق اربع صفحات من القطع الكبير .

وقد بدأ بعد البسملة « من العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى والي مصر » وجاء فيه فيما جاء :

« ولا سبيل الى السلامة عند الله الا باحياء دينه وسنة نبيه واماتة ما حدث من البدع والضلال ومحاربة دسائس اهل الكفر التي أدت الى اندراس الدين وتعطيل احكام الكتاب والسنة ونشر البدع واباحة محارم الاسلام » وقال فيما قاله ان الله قد اظهره طبق وعده الصادق رحمة لعباده لانقاذ الناس من ظلمة الكفر الى نور الايمان وطوقه بالخلافة الكبرى وخلع عليه حلل المهدوية البهية وبشره النبي بان من يقصده بعداوة يخذله الله وبان الله يقذف في قلوب اعدائه وبانه سيملك جميع الارض ، وبان الله قد ايده بالملائكة والجن .

وذكر ما كان من انتصاراته على قواته وعلى الانكليز كدليل

---

(1) ص ٣٤٥ — ٣٤٨

على صدق ما قاله وحذره من تولي الكفار وقال له انهم لن يغنوا عنه من الله شيئا وانه قادم اليه بجنود الله ودعاه الى التوبة والانابة الى الله والتسليم لامر المهدية وجعل يده مع يده على اقامة الدين واخراج اعداء الله (يقصد الانكليز) من بلاد المسلمين وقطع دابرهم واستئصالهم ويكون له الامان على نفسه وماله وعرضه اذا اجاب واناب هو ومن يجيب الدعوة معه وان ابى فعليه اثمه واثم من معه ولا بد من وقوعه في قبضته ولو كان في بروج مشيدة ...

ولقد عين زعيما تاجرا اسمه الحاج عبد الله الكحال عاملا على بلاد الشام وامره باعداد العدة للسفر اليها ونشر دعوته فيها . ولقد كتب اليه بعض المراكشيين المتوطنين في مصر يعترفون بمهدويته ويرشحون احدهم محمد الغالي اميرا على مراكش لنشر دعوته في بلادهم فاجابهم الى ذلك في كتاب كتبه اليهم وكتب في الوقت نفسه كتابا الى محمد الغالي ضمنه اوامره وتعليماته في الدعوة الى الله واحياء دينه وسنة نبيه وجهاد اعداء الله الكفار (١) .

ولقد كتب المهدي ايضا الى سلطان وداي محمد يوسف يدعوه الى طاعته والقيام بامره فكتب اليه بانه مصدق بمهديته وتبادل معه الهدايا وكتب المودة .

وكتب كذلك الى سلطان سوكوتو حياتو بن سعيد بمثل ماكتب الى سلطان وداي فاجابه كذلك بانه مصدق دعواه وانه سيجمع قومه ويلحق به . ووقف الامر مع هذين السلطانين في حياة المهدي عند هذا الحد (٢) .

ولقد كتب كذلك الى رابح الزبير (٣) الذي ثار ضد القوات الخديوية الانكليزية بعد قتل قائدها اخاه سليمان غدرا ثم توغل في

---

(١) ص ٣٥١ — ٣٥٢

(٢) ص ٤٣٧ — ٤٣٨ ج ٣

(٣) ص ٤٤٠

السودان الغربي واستطاع ان يستولي على بلاد بورنو ويقيم له فيها ملكا عظيما على ما شرحناه قبل • ولم يجبه رابح فوقف الامر في عهده عند هذا الحد ايضا •

ولقد اخذ يصدر مراسيم عديدة لعماله وانصاره وخلفائه ــ اورد شقير نصوصها ــ يطلب منهم تقوى الله في كل عمل وابتغاء وجهه والبعد عن كل بغي وحيف والسير وفق احكام القرآن الكريم وسنة النبي عليه السلام • ولقد رتب الزكاة والعشور وعين لها الجباة واصدر في شأنها اوامر متسقة مع احكام القرآن والسنة • ولقد سك عملة ذهبية وفضية ونحاسية باسمه • ولقد علم ان اقاربه اخذوا يبغون ويطغون على الناس فاعلن في يوم جمعة بعد ان القى الخطبة ــ وكان هو الخطيب والامام ايام الجمع اسوة بالخلفاء الراشدين ــ براءته من كل من يظلم ويبغي منهم واشهد الله على ذلك وتوعدهم بالعقاب • ومما فعله احراق كتب التفسير والخلافات المذهبية وفرض مذهب واحد اجتهد في اخذه من مختلف الاقوال والسنن التي صحت عنده ، والغاء الرتب والالقاب الرسمية والتسوية في المراتب بين الغني والفقير وتحريم الاسراف في الاعراس والمغالاة في المهور واعمال السحر والشعوذة والتنجيم وشرب الدخان والخمر والحشيش وخصي العبيد والبكاء وراء الاموات ،بحيث يسوغ ان يقال ان حركته بقطع النظر عن فكرة المهدوية التي كان يعتقد هو وجمهور المسلمين بها كانت ايذانا بدعوة اسلامية عظمى [1] •

ولقد قال شقير ان العالم الاسلامي قد اهتز لمهدي السودان وان جماعات كثيرة من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب قصدوا زيارته والوقوف على حاله وانه لو اطال الله في امده وزاد في توفيقه لاحدث في الشرق انقلابا عظيما مما فيه مصداق لما قلناه • وشقير شاهد معاصر عاش في السودان في ظروف هذه الحركة •

---

(١) ص ٣٥٤ ــ ٣٥٧

ولقد اخافت دعوته وحركته وما كان لها من اثر وانتشار صيت وبعد مدى وما بعثته في نفسه من مطامح السلطات التركية في القاهرة والاستانة . فاخذت تبذل الجهد في تسويئها [1] . وقد اصدر السلطان عبد الحميد الثاني منشورا اذيع في انحاء السلطنة كذب فيه دعوى المهدية ودعا المسلمين الى الحذر منها . وكذلك اصدر مجلس النظار برئاسة الخديوي توفيق منشورا بمثل ذلك مستندا الى فتوى علماء الازهر . وهذا فضلا عن رسائل وفتاوي كتبت واذيعت في مصر والسودان . وقد بدأت هذه الجهود في حياة المهدي واستمرت بعد مماته لان حركته استمرت بعدها [2] .

خلافة التعايشي للمهدي

وخطواته الاولى في سبيل توطيد سلطانه

ولقد توفي المهدي في رمضان عام ١٣٠٢ هـ اواسط عام ١٨٨٥ م أي في السنة التي تم له فيها النصر وشمل سلطانه جميع انحاءالسودان[3] فشمر خليفته الاول عبد الله التعايشي عن ساعد الجد وارسل في بدء الامر الى امراء دولته وحكامها باخذ البيعة له من الناس . وقد استجاب معظم الناس الى ذلك . فالذين في ام درمان والخرطوم هرعوا الى منزله افواجا فبايعوه بقولهم « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على طاعتك والانقياد الى حكمك » والذين بعيدون عنها اخذ البيعة منهم العمال والامراء بنص البيعة التي بويع بها المهدي وهي بيعة النساء

---

(١) من الجدير بالذكر في هذه المناسبة ان السلطتين بذلتا مثل هذا الجهد ضد الحركة الوهابية التي ظهرت قبل حركة المهدي بنحو مئة سنة ثم حاربتاها حربا فعلية .

(٢) ص ٣٧٢ ـ ٣٩١

(٣) لقد اورد شقير مراثي عديدة رثى بها تدل على شدة تفجع ناظميها لموته وقوة ايمانهم به وما كان متحليا به من صفات اسلامية وهادفا اليه من غايات اصلاحية عظمى . وقد تكون معبرة عن رأي اتباعه ايضا انظر ج ٣ ص ٣٥٩ ـ ٣٦١

القرآنية ، ثم اذاع منشورا في جميع البلاد ــ اورد شقير نصه ــ ذكر فيه موت المهدي وعزا الناس ووعد بالسير بسيرته في نصـرة الـدين والجهاد في سبيله ونشر تعاليم القرآن والعمل بها والبعد عن كل مأرب شخصي ووصى الناس بتقوى الله والثبات على بيعتهم وبـذل الاموال والانفس في سبيل اعلاء كلمة الله ولقبهم بحزب الله وانصاره وبشـر بنصر الله وتأييده • وحمل رفيقيه في الخلافة والاشراف اهل بيت المهدي على اصدار منشور صرحوا فيه ببيعتهم له وحثوا الناس على الاقتداء به وقالوا ان المهدي ليلة وفاته عهد الى التعايشي بالامر من بعده [1] •

ومما ذكره شقير ــ والمتبادر ان ذلك تعليقات منه ــ ان التعايشي لم يكن يصدق ان تصفو له الخلافة ، وانه ساسها بثلاثة امور الاول المحافظة على شعائر المهدية لانها حجته وجامعته • والثاني مراقبة المنكرين لحقه فيها والمزاحمين عليها والبطش بهم والثالث حصر المناصب المهمة في اهله التعايشة وتفريق كلمة سائر القبائل واذلالهم حتى لا يقوم لهم قائمة ، وان اول ما اتاه اسناده الوزارة والقيادة والشؤون المـالية الى اخيه يعقوب ، وكانت هذه الامور موكولة اليه ، ثم اخذ يدرب اهله على الادارة والملك ويوليهم امور الجيش والبلاد تدريجيا حتى اصبح جميع القواد والعمال واصحاب المناصب العالية منهم [2] •

ومما ذكره شقير ايضا ان التعايشي رأى ان سكان وادي النيل لايقيمون على ولائه الا اذا كان قوي العصبية فبعث الى مشايخ البقارة في جنوبي كردوفان ودارفور الذين منهم قبيلته التعايشة ليستحثهم على الهجرة الى ام درمان بخيلهم وابلهم ومواشيهم واكثر لهم الوعود فهاجر اليه الالوف من التعايشة والزريقات والهبانية والحمر وغيرهم في سنتي ٣٠٦ و ٣٠٧ فرحب بهم واسكنهم واغدق عليهم • وقد تردد بعضهم

---

(١) ص ٣٩٢ ــ ٣٩٦ (٢) ص ٣٩٧

بتحريض من المشايخ وتلكأوا فجد في امرهم ونكل بهم [1] .

ولقد عقد شقير فصلا على صفات واخلاق وحكومة التعايشي [2] ذكر فيه فيما ذكر انه احتفظ بلباس الدراويش كما كان المهدي وهو جبة مرقعة فوق سراويل من قطن وعمة مفلجة فوق طاقية مكية ينسدل منها عذبة على كتفه وسبحة في عنقة وخف اصفر في قدميه . وقد اعتنى بتنظيم الجيش فكان له جيش ضخم دائمي مؤلف من مختلف العناصر التي يتألف منها سكان السودان ، ويبلغ عدده خمسين الفا او اكثر . وكان نحو ربع الجيش مسلحا بالسلاح الناري مع قليل من المدافع والباقون مسلحون بالاسلحة الحديدية المتنوعة . وكان منه المشاة ومنه الخيالة ومنه الهجانة ، وقد جعله ست فرق او رايات ، على رأس كل فرقة امير من كبار رجاله المخلصين . وقد جعل ترتيبا خاصا للدخول عليه والجلوس في مجلسه من شأنه بث الرهبة والهيبة في القلوب .وكان بطاشا سريع الغضب . وقد قسم السودان الى ثماني عمالات او ولايات كل منها مقسم الى عمالات فرعية . وقد جعل بيت المال فروعا عديدة جعل لكل فرع موردا خاصا من الموارد التي كانت عديدة منها الزكاة ومنها العشور ومنها الغنائم ومنها ايراد المراكب والفيء والغابات الخ ..

وكان يوصي عماله بكتم الاسرار وعدم اطلاع افراد الجيش على تفصيل احوالهم ويأمرهم بملازمة الصلاة وقراءة الاوراد المرتبةوالتشمير للجهاد والرفق بالجيش والنهي عن الغلول في الغنائم والتزام العدل مع الرعية . وكان من عادته ان يعقد مجلسا من عماله واعيان البلاد في كل عيد من الاعياد العمومية لاختبار الاحوال والمذاكرة في شؤون البلاد . وكانت سياسته مع الدول المحيطة به ان يصدقوا بالمهدية ويخضعوا له او الحرب والعداء . وقد سد بلاده في وجه جميع الاجانب

---

(١) ص ٥٣٣ – ٥٣٤

(٢) ج ٣ ص ٦٠٥ – ٦٣٠

لا سيما الاوروبيين بل سد باب المفاوضة معهم في أي بحث كان ، وكان في الاجمال داهية محنكا ساهرا على حفظ ملكه وتقويته • وقد بيت النية على جعل ملكه وراثيا فعين بكره وليا لعهده • ولم يضرب شيئا من السكة الذهبية بل اقتصر على الريال الفضي واجزائه وعلى العملة النحاسية •

ولقد كانت قوات انصار المهدي تحاصر مدن كسلة وسنار وما والاهما من المراكز حينما مات المهدي حيث ظلت حامياتها مستمسكة ، فجد التعايشي في الامر وارسل الامداد والقوات فامكن بذلك الاستيلاء على هاتين المدينتين وما والاهما والاستيلاء على مقادير عظيمة من الاسلحة والعتاد والارزاق واسر معظم الحاميات الخديوية الانكليزية • وقد جرت بسبيل ذلك سلسلة من الوقائع فصلها شقير في كتابه [1] •

ولقد ظلت حامية منطقة خط الاستواء مستمسكة بقيادة قائدها الذي كان في الوقت نفسه مدير المنطقة واسمه امين باشا برغم ما كان من جهود انصار المهدي بقيادة قائد اسمه كرم الله • وقد استنجد امين من القاهرة فجاءه جواب بعدم امكان ذلك وبان الحكومة انسحبت من السودان وفوضته باتخاذ افضل الطرق للانسحاب • ولم يمكنه ذلك لان الطريق المفتوح امامه هو طريق الكنغو ــ الزنجبار وكان شاقا خطرا • ولقد كانت هذه المنطقة من جملة ما اهتم له التعايشي بعد ان استتب سلطانه في معظم ارجاء السودان فبعث في سنة ١٨٨٩م ــ ١٣٠٦هـ بحملة يحمل قائدها كتابا من سلاطين باشا النمساوي الذي اسلم وانضم الى المهدي وتسمى باسم عبد القادر على ما ذكرناه قبل الى قائد ومدير المنطقة يخبره فيه بما تم للمهدي وخليفته من انتصارات واقبال ويطلب منه التسليم وعدم الانصياع لاوامر الخديوي والانكليز • فلما وصلت الحملة الى المنطقة ارسل قائدها الكتاب الى المدير ولكنه ابى التسليم • ومن ثم اخذ يشتبك مع

---

(١) ج ٣ ص ٣٩٨ ــ ٤١٠ و ٤٨٧ ــ ٤٩٢

حملة التعايشي • وقد كتب النصر لهذه الحملة وتمكنت من الاستيلاء على المراكز الهامة في المنطقة ومن جملتها الدفلاوي العاصمة • وقد انضم اليها بعض قوات الحامية • اما قائدها والباقون الناجون من القتل والاسر منها فانهم استطاعوا ان يفلتوا ويفروا الى بلدة تنقرو • وكانت الحكومة الخديوية والانكليز قد ارسلوا حملة لانقاذ الحامية بقيادة الرحالة الشهير ستنلي فجاءت الحملة الى زنجبار ثم اخترقت الكونغو حتى وافت تنقرو وساعدت قائد الحملة ومن معه على الخلاص والعودة الى مصر في سنة ١٨٨٩ م [١] •

ولقد ظنت القوات الخديوية والانكليز التي كانت بطريق انسحابها الى مصر ان موت المهدي قد يؤثر في حركته فتوقفوا مع قواتهم ثم تحركوا باتجاه دنقلة في ثلاث فرق فرقة بالبحر واخرى من ناحية الشرق وثالثة من ناحية الغرب • وكانت قوات المهدي بقيادة قائد اسمه محمد الخير تعقبت القوات المنسحبة فلما خلت دنقلة في المرحلة الاولى دخلها ثم اتجه بقواته متعقبا للقوات المنسحبة واخذ يشتبك معها ويحرز عليها بعض الانتصارات الى ان اوصلها الى حلفا حد مصر الجنوبي ، فشعر بحركة الكرة التي قام بها القواد والقوات الخديوية والانكليزية فكتب للتعايشي الذي اهتم لذلك اهتماما كبيرا فبادر الى سوق الناس تحت رايات الجهاد وعين النجومي قائدا واذاع منشورا بوجوب طاعته والصدق في الجهاد تحت رايته فامكن بذلك احباط حركة الكرة •

نشاط التعايشي في نشر الدعوة المهدوية

ولم يكد التعايشي يشعر بالاستقرار ويستتب له السلطان ويصفي الجيوب التي لم تكن قد تم تصفيتها حتى بادر الى الاهتمام لمد دعوته الى خارج السودان اتماما للحركة التي بدأها المهدي • واول ما كان من

---

(١) ج ٣ ص ٤٩٣ — ٥٠٤

ذلك حسب الترتيب التاريخي كتابه الى عبد الله بن فيصل بن سعود وجميع امراء نجد في جمادي الاولى عام ١٣٠٣ ــ ١٥ شباط ١٨٨٦ م ويبدو من فحواه ان عبد الله ارسل رسولا الى التعايشي يبلغ اعترافه بخلافته وقد قال في الكتاب انه قد فرغ من فتوحات السودان وان انظاره تتطلع الى تجهيز السرايا لفتح الامصار ، وعين عبد الله عاملا من طرفه على عموم جماعته كافة امراء نجد وعموم اهلها على شرط دلالتهم على الله ودخولهم في سلك المهدي والتحزب على جهاد اعداء الله وسنة رسوله ، وقد وصاه بالتقوى والامانة وحسن العمل والعدل ومكارم الاخلاق [1] .

ثم كتب كتبا الى قبائل الحجاز ومنها قريش وخزاعة ولحيان والحمران والصحاف والمجانين وبشر وزبيد والحجاولة وصبح والحوازم والطواهرة وعوف والهلبة والصواعق وميمون والدعاجين والمزاميم والمزاهرة وهذيل وبني مسعود والمطارحة والاحامدة وغيرهم يدعوهم فيها الى الله ويحرضهم على الجهاد . وعين حذيفة بن سعد كبير الاحامدة عاملا على الحجاز وطلب من القبائل طاعته ما دام قائما بامره متبعا منهج الحق . والظاهر ان والي الحجاز التركي عثمان نور الدين كان كتب للمهدي كتابا او جوابا فيه ملاينة او رغبة في الدخول في طاعته واعتناق دعوته حيث ذكر التعايشي في كتابه الى حذيفة ذلك وقال له اذا انسلخ الوالي عن طاعة الترك واندمج في المهدوية فليكن واياه يدا واحدة وان اعرض واغتر فليحاصره وليشن الغارة عليه [2] .

وفي نفس الوقت كتب كتابا لاهل المدينة يأمرهم فيه بمجاهدة الترك بعد انذارهم حتى يهلكهم الله على ايديهم او يخرجوا من جهاتهم صاغرين وبالانحياز الى حذيفة والتآزر معه في ذلك اذا احسوا بالضعف وعدم القدرة عليهم وأكد عليهم الصدق مع الله والتسليم لامر المهدية وإحياء سنة خير البرية [3] .

---

(١) ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦

(٢) ص ٤٣٣

(٣) ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥

وكتب الحجاز والمدينة في شوال من سنة ١٣٠٣

وكتب كتابا لاهل مصر باسلوب منشور عام عنوانه « الى احبابنا في الله اهالي الريف والجهات البحرية كافة » ويتضمن دعوتهم الى الانخراط في سلك المهدية وتحذيرهم من المخالفة ويذكر ما كان من معجزات المهدي والبشائر التي تلقاها من النبي بنصر حركته وانتشار كلمة الله ورايته .

وكتب كتابا للخديوي فيه تأنيب وتنديد على عدم مسارعته الى اجابة دعوة المهدي وتكرار للدعوة الى الانخراط في سلك المهدية اذا كان يريد السلامة والنجاة وهي طريق الحق القويم والمنهاج المستقيم وتحذير من تولي اعداء الله الكافرين وتذكير بما كان من انتصار المهدي على القوات التي اشترك فيها الترك والانكليز وطرده اياها من السودان . وقد قال له انه يكرر الدعوة اشفاقا عليه قبل حلول جيوشه في دياره فاذا استجاب كان من اعز رجال الدين القائمين بنصرة الاسلام وجهاد اعدائه وان لم يستجب فيكون الاثم عليه .

وكتب كتابا للسلطان عبد الحميد فيه تنويه بالمهدي ودعوته وتنديد على عدم الاستجابة اليه مع انه سمع بها ومع دعواه انه سلطان الاسلام القائم بتأييد احكام الله وسنة نبيه وعلى الاصرار على محاربة حزب الله وانذار ووعيد في حالة الاستمرار على الغي والبغي ووعد وبشرى في حالة الاستجابة .

وكتب كتابا الى الملكة فكتوريا يدعوها فيه الى الاسلام والتوبة عما فرط منها والتنديد بها لارسالها قواتها وقوادها لمحاربة المهدي وتذكيرا بما كان من نصر الله عليها وانذارا ووعيدا بالعاقبة الوخيمة اذا هي اصرت على موقفها المناوىء من الدعوة والحركة .

وهذه الكتب ارسلت في سنة ١٣٠٥ هـ ـ ١٨٨٨ م على ما يفيده كلام المؤلف وهي مطولة في صدد دعوة المهدي وبشائرها ومظاهرها

وخيراتها استغرق كل منها عدة صحف من الكتاب [1] ‚

وينطوي في كل هذا دلالة على حيوية ونشاط ومطامح التعايشي والدعوة المهدوية التي قام على رأسها امتداد لما بدا من المهدي من مثل ذلك كما هو المتبادر ‚

محاولة التعايشي غزو مصر

ولم يقف الامر عند حد الكتابة ‚ فان التعايشي اصدر تعليماته للنجومي الذي عينه قائدا على دنقلة وجيش الحدود على ما ذكرناه قبل بالاستعداد للغزو قبل ارسال هذه الكتب ، واخذت تقع وقائع عديدة على الحدود طيلة ثلاث سنين ١٨٨٦ ــ ١٨٨٩ م ــ ١٣٠٣ ــ ١٣٠٦ هـ ، وقد اورد شقير نص رسالة ارسلها التعايشي الى بشير مصطفى ابي جيران في محرم عام ١٣٠٦ هـ يعلنه فيها تعيينه عاملا على قومه العشاباب وجميع من يتبعهم من قبائل الحدود ويقول له فيما يقول ان المهدية قد اتسعت دائرتها وشاع في بلاد الله امرها وقد التفتت الآن لفتح الجهات البحرية والشروع في توجيه الجيوش اليها ولا بد من وصولها لجهاتكم عما قريب فيلزم ان تكون في غاية الاهبة والاستعداد والتحزب لجهاد اعداء رب العباد وحينما يبلغكم قدوم الجيوش من دنقلة الى جهات حلفاء تنفصلون عن اعداء الله ــ وهذا يدل على ان هذا الرجل وقومه تحت حكم حكومة الخديوي ــ وتأخذون في شن الغارة عليهم وقطع طرق المواصلات عنهم ومناجزتهم الحرب والانحياز الى جيش المهدية ‚

وكتب التعايشي ايضا الى اهل دنقلة يستنفرهم الى الجهاد وضرب على كل ساقية ــ مزرعة او بستان ــ رجلا نشيطا يقوم مع النجومي لغزو مصر ‚ وكتب الى محمد الخير في بربر وعلى ود سعد في المتمة ــ

---

(١) ص ٤٢١ ــ ٤٣٦

ويبدو ان هذين الرجلين كانا حاكمين في المنطقتين ـ بان يجمعا الجيوش على اساس هذه الفريضة ويلتحقا بالنجومي.

ولقد بدأ النجومي حركته بارسال مقدمة جيشه بقيادة الفور الكنزي الى الحد الجنوبي لمصر فخربت السكة الحديدية بين خور موسى وحلفا واحتلت عكبة (نوفمبر ١٨٨٦ م) وعسكرت قرب سرس. وكانت قيادة منطقة حلفا موكولة الى ضابط انكليزي اسمه شرمسيد باشا فاهتم للامر وباغت هذه الطليعة وفتك بمعظم رجالها وكان قائدها من جملة القتلى. فارسل النجومي جيشا جديدا قويا بقيادة قائد اسمه عبد الحليم فعسكر عند فركة وارسل سرية احتلت سرس ثم نقل معسكره اليها. وكانت التعليمات التي معه ان لا يباشر حربا حتى يأتيه النجومي ولكن الزاد معه نفد فصار جيشه يشن الغارات على الحدود وينهب ما تصل اليه يده من ماشية وغلة. ثم هاجم مدينة اسمها التوفيقية ونهبها وذعر اهلها ففروا منها ، وجرأهم ذلك فهاجموا طابية (قلعة) خور موسى فصدتهم حاميتها. ولكن ذلك لم يمنع الجيش من حركاته حيث خرجت سرية الى دبيرة فنهبتها ثم الى سر الغرب ونهبتها كذلك. وفي رمضان ١٣٠٦ هـ (مايس ١٨٨٩ م) خرج النجومي من دنقلة بجيشه المؤلف كما يقول شقير من ٤٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠٠ من النساء والاولاد ومعهم ٣٠٠ بندقية وعشرة مدافع و ٣٠٠ جواد و ٥٥٠ جمل و ٣٠٠٠ حمار قاصدا الحدود فاكتسح بلاد المحسن وسكوت وسار حتى وصل سرس فاستقبله عبد الحليم بالجيش الذي معه والذي كان مؤلفا من ١٢٠٠ مقاتل و ١٠٠٠ من النساء والاولاد و ٣٠٠ بندقية و ٤ مدافع وخمسين حصانا وخمسين جملا [1]. وزحف الجيش جميعه حتى وصل معتوقة حيث رتب هناك جيشه في ثلاثة اركان وجعل على كل ركن القائد المناسب له ثم تقدم نحو ارجين. وكانت

(١) ان الارقام التي يوردها شقير تثير الشك في صحتها. وشقير يطنب في عقل ودراية ودهاء التعايشي فلا يعقل ان يكون قد ظن انه بمثل هذه القوات التافهة يستطيع فتح مصر!

السلطات الخديوية والانكليزية قد استعدت وعينت للقيادة العامة قائدا انكليزيا اسمه غرنفيل كما عينت ضباطا انكليزا آخرين للقيادات الثانوية وكان اقرب هذه القيادات في عهدة ضابط اسمه ودهوس باشا فسارع حالا الى الوقوف في وجه الزحف وصب الرصاص والقنابل على الزاحفين ثم هاجمهم بقواته • ودافع المهدويون دفاع الابطال ـ والكلام لشقير ـ ولكن الدائرة دارت عليهم وقتل منهم ٩٠٠ واسر ٥٠٠ واسر من الاولاد والنساء ٥٠٠ وكان بين القتلى ٢٥ اميرا وجرح النجومي وساعده عبد الحليم فيمن جرح في حين لم تزد خسارة جيش ودهوس عن ١١ قتيلا و ٥٩ جريحا !!••••

وارسل الخليفة رسولا للاستعلام ومعه كتاب للنجومي مسهب فيه تثبيت وتشجيع وارسل هذا كتابا مسهبا فيه شرح لما جرى • وارسل غرنفيل سردار الجيش كتابا للنجومي يحذره وينذره • غيران هذا لم يهن بل تقدم بعد استجمام قليل نحو طوشكي التي كان فيها مركز الجيش المقابل بقيادة السردار غرنفيل نفسه وانشب القتال معه فدارت الدائرة عليه ايضا وقتل من المهدويين ١٢٠٠ فيهم ٦٢ اميرا ومن جملتهم النجومي وابنه وعبد الحليم كما قتل نحو ١٤٠٠ من النساء والاولاد وأسر ١٢٠٠ وغنمت منهم مقادير كثيرة من الحراب والسيوف والبنادق وعاد الباقون مشردين • وتقدم الجيش المصري الانكليزي بعد هذه الواقعة نحو سرس فاستردها واذاع السردار نشرة على سكان الحدود يحذرهم فيها من مساعدة جيش المهدي وينذرهم • وكتب الخليفة الى الناجين الراجعين الى دنقلة يعزيهم ويواسيهم (١) •

ولقد لبث المهديون ثلاث سنين ساكنين وكانت نقطة سوارده اقصى نقطة في يدهم على الحدود المصرية • وفي سنة ١٨٩٢ م ١٣١٠ ه اخذوا يتحركون فاغاروا على سرس ونهبوا ماشيتها ثم اغاروا على سرا الغرب فقتلوا ونهبوا ثم على قستل ثم على جماي ثم على ام قبول في

---

(١) ص ٥٠٥ ـ ٥٢٨

سنة ١٣١٠ وكان بينهم وبين القوات الخديوية الانكليزية التي كانت في قيادة ضابط اسمه باين واقعة عنيفة قتل فيها القائد وحز رأسه وارسل الى التعايشي كما قتل جملة من قواته، ثم غزوا في سنة ١٨٩٣م - ١٣١١ه بريس فدخلوها ونهبوا ما فيها من مواش وغلات واسلحة وامتعة ولقوا في طريقهم قافلة آتية من سوهاج فغنموا ما معها واعتقلوا رجالها . ثم اشتبكوا مع حامية المرات في نفس السنة وانتصروا عليها وقتلوا قائدها وجملة من قوته واستولوا على اسلحتهم وامتعتهم ثم غزوا في سنة ١٨٩٤ م الشب وفي سنة ١٨٩٥ م ادندان وفي سنة ١٨٩٦ م سرس القديمة . وكانت الحكومة الخديوية والانكليزية قد اعادوا تنظيم قواتهم فاعدوا حملة قوية وجهوها نحو دنقلة في سنة ١٨٩٦ م فكان ذلك بدء عمليات استرداد السودان على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة [١] .

بين التعايشي والحبشة

وقد كان المهدي كتب في سنة ١٣٠٢ ه الى يوحنا ملك الحبشة كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ويعظه ويبشره بالخير والسلامه وينذره بالعاقبة الوخيمة والاثم اذا لم يستجب ويذكر له انتصاره على اعداء الله الانكليز ويعده بان يبقى في مركزه من الملك اذا هو اسلم واتبعه ويقول له انك ان ابيت الا الاعراض فاعلم انك لا بد من وقوعك تحت يدنا فانا موعودون بملك جميع الارض [٢] ، وبعد موت المهدي قامت بعض العصابات الاسلامية بحركات على حدود الحبشة فكتب والي الحدود الراس عدار الى والي القلابات يطلب منه ارسال هذه العصابات لمعاقبتها فلم يجبه فزحف بجيش كبير وضرب العصابات ثم شن الغارة على القلابات فقتل حاكمها وكثيرا من حاميتها واسر بقيتها واحرق

---

(١) ص ٥٦٧ - ٥٧٢ ج ٣

(٢) ص ٤٦٦ - ٤٦٧

المدينة واستولى على ما فيها • وبلغ ذلك التعايشي فاهتم للامر اهتماما عظيما فجهزجيشا عقد لواءه لاحد اقاربه واسمه يونس الدكيم وعينه عاملا على القلابات ثم كتب الى يوحنا كتابا يكرر فيه دعوته الى الاسلام ويبشره وينذره ويقول له اننا لم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصل منك التعدي البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب من بلدك المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة بالقتل والاسر والنهب والضرر وصار يأوى اليك كل من يرتد عن دينه من المسلمين فاذا كنت تريد رفع الحرب عنك وعدم غزو جيوش المسلمين لبلدك فبادر الى ارجاع اسرى المسلمين من ذكر وانثى وحر وعبد باكرام واحترام وطرد المرتدين اللاجئين اليك او ارسالهم الينا وكف يدك عن التعدي على بلاد الاسلام والزم حدودك وان اعرضت وغرك الشيطان فلا بد من مناجزتك الحرب •••

وكان الكتاب في سنة ١٣٠٤ في [١] • وفي الكتاب ما يدل على ان يوحنا ونصارى الاحباش كانوا يعتدون على المسلمين وبلادهم حيث كان في بعض انحاء بلاد الحبشة كثير من العرب والمسلمين لهم ممالك مستقلة استقلالا ذاتيا بالاضافة الى كثير من العرب والمسلمين الذين كانوا يعيشون في اقاليم الحبشة الاخرى [٢] •

ولم يجب يوحنا التعايشي فشرع يونس بتسيير البعوث لغزواطراف الحبشة فاخذت تعيث فيها نهبا وقتلا وسبيا • واثار هذا ثائرة يوحنا فاخذ يستعد لغزو القلابات • وعلم التعايشي بالامر فارسل حملة جديدة بقيادة قائد كبير اسمه ابو عنجة وعينه في الوقت نفسه واليا على القلابات مما جعل يوحنا يتوقف عن ما اعتزمه من حركات • على ان التعايشي لم يسكت بل امر ابا عنجة بغزو الحبشة فخرج بجيش كثيف

---

(١) ص ٤٦٨ — ٤٦٩

(٢) انظر الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان لاحمد القناني ص-ث-خ-١-٢ وصبح الاعشى للقلقشندي ج ٥ ص ٣٢٤ — ٣٣٨

في اول سنة ١٣٠٦ هـ ــ ١٨٨٨ م فيه المسلحون بالاسلحة النـارية والمسلحون بالسيوف والحراب حتى اتى بلاد دمبيا فعاث فيها واخرب حلالها وقتل اهلها وغنم وسبي وعاد الى القلابات سالما غانما وكتب بما جرى للتعايشي • وبعد اربعة اشهر خرج مرة اخرى وتوغل في ارض الحبشة حتى وصل محلا اسمه تنكل واخذ يسير السرايا فتعيث فـي ارض الحبشة فتكا وسبيا ونهبا وتدميرا نحو شهر • ثم عاد الى القلابات وكتب للتعايشي كتابا مسهبا اورد شقير نصه بما فعله في ارض الحبشة من افعال شديدة واسعة النطاق وما غنمه من غنـائم ومـا دمره مـن امـاكن •

وكان ملك الحبشة في هذه الاثناء مشغولا بالطليان الذين كانوا استولوا على بلاده فرأى ان يهادن المهدويين فكتب لابي عنجة بذلك كتابا اورد شقير نصه ايضا وقال فيه فيما قال ان الافرنج اعـداء لنا ولكم فـاذا غلبونا وهزمونـا لا يتركونكم فالرأي الصواب ان تتفق ونحاربهم ونغلبهم • ونحن وانتم في الاصول السابقة اولاد جد واحد والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين في المحبة جسدا واحدا متفقـين مع بعضنا ومتشاورين بالمشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بـلاد الافرنج والترك يريـدون ان يحكموا بلادنا وبلادكم وهم اعداؤنا واعداؤكم •••

غير ان ابا عنجة اجابه كما يقول شقـير بكتـاب فظ اورد نصه مؤرخ في جمادي الاولى ١٣٠٦ كرر فيه دعوته الى الاسلام وقال له فيما قال « واما طلبك الصلح منا وأنت باق علـى كفرك فبعيد بعـد المشرقين ودليل على ضعف عقلـك لانك تريد منا صلحا ومؤاخـاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ينهانا عن ذلك •••

وأثار جواب ابي عنجة الملك فاخذ يحشد الجنود للزحف علـى القلابات حتى بلغ عدد حشوده (٢٥٠) الفا وعلم ابو عنجة فاستعد بدوره غير انه مات قبل الزحف الحبشي وكـان سمي شخصا من اخصائـه

المعتمدين خلفا له اسمه الزاكي فثبته التعايشي • وزحف الاحباش في مارس عام ١٨٨٩ م وخرج المهدويون الى لقائهم وكان عددهم ستين الفا فريق منهم مسلح بالبنادق واشتبك الطرفان في واقعة عنيفة خارج القلابات وكاد الاحباش ان يكسبوا المعركة لو لم يصب الملك بجرح مميت حيث ادى موته الى اضطراب جيشه ثم هزيمته وتبعهم المهدويون مسافة طويلة يقتلون ويسبون ويغنمون ثم عادوا • وكتب الزاكي كتابا طويلا للتعايشي بتفصيل الوقائع وما كان من نصر المسلمين وغنائمهم • وقد سر التعايشي سرورا عظيما حتى انه طبع الكتاب على مطبعة حجرية ووزعه في اطراف بلاده ••

وخلف يوحنا الملك منليك الذي ما لبث ان شغل بالطليان الذين اعتدوا على بلاده • وقد كتب اليه التعايشي يدعوه بدوره الى الاسلام والتسليم ويحذره من العدوان على بلاده فلم يجبه فكتب له مرة ثانية — واورد شقير نص كتابه الثاني اليه — وفيه يكرر دعوته الى الاسلام حتى لا يموت على ملة الكفر ويذكره بمصير الملك يوحنا • فلم يجبه منليك ايضا حتى اذا انتصر على الطليان في واقعة عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ م — ١٣١٣ هـ كتب الى التعايشي كتابا يخبره بما تم من نصر ويعرض بواسطة رسوله صلحا عليه ، فاجابه التعايشي بان خطته عدم السماح للاوروبيين بدخول بلاده لا بحرفة ولا بيع ولا شراء ولاسياحة وانه يوافق على عقد الصلح معه اذا كانت خطته مثل خطته بالنسبة للاوروبيين واجابه منليك يقول له انه لا مداخلة له مع الافرنج الا بالتجارة • ثم انتهت المراسلات الى انعقاد الصلح بين الطرفين في سنة ١٣١٤ هـ • وكان في ناحية فازوغلي عاص متمرد على التعايشي اسمه ود تور الجوري فطلب من منليك تأديبه فاستجاب للطلب وسير حملة اوقعت بالعاصي واستولت على بلاده التي غدت من ضمن مملكة الحبشة •••

وقدذكرنافيسيرة المهدي انالمهدي كتب الىالامام محمد السنوسي والي رابح الزبير والى سلطاني وداي وسوكوتو ، وقد ذكر شقير ان التعايشي بدوره كتب اليهم ايضا ، واورد نص بعض الكتب التي ارسلها اليهم • وألح عليهم فيها بالانضواء الى المهدية والتضامن معها لاحياء السنة المحمدية واخبرهم بما تم للمهدية من انتصارات وما كان عليها من اقبال وارسل اليهم بعض المناشير التي اذاعها في ذلك •وتعددت كتبه اليهم • وكان اهتمامه لرابح الزبير كثيرا على ما يفيده نصالكتاب الطويل الذي ارسله اليه واورده شقير •

وقد بدأ بارسال كتبه اليهم من سنة ١٣٠٣ هـ ــ ١٨٨٦ م واستمر الى سنة ١٨٨٨ م ــ ١٣٠٦ هـ وربما الى ما بعد ذلك • ولم يذكر شقير ان احدا من الاربعة اجاب التعايشي بجواب ما • غير انه ذكر ان رابحا اتخذ راية المهدية راية له ، كما اورد نص كتاب ارسله سلطان وداي محمد يوسف الى والي كردوفان المهدوي جوابا على كتاب ارسله هذا اليه في شأن بعض المتمردين وعدم ايوائهم في بلاده بتاريخ سنة ١٣٠٥ هـ عنونه بعنوان « من عبد مولاه اللطيف السلطان محمد يوسف بن السلطان محمد شريف عامل المهدية بالديار الوداوية » حيث يفيد هذا ان السلطان كان يعتبر نفسه عاملا للمهدية او في نطاق دعوتها •

وقد قال في كتابه « انه لاول وهلة ساقته السعادة الازلية الى مبايعة المهدي واخذ العهد عليه » غير ان امر التبعية كان شكليا على ما يفيده السياق الذي اورده شقير [١] •

وعلى كل حال ففي هذا كله دلالة اخرى على ما كان من نشاط وحيوية ومطامح التعايشي كما هو المتبادر •

---

(١) ص ٤٣٦ ــ ٤٤٨ و ٤٦٣ ــ ٤٦٤ ج ٣

وبالاضافة الى ما تقدم فقد روى شقير احداثا متنوعة جرت في عهد التعايشي معظمها كان معكرا لصفو هذا العهد ، غير انه استطاع ان يتغلب على اكثرها .

فقد تمرد عليه عدد من زعماء كانوا اعضادا قوية للحركة المهدوية . منهم من فعل ذلك عقب موت المهدي مثل عوض الكريم ابي سن شيخ الشكرية ومحمد البشير شيخ الحمدة ومحمود ود زائد شيخ الضباينة والمرضي ابي روف شيخ بني حسان حيث تخلفوا عن اجابة دعوته لتجديد البيعة له حينما دعا كبار المشايخ الى ذلك وظهر منهم بوادر التمرد عليه . ومنهم من فعل ذلك بعد سنتين مثل ماديو شيخ الزريقات وصالح شيخ الكبابيش في السودان الغربي . وقد جد الخليفة في أمر هؤلاء وتمكن من الظفر بهم وقتلهم (١) ..

وتمردت جهادية الابيض ـ قواتها الحربية ـ التي كان اكثرها من أسرى الجيش المصري بعد قليل من موت المهدي فقتلوا ونهبوا ثم انسحبوا الى جبل مرة ورفعوا راية الخديوي . وقدلحق بهم والي الابيض بجماعات من المتطوعة فقابلوه بالرصاص وقتلوه مع جملة من متطوعته ثم انسحبوا من معصمهم وتوغلوا في الجنوب فامر التعايشي القائد ابا عنجة بمطاردتهم فطاردهم ونكل بهم قتلا واسرا وحز رأس رئيسهم مع رأس زعيمين آخرين من زعمائهم وارسلها الى ام درمان حيث علقت في السوق اياما (٢) .

وحاول الامير يوسف حفيد سلطان الفور محمد الفضل الذي ولي ولاية الفاشر في سنة ١٣٠٤ هـ ـ ١٨٨٦ م ان يستبد بالحكم عودا على بدء ما كان لآبائه من قبل ، فاستدعاه التعايشي الى أم درمان فراوغ وامتنع فسير عليه والي كردوفان جيشا فقابل الجيش بجيش واشتبك الجيشان بحرب كتبت الدائرة فيها على يوسف ، وبايع جماعته اخاه ابا الخبرات واخذوا يبثون الدعاة في اكناف البلاد لاستنفار الاهلين للقتال .

---

(١) ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦ و ٥٣١ ـ ٥٣٣ (٢) ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣

وفي هذه الاثناء ظهر في دار تامة ـ وهي في السودان الغربي ـ شخص ادعى الخلافة اسمه ابو جميزة فالتفت حوله الجموع فزحف بها على الفاشر • فاهتم والي كردوفان لامره وخرج للقائه وتمكن من هزيمة جموعه وقتله • وجمع اخ له اسمه ساغة شمل جموع اخيه وحاول ان يكر بها فكان نصيبه مثل نصيب اخيه • ونتيجة لذلك انسحب ابو الخيرات الى جبل مرة وظل معتصما فيه الى سنة ١٨٩١ م ـ ١٣٠٩ ه فثار عليه عبيده وقتلوه ثم ذهبوا الى الفاشر مستسلمين [١] •

وامتنع عمر ملك الشلك عن اداء الزكاة في سنة ١٣٠٨ ه ـ ١٨٩٠م فامر التعايشي والي القلابات بغزوه ففعل وانتصر عليه وقتله واقام مكانه من تعهد بالخضوع والاداء •

وخرج ادريس سلطان بلاد قمر عن الطاعة في سنة ١٣١٣ ه ـ ١٨٩٥ م فخرج اليه والي الفاشر ففر من وجهه الى بلاد تامة فلحقه اليها فسير سلطان هذه البلاد سليمان جيشا لمنعه من دخول بلاده فتغلب عليه فجهز السلطان جيشا آخر فتغلب والي الفاشر عليه ايضا ونتيجة لذلك اقصي السلطانان عن مناصبهما واقيم مقامهما من تعهد بالخضوع والاداء •

وقد ذكر شقير في سياق حوادث بلاد قمر وتامة خبر ظهور شخصين واحد بعد الآخر بدعوى المهدوية من قرية الجميزة التي كان خرج فيها ابو جميزة مدعي الخلافة الذي ذكرناه قبل • وتقدم المهدي الاول الى سلطان تامة متعهدا بابادة جيش الدراويش فصدقه وايده وحض الناس على الالتفاف عليه وقتال الدراويش تحت رايته وقد قتل في المعركة التي نشبت بين جموعه وجموع السلطان سليمان من ناحية وجموع المهدويين من ناحية • ولم يلبث ان ظهر الثاني فكان مصيره مصير الاول على يد المهدويين • وقد امر والي الفاشر بتخريب الجميزة وحرقها

---

(١) ص ٤٥٣ ـ ٤٥٨

بعد ذلك [1] .

ولقد بايع انصار الفور بعد ابي الخيرات الامير علي دينار وظلوا معه معتصمين في جبل مرة . ودعاه والي الفاشر فجاءه مسلما حذرا ثم عاد ودعاه الخليفة الى ام درمان فلبى الدعوة فاستبقاه عنده خشية من حركة استقلالية تمردية يقوم بها فظل في ام درمان الى سنة ١٨٩٨ م حيث اغتنم فرصة انشغال الخليفة بزحف الحملة الخديوية الانكليزية ففر من ام درمان الى دارفور على ما شرحناه في سيرةمملكةالفور [2].

وتمردتقبائل الميدوب والزريقات في السودان الغربي في سنة ١٣٠٩ هـ ــ ١٨٩١ م فزحف عليهم والي الفاشر واحدة بعد اخرى ونكل بهم واخضعهم [3] .

وثارت القوات الجهادية في النهود في السنة نفسها فاخذ والي الفاشر بعضهم بالحيلة وبعضهم بالقوة حتى اخمد ثورتهم ثم نكل برؤوسهم تنكيلا شديدا [4] .

ومن اهم الاحداث التي ذكرها شقير من سلسلة الاحداث في عهده خبر مؤامرة ضد الخليفة التعايشي نفسه في سنة ١٣١٣ هـ ــ ١٨٩٥م كان من مدبريها خليفته شريف وبعض اولاد المهدي واقاربه .

ولقد جمع المتآمرون رجالهم وخرجوا لتنفيذ المؤامرة أي القضاء على التعايشي واخصاء انصاره ، وكان هذا قد علم بأمرهم واستعد للقائهم بجمع من اهله وخلصائه فاحاط بهم . وجنح في بدء الامر للمسالمة فعرض عليهم الصلح وابدى استعداده للنظر في شكاويهم فابوا فوقع اشتباك بين الطرفين ، ثم رأى المتآمرون انهم لن يقدروا على الخليفة فاستجابوا لعرض ثان عرضه عليهم بالصلح وجرت بين الفريقين مفاوضات وتم الاتفاق على شروط الصلح وكتب بها عهد . وكان من الشروط ان يكون للخليفة مقام لائق به في مجلس التعايشي ومرتب كاف له ولاولاد

---

(١) ص ٥٤٨ ــ ٥٤٩

(٢) ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ (٣) ص ٥٤٧ (٤) ص ٥٤٧

المهدي ونسائه وتسليم الاشراف ـ اسرة المهدي سلاحهم وطاعتهم للتعايشي طاعة عمياء .. غير ان التعايشي بحث عن مثيري الحركة حتى عرفهم وكانوا جماعة من اقارب المهدي ومنهم من كان يتولى امانة بيت المال ومنهم من كان يتولى كتابة الديوان فقبض عليهم وسجنهم مدة ثم ارسلهم الى عامل فاشوده وامره بقتلهم واصدر منشورا عزا فيه ما فعله فيهم الى ايعاز من المهدي في رؤيا رآه فيها . ولقد اثار عمل التعايشي شريفا خليفته فقاطع مجلسه فجمع التعايشي مجلس القضاة والامراء واستصدر منه حكما بسجنه فسجنه وقد وقع محضر الحكم عدد كبير من اكابر الدولة وعلمائها واذاع هو منشورا برر فيه ماصنعه وانذر ووعد وتوعد وحذر . ثم قبض على اولاد المهدي وسجنهم كما اعتقل جماعة كبيرة من الدناقلة انصارهم واهل بلدهم مدة من الزمن . ومع انه جنح الى العفو بعد مدة فاطلق سراح المعتقلين فان الضغائن ظلت تعمل في الصدور . وظل هو يحيط نفسه بحراس اقوياء أنشأ لهم مساكن حول منزله وجعل ابنه اميرا عليهم وعينه وليا لعهده بدلا من الخليفة واحاط منزله ومساكن حراسه بسور منيع سميك (١) .

المصاولات بين التعايشي والانكليزي وحكومة الخديوي

ولقد كان انسحاب القوات الخديوية الانكليزية من السودان انسحابا موقتا ريثما تهيأ حملة قوية لاسترداده من السلطان المهدوي . وكان الانكليز يبيتون على ما ظهر فيما بعد ان يكونوا اصحاب شركة رسمية في حكم السودان بل واصحاب اليد النافذة فيه بعد ان اصبحوا اصحا باليد النافذة في مصر فاخذوا يعيدون تنظيم الجيش الخديوي ويطعمونه بالعناصر الانكليزية ويسلمون قياداته العليا لضباطهم حتى اذا اطمئنوا لذلك بدأوا حركة الاسترداد التي عقد شقير لها الباب الرابع من الجزء الثالث من كتابه ذكر في فصوله وقائع هذه الحركة (٢) .

---

(١) ص ٥٤٩ ـ ٥٥٨ (٢) ص ٥٣٨ ـ ٥٦٠

ومع ان الحركات الجدية لم تبدأ الا في سنة ١٨٩٦ م ـ ١٣١٤ هـ على ما يستفاد من سياق شقير فانه ذكر بعض حوادث جاءت عفوا قبل ذلك نجحت القوات الخديوية الانكليزية في استرداد بعض الانحاء الشرقية من السودان .

فقد اثقل عامل تماي ـ من منطقة كسلة في شرق السودان ـ كاهل الناس بضريبة الزكاة واعتقل شيخ قبائل الهدندوة بسبب تلكؤه في الاداء فشكت القبيلة العامل للوالي ـ وهو عثمان دقنة فاتح هذه المنطقة على ما ذكرناه سابقا ـ فلم يأبه لشكواهم فهاجموا السجن واخرجوا زعيمهم ثم شكوا الوالي الى الخليفة وهددوا بالثورة فجنح الخليفة الى المسايرة واستدعى الوالي الى ام درمان وعهد بالولاية لشخص آخر ، وكان ذلك عام ١٨٨٦ م ـ ١٣٠٤ هـ .

وكان محافظ سواكن كتشنر الذي صار وزيرا للحربية اثناء الحرب العالمية الاولى فاغتنم فرصة الاضطراب الذي حدث في المنطقة ـ وسواكن في هذه المنطقة ـ فحرض قبيلة الامرار على التمرد والانتقاض فثارت في السنة نفسها بزعامة شيخها محمود علي وزحفت على تماي فقتلت وأسرت ونهبت وعادت . فارسل الوالي سريةمن ورائها فادركتها واوقعت بها ثم ارسل سرية اخرى الى ديارها ففعلت بها مثل ذلك . وكانت السرية الثانية خرجت من بلدة هندوب فاصبحت هذه البلدة ضعيفة الحماية فبادر كتشنر الى الزحف عليها مع ما عنده من قوات وانضم اليه بعض المتطوعة من الامرار . وكان الوالي ينزل في قربها فباغتته قوات كتنشنر عند الفجر وهو يصلي بانصاره فانهزموا مذعورين تاركين اسلحتهم فطاردتهم القوات الى بلدة هندوب . غير ان الوالي جمع شمل قواته وكر بها فتمكن من رد قوات كتشنر بعد قتل وأسر فريق منهم . وقد اصيب كتشنر بجرح بالغ في وجهه . واراد الوالي ان يغتنم بدوره فرصة الذعر الذي دب بقوات كتشنر فاخذ يستعد للاستيلاء على سواكن ويحوم حولها . وتنحى كتشنر عن منصبه فعين

محافظ انكليزي جديد اسمه هود سميث ، فطلب مددا فارسل اليه وجاء السردار غرنفيل بنفسه ليشرف على الموقف . وقد اشتبك الطرفان في مكان اسمه الجميزة في سنة ١٨٨٨ م فكتبت الهزيمة على المهدويين. واضطر الوالي المهدوي الى نقل مركزه من هندوب الى طوكر . واخذ الفريقان يترصدان لبعضهما . وفي سنة ١٨٩١ م — ١٣٠٩ ه خرج الوالي المهدوي من طوكر مع معظم حاميته لامر عرض له فاغتنم محافظ سواكن الفرصة فزحف على طوكر واستطاع ان يستولي في طريقه على هندوب ثم على تماي ثم اشتبك مع القوات المتخلفة في طوكر فانتصر عليها واستولى على المدينة نتيجة لذلك . ولم يستطع المهدويين استرداد ما خرج من يدهم فكان ذلك اولى حوادث الاسترداد حتى ان شقير روى وقائعها في باب استرجاع السودان (١) .

ولقد تلكأ عمر ملك الشلك في اداء الزكاة في سنة ١٨٩٢ م — ١٣١٠ ه فامر التعايشي والي فاشودة بالزحف عليه وارغامه ففعل ثم انتقل هذا الوالي بجيشه الى القضارف للعمل على صد التليان الذين كانوا يحاولون مد حدود سلطانهم في الارتريا جنوبا وغربا فانشأ قصرا جميلا واخذ يحيا حياة ابهة وعظمة فوشى به بعض حساده فاستدعاه الخليفة وسجنه وعين آخر مكانه وامره بصد الطليان فزحف بجيش قوامه (١٢٠٠٠) مقاتل واوغل في بلاد الارثيريا حتى بلغ مكانا اسمه اغوردات بين كسلة ومصوع فالتقى بجيش طلياني فاشتبك معه فدارت الدائرة عليه وهزم جيشه وكان هو من القتلى ، ورأى الطليان الفرصة سانحة للاستيلاء على كسلة فاستأذنوا الحكومة المصرية فاذنت لهم بايعاز الانكليز — لان المهم في نظرهم هو انتقاص سلطان المهدية — فتقدم الجيش الطلياني وباغت كسلة وتمكن من احتلالها عنوة وكان ذلك في سنة ١٨٩٤ م . (٢) .

---

(١) ص ٤٨٧ — ٤٩٢ و ٥٣٨ — ٥٤٢

(٢) ص ٥٤٣ — ٥٤٦

ولقد عظم الامر على الخليفة واقسم بان يسترجعها وشرع في تعبئة الجيوش في القضارف بسبيل ذلك وظن ان انتصار الاحباش على الطليان في عدوة سنة ١٨٩٦ م فرصة سانحة فامر والي المنطقة عثمان بالزحف على طوكر وفي الوقت نفسه امر قائدا آخر بالزحف على كسلة. وصدع القائدان بالامر فتحركا بقواتهما. وقد استطاعت القوات الانكليزية الخديوية رد الاول مرة بعد مرة كما استطاعت القوات الطليانية رد الثاني بدوره بعد تكبيدهما خسائر فادحة، وقد سلم الطليان كسلة للحكومة الخديوية في سنة ١٨٩٧ م وكان الاستيلاء عليها ثاني حادث من حوادث الاسترداد (١).

وفي سنة ١٨٩٦ م - ١٣١٤ هـ تحركت حملة انكليزية خديوية في اتجاه دنقلة. وكان الباعث المباشر لها عودة المهدويين الى الحركات على الحدود المصرية وغاراتهم المتتابعة في سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٦ م على ما شرحناه في مناسبة سابقة (٢).

ولما علم المهدويون المرابطون على الحدود بالحركة تهيأوا لصدها وتقدموا نحو مركز اسمه فركة فاشتبكوا مع حاميتها في معركة شديدة دارت الدائرة فيها عليهم وقتل وأسر عدد كبير منهم كما غنم غنائم كبيرة. واذاع السردار وكان كتشنر على اثر ذلك منشورا موجها الى اهل السودان بتوقيع قائد جيش حملة السودان وسردار الجيش المصري ذكر فيه ما كان من مظالم التعايشي وبطشه برجال الدولة وزعماء القبائل وتغيير المهدية وتبديلها في احكام الاسلام، وما كان من شفقة ولي النعم خديوينا المعظم عباس حلمي باشا عليهم وارساله جيوشه المظفرة لهدم اركان دولة التعايشي واقامة حكومة شرعية مؤسسة على العدل والاستقامة، واصداره العفو التام عن جميع ذنوبهم وطلبه منهم استقبال جيوشه بالترحيب ووعد وتهدد من يرفض ويقاوم، وكان تاريخه

---

(١) ص ٥٤٣ - ٥٤٦ و ٥٧٣ - ٥٧٤ (٢) ص ٥٦٧ - ٥٧٢

في حزيران عام ١٨٩٦ م — ١٣١٦ هـ [١] .

وعلم الخليفة ان سلاطين باشا في الحملة فارسل اليه كتابا جوابا على كتابه الذي ارسله اليه عقب فراره طلب منه فيه المكيدة لجيوش الكفار وخدمة الجيوش الاسلامية اذا كان صادقا فيما قاله انه ثابت على دين الاسلام ولا يخون العيش والملح . وقد ذهب الكتاب مع الريح بطبيعة الحال .

ولما وصلت الحملة الى الحفير جرى تبادل النار بينها وبين المهدويين في هذا المركز ثم انسحب هؤلاء منها فاحتلتها الحملة التي كانت تسير في طريق البحر والنهر معا ، ولما قاربت الحملة دنقلة دب الذعر في قلوب بعض القوات والقواد المهدويين على ما يذكره شقير لانها كانت اكثر من ضعف عدد قوات المهدويين في دنقلة واحسن منها تجهيزا وسلاحا بما لا يقاس عليه وطلب بعض القوات الاستسلام فابى امير دنقلة وقائد جيشها وقال ان الموت خير من عار الهزيمة او التسليم وعلينا ان نثبت فنظفر او نموت شرفاء . ولم تلبث الحملة ان اخذت تطلق قنابلها فاضطرب الناس وانهزموا وكان الامير في مقدمة المنهزمين [٢] . وتخلف بعض القوات والقواد واستسلموا واحتلت القوات دنقلة وغنمت مخلفات المنهزمين ، ثم تقدمت نحو الدبة ففر منها المهدويون فاحتلتها وكان هذا مصير مروي ايضا . وهكذا تم استرداد منطقة دنقلة . وكان السردار يشرف على حركة الحملة بنفسه . وقد اقيمت حكومة لمديرية دنقلة عهد بمديريتها وقيادة حاميتها لضابط انكليزي اسمه هنتر بصفة حاكم عسكري [٣] .

---

(١) ص ٥٧٢ — ٥٧٤

(٢) ان سياق المؤلف يفيد ان الحملة لم تلق مقاومة وان المهدويين كانوا يفرون من امامها دون مقاومة جدية . ونخشى ان يكون في كلامه شيء من الغلو لانه كا نمن المستخدمين في الحملة وكلام امير دنقلة ورفضه الهزيمة والاستسلام قد يساعد على تدعيم هذاالاحتمال.

(٣) ص ٥٧٤ — ٥٩٥

ولما بلغ التعايشي ما جرى اخذ يستعد ويحشد الجيوش ويستنفر الناس للجهاد • وظهر من امير الجعليين في المتمة مخامرة فامر قائد الجبهة بضربه فضربه وجماعته ضربة قاصمة •

ولقد تشجعت القوات الخديوية الانكليزية بسهولة ما تم لها من فتح وبما كان من اثر ذلك على اهل منطقة دنقلة ومسارعتهم الى اعلان الولاء والطاعة فقررت متابعة الحركة فاتجهت نحو بربر وتمكنت من احتلالها بعد وقائع ومقاومة طفيفة • وقد قتل فيها عدد كبير من المهدويين بلغ (٣٠٠٠) وكان في جملتهم عدد من كبار الجيش كما اسر عدد كبير منهم بلغ (٢٠٠٠) وكان في جملتهم امير الجيش وعدد من كبار الجيش ايضا • وحينئذ دخلت الحركة في دورها الحاد فحشد الخليفة قوات كبيرة وفعل الطرف الثاني مثله • وقد انضم الى هذا الطرف كثير من قبائل العبابدة والجعليين والمسلمية والشكرية والشايقية والبطاحين وغيرها • واخذ يزحف نحو الخرطوم • ووجه كتشنر بصفته سردار الجيوش المصرية والانكليزية [1] كتابا الى التعايشي قال له

---

(١) يلفت النظر الى تطور صفة كتشنر حيث كانت في البلاغ الذي اذاعه على اهل السودان « سردار الجيش المصري » وباسم « الخديوي ولي النعم » نفدت سردار الجيوش المصرية الانكليزية وكانت الرايات المصرية الانكليزية من مظاهر هذا التطور وذلك قبل انعقاد اتفاقية السودان التي تنص على الشركة الانكليزية المصرية في حكم السودان ، حيث يكشف هذا التطور نية الانكليز المبيتة ... ومما يكشف هذا موقفهم من رفض شريف باشا رئيس وزراء مصر الاستجابة الى اقتراح الانكليز باخلاء السودان حينما اقترحوا ذلك ريثما تهيء الاسباب الكافية لاسترداده حيث ارسل وزير خارجيتهم كتابا الى المعتمد البريطاني في مصر في كانون الثاني عام ١٨٨٤ م يقول فيه انه ما دام الاحتلال قائما فان عليكم ان تتأكدوا من تنفيذ النصائح التي تقدمونها قياما بواجبكم الى الخديوي وان على النظار والمديرين اتباع نصائح حكومة جلالة الملكة والا اقيلوا من مناصبهم لان هذه الحكومة ملزمة ان تكون على يقين من تنفيذ السياسة المرسومة ما دامت المسئولية تقع على عاتق انكلترة . وقد استقال شريف باشا محتجا وخلفه نوبار الارمني فوافق على سحب القوات المصرية من السودان واخلائه تنفيذا لاقتراح الانكليز (انظر ص ٢٨ من كتاب مصر والسودان في اوائل عهدالاحتلال لعبد الرحمن الرافعي) .

فيه ان جيوشي قد تقدمت لاراحة البلد من شره وبغيه وان بين جيوشه ـ يعني جيوش التعايشي ـ كثيرين كارهون لـه وان هناك النساء والاولاد الذين لا يريد ان يلحق بهم سوء وانه بناء على ذلك يطلب منه الاستسلام وحقن الدماء ، وانه مستعد لاستقبال رسله استقبالا حسنا ومعاملته بالعدل ... وتشاور رجال التعايشي في الموقف ولاحظوا تفوق الجيش المصري الانكليزي في العدد والعدد فاقترحوا الانتقال الى السودان الغربي فرفض التعايشي ذلك وصمم على الدفاع بل ولطم من اقترحه وسجنه مكبلا بالحديد . ووصلت الحملة الزاحفة الى امدرمان واخذت تصليها نيران مدافعها وخرج الخليفة على رأس حشوده مهللين مكبرين فاشتبكوا مع الحملة المصرية طيلة ايام ثلاثة فدارت الدائرة على المهدويين فغادروا ام درمان مهزومين فدخلتها الحملة ، ثم عبرت منها الى الخرطوم وارتفعت الرايات الانكليزية والمصرية معا عليهما . وكان ذلك في شهر ايلول من عام ١٨٩٨ م ـ ١٣١٧ هـ . ولقد استولت الحملة على مخلفات الخليفة واوراقه ولم تجد في خزائنه ومنازله شيئا دا بال . وقد نسفت قبة المهدي بالديناميت ونبشت قبره واخرجت جثته وحزت رأسه وارسلته الى متحف لندن وبعثرت عظامه ...

ولقد ذهب التعايشي مع من بقي معه من رجاله وانصاره الى الابيض مركز مديرية الكردوفان في السودان الغربي واخذ ينشر المناشير الداعية الى الجهاد ويطلب من اتباعه الانضمام اليه للدفاع والمقاومة ثم انتقل الى جبل قدير . وانفذ السردار حملة بقيادة ونجت باشا لمطاردته . واشتبك معها في معارك عنيفة فدارت الدائرة فيها عليه وكان من جملة القتلى بعد ما قاتل هو ورجاله قتال الابطال . وكان ذلك في نوفمبر عام ١٨٩٩ م وقد قتل عدد كبير من رجاله كما اسر عدد كبير منهم ايضا وغنمت مقادير وافرة من اسلحتهم النارية والبيضاء ودوابهم وامتعتهم ومؤنهم ، وكانت القوات الانكليزية المصرية تنشط في أثناء ذلك في مناطق السودان الاخرى الشرقية والغربية والجنوبية

وتتغلب على المقاومة المهدوية فيها وترفع عليها الرايات المصرية الانكليزية ، وقد تم كل هذا مع نهاية عام ١٨٩٩ م عدا بحر الغزال الذي تم استرداده في سنة ١٩٠٠ م • وقد كان التغلب على التعايشي وقتله من الاسباب الميسرة لذلك • ولقد كان شريف خليفة التعايشي وولدين من اولاد المهدي هما الناضل والبشري قد استسلموا واعطي لهم الامان وارسلوا الى حلفا غير انهم لم يلبثوا ان ندموا على الاستسلام وشرعوا في جمع الناس بنية الالتحاق بالتعايشي وعلمت السلطات بامرهم فقبضت عليهم وحاكمتهم واعدمتهم •

وهكذا قضي على هذه الحركة العربية العظمى التي يصح ان تعد من اعظم الحركات العربية في القرون الحديثة بعد نشاط وحيوية امتدت نحو عشرين عاما (١) •

وفي ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ أي بعد الاستيلاء على ام درمان والخرطوم وقبل الظفر بالتعايشي وقبل اتمام الاستيلاء على انحاء السودان عقد اتفاق بين حكومة الخديوي والحكومة الانكليزية تضمن اعتراف الحكومة الخديوية بشركة الحكومة الانكليزية في حكم السودان وادارته نتيجة لفتح السودان بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها حكومتنا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي وتضمن الاشارة الى ضرورة التصريح بمطالب حكومة جلالة المملكة المترتبة على حق الفتح كما ذكر ذلك نصا في ديباجة الاتفاق الذي احتوى فيما احتواه (١) :

١ ــ استعمال العلمين البريطاني والمصري معا معا في البر والبحر في جميع انحاء السودان عدا سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري •

---

(١) ص ٥٩٥ ــ ٦٠٥

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية نعوم شقير ج ١ ص ١٠٧ ــ ١٦٠

٢ ــ تفويض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب بلقب حاكم عموم السودان ويعين بامر خديوي بناء على طلب الحكومة الانكليزية ولا يفصل الا بامر خديوي يصدر برضاء هذه الحكومة .

٣ ــ عدم سريان أي قانون او امر مصري الا اذا صرح به الحاكم العام .

٤ ــ عدم تعيين قناصل في السودان وعدم اقامتهم قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

وقد عين في يوم توقيع هذا الاتفاق اللورد كتشنر حاكما عاما للسودان مع بقاء وظيفة السردارية (قيادة الجيش المصري) في عهدته !..

ولقد غدا وادي النيل بشطريه منذئذ تحت السيطرة الانكليزية والسيادة التركية معا وظل كذلك الى منتصف العقد السادس من القرن العشرين حيث يسر الله للوادي الفكاك من تلك السيطرة والسيادة والانضواء تحت لواء السيادة العربية الخالصة .

بالقمع والشدة والدسائس وتفريق الصفوف واستعداء بعض الاحزاب على بعض وعرضوا خلال ذلك اقتراحات بمعاهدة لا تضمن مــا يريده الوطنيون فاخفقوا حتى اضطروا في النهاية واضطر الوطنيون معــا في آن واحد الى التراضي في اغسطوس ١٩٣٦ على عقد معاهدة تضمنت شروطا احسن لمصر وتضمنت في الوقت نفسه كثيرا مما يتمشى مع مآربهم العسكرية والسياسية والاستعمارية • وكان ذلك في بدء عهد الملــك فاروق الذي خلف أباه فؤاد المتوفي في نفس السنة • وقد سنح لمصر في نطاق هذه المعاهدة او نتيجة لها ان تبرز اكثر من ذي قبل كدولــة مستقلة ذات سيادة وان تتخلص من الامتيازات الاجنبية التــي كانت تخل بسيادتها وان تدخل عصبة الامم وان تسير اشواطا غير يسيرة في مجال الصلاح الداخلي والاقتصادي والعمراني والثقافي والتشريعي •

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية اخذ الشعب العربي في مصــر يطالب بتعديل المعاهدة تعديلا يؤدي الى جــلاء الانكليز عن مصــر والسودان واخذ يقوم بين الطرفين مشادات بسبيل ذلك كانت تعنف حتى تراق فيها الدماء وخاصة في منطقة قناة السويس مما ازعج الانكليز أشد ازعــاج •

الانقلاب العسكري المبارك بزعامة جمال عبدالناصر ونهاية السيادة التركية

— ٩ —

وفي ٢٣ تموز من عام ١٩٥٢ قامت فتية مؤمنة من ضباط الجيش المصري يمتون الى الارومات العربية الصريحة بزعامة جمال عبد الناصر من بني مر وكان من البارزين منهم عبد الحكيم عــامر وجمال سالم وصلاح سالم وانور السادات وعبد اللطيف البغدادي وحسين الشافعين وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم ورفعة كمال وزكريا محيي الدين

بحركة انقلابية مباركة ناجحة (١) استولوا بها على الحكم وخلعوا الملك فاروقا الذي كان قد اوغل في الطغيان والفجور واقاموا ابنه الطفل احمد فؤاد ملكا تحت الوصاية ثم الغوا في اوائل عام ١٩٥٣ م — ١٣٧٣ هـ النظام الملكي واعلنوا النظام الجمهوري ووسدوا رئاسة الجمهورية الى اللواء محمد نجيب الصريح في عروبته كذلك وصادروا املاك واموال الاسرة العلوية والغوا الاحزاب واقصوا رجالها الذين كان الوهن والفساد قد استشرى في عهودهم في دوائر الدولة ومرافقها بسبب تملقهم للانكليز والملك واندفاع كثير منهم في سبيل تحقيق مآربهم ومآرب محسوبيهم فكان ذلك اعظم حدث عربي انتهت به السيادة التركية التي استمرت احد عشر قرنا — باستثناء فترة الحكم الفاطمي — عن مصر وتوطدت به السيادة العربية الخالصة .

المصاولة مع الانكليز وجلاؤهم
عن السودان ومصر واستتباب
السيادة العربية في القطرين

— ١٠ —

ولقد اشتد العهد الجديد في مطالبة الانكليز بالجلاء واخذ يقوم بحركات ازعاجية في القناة جعل حياة جنودهم جحيما واضطرتهم في النهاية الى التفاوض والاتفاق مع العهد الجديد في شباط ١٩٥٣ على

(١) كان هؤلاء الفتية قد اسسوا جمعية سرية تعاهدت على العمل على انقاذ مصر مما ألم بها من مفاسد الحكم وضعف البنيان والسيطرة الانكليزية . واشتد جهدهم في سبيل ذلك بعد سنة ١٩٤٨ التي نجح فيها اليهود في اقامة دولتهم في فلسطين وتغلبوا على الدول العربية بما فيها مصر حيث كانوا في جيش مصر الذي زحف على فلسطين في ١٥ مايس١٩٤٨ وانكشف لهم كثير من المفاسد والضعف العربي عامة والمصري خاصة ، واخذوا يتصلون بمن يثقون فيه من ضباط الجيش ويحكمون خططهم حتى اطمئنوا الى عملهم فقاموا بحركتهم البارعة ثم خطوا الخطوات التي ذكرناها في المتن .

الجلاء عن السودان والرضاء باستقلاله التام او اتحاده مع مصر باستفتاء حر تحت اشراف دولي ، ثم الاتفاق كذلك في تموز عام ١٩٥٤ على انهاء المعاهدة المصرية والجلاء عن قناةالسويس خلال عشرين شهرا • وكان تأخر الاتفاق على قضية مصر هـذه المدة الطويلة بعد الاتفاق على قضية السودان ناتجا عن محاولة الانكليز استبقاء موضع قدم او هيمنة او مشاركة لهم مع مصر باي شكل مما أباه رجال عهد الثورة أشد اباء وجعلهم يشتدون في الكفاح والازعاج الى ان اضطر الانكليز الى نفض اليد من آمالهم •• أما تساهل الانكليز في الاتفـاق على قضية السودان فانه كان ناتجا عن املهم في ايجاد موضع قـدم او هيمنة او مشاركة لهم فيه عن طريق صنائعهم ودسائسهم بعد ان تتخلى مصر عن ما كانت تطالب بـه وتترسمه وتعتبره مطلبا طبيعيا من وحدة مصـر والسودان ولكن الله خيب املهم هذا كما خيب املهم ذاك •

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام ان الشعب العربي في السودان لم يلبث بعد قمع الحركة المهدية بقليل ان حذا حذو مصر واخذ يتحرك بسبيل التفلت من سيطرة الانكليز وأنشأ هيئات وطنية متنوعة اخذت تنشط في هذا المجال وقوي نشاطها بعد الحرب العالمية الاولى تجاوبا مع نشاط مصر واستمر الامر على هذا المنوال الى ان تم الاتفاق على قضية السودان بين الانكليز وحكومة الثورة في مصر على ما ذكرناه آنفـا •

ولقد سير في تنفيذ اتفاقية السودان سيرا حثيثا وتمت المراحل المعينة في اوقاتها بل وتم بعضها في فترة اسبق من اوقاتها فاقصي موظفو الانكليز عن مناصبهم وجلت قواتهم وانشىء جيش سوداني عربـي ووسدت المناصب الى ابناء السودان وجرت الانتخابات النيابية تحت الاشراف الدولي وقام البرلمان السوداني وانبثق منه حكومة وطنيـة على رأسها مجلس سيادة مؤلف من عناصر عربية الارومة ثم قرر البرلمان في اواسط عام ١٩٥٥ ان يكون السودان مستقلا •

ولقد حاول الانكليز بدسائسهم ان يعرقلوا سير المراحل ويعكروا ما بين السودان ومصر من صفاء الاخوة حتى لقد تآمروا على ايقاع مذبحة يوم افتتاح البرلمان المصري ووصول رئيس جمهورية مصر واعضاء وفدها لشهود حفلة الافتتاح في ٣٠ مارس ١٩٥٥ • ولقد كان المأمول ان يقرر البرلمان الاتحاد مع مصر بشكل ما • وكان من البوادر التي دلت على صدق هذا الامل نجاح حزب الاتحاد الوطني الذي كان يؤيد الرغبة الاتحادية ويعمل لها ويجعلها منهاجا انتخابيا له ويتواثق مع حكومة الثورة في مصر اشد التواثق في الانتخابات ونيله اكثرية المقاعد • غير انه انحرف في آخر لحظة عن هذه الرغبة مما جعل المراقبين يحسبون ذلك من آثار تلك الدسائس • ومع ذلك فان حكومة مصر سارعت فاعترفت بقرار البرلمان حتى تجعل استقلال السودان وسيادته حقيقة قائمة فحذت بريطانية حذوها واخذت الدول تعترف بدولة السودان واحدة بعد اخرى • وتقدمت بطلب الى الجامعة العربية وآخر الى هيئة الامم المتحدة بالانضمام الى عضويتهما فاجيبت الى طلبها وغدت عضوا في المنظمتين منذ اوائل عام ١٩٥٦ م وهكذا انتهت السيطرة الانكليزية كما انتهت قبل السيادة التركية عن السودان وتوطدت فيه السيادة العربية الخالصة بدون أي شائبة (١) •

وكما سير في تنفيذ اتفاقية السودان سيرا حثيثا حتى انتهت مراحلها

---

(١) اتماما لسجل الاحداث نذكر ان مواقف الحكومات التي تعاقبت على السودان لم تكن على ما يرام في مجال الانسجام الاخوي مع مصر . بل ولم تتورع الحكومة التي كان يرأسها محمود خليل من اصطناع المشاكل والوقوف مواقف المناوأة والتعكير . فأدى ذلك الى بقاء كثير من الامور المعلقة الناجمة عن آثار الحكم المصري في السودان بدون حل ، مما جعل المراقبين يلمسون في ذلك آثار تلك الدسائس ايضا . وفي اواسط عام ١٩٥٨ قام بعض كبار ضباط الجيش السوداني بزعامة الفريق ابراهيم عبود بحركة انقلابية ناجحة فاستلم الفريق ورفاقه ــ وجميعهم من الارومات العربية الاصيلة في السودان ــ مقاليد الحكم واقصي السياسيون الحزبيون عن مجاله . واخذت الصلات تصفو رويدا رويدا بين السودان ومصر ثم عين الطرفان وفدي مفاوضة في خريف عام ١٩٥٩ وجرت المفاوضات في القاهرة في تصفية وحل المشاكل المعلقة وانتهت بالوفاق والحمد لله .

وتنوجت بتوطد السيادة العربية في شطر الوادي الجنوبي سير في تنفيذ اتفاقية الجلاء في الشطر الشمالي سيرا حثيثا كذلك واخذت القوات الانكليزية تجلو تباعا وفق المراحل المتفق عليها فتتسلم القوات المصرية ما كان في يدها حتى تم الجلاء في منتصف حزيران عام ١٩٥٦ وزالت الشائبة التي كانت تشوب السيادة العربية التي توطدت في اوائل عام ١٩٥٣ كما مر بيانه •

وبعد تمام الجلاء وضع دستور جديد لمصر اعلن فيه الحقيقة التي ظل الاستعمار والحكم التركي يحاولان تغطيتها وهي ان مصر جزء من بلاد العرب وان شعب مصر جزء من الامة العربية واستفتي الشعب في هذا الدستور وفي رئاسة الجمهورية التي تقوم في مصر على اساسه فكان شبه اجماع على الموافقة على الدستور واختيار جمال عبد الناصر العربي الصميم والمؤمن الملهم الذي اختارته العناية الربانية لتجديد مجد العرب ووحدتهم •

تأميم القناة والعدوان الثلاثي على مصر

— ١١ —

ولقد كان من خطط العهد المصري الجديد الانشائية انشاء خزان جديد وراء خزان اسوان اعلى منه يضمن به زيادة الاراضي الزراعية وقوة الكهرباء وتنظيم الري وتفادي اضرار الفيضان ضمانا وافيا • وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا تترسمان ادخال مصر وسائر بلاد الشرق العربي في نطاق خططها العسكرية وهيمنتها السياسية فوعدتا بالمساعدة المادية على انشاء هذا الخزان الذي عرف بالسد العالي • غير ان حكومة مصر بزعامة بطلها عبد الناصر نأت عن ما كانت تترسمه الدولتان وكسرت طوق احتكار السلاح الذي كانتا قد ضربتاه على مصر والشرق العربي وشكلت جبهة عربية قوية ضد ذلك النطاق فاحنق ذلك الولايات المتحدة وجعلها تسحب وعدها بالمساعدة باسلوب لئيم فما كان من زعيم مصر الا ان اعلن في ١٦ آب ١٩٥٦ تأميم قناة السويس وتخصيص صافي حصيلتها (١) لانشاء السد العالي • وجن جنون الدول الغربية

وخاصة انكلترة وفرنسة مالكتي اسهم القناة • واخذتا تؤلبان على مصر • ولم تبال مصر ذلك فتآمرتا مع اسرائيل على العدوان على سيناء والقناة لتتخذا ذلك ذريعة الى احتلال مصر والقناة • وفي ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ تحركت قوى الشر اليهودية المؤيدة بالقوات الانكليزية والافرنسية البرية والجوية والبحرية لتنفيذ المؤامرة • وفي ١ تشرين الثاني هاجمت اساطيل فرنسة وبريطانية البحرية وطياراتها مصر من ناحية القناة فغدت مصر بين نارين • ولكنها صمدت بقيادة ابطالها الابرار واستبسلت اعظم استبسال في مقابلة العدوان الفاجر وتحملت في سبيل ذلك جسيم التضحيات وضربت مدينة بور سعيد خاصة اروع الامثلة على المقاومة والنضال وأيدت البلاد العربية وخاصة سورية مصر تأييدا قويا وحطمت سورية انابيب النفط التي كانت بمثابة عصب الغرب الحربي والصناعي وارتفعت الاصوات من كل صوب تستنكر العدوان وادانت هيئة الامم المعتدين بما يشبه الاجماع ودقت النذر بحرب عالمية جديدة مدمرة فكان كل هذا مما احبط العدوان ورد المعتدين خاسئين واخرج مصر من المعركة قوية ظافرة •

وكانت اتفاقية مصر مع الانكليز تنص على بقاء قاعدة السويس صالحة للاستعمال تحت اشراف خبراء انكليز لمدة سبع سنين وحق القوات البريطانية في العودة اليها واستخدامها في حالة عدوان ما على مصر او دول الجامعة العربية او تركية او في حالة خطر حرب وعدوان وكان ذلك بمثابة مسمار جحا ابقته بريطانية ليكون لها تكأة تستند اليه في ظرف ملائم ما بسبيل مآربها وخططها • فاغتنم زعيم مصر العدوان فاعلن الغاء الاتفاقية وامر بالاستيلاء على القاعدة وما فيها من معدات هائلة متنوعة فاقتلع ذلك المسمار وخلصت السيادة العربية من مشاكل شائبة او شبه شائبة •

---

(١) كان كل ما تناله مصر من هذه الحصيلة لا يعدو المليون جنيه مع انها كانت تبلغ خمسة وعشرين مليون جنيه بل وزيادة في ظروف اعلان التأميم وقد صارت هذه الحصيلة في عهد الادارة المصرية اربعين مليونا قابلة للزيادة ....

انبثاق الجمهورية العربية المتحدة
من وحدة مصر وسورية

- ١٢ -

ولقد اخذت مصر في ظل ثورتها المباركة تسير قدما في سبيل استكمال نهضتها الزراعية والصناعية وقوتها الدفاعية فاشتدت خطوتها بعد معركة القناة في سبيل ذلك كما ازداد وزنها وبروزها في العالم العربي والدولي وتبوأت قيادة الحركة العربية واهدافها ٠

وفي شباط ١٩٥٨ خطيت خطوة عظيمة في سبيل هذه الاهداف بل في سبيل اعظم هذه الاهداف وهو الوحدة العربية حيث تم الاتفاق بين رجال مصر بزعامة بطلها جمال عبد الناصر ورجال سورية بزعامة بطلها شكري القوتلي على توحيد القطرين باسم الجمهورية العربية المتحدة وايد برلمانا القطرين الاتفاق وفي ٢٠ شباط ١٩٥٨ جرى استفتاء في مصر وسورية فتمت الموافقة على ذلك وعلى دستور موقت للجمهورية العربية وعلى رئاسة جمال عبد الناصر للجمهورية بما يشبه الاجماع فانبثقت جمهورية العرب الكبرى في ظل السيادة العربية الخالصة شاملة مصر وسورية الركنين الاقوميين الشمالي والجنوبي العربيين ومبشرة بتكامل الوحدة حتى تشمل جميع اقطار الوطن العربي الكبير ٠

ولقد ازداد وزن العرب بجمهوريتهم المباركة في المجال الدولي وغدت الجمهورية بمثابة المنار والعمود لهم وغدت عاصمتها قبلة البلاد الآسيوية والافرنسية ومركز اشعاعها ومنطلق نشاطها وحركاتها كما اشتدت الجهود والخطوات في سبيل التكامل التشريعي والزراعي والاروائي والصناعي والتجاري والعمراني والتنظيمي والحربي ودقت اجراس البشرى بالمستقبل العظيم للجمهورية والعرب في كل ميدان من هذه الميادين ٠

خاتمة في تطور الوعي العربي القومي في مصر

ونريد ونحن نختم هذا الفصل ان نستدرك امرا او ننبه عليه وهو ان هذه البلاد مع احتفاظها بالطابع العربي الصريح الشامل لغة ودما وتقاليد وعادات الذي اخذ يتوطد بعد الفتح الاسلامي دون ان تتأثر كثيرا بحكامها الرئيسيين من الترك وامتداداتهم وبما كان يأتي اليها حينا بعد حين من الجماعات التركية وتستقر فيها على ما ألمعنا اليه في فاتحة الجزء فان العرب الذين كانون يؤلفون الكثرة الساحقة من سكانها استناموا للسيادة التركية واستساغوها واعتبروها غير غريبة وغير اجنبية عنهم لانهم والترك على دين واحد • وكان هذا يغذي بحرص الحكام الترك على بثه وتوكيده جيلا بعد جيل للحيلولة دون ثوران الشعور القومي العربي واعتبار ذلك دعوة الى العصبية الجاهلية التي نهى النبي (صلعم) عنها بقطع النظر عن ما في ذلك من سوء فهم وتأويل • وقد توطد ذلك خاصة بطول المدة التي استطاع الترك ان يفرضوا فيها سيادتهم وهي الف سنة ونيف فعاش اهل هذه البلاد في جو الفكرة الاسلامية اللا قومية وفي غفلة عن حقيقتهم العربية والتفكير القومي • ونتيجة لذلك ظلوا في نضالهم ضد الغزوات الاجنبية التي اخذت مصر تتعرض لها منذ اواخر القرن الثامن عشر الميلادي وفي حركاتهم الوطنية في سبيل الحكم النيابي والاصلاح والدستور الخ ••• التي اخذت تشتد منذ اواسط القرن التاسع عشر في نطاق شعور اقليمي مصري واسلامي وحسب •

ولقد حرص الانكليز بدورهم على ابقائهم في غفلة عن حقيقتهم العربية حينما انبعثت الحركة العربية الحديثة في اوائل القرن العشرين متعاونين في ذلك مع الاسرة العلوية التركية والمغرضين من المبشرين والشعوبيين حتى تظل مصر في معزل عن تيار هذه الحركة واستعملوا في سبيل ذلك متنوع الوسائل والاساليب

الخبيثة فنجحوا في تحقيق ما حرصوا عليه لامد غير قصير • وكان من آثار ذلك الدعوة التي عرفت بالدعوة الفرعونية باسم البحث العلمي والتاريخي والوطني والتي اندمج فيها فريق من ذوي النوايا الحسنة والتي رمت في الحقيقة الى صرف نظر المصريين عن الفكرة العربية الحديثة وارجاعه الى الوراء البعيد ومحاولة تلقين المصريين انهم لا يمتون الى العرب والعروبة وانما الى الفراعنة اصحاب المجد والعظمة والحضارة والعمران الزاهر الذي كان اساس مدنيات العالم وكون العرب ليسوا الا غزاة طارئين شأنهم شأن الفرس واليونان والرومان الذين غزوا مصر وان كل ما هنالك من فرق هو انهم استطاعوا ان يورثوا المصريين لغتهم ودينهم متجاهلين او منحرفين او غافلين عن الحقائق التاريخية الكبرى التي تقرر صلة المصريين القدماء بجزيرة العرب والجنس العربي واستمرار هذه الصلة منذ الاسلام الى الآن قوية وثيقة •

ولقد غذيت هذه الدعوة وعضدت على ما فيها من زيف ووهن اساس ومنطق بمختلف الوسائل واستطاع القائمون بها ان يلفتوا اليها الانظار وان يثيروا حولها الجدل والكلام على امل ان يجعلوا منها قضية لها مكان في مجال القضايا القومية والتاريخية او على الاقل ان يوجدوا في نفوس الناس بصددها من الريب والشكوك ما يشوش على تيار الفكرة العربية ويصدم تدفقه •

ولقد ردفوا دعوتهم هذه بدعوة اخرى الى اصطناع اللغة المصرية الدارجة في التعليم والادب والصحافة والتمثيل والتأليف والصكوك والرسائل الحكومية بحجة سهولة نشر الثقافة وايجاد ادب مصري خاص ولغة مصرية خاصة وثقافة مصرية خاصة الخ •• مستهدفين النأي شيئا بعد شيء عن ضوابط اللغة العربية الفصحى الى ان يصبح لمصر لغة او لهجة بعيدة عنها فيزداد الانعزال والانكماش عن العرب والعروبة قوة وشدة •

ولقد اشتدت دعوة رجال الاتحاد والترقي الترك الذين كانوا

قابضين على زمـــام الدولة العثمانية بعد اعلان الدستور العثمـــاني سنة ١٩٠٨ م ــ ١٣٢٤ ﻫ والذين كانوا يهدفون الى اعــلاء العنصــر التركي على جميع العناصر التي كانت تعيش في بلاد هذه الدولة ضد الحركة العربية لانها تعرقل الخطوات الى هدفهم ، ولما اعلن شريف مكة الحسين بن علي ثورته الكبرى على الدولة العثمانية بالاتفاق مع الانكليز اشتدت دعايتهم ضد الحركة العربية اكثر واستصدروا فتاوى ضدهــا وضد حركة الشريف فكان ذلك مما استغلته الاسرة العلوية الحاكمــة التركية والعناصر التركية التي كانت صاحبة بروز قوي في مجال الحكم والسلطان الى جانبها في محاربة الفكرة العربية في مصر وعزلهــا عن تيــارهــا ٠

غير ان هذه الصورة اخذت تتبدل بعد انفجار الثورة الوطنيــة المصرية في سنة ١٩١٩ م ــ ١٣٣٨ ﻫ وبعدها وكان لاشتداد الحركــة العربية في البلاد الشامية والعراقية ولتجاوبها مــع مصر في كفاحهــا الوطني اثر شديد في هذا التبدل قوبل في الوقت ذاته بتجاوب مصــر مع تلك البلاد في كفاحها الوطني الذي كان يجري متوازيــا مــع كفاح مصر والذي كان من شعاراته الفكرة القومية العربية ٠ واخذت الاصوات تتيجة لذلك تردد في مصر صراحة وحدة الجنس التي تجمــع بين المصريين القدماء والعرب بالاضافة الى ثلاثة عشر قرنــا من قرون بعد الاسلام انساح خلالها الى مصر قبائل عربية صريحة لا تحصى غذت مدنها وريفها وباديتها بالدم العربي الصريح وطبعت مصر بطابــع خالد من العروبة الصريحة ، وتبين ما في حملة الفرعونية والعزلة عــن العالم العربي من شطط وضرر ولم يلبث التيار العربي الايجابي ان اخذ يجري شيئا فشيئا مع الوقت ولم يلبث كثير من الذين اندمجوا فــي تلك الدعايات من رجال الادب والفكر والعلم ان اخذوا يتراجعون عنها ويعودون الى وعي حقيقة عروبة مصر الى ان غدا الشعور بالذاتيــة العربية القومية شاملا مهما بدا من شذوذ الشعوبيين وانتهازهم الفرص

احيانا للتعكير والتشويش • وقد دعم هذا دعما حاسما تبني الحكومات التي تعاقبت على الدست منذ سنة ١٩٣٦ ـ ١٣٥٦ والاحزاب السياسية للفكرة العربية واهدافها والاندماج فيها وفي القضايا العربية المختلفة ، وغدوذلك من اساس سياسة الدولة ، وكان من آثار ذلك البارزة تزعم مصر لمشاورات الوحدة العربية في سنة ١٩٤٣ م ـ ١٣٦٣ هـ واندماجها في نظام الجامعة العربية التي قامت على اساس الفكرة القومية العربية الشاملة لجميع البلاد العربية والتشارك الجامع بين مصر وهذه البلاد قوميا وجنسيا وتاريخيا وروحيا • وظل الوعي والتجاوب يقويان حتى اذ اقام الضباط الاحرار بقيادة البطل العربي العظيم جمال عبد الناصر بثورتهم وقضوا على الملكية واسقطوا الاسرة التركية عن الحكم وخضدوا شوكتها وشوكة الاقطاعيين ورجال السياسة القدماء الذين كان كثير منهم من العنصر التركي ووطدوا السيادة العربية ثم اجلوا القوات الانكليزية وحرروا مصر من القيود التي كانت تربطها بعجلة الانكليز وصل الامر الى ذروته فوعت مصر حقيقتها العربية وعيا قويا شاملا تمثل في ما اخذ شعبها يردده في مختلف المناسبات من هتاف بالعروبة وامجادها وفيما نص عليه الدستور المصري بان مصر جزء من بلاد العرب وبان المصريين جزء من الامة العربية وفيما صار يقع من تجاوب قوي مع دعوة الوحدة العربية وفيما تم في النهاية من وحدة مصر وسورية وانبثق عنه الجمهورية العربية المتحدة التي كان شعارها المتميز القوي هو القومية العربية وفي تبوء جمال عبد الناصر مركز القيادة العليا لحركة القومية العربيةواشادته بها ودفاعه عنها بكل حرارة وايمان جعل جميع العرب في كل بلد عربي يرون فيه بطلهم القومي العظيم ويبايعونه بالقيادة ، وكان لهذا كله الاثر القوي في المصريين على اختلاف فئاتهم فاشتد وعيهم لحقيقة عروبتهم واندماجهم فيها وهتافهم لها •

استطراد الى ذكر العرب والعروبة

في اثيوبيا اليوم

تمهيـــد

ان اسم اثيوبية الذي تتسمى به اليوم المملكة الحبشية كـان يطلق على جميع شطر وادي النيل الجنوبي ، وكان يشمل بلاد الحبشة الحاضرة • ولقد كانت بلاد الحبشة اليوم مباءة الموجات العربية مـن جزيرة العرب منذ اقدم الازمنة كما كان ذلك شأن بقية اثيوبية [1] • وقد ظلت كذلك بعد الاسلام في دور العروبة الصريحة حيث كان يتسرب اليها جماعات صريحة العروبة من جنوبي الجزيرة من حين الى حـين وتستقر فيها ويكون لها فيها مآثر سياسية ودينية وقومية • وقد رأينا ان نستطرد الى الكلام عن العرب والعروبة في بلاد الحبشة ولو لم تكن الآن في نطاق البلاد العربية من حيث الوضع السياسي لان في ذلك تتمة للكلام عن العرب والعروبة في قسم من اقسام وادي النيـل الجنوبي •

وللمقريزي رسالة عنوانها (الالمام باخبار من في ارض الحبشة من ملوك واسلام) فيها اشياء كثيرة عن مركز العرب ونشاطهم ومآثرهم في بلاد الحبشة الى اواسط القرن التاسع الهجري • وفي الجزء الخامس من صبح الاعشى ثم في رسالة لاحمد الحفني القنائي عنوانها خـلاصة الكلام في تاريخ الحبش في الجاهلية والاسلام • وفي كتاب آخر للمؤلف نفسه عنوانه الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان اشياء كثيرة اخرى عن ذلك ، وسيكون على هذه المصادر معولنا في هذا الاستطراد •

---

(١) في الجزء الثاني من كتابنا تاريخ الجنس العربي بحث عن تسرب القبائل العربية في دور العروبة غير الصريحة الى هذه البلاد ايضا • (اقرأ ص ٣٣٨ وما بعدها) •

صور متنوعة عن وجود العرب ونشاطهم
مقتبسة من رسالة المقريزي

— ١ —

ويستفاد من رسالة المقريزي ان الحبشة في القرن التاسع [١] كانت مقسومة الى اثني عشر اقليما وهي مفازة وسحبرت وامحرا وشادا وداموت ولامنان وسهنو والزنج وعدل والامراء وحماسا وباريا وزيلع التي كانت تسمى ايضا بطراز الاسلام . وانه كان على كل اقليم ملك وعلى الجميع ملك ملوك يسمى الخطي [٢] وكانت عاصمته أسمرة ، وان الملوك كانوا مستقلين استقلالا داخليا ويؤدون مالا سنويا للخطي ، وان كل اقليم كان مقسوما الى مقاطعات ، على رأس الحكم فيها امراء أو رؤوس في نطاق سلطان ملك الاقليم ، وان اقليم زيلع او طراز الاسلام كان من اعظم الاقاليم ، وان معظم سكانه كانوا مسلمين سنيين ، وانه كان مقسوما الى سبع مقاطعات او امارات وهي : اوفات واورو وهدية وشرحا وبالي وداره ومصوع ، وان لغة سكان هذا الاقليم هي العربية ، وان مدينة اوفات هي مركز الملك ، وان هذا الملك في ارومة عربية قرشية يقال انها من بني عبد الدار كما يقال انها من ذرية عقيل بن ابي طالب ، وقد نزلت حين قدومها في جبرت ثم استوطنت مدينة اوفات ولم تلبث ان فرضت نفسها في مجال الزعامة والوجاهة ثم في مجال الحكم والسلطان ، حيث برز منها زعيم اسمه عمر الذي كان يقال له لشمع فولاه الخطي مدينة اوفات واعمالها

---

(١) ص ٢ — ٩

(٢) ضبطها القلقشندي في صبح الاعشى هكذا انظر ج ٥ ص ٣٣٣

فحكم مدة طويلة وصارت له بها شوكة قوية وشكرت سيرته . وخلف اربعة اولاد او خمسة ـ والكلام للمقريزي ـ فتولوا الحكم من بعده واحد بعد آخر عرف منهم بزو وحق الدين الاول . ثم تولى اولادهم من بعدهم عرف منهم صبر الدين محمد بن نحوي بن منصور بن عمر لشمع الذي ملك في حدود سنة سبعمائة هجرية .

والكلام يفيد ان هذه الاسرة العربية قد برزت في مجال الحكم والسلطان في القرن السادس على الاقل .

ويستمر المقريزي على سياقه فيقول (١) ان صبر الدين حكم مدة طويلة فلما مات تولى الحكم بعده ابنه علي . وقد اشتهر هذا الملك وحدثته نفسه بالخروج عن طاعة الخطي ولكن اهل البادية لم توافقه بل خالفت عليه . وقد عزله الخطي وقبض عليه وعين مكانه ابنا له اسمه احمد ويعرف بحرب ارعد . ثم رضي على الاب فاعاده الى ملك اوفات واستدعى ابنه الذي كان ملكا وجعله يقيم عنده مدة ثم طلب من ابيه ان يوليه عملا من اعمال جبرت ففعل وقام بعمله الى ان قتل في بعض حروب رعيته ، فقام مقامه اخ له اسمه ابو بكر .

وكان لاحمد ولد عرف بحق الدين اشتغل بطلب العلم فتعرض لنقمة جده وعمه فاخرجاه من اوفات الى عمل آخر تولى جبايته ثم احتجز ما دخل في يده من مال وجمع الناس عليه حتى قويت شوكته فثار على العامل وقتله وحل مكانه . وغضب عمه الذي كان تدبير المملكة في يده فاستنجد بالخطي فانجده بجيش قوي استطاع حق الدين ان ينتصر عليه ويغنم ما معه فازدادت قوته . واستنجد عمه بالخطي ثانية فانجده بجيش جديد استطاع حق الدين ان ينتصر عليه ايضا ويغنم ما معه ويقتل عمه هذه المرة . ثم سار الى اوفات فعجز جده عن مقاومته ودفعه عنه بالمال فذهب ونزل في ارض شوه وبنى فيها مدينة

(١) ص ٩ ـ ١٠

سماها حل واستدعى اليها اهل اوفات فتوافد كثيرون منهم اليه وسكنوا مدينته وصارت دار مملكة له وخربت اوفات وزال الملك عنها • وقد عقب المقريزي على سياقه هذا قائلا ان حق‌الدين هذا اول من خالف من اهل بيته على الخطي ملك امحرة من الحبشة الكفرة وخرج عن طاعته واول من استبد منهم بالامر وانه ظل يحارب الخطي ويأسر ويغنم منه دون ان يتمكن هذا من مقاومته وصده الى ان مات ــ الخطي سيف ارعد ــ وتولى الملك ابنه داويد فاستمر على محاربته ، وتعددت الوقائع بينه وبينه انتصر في معظمها واستشهد في أخراها التي كانت في سنة ٧٧٦ ﻫ في ارض شوه بعد ان استمر حكمه ونضاله وجهوده في نشر الاسلام عشر سنين • وكان شجاعا مقداما قوي النفس مهيبا يقاتل بالعدد القليل الاضعاف المضاعفة فينتصر عليها (١) •

وتولى الملك والنضال بعده اخوه سعد الدين ابو البركات • وسار بسيرة اخيه وكان مثله شجاعا مقدما يقاتل بالعدد القليل الاضعاف المضاعفة فينتصر عليها ، وقد امتد حكمه ثلاثين سنة وكثرت عساكره وتعددت غاراته واتسعت رقعة مملكته • ولقد احاط به العدو في احدى غاراته فادركه احد فرسانه وقاتل عنه حتى نجى •

ومن البلاد التي غزاها وفتحها بلاد زلان وزمدوه وبالي وكان يصول على الاعداء ويجول ويهزم اعدادهم الكبيرة ويقتل ويأسر ويغنم ما لا يحصى • وقد استمر على ذلك الى سنة ٨٠٥ ﻫ حيث استشهد في معركة شديدة مع عدد كبير من رجاله (٢) •

ولقد ادى قتل سعد الدين الى ضعف المسلمين وتمكن الخطي اسحق من اعادة سيطرته على المملكة العربية الاسلامية واوقع بالمسلمين وديارهم ايقاعا شديدا قاسيا قتلا وتدميرا وسلبا وسبيا وامتدت محنتهم به عشرين سنة • وقد اسكن بلادهم كثيرا من النصارى وأنشأ

---

(١) ص ١١ ــ ١٣

(٢) ص ١١ ــ ١٣

لهم فيها الكنائس ودمر وخرب عددا كبيرا من المساجد • واداه غيظه من المسلمين الى ان اخذ يكاتب ملوك النصارى ويدعوهم الى القيام بحركة صليبية للقضاء على بقية المسلمين في الحبشة وغزو البلادالاسلامية الاخرى مبتدءا بمصر •

وكان اولاد الملك سعد الدين قد نزحوا الى اليمن ونزلوا على ملكها الامام الناصر احمد بن اشرف اسماعيل فاكرمهم وامدهم فاقاموا في سباره حتى فتح الله عليهم ولحق بهم عساكر ابيهم فاستأنفوا النضال بزعامة اكبرهم صبرالدين علي حتى تمكنوا من استعادة ملكهم وممارسة سلطانهم في منطقة واسعة من البلاد المعمورة بالعرب والمسلمين • وتصدى لهم ملك امحرة واخذت تقع بينهم الاشتباكات • وقد كتبت لهم الغلبة في مراحلها الاولى فاستولوا نتيجة لذلك على مكان اسمه ذكرا امحرة ثم على مكان آخر اسمه سرجان ، واثخنوا فيهم قتلا وتحريقا وتدميرا وسلبا فاخذوا بذلك ثاراتهم ، وكانوا يغنمون منهم غنائم لا تحصى • وقد حشد الاحباش حشودا عظيمة حتى تجمع لهم عشرة امراء تحت يد كل منهم عشرون الفا وزيادة تحت قيادة مقدم اسمه بخت بقل فتمكنوا بذلك من هزيمة المسلمين والسيطرة على بلادهم نحو سنة • وكان صبر الدين يفر من بلد الى بلد ثم ايده الله وقواه وسير اخا له اسمه محمد بجيش الى بلد اسمه رطوى فقاتلوا الاحباش قتالا عظيما وانتصروا عليهم وقتلوا مقدمهم وعددا من امرائه ومالايحصى من عساكره وهزموا الباقي وغنموا منهم غنائم كثيرة وملكوا البلد زمنا • ثم سار صبر الدين بنفسه وطلع الى بيت الملك وقاتل امحرة وقتل احد الامراء الكبار وحرق بيت الملك وعاد منصورا • ثم سير اخاه الى قلعة بروت ففتحها صلحا وعاد منصورا ثم سير جيشا الى بلاد لجب بقيادة امير اسمه عمرو فكانت وقعة عظيمة قاتل المسلمون فيها قتالا شديدا حتى ماتوا كلهم • ولم يفت هذا في عضد صبر الدين

حيث استمر في جهاد ونضال مع امحرة • ومات في حدود سنة ٨٢٥ هـ[١] فقام بالامر بعده اخوه منصور ، وسار في سيرة اخيه وابيه من قبل • وقد زحف على جداية وهي دار ملك الخطي وبها صهره فقاتله حتى اخذه أسيرا وقتله في عدة كبيرة • والتجأ ثلاثون الفا الى جبل يقال لـه منحا فحاصرهم فيه مدة شهرين وهو يقاتلهم كل يوم حتى كلوا وجاعوا وعطشوا فناداهم وخيرهم بين الدخول في الاسلام واللحاق بقومهم فاسلم منهم نحو عشرة آلاف وسار بقيتهم الى بلادهم • وجمع امحرة جموعهم وجاؤوا كالجراد فقاتلهم أشد قتال حتى كلت الفرسان وخيولهم وقتل عشرة من امراء المسلمين ووقع هو واخوه في قبضة الخطي اسحق ابرام بن داود بن سيف ارعد وكان ذلك سنة ٨٢٨ هـ [٢] • فقام بامر المسلمين في الحال جمال الدين اخو منصور • وقد بقي معه مـن الامراء امير اسمه حرب جوش كان من امراء الخطي فاسلم في ايام سعد الدين وصار من اكابر الامراء لقوته وشجاعته وكثرة اتباعه • وخرج علـى جمال الدين البرابر فوجه اليهم هذا الامير فعرض عليهم الصلح فأبوا فقاتلهم حتى هزمهم الله وهو في اقفيتهم حتى انقادوا لامره ودخلوا في طاعته ودفعوا اليه زكاة اموالهم وعاد مؤيدا ظافرا [٣] • والكلام قـد يفيد انهم مسلمون كانوا تحت سلطان جمال الدين واخوانه من قبل فتمردوا على ما هو المتبادر •

وبعث جمال الدين بعد ذلك هذا الامير الى بلاد بالي فلقى الامحرة في عدد عظيم لم يجتمعوا فيما مضى مثله فقاتلهم اشد قتال وانتصـر عليهم • وعاد الخطي فجمع عساكر كثيرة جدا وزحف بهم على جدايـة فسارع جمال الدين اليه وقاتله وانتصر عليه وعاد ثانية فجمع من الفرسان ما لا يحصى كثرة وكان معه مئة امير يتبع كلاً منهم جيش وعزم علـى انه لا يبقي في الحبشة مسلما فلقيه جمال الدين في خمسمائة فارس

---

(١) ص ١٤ ــ ١٥ (٢) ص ١٥

(٣) ص ١٥ ــ ١٦

واشتبك الفريقان في وقعة عظيمة قتل فيها ملك امحرة فانهزمت جموعه وركب جمال الدين اقفيتهم وهو يتبعهم ثلاثة ايام يقتل ويأسر حتى امتلأت الارض بالقتلى وحرق كثيرا من الكنائس والبيوت وسبا كثيرا من النساء والاولاد وغنم كثيرا من الاموال • وبعث بعد ذلك الامير حرب جوش الى بالي فقتل وأسر وسبا ما لا يحصى وغنم غنائم عظيمة حتى صار يعطي لكل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق ورجع غانما منصورا • ثم سار جمال بنفسه لغزو امحرة في جمع عظيم لم يتجمع لآبائه مثله فاثخن في البلاد قتلا واسرا وسبيا وغنيمة والخطي منهزم منه وهو في طلبه طيلة خمسة اشهر حتى وصل اليه ولكنه افلت منه الى رأس بحر النيل فعاد بغنائم لا تعد ولا تحصى • ثم بعث اخاه احمد والامير حرب الى دوارا فاوقعا في امحرة وقائع عديدة عديدة واسرا منهم ثلاثة امراء وغنما غنائم كثيرة وعادا اعزة منصورين •

ثم سار جمال الدين بنفسه يقتل ويأسر مسافة عشرين يوما فتفرقت امحرة في ثلاثة مواضع تريد ان تقطع الطريق عليه فعاد راجعا ولقيهم في بلاد تسمى هرجاي واشتبك معهم في وقعة عظيمة برغم تعبه الشديد • وقد انتصر في مكان وانتصر امحرة في مكان • واخذ وغنم كل منهما ما حازاه •

ومن المؤسف الاليم أن بني عم جمال الدين حسدوه وثاروا عليه وقتلوه في سنة ٨٣٥ هـ بعد حكم ونضال عظيم سبع سنين • وقد وصفه المقريزي بانه كان خير ملوك زمانه دينا ومعرفة وقوة وشجاعة ومهابة وجهادا في اعداء الله بحيث انه ملك كثيرا من بلاد الخطي واعماله ودخل جماعات من عمال الخطي وولاته في طاعته وقتل واسر من امحرة الكفرة ما لا يدخل تحت حصر حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم ـ بلاد الاناضول ـ والعراق وفارس من رقيق الحبشة الذين اسرهم وسباهم في غزواته وما زال مؤيدا من الله تعالى منصورا على اعداء الله حتى ختم له بالحسنى وكتب له

الشهادة وكان يصحب الفقهاء واهل الفقر من الصالحين وينشر العــدل في اعماله حتى في اهله وولده • ولقد اقتص من ابن صغير له ضرب صغيرا من الولدان فكسر يده برغم تضرع اعيان دولته وبرغم عفو اولياء الولد المكسورة يده ، وقد ادى ذلك الى امتناع أي كان من اهل الــدولة عن مد يده لمال احد بغير حق بل الى امتناع أي كان من ان يجني على غيره • وكان من شدة مهابته انه اذا امر بشيء او نهى عن بغي لا يتعداه احد خوفا من سطوته واتقاء لعقوبته • وكان من جليل سعادته ان الله اهلك في ايامه طاغية الكفر الخطي اسحق بن داود بن سيف ارعــد سنة ٨٣٣ هـ • ولقد قام بعده ابنه اندراواس فهلك لاربعــة اشهر من ولايته فقام بالامر عمه بناي فهلك بعد اشهر قليلة فقام سلمون ابنــه بالامر • وفي خلال هذا كانت فتوحات جمال الدين تعظم ووقــائعه العظيمة تتعدد واعماله وغنائمه واسراه وقتلاه وسباياه تزداد • وقــد اسلم على يديه عالم من امحرة لا يحصى عددهم [1] •

ولقد قام بامر المسلمين بعد جمال الدين اخوه شهاب الدين احمد بدالاي واجتهد في البحث عن قاتل اخيه حتى ظفر به وقتله • وقــد جرى على سنة اخيه في غزو امحرة وفتح من بلادهم عدة اعمال وقتل طائفة من امرائهم واحرق البلاد وغنم وقتل وأسر وسبي عالما كبــيرا بحيث كثرت الاموال من الذهب والفضة والثياب والدروع في ايــدي جماعته وحازوا من الوظائف ما لا يعد وخرب ستة كنائس وعدة قرى واسترد بالي من ايدي النصارى ورد اليها الف بيت من المسلمين • وهو يقيم بدلاي في بلاد دكر واخوه خير الدين في بلاد ركلة وســارا سيرة عادلة امنت بها الطرق وانكف الناس عن الظلم ورخصت الاسعار

(١) ص ١٦ ــ ١٩ يقول المقريزي ان هذه الاخبار تلقاها من ثقــة كان من حضور مجلس جمال الدين . وهكذا يكون ما يسوقه المقريزي مــن اخبار هــذه الارومة العربية وعظائم أعمالها وملكها من رواة احياء وكان هو معاصرا حيث ولد في اواخر القرن الثامن وتــوفــي في اواسط القرن التاسع على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

في أيامهما [1] • وهنا يقف المقريزي عن الكلام عن هذه المملكة وكلامه يفيد ان الملك شهاب الدين واخاه خير الدين كانا احياء في زمنه حينما وقف عن كلامه وذلك في اواسط القرن التاسع الهجري •

صور متنوعة مقتبسة من صبح الاعشى

— ٢ —

وفي الجزء الخامس من صبح الاعشى في سياق بحث مملكة الحبش فصل في ما بيد المسلمين من بلاد الحبشة وقال انها تسمى الطراز الاسلامي لانها على جانب البحر كالطراز وانها تسمى في مصر والشام بلاد الزيلع من ان زيلع انما هي قرية من قراها وجزيرة من جزائرها ، وانها تشتمل على سبع قواعد كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل [2] • وهي :

١ ــ اوفات : وهي مملكة عامرة آهلة بقرى متصلة • وهي اقرب اخواتها الى الديار المصرية والى السواحل اليمنية المسامتة • واوسع الممالك السبع ارضا • ودار ملكها اوفات من اكبر مدن الحبشة • ومن مضافاتها زيلع • وعسكرها (١٥٠٠٠) فارسا و ٢٠٠٠٠ راجلا •

٢ ــ دوارو : تلي مملكة اوفات بالاهمية والكبر • ودار ملكها دوارو • وعسكرها نظير عسكر اوفات •

٣ ــ ارابيبي : دار ملكها باسمها • وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس ورجالتها كثيرون للغاية •

٤ ــ هدية : صاحبها اقوى اخوانه من ملوك الممالك السبعة واكثر خيلا ورجلا واشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار اوفات • فعسكره (٤٠٠٠٠) فارس سوى الرجالة الذين ضعف الفرسان او

---

(١) ص ١٩ ــ ٢٠ (٢) ص ٣٢٤

اكثر • واسم دار ملكها هدية •

٥ ــ شرحا : واسم دار ملكها بنفس الاسم وعسكرها ٣٠٠٠ فارس وضعف ذلك من الرجالة •

٦ ــ بالي : واسم دار ملكها بنفس الاسم • وهي اكثر الممالك السبع خصبا واطيب سكنا وابرد هواء •

٧ ــ دارة : واسم دار ملكها بنفس الاسم • وهي اضعف اخواتها حالا واقلها خيلا ورجالا [1] •

وقد عقد القلقشندي بعد ذلك نبذا على احوال هذه الممالك المعاشية والزراعية والصناعية والتجارية والاجتماعية • وقال فيماقاله ان ملوك هذه الممالك يخضعون كملوك الاحباش الآخرين للخطي الذي هو السلطان الاكبر ، وان الملك اليوم فيها في بيوت محفوظة الا بالي فان ملكها ليس من بيت ملك وانما تقرب الى سلطان امحرة فولاه • وكان قبل ذلك يتولاها ملوك من اسرة بيت ملك • ولا يستقر ملك من ملوكها في الملك الا بتصديق سلطان امحرة فاذا مات منهم ملك ومن اهله رجال قصدوا جميعهم سلطان امحرا وتقربوا اليه وهو يختار واحدا منهم فيسمع الباقون له ويطيعونه • وكلهم متفقون على تعظيم صاحب اوفات ومنقادون اليه • ويؤدون لسلطان امحرا قطائع مقررة تحمل اليه في كل سنة من القماش والحرير والكتان مما يجلب اليهم من مصر واليمن والعراق ، وعزا الى صاحب مسالك الابصار الذي ينقل عنه ما نقله ان الشيخ عبد الله الزيلعي وغيره كانوا يقولون ان الملوك السبعة لو اتفقوا لقدروا على مواقعة الخطي ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة متنافسون فيما بينهم ، وقد جاء الفقيه عبد الله الزيلعي الى الابواب السلطانية بمصر يلتمس صدور كتاب من البطريرك الى سلطان امحرا بكف اذيته عمن في بلاده من المسلمين

---

(١) ص ٣٢٥ ــ ٣٢٩

فبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بذلك فكتب الى امحرا كتابا بليغا شافيا فيه انكار لذلك وتحريم له . وقد عقب القلقشندي على ما رواه عن مسالك الابصار فقال انه كتب في اوائل الدولة الظاهرية (برقوق) أي في اواخر القرن الثامن الهجري كتاب عن السلطان في معنى ذلك مع كتاب من البطريرك بمعناه [1] . وسياق القلقشندي يفيد ان ما ذكره من حالة الممالك الاسلامية السبع ممتد الى ما قبل القرن السابع الهجري كما هو المتبادر . وليس في كلامه اشارة الى عروبة اهل البلاد . ولكن هذا امر قد يكون من تحصيل الحاصل ان لم يكن بالنسبة لجميعهم فبالنسبة لجماعات كبيرة منهم أمت هذه البلاد في حقب مختلفة بعد الاسلام واستقرت فيها ونمت وقويت واثرت في اهلها القدماء الذين قد يكونون من انسال موجات جاءت الى هذه البلاد من جزيرة العرب قبل الاسلام وتمكنت من فرض نفسها واقامة ملكها وممالكها ..

ومما قاله القلقشندي ان المقر الشهابي بن فضل الله مؤلف كتاب مسالك الابصار قد اهمل عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين . منها (جزيرة دهلك) وهي جزيرة في بحر القلزم مشهورة وملكها من الحبش المسلمين وهو يداري صاحب اليمن . ومنها (مدينة عوان) وهي على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة . ومنها (مدينة مقدشو) وهي على بحر الهند مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة [2] .

ومما قاله ايضا ان الخطي ملك الحبشة النصارى قد أتى على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخربها وقتل اهلها وحرق ما بها من المصاحف واكره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية ولم يبق من ملوكها سوى ابن مسمار الذي تقابل بلاده لجزيرة دهلك تحت طاعة الخطي وله عليه اتاوة مقررة ، والسلطان سعد الدين صاحب زيلع

---

(١) ص ٣٢٩ – ٣٣٥

(٢) ص ٣٣٥ – ٣٣٦

وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع • وللسلطان سعد الدين في كثير من الاوقات النصرة عليه والغلبة (١) •

صور مقتبسة من كتاب تاريخ الاحباش للاثري

— ٣ —

وفي كتاب ليوسف احمد الاثري في تاريخ الحبشة واحوالها تسجيل لاحداث تعد امتدادا للاحداث التي ذكرها المقريزي والقلقشندي عن حالة العروبة والاسلام في بلاد الحبشة • والمستفاد منه ان المسلمين في هذه البلاد تعرضوا في مطلع القرن العاشر لغارات الاحباش وعدوانهم بزعامة ملك لهم اسمه (يكونه ملاك) فنهض العرب لدفع العدوان وحمي وطيس الحرب بينهم وبين المعتدين ، وبلغت اشدها في عهد النجاشي (لبنا دنقل) وولده (كلاديوس) من بعده في اواسط القرن المذكور ، وكادت دولة الاسلام التي تركزت في هرر تنهار سنة ٩٢٦ ﻫ لولا ان قام من العرب شاب مقدام اسمه احمد بن ابراهيم وتمكن من جمع كلمة قومه والصمود امام الاحباش وردهم ثم التوغل في بلادهم حتى انتهى الى الاقاليم الشمالية من تيجري ، وقد لقبه المسلمون بالقاب الامام والغازي وصاحب الفتح لما كان من عظيم اقدامه وباهر انتصاراته • وقد ذكر هذا المؤلف اقتباسا من كتاب اسمه فتوح الحبشة لعبد القادر الجيزاني ان المسلمين في حروبهم مع الحبشة تحت راية الامام احمد هذا اظهروا من البطولة ما يفوق الوصف ، وان هذا الامام المجاهد ظل في جهاده مع الاحباش خمس عشرة سنة ٩٣٥ـ٩٥٠ﻫ وهو يحرز عليهم في اغلب المعارك الانتصارات الباهرة الى ان استشهد سنة ٩٥٠ ﻫ ، فخلفه ابن اخته نور مجاهد في الجهاد وسلطنة هرر ، وقد انتصر على النجاشي كلاديوس وقتله في احدى المعارك ، وظل

(١) ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨ والمتبادر ان من هذه البلاد ما يعرف اليوم ببلاد الصومال التي غالبية سكانها عرب مسلمون •

كذلك الى سنة ٩٧٥ ﻫ حيث لقى ربه ولم يخلفه خليفة مثله فضعف المسلمون ، وعاد الاحباش الى العدوان عليهم ، وانتزعوا منهم مملكتي بالي وهديه .

ومما جاء في هذا الكتاب ان جهاد الامام احمد ونور مجاهد آدى الى انتشار الاسلام في هضبة الحبشة وتوغل في قلبها وشمل مناطق ديبا وكفو وقام قرب غندار مدينة اسلامية عامرة . وقد اعتنق الاسلام قسم كبير من قبائل غالا ، وقد استولى هؤلاء سنة ١١٩٥ ﻫ على ايجو وقسم من احمرة وبلغ من شأنهم ان احد ملوكهم (علـي) استطاع ان يفرض سلطانه على جميع الاحباش وان يغدو نجاشيا .

ومما جاء فيه كذلك ان الاسلام فشا في القرن الثالث عشر الهجري في سلطنة جما حتى غدت سلطنة اسلامية على رأسها سلطان اسمه محمود بن داود الذي عرف بلقب ابا جفار وهو من القاب البطولة عند قبائل الغالا .

ومع ان منليك ملك الحبشة استطاع ان يبسط سلطانه على هذه السلطنة سنة ١٢٩٨ ﻫ فانها احتفظت لمدة من الزمن باستقلالها الذاتي واحتفظت اسرة ابا جفار برئاستها فيها . وكانت هذه السلطنة الاسلامية الباقية في المملكة الحبشية ، فغدت الملجأ لكثير من مسلمي بلاد الحبشة ، ثم ضيق هيلاسلاسي نجاشي الحبشة الخناق عليها حتى قضى على استقلالها وضمها الى سلطانه المباشر .

صور مقتبسة من الجواهر الحسان

— ٤ —

ولقد احتوى كتاب الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان المطبوع سنة ١٣٢١ ﻫ اشياء كثيرة عن غابر بلاد الحبشة وحاضرها . ومما

ذكره [1] ان الدولة العثمانية استولت سنة ٩٦٥ هـ ــ ١٥٥٧ م على اقاليم سواكن ومصوع وزيلع وهرر وغيرها من اقاليم سواحل البحر الاحمر الغربي وما جاورها من البلاد ــ وهي الاقاليم الاسلامية التي كان يقوم فيها ممالك وملوك مسلمون على ما سبق ذكره ــ واجتهدت في توطيد حكومتها بنفسها مباشرة فصادفت في ذلك بعض الصعاب فعينت شيخ قبيلة بلاو التي هي احدى قبائل الحباب حاكما بالنيابة وجعلته تابعا لولاية الحجاز • وتوارث اعقاب هذا الشيخ العربي حكم هذه البلاد تحت سيادة الدولة العثمانية الى سنة ١٨٧٥ م ــ ١٢٩١ هـ وكان آخرهم السلطان محمد عبد الشكور وكان قاسيا فاستنجد الاهالي بخديوي مصر اسماعيل فسعى لدى الدولة العثمانية حتى حصل على موافقتها بالتنازل عنها لقاء زيادة معينة على الجزية التي يؤديها للدولة ، وحينئذ ارسل حملة استطاعت بعد مقاومة خفيفة من بعض قباءل الجلاء الاستيلاء عليها وتوطيد الحكم الخديوي عليها • وعادت قبائل الجلا الى الانتقاض وكانت صاحبة الصولة والسطوة في عهد انسلطان محمد عبد الشكور واستمد رؤوف باشا قائد الحملة من اسماعيل فارسل اليه مددا فتمكن من اخضاعها ، وعين اسماعيل رؤوف باشا حاكما عاما وعين محمد عبد الشكور محافظا لمدينة هرر • وبعد قليل تنكر رؤوف لمحمد عبد الشكور وقتله دون سبب معروف ومبرر وذهب ابن الامير شاكيا الى اسماعيل فغضب ولكنه لم يفعل شيئا • وهكذا انتهى الحكم العربي في هذه المنطقة وقام الحكم الخديوي وظل الى سنة ١٨٨٥ م حيث اشتدت حركة المهدي ونجحت في انحاء السودان وامتدت الى هذه المنطقة مما جعل السلطات والقوات الخديوية مضطرة الى الجلاء عنها وحينئذ تسلم حكمها امير من سلالة الامراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصري • وما لبث ملك الحبشة ان أغار

---

(١) ص ١٧

عليها واخذها عنوة وضمها الى املاكه وما زالت تـابعة لها الى اليوم •

ولقد طمح الخديوي اسماعيل الى فرض سلطانه على المزيد من بلاد الحبشة فسير حملة سنة ١٨٧٥ م وصلت الى بحيرة موتان واحتلت الثغور الساحلية الباقية مع جنوبي هرر والصومال واخـذت تحدق بالهضاب الحبشية • فتصدى لها الاحباش واوقفوها عـن التقـدم فامدها اسماعيل بقوة ولكنها لم تستطع ان تتقدم • فانحصر سلطان الخديوي في بربرة وبولها وغيرها من الصومال الجنوبي وظلت في نطاق الحكم الخديوي الى ان نجحت الحركة المهدية واضطرت الحكومـة الخديوية بالاتفاق مع الانكليز الى التخلي عنها على النحو الذي شرحناه في سيرة المهدي •

ولقد اثارت حملات اسماعيل النجاشي يوحنا فعمد الى اضطهاد المسلمين والعرب في بلاده فكانت محنة عظيمة اعادت ذكرى محنتهم في عهد النجاشي اسحق • فلما تولى التعايشي خلافة المهدي ارسل الى يوحنا كتابا يدعوه الى اسلام ويندد « ببغيه البليغ على المسلمين الكرة بعد الكرة بالقتل والاسر والنهب والضر وايوائه المرتدين عن الاسلام » وينذره بالزحف عليه اذا له يكف ويرعو ويهتدي بهدي الاسلام ولـم يرعو يوحنا ولم يجب فادى ذلك الى زحف الجيوش الاسلامية واثخانها في نصارى الاحباش وبلادهم وقتل يوحنا في احدي المعارك على ماشرحناه في سيرة المهدي • وقد اتصل منليك الذي خلف يوحنا على عرش الحبشة بالتعايشي وجرت مفاوضات أدت الى انعقاد الصلح ، سنة ١٨٩٦ م ــ ١٣١٦ هـ واعلن منليك الحرية الدينية في الوقت نفسه فانتهت محنـة المسلمين في بلاد الحبشة [1] •

ولقد ذكر مؤلف الجواهر الحسان في صدد حاضر الحبشة واحوالها

---

(١) انظر ايضا تاريخ السودان لنعوم شقير ج ٤ ص ٤٦٥ ــ ٤٨٧ وعصر اسمـاعيـل لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ١٣٩ ــ ١٥٧

فيما ذكره [١] ان عدد المسلمين في هذه البلاد يبلغ نحو ثلاثة ملايين ونصف وان البلاد منقسمة الى اربعة اقسام يكاد كل منها يكون مملكة مستقلة اولها اقليم تجري وعاصمته عدوة وفيه عدة اقاليم جميع اهلها مسلمون وهي اقاليم عقبطلي وارا وعزبو اطبي وقلعرتا وحماسين واجرا وانباسيني وطمري ورعي وتنبين وقجت فضلا عن مشاركة المسلمين في اقاليم هذا القسم الاخرى للمسيحيين • وفي هذا الاقليم عدد عظيم من الاشراف الحضرموتيين المشهورين بالسادة العلوية والاشراف الفاطميين والعباسيين والعقيليين المحفوظ نسبهم بمدينة تنبين • وثانيها امحرة وعاصمته اديس ابابا وفيه اقاليم عديدة جميع اهلها مسلمون وهي الرهمنو وعرقبا وداوي ولو وفيه اقاليم عديدة اغلب اهلها مسلمون وهي اجو وايفات فضلا عن مشاركة المسلمين للنصارى في اقاليمه الاخرى • وثالثهما جالا وعاصمته جما باجفار واقاليمه مزيجة من المسلمين والوثنيين والمسيحيين • ورابعها زيلع وعاصمتها ايفات ومعظم بل جميع اقاليمها مسكونة بالمسلمين وهي دوارو وارابيني وهدية وشرحا وبالي وداره وفات ومصوع والسومال وهرر وناصع ودهلك • وكان في معظم هذه الاقاليم ممالك وملوك عرب مسلمون على ما نقلناه قبل عن المقريزي •

ولقد ذكر مؤلف الكتاب [٢] اسماء كثير من قبائل بلاد الحبشة بينها عدد غير قليل صريحة العروبة مثل قبائل مرعي التي تسكن الاقليم الجبلي المحدود شمالا بمجرى نهر عين سبا وبعضها من نسل اعمام النبي ، وقبائل الحباب التي تسكن الهضاب الجبلية التي يحدها شرقا شطوط البحر الاحمر وقبائل النبت اب التي تسكن الساحل وقبائل بني عامر التي تسكن شمال وغرب وشرق قبائل الحباب وقبائل الهدندوة والشايقية التي تسكن الاقاليم المتوسطة •

---

(١) ص ث ـ خ ـ ١ ـ ٢

(٢) ص ٣ ـ ٥

الفصل الثاني

سيرة العرب والعروبة في الاقطار
المغربية العربية

اي

المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبية

تمهيد

كما كان للجنس العربي في وادي النيل جذور عميقة ترجع الى امد طويل قبل الاسلام في دور العروبة غير الصريحة فقد كان له مثل ذلك في الاقطار المغربية في شمال افريقية •

وبقطع النظر عن الاحتمالات التي يذكرها الباحثين عن كون معظم سكان هذه الاقطار القدماء الذين عرف بعضهم باسم البربر وبعضهم باسم اللوبيين يمتون الى جزيرة العرب[1] حيث تسرب اجدادهم اليها عن طريق وادي النيل في ظروف ماقبل التاريخ في سياق انسياح موجات الجزيرة الى هذا الوادي مما لا يمكن القطع به فهناك حقيقة تاريخية تتمثل في الجماعات الكنعانية التي عرفت بالفينيقيين والتي أخذت تطرأ على هذه البلاد من سواحل بلاد الشام في الالف الثاني قبل الميلاد وتنشيء فيها مئات المراكز التجارية والملاحية ، ثم في دولة قرطاجنة التي أقامها فريق من هذه الجماعات في الاقليم التونسي في الالف الاول قبل المسيح والتي بلغت شأنا عظيما في النشاط التجاري والملاحي والحربي ساعدها على التحكم في البحر الابيض وعلى الامتداد الى اسبانيا وايطالية وعلى غزو روما حتى كادت تقضي عليها • حيث يتفق معظم الباحثين على ان هذه الجماعات الكنعانية الفينيقية انما أتت الى بلاد الشام من جزيرة العرب عن طريق سواحل الخليج العربي [2] •

---

(١) قال هذا دائرة المعارف الافرنسية على ما جاء في كتاب القومية العربية تأليف مصطفى الشهابي ص ٣٠ انظر أيضا تاريخ الجزائر لاحمد توفيق المدني ص ٥ ـ ٦و١٠٢ـ١٠٥

(٢) انظر تاريخ مصر من اقدم العصور لبريستيد تعريب حسن كمال ص ١٧٠ ـ ١٧٢ وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفليب حتي تعريب حداد ص ٦٦ ـ ٨٨ وكتاب لبنان ص ١٨١ وتاريخ اللغات السامية لاسرائيل

أما بعد الاسلام فطابع العروبة الصريحة قد شمل هذه الاقطار نتيجة لتدفق الجيوش والقبائل العربية الصريحة عليها وقيام سلطان عربي في مختلف انحائها وفي مختلف ادوار حقبة التاريخ الاسلامي الممتدة الى اليوم •

وبالاضافة الى هذا فان التغلب التركي قد امتد الى ثلاثة اقطار من الاقطار المغربية الاربعة اي الجزائر وتونس وليبية في القرن العاشر الهجري وقام نتيجة لذلك حكم ذاتي برئاسة عناصر تركية فيها وقد امتد هذا في الجزائر ثلاثة قرون وفي تونس خمسة قرون وفي ليبية اربعة قرون وتطور في ليبية فصار في الاخير حكما تركيا مباشرا •

فتسجيل سيرة العرب والعروبة في هذه الحقبة متسق كما هو واضح مع منهج الكتاب • وسوف يكون هذا التسجيل موضوع هذا الفصل •

وقد رأينا اتماما للفائدة ان يكون التفصيل شاملا لجميع الاقطار الاربعة أولا ولجميع حقبة التاريخ الاسلامي ثانيا •

ولنفتسون ص ٥٤ وتاريخ سورية للدبس مجلد ١ ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها وتاريخ سورية لجرجي يني ص ١٣ وما بعدها .

حركة الفتح الاسلامي الاولى
وصورهـا المتنوعـة

— ١ —

ان حركة الفتح الاسلامي في الاتجاه نحو بلاد المغرب قد بـدأت عقب فتح الاسكندرية عام ٢٢ هـ حيث سار عمرو بن العاص فاتح مصـر على رأس جيشه حتى بلغ برقة ففتحها بغير جهد كبير وصالح أهلها على الجزية ثم سار نحو طرابلس وكان فيها حصن قوي وحامية رومية كبيرة ولكنه تمكن من الاستيلاء عليها واجلاء الروم عنها . وأراد أن يتقـدم نحو اقليم تونس الذي كان يسميه العرب افريقية فاستأذن الخليفـة عمر بن الخطاب قائلا له ان بيني وبينها تسعة ايام ولكن الخليفة لم يوافق تحسبا من عواقب الانتشار والتغلغل قبل التوطد . وكانت هذه سياسة الخليفة العظيم . وقد سير عمرو مع ذلك عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة بصلح فغدا ما بين برقة وزويلة سلما للمسلمين (١) .

فلما كانت خلافة عثمان تقدم والي مصر عبد الله بن سعد نحو تونس بامر من الخليفة أو أذنه وجرت بينه وبين الروم الذين تضامن معهم البربر تضامنا قويا اشتباكات عنيفة . غير ان المسلمين استبسلوا فـي القتال حتى كتب لهم النصر وهزموا الروم وأخضعوا البربر وصالحوهم على الجزية ثم أخذ عبد الله يبث السرايا الى اطراف البلاد (٢) .

---

(١) و (٢) البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذارى المراكشي ج ١ ص ٢ – ٩ طبع ليدن سنة ١٨٤٨ وفتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٤ – ٢٣٠ طبعة ليدن ايضا سنة ١٨٦٦ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٨ – ٣٧٠ طبعة سنة ١٣٥٥ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٧ و ٣١٢ – ٣١٥ طبعة سنة ١٣٥٧

ولم ينفض الروم يدهم فارسلوا حملة قوية الى السواحل واثاروا البربر وجعلوهم ينقضون صلحهم مع العرب فسار عبد الله بن سرح ثانية بعد ان استمد من الخليفة فأمده بمدد فيه كثير من رجالات قريش البارزين واستطاع ان يهزم الروم ويخضع البربر ويوطد السلطان العربي للمرة الثانية على الاقليم التونسي . وقد بلغ المسلمون في هذه المرحلة مدينة قفصة وفتحوا حصنا قالوا ان اسمه الاجم [1] .

وبعد قليل سير الخليفة عثمان حملة جديدة لفتح الاندلس لان القسطنطينية انما تفتح من قبلها ـ وهذا كلام الخليفة على ما رواه المؤرخون ـ وسارت الحملة ونجحت في بسط السلطان العربي على قسم من بلاد الاندلس بمقدار افريقية [2] .

والسياق يفيد ان البلاد التي تقدمت نحوها الحملة هي اقليم الجزائر . وتسمية الاندلس لهذا الاقليم اذا صحت عن الخليفة قد تكون تسمية واقعية . فهذه التسمية آتية من اسم القبائل الجرمانية التي انساحت الى جنوب اسبانيا وانساح جماعة منها الى شمال افريقية وهي قبائل الواندال . حيث يحتمل ان يكون الاسم قد اطلق على المناطق التي حلت فيها هذه القبائل .

ومما رواه المؤرخون في سياق خبر هذه الحملة انه كان للبربر ملك اسمه جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة فجمع مئة وعشرين الف مقاتل وخرج للقاء المسلمين الذين ساروا على يوم وليلة من سبيطلة دار ملكه فدعوه الى الاسلام أو الجزية فأبى وأخذ يشتبك معهم ، واعلن بين قومه من قتل قائد المسلمين فله مئة الف دينار مع ابنته زوجة له فاشار عبد الله بن الزبير الذي كان في جملة من بعثهم عثمان من رجالات العرب على عبد الله بن سعد بان ينادي من قتل جرجيرا فله مئة الف دينار مع

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠

(٢) الطبري ج ٣ ص ٣١٤

ابنة جرجير وحكم البلاد ففعل واشتد الاشتباك بين الطرفين واستطاع ابن الزبير ان يقتل جرجيرا فنفله عبد الله ابن سعد ابنته وكان صلح البلاد على الفي الف وخمسائة الف دينار (١) .

ومما ذكره ابن عذارى المراكشي انه اصاب الروم رعب شديد فلجأوا الى الحصون والمعاقل ثم طلبوا من عبد الله بن سعد ان يقبل منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم ويكون ما أصابه العرب قبل الصلح لهم فقبل منهم وقبض قناطير الذهب التي أدوها وان حصة الفارس العربي من الغنائم بلغت ثلاثة آلاف دينار وحصة الراجل الف دينار (٢) .

ولما انشغل المسلمون في الفتنة التي ثارت في أواخر خلافة عثمان وامتدت طيلة خلافة علي اغتنم الروم الفرصة وحركوا البربر وتضامنوا معهم ضد الحاميات العربية وطردوا الملك الذي ولاه عبد الله بن سعد مكان جرجير . فلما اجتمع الناس على معاوية امر واليه على مصر معاوية بن خديج الكندي بالزحف على افريقية فسار على رأس حملة استطاعت ان تهزم الروم وتخضع البربر وتوطد سلطان العرب للمرة الثانية . وكان ذلك في سنة ٥٠ للهجرة في رواية و ٤٧ للهجرة في اخرى (٣) .

وقد تولى عقبة بن نافع ولاية البلاد المفتوحة بعد ذلك فاخذ ينشط في سبيل توسيع رقعة السلطا نالعربي والدعوة الاسلامية واستطاع ان يسجل نجاحا عظيما في المجالين من جملة ذلك خضوع قبائل لواتة ومراته وفتح غدامس وودان ونواحيهما . وقد أنشأ في هذه المرحلة مدينة القيروان على الساحل التونسي لتكون له مركزا ومعصما . ولقد عزل معاوية عقبة بعد سنة ٥٠ هـ وعين واليا اسمه ابو المهاجر فنشط

---

(١) البيان ج ١ ص ٤ – ٩ وابن خلدون ج ٢ ص ٣٦٨ – ٣٧٠ والطبري ج ٣ ص ٣١٢ – ٣١٤

(٢) ص ٧

(٣) البيان ج ١ ص ٩ – ١١ والطبري ج ٣ ص ١٧٢

بعض النشـاط وتمكن من الاستيلاء علـى بعض مناطق اقليم الجزائر وتلمسان • ثم اعاد يزيد بن معاوية عقبة الى الحكم عندما تولى الملك بعد ابيه فاخذ ينشط نشاطا عظيما ويسجل انتصارات كبيرة على الروم والبربر معا حتى لقد بلغ بلاد الزاب والسوس الادنى والاقصى وطرق باب طنجة ووقف امام البحر الاطلسي الذي كان يسميه العرب بحـر الظلمات يهتف قائلا « رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا في سبيلك » على ما رواه الراوون • وهال الروم هذا النشاط فبذلوا جهودهم مـع البربر واستطاعوا اغراء قصيلة زعيم بربر اوروبا والبرانس الذي كان أسلم مع جماعاته وانضموا الى عقبة في حركته الجهادية على الارتداد عن الاسلام والغدر بعقبة ففعل واستولى على القيروان ولما عاد عقبة من بعض رحلاته اشتبك معه في قتال عنيف فاستشهد فيه وقتل عدد كبير من جيشه فكانت كارثة عظمى كادت تذهب بجهود العرب التي بذلوها في هذه الاصقاع [1] •

وقد شغل العرب في هذه الظروف بحركة الحسين بن علي وعبدالله ابن الزبير فيسر هذا لقصيلة الاستمرار على حركته والتبسط في فرض سلطانه وتصفية فتوحات العرب •

وفي سنة ٦٩ هـ سير عبد الملك بن مروان زهيرا بن قيس البلوي لقمع حركة قصيلة وتوطيد السلطان العربي على بلاد المغرب كما كان • وقد اشتبك مع قصيلة وجماعاته من البربر ومع الروم الـذين كانوا تحالفوا مع البربر اشتباكات عنيفة وانتصر عليهم في النهاية وتتبع قصيلة حتى ظفر به وقتله واسترد القيروان • وسارع الروم الى قطـع خط الرجعة على زهير والعرب فاخرجوا الى سواحل برقة جندا كثيفا فسار زهير الى لقائهم ولكنهم تكاثروا عليه واستطاعوا ان يقتلوه وعـددا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٠ – ١١ و ج ٦ ص ١٤٥ – ١٤٧ وتاريخ من الامم الاسلامية للخضري ج ٢ طبعة ثانية ص ٢٤٠ – ٢٤١ والطبري ج ٤ ص ١٧٨

كبيرا من اشراف قريش الذين كانوا في جيشه (١) .

ولما بلغ الخبر عبد الملك امر حسان بن النعمان الغساني واليه في مصر بالزحف بقوة كبيرة لتلافي الامر فسارع الى تنفيذ الامر وقاد حملة عظيمة لم يدخل المسلمون افريقية بمثلها . وكان اول بلد زحف عليها قرطاجنة التي قيل له انها دار ملك افريقية وكان بها من الروم خلق لا يحصى فخرجوا اليه فقاتلهم وانتصر عليهم واستولى على المدينة ودمرها ثم زحف على منطقة صطفوره التي تجمع فيها الروم والبربر فقاتلهم وانتصر عليهم ايضا ثم علم بامر ملكة قيل له انها اعظم ملوك البربر في جبال اوراس تعرف بالكاهنة يطيعها البربر ويخافها الروم فزحف عليها واخذ يشتبك معها في معارك عنيفة لم يقع مثلها . ولقد انتصرت في الجولات الاولى فاثخنت في العرب قتلا واسرا وهزمتهم وتقهقر حسان بمن نجا من جيشه الى حدود برقة وكتب بالحال للخليفة عبدالملك فأمده بمدد عظيم فقاده واستأنف نشاطه واخذ يشتبك مع البربر والروم المتحالفين معهم حتى انتصر عليهم في النهاية وقتل الكاهنة واجلا الروم وأوغل في البلاد حتى لم يدع موطأ لم يطأه حتى ساحل البحر الاطلسي .

ومما رواه ابن عذارى الذي ننقل عنه هذا السياق ان الكاهنة لما رأت حسانا يقوى ويعود الى النضال أمرت بقطع الاشجار وتدمير الحصون والمدن والقرى وتخريب الطرق لتعسير حركة الزحف العربي وتموينها . غير ان ذلك لم يمنع حسانا من مواصلة الزحف والاشتباك مع قوات الكاهنة واحراز الانتصارات عليها وان الكاهنة حينئذ استشعرت بالخطر وقالت لولدين لها انها رأت في المنام رأسها مقطوعا وموضوعا بين يدي ملك العرب وانها مقتولة لا محالة ووصتهما ان هي قتلت بان يستأمنا لحسان ويدخلا في دينه وطاعته . فلما قتلت نفذا وصية والدتهما فجاءا الى حسان وعرضا عليه الطاعة وشرط عليهما ان يعطوه من قبائلهم

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ١٨ — ٢٠

اثنى عشر الفا يجاهدون مع العرب فاجابوه واسلموا على يديه فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب لتعقب الروم والبربر الذين ظلوا معهم حتى تم اجلاء الاولين واخضاع الآخرين. واستقامت بلاد افريقية لحسان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية ومن أقام معهم على دين النصرانية واقام بعد ذلك لا يغزو احدا ولا ينازعه احد (١) . على ان البربر عادوا الى الانتقاض والتمرد حينما عزل حسان عن الولاية وحل محله فيها موسى بن نصير غير ان موسى كان بدوره قويا حازما فجد في الامر حتى تمكن من الايقاع بالمتمردين وقمع الفتن وتوطيد النظام والسلطان العربي توطيدا حاسما (٢) . ومما ذكره ابن عذارى في سياق ذلك ان موسى فتح زغوان وسباها ثم فتح سجومة وقتل ملوكها ثم غزا هواره وزناته وكتامة واثخن فيهم قتلا وسبيا حتى لقد خمس السبي ستين الفا وبلغ السوس الادنى وان البربر لما رأوا ما نزل بهم استأمنوا واطاعوا واعطوه رهائن على الطاعة وكانت قبائل المصامدة في جملة من استأمن وخضع واعطى الرهائن وانه عين مولاه طارقا على طنجة وما والاها وانزل فيها رهائن البربر وكان عددهم ١٢٠٠٠ وانزل معهم من العرب ١٧٠٠٠ وأمر هؤلاء ان يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين .

ونتيجة لذلك اخذ نطاق الاسلام بين البربر الذين بدأوا يقبلون على اعتناقه منذ الفتح الاول تحت رايتي عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد يتسع حتى شملهم في النهاية جميعا كما أخذت اللغة العربية والطابع العربي طريقهما الى التوطد والانتشار ووسم هذه البلاد واهلها بسمتهما ، وكان للدين الاسلامي وكتابه المقدس من جهة وما كان يقوم من سلطان عربي في بلاد المغرب من جهة ، وما كان وظل يتدفق عليها من قبائل عربية فتنتشر في مختلف ارجائها وتتمازج مع البربر وتمزجهم فيها من جهة اثر قوي في كل ذلك مما سوف نفصله في المباحث التالية .

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٢٠ — ٢٣ وفتوح البلدان ص ٢٢٦ — ٢٣٠

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٣ — ٢٧

— ٢ —

الطابع العربي الاسلامي كان الطابع
الغالب لجميع حركات ونشاط
العناصر البربرية

— ١ —

ونرى قبل ان ندخل في تفصيل ما تقدم ان ننبه على أمر هام وهو اذا كان حقا قد قام كثير من العناصر البربرية بعد ولايــة موسى بن نصير بحركات تمردية ضد السلطات العربية ونشط كثير من العناصــر البربرية فتمكنوا من انشاء دول وامارات عديدة في مختلف انحاء بلاد المغرب مارست السلطان بسيادة تامة تارة وباستقلال محلي تارة فــان من الحق ان يقال ان كل هــذا انما كان يجري في ظــل الاســلام والعروبة ونطاقها •

فلقد غدا الدين الاسلامي دين البربر الغالب منــذ عهــد مبكر فتأثروا بتعاليمه واحكامه واندمجوا في ما قام في نطاقه من دعوات وحركات ودول حتى صار ذلك طابعا لكل ما قاموا به من حركات واقاموه من دول وامارات كجزء منه متفاعل فيه •

فثورتهم على الوالي يزيد بن ابي مسلم في خلافة يزيد بن عبدالملك ــ وهي اولى ثوراتهم بعد ولاية موسى بن نصير ــ كانت بسبب سوء سيرة الوالي حيث روي انهم كتبوا للخليفة انهم لم يتمردوا على دولتــه وانما ثاروا على واليه وقتلوه لانه سامهم ما لا يرضى بهالله ورسوله [١]•

---

(١) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨ والاستقصاء ج ١ ص ٤٧

وثوراتهم بعد ذلك في بقية عهد الدولة الاموية واوائل عهد الدولة العباسية بقيادة ميسرة المظفري المدغوري وعاصم بن جميل وخالد الزناتي وطريف البرغواطي وابي قرة اليفرني وابي زرجونة الورمجومي كانت متأثرة بالحركة الخارجية الاباضية والصفرية التي نشأت واحتدمت في هذا الظرف في المشرق ايضا حتى لقد كان يندمج فيها عناصر اصيلة العروبة ايضا (١) .

وكانت مناصرتهم لعبد الرحمن الاموي المعروف بالداخل الذي قامت على يده الدولة الاموية الاندلسية عام ١٣٢ هـ وتأييدهم له مظهرا من مظاهر استجاباتهم للدعوات السياسية في نطاق النشاط والطابع العربي الاسلامي . ومثل هذا يقال في صدد مناصرتهم لادريس العلوي وتأييدهم له حتى اقام دولته في سنة (١٧٠ هـ) في المغرب الاقصى ، وفي صدد مناصرتهم للدعوة الفاطمية حتى قامت الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٨ هـ في المغرب الاوسط .

وكانت اولى حركاتهم التي أدت الى قيام اولى دولة مستقلة نهم وهي الدولة الواسولية متأثرة بالدعوة الخارجية الاباضية المشرقية الاصل ، ومثلها ثانية حركاتهم ودولهم وهي الدولة الرستمية حتى لقد روى ان اباضيي البصرة ارسلوا وفدا الى زعيم هذه الدولة يهنئونه بالامامة ويحملون له اموالا طائلة لتقوية دولته . وكانت ثالثة دولهم وهي دولة ابي العافية المكناسي واولاده في فاس في نطاق سيادة الدولة الفاطمية اولا ثم صارت موضوع تنافس وتسابق طريف بين الامويين والفاطميين . ومثلها رابعة دولهم المغراوية الزناتية في فاس . وكانت الدولة اليفرنية التي قامت في تلمسان متأثرة بالاباضية من جهة وخاضعة للدولة الاموية الاندلسية حينا وللدولة الفاطمية حينا من جهة اخرى . وكانت دول بني خرزون في سجلماسه وتلمسان

---

(١) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٨ ـ ١٩٥ والاستقصاء ج ١ ص ٤٧ ـ ٦٠

خاضعة للدولة الاموية ثم للدولة الفاطمية كما كانت دولتهم في طرابلس الغرب خاضعة للدولة العباسية • وكانت دولة المرابطين حركة دينية تبشيرية جهادية في بدء امرها وظلت كذلك وتسمى ملوكها باسم امير المسلمين وكان لبعضهم بلاء عظيم في مجاهدة الافرنج في الاندلس وتوطيد عزة الاسلام فيها وخطبوا الى هذا للخلفاء العباسيين • وكانت دولة الموحدين كذلك حركة دينية في بدئها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتحارب البدع وكان الذي تزعمها يدعى المهدوية وخلفه خلفاء تلقبوا بالخلافة وامرة المؤمنين وجاهد بعضهم الافرنج اعظم جهاد في سبيل عزة الاسلام وهيبته في الاندلس • وكانت الدولة المرينية التي قامت على انقاض دولة الموحدين تتسم مثلها بسمة الخلافة • وجاهد بعض ملوكها الافرنج في الاندلس جهادا عظيما • وكانت الدول الوادية والزيانية في تلمسان تدعى النسبة الى العترة الادريسية العلوية وتتسم بسمة الامامة والخلافة • وكذلك كانت الدولة الحفصية في تونس تدعى النسبة الى قريش وتتسم بسمة الخلافة ، وكانت الدول الصنهاجية الزيرية والحمادية التي قامت في اقليمي تونس والجزائر تخضع وتخطب للفاطميين ثم للعباسيين (١) ••••

— ٢ —

ولقد غدت اللغة العربية لغة أكثر البربر العظمى تبعا لاعتناقهم الاسلام ومنذ عهد مبكر • وكانت هذه اللغة على كل حال لغة الدول والامارات البربرية بل من الحق ان يقال ان مظهر هذه الدول والامارات كان عربي الصبغة والطابع من حيث الاسماء والالقاب والنظم والاصطلاحات وصور الحياة الرسمية والاجتماعية والشعبية واشكالها مما احتوت كتب التاريخ والادب كثيرا من شواهده ونماذجه في سياق

(١) انظر الملحق في نهاية الجزء . ففيه نبذ موجزة عن جميع هذه الدول .

سيرتها بحيث يقال بحق انها كانت دولا وامارات عربية ، وان تسميتها بالدول والامارات البربرية ليس الا من قبيل تسمية الشيء بالاصل البعيد الذي يمت اليه وحسب . ولم يكن امراء وملوك ورجال هـذه الدول والامارات الذين يمتون الى اصل بربري مثل امراء وملوك ورجال الدول والامارات التركية التي قامت في بلاد الشام والعراق ومصر في عهد الدولة العباسية وبعدها حيث كان كثير منهم ان لم يكن معظمهم أعجمي اللغة أو ضعيفا في البيان العربي لانهم طراء على البلاد العربية او لانهم عاشوا في نطاق الجندية المنعزل عن الجمهور العربي في حين كان امراء وملوك ورجال الدول البربرية عرب اللغة والبيان والمظهر بل لقد كانوا مندمجين في العروبة وطابعها وثقافتها أشد اندماج . وكان كثير منهم يعد من الشعراء والادباء والعلماء فيها . بل لقد بلغت شدة الاندماج فيها والرغبة في ذلك ان ادعت دول وقبائل قوية العروبة وانتسبوا اليها كما فعل الصنهاجيون والزناتيون وملوك الدول التي تنتمي اليهم وملوك بني حفص وملوك الواديين والزيانيين على ما نوهنا به في الملحق .

ولقد بدأت الآداب والثقافة العربية وبالتالي طابع العروبة يسود منذ عهد مبكر وبكلمة أدق منذ القرن الهجري الاول حيث سجل التاريخ اسماء عشرات الشعراء والعلماء والفقهاء والقضاة والدعاة والكتاب الذين ذاعت اسماؤهم وآدابهم وشعرهم وآثارهم يمتون الى العنصر البربري ويعود وقت بروزهم الى القرون الهجرية الثلاثة الاولى ثم اخذ النطاق يتسع حتى صار العشرات مئات والوفا في القرون التالية .

ومن المظاهر التي يجدر تسجيلها في هذا المقام ان العرب الصرحاء سواء الذين اندمجوا منهم في حياة المدن والريف أم الذين ظلوا يحتفظون باسلوب الحياة القبلية كانوا يندمجون مع البربر في جميع ما كانوا يقومون به من حركات ويقيمونه من دول وامارات ويقع في هذه الدول

والامارات من احداث كما ان البربر كانوا يندمجون مع العرب في جميع ما كانوا يقومون به من مثل ذلك اندماجا تاما كأنهم ارومة واحدة على ما سجلته كتب التاريخ في سياق تسجيلها ذلك حيث يدل هذا على ما كان من تمازج وانسجام ووحدة ، مما سوف نورد فيما بعد صورا كثيرة منه •

ولقد كان هذا نتيجة طبيعية وايجابية لما كان من انتشار الاسلام بين البربر منذ عهد مبكر واتساع نطاقه حتى شملهم واقبالهم على تعلم اللغة العربية لغة قرآنهم ونبيهم وحرص حكام العرب على ذلك حرصا شديدا سبق تسجيل بعض صوره فيما كان من اسكان موسى بن نصير لرهائن البربر في طنجة وامره العرب بتعليمهم القرآن ، ثم لما كان من تدفق سيل القبائل والارومات العربية منذ عهد مبكر الى قرون كثيرة بعد سني الفتح وانتشارها في جميع انحاء بلاد المغرب واندماجها في مختلف اشكال حياتها وما كان لها من نشاط وحيز كبيرين في الدول التي كانت تمارس السلطان استقلالا تاما أو ذاتيا ومن جملتها الدول البربرية مما سوف نذكر صوره الكثيرة بعد وما ادى هذا اليه من التمازج التام بين العرب والبربر مع التأثير الايجابي من الاولين في الآخرين بسبب ما كانوا يحملونه من الرسالة الاسلامية السامية وما فيها من دعائم موطدة للعروبة ونفوذها ، كما كان نتيجة للسلطان العربي الذي توطد في بلاد المغرب والذي كان يدعم من آن لآخر من اول عهد الفتح الى الآن بدول عربية الارومة على ما سوف نذكره بعد • ولم يكن شأن الدم البربري في بلاد المغرب اكثر شأنا من الدم التركي وغير التركي في بلاد الشام والعراق ومصر الذي توارت آثاره في طابع العروبة الشامل لهذه البلاد ، وليس من شأن احتفاظ بعض عناصر بربرية بصبغتها الاصلية ولهجتها القديمة في الانحاء القاصية والمنعزلة على ما يذكره الباحثون أن يؤثر تأثيرا ذا بال في شمول الطابع العربي لهذه البلاد •

ولقد جاء في كتاب « هذه مراكش » وهو من احدث الكتب التي احتوت جغرافية وتاريخ المغرب الاقصى [1] ان الشعب المراكشي يتألف من حيث الاصل من عنصري العرب والبربر وان كلاً منهما يمثل نصف السكان وان العنصر البربري يكثر عادة في الجبال ومناطق الصحراء وما يجاورها في حين ان العنصر العربي يكثر عادة في الاراضي الزراعية ويمثل الاغلبية الساحقة في جميع المدن ، وانه لا يوجد فاصل حاسم بين العنصرين فالامتزاج بينهما تام بحيث لا يمكن التفريق بينهما واللغة العربية هي لغتهما المشتركة ، وكل ما هنالك ان البربر يحتفظون في جبال الاطلس وفي جبال الريف ببعض خاصياتهم •

ولقد جاء في كتاب تاريخ الجزائر وهو كذلك من الكتب العصرية [2] ان العرب والمستعربين يمثلون اليوم في ارض الجزائر نحو اربعة اخماس السكان المسلمين • أما الخمس الآخر فهو مؤلف من القبائل البربرية غير ان ٩٠ من المئة من هذا الخمس يجيد الكلام العربي العامي اجادة تجعله لا يكاد يتميز عن العربي في شيء • ولا يوجد في الجزائر كلها اليوم الا نحو (٨٠) الفا من البربر لا يجيدون العربية من مجموع سكان الجزائر الكلي البالغ نحو عشرة ملايين • ولغة هؤلاء مع ذلك مزيج من البربرية واللغة العربية العامية بحيث يصح ان يقال ان اللغة العربية العامية هي لغة كل الاهالي المسلمين في ارض الجزائر سواء أكانوا من العرب أم من البربر أم من سواهم • وهذه اللغة أفصح لغة عربية عامية موجودة على وجه الارض لان اغلب عباراتها وبعبارة أدق ٩٨ في المائة منها فصيحة قرآنية •

ولقد جاء في كتاب « هذه تونس » وهو كذلك كتاب حديث

---

(١) مؤلفه عبد المجيد ابن جلون وتاريخ طبعته الاولى سنة ١٩٤٩ انظر ص ١٢–١٣

(٢) مؤلفه احمد توفيق المدني من كبار رجال الحركة الجزائرية الآن (سنة ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م) وكتابه مطبوع سنة ١٣٥٠ هـ انظر ص ١٤٢ – ١٤٥

ايضا [1] ان الزحف العربي العظيم ــ ويعني زحف بني هلال وبني سليم في اواسط القرن الخامس الهجري ــ احدث انقلابا عميقا في مختلف نواحي الحياة بافريقية ــ وكلمة افريقية كانت تعني المغرب الاوسط وخاصة تونس ــ حيث تم بفضله استعراب البلاد بصورة نهائية وان اللغة العربية هي لغة السكان وان اللهجة التونسية العامية من اقرب اللهجات للعربية الفصحى وان اللهجات البربرية القديمة قد اختفت وانحصرت بقاياها في منطقة قنصة ومطماطة الجبلية والدويرات وشنني باقصى الجنوب التونسي •

وفي كل ما تقدم مصداق وتوكيد لما قررناه في الاستدراك كما هو ظاهر •

وكلامنا وان انصب في الدرجة الاولى على الاقطار المغربية الثلاثة تونس والجزائر ومراكش فانه ينسحب على ما يسمى اليوم بالمملكة الليبية وما كان يذكر في كتب التاريخ باسمى برقة وطرابلس الغرب • بل انه ينسحب عليه من باب أولى • فقد كان اول محطة للزحف العربي منذ بدأ العرب يتجهون نحو المغرب للفتح والانتشار ، وكان كثير من القبائل العربية وفروعها يستقرون فيه على ما مر ذكره اكثر من مرة في سياق سيرة حركة الفتح الاولى • وكان اندماجه في العروبة والاسلام ابكر وارسخ حتى انه لم يقع فيه على العرب من النكسات ما كان يقع في الاقطار الاخرى وكان كالملجأ الامين لهم في ظروف هذه النكسات • وهو اليوم قطر عربي مئة بالمئة ولم يبق فيه عناصر بربرية مهمة محتفظة بشيء من طابعها العنصري كما هو شأن الاقطار المغربية الاخرى •

والآن نأتي الى تفصيل موضوعي القبائل العربية والسلطان العربي •

---

(١) مؤلفه الدكتور الحبيب تامر ومطبوع في سنة ١٩٤٨ انظر ص ٥ و ١٦

- ٣ -

تدفق القبائل والارومات العربية وانتشارها

- ١ -

لقد اخذت القبائل والارومات العربية تنساب الى بلاد المغرب منذ عهد مبكر من القرن الاول الهجري حيث بدأت حركات الفتح تتجه نحو هذه البلاد في الثلث الاول من هذا القرن بعد ان استتب السلطان العربي في مصر ، ثم اخذ الانسياب يقوى في اواسط هذا القرن واواخره ثم في اوائل القرن الثاني الهجري ـ في عهد الدولة الاموية ـ حتى كاد يكون سبيلا متمثلا بما تدفق على هذه البلاد من جيوش عديدة باعداد كبيرة في عهد معاوية ثم في عهود عبد الملك واولاده الوليد وسليمان وهشام حتى امكن توطيد السلطان العربي الاسلامي في هذه البلاد نهائيا على ما مر بيانه .

ولقد كان بنيان الجيوش العربية قبيليا حيث كانت تتألف من كتل متكتلة على بعضها كل كتلة تنتسب الى قبيلة من القبائل العربية من جهة وكانت الكتل كثيرا ما تصطحب معها نساءها واولادها ومتاعها على ما كان من امرها حينما خرجت من الجزيرة في موجة الفتح الكبرى من جهة ثانية .

وقد ذكر لسان الدين الخطيب وزير بني الاحمر المشهورفي كتابه الدولة النصرية [١] اسماء كثير من القبائل او جماعات القبائل العدنانية والقحطانية التي انتقلت من المغرب الاقصى الى الاندلس حينما وجه

(١) ص ١٦ ـ ١٧ المطبعة السلفية وانظر تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١١٦ ـ ١٢٠

موسى بن نصير حملاته لفتحها في اواخر القرن الاول الهجري مثل قيس وعبس واشجع وباهله وسليم وجديلة وكلاب وعقيل وهلال وثقيف وعك والاوس والخزرج وغسان والازدوبجيلة وخثعموكندهوالسكاسك وجذام وخولان ومذحج وحمير وهمدان وكلب وحضرموت وجهينة مما يدل على ان هذه القبائل او جماعات القبائل كانت ممن تألفت منها حملات الفتح التي وجهت الى بلاد المغرب واستقرت في هذه البلاد بعد الفتح اولا وعلى كثرة اعداد هذه الجماعات وافرادها كثرة عظيمة بحيث كانت كافية لتوطيد السلطان العربي والطابع العربي في المغرب من جهة وفرز جماعة كبيرة منها تكفي لفتح الاندلس وتوطيد السلطان العربي والطابع العربي فيها من جهة اخرى .

واذا لاحظنا ان عبد الرحمن الاموي الاول حينما دخل الاندلس في الثلث الاول من القرن الثاني الهجري استطاع ان يقيم دولة قوية السلطان عدتها الاولى والاقوى العرب وان هذا قد استمر كذلك طيلة القرون الثلاثة التي ظلت هذه الدولة قائمة موطدة فيها ، وان الطابع العربي كان هو القوي البارز الذي طبع هذا الاقليم طبعا شاملا قويا بدا لنا مقدار ما كانت عليه هذه الكثرة وما تيسر لها من النمو الذي ازدادت به كثرة فوق كثرة . ولقد ذكر المؤرخون ما كان من كره عرب الشام لقيام الدولة العباسية وخاصة بعد ان بدا فيها من قوة النفوذ الفارسي ما بدا وما كان من كثرة تمردهم وتبييضهم [1] ، والمرجح ان لم نقل المحقق ان كثيرا من الذي عرفوا بتواثقهم مع الامويين قد نزحوا من الشام الى الاندلس وتوطنوا فيها بعد ان استقرت الدولة الاندلسية فيها فازداد بهم الدم العربي قوة الى قوة .

على ان السيل لم ينقطع عن افريقية ايضا خلال القرنين الثاني

---

(١) هذا التعبير قد استعمله المؤرخون والراجح انه يعني رفع الرايات البيضاء شارة الامويين بدلا من الرايات السوداء شارة العباسيين كعلامة على التمرد على هؤلاء .

والثالث • فقد ذكر المؤرخون ان قبائل عديدة من بني أسد وبني تميم وبني سعد وبني الصمصامة قد جاءت الى المغرب الاوسط في عهد الاغالبة التميميين حينما توطدت لهم الامارة في هذا المغرب ١٨٦ — ٢٩٦ على ما سوف نذكره بعد وتوطنت فيه [١] •

موجة بني هلال وبني سليم

ثم كانت الموجة العربية الكبرى في القرن الخامس الهجري الى المغرب الاوسط التي كان عنصرها الاقوى والاعظم بني هلال وبني سليم • وقد كان لها اعظم الاثر في طبع بلاد المغرب بالطابع العربي بسبب كثرة عددها [٢] وانتشارها وما بدا منها من نشاط وحيوية •

ولمجيئها قصة طريفة من المفيد ان تروي في هذا المقام [٣] • فان المعز بن باديس الملك الثالث للدولة الصنهاجية الزيرية جنح الى توهين الرابطة بين دولته وبين الخلافة الفاطمية فأدى ذلك الى جفاء وتوتر

---

(١) انظر تاريخ الجزائر العام للعكاك ص ١٥٥

(٢) قال العكاك في كتابه موجز تاريخ الجزائر العام (ص ٣٠٤) ان المؤرخين اختلفوا في تقويم عددهم وان المؤرخ ليون الافريقي نقل عن تاريخ ابن الرفيق ان عددهم يزيد عن المليون ، وان من الصواب تقديرهم بنصف ميليون على الاكثر وبمئتي الف على الاقل . اما احمد توفيق المدني فانه قدرهم في كتابه تاريخ الجزائر (ص ١٣٨) بين الثلاثمائة الف والخمسمائة الف . والرقم كبير على كل حال . ويعني ان سيلا جارفا تدفق على بلاد المغرب في اواسط القرن الخامس الهجري ، وبطبيعة الحال انهم نموا وكثروا خلال القرون التسعة التي مرت على طروئهم حتى صار انسالهم ملايين . وهذا تفسير كونهم ذا اثر عظيم في طبع البلاد بالطابع العربي . وهذا بالاضافة الى القبائل الاخرى التي تدفقت قبلهم وبعدهم والتي لا شك انها كانت في اصلها تبلغ مئات الآلاف .

(٣) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٢ — ٨٢ و ١٥٥ — ١٧٨ و ج ٤ ص ٦٢—٦٦ وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص ٩٠ — ٩٨ والاستقصاء ج ١ ص ١٦٦٥ — ١٧٢ والدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ١٦٩ — ١٧١ ورحلة التجاني من رجال القرنين السابع والثامن ص ١٦ —٢٠

بينه وبين الخليفة الفاطمي المستنصر فعمد الى حركة أكثر نكاية وتحديا حيث اسقط اسم الفاطميين من الخطبة والطراز وامر بلعنهم على المنابر واخذ يضطهد الشيعية حتى انه قتل منهم عددا كبيرا باسلوب يشبه المذبحة • ثم اتصل سنة ٤٣٥ هـ بالخليفة العباسي القائم بامر الله في بغداد وطلب منه تقليدا بامارته ـ على ما كان يجري في هذا الظرف من المتغلبين الذين كانوا لا يرون ملكهم شرعيا ولا يراه الناس كذلك الا بتصديق من خلافة عربية قرشية ـ وارسل اليه الهدايا فرحب هذا بالتحول ترحيبا عظيما لان التشاد كان قويا بين العباسيين والفاطميين وارسل اليه التقليد والخلع والهدايا • وحينئذ عمد الفاطميون الى ازعاج المعز الصنهاجي بتشجيع بطون كثيرة من قبائل بني هلال وبني سليم التي نزحت الى مصر في عهد المعز الفاطمي وانتشرت في صحاريها الشرقية والغربية على الارتحال نحو المغرب الاوسط والتشويش على الدولة الصنهاجية وتعكير الامن فيها • ويروى ان ابا الحسن اليازوري ـ نسبة الى يازور احدى قرى فلسطين ـ وزير المستنصر هو الذي اقترح هذه الحركة ، وانه هو الذي اتصل بزعماء بني هلال وبني سليم واعطاهم مالا وسلاحا واصلح بينهم ووعدهم بالمدد والعدد وملكهم كل ما يفتحونه فاتجه الى افريقية (تونس) منهم سيل عرم ، وكتب اليازوري الى المعز الصنهاجي : اما بعد فقد ارسلنا اليكم خيولا فحولا• وحملنا عليها رجالا وكهولا • ليقضي الله امرا مفعولا •

ولقد قام بنو هلال وبنو سليم بالمهمة حيث اخذوا منذ وصلوا الى منطقة تونس يعيثون في الارض فسادا ويقطعون السبيل ثم تقدموا بزعامة موسى بن يحيى المرداسي نحو القيروان عاصمة الدولة واخذوا يشنون الغارات على ارياضها ويفسدون الزروع وينهبون المدن والقرى فنزل بافريقية منهم ما لم ينزل بها مثله قط على ما وصفه الرواة • وحشد المعز الصنهاجي قوة كبيرة وخرج على رأسها للتنكيل بهم والتحم معهم في معركة حامية قرب مدينة جندارا وكان فرسان العرب ثلاثة آلاف في رواية وسبعة في رواية اخرى بينما كان فرسان المعز

ثلاثين الفا على ما روته الروايات كذلك فدارت الدائرة على صنهاجة وانهزمت بعد ان تركت عددا كبيرا من القتلى واستولى العرب على مقادير عظيمة من الخيل والاسلاب والغنائم . وفي هذه الواقعة يقول علي بن رزق الرياحي الهلالي :

وان ابن باديس لا حزم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له ثلاثين الفا ان ذا لنكال

ولم ير المعز مناصا من تألفهم وتركهم يستقرون في برية افريقية واباحة دخولهم القيروان لشراء ما يحتاجون اليه ، فاخذوا ينتشرون في براري المغرب الاوسط وغدوا عنصرا فعالا في احداثه حتى ان هيبة دولة المعز قد وهنت بتأثيرهم . وكان مما عمد المعز اليه بسبيل تألفهم ان زوج بناته الثلاث لثلاثة من امرائهم وهم فارس بن ابي الغيث واخوه عائذ والفضل بن ابي علي المرداسي ، على ان هذا انما زاد في هيبتهم ومطامعهم ، فقد ذكر ابن خلدون انهم جاؤوا سنة ٤٤٨ الى القيروان فاستباحوها وسلبوها وعبثوا في محاسنها واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها وشملوا بالعبث والنهب سائر حريمها حتى تفرق اهلها في الاقطار ، ولم يزل هذا دأبهم حتى غلبوا صنهاجة وزناته على نواحي افريقية والزاب وتغلبت رياح على باجه وقسطنطينة وتغلب عائذبن ابي الغيث على مدينة تونس وسلبها وملك ابو مسعود احد زعمائهم مومه ، وكان فيهم رجالات مذكورون من اشرافهم حسن بن سرحان واخوه بدر وفضل بن ناهض وماضي بن مقرب وبنونه بن قرة وسلامة ابن رزق ودياب بن غانم وموسى بن يحيى ومليحان بن عباس الخ ...

ولما مات المعز سنة ٤٥٣ وتولى ابنه تميم السلطان تمرد عليه حمو ابن مليل قائد صفاقس فاتخذ انصارا من عرب عدي والاثبج واخذ يتصاول مع تميم واحرز بعض الانتصارات بهم (١) .

ولقد كان باديس بن المنصور عين عمه حمادا سنة ٣٨٧ واليا

---

(١) انظر رحلة التجاني ص ٦٨ وما بعدها .

على احد اقاليم المغرب الاوسط الذي كان فيه قلعة حصينة اتخذها مركزا له وما عتم حتى استبد بالسلطان في الاقليم وصار ابناؤه واحفاده يتوارثون الحكم مستقلين فاقتسمت الدولة الصنهاجية بذلك الى دولتين عرفت الجديدة بالدولة الحمادية • وقد كان هذا العمل مما اثار الجفاء والنزاع بين ابناء العمومة ومما أوهن دولتيهما معا ثم مما كان للعرب مجال للقيام بدور مهم فيه • فقد ذكر المؤرخون ان الجفاء اشتد بين الناصر بن علناس ملك الدولة الحمادية وتميم بن المعز ملك الدولة الزيرية فتجاذب الملكان بطون بني هلال وتحالف كل منهما مع فريق منهم ، ولما تزاحف الطرفان للقتال حول المهدية عاصمة تميم اتصل تميم بحلفائه وطلب منهم تخذيل اخوانهم عن الناصر وامدهم بالمال والسلاح فارسلوا الى اخوانهم الذين مع الناصر يقبحون مساعدتهم للناصر ويخوفونهم منهم ان قوي ويعرضون عليهم التواطىء عليه فاستجابوا الى ذلك وارسلوا يقولون لهم اجعلوا اول حملة تحملونها علينا ونحن ننهزم بالناس • ولما وقع الاشتباك نفذوا المؤامرة فحاقت الهزيمة بالناصر وغنم العرب جميع ما في معسكره من مال وسلاح ودواب وتقاسموها فيما بينهم !•

فكان هذا الحادث مما زاد في تمكنهم في المغرب وازدياد قوتهم وزهوهم على البربر • ولقد احنق ذلك قبائل مغراوه ويفرن ويلومي وعبد الوادي وبني توجين وبني راشد وهي فروع زناته الكبرى وتضامنت فيما بينها ضدهم واشتبكت معهم اشتباكات عديدة فكانت الغلبة فيها لهم فزاد ذلك في تمكنهم واستعلائهم •

ومما رواه ابن خلدون (١) ان حاكم طرابلس الغرب المنتصر بن خرزون حينما قدم بنو هلال وبني سليم تألفهم واتخذ منهم حلفاء فساعدوه على توطيد حكمه وتوسيع رقعة سلطانه •

---

(١) ج ٧ ص ٣٩ — ٤٤

وليس ما تقدم كل ما كان لبني سليم من حيوية ونشاط . فقد سجل لهم التاريخ من ذلك شيئا كثيرا في عهود دول الموحدين والمرينيين والحفصيين والزيانيين ، وكان من اسباب نزوح فريق كبير منهم الى المغرب الاقصى وانتشارهم فيه كما كان من اسباب تمكنهم في المغربين. وقد رأينا من المفيد ان ننوه بذلك في هذا المقام استيفاء للكلام عنهم .

فمن احداثهم ان عبد المؤمن اول خلفاء الموحدين حينما قضي على الدولة الزيرية الصنهاجية التي كان معظم بني هلال وبني سليم ينتشرون في ارضها اجتمع زعماء بعض هـذه القبائل وتحالفوا على التعـاون والتضافر ومقاومة عبد المؤمن اذا هو حاول اخضاعهم لسلطانه كمـا فعل بالصنهاجيين ، واتصل الخبر بروجار صاحب صقلية فـارسل الى امراء العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كـامل وحسن بن ثعلب يعرض عليهم امدادهم بخمسة آلاف مقاتل على شرط ارسال الرهائن فاجابوه بانهم ليسوا في حاجة الى مدده ، ثم اخذوا يستعدون للقماومة ، وبلغ الخبر عبد المؤمن فسير حملة هاجمتهم على حين غرة فانهزموا فاستولى الموحـدون علـى اموالهم ومواشيهم ونسائهم واولادهم ، واستاقوهم الى عبد المؤمن ، وعني هذا بالاولاد والنساء وارسل الى امراء العر بـيطمئنهم ويدعوهم اليه لاستلامهم ويبـذل لهم الامـان والكرامة ، فسارع فريق كبير من هذه القبائل الى مراكش حيث وفـى عبد المؤمن لهم بما وعد وعوضهم عما خسروه فاسترق قلوبهم واقاموا على كثب منه يبذلون جهودهم في توطيد دولته . وكانوا عمدة الجيش الموحدي في عهد عبد المؤمن وخلفائه وابلوا بلاء حسنا في مجاهـدة الافرنج في الاندلس . وقد نموا وتكاثروا وانتشروا في انحاء المغرب الاقصى المختلفة (١) .

ومن ذلك ما كان لهم من نشاط فيسياق ثورة ابن غانية البربري

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ ـ ٢٣٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٥٩ و١٦٥ـ١٧٢

في اواخر القرن السادس الهجري وفي زمن الدولة الموحدية بعد عبد المؤمن • فقد ثار هذا ثورة عاتية في المغرب الاوسط فتضامن معه بعض الفروع التي تخلفت في هذا المغرب من بني سليم وبني هلال فلما انتصر المنصور الموحدي عليه سنة ٥٨٤ في احدى الجولات نقل كثيرا منهم الى المغرب الاقصى ايضا فكان النزوح الثاني لهم من المغرب الاوسط في عهد هذه الدولة (١) •

ومع هذين النزوحين منهم الى المغرب الاقصى فقد ظل منهم في المغرب الاوسط فروع كثيرة نمت وصارت في عدد وافر وقوة معتدة حتى كانت لهم جباية الجانب الشرقي من اوراس وكثير من انحاء اوراس الشرقية وحتى كادوا ان يكونوا دولة داخل دولة وجعلهم هذا يشعرون بقوتهم ويشمخون بانوفهم •

ولقد هال هذا الملك المريني ابا الحسن حينما وطد سيادته على المملكة الحفصية في اواسط القرن الثامن الهجري ففكر في خضد شوكتهم فثارت حميتهم وجمعوا جموعهم واشتبكوا معه في معركة حامية هزموا جيوشه فيها هزيمة شديدة واستولوا على مضاربه ومافيها من عدد ومتاع وسلاح ومؤن • ولجأ الملك الى القيروان فتبعوه ففر منها بحرا الى تونس فجاؤوا اليها وحاصروه فيها • واغتنم الملك الحفصي الذي خلعه الفرصة فزحف بانصاره على تونس بدوره متضامنا مع العرب بما جعل الملك المريني يجد نفسه في مأزق ولم ير مخرجا منه الا أن يركب البحر ويعود الى بلاده • وقد عصفت الريح بمراكبه حتى غرق معظمها ولم ينج هو وبعض اخصائه ويصلوا الى مراكش الا بعد عناء واهوال (٢) •

ومن ما روي من صور نشاطهم ان جماعات عديدة من بني هلال

---

(٢) ص ١٦٥ – ١٧٢ الاستقصاء ج ١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ – ٢٤٦

(١)ابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٢ – ٢٨٨ والاستقصاء ج ٢ ص ٥٧ – ٨٨

عادوا فانضموا الى ابن غانية حينما استأنف نشاطه بعد المنصور فتمكن بذلك من الاستيلاء على قسم كبير من المغرب الاوسط الى ان وصل الى طرابلس فاجتمع عليه هنا عرب ذياب من بني سليم فنهض بهم الى جبل نفوسة فملكه ثم فتح طرابلس وما وراءها والمنطقة المعروفة بالجريد . وكان في هذه المنطقة فروع اخرى من بني سليم وبعض فروع قبائل عربية اخرى منضوية اليهم مثل جشم ورياح الاثبج فاستمالهم وفرض لهم عطاء ـ مخصصات ـ فتوطد بذلك له سلطان وملك واسع (١) .

ومن ذلك ان الملك الحفصي ابا زكريا حينما اعتزم الزحف على تلمسان وغيرها من المغرب الاوسط استنهض معه فروع بني هلال وبني سليم في مملكته فتثاقلوا فما زال يلطف لهم الحيلة في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم حتى ارتحلوا معه وتمكن نتيجة لذلك من الاستيلاء على تلمسان (٢) .

ومن ذلك ان ابن عم للمستنصر الملك الحفصي اسمه قاسم خرج عليه فطارده فلجأ الى قبيلة رباح الهلالية ونزل على اميرها شبل بن موسى فاجاروه وبايعوه وكان فروع اخرى من بني هلال وبني سليم موالين للمستنصر فجمعهم وغزا بهم قبيلة رباح وشردها (٣) .

ومن ذلك ان ابا فارس عزوز الملك الحفصي القوي اراد ان يكسر شوكة بني سليم والاثبج من فروع بني هلال ويحد من شأنهم فاستصرخوا السلطان المريني الذي كان اذ ذاك على خلاف وعداء مع عزوز فأمدهم بالمال والرجال وانضم احد امراء الحفصيين منازعا لعزوز فزحفوا سنة ٨١٢ هـ على تونس غير ان عزوزا استطاع ان يردهم ويتغلب على ابن عمه (٤) ...

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٩ ـ ١٩٨

(٢) نفس المصدر ص ٢٨٧ (٣) ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ نفس المصدر .

(٤) خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص ١٢٤

ومن ذلك ان الموحدين حرضوا قبائل رياح على المرينيين حينما برزوا لمنافستهم ومناوأتهم وكانوا حينذاك أشد قبائل العرب قوة وشوكة واكثرهم خيلا ورجالا فاخذوا يتصاولون معهم ويشتبكون اشتباكات شديدة ، وقد كانت لهم في بعض الجولات الغلبة على المرينيين حتى ان زعيمهم عبد الحق قتل في احداها . غير ان المرينيين انتصروا في النهاية عليهم واثخنوا فيهم واجبروهم على الاذعان لهم واداء اتاوة سنوية اليهم (١) .

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ – ١٧١

تفصيلات اخرى عن بني سليم وبني هلال
وغيرهم ممتدة الاثر الى اليوم

— ١ —

ولقد عقد ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه فصلا طويلا[١] في قدوم بني هلال وبني سليم في اواسط القرن الخامس الهجري وانتشارهم في مختلف انحاء المغرب الاقصى والاوسط وفي ما كان من قبائل عربية مستقرة في هذه الانحاء قبل قدوم بني هلال وبني سليم وبعده وفي سيرتهم وما كان لهم من حيز كبير •

ونقتبس منه فيما يلي ما يتصل بانتشارهم وتوزعهم وفروعهم في عهده والحقبة السابقة •

ولقد مهد المؤرخ فقال ان بني هلال وبني سليم اقتسموا بلاد افريقية ــ وهذا التعبير كان يعني خاصة اقليم تونس ويمتد احيانا الى اطراف ليبية شرقا والجزائر غربا ــ فكان لزغبة من بني هلال طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح من الهلاليين ايضا باجه وما يليها • ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لبني هلال من تونس الى المغرب ــ أي الاقصى ــ وقد غلبوا زناته وصنهاجة على كثير مما في ايديهم واصاروهم عبيدا وخدما • وكان منضما اليهم جماعات من فزارة واشجع وهوازن وصعصعة وجشم غير انهم كانوا مندمجين فيهم ويعدون منهم •

ثم بعد هذا التمهيد اخذ يذكر فروعهم في نبذ خاصة هذه ملخصاتها :

---

(١) ص ١٢ ــ ٨٨

١ ــ الاثابج [1] : هم الاكثر عددا والاوفر قوة من الهلاليين وقد توزعت فروعهم في المغربين الاوسط والاقصى • وهم الآن ــ أي في أواخر القرن الثامن الهجري الذي كتب المؤرخ فيه كتابه ــ بطون كثيرة منها بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكلية واولاد سهيب ويعرفون بالشبه واولاد صبح ويعرفون بالصبحة واولاد سرحان ويعرفون بالسرحانية ومواطنهم في جبل اوراس مما يلي زاب نهود واولاد دريد واولاد نابت بن فاضل • وبنو محمد ظواعن جائلة في القفار تلقاء مواطن اولاد نابت • أما باقيهم فانهم اتخذوا المدن والآطام وقعدوا عن النجعة والبداووة •

وبنو دريد : أعز الاثبج واعلاهم كعبا • ومواطنهم بين قسنطية وطارف مصقلة • وهم بطون كثيرة منها اولاد عطية واولاد سرور جار الله واولاد توبة واولاد وشاح واولاد مبارك واولاد مشرف واولاد العاصم واولاد مقدم الضحاك واولاد عياض •

وكان العاصم والمقدم ينزلون في تامسنا • وكانت لهم عزة وعلياء وكان للسلطان عليهم عسكرة وجباية • وفي أول عهد الدولة المرينية صارت الزعامة على جميع العرب في بسائط تامسنا الذين كان يجمعهم اسم الخلط المهلهل بن يحيى من فرع المقدم • وقد اصهر اليه السلطان يعقوب بن عبد الحق وتزوج من ابنته التي صارت أم السلطان ابي سعيد واستمرت زعامتهم في نسله الى عهد ابن خلدون وكانت لهم عزة ودولة ودالة في هذه الدولة •

وقد نزل بنو عياض بجبل القلعة وملكوا قبائله وغلبوهم وصاروا يتولون جبايتهم • ومن فروعهم المرتفع والخراج •

ومن فروع الخراج : اولاد تبار واولاد عبدوس واولاد حناش والمهاية والزير واولاد صخر واولاد رحمة •

---

(١) ص ٢٢ ــ ٢٣

وبنو الضحاك : بدورهم بطون كثيرة منهم اولاد كسلان وذوو مطرق وذوو ابي الحليل وذوو حلال واولاد لقمان واولاد جرير وبنو نزار وبنو مري • وهم متوطنون في منطقة الزاب ومنهم من كان له ولاية فيها وهم بنو مرة • وكان لبني الضحاك كثرة ونجعة ثم قعدوا عن الظعن واتخذوا المدن والآطام مثل الدرسن وعرسدا وتهدوه ونقموه وبادس •

ومن الاثبج ايضا القمور : وهم فرعان كبيران بنو قرة وبنو عبدالله وهم ساكنون بالضواحي والجبال ما بين جبل اوراس شرقا الى جبل راشد •

وبنو قرة : بطن متسع • الا انهم متفرقون في القبائل والمدن •

أما بنو عبد الله : فهم كتلة ويتفرعون الى فروع عديدة منهم اولاد شكر واولاد محمد واولاد ماضي واولاد عنان • ورئاستهم العليا في اولاد شكر •

وفي المغرب الاقصى : قبائل باسم جشم مؤلفة من عدة بطون من الاثابج والرياح الهلاليين • غير ان اسم جشم قد غلب عليهم • وفروع الاثابج منهم نزلوا في تامسنا عدا رياحا التي نزلت في البيسط • وقد انتقلوا من المغرب الاوسطي في زمن الموحدين • ولما وهن امر هؤلاء صارت لهم سورة غلب وقوة في الدولة لكثرتهم وقرب عهدهم بالبداوة • ولما استولى المرينيون على بلاد المغرب الاقصى وحلوا محل الموحدين وملكوا فاس وقف العرب في وجوههم وكانت لهم معهم وقائع وحروب • وفي النهاية دانوا للدولة المرينية التي جنحت لتألفهم حتى ان ملكا من ملوكها اصهر اليهم وزوج ابنه ببنت من بني المهلهل وغدت لهم صولة في الدولة واستقرت رئاستهم في بيت المهلهل وتخلى كثير منهم عن حياة البداوة والنجعة وتوطنوا القرى والآطام • ودخل كثير منهم في جيش الدولة •

والخلة : فرع من جشم ويعرف باسم الخلط ايضا (١) • والمعروف انهم من بني المشفق بن عامر بن عقيل وكانوا شيعة للقرامطة في البحرين فلما غلبهم العباسيون ارتحل فريق منهم الى افريقية وسموا هنا بالخلط لانه كان فيهم جماعات من غير قبيلتهم • وقد ادخلهم المنصور الموحدي الى المغرب الاقصى مع من ادخله من العرب فاستقروا ببسائط تامسنا • وكانوا اولى عدد وقوة • وكان شيخهم حين دخولهم هلال بن حميدان وظلت الزعامة في بنيه • واندمجوا في احداث المنافسات التي وقعت بين ملوك الدولة الموحدية •

وبنو جابر : من عداد جشم المغرب وقد تخيروا الى سفح جبل تادلا وما والاها ويسهلون الى البسيط تارة ويأوون الى الجبل اخرى (٢) •

٢ ـ رياح : وهم ايضا من اعز قبائل بني هلال واكثرهم عددا عند دخولهم افريقية • وقد استقروا اولا في بلاد الهبط بين قصور كتامة الى ازعار البسيط الفيح الى ساحل البحر الاخضر • وكانت رئاستهم في سنة ٦١٨ ه للشيخ محمد ابي مسعود • وقد اجتمع اليه جماعات من الاثبج فاعتز بهم وكثر • ثم تقدموا الى بلاد الزاب فتلافت الدولة امرهم بالاصطناع والاستمالة واقطعتهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل اوراس والزاب ثم الامصار التي بالبسيط الغربي • ولم يزالوا الى هذا العهد ـ عهد كتابة المؤرخ كتابه وهو اواخر القرن الثامن الهجري ـ وبطونهم الآن اولاد محمد واولاد سباع واولاد سعيد واولاد مسلم واولاد الاخضر • ورئاسة اولاد محمد ليعقوب بن علي وله شهرةوذكر ومحل من السلطان متعارف • وهم مختصون بنواحي قسنطينة وقد اقطعتهم الدولة كثيرا من اريافها • وينضوي اليهم جماعات من عامر ابن صعصعة كحلفاء (٣) •

---

(١) ص ٢٩　　(٢) ص ٣١ ـ ٣٦

(٣) ص ٣٠

ورئاسة اولاد سباع في بني علي وهم مختصون بنواحي بجاية • وبطون سعيد ومسلم والاخضر هم الاشد قوة والاكثر جمعا وما يزالون على شيء من البداوة ويبعدون النجعة في القفار •

٣ ــ زغبة [١] : من أهم فروع بني هلال • وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم المغرب الاوسط • وقد تغلبوا على نواحي طرابلس وقابس • وقتلوا سعيد بن خرزون من ملوك مغراوه في طرابلس • ولما ثار ابن غانية في اقليم الجزائر نزعوا الى الموحدين • ولما ملكت زناته بلاد المغرب الاوسط دخلت زغبة التلول وتغلبوا عليها وفرضوا الاتاوة على اهلها • وقد اقطعتهم الدولة نواحي كثيرة من المغرب الاوسط استظهارا بهم على زناته • وهم فروع عديدة منها بنو يزيد وبنو حصين وبنو مالك وبنو عامر وبنو عروة • وكان لبني يزيد الكثرة والشرف • وقد اقطعهم الموحدون اراضي حمزة في اقليم بجاية مما يلي رياحا والاثابج وغدوا للدولة انصارا مخلصين وزادت هي في تكريمهم والعناية بهم • وقد استبدوا باوطان زناته وغلبوا عليها من جميع جوانبها • وقد كان لعهد المؤرخ العربي بطون كثيرة ينتمون الى بني يزيد منها حميان وجواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابعة والخشنة وبنو معافى وبنو لاحق [٢] • وكان هؤلاء يعيشون في منطقة تونس • وقد كانت مواطن بني حصين مجاورة لمواطن بني يزيد وكانت لهم الاتاوة على اهل المنطقة وقد اندمج بعضهم في خدمة الدولة المرينية وساعدوها على زناته

---

(١) ج ٦ ص ٤٠ ــ ٥٨

(٢) ان التجاني من رجال القرنين السابع والثامن وهو اقدم من ابن خلدون ذكر في رحلته في اقليم تونس بني يزيد فقال انهم اربعة افخاذ . وهم الصهبه والحمارنة والخرجة والاصابعة . والصهبة هم بنو صهب بن جابر بن قائد بن رافع بن ذباب . والحمارنة هم بنو حمران بن جابر اخوتهم والخرجة هم جماعة من آل سليمان بن رافع بن ذباب ولاصابعة هم منتسبون الى رجل كانت له اصبع زائدة ودباب يطعنون في نسبهم ومساكنهم في مناطق توزر وقابس ومسلاته ص ١٣٤

كما اندمج بعضهم في خدمة الدولة الزيانية وساعدوا ابا حمو حتى تمكن من استرداد تلمسان واستئناف سلطانه بعد تشرده • وقد تملك هؤلاء في عهده الاقطاعات وغدت لهم في دولته العزة والجاه • وهم بطنان جندل وخراس ، وكل منهما يتفرع الى فروع عديدة • وكان بنو مالك من زغبة ثلاثة بطون وهي بنو سويد وبنو الحرث والديالم • وكل منها يتفرع الى فروع عديدة وقد كانت لهم اقطاعات في بلاد حمزة وبني حسن وتوجين ، وكانت الرئاسة في بني سويد • ومن فروع بني سويد فلمة وشبانة ومجاهر وجونة وهبرة • وبنو الحرث بطون عديدة ايضا منها العطاف وبنو زيادة والدهابقة وبنو نوال والعكارمة • وكان لهم في عهد المؤرخ اتاوة على بلاد سيرات والبطحاء وهوارة وكان بنو سويد زعماؤهم حلفاء لبني عبد الواد ملوك تلمسان • فلما استفحل ملك بني مرين في عهد السلطان ابي عنان واستولى على تلمسان دانوا له فرعي حرمتهم ورفع زعيمهم وزمار بن عريف على سائر رؤساء البدو من زغبة واقطعه السرسو وقلعة بن سلامة وكثيرا من بلاد توجين • ولما مات استقدم ابنه ابا عريف اليه واجلسه في مجلسه مكان ابيه وعقد لاخيه عيسى على البدو من قومه • وتخلى ابو عريف عن مركزه جنوحا الى الترهب وبنى حصنا بوادي ملوية وكان يقيم فيه على عهد المؤرخ الذي قال ان ملوك بني مرين ظلوا يرعون حرمته ويؤثرونه بالشورى والمداخلة في الاحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي فتوجهت اليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الاقطار • وقد استفحل امر قومه بل امر زغبة فجاش مرجلهم سنة ٧٦٧ على زناته ووطؤوا بلادهم بالمغرب الاوسط فاعجزوهم وتغلبوا على سائر البلاد بالاقطاع من السلطان طوعا وكرها •

ومواطن بني عامر : قبلي تلمسان مما يلي المعقل • وكانت مواطنهم قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق • وكانوا مع بني يزيد حيا واحدا

وكان لهم الغلبة عليهم وعلى غيرهم في مواطن حمزة والدهوس وبني حسن • ولهم على وطن بني يزيد لهذا العهد ضريبة من الزرع مقدارها الف غرارة متوارثة من عهد تغلبهم • وهم ثلاثة بطون وهي بنو يعقوب وبنو حميد وبنو شافع وكل منهم يتفرع الى افخاذ وفروع اخرى • وسياق المؤلف عنهم يفيد ان منهم من كان مع بني عبد الواد ملوك تلمسان ومنهم من كان مع بني مرين ، وانه كان ينشب بينهم منازعات ومصاولات لسبب ذلك وان كلاً منهم ابلى في مساعدة الجهة التي كان معها ونال توجهها والحظوة لديها •

وبنو عروة : بطنان وهما النضر وخميس • ولكل منهما افخاذ متفرعة عنهما • ومنهم من هـو منتبذ في القفر ـ ينتجعون رمـاله ويصعدون الى اطراف التلول • ومنهم من يقطنون جبل راشد • وهم متحالفون مع بني سويد يظعنون لظعنهم ويقيمون لاقامتهم •

٤ ـ وفي المغرب الاقصى مجموعة من القبائل العربية يجمعها اسم معقل [١] وموطنها صحارى هذا المغرب وقفاره • وهي ثلاث طوائف وهم ذوو عبد الله وذوو منصور وذوو حسان • ويزعمون انهم من نسل جعفر ابن ابي طالب •

ويقول ابن خلدون والصحيح انهم من عرب اليمن وقد جاؤوا في القرن الخامس الى المغرب الاوسط ثم انتقل منهم جماعات الـى المغرب الاقصى مع بني هلال • والذين بقوا في المغرب الاوسط منهم اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف العرب لهم • وقد نموا في المغرب الاقصى وكثروا وانتشروا في صحاريه وعمروا رماله • وكانوا احلافـا لزناته فيها • ولما ملكت زناته بـلاد المغرب ودخلوا الامصار والمدن تفردوا في الصحراء ونموا نموا لا كفاء له وملكوا اوطـان زناتـه

(١) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ٥٨ ـ ٧١

وقصورها من السوس غربا ثم توات ثم جودة ثم نامنيطت ثم واركلان وتاسيبت وتبكورارين وكل واحد من هذه المواطن وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة وذات نخيل وانهار[1] • وقد فرضوا الاتاوات على من بقي في جوارهم من زناته وغيرهم • وقد انضوى اليهم على طريق الحلف والولاء كثير من القبائل القديمة والطارئة مثل فزارة واشجع والعمور وبطون من سليم وبني هلال حتى صاروا يعدون من جملتهم• وتفرعوا الى فروع عديدة وكان لهم في عهد دولة بني مرين ثم في عهد الدول التي قامت بعدهم في المغرب الاقصى أي الدول الوطاسية والسعدية والشريفية الحاضرة شأن كبير في الاحداث السياسية والحربية •

ولقد زار لسان الدين الخطيب وزير بني الاحمر المشهور سنة ٧٦١ هـ حينما جاء لاجئا الى المغرب الاقصى احد امرائهم مبارك بن ابراهيم بن عطية بن مهلك ومدحه مدحا عظيما يدل على ما كان له وبالتالي لقبائل العرب من شأن في دولة بني مرين • وقد جاء في قصيدة المدح :

ساحات دارك للضياف مبارك — وبضوء نار قراك يهدي السالك
قل للذي قال الوجود قد انطوى — والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل — والمجد ليس له همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى — والبأس والرأي الاصيل مبارك
للدين والدنيا وللشيم العلى — والجود ان شح الغمام السافك
عند الهياج ربيعة بن مقدم — والفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن ابيه وجده — فكأنهم ما غاب منهم مالك

ومما بدأ به خطبة القاها بين يديه :

الحمد لله الذي جعل بيتك شهيرا • وجعلك للعرب اميرا • وجعل

---

(١) يفهم من فحوى سياق ابن خلدون ان تعبير القصور كان يعني الواحة او القرية .

اسمك فألا • ووجهك جمالا • وقربك جاها • انت امير العرب وابن امرائها وقطب سادتها وكبرائها الخ [1] •••

ومواطن ذووي عبد الله : بين تلمسان الى وجده الى مصب وادي ماويه في البحر • وينجعون القفار وتنتهي رحلتهم فيهـا الى قصور توات وتمنطيت وربما عاجوا الى ذات الشمال • وهم مجاورون لبني عامر بن زغبة من بلاد سلطان بني عبد الواد • وبينهم فتن وحروب موصوله • وكان بينهم وبين بني عبد الواد مثل ذلك ثم أعطوهم الصداقة والطوائل وعسكروا معهم في حروبهم فاقطعوهم وجده وندرومه وبني برتاس ومديونة وبني سنوس وصار لهم على اهل هذه البلاد الاتاوات والوضائع وضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة الاجازة منهـا الى تلمسان فلا يسير ما بينهما مسافر الا باجازتهم ومقابل ضريبة يؤديها اليهم • وهم بطنان الهراج والخراج • وكان يعقوب بن يغمور شيخ الخراج لعهد السلطان ابي الحسن المريني فلما تغلب هذا على تلمسان حرضه بعض الزعماء عليهم فارسل عسكرا لانتزاع املاكهم فـاعلنوا العصيان والتمرد وهاجموا عسكر السلطان فقتلوا قائـدهم وانتهبوا المعسكر وفر يعقوب الى الصحراء حيث ظل شريدا الى ان بسم الحظ لبني عبد الواد واستأنفوا سلطانهم فعاد ونال لديهم الحظوة والبر ولم تزل زعامتهم لهذا العهد ــ عهد المؤرخ ــ في بني يعقوب اما زعـامة فرع الهراج فهي في ابناء مناد وخدمتهم في الغالب لبني مرين •

وذوو منصور : هم معظم المعقل وجمهورهم • ومواطنهم تخوم المغرب الاقصى من قبلته ما بين ملويه ودرعة • وهم اربعة بطون اولاد حسن واولاد ابي الحسين ويمتان الى شقيقين • ثم اولاد عمران واولاد منبا ويمتان كذلك الى شقيقين •

ومما ذكره ابن خلدون من احوالهم ان اولاد ابي الحسين عجزوا

---

(١) الاستقصاء ج ٢ ص ١٠٨

عن الظعن فنزلوا قصورا اتخذوها بالقفر ما بين تافيلات وبتكورارين ، وان اولاد حسين هم جمهور ذوي منصور ولهم العزة عليهم واسم زعيمهم لهذا العهد يوسف بن علي • وان مواطن اولاد عمران مجاورة لمواطن اولاد حسين من ناحية الشرق وفي مجالاتهم بالقفر تافيلالت وصحراؤها وبالتل وملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وعساسة • ولهم على ذلك كله الاتاوات والوضائع والاقطاعات السلطانية وان زعيمهم لهذا العهد ـ عهد المؤرخ ـ سليمان بن ناجي ومن عادتهم النجعة للقفر والاكثار من الغزو واعتراض العير وقصور الصحراء ، وان اولاد منبا شركاء لاولاد عمران في الموطن والنشاط ورئاستهم لهذا العهد لمحمد بن عبد الله ، وانه كان بين ذوي منصور ويعقوب بن عبدالحق المريني وقائع وقد اوقع بهم في صحراء درعه فلما مات ثم مات ابنه يوسف تمردوا واخذوا بثأرهم ثم دانوا للمرينين بالطاعة واداء الصدقة الى ان وهن امر الدولة في ظرف فاعتزوا ومنعوا الصدقة • ولما استولى السلطان ابو عنان على تلمسان سنة ٧٥٠ ه فر اليهم زعيم بني عامر مستجيرا فاجاروه وزحف عليهم ابو عنان فوقفوا في وجهه ولم يظفر منهم بطائل •

ومواطن ذوي حسان هي في نواحي ملوية الى البحر • ويعرفون بعرب السوس حيث كان استصرخهم صاحب السوس بعد الموحدين على قبيلة اسمها كزولة من ظواعن بسائط السوس فصارخوه وارتحلوا اليه بظعائنهم وغلبوا التي في البسائط ووضعوا عليها الاتاوات وقد بلغ من امرهم ان صاروا يتقاضون الجبايات من المصامدة وصنهاجة في هذه البسائط • ورئاستهم لهذا العهد هي لاولاد ابي الخليل •

٥ ـ بنو سليم : لقد كان مواطنهم قبل زحفهم الى افريقية مع بني هلال في براري مصر الشمالية الغربية بين الاسكندرية وعقبة برقة وهم اربعة فروع رئيسية : بنوهبيب وبنو عوف وبنوذياب[1] وبنوزغب•

ومواطن بني هبيب : من اول ارض برقة مما يلي افريقية الى

(١) يضبطها التجاني في رحلته « دباب » انظر ص ٨٥ و ١١٣ و ١٣٤ مثلا .

العقبة الصغيرة • وما يزالون هنا لهذا العهد ــ عهد المؤلف اواخر القرن الثامن الهجري ــ ومن بطونهم بنو حميد وبنو محارب • وقد استولوا على اقليم طويل ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية الا لاشياخهم • وكان في خدمتهم جماعات من البربر واليهود يحترفون الفلاحة والتجارة• وكان معهم ولا يزال جماعات من رواحه وفزارة • ومن مشاهير مشايخ الاعراب لهذا العهد ابو ذوئيب من فزارة •

وكانت مواطن بني عوف من وادي قابس الى ارض بونه • وهم بطنان مرداس وعلاق • وكانوا قد اقاموا حين اجازتهم على اثر الهلاليين ببرقة • فلما كانت فتنة ابن غانية وقراقش بجهات طرابلس وقابس ــ وقد مرت اشارة اليها ــ تجمعوا اليهم فيمن تجمع من اوشاب القبائل فاعصوصيوا عليهم • وكان لهم معهم حروب • واستصرخوا رياحا الهلاليين فصارخوهم • ولما هلك ابن غانية ورسخت الدولة الحفصية بافريقية جاؤوا اليها بزعامة شيخهم مسعود • ولقد اراد الملك الحفصي ابو زكريا اخراج رياح من افريقية بسبب ما كانوا عليه من العيث والفساد فتألف بطون بني سليم واصطنعهم بسبيل ذلك واستظهر بهم وانزلهم بساح القيروان واجزل لهم الصلات والعوائد ثم اغراهم ببني رياح فزاحموهم بالمناكب بعد ان كانت لهم استطالة على جميع بلاد افريقية ــ المغرب الاوسط وخاصة تونس ــ فنشبت بينهم الحروب وتمكنوا من ازاحتهم عن افريقية الى تلول قسنطينة وبجاية الى الزاب وما يليه حيث صارت مواطنهم وظلت كذلك الى هذا العهد • وقد ملك بنو عوف سائر ضواحي افريقية وتغلبوا عليها واصطنعهم السلطان واثبتهم في ديوان العطاء ولم يقطع شيئا مما في ايديهم واختص بالولاية منهم اولاد جامع من مرداس فكانوا خالصة له • ولكن هذا لم يدم حيث تغيرت الحال بينهم وبين خلفاء ابي زكريا وكان زعيمهم عنان بن جابر فذهب مغاضبا ولحق بالخليفة السعيد من بني عبد المؤمن في مراكش وحرضه على الحفصيين • وظل بطن علاق مواليا للحفصيين فلما استفحل ملك المستنصر منهم حرضهم على بني عمومتهم بني مرداس

فحاربوهم وغلبوهم على اوطانهم واخرجوهم من افريقية فصاروا الى القفر وهم اليوم به ، وقد تمكنوا من التغلب من ضواحي قسنطينية وصار لهم اتاوة علـى توزر ونقطة وبـلاد قسطيلة وعمروا كثـيرا من القفر •

ولقد استقام امر بني علاق وصارت لهم الزعامة على بني عوف بعد نزوح بني مرداس وشملت زعامتهم بطون حصين ودلاج من رياح وعلا شأنهم عند الدولة واعتزوا على سائر بني سليم • وكانت الزعامة في عهد الملك المستنصر لشيخ اسمه الحاج كعب وقد اقطع له السلطان اربع قرى في نواحي صفاقس والجريد وافاد جاها وثروة • وقد استقرت الزعامة في ولده برغم ما كان من تناحر وتنافس بين اسر بني عـلاق وتدخل الملوك الحفصيين •

وكانت مواطن بني ذياب ما بين قابس وطرابلس الى برقة • وقد ظلوا حيث هم الى هذا العهد • وهم بطون عديدة منها اولاد احمـد وبنو يزيد والنوائل واولاد سنان واولاد وشاح • وزعامة هذا الفرع في اولاد وشاح • وهي لهذا العهد في بني مرغم بن صابر منهم •

ولم يذكر ابن خلدون بني زغب رابع فروع بني سليم الرئيسية الا باشارة خاطفة حيث قال انهم بافريقية (اقليم تونس) مع اخوانهم •

— ٢ —

وفي كتاب الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى للسلاوي وهو مؤرخ معاصر استمر كتابه الى سنة ١٣١٣ هـ اخبار كثيرة عن القبـائل العربية التي تدفقت على المغرب الاقصى وانتشرت في ارجائها ومـا كان من نشاطها ومشاركاتها في الاحداث التي كانت تقع في عهود دول هذا المغرب الاولى نقلا عن ابن خلدون وغيره • وفيه بالاضافـة الى ذلك اخبار كثيرة جدا عن حركة ونشاط وحيوية القبائل العربية التـي

ظلت تحتفظ بحياتها القبيلية في المغرب الاقصى ــ بعد ان امتصت المدن والريف منها ما امتصته وعمرت به ــ واسمائها وتفرعاتها في سياق الدول التي قامت في المغرب الاقصى قديما وحديثا • ومن هذه الاسماء ما هو قديم نقلناه عن ابن خلدون • ومنها ما هو جديد لم يذكره ابن خلدون ويحتمل ان يكون لقبائل جديدة طرأت على المغرب الاقصى في القرون المتأخرة او لفروع جديدة متفرعة عن القبائل القديمة •

وهذه قائمة طويلة من الاسماء التي وردت في ثنايا فصول الكتاب :

عرب معقل ، وعرب الخلط ، وعرب جشم ، وذوو منيع ، ودغيسة وجسيمة ، وحميات ، ومهاية ، والعمور ، واولاد جرير ، وستونة ، والحياينة ، وبنو عامر ، واولاد نصير ، وعبده ، واحمر ، والصفافعة ، وبنو شقران ، والصباح ، والزمالة ، وبربوش ، والمغافرة ، والدواثر ، واولاد الدليم ، وبنو حسن ، والعمارنة ، والمنبات ، واولاد جرار ، وبنو مالك ، وبنو سفيان ، وبنو التاغي ، وبنو عياش ، والشبانات ، وبنو يزيد ، والعمارة ، وبنو دريد ، وشراقة ، واشجع ، واولاد مطاع ، وذوو منيع ، والمشاشيل ، وبنو شقران ، واولاد يحيى ، والزيايدة ، وبنو موسى ، وبنو مصر ، وزراره ، والرحامنة ، واولاد جامع ، والشاوية وجروان ، وغياثه ، واولاد ابي السباع ، واولاد نصر ، والشياظمة ، واولاد رزق ، واولاد عطية ، والقوازيط ، وزعير ، وعرب الاعشاش ، والشراردة ، وتكنه ، وذوو بلال •••

ولقد روى المؤلف صورا كثيرة من صور النشاط القبيلي لهذه الاسماء منها ما ورد في سياق الدول العربية ومنها ما ورد في سياق الدول البربرية • اما ما كان من ذلك في عهود الدول العربية فسوف نورده في سياق سيرة هذه الدول • وهذه سلسلة من هذه الصور التي رواها المؤلف في سيرة الدول البربرية ومعها بعض صور رواها ابن خلدون:

١ ـ ان جماعات كثيرة من قبائل العرب من بني جابر والاثبج والعاصم وعرب الخلط كانوا في حملات الجهاد التي قادها او سيرها الملك الموحدي يعقوب وابنه المنتصر الى بلاد الاندلس في القرنين السادس والسابع للهجرة ، وانهم ابلوا في الجهاد بلاء حسنا (١) .

٢ ـ ان عرب الخلط النازلين في تامسنا خالفوا بزعامة زعيمهم هلال بن حميدان الملك العادل بن المنصور الموحدي حينما تولى الملك وظاهروا اخاه المأمون لان العادل آوى اليه قبيلة بني سفيان التي كان بينها وبينهم منافسة وعداء ، وإن هذه المظاهرة كانت من عوامل نجاح المأمون ووصوله الى الملك . وان عرب الخلط بزعامة هلال ظلوا الى جانبه الى ان هلك فبايعوا ابنه الرشيد وجاؤوا به الى مراكش . وقد استباح هذا بني سفيان ارضاء لهم . وقد صارت زعامتهم بعد هلال لاخيه مسعود فاغراه احد كبار رجال الدولة الملقب بشيخ العساكر فخالف على الرشيد . غير ان هذا تمكن من توطيد ملكه ثم تعقب مسعودا ومحرضه فقتلهم واعتقل اولاد هلال ثم اطلقهم ثم اعتقلهم وقتلهم . وقد احنق ذلك عرب الخلط وجعلهم ينحازون الى بني مرين الذين كان نجمهم آخذ بالسطوع (٢) .

٣ ـ ان الملك المريني يعقوب (القرن السابع للهجرة) كتب الى عرب جشم واميرهم يومئذ على الخلط بان يناصروا ابا دبوس احد الامراء الموحدين حينما استنجد به فانضموا اليه فزحف بهم على مراكش وانضم اليه كذلك عرب سفيان وبني جابر بزعامة كبيرهم علوش بن كانون السفياني وقد تمكن ابو دبوس بسبب ذلك من الاستيلاء على مراكش وازاحة ابن عمه المرتضى عن العرش والحلول محله (٣) .

---

(١) ج ٢ ص ٢٠ ـ ٣٠ الاستقصاء .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩ ـ ٣٠

(٣) الاستقصاء ج ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

٤ ـ ان احد زعماء البربر في عهد المرتضى الموحدي (القرن الثامن للهجرة) اعلن الثورة فتضامن معه قبائل الشبانات وذوي حسان من عرب معقل وقبائل جزولة فاستفحل امره بهذا التضامن وقد اغتر بما صار اليه امره فارهف حده للعرب وسامهم الهضيمة فزحفوا عليه وقتلوه (١) •

٥ ـ لما انبرى يغمراسن ملك تلمسان لمناوأة الملك يعقوب المريني زحف عليه هذا بحملة قوية كان فيها كثير من قبائل العرب مثل سفيان والخلط والعاصم وبني جابر وذوي حسان والشبانات والاثبج ورياح وعرب السوس الاقصى وبلاد الهبط (٢) •

٦ ـ لما صار العرش المريني الى ابي عنان وفد عليه اولاد مهلهل امراء بني كعب من سليم واقيال بني ابي الليل وبايعوه وحرضوه على ملك تونس الحفصي الذي كان اذ ذاك ابا اسحاق ابراهيم بن ابي بكر فاستجاب لتحريضهم وسير معهم عسكرا كما سير اسطوله لحصار تونس من البحر • فذعر الملك الحفصي وفر ودخل العرب وعسكر ابي عنان تونس وملكوها وارسلوا بالبشرى الى ابي عنان • وكان لعرب رياح في اقليم تونس يد مبسوطة وخفارة يفرضونها على السابلة • فاراد ابو عنان ان يشدد قبضته عليهم فاجمعوا على خلافه وخرجوا الى الزاب بقيادة زعيمهم يعقوب بن علي • وسار الملك المريني خلفهم فارتحلوا الى القفر فخرب حصونهم في الزاب ورجع مكتفيا بذلك •

٧ ـ ان ضرر عرب الشاوية تزايد وشرهم استطار في اواخر عهد بني مرين اغتناما لما ألم بالدولة من ارتباك وزحفوا الى احواز مكناس وفاس وعاثوا وافسدوا • وهؤلاء العرب بطن من سويد احدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين وقد سموا بالشاوية لان اجدادهم سكنوا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠ ـ ١٦

في ناحية بهذا الاسم حينما قدموا الى المغرب الاقصى في زمن اول ملوك بني مرين • وكان زعماؤهم حكام الناحية بالاضافة الى نواح مجاورة اخرى كانوا يتصرفون فيها (١) •

٨ ــ ان اهل فاس بايعوا بعد قتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين (٨٦٩ هـ) الشريف عبد الله الحفيد من ذرية ادريس الكبير فزحفت قبائل زغبة الهلالية الى احواز فاس ومكناس واخذت تعيث فيها فلم يستطع ان يفعل معها شيئا (٢) •

٩ ــ لما نشط ابو حمو موسى في سبيل استعادة ملك ابائه في تلمسان في اواسط القرن الثامن كان لبني عامر بن زغبة الهلاليين اقوى يد في نجاحه • ولقد كانوا على خلاف مع المرينيين منذ استيلائهم على تلمسان فاتصل زعيمهم صغير بن عامر بابي حمو وعرض عليه مساعدته على استعادة تلمسان وتضامن معهم قبائل بني معقل وغيرهم من العرب فزحفوا في جموع كبيرة واستطاعوا ان يستولوا على المدينة • ونتيجة لذلك قامت الدولة الزيانية التي كان ابو حمو اول ملوكها • ولقد كر المرينيون على تلمسان واستطاعوا ان يشردوا ابا حمو عنها غير انه كر ثانية مع انصاره العرب وتمكن من استرداد المدينة سنة ٧٦٠ هـ ونجم ما اضطر السلطان المريني ابا سالم الى الاعتراف بسلطانه والتهادن معه فتوطدت دولته وعمرت طويلا (٣) •

١٠ ــ كان عرب بني سويد في منطقة تلمسان غير موالين لابي حمو فاستصرخوا ابا فارس الملك المريني (القرن الثامن للهجرة) فنهض لنجدتهم واتصل الخبر بابي حمو فجمع الجموع وخرج للقائه • ولكن العرب من بني معقل تفرقوا عنه هذه المرة فاجفل هو واولياؤه

---

(١) ص ١٣٥ ــ ١٣٦ و ١٥٨ ــ ١٥٩ نفس الجزء •

(٢) ص ١٥٩ ــ ١٦٠

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٢٢ ــ ١٤٨

من بني عامر ودخلوا القفر • وقد تمكن ابو فارس من احتلال تلمسان نتيجة لذلك ثم ارسل ابي حمو ومن معه فادركوه واجهضوه عن ماله وعسكره واكتسحوا حلال العرب الذين معه واموالهم (١) •

١١ ــ ان زعيما من البربر اسمه علي بن بدر بسط سلطانه على بلاد السوس في اواسط القرن السابع وكانت قبائل عرب هذه البلاد عدته فتبطرت عليه فزحف للايقاع بها فصمدت له وكسرته وقتل هو في المعركة (٢) •

ـ ٣ ـ

ولقد ذكر العكاك في كتابه تاريخ الجزائر (٣) ــ وهو مؤرخ معاصر ــ خبر زحف بني هلال وبني سليم وانتشارهم في بلاد المغرب بعبارة مقتضبة وقال فيما قاله ان المؤرخين اختلفوا في تقويم عددهم فقال المؤرخ ليون الافريقي نقلا عن تاريخ ابن الرفيق ان عددهم يزيد عن المليون ، وهذا رقم مبالغ فيه ــ والكلام للعكاك ــ والصواب تقديرهم بنصف مليون على الاكثر وبمئتي الف على الاقل • والرقم كبير على كل حال • وهو يعني ان سيلا جارفا من العرب تدفق على بلاد المغرب في القرن الخامس • وبطبيعة الحال انهم نموا وكثروا خلال القرون التسعة التي مرت على طروئهم حتى صار انسالهم ملايين • وهذا بالاضافة الى انسال القبائل التي تدفقت على هذه البلاد وانتشرت وتوطنت في مختلف انحائها قبلهم والتي لا نشك في ان عددها اضعاف عدد بني سليم وبني هلال عند طروئهم على ما يستفاد من وصف تدفقهم وتوالي تدفقهم تحت رايات حملات الفتح الاولى وما بعدها في القرون الثلاثة الهجرية الاولى • ويوجد الآن في مختلف انحاء البلاد المغربية

---

(١) نفس المصدر والصحف السابق ذكرها •

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤

(٣) ص ٣٠٤

قبائل عربية كثيرة ما تزال تحتفظ بطابعها وتقاليدها القبلية ولكن عددها لا يبلغ الملايين حيث يصح ان يقال ان كثرة كبيرة من انسال القبائل التي طرأت على هذه البلاد بل اكثرها قد انتقل من حياة البداوة الى حياة الحضارة واستقر في المدن والارياف المغربية وقد مرت اشارات الى ذلك • وفي كل هذا تعليل للطابع العربي الشامل الذي طبع هذه البلاد • ولقد قال العكاك (١) بعد ان نوه بقوة طابع الآداب والثقافة العربية الذي كان يطبع الدولة الزيانية التي مرت اشارة اليها وما نبغ فيها من علماء وادباء وشعراء ان البربرية قد تضاءلت امام نور العربية المتلألأ ولم يبق لها من اثر الا في كسر البيوت في ذلك العهد ـ أي ما بين القرن السابع الى العاشر ـ ولا شك في ان هذا المظهر قد ازداد توطدا وترسخا خلال الحقبة التالية •

وقد نوه المؤلف في سياق كلامه عن الحكم التركي الذي امتد من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر للهجرة بقبيلة عربية كبرى اسمها الدواويدة (٢) وقال انها كانت مستوطنة في الزاب الجنوبي وقد عمرته وبسطت عليه جناح نفوذها وكونت به شبه دولة رؤساؤها من اسرة ابي عكاز اعترفت بها الدولة التركية ولقبت رؤساءها بشيوخ العرب كما نوه ايضا بقبيلة عربية اخرى تعرف ببني العباس (٣) وقال انه كان لها دويلة بسطت جناحيها على بلاد مجانة في الزاب وتوسعت فيها توسعا كبيرا وكانت عاصمتها قلعة تنسب اليها وتسمى قلعة بني العباس مما فيه صورة من صور الوجود والنشاط القبيلي العربي تضاف الى ما ذكرناه في المناسبات العديدة السابقة •

---

(١) ص ٤٠٤

(٢) ص ٤٥٠ (٣) ص ٤٥٠

وفي كتاب تاريخ الجزائر للمدني الذي نوهنا به قبل فصل بعنوان العنصر العربي [١] اشار فيه الى انسياح القبائل العربية الى بلاد المغرب منذ الفتح ونوه خاصة بانسياح بني هلال وبني سليم وتأثيرهم في طبع هذه البلاد بالطابع العربي • ثم عقد بحثين : الاول على اسماء فروع هذه القبائل في ظروف قدومها • والثاني على اسماء وفروع القبائل العربية ومراكزها في ظروف تأليف الكتاب عام ١٩٣١ م •

وفي البحث الاول تفصيل اوفى مما اقتبسناه من بن خلدون [٢] • والمتبادر انه يتضمن صورة حال بني هلال وبني سليم بعد مضي وقت ما على قدومهم وانتشارهم ولذلك صار من المفيد اثباته كما يلي :

١ — قبائل الاثبج من بني هلال :

دريد • وبطونها اولاد عطية واولاد سرور وجار الله وطوبه • وكرفة وبطونها بني محمد والمروانية وحجيلات ونابت • ومن الفروع الثانوية المتفرقة عن هذه البطون كليب وشبيب وصباح وسرحان • وعمور : وبطونها نره وعبد الله وبني قره • ومن الفروع الثانوية المتفرعة عن هذه البطون محيا واولاد زكري واولاد فارس واولاد عزيز واولاد ماضي • والضحاك وبطونها محايا واولادضيفلوبني الزبير ومرتفعوخراج واولاد صخر ورحمة • ومن الفروع المتفرعة عن هذه البطون اولاد طبلان واولاد حماس واولاد عبدالسلام واولاد قندوز • ولطيف وبطونها تيامى اولاد لقمان • ومن الفروع المتفرعة عن هذه البطون بنو جلال وبنو خليل وبنو مطرق وبراز وجرير •

---

(١) ص ١٢٩ — ١٤٥

(٢) ص ١٣١ — ١٣٨ ولا يذكر المؤلف مصادره ولكن الزيادات تفيد انه نقل عن مصادر اخرى غير ابن خلدون •

٢ ـ قبائل جوشم من بني هلال :

عاصم ومقدم وجوشم • وفروع جوشم الخلط وسفيان وبنو جابر وكلابيا واولاد مطاع •

٣ ـ قبائل رياح من بني هلال :

مرداس • وبطونها الذواودية وسنبر وعامر ومغنم ومن الفروع التي تفرعت من هذه البطون عساكر بن سلطان ومسعد بن سلطان واولاد محمد واولاد سبع واولاد صولة وسنبر وعامر ومغنم وموسى ومحمد وجابر • وعلي وبطونها رجمان وفطر ومناقشة • وعامر ومن بطونها الخضر • وسعيد ومن بطونها اولاد يوسف ومن فروعهم بحور وربوط والمخادمة •

٤ ـ قبائل زغبة من بني هلال :

مالك • وبطونها سويد وديالم وبخيس وعطاف ومن فروع هذه البطون شبايه واولاد ميمون وحوطه وصبيح ومجاهر وفليته وحساسنة وابن رحمة وابو كامل ومالك شفاعي ورفيع وهبة وحمدان وعكرمة وبنو زياد وموال والدشاخنة وبنو يعقوب • ويزيد وبطونها سعد ومعافى وبنو موسى وخشنة وحميان ومربع وحرز وجواب ومن فروع هذه البطون الزرلي وبنو ماضي وبنو منصور • وحصين وبطونها قراش وجندل ومن فروعهما اولاد طرف واولاد فرج واولاد مسعود • وعامر وبطونها الصقر ويعقوب وحميد وشفاعي ومن فروع هذه البطون سليمان وحجازي وميمون وعبد الله وزائر وعلي واولاد سيدي العبدلي والغرابة والحشم ومطرف وشكاره • وعروة وبطونها النذر وحميص ومن فروعهما الصحارى وشريفة والحماقنة واولاد خليفة واولاد سليمان وبنو ريان ويقظان واولاد نائل وعبيد الله •

٥ ـ قبائل معقل وعدي من بني هلال :

صقيل • وبطونها الثعالبة وبنو عبيد الله ومن فروع هذه البطون

خراج وحجاج واولاد عثمان ومطرفة وغوسل وجاونة • ومحمد وبطونها بنو مختارة وبنو منصور ومن فروعهما بنو حسان وبنو علي وشبعانات وبنو ثابت ورقيطات واولاد بو الحصين وحصين وعمران ومؤبت واحلاف •

٦ — قبائل دياب من بني سليم :

اولاد احمد وبنو يزيد وصبحة وحمارنة وخارجة والاود وشاش ومن فروع الاخيرة حريز وجواري والمحاميد وسليمان والنوائل واولاد سنان •

٧ — قبائل هبيب من بني سليم :

سالم • ومن فروعها اولاد مرزوق وعلاونة واماين • وبنو لبيد • وشماخ •

٨ — قبائل زغب من بني سليم :

زغب •

٩ — قبائل عوف من بني سليم :

مرداس • وبطونها كروب ودلاج ومن فروعهما بنو علي بنو بو الليل وطرود • وعلاق وبطونها حصن ومهلهل ورياح وحبيب ومن فروع هذه البطون بنو علي وبدرانه واولاد نامي واولاد صرة واولاد مري وحضرة واولاد ام احمد واهل حصين ومصاوية وحمر وجمباط ورجيلان وهجر واولاد جابر وشعانبة ونير وجوين ومقعد وملاب واحمد ونوه •

١٠ — قبائل محالفة لبني سليم ومندمجة معهم :

الطرود وعدوان وناصرة وقرة وعزة ومن فروع عزة شمال ومحارب •

وهذه اسماء القبائل في الحالة الحاضرة وفروعها ومراكز توزعها كما وردت في البحث الثاني [1] •

١ ــ في عمالة الجزائر :

قبائل الثعالبة وقبائل معقل في سهول متيجة • واولاد ماضي ورياح وبنو منصور وخشنة وموسى وجواب ومربع ويزيد وسليمان حول مدينة سور الغزلان (اومال) •

والبراز وعطاف وجندل في جنوب مليانة وفي سهول الشلف • ونزليوة وعمراوة وعبيد حول بلاد الجرجرة • واولاد نائل والصحارى وبنو زيان في نواحي الصحراء •

٢ ــ في عمالة قسنطينة :

اولاد سعيد والمخادمة واولاد جلال وفارس وعامر في الهضاب العلياء والصحراء •

٣ ــ في عمالة وهران :

بنو عامر والدوائر والزمول بين وهران وتلمسان • الغرابة في ناحية وهران • البرجية في الجنوب الشرقي من وهران • بنو هاشم غربي مدينة معسكر مجاهر قرب مستغانم • صهب قرب الاصنام • فليتة جنوب الاصنام • محايا والجعافرة بني مظهر وخلافات واولاد خالد واولاد الشريف ما بين الساحل وفرندة وسعيدة • اولاد فارس بين تيارب وسور الغزلان • بنو مسلم في الجنوب الغربي من اولاد فارس • هميان وزغبة ثرناد السهول والهضاب العليا صحبة بقايا زناته البربرية المتبلعة • وفي الجنوب اولاد سيدي الشيخ وهي قبيلة حديثة التكوين مؤلفة من مختلف القبائل العربية وبقايا القبائل البربرية•

٤ ــ القبائل العربية المختلطة :

وهنالك قبائل عربية التحمت مع قبائل البربر بالمصاهرة والجوار

---

(١) ص ١٣٩ ــ ١٤٠ المتبادر ان ما جاء في هذا البحث هو تحقيق وسماع شخصيان.

فحصل بينهما امتزاج كبير بابتلاع العرب للبربر • وجميع هذه القبائل في عمالة قسنطينة واشهرها : بنو مرداس قرب عناية • ودريد بين وادي الزناتي وتبسه • وكرفه قرب عين البيضاء • وعطية في نواحي جيجل • واولاد ماضي قرب برج بو عريرج • واولاد صولة في الزاب • والزواودة بين الزاب والحضنة [1] •

وقد قدر المؤلف المدني [2] عدد بني هلال وبني سليم حين قدومهم الى بلاد المغرب بين الثلاثمائة والخمسمائة الف وهو متقارب في تقديره مع المؤرخ العكاك •

— ٥ —

ولم نجد مصدرا يذكر حالة القبائل العربية الحاضرة واسماءها ومراكز انتشارها في الاقليم التونسي مع ان هذا الاقليم كان من اول محطات واول مجال نشاط القبائل العربية تحت راية الفتح وبعده وخاصة قبائل بني هلال وبني سليم •

ولقد قال مؤلف كتاب « هذه تونس » الذي ذكرناه قبل [3] انه لا يوجد قبائل رحالة في القطر التونسي الا في المنطقة الوسطى وان السلطة لو اعتنت بمسائل الري لاستقرت هذه القبائل ايضا حيث يفيد الكلام انه لا يزال يوجد جماعات عربية تعيش عيشة القبيلة والبداوة استمرارا على ما كان من امرها وان كان يفيد في نفس الوقت قلة هذه القبائل واندماج معظم القبائل العربية التي وفدت على هذا القطر في حياة مدنه وريفه •

---

(١) ص ١٤٠ ويلحظ ان الاسماء عربية . والظاهر ان البربر انضووا في هذه الاسماء وهذا ما قد يعنيه قول المؤلف ان العرب ابتلعوا البربر .

(٢) ص ١٣٨

(٣) ص ٥

ولقد كتبنا لعلامة تونس الكبير الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب نطلب منه بيانا شافيا فارسل الينا مذكرة نسجل له هنا من اجلها شكرنا الجزيل • ومما تضمنته المذكرة :

١ ــ ان ارومات عربية كثيرة من المستقرين في مدن القطر التونسي ما تزال تحتفظ بانسابها الى قبائل لخم وتنوخ وتجيب والازد وجذام ومهرة القحطانيين والى بني تميم وفهر من العدنانيين الذين جاؤوا الى شمال افريقية في القرنين الاول والثاني في ظروف حركة الفتح

٢ ــ انه لم يبق معروفا في البلاد التونسية من بني هلال الا قبيلتا دريد ورياح ، وان بقية القبائل التونسية هي من فرع بني سليم • وهي متفرقة في انحاء الجمهورية التونسية • وكان اغلبها الى عهد غير بعيد يعيش عيشة القبيلة ثم استقر بعضها في اماكن وقرى معينة يزرع الارض ويربي الماشية ، بينما ظل بعض آخر يعيش عيشة التنقل وراء الكلأ والماء • منه من يفعل ذلك بين القرى في فصلي الخريف والصيف • ومنه من يفعل ذلك في البادية في فصلي الشتاء والربيع • وهذه اسماؤها ومنازلها :

آ ــ في معتمدية مجاز الباب من ولاية باجة من رياح الهلاليين :
الصميدية ــ الدعاجة ــ اولاد الامير ــ اولاد الحاج ــ الخرابصية ــ العبادلية ــ الحمايدية ــ اولاد سيدي عبد النور ــ المساعيد •

ب ــ في نفس المعتمدية من دريد الهلاليين :

اولاد جوين ــ اولاد عرفة ــ اولاد مناع ــ بنو رزق •

ت ــ في ولاية الكاف من دريد الهلاليين :

اولاد خلفة ــ اولاد حربي ــ اولاد خالد ــ اولاد عباس ــ اولاد فتوح ــ اولاد قاسم ــ اولاد ميمون ــ اولاد موسى •

ث ــ في نفس الولاية من اولاد يعقوب الهلاليين :

بنو وائل ــ اولاد المهدي ــ الشبارية •

ج ــ في ولاية ققصة من قبيلة االهمامة من سليم :

اولاد بالهــادي ــ اولاد محمد ــ البدور ــ الردائيديــة ــ اولاد عبد الكريم ــ اولاد مبارك ــ اولاد سيدي علي بن عون ــ اولاد الحاج ــ الخدمة ــ الظواهر ــ الدوالي ــ اولاد مبروك ــ اولاد سيدي بو زيد ــ الحرشان ــ اولاد وهيبة ــ اولاد معمر ــ اولاد عليم ــ اولاد بو علاق ــ اولاد احمد ــ اولاد يوسف ــ اولاد بيــه ــ العكارمــة ــ اولاد سيدي خليفةــ اولاد سيدي تليل ــ الملكيــات •

ح ــ في معتمدية الصخيرة في ولاية صفاقس من قبيلة نفــات من سليم :

السماعيلية ــ عوين ــ العطيات ــ اولاد حامد ــ الكرائية •

خ ــ في معتمدية قبلي ولاية قابس من اولاد يعقوب من سليم :

اولاد سباع المهاملة ــ اولاد بوبكر الغياليف ــ اولاد ميرةالمقارحة ــ اولاد عزيزة المكاشرة •

د ــ في معتمدية دوز ولاية قابس من المزاريق من سليم :

اولاد عبد النور ــ الجلايلة ــ اولاد عون ــ اولاد منصور ــ اولاد يحيى ــ العبيدات ــ العبادلة ــ اولاد عثمان ــ اولاد عبد الله ــ اولاد نصر ــ اولاد عمر •

ذ ــ في نفس المعتمدية من قبيلة العذارة [1] :

العرايفة ــ الرتيمات ــ اولاد مرزوق ــ اولاد ابن نصر ــ اولاد بالليلة ــ اولاد حسن •

ر ــ في نفس المعتمدية من قبيلة الصابرية من سليم :

---

(١) نبه علامتنا التونسي في هامش مذكرته على هذه القبيلة بقوله يقال انهم من بقايـا بني عذرة الذين كانوا بالجزيرة •

الرحامنة ـ شبيب •

ز ـ في نفس المعتمدية من قبيلة قعود من سليم :

الجراردة ـ اولاد علي ـ اولاد نويصر •

س ـ في نفس المعتمدية من قبيلة غريب من سليم :

اولاد موسى ـ اولاد نويجي ـ اولاد بورابع •

ش ـ في معتمدية تطاوين في ولاية مدنين من عرب تطاوين من سليم :

اولاد دباب ـ اولاد شهيدة ـ اولاد سليم ـ الودارنة ـ الدغاغرة •

ص ـ في معتمدية بنقردان في ولاية مدنين فروع متعددة من قبيلة التوازين من سليم •

ض ـ في معتمديتي ترياقة وجبنيانه في ولاية صفاقس من قبيلة المثاليث من سليم :

اولاد نجليم ـ اولاد سليم ـ اولاد مراح ـ اولاد بو سمير ـ اولاد يوسف ـ اولاد المبروك ـ اولاد الحاج ـ المساترية ـ المراعية ـ الخشارمة •

ط ـ في معتمديات المهدية والمنستير وجمال من ولاية سوسة من عرب المثاليث ايضا :

اولاد زيد ـ اولاد نصر ـ الحكانمة ـ الرشارشة ـ البرادعة ـ السعد •

ظ ـ في معتمدية الحمامة في ولاية قابس من بني يزيد من سليم :

الشياب ـ السمايحة ـ التراجمة ـ الشعل ـ الخرجة ـ الاصابعة ـ الشلاخشة ـ الزمازمة ـ الجماين ـ اولاد خليفة ـ اولاد ضو ـ الحرشان ـ اولاد بن خود •

ع ــ في معتمدية مارث في ولاية قابس من الحمارنة من بني يزيد من سليم :

اولاد عبد اللطيف ــ اولاد بو عبيد ــ الجلائلة ــ العزائية ــ الموامنة ــ الكواكبية ــ العلاية ــ اولاد حديدان ــ اولاد محمد ــ العصايدة ــ الحمايدة ــ العوامر [1] •

ولقد وددنا ان نحصل على بيانات مماثلة عن حالة القبائل العربية الحاضرة في المغرب الاقصى اوسع مما جاء في كتاب الاستقصاء واوردناه قبل فكتبنا لوزير الداخلية المغربية ولبعض علماء المغرب فلم نتلق منهم جوابا فاضطررنا الى الاكتفاء بما اوردناه سابقا •

(١) مما ذكره مؤلف رسالة هذه تونس ان قبائل بني يزيد مشهورة بالنخوة العربية وانهم قاموا في سنة ١٩١٥ بثورة لاهبة استمرت سنتين وكلفت الافرنسيين افدح الخسائر وكانت بقيادة البطل الشهير الحاج سعيد بن عبد اللطيف (ص ٨٥) .

– ٤ –

السلطان العربي الارومة في بلاد المغرب

تمهيـــد

ان مجال الحكم والسلطان في بلاد المغرب لم يخل من العنصـــر العربي في اكثر ادوار التاريخ التي اعقبت الفتح ان لم نقل في جميـــع هذه الادوار ٠

فقد كان سلطان الدولة الاموية والدولة العباسية في القرنين الاول والثاني موطدا فيها يمارسه من قبلها ولاة عرب اقحاح ٠ منهم فـــي زمن الدولة الاموية معاوية بن جديج وعقبة بن نافع وابي المهاجر دينار وزهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير واسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر ويزيد بن مسلم وبشر بن صفوان وعبيدة بن عبد الرحمن وعبيد الله بن الحباب وكلثوم بن عياض وحنظلة بن صفوان وعبد الرحمن بن حبيب والياس بن حبيب ٠

ومنهم في زمن الدولة العباسية حبيب بن عبد الرحمن وعبد الملك ابن ابي الجعد وعبد الاعلى بن السمح ومحمد بن الاشعث والاغلب ابن سالم التميمي وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم وروح بن حـــاتم والفضيل بن الفضل وخزيمة بن اعين ومحمد بن مقاتل وابراهيم بن الاغلب [١] ٠

---

(١) انظر الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ج ١ ص ٣٦ ـ ٥٩ وتاريخ بن خلدون ج ٤ ص ١٨٥ ـ ١٩٦

ثم اخذ الصراع يشتد بين العرب والبربر علـــى السلطان فصار يقوم في مختلف انحاء المغرب دول وامارات بربرية الارومة غير ان كثيرا من رجالها وقضاتها وقوادها وجندها كانوا عربا اقحاحا ايضا بالاضافة الى طابعها العربي ولغتها العربية •

و فيخلال هذا الصراع صار يقوم دول وامارات عربية الارومـــة ايضا واستمر هذا متوازيا مع ذلك في مختلف ادوار التاريخ على ما يأتي تفصيل ذلك فيما يلي :

الدولة الحميدية (١)

نشؤها واسماء امرائها

— ١ —

هذه اولى الامارات او الدول العربية الارومة في المغرب الاقصى. وكانت بدايتها اقطاعا . فقد استخلص صالح بن منصور الحميدي من عرب اليمن ومن رجال بعوث الفتح الاولين ـ وكـان يعرف بالعبد الصالح ـ ناحية نكور التي تنتهي من جهة المشرق الى زواغة وجراوة فاقطعه اياها الوليد بن عبد الملك سنة ٩١ ه فتمكن فيها مع عشيرته . واخذ يبذل جهده في نشر الاسلام بين فروع من قبائل غمارة وصنهاجه كانت نازلة في جوار ناحيته ونجح في جهده واصبح الحاكم في الناحية . وقد امتد عمر هذه الامارة اكثر من ثلاثة قرون . وذكر المؤرخون من اسماء الذين تولوا الحكم فيها من الاسرة الاسماء التالية :

صالح الاول
المعتصم بن صالح
ادريس بن صالح
سعيد بن ادريس
صالح بن سعيد
سعيد بن صالح
صالح من فرع الاسرة في مالقة
ابو نوار من احفاد سعيد بن ادريس
موسى من احفاد صالح

---

(١) سيرة هذه الدولة مقتبسة من تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢١١ ـ ٢١٤

عبد السميع من احفاد ادريس
جريح بن احمد بن زيادة الله من احفاد صالح

سيرتهـــا

ومما ذكره ابن خلدون من سيرة الامارة وامرائها ان صالحا توفي سنة ١٣٢ هـ فتولى حكم الناحية ابنه المعتصم ومات هذا بعد ثلاث سنين فتولى الحكم اخوه ادريس • وهو الذي اختط مدينة نكور في عدوة الوادي • ومات هذا سنة ١٤٠ هـ فتولى الحكم ابنه سعيد الذي استفحل امره • وقد ثارت عليه غمارة ولكنه تمكن من قمع ثورتهم وتوطيد سلطانه • ومات سنة ١٨٨ فقام بالحكم ابنه صالح • وكان مستقيما قويا • وكان له مع البربر حروب ووقائع واستطاع ان يحتفظ بسلطانه في الناحية الى ان مات سنة ٢٥٠ هـ بعد حكم امتد ٧٢ عاما • وخلفه ابنه سعيد الذي كان اصغر ا ولاده بعهد منه • فنافسه اخ له اكبر منه اسمه عبد الله وعم له اسمه الرضى ولكنه تغلب عليهما • وغزا بلاد بطوية وتمكن من مد سلطانه اليها • وظل امره وطيدا الى ان قامت الدولة الفاطمية • ولما طمح المهدي اول خلفاء هذه الدولة الى مد سلطانه الى المغرب كانت هذه الامارة من جملة ما طمح اليه فارسل يطلب من سعيد الخضوع لسيادته وفي اسفل كتابه بيتان فيهما تهديد له حيث جاء فيهما :

وان تستقيموا استقم بصلاحكم وان تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا
واعلو بسيفي قاهرا لسيوفكم وادخلها عنوا واملأها قتلا

وقد اجابه بشعر نظمه له شاعره الاحمس جاء فيه :

كذبت وبيت الله ما تحسن العدلا ولا علم الرحمن من قولك الفعلا
وما انت الا جاهل ومنافق تمثل للجهال في السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فامر المهدي مصالة بن حبوس عامله على تاهرت بغزوه فغزاه وصمد سعيد له بل وكسب الغلبة عليه ثم تمكن مصاله من التغلب عليه في النهاية وظفر به وقتله واستولى على نكور • وكان لسعيد عشيرة واقارب في مالقة فسارعوا الى نجدة قريبهم وعبروا الى المغرب ونزلوا مرسي نكسامان فاجتمع البربر اليهم وبايعوا واحدا منهم اسمه صالح سنة ٣٠٥ ه وزحفوا معه على نكور فاستولوا عليها وقتلوا العامل الفاطمي والحامية الفاطمية • ثم كتب صالح الى الخليفة الاموي في قرطبة عبد الرحمن الناصر بالفتح وخطب له فسر الناصر وارسل اليه الهدايا والتحف وسير اليه سائر قومه وهكذا عاد امر الاسرة فاستقام ثانية • ومات صالح سنة ٣١٥ ه فسارعت القوات الفاطمية الى الزحف على نكور وتمكنت من دخولها واستباحتها ثم تراجعت عنها فقام على حكمها ابو نوار من اقارب سعيد وعمرها • ولم يكد امره يستقيم حتى غزاها الفاطميون ثانية في خلافة القائم وتمكنوا من التغلب على ابي نوار والظفر به وقتله وسبوا المدينة واقاموا عليها عاملا من كتامه • غير ان اهلها ثاروا بالعامل بعد رجوع القوات الغازية واخرجوه وبايعوا واحدا من الاسرة اسمه موسى • ونافسه احد رجال الاسرة عبد السميع وثار عليه فثار عليه اهل نكور واسقطوه واستدعوا واحدا آخر من الاسرة اسمه جريح من مالقة وبايعوه سنة ٣٣٦ ه فاستقام امر الامارة الحميدية وظل مستقيما يتوارث الحكم عليها بنو جريح الى سنة ٤٠٦ حيث زحف عليها يعلي بن ابي الفتوح الازداواجي المتغلب على وهران فاستولى على نكور وضربها وفرض سلطانه على الناحية فكان ذلك نهاية هذه الامارة •

الدولة الادريسية (١)

ظروف نشأة هذه الدولة واسماء ملوكها

— ٢ —

مؤسس هذه الدولة هو ادريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن ابن طالب •

وقد جاء الى المغرب فارا من العباسيين على اثر ثورة عمه الحسين ابن علي سنة ١٧٠ هـ وقمعها من قبل العباسيين ومطاردة ذوي الثائر • ونزل في مدينة وليلي في المغرب الاقصى على اسحق بن محمد امير قبيلة اوربة البربرية فاجاره واكرمه وجمع البربر على دعوته وخلع طاعة العباسيين • وقد بايعه البربر على السمع والطاعة والقيام بامره والاقتداء به في صلواتهم واحكامهم وغزواتهم • وكانت اوربة من اعظم قبائل البربر واكثرها عددا • وقد تابعها على بيعة ادريس قبائل مغيلة وصدينة ثم زناته وزواغة وزواوة وسدراته وعناتة ومكناسة وغمارة فعظم امره وكثرت جموعه فكان ذلك بدء قيام هذه الدولة الذي يؤرخه بعض المؤرخين بعام ١٧٠ هـ وبعضهم بعام ١٧٢ هـ •

وقد تلقب ادريس بلقب الخلافة وامرة المؤمنين وجرى خلفاؤه من بعده على ذلك •

ولقد اخذ ادريس بعد ان اخذ البيعة من قبائل البربر يسيطر على انحاء المغرب ناحية بعد ناحية • وخرج اليه حاكم مدينة تلمسان من

---

(١) من مصادر سيرة هذه الدولة تاريخ بن خلدون ج ٤ ص ٢ — ٨ و ١٢ — ١٨ والاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ج ١ ص ٦٤ — ٧٩ انظر ايضا تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤١٠ وما بعدها مطبعة الاستقامة .

قبل العباسيين محمد بن خرز المغراوي البربري مستأمنا مبايعا فـدخلت هذه المدينة وما والاها في سلطانه في جملة ما دخل من مدن وانحـاء المغرب الاقصى والاوسط • وارتاع هرون الرشيد الخليفة العباسي مما بلغه من اخباره فارسل رجلا اسمه سليمان بن جريز الملقب بالشماخ ليعمل على اغتياله باسلوب ما ، وتقدم هذا الى ادريس متبرءا من العباسيين طاعنا فيهم زاعما انه جاء لاجئا اليه منهم وكان ظريفا اديبا فتمكن من ادريس ومجالسه حتى سنحت له الفرصة فدس له السم في عطر فكان في ذلك حتفه سنة ١٧٧ هـ • وكان قد تزوج بجارية من البربر اسمها كنزة وكانت حاملا فلم تلبث بعد موته ان وضعت حملها غلاما فسمته باسم ابيه ، وقد اتفق زعماء البربر علـى استبقاء العرش لـه واقامة راشد مولى ادريس الذي جاء معه وصيا على العرش فقام هذا باعباء الملك احسن قيام • ولقد عمد الرشيد بالاضافة الى تدبير اغتيال ادريس الى تدبير آخر وهو تفويض ولاية القيروان الى ابراهيم بن الاغلب على ان يكون له صلاحيات استقلالية واسعة وتكون الامـارة من بعده لاولاده حتى يقف للدعوة والدولة الادريسية العلوية بالمرصاد ويناوئهما ويحبطهما بما يقدر عليه • وقد استطاع سنة ١٨٦ هـ تدبير اغتيال راشد الوصي كعمل من اعمال التعكير والتكدير فاقام زعمـاء البربر مقامه في الوصاية ابا خالد بن يزيد العبدي الى ان بلغ ادريس رشده واستلم مقاليد الدولة وبدت منه من بوادر الاقدام والنشاط ما وطد دولته •

وهو الذي أنشأ مدينة فاس وجملها بالمساجد والقصور والاسواق والحمامات وحصنها بالاسوار والقلاع واتخذها عاصمة له سنة ١٩٧ فظلت كذلك الى نهاية مدة الدولة • وقد غزا بلاد المصامدة واستولى عليها وفتح فيما فتح مدن اغمات ونفيس ، وغزا المغرب الاوسط ووطد سلطانه على قبائل نفرة وحارب فيمن حارب قبائل بربرية اعتنقت مذهب الصفرية من الخوارج واخذت تعيث في البلاد واستطاع ان ينكـل

بها • وقد وفدت عليه الوفود من مختلف انحاء المغرب الاقصى والاوسط ومن الاندلس ، ووفد عليه فيمن وفد جماعات كثيرة من العرب يمتون الى قبائل قيس والازد ومذحج ويحصب والصدف • فسر بوفادتهم وأنس بقربهم وقويت عصبية العروبة بهم واختص بارزيهم بامور الدولة توطيدا لعروبتها وتفاديا من استيلاء البربر على مقاليدها •

وقد استوزر منهم عمر بن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وسادتهم ، وعين عامرا بن محمد القيسي للقضاء وكان من اهل الفقه والورع كما استكتب ابا الحسن بن عبد الله بن مالك الخزرجي • وقد حاول ابن الاغلب والي القيروان ان يعكر علي ادريس لما رآه من تعاظم امره ، واستطاع ان يقلب عليه قلب بهلول بن عبد الواحد المظفري احد خواص رجاله واركان دولته وجعله يعتزله ويهم بالثورة عليه مع قومه ولكن ادريسا استرضاه واستعطفه بقرابته من رسول الله حتى جعله يكف عما هم به • وقد عزى الى ادريس ابياتا يخاطب بها بهلولا في هذه المناسبة وهي :

أبهلول قد حملت نفسك خطة تبدلتنيها ضلة برشاد
أضلك ابراهيم مع بعد داره فاصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر بن اغلب وقد ما رمي بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا ومناك ابراهيم شوك قتاد

فكاتب ابن الاغلب زعيما آخر وهو اسحق بن محمد الاوربي وافسده على ادريس حتى هم كذلك بالثورة ولكن ادريسا احبط تدبيره وظفر باسحق وقتله •

ويبدو من ثنايا ما كتبه المؤرخون ان الامر وقف بين الاغالبة والادارسة عند هذا الحد حيث لم يسجلوا احداثا عدائية بين الفريقين بل لقد ذكر ابن خلدون ان ادريسا جنح الى مسالمة ابراهيم وان هذا بادله المسالمة واستمر الحال في عهد خلفائهما على هذا فكان ذلك من

اسباب استقرار ملك الفريقين كل في اقليمه • ويبدو من هذا البيان ان موطد الدولة الادريسية هو ادريس الثاني •

ولقد تقلبت حالة هذه الدولة على اطوار مختلفة من ضعف وقوة واضطراب وهدوء وتعرضت لتجاذب شديد بين الدولة الاموية الاندلسية والدولة الفاطمية وانتقص من اطرافها وسيادتها في اثناء ذلك حيث كان ملوكها يضطرون الى الخضوع احيانا لهؤلاء واحيانا لهؤلاء ثم الى التخلي عن بعض الاقاليم • وكان بعضهم يتعرض مع ذلك الى العزل والنفي والقتل في سياق هذا التجاذب ايضا • وقد كان يقع الى هذا وذاك نزاع وتناحر بين امراء الاسرة على الحكم فيتعرض الملوك الجالسون من جراء ذلك الى الخلع والقتل ايضا •

وقد امتدت حياة هذه الدولة بين سيادة وخضوع وانتقاص ملك وتناحر على الحكم الى سنة ٣٧٥ مع تخلل هذه المدة بعض فترات فراغ واتخاذ قلعة اسمها جحر النسر مركزا لها في فترة من الفترات بدلا من فاس •

وهذه اسماء ملوكها :

ادريس الاول ومدته من سنة ١٧٠ الى ١٧٧
ادريس الثاني ومدته من سنة ١٧٧ الى ٢١٣
محمد بن ادريس الثاني ومدته من سنة ٢١٣ الى ٢٢
علي الاول بن محمد ومدته من سنة ٢٢١ الى ٢٣٤
يحيى الاول بن محمد ومدته من سنة ٢٣٤ الى ؟ (١)
القاسم بن يحيى ومدته من سنة وخلع

---

(١) لا يذكر ابن خلدون والسلاوي التواريخ التي تركنا محلها فارغا .

عمر بن علي ومدته من سنة   وخلع
يحيى الثاني بن القاسم ومدته من سنة   الى ٢٩٢ وقتل
يحيى الثالث بن ادريس بن عمر ومدته من سنة ٢٩٢ الى ٣٠٩وقتل
الحسن بن محمد القاسم ومدته من سنة ٣١٠ الى ٣١٣ وقتل
القاسم بن محمد بن القاسم ومدته من سنة   الى ٣٣٧
ابو العيش بن القاسم ومدته من سنة ٣٣٧ الى ٣٤٨
الحسن بن القاسم ومدته من سنة ٣٤٨ الى ٣٦٢ وخلع
الحسن بن القاسم ثانية ومدته من سنة ٣٧٣ الى ٣٧٥ وقتل •

سيرة ملوك الدولة واحداثها

— ٢ —

وحينما تولى محمد بن ادريس الملك بعد وفاة ابيه جنح الىسياسة ارضاء اخوته العديدين من جهة وتوطيد سلطان الاسرة من جهة اخرى فولى اخاه القاسم طنجة وتطوان وسبته وما والاها ، واخاه عمر تكساس وترغة وما والاها ، وما فيها من قبائل صنهاجة وغمارة ، واخاه داود بلاد هوارة وتسول وتازا وقبائل مكناسة وغياثه واخاه يحيى اصيلاوالعرايش وبلاد روغة واخاه عيسى سلا وشالة وأزمور وتامسنا واخاه حمزة مدينة وليلى واعمالها واخاه احمد مدن تادلا ومكناسة وما والاها واخاه عبدالله مدن اغمات ونفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى ، وعين ابن عمه عيسى لولاية تلمسان •

وبدلا من ان يؤدي هذا التدبير الى توطيدسلطان الاسرةالادريسية وتضامنها فانه أدى الى فتنة بين الاخوة • فقد اعلن عيسى اخو الملك تمرده في مدينة آزمور وخلع طاعة اخيه ، فامر الملك اخاه القاسمباخضاع أخيه بالقوة فابى ، فامر اخاه عمر بذلك فاستجاب وتمكن من الاستيلاء على أزمور وتشريد الاخ المتمرد عنها فضم الملك اليه هذه الولاية ثم امره

بتأديب القاسم الذي امتنع عن تنفيذ الامر الاول ففعل وتمكن من تشريده ايضا بعد حرب شديدة فضم الملك اعماله اليه ايضا فغدا في يـد عمر الريف البحري كله على ساحل البحر الابيض وعلى ساحل المحيط •

وقد كان علي ابن محمد حينما تولى ابوه صبيا عمره تسع سنين فقام باعباء الدولة اوصياء من العرب والبربر فاحسنوا كفالته وطاعتـه وادارة شؤون الملك الى ان بلغ الرشد واستلم مقاليد الحكم ، وكـانت أيامه أيام خير وسلام •

وفي عهد يحيى الذي تولى بعد بن اخيه علي عظمت الدولةواستبحر عمران فاس وانشئت حولها الارياض ونزح اليهـا الناس من الثغور القاصية • وفي عهد هذا الملك انشىء جامع القرويين المشهور الذي كان بمثابة جامع الازهر في القاهرة •

وفي عهد يحيى الذي تولى بعد بن اخيه على عظمت الدولةواستبحر العبث مجاهرا بالفسق فثار عليه الناس وخلعوه وبايعوا ابن عمـه عمر • ولم يكد يتولى مقاليد الحكم حتى ووجه بثورة عاتية قادها عبدالرزاق الفهري وكان من الخوارج الصفرية وتبعه خلق كثير من البربر ، فزحف بهم الى فاس فخرج عمر الى لقائه فدارت الدائرة عليه وملـك الخارجي المدينة وخطب له فيها • على ان اهل فاس لم يطيقوا حكمه فاتصلوا بيحيى بن القاسم احد امراء الاسرة واستدعوه وبايعوه وآزروه حتـى تمكن من اخراج الخارجي من فاس وتوطيد سلطان الدولة الادريسية ثانية ، ثم تفرغ لاستئصال شأفة الصفرية فكانت له معهم حروب ووقائع عديدة مات في احـداها وان كـان استطاع جيشه ان ينكل بالخوارج تنكيلا شديدا •

ويصف المؤرخون يحيى بن ادريس الذي تولى الحكم بعد هـذا بانه واسطة عقد البيت الادريسي واعلاهم قدرا واغزرهم علما وفضلا واوسعهم ملكا • وكان فقيها حافظا للحديث فصيحا شجاعا • وقد قال

عنه ابن خلدون انه لم يبلغ احد من الادارسة مبلغه في السلطان والهيبة . وقد امتد ملكه على جميع اعمال المغرب وسكن الناس الى عدله وفضله ..

غير ان يحيى اصطدم بالدولة الفاطمية التي قامت في زمنه . فان عبيد الله المهدي سير قائده مصالة بن حبوس المكناسي سنة ٣٠٥ بعد ان توطدت دولته في المغرب الاوسط على رأس حملة نحو المغرب الاقصى ليطوعه للدولة الفاطمية فبرز يحيى الى لقائه في جموع من البربر والعرب والتقوا قرب مكناسة فدارت على يحيى الدائرة فعاد الى فاس منهزما وتقدم مصالة فحاصر المدينة وضيق عليها فلم ير يحيى في نفسه طاقة على المقاومة فعرض على القائد الصلح والدخول في بيعة الخليفة الفاطمي واداء مال سنوي اليه مقابل بقائه صاحب السلطان في المغرب الاقصى ، فقبل القائد بالعرض على ان تكون له ولاية مدينة فاس فقط ويكون لابن عمه موسى بن ابي العافية المكناسي ولاية ما عداها من المغرب الاقصى . ولم يكن ليحيى مناص من القبول . وهكذا توحد المغربان تحت سلطان الفاطميين وخضعت الدولة العلوية القديمة للدولة العلوية الجديدة سنة ٣٠٥ .

على ان مصالة لم يلبث ان عزل يحيى عن فاس ايضا سنة ٣٠٩ بتحريض ابن عمه ونفاه الى ناحية اصيلا وصادر امواله وذخائره ، ثم اعتقله موسى بن ابي العافية وسجنه في مدينة الكاي حيث بقي سجينا عشرين سنة ثم خرج وارتحل الى المهدية وقد بلغ من سوء الحال والفقر والذلة اشد مبلغ ولم يلبث ان مات فيها سنة ٣٣٢ .

ولقد اثار غدر مصالة وموسى في يحيى الادارسة والتفوا حول احدهم الحسن بن محمد بن القاسم المعروف بالحجام سنة ٣١٠هـ مع جمع كبير من شيعتهم من العرب والبربر وزحفوا على فاس واستولوا عليها وقتلوا واليها الفاطمي ريحان ، واقبل اهل المدينة فبايعوا الحسن ثم دخل في طاعته اكثر انحاء وقبائل البربر في المغرب الاقصى ، وكاد الامر

يستقيم للادارسة ثانية . غير ان هذا لم يدم الا سنتين ، فقد خرج الحسن بجمع عظيم لمطاردة موسى ابي العافية واشتبك معه في معركة كبيرة دارت الدائرة فيها عليه فعاد الى فاس منهزما فما كان من وكيله فيها الا ان غدر به واعتقله وارسل الى موسى يعلمه بذلك فجاء هذا الى فاس واستولى عليها . وندم الوكيل على اعتقال سيده فسهل له الفرار ففر الى المهدية ولم يلبث ان لقي حتفه فيها سنة ٣١٣ .

خضوع الادارسة للفاطميين والامويين ونهاية دولتهم

— ٣ —

وكانت بعد ذلك فترة فراغ لم يمارس الادارسة فيها سلطانا وكاد امرهم يذهب بددا . بل لقد كان حادث استيلاء ابي العافية على فاس وتشرد الحسن عنها نهاية امرهم كاصحاب دولة وكيان . وكل ما كان من امرهم بعد ذلك فترة من الزمن كانوا فيها ولاة خاضعين للفاطميين تارة والامويين اخرى .

فقد تمرد موسى بن ابي العافية على الفاطميين وتحول الى الامويين فسير عليه الفاطميون جيشا شتت شمل جموعه وشرده ، فكان ذلك فرصة للادارسة حيث اجتمعوا وبايعوا القاسم بن محمد بن القاسم والتف حوله الانصار وتوطد حكمه في معظم المغرب الاقصى عدا فاس ، فاتخذ قلعة حجر النسر مركزا له ومعصما ، ثم اتصل بالفاطميين واتفق معهم على ان يتولى حكم المغرب الاقصى تحت سيادتهم .

فلما مات سنة ٣٣٧ هـ تولى الحكم بعده ابنه ابو العيش وكان التشاد على المغرب الاقصى قد اخذ يشتد بين الدولتين الاموية والفاطمية فحلا لابي العيش ان يتحول عن الفاطميين الى الامويين ـ وهذا من غرائب المناقضات التاريخية العربية ولعل الباعث عليه ما رآه ابو العيش من احتمال الاستمتاع بسلطان اوسع واتم ـ فرحب عبد الرحمن الثالث

الناصر بالتحول وارسل الى ابي العيش عهدا بالولاية وصارت المنابر في المغرب الاقصى تخطب للخليفة الاموي في ظل السلطان العلوي ... وقد استتب الامر لابي العيش ، وكان السواد الاعظم من اهل المغرب مؤثرين للادارسة ، واستشعر الخليفة الاموي بذلك وخشي ان يطمح الادريسي الى الاستقلال التام فاخذ ينقص من اطراف ولايته شيئا فشيئا ويعين عليها عمالا آخرين حتى ضاقت رقعة حكمه فهانت عليه واستأذن الناصر بالجواز الى الاندلس للجهاد فاذن له وامر برعايته حتى مات سنة ٣٤٨ شهيدا في مجاهدة الافرنج .

ولما خرج ابو العيش الى الاندلس استخلف على الولاية اخاه الحسن . وفي هذه الاثناء أي في سنة ٣٤٧ سير المعز الفاطمي قائده جوهر الى بلاد المغرب الاقصى لتقويض ما قام من سيادة الامويين عليه وتمكن هذا بالحرب والدهاء من اعادة سلطان الفاطميين ثانية على هذا المغرب داخله وسواحله خلال ثلاثين شهرا قضاها في هذه المهمة . وقد دخل الحسن فيمن دخل في نطاق سلطان الفاطميين وقطع خطبة الامويين .

ولم يسكت الامويون عما جرى فسيروا سنة ٣٦٢ جيشا عظيما الى المغرب اعاد سيادتهم ثانية عليه ، وحاصر قلعة جحر النسر عاصمة الحسن فلم يكن من هذا الا ان طلب الامان لنفسه وذويه لينزل الى القائد ويسير معه الى قرطبة . وارتحل هو واكثر العترة الادريسية الى الاندلس وحلوا في قرطبة واجرت الدولة الاموية عليهم العطاء . غير ان خلافا نشب بين الحسن والحكم الثاني الذي كان تولى الملك بعد عبد الرحمن الثالث جعله يأمر بمصادرة اموال الحسن واخراجه مع اسرته الخاصة من الاندلس سنة ٣٦٥ ، وقد ركب الحسن مع اسرته البحر الى تونس ثم الى مصر فاستقبله العزيز بالله الفاطمي استقبالا كريما وظل في رعايته حتى اذا كانت سنة ٣٧٣ وامكن لقوات الدولة الفاطمية استعادة المغرب الاقصى كتب للحسن عهدا بالولاية عليه وامر بلقين بن

زيري نائبه العام في افريقية بتقويته ومساعدته . فلما وصل اقبل البربر على الترحيب به وشد ازره . ولكنه لم يكد يهنأ بالولاية حتى سير الحاجب المنصور المتغلب على الدولة الاموية جيشا كثيفا لاعادة سلطان الدولة الاموية على المغرب الاقصى ، وقد اتم الجيش مهمته فما كان من الحسن الا ان طلب الامان والسماح له بالجواز الى الاندلس مرة اخرى ، ومنحه القائد الامان غير ان الحاجب المنصور ارسل اليه من قتله في طريقه سنة ٣٧٥ فكان ذلك آخر عهد النشاط الادريسي في مجال الحكم والسلطان في المغرب الاقصى بعد ان امتد نحو مئتي سنة وكان من عوامل توطيد العروبة والاسلام في هذه الربوع .

ولقد قدر لهذه الاسرة ان تبرز في مجال الحكم والسلطان في قرطبة ومالقة في ظروف انهيار الدولة الاموية الاندلسية في اوائل القرن الخامس الهجري كما قدر لها ان تبرز في هذا المجال لفترة من الزمن في سبته وطنجة في اواخر القرن الرابع الهجري ثم في بلاد العسير من جزيرة العرب في مطلع القرن الرابع عشر ثم في ليبية في اواسط هذا القرن على ما سوف نشرحه بعد .

— ٣ —

دولة بني حمود الادريسيين في سبته وطنجة

ملوك هذه الدولة ينتمون الى ادريس بن عبد الله الحسني الذي أنشأ الدولة الادريسية في فاس • وقد تفرق الادارسة في البلاد حينما اخذت عواصف الضعف تعصف بهذه الدولة في اواخر القرن الثالث الهجري • ونزح بعضهم الى الاندلس ، وبرز بعضهم في اواخر عهد الدولة الاندلسية وتضامنوا مع سليمان بن الحكم الاموي الملقب بالمستعين الذي بويع بالخلافة بعد سقوط دولة الحاجب عامر • فعقد لاحدهم علي بن حمود على ولاية سبته وطنجة واعمال غمارة • فلما تمكن في الولاية استبد بحكمها فكان ذلك بداية هذه الدولة التي امتد عمرها الى سنة ٤٧٦ ه أي نحو ثمانين عاما •

ولم يذكر ابن خلدون من اسماء امرائها الا عليا ثم ابنه يحيى ثم ادريس اخو يحيى ثم الحسن بن يحيى ثم ضياء الدولة • ولم يذكر ابن خلدون كذلك شيئا هاما من سيرة الدولة •

ولقد اراد علي ان يغتنم فرصة الارتباك الذي ألم بالدولة الاموية الاندلسية بعد المستعين فاجاز الى الاندلس واستطاع ان ينال بيعة الناس له بالخلافة في قرطبة • وحينئذ تولى مكانه في حكم سبته وطنجة ابنه يحيى • ولما مات علي اجاز يحيى الى الاندلس ليحل محل ابيه في الخلافة فتولى مكانه اخوه ادريس • واجاز هذا بدوره الى الاندلس فتولى مكانه الحسن بن يحيى •• وفي سنة ٤٧٦ ه اقتحمت قوات السلطان يوسف بن تاشفين المرابطي سبته فاستولت عليها واعتقلت ضياء الدولة الادريسي آخر ملوكها وقتلته واستولت على ذخائره فكان ذلك نهاية هذه الدولة (١) •

---

(١) سيرة هذه الدولة مقتبسة من تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ — ٢٢٢

الـــدولة الاغلبية (١)

ظروف نشوء الدولة وملوكها

— ٤ —

قامت هذه الدولة في المغرب الاوسط وبتدقيق أكثر في اقليم تونس في اواخر القرن الثاني الهجري • ومنشؤها ابراهيم بن الاغلب التميمي • وقد كان ابوه واليا على هذا المغرب الذي كان عــاصمته مدينة القيروان في خلافة ابي جعفر المنصور العباسي • وكا نابراهيم نفسه واليا على اقليم الزاب من المغرب الاوسط في خلافة هرون الرشيد وكان والي القيروان سيىء السيرة فراجعه كبار أهل القيروان وحرضوه على طلب الولاية عليهم ، فكتب للرشيد بذلك وارسل اليه عرائض اهل القيروان ، وشرط على نفسه أن يستغني عن المئة الف دينـــار التي كانت تحمل الى افريقية سنويا من مصر وان يدفع فضلا عن ذلك اربعين الف دينار خراجا •

وكان نشؤ الدولة الاموية في الاندلس والدولة الادريسية فـــي المغرب الاقصى مما أهم العباسيين فتوسم الرشيد في ابراهيم ان يزيل همه من الناحيتين وان يكون سدا أمام مطامع الدولتين ورقيبـــا على حركاتهما ، فارسل اليه عهدا بالامارة سنة ١٨٤ ، ومنذئذ اخـــذ يمارس الحكم في الاقليم كأمير مستقل استقــلالا داخليا واسعـــا لا يربطه

---

(١) سيرة هذه الدولة مقتبسة من تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٦ ــ ٢٠٧ وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص ٦٩ ــ ٧٩

بالسلطان العباسي الا الخطبة باسم الخليفة فوق المنابر والسكة والجعل السنوي المذكور •

وقد ضبط امور البلاد وسكنت الى حكمه • وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان واتخذها عاصمة له • وخرج عليه خارجي اسمه حمد يس فجرد عليه حملة شتتت شمل جماعته فاستتب الامر له بذلك • ثم صرف همه الى تهديد المغرب الاقصى والتعكير على الادارسة فيه فلم يزل يسعى ويبث الاموال حتى تمكن من اغتيال راشد مدبر الملك ادريس الثاني ثم استمر في مساعيه حتى جعل بهلولا بن عبدالواحد ثم محمدا بن اسحق البربريين ينحرفان واحدا بعد آخر عن ادريس ثم وقف الامر عند هذا الحد على ما شرحناه قبل •

ولقد كانت طرابلس الغرب تابعة لامارة القيروان فأعلن اهلها تمردهم سنة ١٨٩ ه على عامل ابن الاغلب فيها فجد في الامر حتى وطد سلطانه عليها •

ومات ابراهيم سنة ١٩٦ فتولى الامارة ابنه عبد الله بعهد منه مما يدل على ان ابراهيم اعتبر نفسه صاحب الدولة يورثها لابنه من بعده دونما حاجة الى اذن من بغداد ، واقرت بغداد ذلك فكان في هذا توطيدا آخر لهذا الاعتبار •

وقد استمرت الامارة فعلا في ذرية ابراهيم يرثها الابن عن الاب نحو مئة سنة ، وتعاقب على الحكم فيها بعد ابراهيم ثمانية امراء هم :

عبد الله بن ابراهيم ومدة حكمه من سنة ١٩٦ الى ٢٠١
زيادة الله بن ابراهيم ومدة حكمه من ٢٠١ الى ٢٢٣
ابو عقال بن ابراهيم ومدة حكمه من سنة ٢٢٣ الى ٢٢٦
ابو العباس بن ابي عقال ومدة حكمه من سنة ٢٢٦ الى ٢٤٨
زيادة الله الثاني بن ابي العباس ومدة حكمه من سنة ٢٤٨ الى ٢٥٠
ابو الغرانيق بن ابي العباس ومدة حكمه من سنة ٢٥٠ الى ٢٦١

ابراهيم الثاني بن ابي العباس ومدة حكمه من سنة ٢٦١ الى ٢٨٩
ابو العباس الثاني ومدة حكمه من سنة ٢٨٩ الى ٢٩٠
زيادة الله الثالث بن ابراهيم الثاني ومدة حكمه من ٢٩٠ الى ٢٩٦

سيرة ملوك الدولة واحداثها

وقد كان معظم هؤلاء الامراء اصحاب همة ونشاط واقدام وبلاء حسن في مجال توطيد سلطان العرب وتوسيعه ومواجهة الاحداث الخطيرة وحسن معالجتها واعمار البلاد وانهاضها •

ولقد كان من اعظمهم زيادة الله الاول • فقد نشبت في عهده فتن عديدة حتى جاء وقت لم يبق في طاعته من افريقية الا تونس ونفراوة وثغر طرابلس فجد في الامر حتى تمكن من قمع الفتن وتوطيد سلطانه حتى شمل جميع المغرب الاوسط الى الزاب وقسنطينة كما شمل القطر الليبي • وقد كان له موقف اباء قوي من المأمون العباسي الذي أمره بذكر اسم عبد الله بن طاهر القائد الفارسي الذي قتل الامين على منابره مع اسمه فغضب وابى •

وفي زمن هذا الامير وجهده فتحت جزيرة صقلية وكانت تحت حكم دولة الروم البيزانسية التي كانت عاصمتها القسطنطينية • ولقد نشب خلاف بين رجال الحكم فيها حمل قائد الاسطول على القدوم الى افريقية والاستنجاد بزيادة الله ووضع اسطوله تحت تصرفه سنة ٢١٢ ﻫ فجهز هذا حملة عهد بقيادتها الى قاضيه اسد بن الفرات وسيرها مع قائد الاسطول ، ونزلت الحملة في ارض صقلية ثم اخذت تشتبك مع الحاميات الرومية وتكررت الاشتباكات وامتدت بضع سنين ، وكان زيادة الله من جهة وملك الروم من جهة اخرى يواصلان خلالها امداد جماعتيهما بالرجال والسلاح والمؤن • وقد عانى العرب كثيرا من المتاعب والمشاق ولكنهم استطاعوا ان ينتصروا في النهاية ويوطدوا قدمهم في

الجزيرة ويستولوا على كثير من مدنها وحصونها ويملؤا ايديهم بالسبي والغنائم منها •

وعين زيادة الله أخاه ابا الاغلب اميرا على الجزيرة ، فاخـذ يسير السرايا الى انحاء الجزيرة ليتم فتحها •

ولما تولى الامارة ابو عقال بعد زيادة الله واصل الاهتمام لصقلية وامدادها وتمكن العرب نتيجة لذلك من توسيع رقعة سلطانهم فيها صلحا وعنوة • وكان ابو العباس الذي تولى الامارة بعد ابيه ابي عقـال من اعاظم الامراء الاغالبة • وقد دانت له جميع افريقية وشيد مدينة جديدة بقرب تاهرت سماها العباسية ، وواصل اهتمامه وامداده لصقلية • وفي عهده استولى العرب على مسينا وكان فاتحها الفضل بن جعفر الهمداني قائد الاسطول الاغلبي سنة ٢٢٨ هـ ثم حاصروا مدينة لمنتي وفتحوها سنة ٢٣٣ هـ • وفي هذه السنة اجاز العرب الى الساحل الايطالي واخذوا يقومون بغـارات ناجحة في جهـات انكبرده وملكوا احـدى المدن وسكنوها • وفي سنة ٢٣٤ هـ فتحوا مدينة ريغوس • وكان لوالي صقلية الفضل بن يعقوب الذي تولى الولاية سنة ٢٣٦ بلاء حسن في مجاهدة الروم الذين كانوا ما يزالون مستمسكين في بعض اقسامها • وهو الذي تم على يده فتح مدينة قصريانة التي كانت عـاصمة الجزيرة واصاب العرب فيها ما يعجز عن الوصف مـن الامـوال والسبي وذل الروم في الجزيرة بعدها • وقد استطاع ان يصمد لحملات بحرية عديدة سيرتهـا دولة الروم للكرة على الجزيرة واستولى سنة ٢٣٧ على أكثر من ثلث الاسطول الرومي • وقد رتب هذا الوالي سرايا صائفة واخرى شاتية بسبيل الاستمرار على مجاهدة الروم فكانت تزعجهم أشد الازعاج وتملأ أيديها من سبيهم وغنائمهم •

وقد أولع ابراهيم بن ابي العباس الذي تولى الامارة بعـد ابيـه بانشاء الحصون والقلاع في افريقية حتى أنشأ فيها نحوا من عشرة آلاف

محرس على ما رواه ابن خلدون بالحجارة والكلس وابواب الحديد ٠ واتخذ جيشا من الزنوج ، وخرج عليه خوارج من البربر في طرابلس الغرب فقمع بهذا الجيش ثوراتهم ٠ وقد يبدو من كثرة ما بناه من حصون وقلاع واتخاذه جيشا من الزنوج ان البربر في افريقية كانوا يزعجونه بتمردهم وثوراتهم ٠ وقد واصل هو الآخر اهتمامه لصقلية ومدها ٠ وفي زمنه ايضا اجاز العرب الى الساحل الطلياني وقاموا بغارات ناجحة في جهات قلوريه ٠

وفي امارة ابي الغرانيق استولى العرب سنة ٢٥٥ على جزيرة مالطة ، كما استولوا على مدن وحصون عديدة كانت مستعصية عليهم في صقلية منها بوطر وشكله وطرفين ٠ وكان لواليها خفاجة بن سفيان بلاء حسن في مجاهدة الروم والتبسط ٠ وقد سير هؤلاء على الجزيرة حملات عديدة كان يهزمها المرة بعد المرة ٠

وكان ابراهيم الذي تولى الامارة بعد ابي الغرانيق صاحب همة ونشاط أيضا ، وكان عادلا حازما ساهرا على امن البلاد ٠ وقد كافح اهل البغي وقمعهم وبنى الحصون والمحارس على السواحل حتى كانت النار توقد في ساحل سبته للنذير بالعدو فيتصل ايقادها بالاسكندرية في ليلة واحدة ٠ وتكرر خروج خوارج البربر في عهده في طرابلس وغيرها ولكنه كان يتغلب عليهم ٠ واستكثر من الزنوج في الجيش حتى بلغ عددهم ثلاثين الفا ٠ وانتقل سنة ٢٨١ الى تونس فسكنها وجملها بالقصور والحدائق ٠ وطمع في الاستيلاء على مصر وكانت في حكم ابن طولون فجهز حملة قوية سنة ٢٨٣ ﻫ وسار بها ، غير ان بعض جماعات من حشوده انفضت عنه فاضطر الى العدول عن عزيمته ٠ وعين ابنه العباس واليا على صقلية ٠ وكان بعض اهلها قد انتقض على السلطان العربي فاستباحهم ونكل بهم ونفى بعضهم الى افريقية وفر آخرون من أعيانهم الى القسطنطينية ٠ وفي سنة ٢٨٨ غزا دمنيش ثم ميسني وفتح

ريو عنوة وملأ يده بالغنائم ثم أجاز الى الساحل الطلياني وملأ يدها بالغنائم والسبي منه ايضا ٠

وفي هذه السنة ارسل المعتضد العباسي الذي كان مسيطرا على الخلافة بعزل ابراهيم ٠ والظاهر ان المعتضد الذي عرف بقوة شخصيته وتمكنه من استعادة هيبة الخلافة العباسية بعض الشيء عمد الى هذا العمل بسبيل فرض هيبة الخلافة على افريقية ايضا ، وكان حاول مثل هذه المحاولة مع احمد بن طولون متولي امر مصر ٠ غير ان ابراهيم لم يعبأ بامر العزل وتجاهل الخلافة ومعتضدها ٠ ولكنه استقدم ابنه ابا العباس من صقلية واحله محله ثم ارتحل هو الى هذه الجزيرة واخذ يجاهد بقية الروم فيها ويفتح المدن والحصون التي كانت لا تزال مستعصية ٠ وقد عبر البر الطلياني وقام بغارات ناجحة في منطقة قلورية وقتل وسبي وغنم ٠

وفي زمن زيادة الله الثالث قدم ابو عبيد الله الشيعي داعية الفاطميين الى المغرب الاوسط ، وكان زيادة الله سيىء السيرة مهملا سفاكا فساعد هذا على استفحال دعوة ابي عبد الله واجتماع جموع كثيرة من قبيلة كتامة حوله ، وسير زيادة الله حملة لمطاردة ابي عبد الله واحباط حركته ولكنها انهزمت امام الحشود التي احتشدت بزعامة ابي عبد الله وتمكن هذا نتيجة لذلك من الاستيلاء على انحاء كثيرة من افريقية بشيء من اليسر مما جعل زيادة الله يحمل امواله واثقاله ويتجه نحو الشرق حيث حل في بيت المقدس ومات فيها سنة ٢٩٦ فكان ذلك نهاية الدولة العربية التي سطع نجمها في المغرب ولعبت دورا مهما على مسرحه ثم على مسرح البحر وخلدت اسم العرب وآثارهم في جزيرته الكبرى وسواحله الشمالية ، وكانت من عوامل توطيد العروبة وسلطانها في شمال افريقية ٠

— ٥ —

الدولة الفاطمية

تمهيـــد

هذه دولة من دول العرب الكبرى . نشأت في افريقية ــ الاقليم التونسي ــ وهذا ما جعلنا نسلكها في سلك دول العرب التي قامت في بلاد المغرب . وقد شمل سلطانها لفترة ما جميع بلاد المغرب بمـا فيها برقة وطرابلس ثم تجاوزها الى مصر وبلاد الشام وبـلاد اليمن والحجاز فتوطد فيها ايضا . وقد اتخذ الفاطميون بعد استيلائهم على مصر مدينة القاهرة التي أنشأوها على انقاض مدينة الفسطاط عـاصمة وانتقلوا اليها وقد عمرت ٢٧٠ سنة ٢٩٧ ــ ٥٦٧ هـ ولكن سلطـانها في بلاد المغرب ضعف ثم زال في اواسط القرن الخامس الهجري .

ولقد شغل تاريخها حيزا كبيرا في التاريخ العربي بسبب تطور نموها واتساع سلطانها وما كان لها من احداث ونشاط ومصاولات مع العباسيين .

ومع ان موضوع الفصل خاص بالسلطان العربي في بلاد المغرب فلم نر ان نكتفي بسيرتها وسلطانها فيها وفضلنا ان يكون الكلام عنهـا شاملا وتاما .

ولما كان منهج الكتاب لا يتحمل الاسهاب لانه منهج متعـدد الصور متنوع الصفحات فلسوف نتوخى الايجاز فيه ليكون الكـلام متناسبا مع الكلام عن غيرها من الدول والارومات التي ألممنـا بها في فصول الكتاب .

ظروف نشأة الدولة وملوكها

قامت هذه الدولة في المغرب الاوسط في اواخر القرن الثالث الهجري • وكان قيامها مظهرا من مظاهر النزاع الذي اشتد بين العلويين الهاشميين والعباسيين الهاشميين على السلطان بعد ان تضامن الهاشميون على تقويض السلطان الاموي ونجحوا فيه • وقد كثرت الحركات العلوية بسبيل ذلك في عهد الدولة العباسية • وكان قيام الدولة الفاطمية احدى هذه الحركات مع التنويه بانها كانت اعظمها حيزا واثرا وبروزا وامتدادا •

واول ملوك هذه الدولة هو عبد الله بن محمد الذي ينتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق (١) • وكان الشيعة الاسماعيليون يعتبرون

---

(١) بعد ان مني العلويون بالنكبات والهزائم نتيجة لحركاتهم الثورية التي قاموا بها في زمن الدولة الاموية ثم الدولة العباسية في القرنين الاول والثاني للهجرة عمدوا الى تدبير حركاتهم تدبيرا منظما سريا . وقد استطاعوا ان يوجدوا في شيعتهم عقيدة بحق حصر الامامة ورئاسة المسلمين في ابناء علي وفاطمة ووجوب قيام امام منهم بالامر علنا أو سرا يؤدون اليه زكاتهم ويدعون الى نصرته . وقد اتفق القسم الاكبر منهم على شرعية امامة علي والحسن ـ دون اولاده ـ والحسين وعلي بن الحسين ومحمد الباقر بن علي وجعفر الصادق بن محمد . وكان لجعفر ولدان هما اسماعيل وموسى . وقد مات اسماعيل وهو الاكبر في حياة ابيه . فافترق الشيعة الى فرقتين فرقة قالت بامامة موسى من بعد جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم حسن بن علي ثم المهدي ابن حسن ووقفت عند هذا حيث اختفى فاعتقدت انه ظل حيا وسيظهر ويملك وهؤلاء يسمون الامامية الاثنا عشرية لان المهدي هو الثاني عشر . وفرقة قالت ان سر الامامة انتقل الى اسماعيل بكر جعفر وانها يجب ان تكون لابنائه من بعد جعفر لا لموسى ابن جعفر الثاني . وكان لاسماعيل ولدان محمد واحمد فاعتقدت بامامة محمد ثم اختفى فوقفت فرقة من شيعة اسماعيل عنده وقالت انه حي وسيظهر وسمته المكتوم وهؤلاء عرفوا بالاسماعيلية السبعية لان محمدا هو السابع في سلسلة الائمة . وقال فريق من الشيعة الاسماعيلية بامامة محمد الولد الثاني لاسماعيل وعقبه من بعده وهؤلاء عرفوا بالاسماعيلية المباركية نسبة الى داعية لهم اسمه مبارك . والخلفاء الفاطميون ينتسبون الى محمد هذا .

محمدا اباه امامهم • وكان هذا يقيم في السلمية من اعمال حماه مستخفيا ويرسل منها دعاته الى مختلف الانحاء •

ولقد قام في العقد السابع من القرن الثالث الهجري حركة في جزيرة الفرات بزعامة اخين ينتسبان الى اسماعيل بن جعفر الصادق احدهما يلقب بالشيخ والآخر يلقب بصاحب الشامة واندمج فيها بعض اقاربهم على ما يستفاد من سياق طويل اوروده الطبري (١) وقد تمكن العباسيون من القضاء على حركتهم وقتلهم بعد مصاولات عنيفة • فلا يبعد ان يكون محمد هذا ممن اندمجوا في الحركة • ثم آوى الى السلمية • ومن الدعاة الذين ارسلهم رستم بن الحسين بن حوشب وقد ارسله الى اليمن • وكان من رجاله الحسين بن احمد زكريا الذي عرف بابي عبد الله الشبعي وكان نشيطا ذكيا • فرشحه رستم للامام ليكون داعية في المغرب حيث كان الداعية في هذه البلاد قد مات منذ مدة ولم يقم فيها من يسد فراغه فوافق الامام وارسل ابا عبد الله الى بلاد المغرب وقد استجابت له قبائل كتامه البربرية القوية الكثيرة العدد فاستطاع بها ان يستولي على قسم كبير من مدن افريقية — الاقليم التونسي — ويهزم حملة زيادة الله الاغلبي آخر الامراء الاغالبة ويقضي على امارته ويضطره الى الارتحال من البلاد سنة ٢٩٦ ﻫ على ما ذكرناه قبل •

ومات الامام محمد قبل ان تواتي الدعوة ثمرتها فقام مقامه في الامامة ابنه عبيد الله وتسمى بالمهدي • ولما اطمئن ابو عبد الله الشيعي بنجاح دعوته استدعاه فسارع الى الالتحاق به وحل في سجلماسه ، وشعر به حاكمها ابن مدرار فحبسه ، غير ان ابا عبد الله جاء بجموعه الى سجلماسة واستولى عليها وقتل الامير المدراري واطلق سراح

---

(١) ج ٨ مطبعة الاستقامة ص ١٥٩ — ٢٣٢

امامه ونادى بامامته ومهدويته سنة ٢٩٧ ه فكان ذلك بدء الدولة الفاطمية .

ولقد امتد عمر هذه الدولة ٢٧٠ عاما وتعاقب على عرشها ١٤ ملكا وهم :

عبيد الله بن محمد الملقب بالمهدي ومدته من ٢٩٧ الى ٣٢٠
محمد بن عبيد الله الملقب بالقائم ومدته من ٣٢٠ الى ٣٣٢
اسماعيل بن القائم الملقب بالمنصور ومدته من ٣٣٢ الى ٣٣٨

معد بن المنصور الملقب بالمعز لدين الله ومدته من٣٣٨ الى ٣٦٢
نزار بن المعز الملقب بالعزيز بالله ومدته من ٣٦٢ الى ٣٨٤
المنصور بن العزيز الملقب بالحاكم بامر الله ومدته من ٣٨٤ الى ٤١١

علي بن الحاكم الملقب بالظاهر الاعزاز دين الله ومدته من ٤١١ الى ٤٢٧

سعد بن الظاهر الملقب بالمستنصر بالله ومدته الى ٤٢٧ الى ٤٨٧
احمد بن المستنصر الملقب بالمستعلي بامر الله ومدته من ٤٨٧الى٤٩٥

منصور بن المستعلي الملقب بالآمر باحكام الله ومدته من ٤٩٥ الى ٥٢٤

عبد المجيد بن ابي القاسم بن المستنصر الملقب بالحافظ لدين الله ومدته من ٥٢٤ الى ٥٤٢

اسماعيل بن الحافظ الملقب بالظافر بامر الله ومدته من ٥٤٢ الى ٥٤٩ وقتل

عيسى بن الظافر الملقب بالظاهر بنصر الله ومدته من ٥٤٩ الى ٥٥٥
عبد الله بن يوسف بن الحافظ الملقب بالعاضد لدين الله ومدته من ٥٥٥ الى ٥٦٧

وكان ملوك الدولة يتلقبون بلقب الخلافة والامامة وامرة المؤمنين

ويتولون الحكم ببيعة شرعية مع التسلسل الوراثي [١] .

ولقد حاول العباسيون الطعن في نسب الفاطميين الى علي وفاطمة (رض) ونظموا في سنة ٤٠٢ هـ في عهد القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) محضرا في ذلك واذاعوه ثم نظموا في سنة ٤٤٤ في عهد القائم بامر الله ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ محضرا آخر وقد نسبوا الفاطميين الى عبد الله بن القداح بن ديصان اليهودي . غير ان كثيرا من الباحثين يثبتون ذلك النسب ويحملون محاولة العباسيين على محمل التجريح والتهوين والدعوة المضادة . ولقد اثرت ابيات من الشعر عن الشاعر العلوي المشهور الشريف الرضي (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ) فيها تأييد حاسم على صحة نسبهم جاء فيها :

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وانف حمي
واباء محلق بي عن الضيم كما راغ طائر وحشي
أي عذر له الى المجد ان ذل غلام في غمده المشرفي
ألبس الذل في ديار الاعادي وبمصر الخليفة العلوي
من ابوه ابي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد الناس جميعا محمد وعلي
ان جوعي بذلك الربع شبع وأوامي بذلك الظل ري [٢]
مثل من يركب الظلام وقد اسرى ومن خلفه هلال مضي

ولقد شاعت هذه الابيات واحضر الخليفة العباسي القادر بالله جماعة من العلويين وعاتبهم عليها فانكروها وطلب منهم كتابة محضر

---

(١) انظر لاجل هذه النبذة تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٨ — ٨١ وتاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم ص ٢٠ — ٥٦ و ٨٠ — ٨١ وكتاب اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا للمقريزي ص ٢ — ٩٣

(٢) ويروى هذا البيت بصيغة اخرى وهي :

ان ذلي بذلك الحي عز واوامي بذلك الربع ري

في ذلك وارغام الشريف الرضي على نفيها فنفاها عنه غير ان ابن الاثير وغيره يقولون ان نفيه لها كان من قبيل التقية وانه لا حجة بما كتب في المحضر المتضمن القدح في انسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هذا ، وقد قال ابن الاثير انه سأل جماعة من اعيان العلويين عن النسب فلم يرتابوا في صحته وان كان غيرهم ذهب الى ان النسب مدخول وغير صحيح . وقد سفه ابن خلدون ما جرى من الطعن في النسب وقال ان ذلك تلفيق للمستضعفين من خلفاء بني العباس وتزلف اليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم مع ان شواهد الواقعات وادلة الاحوال تثبت كذب الدعوى [1] ...

(١) انظر اتعاظ الخلفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفا للمقريزي طبع دار الفكر العربي ص ٢٥ ـ ٤١ وتاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٥٧ ـ ٦٠ وابن خلدون ج ٤ ص ٢٨ ـ ٣١

ولقد مرت هذه الدولة بثلاثة ادوار • دور التأسيس الذي انحصر في بلاد المغرب • ودور الانتشار والاتساع ثم دور الضعف والانقراض• وقد استطاعت ان تسجل في السجل العربي الاسلامي مآثر عظيمة من السلطان والحضارة والتنظيم والثراء والابهة في دوريها الاول والثاني استمرت آثارها قائمة في دورها الثالث •

ولقد كانت المناداة بالدولة في سجلماسة بعد ان قتل ابو عبد الله الشيعي اليسع بن مدرار اميرها الذي سجن المهدي ثم جاء هذا الى القيروان مع انصاره فاتخذها عاصمة له • وقد سير عليه زيادة الله الثالث الاغلبي حملة هزمها وارسل حملة مضادة قضت على امـــارته واخضعتها للسلطان الفاطمي ثم تمكن من بسط سلطانه على الامـــارة المدرارية والامارة الادريسية على ما شرحناه قبل فغدا صاحب دولـــة كبيرة مسيطرة على معظم بلاد المغرب • وقد أنشأ على الساحل التونسي مدينة سماها المهدية وحصنها من البر والبحر واتخذها عاصمة • وظلت كذلك الى ان انتقل مركز الدولة الى مصر بعد نحو نصف قرن •

وكان المهدي حازما بصيرا • فلم يكد يوطد قدمه حتى اخـــذ يرتب شؤون دولته الجديدة فدوَّن الدواوين ونظم الجباية وعـــين العمال • وقد حاول ابو عبد الله الشيعي ان يفرض شخصيته علـــى المهدي على اعتبار انه هو الذي قـــامت الدولة بجهـــده فمـــا كان من المهدي الا ان حزم أمره وقتله ونجـــا من خطره • وغضبت قبيلة كتامة لمقتل ابي عبد الله فتمردت ونصبت طفلا سمته المهدي وزعمت انه نبي فسير المهدي ابنه ابا القاسم على رأس حملة قوية لحربهم فقاتلهم وهزمهم وقتل الطفل واثخن فيهم وكان بنو الاغلب قد فتحوا صقلية

وبسطوا سلطانهم على بعض السواحل الطليانية على ما ذكرناه قبل فحل محلهم وارسل عماله لحفظ ما كان للعرب من سلطان في هذه الانحاء ثم اتجه نحو المشرق لمزاحمة العباسيين على السلطان وانتزاعه منهم فسير ابنه محمدا القائم سنة ٣٠٠ هـ على رأس حملة برية أردفها بحملة بحرية فتمكن من بسط سلطانه على طرابلس الغرب وبرقة ثم سار نحو الاسكندرية فملكها • غير ان مؤنسا القائد التركي الذي كان مدبر الدولة العباسية في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) سارع على رأس جيش قوي وتمكن من صده ورده عن الاسكندرية • وعاود المهدي محاولته مرتين أخريين خلال سني ٣٠٢ — ٣٠٨ هـ غير ان القائد التركي كان يبادر الى احباط محاولاته وينجح في مبادرته •

ومن طريف ما ورد في الكتاب المعنون بعنوان صلة تاريخ الطبري في حوادث سنة ٣٠٨ ان قائد الجيش الفاطمي اذاع قصيدة عن لسان المهدي فيها توبيخ وتنديد بالعباسيين ودعوة الى الانضمام الى الدعوة الفاطمية • وقد جاء فيها فيما جاء :

يا اهل شرق الله زالت حلومكم ... أم اختدعت من قلة الفهم والادب
صلاتكم مع من وحجكم بمن ... وغزوكم فيمن اجيبوا بلا كذب
صلاتكم والحج والغزو ويلكم ... بشراب خمر عاكفين على الريب
ألم ترني بعت الرفاهة بالسرى ... وقمت بامر الله حقا كما وجب
صبرت وفي الصبر النجاح وربما ... تعجل ذو رأي فأخطأ ولم يصب
الى ان اراد الله اعزاز دينه ... فقمت بامر الله قومة محتسب
وناديت اهل الغرب دعوة واثق ... برب كريم من تولاه لم يخب
فجاؤوا سراعا نحوا صيد ماجد ... يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم ... وقد لاح وجه الموت من حلل الحجب
شعارهم جدي ودعوتهم ابي ... وقولهم قولي على النأي والقرب

---

(١) هذا الكتاب من ملحقات الجزء الثامن تاريخ الطبري ومؤلفه عريب بن سعد القرطبي ص ٥٦ — ٥٧ مطبعة الاستقامة .

وقد وصلت القصيدة الى القائد التركي مؤنس فارسلها الى الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ ــ ٣٢٠) في بغداد فنظم الخليفة أو نظم له قصيدة جوابية جاء فيها فيما جاء :

عجبت وما يخلو الزمان من العجب لذي خطل في القول اهدى لنا الكذب
ولو كان ذا لب ورأي موفق لقصر عن ذكر القصائد والخطب
فمن انت يا مهدي السفاهة والخنا أبن لي فقد حفت على وجهك الريب
فلو كنت من اولاد احمد لم يغب عن الناس ما تسمو اليه من النسب
ولو كنت منهم ما انتهكت محارما يذبون عنها بالاسنة كالشهب
ولم تقتل الاطفال في كل بلدة فتركب من اماتهم شر مرتكب
ابحت فروج المحصنات وبعت من اصبت من الاسلام بيعك للجلب
وكم مصحف حرقته فرماده مثار سفي الريح من حيث ماتهب
كفرت بما فيه وبدلت آيه وقضبت حبل الدين كفرا فما انقضب
فقل لي أي الناس انتم وما الذي دعاكم الى ذكر الحجاحجة النخب
اولئك قوم خيم الملك فيهم فشدت أواخيه ومدت له الطنب

وقد قال كاتب صلة الطبري ان في القصيدتين ابياتا كثيرة اخرى فيها اقذاع فضل عدم اثباتها في دفتره ...

ولقد كانت مصر في حكم بني طولون فلما انقرضوا اخذت بغداد تعين ولاة من قبلها . وكان واليها حين سير المهدي حملاته تركيا اسمه كيغلغ . وقد رأت بغداد بسبيل الدفاع عن مصر وبلاد الشام ان توحد حكم مصر والشام وتولى عليهما والي فلسطين الاخشيد محمد بن طغج التركي واتخذ هذا مركزه مصر فكان هذا التدبير مما ساعد على استمساك مصر امام الفاطميين نحو خمسين سنة أخرى .

وفي اواخر عهد المهدي انتقض اهل طرابلس واخرجوا عاملهم مكنون فسير ابنه فحاصرها طويلا حتى دخلها واثخن في اهلها وغرمهم

(٣٠٠٠٠٠) دينار [1] •

وكان القائم الذي تولى الملك بعد ابيه قويا حازما على غرار ابيه فاستطاع ان يحفظ الدولة وينميها برغم ما قام في عهده من ثورات •

ولقد ثار في زمنه ابن طالوت القرشي في طرابلس فظفر به وقتله • ثم اغزى احد قواده المغرب وملكه ودخل امير الامارة الادريسية تحت سيادته •

ومن الاحداث المكدرة في عهده ثورة ابي يزيد البربري الخارجي على مذهب الصفرية • وقد خرج في ناحية جبل اوراس وتلقب بشيخ المؤمنين فاتبعه امم كثيرة من البربر • وزحف عليه عامل باغايه الفاطمي فهزمه ودخل باغايه ونهبها وسباها ثم اخذ يفرض سيطرته على انحاء المغرب الاقصى • وسير القائم عليه حملة فهزمها الى تونس ثم تبعها اليها وهزمها عنها واستولى عليها وسير عليه القائم حملة ثانية فهزمته ولكنها لم تقمع حركته حيث ظل يصول ويجول ثم كر ثانية نحو الاقليم التونسي وكان تحت لوائه (٢٠٠٠٠٠) مقاتل فاخذ يعيث فيه وملك رقادة ثم القيروان • وهكذا تفاقمت حركته حتى هددت الدولة بالزوال ، وحتى اضطر القائم الى الحصار في المهدية وحفر الخنادق حولها وقد زحف ابو يزيد نحوها ونزل على بعد خمسة فراسخ منها واخذ يعيث في ضواحيها ويضرب قوات القائم التي كان يسيرها اليه ومات القائم والحركة لم تقمع حيث استمر ابو يزيد مدة اخرى يصول ويجول ويثخن في التدمير والتحريق والسلب في المغربين الاوسط والاقصى • ولم يتمكن الخليفة الثالث المنصور من قمع حركته وقتله الا بعد اهوال وخسائر فادحة • على ان ابنا له اسمه الفضل قام على رأس حركة جديدة مستأنفا حركة ابيه وقائدا لانصاره غير ان المنصور قمعها ايضا • ولم يكد المنصور يفرغ من هذه الملمة حتى فوجيء بانتقاض عامل المغرب حميد بن بصلتين وانحيازه

---

(١) سيرة المهدي مقتبسة من ابن خلدون ج ٤ ص ٣١ — ٤١ والدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٨٢ — ٨٩

الى الامويين فسارع الى السفر بنفسه واستعان بصنهاجة وزعيمها زيري بن مناد الذي سارع الى نجدته وتمكن بذلك من التنكيل بالعامل المنتقض وتوطيد سلطانه ثانية في المغرب •

ولقد سير القائم قبل اندلاع ثورة ابي يزيد حملة بحرية قوية غزت سواحل ايطالية ولومبارديا واحتلت مدينة جنوة وجزيرة سارادينيا واتست فتح ما لم يفتح من انحاء جزيرة صقلية فغدت تحت السلطان العربي الشامل •

ولقد حاول ملك الافرنج رجار الكرة على المسلمين في عهد المنصور بن القائم فلما علم هذا بذلك وكان وقد فرغ من ثورة ابي يزيد الخارجي وابنه وحميد بن بصلتين على ما ذكرناه قبل شحن اسطوله وارسله بقيادة مولاه فرج الصقلي وامر والي صقلية الحسين الكلبي بالخروج معه فاجازوا العدوة ونزلوا قلورية في سواحل ايطالية واشتبكوا مع روجار ملك الافرنج فهزموه وكان فتحا لا كفاء له والتعبير لابن خلدون وعاد فرج ويداه مملوأتان بالغنائم ، وكان ذلك في سني ٣٤٠ ـ ٣٤٢ هـ (١) •

اهتمام الفاطميين بصقلية

ونقول استطرادا ان الخلفاء الفاطميين بعد القائم والمنصور وفي دور الدولة الثاني استمروا على الاهتمام لهذه الناحية وشجعوا العرب على الهجرة الى صقلية خاصة فهاجر اليها منهم كتل كبيرة استعمروها واحسنوا استغلالها واقاموا فيها المساجد والقصور والمدارس التي لا تزال آثارها قائمة شاهدة على مآثرهم ونشاطهم • وقد اعتنق كثير من اهلها الاسلام واخذوا يندمجون في العروبة دينا ولغة • ويظهر ان

---

(١) سيرة القائم المنصور مقتبسة من ابن خلدون ج ٤ ص ٤٠ ـ ٤٥ والدكتور حسن ابراهيم ص ٨٩

عدد المسلمين قد بلغ رقما كبيرا في الجزيرة في منتصف القرن الرابع الهجري • فقد ختن المعز ابنه وامر بختن اطفال المسلمين في الجزيرة بهذه المناسبة فبلغ عدد الذين ختنوا خمسة عشر الفا [1] •

وقد عين المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين الحسن بن علي الكلبي اميرا على الجزيرة ومنحه استقلالا ذاتيا كان من مداه ان اخذ ابناؤه وأحفاده يتوارثون الولاية على الجزيرة ابنا بعد أب ، وكان لهم بلاء عظيم في الدفاع عن الجزيرة واعمارها • بل وكان لهم الفضل فيما صار للعروبة والاسلام فيها من مآثر وسلطان في القرنين الرابع والخامس وقد تعاقب على امارة الجزيرة من الكلبيين عشرة امراء خلال خمس وتسعين سنة •

واستيفاء لتاريخ العروبة والاسلام في هذه الجزيرة نقول ان تمكن العرب فيها اثار الروم فحاولوا اكثر من مرة أن يكروا ويستعيدوا الجزيرة • غير ان العرب كانوا في دور الاغالبة ثم في دور قوة الدولة الفاطمية يتمكنون من ردهم • وقد ظلوا مع امراء الجزيرة في تشاد الى ان اخذت الدولة الفاطمية تدخل في دور ضعفها • فاشتد تكالب الروم واستمر ونشب بين المسلمين فتن ومنازعات فساعد هذا الروم على الاستيلاء على بعض انحاء الجزيرة سنة ٤٦٤ ه ثم اخذوا يشتدون في مصاولة العرب والتضييق عليهم والاستيلاء على انحاء الجزيرة ناحية بعد اخرى واحلال سلطانهم محل السلطان العربي الى ان تمكنوا من تقويض هذا السلطان بالمرة سنة ٤٨٤ •

ولقد بقي المسلمون في الجزيرة مدة اخرى ظاهرين نشيطين في مجالات الحياة ونبغ منهم النوابغ الذين كان منهم الجغرافي المشهور الادريسي الذي الف لروجار ملك الجزيرة كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وصنع له خريطته الجغرافية وكرته الارضية التي ماتزال

---

(١) اتعاظ الخلفاء للمقريزي ص ١٣٦

تنال احترام العلماء وتقديرهم الى الآن ..

ومن الجدير بالذكر ان روجار هذا طمح بعد ان استتب لـه السلطان في صقلية الى بسط سلطانه على الساحل الافريقي الموالـي لجزيرته مما جاء كعمل عكسي لما كان قام به العرب نحو صقلية والساحل الطلياني في ايام قوتهم الغابرة فكانت حركته مظهرا من مظاهر سنة الله فى تداول الايام بين الناس . ولقد استطاع ان يحقق بعض مطامعه فترة من الوقت حيث استولى على ثغور صفاقس وسوسه والمهدية ثم طرابلس الغرب سنة ٥٤٥ فجد عبد المؤمن الموحدي حتى استردها منه سنـة ٥٥٤ هـ [١] .

عود على سيرة الفاطميين واحداث دولتهم

ونعود الى الكلام على الفاطميين فنقول ان المعز الـذي خلف المنصور [٢] كان بدوره قوي الهمة بعيد المطامح . وقد خرج سنة ٣٤٢ الى جبل اوراس فوطد سلطانه على القبائل النازلة فيه وتألفها واستأمن له أمير مغراوة وغيره ودخلوا تحت سلطانه . ثم عاد بعد ان أوعز الى عامله علي باغاية بالاستمرار على تدويخ البلاد وتألف الناس . وحاول عبد الرحمن الناصر الخليفة الاموي الاندلسي التعكير عليه ومنازعته السلطان في المغرب الاقصى وتمكن من تحريك بعض الانحاء فسير المعز قائده جوهر الصقلي [٣] على رأس حملة قوية فاستطاع ان ينكل بالمنتقضين والمخامرين ويوطد السلطان الفاطمي في جميع انحاء المغرب

---

(١) انظر لاجل اهتمام الفاطميين بصقلية وتاريخها العربي تاريخ الدولة الفـاطمية للدكتور حسن ابراهيم ص ٩٧ ـ ١١١ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٣ ـ ٢١١

(٢) انظر سيرة المعز في تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٥ ـ٥١ وتاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٩٣ ـ٩٧

(٣) قال ابو الفداء ج ٢ ص ١٠٩ عن جوهر هذا انه غلام رومي للمنصور ابي المعز . ولا شك بي انه كان مسلما مستعربا حينما اختاره المعز لقيادة جيوشه وفتوحاته .

الاقصى الى البحر الاطلانطي • وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ •

ثم وجه همته الى الشرق لتحقيق ما ظل الفاطميون يطمحون اليه من بسط سلطانهم على اوسع مساحة من الدولة العباسية والحلول محل العباسيين في السلطان الاسلامي العربي • وكانت خطوته الاولى مصر التي كان مدبر حكومتها الاخشيدية كافور قد مات وارتبكت حالتها من بعده فسير قائده البارع جوهر اليها بحملة قوية فتمكن من الاستيلاء عليها سنة ٣٥٨ هـ ثم تقدم نحو فلسطين فهزم جيش الاخشيديين واسر قائده واستولى على فلسطين ثم استمر في سيره نحو دمشق فاستولى عليها ايضا وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ • وهكذا غدا سلطان الفاطميين شاملا لجميع شمال افريقية الى البحر الاطلانطي مع بلاد الشام ومصر وصقلية وساردينية وبعض سواحل ايطالية •

وحينئذ اعتزم المعز الانتقال الى مصر واتخاذها مقرا لدولته المتعاظمة بهذه الفتوح • فامر قائده بانشاء مدينة القاهرة فأنشأها على انقاض مدينة الفسطاط عاصمة الفتح الاسلامي التي أنشأها عمرو بن العاص على انقاض مدينة مصرية قديمة ، ثم انتقل اليها سنة ٣٦٣ هـ فغدت منذئذ عاصمة الفاطميين ومن جاء بعدهم من الدول • ثم بذل المعز مسعاه حتى صار يخطب باسمه سنة ٣٦٤ هـ فوق منابر مكة والمدينة فكان ذلك ايذانا بانضمام الحجاز الى السلطان الفاطمي •

وقد استخلف المعز على افريقية والمغرب بلكين بن زيري بن مناد زعيم صنهاجة وانزله القيروان وسماه يوسف وكناه ابا الفتوح وولى على طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتامي وجعله تابعا له رأسا •

ولقد كانت حركة القرامطة في ابان قوتها حينما ملك الفاطميون

بلاد الشام • ومع انها كانت في اصلها من الحركــات العلوية وخطب رؤساؤها للفاطميين حينما قامت دولتهم في شمال افريقية فانها تطورت وانحرفت وغدت حركة شبيهة بحركة الخوارج تقاتل اصحاب السلطان أيا كانوا وانقلبت على الفاطميين في الجملة وزحفت قواتها على بــلاد الشام سنة ٣٦٠ ﻫ وكبست القوات الفاطمية المعسكرة خارج دمشق وقتلوا قائدها وهزموها وملكوا دمشق ثم ساروا نحو فلسطين وملكوها كذلك ، ثم ساروا نحو مصر ونزلوا بعين شمس وجرى بينهم وبين الجيش الفاطمي معارك عديدة انتهت باندحارهم وارتدادهم • ومــن الطريف ان الاخشيديين الذين كانوا اصحاب السلطان في مصر والشام وقوضه الفاطميون تضامنوا مع القرامطة في زحفهم على مصر انتقــاما من الفاطميين مع انهم كانوا تحت سيادة العباسيين الذين كــانوا في حرب معهم !

ولم يرض القرامطة بالهزيمة وآلى كبيرهم اذ ذاك الحسن بن بهرام الجنابي على نفسه ان يثأر وقال بيتيه المشهورين منذرا متوعدا :

زعمت رجال الغرب اني هبتهــا فدمي اذا ما بينهم مطلول (١)
يا مصر ان لم ارو ارضك من دم يروي ثراك فلا سقاني النيل

وبر بوعده فكر على مصر بحملة قوية سنة ٣٦٣ ﻫ بعد وفــاة المعز وانتقال الخلافة الى ابنه العزيز فدارت معارك شديدة بين الطرفين انتصر الفاطميون فيها وقتلوا من القرامطة خلقا كثيرا وردوهم عن مصر ثم ارسل العزيز حملة قويــة في اثرهم شردتهم واقصتهم عن بــلاد الشام •

ونتيجة لذلك توطد السلطان الفاطمي في معظم بلاد الشام بل كلها وامتد الى جزيرة الفرات ودان له فيمن دان بنو حمدان بعد شيء من المصاولــة •

---

(١) كان يقصد برجال الغرب رجال المغرب لان معظم رجال الدولة الفاطمية كانوا من المغرب وكانت الدولة ما تزال تتسم بسمة المغرب .

استطراد الى شرح حركة القرامطة

وقد يكون من المفيد ان نستطرد هنا الى شرح حركة القرامطة بايجاز حيث كانت من الحركات الخطيرة الهدامة التي نشأت في التاريخ الاسلامي وقد امتدت من اواخر القرن الثالث الى اواخر القرن الرابع للهجرة [1] • ولقد اتسمت في ظروف نشأتها الاولى بسمة الاشتراكية الرامية الى توزيع المال على الناس بالمساواة وبدون تمييز • وكان من مظاهرها في بعض الظروف شيء من الاباحية • ثم تطورت وصارت شبيهة بحركات الخوارج • وقد اكتنف نشؤها الغموض فتارة يروي ان اسم منشئها حمدان قرمط وانه سمي قرمطا لاحمرار في عينيه على لغة انباط العراق وتارة تنسب الى شخص اسمه الفرج بن عثمان• وفي الطبري نص رسالة منسوبة الى هذا فيها آثار المقالات الشيعية أو الباطنية الحلولية التي اخذت تنتشر في القرن الثالث الهجري على هامش الدعوات والدعايات والحركات العلوية حيث يسوغ ان يقال ان الحركة في اصلها علوية • ولقد ذكر الطبري ان حركة علوية قامت في جزيرة الفرات في الثلث الثالث من القرن الثالث على رأسها شخص اسمه احمد ولقبه الشيخ فسير العباسيون عليه حملة ظفرت به فقتلته وشتت جموعه فتولى الحركة بعده أخ له اسمه الحسين ولقبه صاحب الشامة • وقد استفحل امره في جزيرة الفرات وبلاد الشام وكان فتاكا سفاحا فتك باهل المعرة وحماه والسليمية رجالهم ونسائهم بل وصبيانهم وفتك بالهاشميين في السليمية ــ والراجح انهم كانوا ينتمون الى العباسيين ــ مما جعل اهل الشام ومن الجملة حمص ودمشق وحلب يخافونه

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري مطبعة الاستقامة ج ٨ ص ١٥٩ ــ ٢٥٨ وكتاب صلة تاريخ الطبري الملحق بهذا الجزء ص ٢ وما بعدها واتعاظ الخلفاء للقمريزي ص ٢٠٤ ــ ٢٦٧

ويدافعونه بالخطبة والخراج • وكان ينعت بالقرمطي وجيشه بالجيش القرمطي على ما ذكره الطبري الذي اورد نص رسالتين منه الى بعض عماله سمي نفسه فيهما بالمهدي المنصور بالله امير المؤمنين من ابناء رسول الله الخ مما فيه توكيد لكون هذه الحركة والحركة القرمطية شيئا واحدا • ولقد وجد العباسيون في امر صاحب الشامة ايضا حتى ظفروا به وقتلوه فتولى الحركة أخ له اسمه الفضل مع ابن عم لهم يلقب بالمدثر • وجد العباسيون حتى تمكنوا من تشريدهم ثم البطش بهم فتولى الحركة زكرويه الذي قال الطبري انه ابوهم والذي من المحتمل ان يكون اسمه اسما حركيا ان صح التعبير أو اسما اطلقه عليه دعاة العباسيين لابعاد الحركة عن نطاق العلوية او الطعن بنسبها • وقد نجح زكرويه في حشد الانصار وقام بحركات عنيفة في جنوبي بلاد الشام ـ انحاء طبريا وحوران ـ ثم في انحاء العراق ـ الكوفة ـ حتى لقد تعرض في سنة ٢٩٤ هـ لقافلة الحجاج واثخن فيها نهبا وسبيا وفتكا • وكان زكرويه وحركته وجيشه ينعت بالقرمطية ايضا • وجد العباسيون في أمره وانزلوا في جموعه ضربات متوالية ثم ظفروا به وأسروه وقتلوه مع جماعة من خاصته واقاربه • ولكن الحركة القرمطية استمرت وتطورت كما قلنا الى حركة شبيهة بحركة الخوارج• تقاتل اصحاب السلطان أيا كانوا وتفتك بالناس أيا كانوا دون ان يكون وراءها علويون على ما هو الارجح •

ولقد كان داعية الحركة في البحرين أبا سعيد بن بهرام وهو فارسي كما يبدو من اسمه فاستطاع ان يحشد حوله انصارا اقوياء وان يسيطر على انحاء البحرين والقطيف والاحساء واليمامة • فغدت هذه المنطقة مركزا ومعصما للحركة أو الدولة القرمطية • حيث تضرب ضربة ما ثم تعود اليها فتعتصم فيها سواء أكانت منتصرة غانمة أم مغلوبة مهزومة • ولم تكن الجيوش التي كانت تتصدى لرد غاراتهم تتبعهم الى هذه المنطقة حينما تنجح في ردهم • فكان ذلك من اسباب

استمرار حركتهم بعد الاستجمام . ولقد سجل القرامطة احداثا خطيرة هي التي جعلت حركتهم ذات حيز عظيم في التاريخ لانها ملأت نحو تسعين عاما (٢٨٨ ــ ٣٧٥) بالحروب والغارات والدماء والرعب والخوف في مجال واسع من البلاد العربية كان منه الحجاز بالاضافة الى بلاد نجد وسواحل الخليج العربي والعراق والشام ومصر . وكانوا يتعرضون لتنكيل شديد وضربات موجعة فتخمد نأمنهم فترة ثم يستأنفون نشاطهم . ولقد اغتنم ابو سعيد فرصة فترة ارتكبت فيها بغداد وشغلت بالمنافسات والفتن فعاث في مناطق البصرة والكوفة مدة غير قصيرة فاتكا ناهبا مدمرا . واغتيل هذا فخلفه ابو طاهر سليمان سنة ٣٠١ وظل يوالي الغارات ويثير الرعب والذعر ويخيف السابلة والحجاج ولم تستطع بغداد أن تصنع شيئا بل حاسنته سنة ٣٠٣ ه وهادته حتى يعف عن ركب الحج ! وفي سنة ٣١٦ ه أغار بجموعه على جزيرة الفرات ونهب الرحبة والرقة واستاق آلاف الجمال والماشية . وفي سنة ٣١٧ ه اغار على مكة في موسم الحج واوقع في الحجاج مذبحة كبيرة واقتلع الحجر الاسود وابواب الكعبة وستائرها ونهب ما في داخلها من نفائس وجواهر كان من جملتها درة تسمى الدرة اليتيمة تزن فيما يروي اربعة عشر مثقالا . وقد ظل الحجر الاسود عند القرامطة الى سنة ٣٣٨ ه ولم يعيدوه الا لقاء فدية كبيرة . وقد سيطروا في سنة ٣١٧ على الكوفة واخذوا الجزية ممن خالفهم وجبوا الخراج . وارسلت بغداد حملة من اربعين الفا فهزموها واسروا قائدها مع ان عددهم على ما رواه الطبري كان الفا وخمسمائة . ثم سيرت حملة اخرى عليهم هزموها كذلك . ووقع الخوف والرعب الشديدان في بغداد والعراق . واغتنم القرامطة الفرصة فاعملوا يد النهب في غالب بلاد الفرات ثم عادوا الى معصمهم وايديهم مملوءة بالاسلاب والغنائم . وفتر نشاطهم الى سنة ٣٥٠ ثم استأنفوه واخذوا يغيرون على جزيرة الفرات والكوفة والبصرة ينهبون

ويدمرون ثم يعودون الى معصمهم واستمروا على ذلك بضع سنين •
ولما قامت الدولة الفاطمية خطبوا لحلفائها على منابر بلادهم • حيث يدل هذا على الاتساق بين حركتهم وبين حركة الدولة الفاطمية • على انهم اصطدموا معها في بلاد الشام حينما استولت على هذه البلاد ، حيث تصدت لهم حامياتها لرد غاراتهم • وقد كبسوا في احدى الجولات المعسكر الفاطمي خارج دمشق وقتلوا قائده وهزموا الجيش وملكوا دمشق ثم فلسطين ثم ساروا نحو مصر ونزلوا بعين شمس وجرى بينهم وبين القوات الفاطمية معارك عديدة انتهت باندحارهم كما ذكرنا قبل • وهكذا صاروا حربا على الفاطميين والعباسيين على السواء • وقد خمدت نأمتهم بعد تعقب القوات الفاطمية لهم وتشريدهم اياهم عن بلاد الشام نحو عشر سنين في معصمهم ثم رفعوا رؤوسهم سنة ٣٧٥ فاغاروا على الكوفة ونهبوا سوادها فسير عليهم الملك البويهي المتغلب صمصام الدولة حملة نكلت بهم تنكيلا شديدا • ومنذئذ لم يعد التاريخ يذكر لهم نشاطا ووجودا مما يفيد ان حركتهم هذه كانت أخرى حركاتهم ومظاهر نشاطهم • ولقد ذكر المؤرخون اسماء عدد من زعمائهم الذين تولوا الحركة بعد ابي سعيد بن بهرام منهم ابو طاهر سليمان الجنابي والحسن بن بهرام الجنابي ويوسف بن ابي الحسن الجنابي • ولايبعد ان يكونوا من اسرة ابي سعيد • ولم يسموا انفسهم ملوكا ولا أئمة ولا خلفاء •• وسمة الفرس بادية على الاسماء • ولما مات يوسف الجنابي لم ينفرد شخص بالزعامة بل تولى الامر مجلس من ستة اشخاص سموا باسم السادة حيث يمكن ان يستدل من هذا على ان الاسرة الجنابية الفارسية قد وهنت ودب فيها الفساد فكان ذلك مما ذهب بريحهم •

عود الى سياق احداث الدولة الفاطمية وملوكها

ولقد اخذت الدولة الفاطمية لفترة من الزمن في زمن العزيز

بالله [1] الذي خلف المعز وبعده تسير في مجال الحضارة والرخاء والابهة والثروة والتنظيم والثقافة سيرا حثيثا وغدت القاهرة مركزا عظيما للعروبة والاسلام عمرانا وتجارة وحضارة وثقافة وسلطانا • وكان العزيز متسامحا مع الطوائف غير الاسلامية تسامحا صار مضرب الامثال بآثاره وتنائجه •

ولقد أثار نشاط الفاطميين واستيلاؤهم على بلاد الشام وامتدادهم الى جزيرة الفرات ونشر دعوتهم بأساليب متنوعة ثائرة العباسيين وجعلهم يستشعرون الخطر فعمد الخليفة القادر بالله (٣٨١ ــ ٤٢٢ هـ) الى تنظيم محضر ينفي نسبة الفاطميين الى علي وفاطمة وينسبهم الى ميمون القداح اليهودي الاصل ويأخذ تواقيع عدد كبير من العلويين عليه • ولم يكن هذا ليجدي على العباسيين شيئا في مجال الفعل •

وبعد العزيز توالت الاحداث المكدرة على الدولة • ففي عهد ابنه الحاكم بامر الله [2] اصطدم المغاربة والمشارقة من جنود الدولة في الشام واقتتلوا نتيجة للمنافسات والمنازعات بين قوادهم • وانتقض امير طي مفرج بن دغفل في فلسطين واخذ يعيث فيها • وزحف الروم الى شمال سورية وتوغلوا فيها حتى وصلوا الى آفامية وهم يثخنون قتلا وسبيا وتدميرا • وخرج خارجي في برقة عرف باسم ابي ركوة زعم انه من احفاد عبد الرحمن الاموي الاندلسي • وكان الحاكم قد افحش في القتل والقسوة في الناس وقتل في من قتل جماعة من بني قره في برقة فالتفوا عليه وفعل مثلهم جماعات من لواته ومزاته وزناته فكثرت جموع ابي ركوة واستطاع ان يهزم العامل الفاطمي عن برقة وحاميتها ويملكها ويوطد سلطانه على منطقتها •

---

(١) سيرة العزيز بالله من كتاب تاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ١٠٦ - ١٦٣ وابن خلدون ج ٤ ص ٥١ ــ ٥٦

(٢) سيرة الحاكم في ابن خلدون ج ٤ ص ٥٦ ــ ٦١ والدولة الفاطمية ص ١٦٥ ــ ١٦٧ واتعاظ الحنفاء ص ٢٩٨ ــ ٣١٤

ولقد استطاع الحاكم ان يواجه هذه الاحداث بحزم وان يتغلب عليها ولكن ما كان عليه من شذوذ وتصرفات غريبة أثرت في بنيان الدولة حتى ليصح ان يقال ان اواخر عهده كان بداية لدور الدولة الثالث • وقد مات في ظروف غامضة فاستغل بعض الدعاة هذا الغموض في نشر دعوى الوهيته أو حلول الله فيه التي كان بعض اوليائه قد اغراه بها حتى تبناها وامر بنشرها ، وهي التي بقي من آثارها النحلة الدرزية على ما شرحناه في الجزء الاول من هذا الكتاب •

ولقد كان عهد ابنه الظاهر [١] الذي خلفه كذلك عهد اضطراب • ومن اهم الاحداث التي جرت في عهده تحالف ثلاثة من زعماء عرب الشام على التمرد واقتسام هذه البلاد والاستقلال فيها وهم صالح بن مرداس الكلابي امير حلب وحسان بن مفرج الطائي امير فلسطين وسنان ابن عليان الكلبي امير حوران • غير ان الظاهر استطاع ان يقمع هذه الحركة وينكل برؤوسها وان يحتفظ بسلطان الدولة وهيبتها •

وكان عهد المستنصر ابنه الذي خلفه [٢] اطول عهود الفاطميين بل يعد من اطول عهود الملوك • وقد حفل بالاحداث الهامة • ومنها ما كان له صلة بسلطان الدولة الفاطمية في بلاد المغرب موضوع هذا الفصل الاصلي •

ففي عهد المستنصر حاول المعز ابن باديس حاكم افريقية من قبل الفاطميين ان يستقل اكثر فتوعده المستنصر فما كان منه الا ان قطع الخطبة الفاطمية وخطب للخليفة العباسي القائم بامر الله (٤٢٢ ـــ ٤٦٧) وارسل الى هذا يطلب منه تقليدا ـــ أي مرسوما بولايته لتكون مشروعة

---

(١) سيرة الظاهر في ابن خلدون ج ٤ ص ٦١ وتاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ١٦٧ - ١٦٩ واتعاظ الخلفاء للمقريزي ص ٢٧١ - ٢٧٧

(٢) سيرة المستنصر في ابن خلدون ج ٤ ص ٦٢ - ٦٦ واتعاظ الخلفاء ص ٢٧٧-٢٨٨ والدولة الفاطمية ص ١٦٩ - ١٧١ و ٢٣٩ - ٢٤٨ و ٣٦٧ - ٣٧١

بتصديق من خليفة ـ ورحب هذا بالفرصة فارسل التلقيد والخلع والهدايا ٠

وحينئذ اغرى وزير المستنصر ابو الحسن اليازوري ـ نسبة الى قرية يازور في فلسطين ـ قبائل بني هلال وبني سليم التي كانت منتشرة في براري مصر بالزحف على افريقية والتشويش على المعز وامدهم بالاموال والسلاح فكان من زحفهم وانتشارهم في افريقية ونشاطهم وعينهم ما شرحناه في مكان سابق من هذا الفصل شرحا يغني عن التكرار ٠ وعمد الخليفة العباسي الى وضع محضر وقعه كثير من العلماء والعلويين والهاشميين في الطعن بنسب الفاطميين فقابل هؤلاء ذلك بحركتين خطيرتين جدا ٠ اولاهما تحريض قائد تركي الاصل عرف بالبساسيري على الكيد للعباسيين كان من نتيجته انحياز غير واحد من امراء الجزيرة الفراتية وامراء العراق للفاطميين وخطبتهم للمستنصر وزحف البساسيري مع ما تحشد تحت لوائه من قوات على بغداد اغتناما لفرصة غياب الملك السلجوقي الطغرل المتغلب على الخلافة العباسية عن بغداد سنة ٤٥٠ هـ والاستيلاء عليها واقامة الخطبة للمستنصر ونشر اعلام الفاطميين وشاراتهم وشعاراتهم فيها سنة كاملة وامتداد سيطرته الى البصرة وواسط وفرار الخليفة العباسي الى عانة تحت حماية احد امراء الجزيرة ولم ينقذ الخلافة والخليفة الا عودة أرطغرل مما شرحناه في الجزء الاول من هذا الكتاب في سياق سيرة الامارات العربية في الجزيرة الفراتية ٠

أما الحركة الثانية فهي ارسال المستنصر الداعية الاسماعيلي حسن الصباح الى بلاد الفرس لبث الدعاية ضد العباسيين والقيام بالحركات التهديمية والارهابية ٠ وقد أنشأ دولة ارهابية خطيرة في هذه البلاد عمرت نحو مئتي سنة وازعجت البلاد والعباد والدولة ازعاجا شديدا على ما شرحناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب في سياق فصل « التنوخيون في منطقة اللاذقية » والحركة الاسماعيلية فيها شرحا يغني عن التكرار كذلك ٠

ولقد كان تغلب الترك السلاجقة على الخلافة العباسية في عهد المستنصر وكانوا في بدء عهدهم أقوياء فنشبت مصاولة تعددت وقائعها بينهم وبين الفاطميين كان مسرحها بلاد الشام حيث كان السلاجقة يحاولون استعادة هذه البلاد لسلطان الخلافة العباسية الذي كان لهم فعلا ، وحيث كان الفاطميون يبذلون جهدا مضادا للاحتفاظ بسلطانهم عليها وتوطيده . وكان المتولي للجبهة الفاطمية بدر الجمالي وزير المستنصر المتغلب وابنه الافضل من بعده وللجبهة العباسية ارطغرل بك (٤٤٧ — ٤٥٥ هـ) والب ارسلان ابن اخي ارطغرل (٤٤٥ — ٤٦٥) وابن هذا ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) وقد استطاعت الجبهة العباسية ان تستولي سنة ٤٦٣ على دمشق وانحاء عديدة اخرى من بلاد الشام وان تهزم القوات الفاطمية الى فلسطين بل الى حدود مصر .

وقد كر بدر الجمالي بالمقابلة فاسترد كثيرا مما استولى عليه السلاجقة . وتكررت الوقائع . واستطاع السلاجقة ان يحتفظوا بكثير مما دخل في ايديهم من البلاد .

وفي عهد المستنصر توطدت السيادة الفاطمية على بلاد اليمن . فقد اهتم الفاطميون للدعوة في هذه البلاد كما اهتموا لها في غيرها . وكان داعيتهم في عهد المستنصر عليا الصليحي . وكان قويا حازما . وكان يقوم على الحكم في اليمن اسرة تنتسب الى زياد بن ابي سفيان تحت السيادة العباسية . وقد ضعف امرها واستبد بها غلام حبشي اسمه نجاح وارتبكت احوالها . فاغتنم الصليحي فرصة اغتال فيها نجاحا واستولى على الحكم وقطع الخطبة العباسية وخطب للمستنصر الفاطمي سنة ٤٥٢ هـ ثم اخذ يفتح الحصون والمدن ويخضعها لحكمه فلم تنته سنة ٤٥٥ هـ حتى لم يبق في اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر الا فتحه اذا صح ما قاله المؤرخ عمارة اليمني . وقد اتخذ صنعاء عاصمة لدولته . وكان يمارس السلطان المحلي مستقلا مع

الخطبة للخليفة الفاطمي والشعارات الشيعية الفاطمية • وقد انتقل حكم اليمن من بعده لابنه ثم لاحفاده الذين استمروا يخطبون للفاطميين مع الاستقلال التام وأبهة الملك والقابه لانفسهم الى ان زالت دولتهم في اواسط القرن السادس الهجري التي كان نجم الفاطميين فيها يتهاوى ويأفل في الوقت نفسه •

ولقد استمرت المصاولة بين الجبهة الفاطمية والجبهة العباسية في عهد المستعلي الذي خلف اباه المستنصر (١) • غير ان السلاجقة ظلوا محتفظين باكثر ما استولوا عليه • ومن جملة ذلك مناطق حلب ودمشق • وكل ما استطاعته الجبهة الفاطمية استرداد فلسطين سنة ٤٩٠ هـ •

وفي زمن المستعلي تعرضت بلاد الشام للغزوة الصليبية الافرنجية • ولقد حاول السلاجقة صد الغزاة حينما وصلوا الى انطاكية • ولكنهم اخفقوا بسبب ما كان بينهم من منافسات ومنازعات فاستولى الغزاة عليها ثم على المعرة وفتكوا باهلهما فتكا ذريعا ثم ساروا في طريق الساحل حتى وصلوا الى فلسطين سنة ٤٩٣ هـ وقد استولوا على ما في طريقهم من فلسطين ثم على القدس واثخنوا في اهلها كذلك قتلا ونهبا •

ولقد ارسل الافضل الجمالي امير الجيوش والمتغلب على الخلافة الفاطمية قوات لصد الغزاة الافرنج او عرقلة انتشارهم والتقت معهم قرب الرملة فانهزمت امامهم • وبعث الافضل قوة اخرى بقيادة ابنه شرف المعالي فكتب لها النصر على الغزاة وقتلت وأسرت غير قليل منهم • غير ان الغزاة جمعوا شملهم وكروا فهزموا القوات الفاطمية وساروا جنوبا الى عسقلان واستولوا عليها وسير الافضل حملة ثالثة استطاعت ان تسترد عسقلان • غير ان قتل الافضل في هذا الظرف واستشراء التنافس بين رجال الدولة على منصبه شل يد الدولة تجاه النشاط

---

(١) سيرة المستعلي من ابن خلدون ج ٤ ص ٦٦ ـ ٦٨ والدولة الفاطمية ص ١٧١ـ١٧٣ واتعاظ الخلفاء ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤

الصليبي الافرنجي في مرحلته الاولى • ولقد كان امراء الاسرة السلجوقية المتغلبة على الخلافة العباسية في هذا الظرف في نزاع وشقاق كما قلنا قبل فكان جهدها في مواجهة الغزوة الصليبية ضعيفا عقيما • فكان هذا مما أتاح للغزاة ان يثبتوا قدمهم في فلسطين وان يستولوا على ثغور ومدن ومواقع عديدة في بلاد الشام وان ينشئوا مملكتهم الاولى التي جعلوا القدس عاصمة لها •

ولم يكن في عهود الذين تولوا الخلافة بعد المستعلي (١) شيء هام من الاحداث الخارجية • وقد استشرت المنازعات والمنافسات بين رجالها حتى أودت بها في النهاية •

ولقد كانت البداية في عهد المستنصر برغم ما ذكرناه من نشاط واحداث هامة فيه • فقد تولى هذا الخلافة وهو حديث السن فاستبدت أمه في شؤون الدولة وصارت تصطنع الوزراء وتوليهم وتعزلهم وتغري المستنصر بمن تستوحش منه بقتله ، وفتح هذا باب التنافس والتناحر بين رجال الدولة • وكان العزيز بالله قد استكثر من العنصر التركي في جيشه لتخفيف غلواء الجند البربري الذي كان عدة الفاطميين في دور تأسيس الدولة ، كما فعل المستعصم العباسي فلم يلبث هذا العنصر ان قوي وتمكن كما صار شأنهم في بغداد وكان الى هذا في الجيش عنصر سوداني قوي فاخذت عناصر الجيش تتناحر وتشتبك مع بعضها اشتباكات دموية نتيجة لتنازع قوادهم وميولهم المتعاكسة واصابع أم المستنصر • وكان من جملة الرجال الذين اندمجوا في هذه المناحرات والدسائس ناصر الدولة الحمداني من احفاد الحمدانيين امراء الموصل وحلب وكان متحزبا مع العنصر التركي • وقد وقع اشتباك بين هذا العنصر والعنصر السوداني الذي كان مواليا للمستنصر وامه في هذا

---

(١) تولى بعد المستعلي الآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد . انظر سيرتهم في ابن خلدون ج ٤ ص ٦٨ — ٨٢ والدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ١٦٣ — ٢٠١ واتعاظ الخلفاء ص ١٦٣ — ٢٠١

الظرف بقيادة ناصر الدولة فهزمه ثم زحف مع جماعته فملك الاسكندرية ودمياط وقطع خطبة المستنصر منهما ومن سائر الريف وراسل بغداد ليقيم الخطبة للعباسيين • وقد صالحه المستنصر تفاديا لتفاقم الحالة ثم تآمر عليه ودبر اغتياله • وحينئذ احدث منصب امارة الجيوش وهو شبيه بمنصب امارة الامراء في الدولة العباسية ليضع صاحبه حدا لكثرة الايدي والدسائس كما فعل الراضي العباسي • غير ان هذا لم ينقذ الدولة لانه فتح باب التناحر والتنافس على المنصب بين القواد والطامعين كما كان شأنه في الدولة العباسية • وكان الذين يلونه يستبدون بالدولة ولا يألون جهدا في ادخار الاموال والكنوز • وقد تقلب في المنصب عدد من الرجال ترك وعرب وبربر وارمن وراح ضحيته معظم الذين تولوه حيث كان من يجد نفسه قويا يثب بالقائم فيقتله ويحل محله كما راح ضحيته بعض الخلفاء وهو ما جرى ايضا في الدولة العباسية • دون ان يكون في ما سبق عبرة للمستنصر وخلفائه لانهم اصبحوا مغلوبين على امرهم •

ولقد كان المستعلي الذي آل اليه العرش بعد ابيه المستنصر طفلا حينما مات ابوه وكان الآمر الذي آل اليه العرش بعد ابيه المستعلي طفلا كذلك حينما مات ابوه فكان ذلك مما ساعد على استشراء التنافس والارتباك •

وقد نتج عن ذلك خروج بلاد الشام والمغرب والحجاز من نفوذ وسيادة الدولة والخطبة للعباسيين فيها تحت ولاية دول وامراء البربر في المغرب والترك في الشام •

ومن مشهوري امراء الجيش الذين تولوا المنصب بدر الجمالي الارمني الاصل وهو اول من تولاه وكان نائبا في دمشق • وقد لقبه المستنصر بالسيد الاجل امير الجيوش وكافل قضاة المسلمين وداعي دعاة المؤمنين ورد اليه الامور كلها وعاهده على ذلك • ولم يلبث ان صار صاحب السلطان النافذ في الدولة • ثم ابنه الافضل الذي كان

صاحب السلطان النافذ في عهود المستنصر والمستعلي والآمر • ولقد قتل الافضل بتدبير من الخليفة الآمر لانه استثقل استبداده ولا سيما انه ارغمه على تزويجه بابنته • ولقد احتاط الآمر على داره فوجد فيها على ما رواه ابن خلدون ستة آلاف كيس من الذهب العين وخمسين اردبا من الورق ـ الفضة ـ وما لا يحصى من الديباج الملون والمتاع البغدادي والاسكندري والطرف الهندية وانواع الطيوب والعنبر والمسك • وكان من ذخائره دكة عاج وابنوس محلاة بالفضة عليها عرم مثمن من العنبر زنته الف رطل وعلى العرم مثل طائر من الذهب برجلين من المرجان ومنقار من الزمرد وعينين من الياقوت • وكان هذا العرم منصوب في بيته ويتضوع منه العرف فيعم القصر [1] ••• وهذا مثال من امثلة ما كان يكتنزه رجال الدولة وما كان يثير منافستهم وشرههم الى المنصب •

ولقد قبض الآمر على وزيره الثاني الذي عينه بعد الافضل وهو البطائحي وقتله فوجد في قصره مئة صندوق ما بين ذهب عين وفضة وجواهر ومئة برنية (جرة) مملوءة بالكافور وثلاثمائة صندوق فيها قماش متنوع من حرير وصوف وغير ذلك مما لا يحصى [2] •••

ومن مشهوريهم كذلك طلائع بن زريك الارمني الاصل ايضا وابنه زريك • وقد تلقب الاول بلقب الملك الصالح والثاني بلقب الملك العادل • وممن قتل من الخلفاء في سياق التناحر الآمر والظافر • ومن اصحاب المنصب الافضل الجمالي وابو عبد الله محمد البطائحي وابو علي بن الافضل ورضوان وابن مصال وابن السالار والصالح بن زريك وابنه زريك وشاور السعدي وضرغام المنصور أي معظمهم كما قلنا • وكان يصادر من بيوتهم ما لا يحصى من الاموال والنفائس والامتعة • والاخيران هما آخر من ولي المنصب • وقد تنافسا عليه في زمن آخر

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٠
(٢) ابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٦٣

الخلفاء الفاطميين العاضد • وكان تنافسهما من العوامل التي أدت الى زوال الدولة الفاطمية • ولقد وثب شاور على الملك العادل بن زريك فقتله واحتل مكانه • فلم يلبث ان وثب عليه ضرغام • ففر الى بلاد الشام • واحتل ضرغام المنصب واخذ يفتك بمن توسم فيه معارضته من رجال الدولة • واستنجد شاور بنور الدين زنكي سلطان الشام ووعده بثلث ايراد مصر ونفقة الحملة ان هو اعاده للوزارة • فسير هذا حملة بقيادة شيركوه الايوبي الكردي احد رجاله • ولما وصلت الحملة بلبيس اخرج ضرغام اخاه على رأس قوة للقائها ولكن شيركوه هزمها وتقدم نحو القاهرة فدب الرعب في قلب ضرغام وحاول الفرار فوثب بعض الناس عليه وقتلوه (٥٦٢ هـ) •

وتنيجة لذلك توسد شاور الوزارة • ولم يلبث ان تنكر لشيركوه واظهر له العذر ولم يف بما وعد • بل واتصل بالافرنج الصليبيين واتفق معهم عليه • وكانت لهم فرصة الدهر فتقدموا نحو مصر من البر والبحر • وتحصن شيركوه في بلبيس واخذ يتصاول مع الافرنج بدون نتيجة حاسمة • وفي هذه الاثناء استطاع نور الدين ان ينزل فيهم بعض الضربات في بعض انحاء الشام ففت ذلك في عضدهم ووافقوا على الانسحاب من مصر اذا انسحب منها شيركوه • وتم الامر على ذلك •

وخشي شاور عواقب غدره فاتصل بالافرنج وتحالف معهم وارسلوا قوة الى مصر لتكون حامية مرابطة فيها نتيجة لذلك • وقد ثارت ثائرة شيركوه فألح على نور الدين حتى جعله يوافق على عودته الى مصر ثانية • واخذ يتصاول مع الافرنج • وقد كسب عليهم بعض الجولات ولكنهم حاصروا صلاح الدين ابن اخي شيركوه ومساعده في قيادة الحملة في الاسكندرية • ثم اتفق الطرفان على الانسحاب مرة اخرى معا واخذا من شاور بعض المال كنفقة حربية (٥٦٣ هـ) على ان الافرنج لم يلبثوا ان عادوا للمرة الثالثة بقوة كبيرة لانهم رأوا الظروف ملائمة للاستيلاء على مصر • واخذوا يفتكون باهلها •

واستنجد هذه المرة الخليفة العاضد بنور الدين وارسل اليه خصلا من شعر نسائه امعانا في الضراعة فسير نو رالدين شيركوه للمرة الثالثة بقوة كبيرة فتمكن بعد صيال ونضال مع الافرنج من طردهم عن مصر ، وقبض صلاح الدين على شاور وقتله • وحينئذ وسد الخليفة الوزارة لشيركوه (٥٦٤ هـ) وقد عاجلته المنية في السنة التالية لوزارته فولى الخليفة صلاح الدين ولم يكن بعد قد بلغ الخامسة والعشرين على ما رواه الرواة • وقد اظهر كفاية ودراية في تصريف الامور وتمكن من التغلب على ما قام في وجهه من مؤامرات ومشاكل واخذ يستعد للمصاولة مع الافرنج من الجنوب بينما كان نورالدين يصاولهم من الشمال •

وفي أثناء وزارته مرض العاضد لدين الله وألح نور الدين زنكي عليه بقطع الخطبة الفاطمية والخطبة للعباسيين الذين يخطب لهم في بلاد الشام ايضا ففعل ذلك سنة ٥٦٧ هـ فعادت سيادة الخلافة العباسية فشملت البلاد المصرية وما كان يخطب للفاطميين من بلاد مثل ليبية غربا وبلاد اليمن جنوبا • ولم يلبث العاضد ان مات في نفس السنة فكان ذلك آخر عهو الدولة الفاطمية [١] •

ولقد روى المؤرخون خبر محاولتين لاولياء الفاطميين ضد حكم صلاح الدين وكرد فعل لالغائه الخطبة الفاطمية ، حيث رووا ان شخصا من كبار رجال القصر الفاطمي اسمه مؤتمن الخلافة حرض القوات السودانية ضد صلاح الدين فتمردوا وكان ذلك قبل موت الخليفة واتصل بالاضافة الى ذلك بالافرنج لتدعيم حركته ، وان اشخاصا من اولياء الفاطميين من جملتهم عمارة اليمني الشاعر المؤرخ رتبوا

---

(١) انظر سيرة الخلفاء الستة الاخيرين في المصادر المذكورة سابقا لاجل ما كان من تطاحن اصحاب المنصب ومصائرهم • وانظر خبر حملات شيركوه ومصاولاته مع الافرنج في المصادر المذكورة ثم في كتاب تاريخ الحروب الصليبية لرفيق التميمي ص ١١٧ — ١٢٦ وحياة صلاح الدين الايوبي للدكتور البيلي ص ٥٦ — ٨٠

مؤامرة لاغتيال صلاح الدين واعادة الخلافة الفاطمية بعد موت العاضد واتصلوا كذلك بالافرنج لتدعيم حركتهم ، وان حملة صليبية افرنجية بحرية قدمت الى مياه مصر بسبيل ذلك . غير ان صلاح الدين استطاع ان يقمع الحركتين وينكل برؤوسهما ويرد الحملة الافرنجية [1] .

أبهة الدولة الفاطمية وتنظيماتها

— ٣ —

ولقد وصفت كتب التاريخ كنوز الفاطميين وصفا مدهشا لا يكاد يصدق ويدل على كل حال على عظيم ما وصل امر دولتهم اليه من ثروة ورخاء وترف واناقة .

ومما ذكروه ان المستنصر اخرج في سنة اشتد فيها الغلاء والجدب من خزانته ثمانين الف قطعة بلور كبيرة وخمسا وسبعين الف قطعة من الديباج وعشرين الف سيف محلى واحد عشر الف كزغند للبيع لتفريج الضائقة وشراء المؤن[٢]. ولما مات الخليفة العاضد استولى صلاح الدين مخلفات الخلفاء وقصورهم . وقد اطنب المؤرخون في ذلك اطنابا عجيبا . فمما قاله ابو الفداء [٢] ان ما كان في قصر الخليفة ما يخرج عن الاحصاء كثرة وانه كان فيه اشياء نفيسة من الاعلاق المثمنة والكتب والتحف ومن جملة ذلك حبل من الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا [٣] . ومما قاله ابن خلدون انه كان في القصر ما لم

---

(١) انظر تاريخ الحروب الصليبية لرفيق التميمي ص ١٣٩ — ١٤٠ وحياة صلاح الدين للبيلي ص ٨١ — ٩٣ وابو الفداء ج ٣ ص ٣ و ٤٥ — ٥٥

(٢) ابو الفداء ج ٢ ص ١٨٦ ولم نر لكلمة كزغند تفسيرا ولعلها تعني نوعا من السلاح أو الآنية الثمينة . و قد روى هذا ابن رياح (ج ٢ ص ٦٠ — ٦١) ولم يذكر الكزغند ولكنه ذكر من جملة ما باعه المستنصر على ما روي ٢١ الف ضيعة و ٢٠ الف دار .

(٣) ج ٣ ص ٥١

يسمع بمثله من اصناف الجواهر واليواقيت والزمرد وحلى الذهب وآنية الفضة والذهب والموائد والطسوت والاباريق والقدور والصحاف والخوان والمنائر والطيافر والبواقيل والقباقب الاسورة كل ذلك من الذهب ووجد من انواع الطيوب واللباس والمذهبيات والقرقبيات والمعلفات والوشي ما لا تقله الاوقار ومن الكتب ما يناهز مئة وعشرين الف سفر ومن الظهر والكراع والسلاح ومن الخدم والوصائف خمسين الفا [1] ... ومما روى [2] ان صلاح الدين ظل يبيع من مخلفات الخلفاء عشر سنين دون ان ينفذ وان من جملة ما باعه احدى وعشرين الف ضيعة وعشرين الف دار . وانه كان للمعز عرش يزن الذهب فيه (١١٠٠٠٠) مثقال ورصع الستر الذي قباله بالف وخمسمائة قطعة وستين قطعة من الجواهر المتنوعة وحلي بما زنته (٣٠٠٠٠٠) مثقال من الذهب الخالص . وان ما خلفته رشيدة بنت المعز بلغت قيمته الف الف وسبعمائة الف دينار من جملتها ١٢٠٠٠ ثوبا مصمتا [3] وانه وجد في خزائن الفرش الفاطمية مئة الف قطعة خسروانية كثير منها مطرز بالذهب قيمة الواحدة منها (٣٥٠) دينارا ونحو الف من الستور الحريرية المنسوجة بالذهب عليها صور الدول والملوك . وهذا فضلا عن آلاف القطع من المساند والمراتب والمخدات والبسط والستور المصنوعة من اغلى انواع المخمل والديباج والخز التي كانت في القصور ...

ولقد روى ابن اياس ان الحاكم بامر الله استولى على مخلفات

(١) ج ٤ ص ٨٢ – ٨٣ في هذه السلسلة من الاعداد ثغرات حيث نبه الطابع الى ان هناك بياضا في اكثر من موضوع فيها .

(٢)ابن اياس ص ٦٩

(٣) روى ابن اياس انه كان للمعز اخت اسمها سيدة الملك وجد في قصرها من الذهب العين ٣٠٠ صندوق ومن الفصوص والياقوت الملون واللؤلؤ خمس ويبات ومدهن من الياقوت الاحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا ومن الحرير الاحمر ثلاثون الف شقة (ج ١ ص ٤٦) ولا ندري هل هي حقا غير تلك أم ان في الروايات تضاربا .

القائد جوهر الذي توفي في زمنه فكان من جملتها ستمائة الف الف دينار من الذهب العين واربعة آلاف الف درهم واربعة صناديق مجلدة من اللؤلؤ الكبار واليواقيت والف قصبة من الزمرد وخمسة وسبعون الف قطعة من الديباج ودواة من الذهب طولها ذراع وهي مرصعة بالدر والياقوت ولعبة من المسك والعنبر يعلق عليها ثيابه ومئة مسمار من الذهب على كل مسمار عمامة ومن الملاعق الذهب والفضة ٣٠٠٠ وعشرة آلاف زبدية صيني وبلور وفضة واربعة قدور من الذهب كل قدر مئة رطل وسبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس وثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور صيني . وهذا غير البغال والجمال والخيل والعبيد والجواري والفرش والاملاك والضياع (١) .

ولقد امر الحاكم بامر الله بقتل وزير له اسمه برجوان واستولى على مخلفاته وكان من جملتها من الذهب العين مئتا الف الف دينار ومن الفضة خمسون أردبا ومن القماش ٢٦١ بقجة والف سروال في كل منها نافجة مسك والف قميص من الحرير والف منديل من الحرير ومن كل صنف من القماش الف قطعة واثنى عشر صندوقا من الجواهر . وهذا غير الاملاك والضياع والخدم والبقر والانعام والجاموس ما يباع لبنه سنويا بثلاثين الف دينار ، وقد استمر نقل مخلفاته اربعين يوما على مئتي جمل في كل يوم نقلتين (١) ...

ومهما كان من المحتمل ان يكون في هذه الارقام مبالغة فهي ولا شك تدل على ما كانت الدولة تتمتع به من الثراء والابهة والترف .

ولقد كانت عنايتهم عظيمة بمختلف العلوم والفنون فازدهرت ازدهارا كبيرا وخاصة الفنون الهندسية والصناعات النقشية . وقد استمر ازدهارها متطورا بعدها أي في عهد الدول الايوبية والتركية والشركسية التي كانت القاهرة مركزها مما يشهد عليه عشرات المساجد

---

(١) ج ١ ص ٥١

(٢) ج ١ ص ٥٢ — ٥٣

والمدارس والسبلان والقباب والمنشئات المتنوعة الاخرى التي ما تزال قائمة الى اليوم في القاهرة ودمشق والقدس وغيرها من المدن المصرية والشامية والتي احتوت من دقيق الصنعة وروعة الهندسة ونفاسة الزخارف ما يثير الدهشة والاعجاب • ولقد جدد الفاطميون مسجد الصخرة في القدس فجاء آية في الجمال والفن والسناء •

وكانت عنايتهم بجمع الكتب كبيرة على ما تفيده روايات الراوين من كثرة المكتبات والآلاف المؤلفة من المجلدات والكتب التي كانت تحتويها حتى يبلغ عدد ما في بعض المكتبات مئات الالوف •

ولقد كان اهتمام الفاطميين عظيما لبث الدعوة والتقاليد والشعارات والافكار الشيعية لتحويل الناس عن العباسيين والمذاهب السنية • وقد صبغوا الدولة والدواوين والعاملين فيها بصبغتهم طوعا وكرها • وكان من مظاهر هذا الاهتمام انشاؤهم في جامع الازهر الذي كان من أول منشئاتهم في القاهرة مدرسة يتخرج فيها الدعاة على أيدي علماء الشيعة • وكانوا يرسلون هؤلاء الدعاة الى مختلف البلاد الاسلامية فيقومون بنشاط واسع بين العامة • وقد احدثوا منصب داعي الدعاة ليتولى شؤون الدعوة ودعاتها مما فيه دلالة على عظيم اهتمامهم • وقد نجحت هذه الحركة نجاحا غير يسير في بلاد الشام واليمن وفارس أيضا وامكن بها نشر الدعوة والتقاليد الشيعية وترسيخها بمقياس واسع ، مما لا تزال آثاره باقية الى الآن في بلاد الشام متمثلة في الطوائف الاسلامية غير السنية الموجودة فيها كالدروز والاسماعيلية بل ومتمثلة في كثير من عادات الموالد والمواسم والاوراد والحفلات والصيغ الدينية التي يمارسها جمهور المسلمين السنيين والشيعيين على السواء في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس الخ •••

وقد شرحنا في الجزئين الاول والثاني من هذا الكتاب في سياق فصول التنوخيين في لبنان في الجزء الاول والتنوخيين والاسماعيليين

في منطقة اللاذقية في الجزء الثاني ما كان من تطور الدعوة في بلاد الشام وآثارها الباقية خاصة في عقائد الاسماعيليين والدروز ومن جملة ذلك فكرة الحلول الالهي في الائمة وخاصة في الحاكم بامر الله بالنسبة للدروز ونسل نزار بن المستنصر بالنسبة للاسماعيليين الذين كانوا يدينون بالخضوع لائمة الاسماعيليين من ولد نزار •

ويستفاد من ما ذكره المؤرخون ان الفاطميين نظموا حكومتهم تنظيما واسعا بزوا فيه الخلافة العباسية وان معظم ما روي عن تنظيمات الحكومة الاسلامية يعود في الغالب الى عهدهم أو هو امتداد لعهدهم • ومما ذكر من تنظيماتهم انه كان لديهم نوعان من الوزارة وزارة تفويض ووزارة وساطة • ويكون الوزير في الاولى مفوضا بالرأي والتنفيذ وفي الثانية مفوضا بالرأي المعلق بتنفيذه على موافقة الخليفة • وكان هناك الى هذا وظيفة يقال لها الوزارة الصغرى أو وظيفة صاحب الباب ويناط به النظر في المظالم المحلية ، ثم وظيفة حامل المظلة ويناط بصاحبها رئاسة الحفلات التي لا يشهدها الخليفة وحجابة الخليفة حينما يشهدها ، ثم وظيفة صاحب السلاح التي يناط بصاحبها الاشراف على تجهيز الجيوش ، ووظيفة صاحب المجلس التي يناط بصاحبها الاشراف على الدواوين ، ووظيفة صاحب الرسالة التي يناط بصاحبها البريد ووظيفة صاحب زمام المنصور ووظيفة صاحب الدفتر ووظيفة والي القاهرة ووظيفة ولاية مصر ، ووظيفة قاضي القضاة ووظيفة داعي الدعاة وهو المختص بالدعوة الشيعية ووظيفة نقابة الطالبيين • ووظيفة المحتسب ووظيفته تلقي الرسل والوفود ، وصاحب ديوان الانشاء وصاحب ديوان الجيش وصاحب ديوان التحقيق وصاحب ديوان خزائن الكسوة وصاحب الطراز وصاحب ديوان الاحباس وصاحب

ديوان الرواتب وصاحب ديوان الصعيد وصاحب ديوان الوجه البحري وصاحب ديوان الثغور وصاحب ديوان الحوالي والمواريث الخ ...

وكان للخلفاء مواكب رسمية حافلة في مواسم معينة مثل المولد وجمع رمضان وعيدي الفطر والاضحى ووفاء النيل وفتح الخليج ولكل منها مراسم محفوظة وعادات مقررة في الركوب والنزول والصحبة والملابس والخدم والحشم الخ ... كما كانت عنايتهم بتهيئة المحمل للحج وتزيينه وحفلاته عظيمة جدا [1] ..

(١) انظر في صدد تنظيمات الدولة ونشاطها الثقافي والدعائي تاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٢٦٤ — ٦٧٣

— ٦ —

امارة بني مزنى في الزاب [1]

ظروف نشوء الامارة واسماء امرائها

امراء هذه الامارة ينتمون الى فزارة في رواية والي الاثبج الهلاليين في رواية اخرى ويرجح ابن خلدون الرواية الثانية ، وكان جماعة من الاثبج الهلاليين او بني فزارة على اختلاف الروايتين ينزلون مع افاويق من العشائر العربية في الزاب الذي كانت مدينة بسكره أم القرى فيه . ثم توطنوا في بسكره ولم يلبث زعيمهم فضل ابن علي بن احمد المزني ان فرض حكمه عليها . وكان ذلك في حكم ابي زكريا اول ملوك بني حفص (٦٢٦ ـ ٦٤٧ هـ) وقد انتهى ابن خلدون من كتابة كتابه في اواخر القرن الثامن الهجري والامارة ماتزال قائمة . وقد ذكر المؤرخ اسماء الذين تقلبوا على حكمها الى ان وقف من كتابة كتابه وهم عدا الفضل اولهم :

منصور بن الفضل
عبد الواحد بن منصور
يوسف بن منصور
احمد بن منصور .

سيرة الامـــارة

ومما ذكره ابن خلدون من سيرة امراء هذه الامارة انه لما آل

(١) سيرة هذه الامارة مقتبسة من تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٤٠٥ ـ ٤١٢

حكم الحفصيين الى المنتصر بن ابي زكريا اقر الفضل على ما في يده وعين أخاه على بلاد الجريد لانهما ناصراه حينما قام عليه ابن عمه ينافسه على الملك حتى تغلب عليه •

وقد تآمر بعض الامراء الزيانيين على الفضل مع جماعات من العرب والبربر وتمكنوا من اغتياله والاستبداد ببسكره • غير ان ابنا له اسمه منصور استطاع أن يزيح المتغلبين ويستعيد الحكم سنة ٦٩٣هـ فأقره ملك الحفصيين حينذاك على الحكم •

وقد اتسعت رقعة حكمه حتى شملت جبل اوراس وقرى عديدة أخرى واثرى واحتجز الاموال ورسخت عروق رياسته • ونشب نزاع وجفاء بينه وبين السلطان الحفصي ابي البقاء (٧١١ ــ ٧٢٥ هـ) ولكنه صمد له ولم يلبث السلطان ان مات فظل منصور صاحب السلطان في اقليمه الى ان هلك سنة ٧٢٥ هـ فقام مقامه ابنه عبد الواحد وكان سلطان بني حفص قد آل الى ابي بكر الثاني (٧٢٣ ــ ٧٤٧) فأقره واضاف الى رقعة حكمه بلادا أخرى •

وتآمر أخ له اسمه يوسف عليه وتمكن من اغتياله والحلول محله فأقره السلطان الحفصي • وقد اخذ يوسف يتصرف تصرف الملوك فأثار حاشية الحفصيين وجعلهم يحرضون السلطان عليه • وأدى ذلك الى تسيير الحملات عليه ولكنه صمد لها • وكان سلطان المرينيين ابو الحسن قد استطاع في هذا الظرف ان يضرب الحفصيين ضربة شديدة ويستولي على قسم كبير من مملكتهم فسعى يوسف حتى نال الحظوة عنده • وظل على عهده معه ايام نكبته • فلما صار السلطان الى ابنه ابي عنان حفظ له موقفه من ابيه فأقره واحسن جوائزه واضاف الى رقعة حكمه بلادا اخرى • ولما زحف ابو عنان على قسنطينة سنة ٧٥٤ هـ تلقاه يوسف فخلطه باولياته ونظمه في طبقات وزرائه • وقد لقى ابو

عنان في رحلته هذه بعض المصاعب التموينية بسبب انتقاض المنطقة عليه فقدم يوسف اليه من العلوفة والحنطة والمواشي والادم ما ارغد عيش جيشه وكفاهم الهم • وقد كان ما قدمه يوسف حديث الناس دهرا • وقد قدم يوسف الى السلطان قناطير من الذهب فجعله يشعر بعظيم منته عليه ويرفع شأنه ومنزلته • وحينما حضرته الوفاة وصى خليفته به احسن توصية •

وبعد موت ابي عنان استظهر الحفصيون واستأنفوا نشاطهم فتزلف يوسف اليهم ودان بطاعتهم فأقروه على ما في يده وظل امره مستقيما الى ان مات سنة ٧٦٧ هـ فحل في الحكم محله ابنه احمد الذي جرى على سنن ابيه • وقد قال ابن خلدون بعد سياقه الى ان وصل به الى هذه السنة انه الآن الامير على الزاب وان له أولادا كبيرهم ابو يحيى وهو المرشح مكانه حيث يفيد هذا ان امارة احمد استمرت الى آخر ما وقف ابن خلدون عنده في كتابه • ولم نجد تتمة خبر هذه الامارة في مرجع آخر فنقف منها عندما وقف عنده ابن خلدون •

— ٧ —

رئاسة بني يملول بتوزر وبني الخلف
بنقطة وبني ابي المنيع في الحامة
وبني العابد في قفصة

عقد ابن خلدون نبذة واحدة [١] للرئاسات الثلاث الاولى • غير انه تكلم في النبذة عن رئاسة رابعة لبني العابد في قفصة • فرأينا از نضمها الى العنوان وان نتابعه في ايراد خبر هذه الرئاسات في نبذة واحدة • وننبه على ان كلام المؤرخ يفيد أن بني ابي المنيع من الارومات البربرية • ولذلك سوف نقتصر هنا على الكلام عن الرئاسات **العربية** الثلاث •

١ ــ بنو يملول :

خلاصة ما ذكره المؤرخ عن هذه الاسرة ان زعيم الرئاسات الاربعة التي كانت في المنطقة الواسعة التي تعرف ببلاد الجريد في الاقليم التونسي هو بن يملول بتوزر لاتساع بلده وتمد مصر • واحتلاله منها بام القرى قطرة وان بني يملول ينسبون انفسهم الى تنوخ ويزعمون انهم من طوالع العرب وانهم استقروا بهذا الصقع منذ أول الفتح وتأثلوا ووشجت عروقهم نسبا وصهرا وانتظموا في بيوتات الشورى التي كانت تتقدم للوفادة على الملوك وتتلقى العمال القادمين من دار الخلافة وتنظر في مصالح الكافة ايام الحماديين ــ وآل عبد المؤمن في مراكش ــ يعني الموحدين ــ وآل ابي حفص بتونس •

---

(١) ج ٦ ص ٤١٢ ــ ٤٢٠

وقد اغتنم احمد الذي كان يتزعمهم في اوائل القرن الثامن الهجري فرصة ضعف ألم بدولة الحفصيين بعد السلطان أبي يحيى اللحياني فاستولى على الحكم في توزر وما يليها من قرى وضياع وريف • وظل صاحب الحكم والسلطان فيها الى سنة ٧١٨ حيث مات فخلفه ابنه يحيى الذي استطاع ان يحتفظ بالحكم باوفى من استبداد ابيه • ومات سنة ٧٢٣ فقام بالامر محله اخوه محمد الذي صانع امراء البدو وصاهرهم فكانوا درءا له وسندا وعظم امره وامتدت أيامه الى ان مات سنة ٧٤٤ هـ فتنازع على الخلافة ابنه عبد الله وأخ له اسمه ابو زيد وتغلب العم على ابن اخيه وظفر به وقتله • فاثار اهل البلد عليه • وكان له اخ آخر اسمه ابو بكر • كان معتقلا لدى السلطان فكاتبه اهل البلد سرا وطلبوا منه الاضطلاع بالامر وكتبوا للسلطان يلتمسون منه اطلاق سراحه فاستجاب السلطان الى طلبهم بعد ان اخذ منه المواثيق بالطاعة والوفاء • وجاء الى توزر ومعه جمع من الانصار من العرب والبربر فاقتحمها واعتقل اخاه القاتل وتولى الحكم • ووقف ابن خلدون من سيرة هذه الامارة عند هذا الحد •

٣ ــ بنو العابد في قفصة :

خلاصة ما ذكره المؤرخ في صدد هذه الاسرة انها تنتمي الى بلي وانها كانت من الاسر العربية البارزة في قفصة • وكان زعيمها في اوائل القرن الثامن الهجري يحيى بن محمد فاخذ يبرز ويزاحم الزعماء فيها بالمناكب حتى بزهم واستولى على الحكم في قفصة اغتناما لفرصة انشغال السلطان ابي الحسن المريني ببعض الشواغل • فلما فرغ بال السلطان زحف على قفصة وحاصرها وضيق على اهلها حتى ضجوا من الضيق واضطروا يحيى وكثيرا من اسرته الى الفرار منها الى قابس فدخل السلطان المدينة •

على ان نشاط الاسرة في مجال الحكم لم يقف فان زعيما آخر من زعمائها اسمه احمد استسنح فرصة فعاد الى قفصة واستولى عليها

وتولى الحكم فيها واستقام امره • وقد انتحل مذاهب اهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومركبه مبتعدا عن التكبر والتكثر من الابهة • فلما اوفى على شرف من العمر استبد عليه ابن له اسمه محمد وسار في سياسة الترف والجور والعسف واستكثر من المكوس والضرائب فاحنق عليه الناس وشكوا امرهم الى السلطان المريني فزحف بعساكره واوليائه من العرب والبربر على قفصة وحصرها ثم دخلها واعتقل الوالد والابن • وكان ذلك سنة ٧٨٠ هـ ، وقد استولى على اموال وديار بني العابد وكانت عظيمة تجل عن التعبير لطول ايامهم وكثرة احتجانهم للاموال • فلم يقم لهم بعد ذلك قائمة في مجال الحكم والسلطان •

٣ ــ بنو الخلف في نقطة :

وخلاصة ما ذكره المؤرخ في صددهم انهم اسرة عربية من طوالع العرب وتنتمي الى غسان ، وانها كانت من بيوتات الشورى البارزة في منطقة نقطة • وكانت زعامتها في اوائل القرن الثامن الهجري لزعيم اسمه مدافع • فبرز ونشط حتى تمكن من الاستبداد بحكم نقطة مستنصرا على ذلك باخوته وعشيرته • وقد احنق عمله السلطان ابا بكر الحفصي فنهض الى نقطة وتمكن من القبض على مدافع واخوته وضرب اعناقهم •

غير ان نشاط الاسرة لم يخمد • فلم يكد هذا السلطان يموت سنة ٧٤٧ حتى برز زعيم منها اسمه علي وتمكن من فرض حكمه على نقطة والاستبداد بها • وكانت الدولة الحفصية آن ذاك مرتبكة وقد استظهر عليها السلطان ابو الحسن المريني فتزلف اليه حتى اقره على عمله • وقد التزم مذاهب الخير وطرق الرضا والعدالة فمكن ذلك دولته • ومات سنة ٧٦٥ هـ فتولى مكانه ابنه محمد الذي جرى على سنن ابيه • غير انه لم يلبث ان مات بعد سنة من ولايته فتولى مكانه اخ له اسمه عبد الله • وقد سار على سياسة شديدة خلافا لابيه واخيه

فاثار عليه سخط الناس وشكوه للسلطان فارسل قوة ضربت الحصار على نقطة • واستعد عبد الله للدفاع بقوة وعزيمة • غير ان اخا له اسمه الخلف وابن عم له اسمه محمد وكان يتولى قضاء المدينة تواطئوا مع شيوخ البلد ضده فوهنت قواه ودس اليه اخوه من اغتاله • ثم فرض حكمه على البلد بدون موافقة المشيخة والقاضي والسلطان مما اثار عليه حنق الجميع • وقد حاول ان يستنجد بابن يملول زعيم توزر وحاكمها على اصلاح امره فلم يغنه ذلك حيث تمكن خصومه مع اولياء السلطان من القبض عليه وازاحته عن الحكم • ووقف ابن خلدون من السيرة عند هذا الحد •

امارة بني الورد اللخمية

حينما اضطرمت نار الفتنة في افريقية ـ الاقليم التونسي ـ وارتبكت دولة المعز الصنهاجي (٤٠٦ ـ ٤٥٤) كان في جهة بنزرت جماعة من لخم فاغتنم زعيمهم المسمى الورد الفرصة فوثب على حصن بنزرت واستولى عليه وعلى ناحيته وتلقب بلقب الامارة • وقد امتدت عمر هذه الامارة نحو مئة سنة وتعاقب عليها غير الورد : طراد ابنه ثم محمد بن طراد ، ثم مقرن بن طراد ، ثم عبد العزيز بن مقرن ثم موسى ابن مقرن ثم عيسى بن مقرن •

ولقد كانت الغلبة في هذه الناحية لبني المقدم من الاثبج ودهمان احد بطون رياح من بني هلال فحاسنهم الورد وهادنهم وكف عاديتهم عن ناحيته • وضبط امورها وشيد فيها المباني والمصانع • وكان ابنه طراد الذي خلفه في الامارة شهما قوي الشخصية مهابا فاستمر امر الامارة مستقيما • ولما مات وقام على الحكم ابنه محمد نازعه اخوه مقرن وتغلب عليه وانتزع الملك منه • وقد عظم سلطان مقرن وحمى حوزته واصطنع الرجال وقصده الشعراء • وسار ابنه عبد العزيز الذي تولى بعده على سنته فاستمر امر الامارة مستقيما • وظل مستقيما ايضا في عهد اخيه موسى الذي خلفه في الشطر الاول من عهد اخيه عيسى الذي خلف موسى •

وفي زمن هذا زحفت القوات الموحدية على الاقليم التونسي بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن وقد مر هذا بطريقه على بنزرت فاستفرغ عيسى جهده في قراه • غير ان الفساد والاضطراب كثر في هذه الاثناء من ناحيتي العرب والبربر في هذا الاقليم فزحف عبد المؤمن هذه المرة وقضى على ما فيه من امارات وحكومات وكانت هذه الامارات من جملتها • وكان ذلك عام ٥٥٤ هـ [١] •

---

(١) سيرة هذه الامارة مقتبسة من تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٩ ـ ١٧٠

— ٩ —

بنو جامع الهلاليون امراء قابس والقيروان (١)

لما دخل العرب بنو هلال وبنو سليم الى افريقية ــ الاقليم التونسي وغلبوا المعز الصنهاجي على الضواحي في اواسط القرن الخامس الهجري واستقروا فيها كان الوالي في قابس رجلا من صنهاجة اسمه ماضي . وكان سيىء السيرة فوثب عليه اهل قابس وقتلوه وولوا عليهم عمر بن المعز بن باديس وكان مخالفا لاخيه ولكن اخاه تميما زحف على قابس وفتحها واجلا اخاه عنها ، وحينئذ تولى الحكم فيها بكر بن كامل ابن جامع امير المناقشة من دهمان من بني علي احدى بطون رياح فكان ذلك اول ملك للعرب في الاقليم التونسي (٢) .

وقد امتد عمر هذه الامارة نحو مئة سنة . وتولى بعد مدة امير اسمه رافع ــ ولا يذكر ابن خلدون نسبته الى بكر ولكن سياقه على انه من بني جامع ــ وقد استفحل ملكه . وهو الذي اختط بحر العروسيين من مصانع الملك فيها واسمه مكتوب لهذا العهد على جدرانه. ووصف البحر يدل على انه خزان ماء للري .

وتصدى رشيد بن كامل احد امراء الاسرة لمنافسة رافع واستعان

---

(١) اقتبسنا هذه النبذة من تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ ــ ١٦٧؛

(٢) في رحلة التجاني وهو كتاب ارسله الينا علامة تونس حسن حسني عبد الوهاب وصاحب الرحلة من القرنين السابع والثامن أي اقدم من ابن خلدون اشارة الى امارة بني رافع هؤلاء . (ص ٩٤ ــ ١٠٣) غير ان سياق ابن خلدون أوفى ولذلك ابقيناه . واسم الوالي الصنهاجي في رحلة التجاني قاضي واسم اول امراء بني رافع في قابس فيها مكي بن كامل بن جامع وليس بكرا . ورافع الذي لم يذكر ابن خلدون نسبه هو في الرحلة ابن مكي .

ببعض العرب وزحف بهم على قابس ففر منها رافع فحل محله رشيد ثم تدخل الشيوخ ووفقوا بين الاميرين فاستقل رشيد نتيجة لذلك في امارة قابس ورافع في امارة القيروان [1] •

وقد استقام الامر لرشيد بعد ذلك وعظم امره • وقد ضرب سكة سماها بالسكة الرشيدية • وهو الذي اختط قصر العروسيين • ولما مات رشيد تولى الامر بعده ابنه محمد • وكان حديث السن فتغلب

---

(١) لا يذكر التجاني في رحلته ما ذكره ابن خلدون من تصدي رشيد لمنافسة رافع ولكنه يذكر ان عليا بن تميم بن المعز الصنهاجي صاحب السلطان الشامل في اقليم تونس بعد ابيه وجده في القرن الخامس هو الذي تصدى له لامور اصطنعها عليه فسير اسطوله على قابس واستنجد رافع بروجار ملك صقلية فارسل اليه اسطوله ونصح رجال على عليا يسحب اسطوله فابى وارسل مددا له وكان رجال اسطول صقلية في وليمة اقامها لهم رافع فاغتنم رجال اسطول على الفرصة وضربوا ضربتهم فكتبت لهم الغلبة وانهزم الصقليون مع ما سلم من سفنهم . فاستولى رجال علي على قابس وخرج منها رافع الى القيروان وكانت تحت ملك العرب بني عمه فاتفقوا على توليته الامارة . وقد ذكر التجاني ان محمدا ابن رشيد من بني جامع ملك قابس بعد دخول رافع الى القيروان ولم يذكر رشيدا بالمرة . ومما ذكره ان محمدا خرج لحرب عدو له من قابس وترك احد بنيه نائبا عنه فطرده مولاه يوسف منها واستولى على المدينة وانتسب الى طاعة روجار فقام عليه اهل قابس ودفعوه للعرب فعذبوه وكان ليوسف اخ اسمه عيسى ففر الى صقلية مستنصرا بطاغيتها فارسل هذا اسطوله الى قابس فحاصرها ثم رجع ، وان آخر ملك قابس من بني جامع هو مدافع ابن رشيد ابن مدافع ابن كامل بن جامع ومنه اخذها الموحدون وقد هرب مدافع ثم لحق بعبد المؤمن واستأمنه فأمنه ، وان ابا ساكن عامر بن محمد بن مكي بن كامل بن جامع هاجر بعد ذلك الى دمشق فاستوطنها ، وقد اورد صاحب الرحلة لهذا مقطوعة شعرية يذكر فيها ايام ملك قومه جاء فيها فيما جاء :

اني من الشم الاولى	شادوا العلا ابناء جامع
اهل المراتب والكتائب	والمواهب والصنائع
يتسابقون الى المعالي	كلهم فيها مسارع
ولقد ملكنا قابسا	بالمشرفيات القواطع
تسعين عاما لم يكن	فيها لنا احد منازع

وسياق ابن خلدون التاريخي اوفى واكثر اتساقا مع الوقائع كما تبادر لنا ولذلك جعلناه المعول الاول في النبذة واقتبسنا ما فيه زيادة من رحلة التجاني .

عليه مولى له اسمه يوسف • وجنح بسبيل تمكين الحكم لنفسه الـى الاتصال بروجار ملك صقلية والدخول في طاعته مما اثار اهل قـابس عليه • وقد تمكنوا من ازاحته وتوسيد الحكم لعيسى بن رشيد • ولقد جاء روجار وحاصر قابس مدة من الايام ثم اعيته فانصرف عنها • وتولى امارة قابس بعد عيسى اخوه مدافع • وفي هذه الاثناء كان عبد المؤمن ملك الموحدين ينشط في سبيل تصفية امارات ودول المغرب الاوسط وبسط سلطانه عليه فارسل حملة الى قابس تمكنت من الاستيلاء على المدينة والقضاء على امارة بني جامع فيها وكان ذلك في اوائل النصف الثاني من القرن السادس الهجري •

دولة الشريف ابي عبد الله الحفيد

هذا الشريف ينتمي الى البيت الادريسي • وكان نقيب الاشـراف في فاس حينما ثار اهلها وفتكوا باليهود ثم فتكوا بآخر ملوك بني مرين عبد الحق [١] ، فاجتمع زعماء المدينة على الشريف وبايعوه بالامانة وكان ذلك سنة ٨٦٨ هـ •

على ان عمر هذه الدولة لم يمتد اكثر من سبع سنين • فقـد اخذت قبائل عرب الشاوية تعيث في احواز فاس ولم يستطع الشريف كبحها • واضطربت الاحوال نتيجة لذلك • وكان في مدينة أصيلا زعيم من بني مرين اسمه الشيخ ابو عبد الله محمد الوطاسي فاغتنم الفرصة لاعادة ملك ارومته ففرض حكمه على اصيلا واخذ يحشد القبائل تحت لوائه فاستفحل امره • وحينئذ زحف على فاس وحاصرها سنة ٨٧٥ هـ فلم ير الشريف ابو عبد الله مناصا من التخلي عن الحكم وحينئذ دخـل الوطاسي المدينة فبايعه اهلها •

(١) انظر خلاصة تاريخ دولة بني مرين في الملحق والاستقصاء ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥١ و ١٥٨ — ١٦٠

— ١١ —

الـدولـة السعديـة

ظروف نشأتها واسماء ملوكها

قامت هذه الدولة في المغرب الاقصى • وينسب ملوكها انفسهم الى محمد النفس الزكية من احفاد الحسن بن علي ابي طالب ويقولون ان جدهم المولى زيدان بن احمد كان يقيم في ينبع النخل في طريق المدينة المنورة فاتصل به اهل درعه في السوس واستدعوه للحصول على بركته في صلاح ثمارهم التي كان يعتريها العطب حسب تقليد كان جاريا في بلاد المغرب ، فجاء واستقر في درعه دون تعيين زمن لقدومه •

وهناك من يطعن في نسبهم وينسبهم الى بني سعد بن بكر القبيلة التي رضع فيها النبي ويقول ان نسبتهم السعدية أتت من ذلك • غير ان المشهور صحة نسبهم الاول (١) •

ومؤسس الدولة هو ابو عبد الله محمد زعيم الاسرة في القرن العاشر الهجري • وكان يقيم مع أسرته في مدينة درعه في السوس • وكان البرتغاليون في اواسط القرن التاسع الهجري قد استطالوا على ثغور هذه المنطقة ولم يستطع الوطاسيون الذين تولوا الحكم بعد المرينيين ان يقفوا في وجههم • فتوجه اعيان هذه المنطقة الى ابي عبدالله الذي كان ذا مكانة وبروز وبايعوه سنة ٩١٥ هـ وتعهدوا له بالنصرة والتأييد فقبل وتلقب بلقب القائم بأمر الله واخذ يحشد الحشود ويباشر مجاهدة البرتغال وتمكن من ازعاجهم وانزال الضربات الشديدة فيهم ،

---

(١) انظر الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى للسلاوي ج ٣ ص ٢ — ٣

وقد اخذ من جهة اخرى يتبسط في توطيد سيطرته على اطراف الدولة الوطاسية الاخرى .

ومات سنة ٩٢٣ ﻫ فخلفه ابنه ابو العباس واستمر على خطة ابيه في مجاهدة البرتغاليين من جهة والتبسط في السيطرة من جهة اخرى ، واخذ الناس يهرعون اليه من كل جانب ، وحينئذ كاتبه اعيان مراكش ودعوه اليهم فسارع الى التلبية واستولى على المدينة سنة ٩٣٠ ﻫ ، وخرج الملك الوطاسي ابو عبد الله من فاس الى قمع الحركة المستفحلة فلم يوفق واضطر الى مصالحة ابي العباس وقسمة البلاد بينه وبينه فيكون له فاس والمنطقة الشرقية ولابي العباس مراكش والمنطقة الغربية فكان في هذا توطيد لهذه الدولة [١] .

وقد عمرت نحو قرن ونصف وتولى عرشها اثنى عشر ملكا وهم :

ابو عبد الله محمد القائم بامر الله ومدته من ٩١٥ الى ٩٢٣
ابو العباس بن ابي عبد الله ومدته من ٩٢٣ الى ٩٤٦ وخلع
المهدي محمد ابو عبد الله ومدته من ٩٤٦ الى ٩٦٤ وقتل
الغالب بالله ابو محمد عبد الله بن محمد ومدته من ٩٦٤ الى ٩٨١
المتوكل على الله ابو عبد الله ابن الغالب ومدته من ٩٨١ الى ٩٨٣ وخلع .
المستعصم بالله عبد الملك بن محمد ومدته من ٩٨٣ الى ٩٨٧
ابو العباس احمد المنصور بن ابي عبد الله ومدته من ٩٨٧ الى١٠١٢
ابو المعاني زيدان بن احمد ومدته من ١٠١٢ الى ١٠٣٥
ابو مروان عبد الملك بن زيدان ومدته من ١٠٣٥ الى ١٠٤٠ وقتل
ابو يزيد الوليد بن زيدان ومدته من ١٠٤٠ الى ١٠٤٥ وقتل .
ابو عبد الله محمد الشيخ بن زيدان ومدته من ١٠٤٥ الى ١٠٦٤ وقتل

(١) الاستقصاء ج ٣ ص ١٠

ابو العباس احمد بن محمد الشيخ ومدته من ١٠٦٤ الى ١٠٦٥ وقتـــل •

وكانوا يتلقبون بلقب الخلافة وامارة المؤمنين •

ولقد تقلبت هذه الدولة في ادوار من القوة والضعف وكثرت بين امراء الاسرة المنازعات والحروب حتى وصل الامر ببعضهم الى الاستعانة بالاسبان والبرتغال والتخلي لهم عن بعض الثغور مقابل نصرتهم علــى بعض • وقد كثرت في عهدها كذلك الفتن والثورات • وقد خلع وقتل نتيجة لذلك سبعة من ملوكها كما انها انقسمت في اواخر عهدها الى قسمين قسم مركزه مراكش وقسم مركزه فاس ، وقد خرجت منطقة فاس من سلطانهم سنة ١٠٣٦ وظل هذا السلطان قاصرا علــى منطقة مراكش • والملوك الخمسة الاخيرون هم ملوك هذه المنطقة • امــا منطقة فاس فقد استولى على الحكم فيها عبد الله بن المأمون بن ابي العباس احمد سنة ١٠٢٢ وظل مستمسكا فيها وسط القلاقل والفتن الى سنة ١٠٣٢ وخلفه في حكمها اخوه عبد الملك الى سنة ١٠٣٦ وانقطع بموته في هذه السنة حكم هذه الاسرة لهذه المنطقة •

خلاصة احداث الدولة وسيرة ملوكها

وسيرة هذه الدولة قد استغرقت الجزء الثالث من كتاب الاستقصاء الذي يقع في ١٤٧ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق • ومنهــج الكتاب لا يتحمل التوسع الكثير ولسوف نلخص احداث الدولة وسيرة ملوكها تلخيصا مجزيا في الوقت نفسه كمــا فعلنــا بالنسبة لفصول الكتاب الاخرى •

ولقد ظلت الدولة قوية مستمسكة الى سنة ١٠١٢ مع تخلل هذه الحقبة ببعض الفتن والمنازعات •

ولقد كان لثالث ملوكها [1] جهد وبلاء في مجاهدة البرتغاليين وتوطيد الدولة كما كان لسلفيه من قبل • ولقد تولى الملك نتيجة لنزاع قام بينه وبين اخيه انتهى بانتصاره على اخيه وخلعه • وكان من آثار مجاهدته البرتغاليين استرداد ثغور فونتي واصفى وازمور واصيلا منهم بعد ان طال احتلالهم لها • وكان من آثار جهود في سبيل توطيد الدولة استيلاؤه على فاس وتقويضه الدولة الوطاسية سنة ٩٥٦ وشمول سلطانه لجميع المغرب الاقصى •

ولم تقف مطامح هذا الملك عند هذا الحد حيث طمح الى السيطرة على المغرب الاوسط • وكانت تلمسان في سلطان الترك العثمانيين فزحف واستولى عليها سنة ٩٥٧ بعد حصار طويل • غير ان الترك كروا واستردوا المدينة فكر ثانية فاخفق ووقف الامر عند هذا الحد ، لان الترك اوفدوا اليه وفدا بطلب المسالمة سنة ٩٦١ فاجابهم الى ذلك وتحددت التخوم بينهم •

وكان هذا الملك الى هذه الجهود والمطامح مولعا بالتنظيم فنظم دواوين حكومته ووضع بعض القوانين المدنية والاجتماعية والسلوكية فاكتسى الملك بذلك حلاوة ورونقا • وكان حافظا للقرآن ومحدثا واديبا وشاعرا فازدحم بلاطه بالشعراء والعلماء والادباء •

وقد ارسل السلطان سليمان العثماني اليه رسالة يهنئه بالدولة ويطلب منه الدعاء باسمه على المنابر وكتابة اسمه في السكة كما كان يفعل الوطاسيون ، فاثار الطلب غضبه وابرق وارعد واحضر رسول السلطان وقال له لاجواب لك عندي حتى اكون بمصر ان شاء الله ، وحينئذ اكتب لسلطان القوارب ! فخرج الرسول مذعورا واثار هذا الموقف السلطان العثماني وامر بتجهيز حملة انتقامية ، وكان هذا السلطان قد اتسع ملكه حتى صار من اعظم ملوك الارض بسطة سلطان وانتشار اسم وهابه ملوك اوروبا فعز عليه ان

---

(١) سيرته مفصلة في الصحف ١٧ ــ ٢٦ من الجزء الثالث من الاستقصاء .

يلقي الاهانة من الملك السعدي • وقد عمد وزراء السلطان سليمان الى الحيلة فامروا قائدهم في تلمسان بتدبير اغتيال هذا الملك ، وارسل هذا بعض الفدائيين الذين تظاهروا بالنقمة على والي تلمسان حتى اطمأن اليهم وما لبثوا ان وثبوا عليه في فرصة سانحة سنة ٩٦٤ فقتلوه واحتزوا رأسه وفروا ثم ارسلوا الرأس الى الاستانة حيث علق على احد ابوابها •

ومنذئذ نشب النزاع ثانية بين الدولة السعدية والدولة العثمانية ممثلة بقواتها وعمالها في المغرب الاوسط الذي كان خاضعا لسيادتها وتعددت بين الطرفين الوقائع وكانت اولاها في عهد الغالب بالله ابن المهدي محمد القتيل الذي تولى الحكم بعد ابيه حيث زحف نحو اقليم الجزائر عقب توليه الملك لاخذ ثأر ابيه واستطاع ان يحصر حامية تركية في بعض المواقع ويفنيها عن بكرة ابيها •

وفي سنة ٩٦٥ هـ غزا والي الجزائر العثماني المغرب الاقصى كرد على هذه الغزوة فخرج الغالب بالله للقائه وهزمه هزيمة شديدة •

ومن عجيب ما وقع ان اخوة الغالب وكانوا اربعة استغلوا مانشب بين اخيهم والترك من عداء فقاموا ينافسونه ، وذهبوا الى تلمسان ومنها الى الاستانة واخذوا يحرضون السلطان العثماني على اخيهم ويعدونه بالخضوع لسيادته ولعلهم كانوا من أم غير أم اخيهم ! فاجابهم الى رغبتهم واعطاهم مالا وسلاحا وامر واليه في الجزائر بمدهم بالرجال • وقد هيأوا حشدا زحفوا به بزعامة كبيرهم ابي مروان ، وكان الغالب بالله قد توفي وتولى الملك ابنه المتوكل (١) فخرج الى لقائهم فهزموه وتقدموا نحو فاس فاستولوا عليها وبايعوا كبيرهم بالخلافة ، ثم استولوا على مراكش • وحشد المتوكل الانصار وكر على مراكش فاخفق فلجأ الى البرتغاليين الذين كانوا يحتلون طنجة واستمد منهم المعونة ، ورحب هؤلاء بالفرصة وشرطوا عليه ان يكون

---

(١) انظر سيرته في الاستقصاء ج ٣ ص ٢٦ — ٣١

لهم جميع السواحل فرضي بذلك وحينئذ زحفوا معه على رأس جيش كثيف سنة ٩٦٨ﻫ روي انه كان يزيد على مئة الف ومعه اثنى عشر مدفعا ومن ضمنه كتائب طليانية والمانية واسبانية حيث يبدو من هذا ان البرتغال ظنوا ان الفرصة سانحة للاستيلاء على بلاد المغرب ، واشتراك المتوكل وجماعة من انصاره في الزحف ايضا ، وقد اقتحموا المغرب من ناحية طنجة ، وخرج ابو مروان للقائهم بجيش عدده اربعون الفا على ما روى واشتبك الجمعان في واد اسمه وادي المخازن في بلاد الهبط فكتب النصر لابي مروان ومني البرتغاليون بكسرة شنيعة وقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزم الناجون مذعورين وكان قائدهم والمتوكل ممن قتلوا ، وقد سلخ ابو مروان جلد المتوكل وحشاه تبنا وعلقه على باب فاس ، وكان نصر عظيم شبه بنصر بدر بسبب تفوق البرتغاليين بالعدة والعدد ، وقد غنم المسلمون منهم غنائم لا تحصى ، وكان ابو مروان مريضا ولكنه شهد المعركة وهو في محفته ومات في الميدان بعد ان قرت عينه بالنصر العظيم (١) ،

وقد بويع بعده اخوه احمد المنصور الذي هو اعظم ملوك هذه الدولة بسطة سلطان وازدهار عهد (٢) ،

ولقد كان النصر الذي احرزه المسلمون على البرتغاليين عظيما على ما يبدو في ظرف وقوعه حيث سارع احمد فزف البشرى به الى السلطان العثماني وملوك المسلمين الآخرين ووردت عليه التهاني والهدايا ، ومن العجيب انه كان بين المهنئين ملك البرتغال وقد ارسل مع وفده هدايا عظيمة وطرفا نفيسة وثلاثمائة الف ريال فضي ، وفعل مثله ملك الاسبان وكانت هداياه مقادير كبيرة من الياقوت والدر والزمرد ، وفعل مثلهما ملك فرنسة ايضا ، وكانت هدية السلطان

(١) سيرة ابي مروان في الاستقصاء ج ٣ ص ٢٧ ـ ٤٢

(٢) سيرته في الاستقصاء ص ٤٢ ـ ٩٨

العثماني مراد الثالث تافهة استقلها المنصور وجعلته يتشاغل عن وفده ويتأخر عن كتاب شكر له مما أساء الوفد العثماني وجعله يرجع حانقا • وجر هذا الى جفاء كاد يتطور الى حرب • ثم تدارك المنصور الامر فارسل وفدا يعتذر للسلطان ومعه هدايا جميلة •

ومما فعله المنصور تسييره حملة الى الصحراء السودانية ، وقد استطاعت سنة ٩٩٠ اخضاع بلاد تيكورارين وتوات لسلطان الدولة السعدية • وقد اوفد ملك بورنوا وكان مسلما وفدا وهدايا الى المنصور وطلب امداده للقيام بحركة جهادية تبشيرية بين القبائل السودانية • فاشترط المنصور ان تكون الحركة باسمه على اعتباره خليفة المسلمين ومن ذرية النبي وان يدخل الملك نفسه في نطاق بيعته فوافقه هذا على ذلك • وحينئذ أمده بالمال والرجال والسلاح وتمكن هذا من نشر الاسلام في الصحراء السودانية الكبرى في ظل سلطان وخلافة الملك السعدي •••

ولقد اراد المنصور ان يبسط سلطان خلافته على كل ربوع افريقية الوسطى • وكان في كاغوا احدى هذه المناطق ملك مسلم اسمه اسحق فامتنع عن الدخول في نطاق هذا السلطان فثار غضب المنصور وجهز عليه حملة قوية اشتبكت مع قوات هذا الملك فدارت الدائرة عليه واخذت الحملة توطد سيطرتها على انحاء مملكته وتطارده الى ان اعلن خضوعه واذعانه وتعهد بالخطبة للمنصور واداء جزية سنوية اليه سنة ٩٩٩ هـ • على ان المنصور لم يقر الاتفاق وطالب قواده بالفتح الشامل فعادت حركة المطاردة الى ان هلك الملك اسحق وتم اخضاع بلاده • وهكذا غدا سلطان المنصور نافذا فيما بين بلاد النوبة شرقا الى البحر المحيط غربا • وقد دخل في حوزته مقادير عظيمة من الذهب وصفت بانها تعيي الحاسبين وتحير الناظرين حتى انه لم يكن يعطي المرتبات الا دنانير ذهبية ، وكان ببابه الف واربعمئة مطرقة لضرب الدنانير • وهذا خلاف ما كان معدا لغير ذلك من صوغ الاقراط

والحلى . ومن اجل ذلك سمي المنصور بالـذهبي لفيضان الـذهب في ايامه .

ومما كان من حوادث الفتح والتوفيق في عهد المنصور ان السرايا الجهادية فتكت بحامية سبته سنة ٩٩٦ هـ واستولت على الثغر وان حامية ثغر اصيلا جلت عنها من تلقاء نفسها سنة ٩٩٧ خشية من ذلك المصير ، فكان لعودة هذين الثغرين لحوزة المسلمين رنة عظيمة بعد ان ظـلا في حيازة البرتغاليين امدا طويلا .

وقد تاقت نفس المنصور الى ما يخلد اسمه فأنشأ قصر البديـع في مراكش انفق فيه نفقة عظيمة وسلخ في عمارته وتزيينه ستة عشر عاما وجمع له الصناع الماهرين من المشرق والمغرب ومن المسلمين والنصارى حتى جاء آية من الآيات برخامه وتذهيبه ورحباته وقبـابه واعمدتـه وطلائـه وزخـارفه ونقوشه ، وقد زينت جدرانه بقصائد في مـدح الخليفة واسرته وعظم شأنه وسلطانه . وفرش القصر فرشا رائعا واقيم له حفلة تدشين عظيمة مدت فيها الموائد العامة وتليت فيها سيرة المولـد النبوي بحفاوة بالغة .

وقد كان مما يدور في خاطر المنصور استرداد الاندلس ولم يكن قـد مر على انهيار السلطان الاسلامي العربي فيها مئة سنة وكـان ما يزال فيها جماعات كبيرة من انسال العرب والمسلمين يقاسون انواع الاضطهاد والاذى والتضييق ، ويستفاد هذا من رسالة كتبهـا الـى شريف مكة مع شيخ الركب المغربي طلب فيها من الشريف الدعاء بـان يؤيده الله على عدو الدين وينجز وعده باظهار دينه على الدين كلـه ويسهل عليه بفضله ومعونته اسبـاب فتـح الاندلس وتجديد رسوم الايمان فيها واحياء اطلاله ... وقد عنون رسالته بهذه الديباجـة التي تدل على ما بلغ اليه شأنه واعتداده : « من عبد الله المجاهد في سبيله المنصور بالله احمد امير المؤمنين بن امير المؤمنين الشريف الحسني الى الاصالة التي تبجحت من ذؤابة هاشم في صميمها وتوغلتمنعرفات

حرمة الله بين زمزمها وحطيمها وتمتعت من عرارة نجد بانتشاق نفحاتها الاريحة وشميمها السلطان الاثيل الاسني الاسمى الازكى حسن ابن ابي نمي » ..

ولقد كان للمنصور الى هذا نشاط عمراني واقتصادي عاد على المملكة بالنفع والازدهار . ومما أنشأه معاصر للسكر في اماكن عديدة فكثر السكر في ايامه حتى لم تكد تكون له قيمة . وكان يبادل عليه من اسبانيا بالرخام . واعتنى بتحصين الثغور البحرية وتقوية دفاعها كما اهتم لامر الجيش وتنظيمه وتجهيزه اهتماما بالغا حتى صار له جيش قوي مقسم الى صفوف عديدة من جملتها كتيبة خاصة من الشباب الاندلسيين النازحين ...

وكان حازما يقظا مشاورا في مهمات الامور . وقد أنشأ ديوانا للشورى يجتمع فيه كل يوم اربعاء وجوه الدولة فيتداولون فيما ينوب من جلائل الامور . وكان متطلعا لاخبار النواحي بحاثا عنها غير متراخ في قراءة رسائل الاطراف مسارعا في الاجابة عليها . وكان مشاركا في العلوم . وقد اتصل بالمراسلة بعلماء مصر الكبار واستجازهم . وممن اجازه العلامة ابو عبد الله محمد بن يحيى القرافي وله في هذه الاجازة هذا المقطع :

أجزت لمن تفضل فاستجازا وبادر لاقتنا خير وحازا
وابرز في سلوك العلم حالا به من فضل مولانا يجازى
امام كامل غوث البرايا امير المؤمنين حوى مجازا

ومما اخذ عليه انه وظف على رعيته اموالا طائلة زيادة عما كان عليه الامر في عهد والده وانه كان سفاكا جريئا . ولم يخل عهده من مكدرات ، فقد ثار عليه ابن اخ له اسمه داود وتجمع حوله بعض الانصار فطارده حتى هلك . وكانت القبائل العربية المعروفة بعرب الخلط صاحبة شأن في الدولة المرينية ثم الوطاسية فجنح الى

كسر شوكتهم فثاروا عليه واخذوا يعيثون في البلاد ولم يتمكن من قمع حركتهم الا بعد العناء الشديد • حيث يبدو انهم كانوا اقوياء معتدين • والخبر يتضمن ان هؤلاء الجماعات كانوا يعيشون عيشة مخضرمة مدنية وقبيلية معا في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين • والراجح ان هذا امتداد لما سبق وليس هناك ما يمنع انهم استمروا على ذلك •

ولقد اخذ البيعة لابنه محمد بولاية العهد وعينه حاكما على فاس فانحرف في اخلاقه وسيرته حتى ضج الناس منه وحاول ابوه زجره بالحسنى فقابله بالتمرد مما جعله يزحف على فاس ويعتقل الابن المنحرف ويعزله من ولاية العهد •

ومما وقع ان ابن اخي المنصور داود الذي وصفه مؤلف الاستقصاء بالرئيس الاجل حنق من تولية عمه لابنه وليا للعهد فقام بحركة تمردية • وقد استطاع المنصور تشتيت الجمع الذي انضوى اليه ففر الى الصحراء حيث لجأ الى عربان الودايا من بني معقل فما زال عندهم حتى هلك سنة ٩٨٨ هـ ويتضمن الخبر ان جماعات من عربان بني معقل الذين ذكرنا خبر وجودهم في المغرب الاقصى في القرن السادس الهجري وبعده نقلا عن ابن خلدون والاستقصاء ظلوا يعيشون في الصحراء عيشة قبيلية وانهم كانوا أقوياء •••

ومما اورده السلاوي في سياق سيرة المنصور [1] ان جيش الدولة كان على عهد الملوك الثلاثة الذين سبقوه قاصرا على العرب وان المنصور جنح الى تطعيمه بالاعاجم كما فعل المعتصم فألف منهم كتائب متنوعة • والسياق يفيد ان المقصود بالاعاجم الترك والسودان • والعبارة تفيد اما ان العرب كانوا هم اسناد الدولة ودعامتها ومنهم جيشها في الدرجة الاولى أو ان العروبة كانت شاملة الطابع لجميع سكان الدولة وان العنصر البربري الذي كان حتما من سكانها كان قد تم اندماجه فيها

---

(١) ج ٣ ص ٨٢

وكلا الاحتمالين على كل حال ذو دلالة عظيمة في صدد العرب والعروبة في هذه البلاد •

ارتباك الدولة وانقسامها وانهيارها [1]

ولم يكد المنصور يموت سنة ١٠١٢ حتى ذر قرن الفتن والثورات في المملكة واخذ يتفاقم طيلة بقية عهد الدولة وكان قاضيا عليها •

ولقد بايع اهل فاس زيدان ابن المنصور بالخلافة وبايع اهل مراكش ابنا آخر اسمه ابو فارس كان حاكما عليها فأدى هذا الى الفتنة والحرب بين الاخوين • وقد استعان ابو فارس باخيه المأمون ولي العهد السابق الذي كان مسجونا ، ولما التقى جيشا الاخوين انهزم جيش زيدان وعاد هذا الى فاس فتبعه المأمون الذي كان يقود جيش ابي فارس واستطاع ان يستولي على فاس ويشرد اخاه عنها ، وحينئذ أخذ من الناس البيعة لنفسه • وغاظت حركته ابا فارس واعتبرها خيانة له وابى الموافقة عليها • وسير المأمون حينئذ حملة على مراكش بقيادة ابنه عبد الله فاستولى عليها وشرد ابا فارس عنها • وجمع زيدان من ناحية انصاره واستولى على سجلماسة ثم على بلاد السوس وكاتب انصاره في مراكش فثاروا بابن المأمون الذي أثار نقمة اهل المدينة بفسقه وفجوره واوقعوا بجيشه مقتلة عظيمة ، وحينئذ جاء زيدان فاستولى عليها • غير ان ابن اخيه كر عليها ثانية بجيش جديد واستردها وشرد عمه عنها • وعاد الى سيرته السيئة الفاسقة فتصدى له عصبة من اهل الحمية التفوا حول محمد بن عبد المؤمن بن محمد الاول وبايعوه بالخلافة ثم ثاروا بعبد الله بن المأمون وشردوه عن مراكش • وجاء زيدان بحملة جديدة فاستولى على المدينة وشرد عنها الخليفة الجديد ، ثم خرج بجموع كبيرة نحو فاس وتمكن من الاستيلاء علبها سنة ١٠١٧

(١) انظر الاستقصاء ج ٣ ص ٩٨ — ١٤٦

وتشريد المأمون وابنه عنها ، وركب المأموذ البحر من العرائش الى اسبانيا مستصرخا ملكها فامده بالمال والرجل والسلاح بعد ان اخذ منه العهد بالتخلي له عن ثغر العرائش ، وقد استطاع ان يبسط سيطرته على بلاد الريف • ولكن الناس نقموا منه استنصاره بالاسبان وذله لهم فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا ما جاء به من مال ومتاع سنة ١٠٢٢ ولكن الاسبان حققوا امنيتهم باحتلال العرائش وسط هذه الفتنة الغامرة • واستطاع ابن المأمون عبد الله ان يجمع حوله بعض الانصار ويكر على فاس ويستولي عليها ويوطد سلطانه فيها فانقسمت المملكة الى قسمين قسم مركزه مراكش وعلى رئاسته زيدان وقسم مركزه فاس وعلى رئاسته عبد الله ابن اخيه •

وقد ذكر مؤلف الاستقصاء في سياق ذلك ان بعض قبائل من العرب كانوا مع زيدان وبعضا آخر كانوا مع عبد الله وان لم يذكر الاسماء ، حيث يتضمن الخبر صورة من صور الوجود العربي القبيلي ونشاطه في أثناء هذه الاحداث •

ولقد حفزت هذه الفتن المتلاحقة الفقيه ابا العباس المعروف بابي محلي الى العمل فاخذ يكاتب القبائل آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مدعيا المهدوية داعيا لنفسه وفتن به وتابعه كثيرون فزحف بهم على سجلماسة واستولى عليها • وسير زيدان حملة للتنكيل به فقتل معظمها ثم زحف على مراكش واستولى عليها وشرد زيدان عنها سنة ١٠٢٢ ، واستصرخ هذا الناس وجمع حوله الجموع وكر بهم على مراكش فاستولى عليها وقبض على ابي العباس فقتله وشرد انصاره فعاد السلطان فاستتب في مراكش لزيدان مرة اخرى ••

وابو محلي هذا من اهل سجلماسة وينتمي الى بني العباس وكانت اسرته تعرف باسم اولاد ابن اليسع اهل زاوية القاضي على ما ذكره

مؤلف الاستقصاء [1] .

ومن اثارتهم الفتن المتلاحقة شخص آخر اسمه الشريف ابو الربيع وكانت حركته في فاس ضد عبد الله بن المأمون لان رجاله كانوا يروعون اهلها ويفجرون فيها ولا يزجرهم . وقد انضوى اليه جماعة من الناقمين . وحاول عبد الله قمع حركته فاخفق وتمكن الشريف وانصاره من ايقاع مذبحة مروعة في رجال عبد الله . وقد وثب عليه احدهم فاغتاله غدرا [2] .

ولقد بايع الثوار بعد ابي الربيع محمدا بن المأمون اخا عبد الله الذي يمارس السلطان فنشب بين الاخوين صراع وقتال وتمكن الاول من الاستيلاء على فاس وتشريد اخيه سنة ١٠٢٨ ولكن هذا كر مع انصاره واسترد المدينة وظفر باخيه وقتله واستأنف ممارسة السلطان ، وقد استتب له الامر في فاس مع استمرار الاضطراب والارتباك والفتن الى سنة ١٠٣٢ حيث توفي فتولى الملك اخوه عبد الملك وظل يمارسه في فاس الى سنة ١٠٣٦ حيث توفي هو الآخر فلم يقم فيها من السعديين احد بعده .

وكان هناك زعيم يقود حركة الجهاد ضد الاسبان الذين كانوا يحتلون بعض الثغور اسمه ابو عبد الله العياشي . وكان قد عظم شأنه حتى بايعه اكابر عصره على الجهاد والقيام بالحق واستطاع ازعاج المحتلين ازعاجا شديدا وتكبيدهم خسائر عظيمة مما بث الانتعاش في المسلمين وحمل كثيرا من القبائل على الدخول في بيعته ، فارسل اعيان فاس اليه وفدا يدعونه اليهم فجاء واستولى على فاس وغدت المنطقة الغربية برمتها في سلطانه .

وكان نجم توتر وجفاء بين الجالية الاندلسية النازلة في ثغر سلا

---

(١) انظر الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٧ ـ ١١٠ ففيها تفصيل لحركة ابي محلى هذا لخصنا عنها ما اثبتناه .

(٢) ص ١٣٠ ـ ١٣١

وبين ابين عبد الله هذا بسبب ما نقمه منهم من اهمالهم الجهاد وموادة الحاميات المحتلة وبيعهم لها ما تحتاج اليها من المؤونة فاستفتى العلماء فافتوه بقتالهم فاخذ يوقع فيهم ويضيق عليهم ففر فريق منهم الى مراكش وآخر الى الجزائر وآخر الى الثغور المحتلة وآخر الى منطقة زاوية الدلاء • وقد حضر هذه الحركات الجهادية مع ابي عبد الله جماعات عديدة من القبائل العربية منها جماعة من عرب الخلط واخرى من بني مالك واخرى من بني التاغي واخرى من دغيس وغيرهم ، مما فيه صورة من صور الوجود والنشاط العربي القبيلي •

ولقد جاء اهل منطقة زاوية الدلاء الى فاس يشفعون بمن التجأ اليهم فابى ابو عبد الله قبول شفاعتهم فرجعوا مغاضبين له ثم اعلنوا تمردهم عليه وتهيأوا لحربه فخرج اليهم وهزمهم ثم ذهب الى منطقة طنجة للجهاد فلما قفل وجدهم قد تجمعوا ثانية فاشتبك معهم فدارت الدائرة عليه ففر الى عرب الخلط فغدروا به وقتلوه سنة ١٠٥١ وارسلوا رأسه الى الاندلسيين في سلا ، مع ما كان له من بلاء عظيم في مجاهدة الافرنج الذين استطارهم الفرح حينما عرفوا بمقتله حتى انهم اعطوا البشارة لمن اخبرهم به واقاموا الزينات ثلاثة ايام • وهذا من الاحداث العجيبة الممضة •

وابو عبد الله العياشي هذا الذي كان مستوطنا في سلا ينتمي الى بني مالك بن زغبة الهلاليين على ما ذكره مؤلف الاستقصاء الذي قال ايضا انهم اليوم قبيلة من عرب الغرب • ويتضمن هذا كما هو المتبادر صورة من صور الوجود العربي القبيلي في المغرب الاقصى [1] ••

ونتيجة لذلك قوي اهل الزاوية الدلائية وبسط زعماؤهم سلطانهم

---

(١) انظر الاستقصاء ج ٣ ص ١٢٩ – ١٣١ و ١٣٤ – ١٣٨ حيث تجد اسهابا في سيرة وجهاد العياشي لخصنا ما اثبتناه عنها .

على منطقتهم ثم مدوه الى فاس ومكناس وغيرهما فكان ذلك الدولة الدلائية التي اوردنا خبرها في سلسلة الدول البربرية الاروبة .

أما منطقة مراكش فقد ظل السلطان فيها مستتبا لزيدان . وقد اهتم هو الآخر لمجاهدة الافرنج الذين كانوا يتطاولون على ثغور المنطقة . ومات سنة ١٠٣٧ فتولى الملك ابنه ابو مروان عبد الملك فثار عليه اخواه الوليد واحمد منافسين له ووقعت بين الطرفين اشتباكات دموية عديدة ، ومشي احمد بجمع من انصاره الى فاس واستولى عليها وقتل محمدا الحاج الدلائي الذي كان يمارس فيها الحكم ولكن قائد المدينة تصدى له واعتقله وظل معتقلا الى سنة ١٠٤٤ ثم فر من معتقله وتشرد حتى قتل غيلة سنة ١٠٥١

ولقد كان عبد الملك الذي تولى حكم منطقة مراكش فاسقا سكيرا فوثب عليه بعض الناس وقتلوه سنة ١٠٤٠ فبويع اخوه الوليد ، وتظاهر هذا بالورع والتقوى ولين الجانب فاكتسب محبة الناس واقبالهم وكان محبا للعلم والعلماء ، غير انه فتك فتكا ذريعا باخوته وبني عمه حتى كاد يفنيهم . وطالبه الجند بمرتباتهم فاساء جوابهم فوثب به بعضهم وقتلوه سنة ١٠٤٥ فبويع اخوه محمد وكان معتقلا . وقد سار سيرة صالحة حميدة . غير ان دولته كانت ضعيفة الهيبة وكان سلطانه قاصرا على مدينة مراكش وارباضها . وقد عدا عليه بعض المتمردين فقتلوه سنة ١٠٦٤ فبويع ابنه ابو العباس وهو آخر ملوك الدولة . ولقد كانت أم هذا الملك من عرب الشبانات من معقل فقوي هؤلاء به واخذوا يستطيلون على الناس فاراد ابو العباس ان يحد من شوكتهم فما كان منهم الا ان وثبوا عليه واغتالوه سنة ١٠٦٥ وبايعوا اميرهم عبد الكريم ابن ابي بكر فكان ذلك آخر عهد السعديين في منطقة مراكش ايضا .

ولقد اغتنم شخص اسمه ابو حسون السملالي فرصة ضعف

السلطان زيدان وذهاب ريحه في الصقع السوسي وارتباك حالة السعديين عموما فدعا لنفسه في هذا الصقع فالتف عليه غالب قبائله وتمكن من فرض حكمه على قطر السوس ثم مد يده الى درعه ثم الى سجلماسة فاستولى عليهما مع ما حولهما وظل صاحب الامر في هذه المنطقة الى ان تغلب عليه المولى محمد الشريف اول ملوك الدولة الشريفية التي يأتي الكلام عنها بعد قليل [1] .

---

(1) الاستقصاء ج ٣ ص ١٣٢

- ١٢ -

بنو شبانه

ولقد استقام السلطان لعبد الكريم في مراكش الى سنة ١٠٧٩ ه حيث اغتاله احد الجنود فبايع الناس ابنه ابا بكر • غير انه لم يطل به الامر • فقد قام في سجلماسة سنة ١٠٥٠ الشريف العلوي المولى محمد بن علي بحركة وطد بها سلطانه في هذه المدينة ومنطقتها ثم اخذت حركته تقوى وتتسع فكان منها الدولة الشريفية التي ما تزال صاحبة السلطان الى الآن في المغرب الاقصى • ولما كانت سنة ١٠٧٩ ه زحف المولى الرشيد ثالث ملوك الدولة وحفيد المولى محمد على مراكش فاستولى عليها • وقد قتل ابو بكر في الاشتباك الذي وقع في سياق الزحف فكان هذا آخر المطاف لهذه الاسرة العربية وقد رأينا ان نسجل بروزها هذا في مجال الحكم والسلطان ولو لم يطل عمرها (١) •

(١) انظر في صددها الاستقصاء ج ٣ ص ١٤٦ ـ ١٤٧

- ١٣ -

بنو راشـــد

لقد ذكر مؤلف الاستقصاء باسلوب خاطف خبر ارومة عربيـة اخرى كان لها بروز في سياق سيرة السلطان السعدي الغالب بـالله • فرأينا أن نسجلها في السلسلة ولو لم يكن الكلام عنها شافيا •

واسم هذه الارومة بنو راشد • وقد قال عنهم المؤلف انهم مـن شرفاء العلماء وانهم كانوا اهل جهاد ومرابطة على العـدو ببلاد غمـارة والهبط • وان الذي اختط المدينة هو الامير ابو الحسن علي بن علي بن موسى بن راشد وان اولاده من بعده ظلوا يتولون رئاستها • وانهـم ظلوا فيها بين حرب وسلم الى ان حاصرهم بها الوزير ابو عبد الله محمد ابن عبد القادر بن السلطان محمد الشيخ السعدي بجيوش عمه السلطان ابي محمد عبد الله الغالب بالله • وكان صاحب المدينة حينئذ الامـير الفاضل ابو عبد الله ابن الامير ابي الحسن • فلما اشتد عليه الحصار خرج باهله وولده وقرابته الى ترغة حيث ركبوا البحر واتجهوا نحـو الحجاز ثم استقروا في المدينة المنورة • وكان ذلك سنة ٩٦٩ هـ [1] •

---

(١) ج ٣ ص ١٩

— ١٤ —

الدولة الشريفة

ظروف نشأة هذه الدولة واسماء ملوكها

قامت هذه الدولة نتيجة للحركة التي قام بها الشريف العلوي محمد بن علي في سجلماسة سنة ١٠٥٠ ه على ما ذكرناه قبل • وما تزال مستمرة الى اليوم في المغرب الاقصى الذي صار يعرف بمراكش ايضا •

ورأس هذه الاسرة المالكة هو المولى حسن بن قاسم • وقد جاء الى المغرب الاقصى من الحجاز في القرن السابع الهجري في زمن الدولة المرينية وتوطن في سجلماسة ، واخذت ذريته تبرز في مجال الوجاهة فيها حتى كان زعيمها من اوجه اعيان سجلماسة يقصده اهل المغرب في المهمات ويستشفعون به في الخطوب •

ولقد كان المولى الشريف علي مواليا لابي حسون الذي استولى على بلاد السوس وسجلماسة في آخر ايام الدولة السعدية على ما ذكرناه قبل • وقد اخذ رجاله في سجلماسة يتصرفون تصرفا سيئا أثار اهلها وجعلهم يأتون الى الشريف يشكون امرهم ويطلبون انقاذهم فاخذ يتحرك بسبيل ذلك فما كان من ابي حسون الا ان اعتقله • وحينئذ ثار ابنه المولى محمد على رأس جمع من الانصار واستطاع ان يجلي ابا حسون عن سجلماسة ويقيم سلطانه فيها سنة ١٠٤٥ ه ثم اخذ ينشر دعوته حتى بايعه جميع اهل السوس فكان ذلك بدء قيام هذه الدولة •

ولقد ولي عرشها من ذرية المولى الشريف بن علي الى الآن ستة وعشرون ملكا وهم :

المولى محمد بن الشريف ومدته من ١٠٤٥ الى ١٠٧٥ وقتل
الموالى الرشيد بن الشريف ومدته من ١٠٧٥ الى ١٠٨٢
المظفر بالله الموالى اسماعيل بن الشريف ومدته من ١٠٨٢ الى ١١٣٩
ابو العباس احمد بن اسماعيل ومدته من ١١٣٩ الى ١١٤٠ وخلع
ابو مروان عبد الملك بن احمد ومدتـــه من ١١٤٠ الى ١١٤٠
وخلع وقتل •
ابو العباس احمد ثانية ومدته من ١١٤٠ !الى ١١٤١
المولى عبد الله بن اسماعيل ومدته من ١١٤١ الى ١١٤٧ وخلع
المولى ابو الحسن بن اسماعيل ومدته من ١١٤٧ الى ١١٤٩ وخلع
المولى عبد الله ثانية ومدته من ١١٤٩ الى ١١٥٠ وخلع
المولى محمد بن اسماعيل ومدته من ١٥٠ الى ١١٥١ وخلع
المولى المستضيىء بن اسماعيل ومدته من ١١٥١ الى ١١٥٢ وخلع
لماولى عبد الله لثالث مرة ومدته من ١١٥٢ الى ١١٥٤ وخلع
المولى زين الدين بن اسماعيل ومدته من ١١٥٤ الى ١١٥٤ وخلع
لماولى عبد الله لرابع مرة ومدته من ١١٥٤ الى ١١٧١
المولى محمد بن عبد الله ومدته من ١١٧١ الى ١٢٠٤
المولى يزيد بن محمد ومدته من ١٢٠٤ الى ١٢٠٦ وقتل
المولى ابو الربيع سلمان بن محمد ومدته من ١٢٠٦ الى١٢٣٦وخلع
المولى ابراهيم بن يزيد ومدته من ١٢٣٦ الى ١٢٣٦ وخلع
المولى السعيد بن يزيد ومدته من ١٢٣٦ الى ١٢٣٦ وخلع
المولى ابو الربيع سليمان ثانية ومدته من ١٢٣٦ الى ١٢٣٨
المولى عبد الرحمن هشام بن محمد ومدته من ١٢٣٨ الى ١٢٧٠
المولى محمد بن عبدالرحمن ومدته من ١٢٧٠ الى ١٢٩٠
المولى الحسن بن محمد ومدته من ١٢٩٠ الى ١٣١٠
المولى عبد العزيز بن الحسن ومدته من ١٣١٠ الى ١٣٣٠ تنازل
المولى عبد الحفيظ بن الحسن ومدته من ١٣٣٠ الى ١٣٣٢ تنازل

المولى يوسف بن الحسن ومدته من ١٣٣٢ الى ١٣٤٧
المولى محمد بن يوسف ومدته من ١٣٤٧ وهو الملك الحالي [1].

وقد لقب مؤلف كتاب الاستقصاء هؤلاء الملوك الى الحسن بن محمد بلقب امير المؤمنين . ولم يذكر ان الملوك كانوا يتلقبون بهذا اللقب فعلا ثم لقب عبد العزيز وهو آخر من ذكره منهم بلقب المولى فقط وهو اللقب الذي لقب به جميع من سبقه ايضا بالاضافة الى لقب امير المؤمنين امتدادا للقب رأس أسرتهم المولى حسن بن قاسم .

ولقد تقلبت هذه الدولة في حالات من القوة والضعف وكثرت بين امراء الاسرة المكايدات والمنافسات والحروب كما كثرت الفتن والثورات البربرية والعربية في عهدها حتى لم يكد يخلو عهد ملك من هذه الفتن وتلك المكايدات وبلغ عدد المقتولين والمخلوعين والمتنازلين من ملوكها نتيجة لذلك سبعة عشر . ومنهم من تولى الملك مرة بعد مرة وخلع مرة بعد مرة . وكان منهم ملوك اقوياء صالحون فازدهرت الدولة في عهدهم قوة وبسطة وعلما واقتصادا وعمرانا . وقد اتخذوا سجلماسة ثم مكناسة ثم فاس ثم مراكش عواصم حيث كان بعضهم يتخذ هذه المدينة وبعضهم تلك حسب الظروف . وعاصمتها اليوم الرباط في الشتاء والدار البيضاء في الصيف .

احداث الدولة وسيرة ملوكها

ان سيرة هذه الدولة استغرقت الجزء الرابع من كتاب الاستقصاء الذي جاء في ٢٨١ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ولم تتم

(١) انظر كيفية نشأة الدولة في الاستقصاء ج ٤ ص ٢ – ٧ اما اسماء الملوك الذين ذكرهم المؤلف فهي مقتبسة من سلسلة سيرتهم التي تبدأ من الصفحة ٨ الى الصفحة ٢٧٨ ولقد خلع الافرنسيون في سنة ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م بمؤامرة دبروها واستعانوا فيها بصنائعهم السلطان محمد بن يوسف وعينوا مكانه واحدا من الاسرة اسمه محمد بن عرفة ولم نذكر هذا في السلسلة لان الحركة الوطنية ارغمت الافرنسيين بعد ثلاث سنين على اقصاء صنيعتهم واعادة محمد بن يوسف الى العرش ثانية على ما سوف نذكره في آخر الفصل .

لان المؤلف وقف عند سنة ١٣١٣ هـ وكما فعلنا في السير السابقة سنفعل في هذه السيرة فنلخصها تلخيصا مجزيا لان منهج الكتاب لا يتحمل غير ذلك •

ولقد كان اول ملوك الدولة المولى محمد الذي استطاع توطيد سلطان اسرته ذا همة وشجاعة وطموح • ويعد من اقوى ملوك الدولة • وقد استغاث به اهل فاس لينقذهم من صاحبها ابي عبد الله وجماعته اهل زاوية الدلاء الذين استولوا عليها على ماذكرناه قبل • فزحف عليها واقتحمها غير ان صاحب السلطان عليها حشد قواه وكر وارغم المولى على الانسحاب منها فانصرف الى الصحراء والمشرق واخذ يبسط سلطانه في انحائها حتى وصل الى حدود تلمسان وغدا صاحب الحكم والدولة في مساحة واسعة من المغربين •

وقد روى مؤلف الاستقصاء في هذا السياق ان قبائل العمارنة والمنبات من عرب معقل التي كانت تسمى الاحلاف بايعت الشريف حينما بلغ بلاد البسيط التي كانت تنزل فيها وانضمت اليه في الحركة التطويعية وان ايديهم امتلأت بالمواشي وان محمودا شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة قدم على الشريف مع قبيلته مبايعا طائعا كما قدمت عليه قبيلة خيشة ففرح بهم واكرمهم • وفي هذا وذاك صور من الوجود والنشاط العربي القبيلي [1] •

ولقد ثار الرشيد اخو المولى محمد على اخيه منافسا • وجرى بين الاخوين اشتباك قتل فيه محمد •

وحينئذ بايع جيش الرشيد صاحبهم • وتقدم الى سجلماسة وكان ابن اخيه قد نادى بنفسه خليفة لابيه فيها فحاصر العم المدينة واستولى عليها فتوطد له السلطان •

---

(١) ص ١٠ — ١١

ويعد هذا الملك م نافوى ملوك الدولة [1] ايضا ، وقد أحيا سنة الجهاد ضد الاسبان والبرتغال الذين كانوا يحتلون بعض الثغور واستطاعت كتائب الجهاد التي كان يسيرها ازعاج المحتلين بحركاتهم • وكان محبا للعلم والعلماء سخيا على الادباء فازدحم بلاطه بهم • وقد حفر كثيرا من الآبار وأنشأ كثيرا من البرك في طريق الحج ما تزال باقية الى الآن •

ولقد وجه همه الى الاستيلاء على فاس ومراكش وتم له ذلك بعد شيء من المشقة • وبذلك استتب له السلطان على جميع المغرب الاقصى • وكان اول ملك جمع له السلطان الشامل من ملوك الاسرة • وكانت فاس تحت حكم الاسرة الدلائية ومراكش تحت حكم الاسرة الشبانية على ما ذكرناه في مناسبات سابقة •

وقد ثار عليه ابن اخيه محمد في مراكش فتمكن من قمع حركته غير ان جواده جمح به في الميدان فاوقعه عن ظهره وشج رأسه فكان في ذلك حتفه •

ومما رواه مؤلف الاستقصاء في سياق سيرة المولى محمد والمولى الرشيد وزحفهما على فاس ان المولى محمد اغار على زرع عرب الحيانية في احواز فاس فاتلفه فاستنجدوا باهل زاوية الدلاء وخرجوا معهم لقتال الشريف ، وان اهل فاس اتفقوا مع احلافهم وجيرانهم عرب الحيانية وعرب البهاليل لصد المولى الرشيد حينما زحف عليهم حتى لقد بلغ عددهم (٧٥٠٠٠) ومع انه تغلب عليهم في النزال الا انه لم يستطع ان يستولي على فاس الا بعد مشقة ، وان زعيما عربيا اسمه ابو عبدالله الدريدي من قبيلة اثبج الهلالية كان اميرا على قسم من فاس كان يسمي فاس الجديدة ابان زحف المولى الرشيد ، وان عرب بادية تلمسان كانوا في هذا الظرف يعرفون باسم شراقة (وفسرها المؤلف

---

(١) سيرته في الاستقصاء ج ٤ ص ١٥ — ٣١

بما معناه المشارقة) كان منهم جماعة في جيش الرشيد ، وان قبائل اشجع وبني عامر كانت من جملة من اقبل على المولى الرشيد وبايعه ونال بره • وفي كل ذلك صور من الوجود والنشاط القبيلي العربي [1] •

والمولى اسماعيل الذي تولى الملك بعد الرشيد هو اطول ملوك هذه الدولة عهدا كما هو اعظمهم شأنا وقوة وسلطانا [2] •

وقد كان يقيم في مكناسة قبل توليه الملك فعمرها وحصنها واتخذها عاصمة له ، وقد عني باعمارها كثيرا حتى غدت من اعظم العواصم • وأنشأ فيها قلعة ضخمة ما تزال قائمة كالجبل الشامخ برغم ما طرأ عليها من تهديم وتدمير •

ولقد صادف في اول عهده مصاعب جمة • فقد ثار عليه ابن اخيه ابو العباس بمناصرة عرب السوس واستولى على مراكش وانبثت دعوته في فاس وكانت مصاولة شديدة بين العم وابن الاخ امتدت بضع سنين وتمكن العم في النهاية من ابن اخيه • ولم يكد يفرغ من هذا حتى ثار أخ له اسمه حمادة ثم تمرد اهل الزاوية الدلائية ثم الصنهاجيون • فقضى مدة في مصاولتهم وتمكن من التغلب عليهم بعد العناء • ولم يكد يفرغ من هذه ايضا حتى ثار عليه اخوة ثلاثة آخرون له وهم الحران وهاشم واحمد مع ثلاثة آخرين من بني عمهم وناصرهم كثير من قبائل البربر ، فنشب بينه وبينهم نضال وصراع شديدان امتدا بضع سنين وكان ابن اخيه احمد خاصة اشدهم ازعاجا له حتى لقد جنح الى مسايرته واقرار امارته بالسوس لفترة من الوقت ولم يظفر به الا بعد عناء شديد •

ويظهر ان ما كان من ثورات اخوته ومناصرة البربر والعرب لهم

---

(١) انظر الاستقصاء ج ٤ ص ١٤ و ١٦ ــ ١٧ و ٣٠

(١) سيرته في الاستقصاء ج ٤ ص ٣١ ــ ٥٤

قد احنقه وجعله غير مطمئن لجند من هؤلاء او هؤلاء فجنح الى انشاء جيش من السود انتقى افراده انتقاء ثم اشترى لهم أماء وصار يعني بتربية ابنائهم ليكونوا جندا في الجيش كآبائهم ويزوج البنات للذكور حتى لقد صار عدد جيش العبيد في اواخر عهده مئة وخمسين الفا • وقد أدى هذا الجيش لاسماعيل خدمات عظيمة وكان من اسباب عظمة عهده وانتشار سلطانه وان كان صار بعده نكبة على الدولة على نحو ما كان من امر الترك في عهد المعتصم العباسي وخلفائه •

وقد غزا اسماعيل صحراء السوس حتى بلغ تخوم السودان وقدم عليه فيها وفود القبائل العربية التي كانت مستقرة هناك مثل اولاد دليم وبربوش والمغافرة ومطاع وجرار وغيرهم • وغزا منطقة تلمسان التي كانت تحت حكم الترك ، وقدم عليه وفود القبائل العربية التي كانت مستقرة فيها مثل ذوي منيع ودخيسة وحميان والمهاية والعمور واولاد جرير وسفونة وبني عامر والجشم الخ •• ثم وقع الصلح بينه وبين والي الجزائر على بقاء كل بلاد على حدودها •

وقد اهتم لحركة الجهاد ضد الاوروبيين الذين كانوا يحتلون بعض ثغور المغرب فقوي كتائب الجهاد بالمال والسلاح والرجال فاخذت تهاجم الانكليز الذين انتقلت اليهم طنجة من البرتغاليين واستطاعت سنة ١٠٩٠ ان تقتل منهم عددا كبيرا وان تنتزع قصبة باربعة ابراج ثم استطاعت سنة ١٠٩٥ ان تنتزع ثغر طنجة وتجليهم نهائيا عنه • وقد انتزعت هذه الكتائب من الاسبان سنة ١٠٩٢ ثغر المعمورة مع عدة قصبات حوله بعد ان ظلت في يدهم سبعين سنة ، وانتزعت منهم كذلك مدينة العرائش سنة ١٠١١ بعد ملحمة هائلة ثم ثغر اصيلا سنة ١٠١٢ بعد حصار امتد سنة كاملة • وكان لاسترداد هذه الثغور رنة فرح كبرى في نفوس المسلمين ورد فعل قوي مرير في الافرنج • ولم يبق

في يد الاسبان الاسبته التي لم يمكن استردادها منهم في هذه المرحلة برغم حصارها طويلا •

وقد زار اسماعيل هذه الثغور وعني بترميم قلاعها وابراجها وشحنها بالمجاهدين والمدافع •

ولقد اشتغل اسماعيل بالبربر كثيرا حيث كانت قبائلهم في مبادىء حكمه تعمد الى التمرد فغزا مناطقهم المتعددة مرة بعد مرة وتمكن من خضد شوكتهم بعد عناء • وكانت خيولهم اعظم عدتهم فعمد الى مصادرتها حتى لقد ذكرت الروايات ان عدد ما استولى عليه من الفحول من بربر جبل فازاز عشرة آلاف ومن الكحائل ثلاثين الفا •

وفي سنة ١١١١ عين اسماعيل بعض اولاده حكاما على الاقاليم ورتب لكل منهم وزيرا ومدبرا وحامية من العبيد ، وقد ادى هذا التدبير الى تنازع الاخوة على مناطق الحكم في حياته وعلى الملك بعد موته ، بل لقد دعا احدهم الى نفسه في حياته واستولى على مراكش لتكون عاصمة له • فسير اسماعيل احد اولاده لقمع الحركة ولم يتمكن من البطش بالابن المتمرد الا بعد قتال ونضال امتد ثلاث سنين • ومن غرائب ما روي عنه ان عدد اولاده وبناته بلغ خمسمائة ••

وقد أنشأ هذا الملك منشآت عظيمة وكثيرة من مساجد ومدارس وقصور وكان عنده خمسة وعشرون الف اسير اوروبي لم تسمح نفسه بفداء احد منهم فكان يستخدمهم في انشاءاته • وقد عني خاصة بانشاء القلاع في مختلف انحاء المغرب ولا سيما في مناطق القبائل البربرية والعربية التي كان يكثر فيها التمرد حتى بلغ ما انشأه من القلاع الكبيرة ستا وسبعين شحنها بثمانين الفا من جيش العبيد وضمن بها الامن في هذه المناطق ••

ومما ذكره مؤلف الاستقصاء في سياق سيرة المولى اسماعيل انه كان من قبائل العرب في عهده ثلاث مجموعات • واحدة في بلاد

السوس منها اولاد جرار واولاد مطاع وزراره والشبانات وجميعهم من عرب معقل الذين كانوا في القديم جندا للدولة السعدية وكـان ملوك هذه الدولة يستنفرونهم للغزو بحللهم لاعتيادهم ذلك في الصحراء ثم انزلوهم ببسيط أزغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم الذين كانوا منحرفين عن دولتهم وحرضوهم عليهم فاخـذت تنشب بينهم الحروب ثم اوقع المنصور السعدي فيهم وقيعة كبرى واسقطهم من الجندية وشردهم • وقد نقل المولى اسماعيل هذه المجموعة الـى وجده وخلطهم باخوانهم من المغافرة والودايا وصير الجميـع جيشا واحـدا •

ومن المجموعات الثلاث واحدة عرفت بودايا تغليبا من عرب معقل ايضا وكانوا ينزلون في الصحراء ثم اخذوا يدخلون السوس ويتفرقون في انحائه في زمن الدولة الشريفية • وقد اكرمهم المولى اسمـاعيل واحسن اليهم وجمعهم في انحاء مكناسة وفاس •

ومما اورده المؤلف في نفس السياق استطرادا وبيانا ان عرب الخلط تفرقوا شذر مذر حينما ضربهم المنصور السعدي • فلما اشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا الى ازغار فغلبوا عليهـا وغنوا واكثروا من الخيل والسلاح الى ان كان عهد المولى اسماعيل فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب وضرب عليهم المغارم واستمروا على ذلك الى ايام المولى محمد بن عبد الله فظهروا في دولته وكانوا يعسكرون معه في حروبه ويغرمون ما وجب عليهم من الزكاة والاعشار • وصار حالهم كذلك مع ابنه المولى سليمان ثم مع ابن ابنه المولى عبدالرحمن بن هشام • وهم اليوم في عـدد القبائل الغارمة وكذلك قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل • كذلك ممـا اورده في سياق سيرة المولى اسماعيل انه لما غزا صحراء السوس سنة

١٠٨٩ وبلغ تخوم السودان قدم عليه وفود العرب النازلين هنـــاك من اهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودي ومطـــاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم • وكان في الوفد الشيخ بكار المغفري وكان معه ابنة له ذات جمال وادب وفقه فاهداها للسلطان فتزوجهـا • ثم غزا السلطان بلاد الشرق واصحر في نـاحية القبلـة فقدم عليه وفود العرب من ذوي منيع ودخيسة وحميان والمهاية والعمور واولاد جرير وسفونة وبنو عامر والجشم • فسار بهم نحرب الترك في اقليم الجزائر الى ان نزل على التويعة على رأس وادي سلف وكان رائده اليها والدال عليها بنو عامر بن زغبة • وفي سنة ١٠٩٠ امـر اسماعيل بنقل عرب زراره والشبانات الى وجده لما كانوا عليه مـن الفساد في بلادهم وكبتهم في الديوان وولى عليهم ابا البقاء العياشي بن الزويعر الزراري وحرضهم على بني يزناس البربر الذين كانوا منحرفين عن دولته متمسكين بدعوة الترك فكانت زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط انكاد • وقد امر السلطان ببناء ثلاث قلاع ليعتصموا بها وجعل النظر في امر هذه القلاع الى القـائد العياشي • وكان عدد فرسانهم الفين وخمسمائة •

وفي كل ما تقدم صور قوية وعظيمة للوجود والنشاط العربي القبيلي في القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر الهجري تضاف الى ما اوردناه قبل [١] •

هذا ولم يكد المولى اسماعيل يموت سنة ١١٣٧ حتى نجم قرن الفتنة والنزاع بين اولاده وتلاحقت حلقاته • وقد انقسم جيشـه الى فرق بالتبعية لمناصرة الاخوة في تنافسهم واستمرت الفتن مشتعلة اكثر من ثلاثين سنة • وكان المتنازعون ابا العباس وابا مروان وعبد الله وابا الحسن والمستضيىء [٢] • وكثرت بينهم الاشتباكات وكان الواحد

(١) انظر لاجل هذه الصور الاستقصاء ج ٤ ص ٢٤ ــ ٢٩

(١) الاستقصاء ج ٤ ص ٥٤ ــ ٩١

منهم يظفر بتعضيد فريق من جيش العبيد فيجلس على العرش فلا يلبث آخر ان يزحف عليه بتعضيد فريق آخر من الجيش ويخلعه ويحل محله • ومنهم من جلس على العرش ثم خلع ثم جلس ثم خلع ثم جلس اربع مرات ، وكان العبيد يتقاضون الذي يناصرونه اعطيات كبيرة • ولم يكن احيانا في الخزينة ما يكفي فيعمد الملك الى مصادرة اموال الناس لارضاء العبيد الذين كانت مطامعهم تشتد تبعا لاشتداد التنافس • واحيانا كان العبيد يعمدون الى خلع الملك بسبب عجزه عن ارضائهم بالمال • وكان الذي يخلع ثم يعود ثانية يعمد الى التنكيل بمناوئيه من العبيد وغيرهم قتلا ونهبا وسجنا •

وكان عبد الله اكثر هؤلاء نشاطا وحيوية وفتكا وقسوة ومصادرة واستطاع في النهاية ان يوطد حكمه سبع عشرة سنة • وقد خلع وعاد ثلاث مرات • وكان الذي تصاول معه في الاكثر اخاه المستضيىء الذي استطاع ان يحشد حوله كثيرا من القبائل العربية والبربرية • وقد تغلب عليه ثم دان له قبائل العرب والبربر والعبيد في النهاية •

وقد خلف فيما خلف مئة رحى من الذهب الخالص كقرص الشمع في كل رحى وزن اربعة آلاف ريال والف خرج في كل منها الفا دينار من الذهب • وثلاثمائة الف ريال وعشرون الفا من الموزونات الدقيقة بالاضافة الى ما لايحصى من اثاث ومتاع ونفائس • وكان من عادته ان يحمل هذه الارحية والخرو جمعه في حله وترحاله ، وهذه المقادير تدل على ما كانت عليه الدولة من ثروة ورخاء على كل حال •

ومما رواه مؤلف الاستقصاء من صور الوجود والنشاط العربي القبيلي في حقبة الفتن التي نشبت بين اولاد اسماعيل وفي سياق سيرة المولى ابي العباس وابي مروان واحمد وعبد الله وابي الحسن ومحمد وزين العابدين والمستضييء ان عرب الودايا اغاروا سنة ١١٤٥ على سوق الخميس في فاس فنهبوا وقتلوا وقتضوا على طائفة من اهل

فاس واودعوهم السجن (١) ، وان المولى عبد الله لما اضطر الى مغادرة فاس سنة ١١٤٧ لجأ الى اخواله المغافرة في السوس واقام في حمايتهم ثلاث سنين (٢) . وان هذا لما استأنف نشاطه وتغلب على اخيه ابي الحسن الذي كان حل محله فر هذا الاخ بدوره الى عرب الاحلاف واقام في حمايتهم بضع سنين حيث اجاروه واكرموه وصاهروه (٣) .

وان المولى المستضيء كاتب سنة ١١٥٢ حينما استعلى عليه اخوه المولى عبد الله قبائل عرب الحوز يستصرخهم على اخيه ولكنهم تقاعدوا عنه وكانت قبائل عبدة والرحامنة شيعة للمولى عبد الله ولم يبق مع المستضيء الا اخواله اهل دكالة وبنو حسن عرب الغرب (٤) . وان عرب الحياينة وثبوا على عاملهم من قبل المولى عبد الله سنة ١١٥٣ فقتلوه حينماء جاء يجبي منهم الزكاة والاعشار (٥) ، وان المولى عبد الله لما شغب عليه العبيد سنة ١١٥٤ جاء اليه عرب الودايا منجدين ففرح بهم وقال لهم انتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي وطلب منهم التعاهد على ذلك فعاهدوه وظلوا متمسكين بعهدهم حينما حل المولى زين العابدين محله دون مبالاة بما صار له من سلطان (٦) . وان المستضيء لما تحرك سنة ١١٥٥ بعد طول ركود للمصاولة مع اخيه عبد الله كان بنو حسن معه والحياينة والودايا وشراقة واولاد جامع وبنو سفيان وبنو مالك مع اخيه . وقد اشتبك الطرفان مع انصارهما مرة بعد مرة وكانت الدائرة تدور في كل مرة على المستضيء وبني حسن الذين معه . وفي المرة الثالثة قتل من بني حسن جمع كبير ونهب منهم اكثر من خمسة آلاف فرس فكانت ضربة شديدة خضدت شوكتهم وفلت من غربهم . وقد زحف بعد ذلك مع انصاره على منازلهم فلم يسعهم الا الاجفال وتفرقوا شذر مذر ونهب الزاحفون انعامهم ومتاعهم . وقد تعقبهم عبد الله حتى نزل في وادي الزاب فقدم عليه عرب الرحامنة والزمران

---

(١) ج ٤ ص ٥٦ (٢) ص ٦٤ – ٦٥ (٣) ص ٦٦
(٤) ص ٧٠ – ٧١ (٥) ص ٧٢ (٦) ص ٧٢

وسائر عرب الحوز معلنين الطاعة والتأييد [1] • ولقد جاء الى عبد الله ثلاثمائة من بني حسن مستأمنين مهنئين فقتلهم فادى ذلك الى اشمئزاز الناس منه من العرب والبربر • وكان من العرب بنو سفيان وبنو مالك من عرب الغرب بزعامة كبيرهم حبيب المالكي وكان منهم عرب الودايا ايضا ثم انضم اليهم عرب الحياينة وتحالفوا مع البربر ضد المولى عبد الله واخذت الاشتباكات تقع بين هؤلاء وبين من بقي مع هذا المولى من عرب الودايا واستمر ذلك اكثر من سنتين ثم تدخل الوسطاء وأدى ذلك الى المصالحة والصفح وجاء العرب الى المولى ففرح بهم واكرمهم [2] • ولقد ارسل المولى عبد الله ابنا له اسمه المولى احمد الى رباط الفتح كنائب عنه بعد ان استتب له السلطان وتشرد اخوه المستضيء واضاف اليه قبائل الشاوية وبني حسن وما بينهما من قبائل وارسل ابنا ثانيا له الى مراكش فاعترضت طريقه قبائل عبدة واحمر وضيفوه ببلادهم واهدوا اليه وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود امامه سرورا به وصحبوه الى اسفى وبذلوا له اولادهم لخدمته وواصلوه بكل ما قدروا عليه ونالوا حظوة عظيمة لديه • وقدم عليه كذلك قبائل الرحامنة الذين اثار حسدهم مالقيه عرب عبدة واحمر من حظوة لديه فقدموا اليه الهدايا ودعوه الى مراكش واقسموا انهم لن يبرحوا اسفى حتى يسير معهم ولو بقوا سنة فرضي عنهم وسار معهم وصحبه من اعيان عرب عبدة نحو الف فارس • ولما نزل مراكش جاءه قبائل عرب الحوز وعرب الرحامنة بهداياهم وقدموا اولادهم للخدمة السلطانية [3] •

هذا ، ولقد خلف المولى عبد الله ابنه محمد [4] • وكانت الفتن قد انهكت قوى البلاد والناس فاقبلوا على بيعته من كل ناحية حتى لم يتخلف احد •

---

(1) ص ٧٣ — ٧٧

(2) ص ٧٨ — ٨٣

(3) ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠

(4) سيرته في الاستقصاء ص ٩١ — ١٢٢

وقد انتقل بعد البيعة من مراكش الى فاس ومنها الى مكناسة ، يتألف قلوب الناس ويفرق الاموال والكساوي على مختلف طبقاتهم مما كان له وقع عظيم عليهم واثار فيهم الاستبشار بعهده . وقد قام بعض الخوارج وبعض قبائل البربر والعرب بحركات تمردية في اوائل عهده فخرج بنفسه على رأس حملة قوية واستطاع ان ينكل بالتمردين والمفسدين فكان هذا مما وطد سلطانه وجعل الدولة في عهده قوية مستقرة . ولقد ثار العبيد في مراكش سنة ١١٨٩ وسرت الثورة الى كتائب العبيد في انحاء اخرى الا ان محمدا استطاع ان يتغلب على الموقف بالدهاء والحكمة ، ولقد تكرر عبث القبائل وحركاتهم في مدة حكمه فكان يستطيع ان يتغلب على العابثين وان يضبط شؤون الدولة وامنها .

وقد ولع هذا الملك بنوع خاص بثغور البحر وجهاده . فرمم حصون هذه الثغور وشحنها بالمرابطين وأنشأ ثغرا جديدا سماه الصويرة وتأنق في بنائه وشحن الجزيرتين المحيطتين بمرساه بالمدافع وشيد برجا على صخرة في داخل البحر وشحنه بالمرابطين ، ثم أنشأ اسطولا للقرصنة وجعل الصويرة والعرائش مراكز له . وكانت القرصنة اذ ذاك تعتبر جهادا بحريا ضد الافرنج على ما ذكرناه قبل . فاخذت سفنه تخوض عباب البحر وتجوس خلال ثغور الكفر [1] وتقتل وتأسر وتسبي وتضيق الخناق على الملاحة الافرنجية مما اضطر بعض الدول الى التماس المهادنة والموادعة منه والتعاقد معه على حسن الجوار .

وقد عمد الافرنسيون الى المقابلة فجاء اسطولهم سنة ١١٧٨ فقصف ثغر سلا فردت عليه قلاعه ردا شديدا جعلته يولي مذعورا . ولكنه عاد في السنة التالية فقصف ثغر العرائش ودمر معظم منشئاته ثم اقتحم بحارته المرسي وحرقوا بعض السفن فتصدى لهم المرابطون وخرج بعض

---

(١) التعبير للرواة الذين نقل كلامهم مؤلف كتاب الاستقصاء .

الملاحين العرب الى عرض البحر فقطعوا على الغزاة خط الرجعة فاستأصلهم المسلمون قتلا واسرا وغنموا سفنهم • وسارع الملك الى زيارة ثغر سلا وامر بتعليق رؤوس القتلى على ابراجها واعادة تحصينها حتى غدت من اقوى الثغور واعمرها •

واتصل ملك اسبانيا بالملك محمد وعرض عليه مبادلة الاسرى وتم الاتفاق على ذلك • وقد ارسل الملك الاسباني وفدا مع اولى قوافل اسرى المسلمين ومعه هدايا نفيسة ورسالة تفصح عما في قلبه من المحبة والاعتراف بالفضل فقابله الملك بوفد وهدايا سنية سنة ١١٧٩ هـ وفي السنة التالية اتصل ملك فرنسة به وتم الاتفاق على مبادلة الاسرى ايضا وتبودلت بين الملكين كذلك الهدايا والرسائل والوفود ووسط ملك اسبانيا الملك محمدا في اجراء مبادلة للاسرى بين اسبانيا والجزائر وتم الامر بمسعى الملك • وكان عدد اسرى الاسبان اكثر فدفعوا الفداء عن الزائد • واتصل ملوك الدانمارك والسويد بالملك محمد سنة ١١٨١ وعقدوا معه معاهدات تجارية وشرط الملك عليهم ارسال خمسة وعشرين مدفعا وعدة حربية وبارودا بمقادير معينة كل سنة • وظلت احكام هذه المعاهدات جارية الى سنة ١٢٦١ هـ •

وجدد الملك محمد صلاته بسلطان العثمانيين فارسل بعثة الى الاستانة سنة ١١٨٠ ومعها هدايا نفيسة من سيوف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت ومن خيل عتاق بسروج مذهبة مرصعة بالاحجار الكريمة من صنع المغرب فسر السلطان العثماني وارسل مركبا موسوقا بعدد حربية ومدافع فرمم الملك ثغر العرائش وحصنه بهذه الهدية •

وخطب شريف مكة بنت الملك زوجة لابنه فزوجها له وارسل معها بعثة شرف تحمل هدايا وجوائز عظيمة للشرفاء والنقباء وكان جهاز العروس يزيد عن مئة الف مثقال من حلي وياقوت وجوهر وكان دخولها مكة يوما مشهودا •

وقد كان الاسبان يحتلون ثغر مليلة قبل جلوس الملك محمد

فعزاه وحاصره طويلا سنة ١١٨٥ ، وارسل ملك اسبانيا يعاتبه ويـذكره بعهد الصلح فاجابه ان الصلح انما كان عن البحر واما المدن العربيـة فلا مهادنة فيها فارسل الملك الاسباني صورة العهد فاذا هو يشمـل البر والبحر • ومع انه ظهر ان العهد قد حرف اثناء الترجمة فـان الملك محمدا رأى ان يكون وفيا للعهد الموقع منه فانسحب من حصار الثغر •

وفي سنة ١١٨٧ عقدت معاهدة بين البرتغال والملك محمد وطدت السلم بين البلدين ومبادلة الاسرى والتعامل التجاري •

وفي الجملة فقد كان هذا الملك من عظماء ملوك الدولة ، وكـان عهده من العهود السعيدة على البلاد • وقد كان الى نشاطه ومآثره في مجال الحرب والسياسة وضبط الامن مشاركا في العلوم محبا للعلم والعلماء له مجالس علم وفقه وعناية بالكتب وجمعهـا • وقـد أنشأ منشئات كثيرة في انحاء مملكته من مساجد ومدارس واضرحة • وعني عناية كبيرة بمراكش خاصة فعمرها بالمساجد والقصور والحـدائق • ورتب مالا سنويا يرسل مع ركب الحج الى مكة والمدينة مقداره مئة الف مثقال ليوزع على المحتاجين فيهما كما رتب مثل هذا المقدار ليوزع على شرفاء المغرب • وقد انفق اموالا طائلة في فكاك اسرى المسلمين حتى لم يبق منهم احد في اسر الافرنج • وكان عددهم سنة ١٢٠٠ هـ ثمانية واربعين الفا •

ومما ساقه مؤلف الاستقصاء في سياق سيرة هذا الملك من صور الوجود والنشاط القبلي العربي انه كان هناك قبيل عربي يدعي جروان يفسدون في الارض فسلط عليهم قبيلا من البربر فانتصر لهم عرب الوداية حينئذ ، غير ان القبيل البربري استظهر عليهم بتعضيد الملـك واوقع فيهم ايقاعا شديدا ونهبوا حللهم وسبوا نساءهم فتفرقوا فـي القبائل وذهب ريحهم (١) ، وان عرب الشاوية في منطقة مراكش افسدت

(١) ص ٩٦ – ٩٧

في الارض فسار اليهم الملك واوقع فيهم وانتسف اموالهم وقتل واعتقل كثيرا منهم ثم اوقع بعرب الحياينة لعيثهم في الارض ايضا . وقد فروا الى جبال غياثة وتحصنوا فيها ولكن الملك تعتبهم واقتحم هذه الجبال واتم ايقاعه فيهم قتلا وتشريدا حتى خضد شوكتهم [1] . وان هذا الملك امر في سنة ١١٧٦ القبائل بدفع الزكوات والاعشار فرضخت للامر وكانت قبائل الحياينة وشراقة وسائر قبائل الحوز تدفع ما عليها الى فاس وبنو حسن وسائر عرب الغرب يدفعون الى مكناس [2] وانه امر بجمع عسكر من قبائل الحوز فتولى ذلك قائد بلادهم عبدالنبي المنهي وثبت منهم ٤٥٠٠ فاعطاهم الملك الكسي والسلاح واستخدمهم مدة ثم رجعوا الى حللهم فضرب عليهم المغرم [3] ، وان هذا الملك خرج سنة ١١٨٩ لتأديب العبيد الذين كانوا يفسدون في الثغور فامر بانتقال عرب طنجة والعرائش الى مكناسة ففرحوا بذلك وخرجوا بقيادة قائدهم سعيد العياشي ثم طلب من قبائل عرب الغرب وبني حسن ان يسيروا على العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات وقال لهم اني اعطيتكم هؤلاء العبيد باولادهم وخيلهم وسلاحهم فاقتسموهم فانتم جندي وعسكري فوثبوا عليهم واقتسموهم وفرقوهم شذر مذر [4] ، وان قبيلة اولاد ابي السباع باحواز مراكش تحركت وارتكبت العظائم سنة ١١٩٧ فجهز عليهم وغزاهم وقاتلهم وشردهم وقبض على كثير من اعيانهم [5] . وان زعيمين من زعماء البربر تمردوا مع جماعتهما فتصدى لهم قائد قبائل سفيان ابو عبد الله الهاشمي مع قبائله وقبائل عرب الغرب غير ان المتمردين استظهروا على العرب وقتلوا قائدهم وعددا كبيرا من وجوه قومه غير ان الملك جد في الامر ونمكن من قتل المتمردين واخماد حركتهما [6] .

---

(١) ص ٩٧

(٢) ص ٩٨ (٣) ص ١١١

(٤) ص ١١٣ (٥) ص ١٠٣ (٦) ص ١١٢

وان هذا الملك غزا سنة ١٢٠١ قبيلة شراقة باحواز فاس ثم قبيلة الحيانية بسبب عيثهم في الارض فسادا فاكتسح حللهم واثاثهم [1] •

ولقد خلف محمدا ابنه يزيد وكان هو الآخر صاحب همة ونجدة [2] •

وقد بادر عقب جلوسه الى استرداد سبته ومليلة من الاسبان واستنفر الناس للجهاد وزحف بنفسه على سبته ولكنه لم يوفق الى تحقيق امنيته بسبب خروج اخيه هشام منافسا له في منطقة مراكش مما اضطره الى ترك حصار سبته بعد أن كاد يفتحها والعودة الى قمع فتنة اخيه • وقد دخل مراكش ونكل باهلها الذين ناصروا اخاه ثم نكل بالقبائل المناصرة وجمع اخوه انصارا آخرين وسارع الى لقاء اخيه فدارت الدائرة عليه •

ومما اورده مؤلف الاستقصاء من صور الوجود والنشاط العربي في اثناء التشاد بين المولى هشام والمولى يزيد ان اهل مراكش والقبائل العربية في حوزها عاضدوا هشاما وبايعوه وبذلك استمسك سلطانه في مراكش ، وكان القائدان العربيان عبد الرحمن بن ناصر الصدي ومحمد الهاشمي بن العروسي وزيراه منهم وقد دانت له بسبب ذلك قبائل دكالة وعبدة واحمر والشياظمة وحاصة وغيرها ، وان عرب الرحامنة كانت من الجملة ثم افترقت عنه لانها اتهمته باغتيال قائدها ابي محمد عبد الله بن محمد وناصرت اخاه وزحفت معه على مراكش مفاجأة مما اضطره الى الفرار عنها فاستولى اخوه عليها واستحوذ على ما فيها من ذخيرة واثاث ومتاع ، ولم يكن لاهل مراكش بد من مبايعته ، وان القبائل العربية التي افترقت وصار فريق منها مع هشام وآخر مع اخيه اخذت تشتبك في قتال فني فيه من الفريقين عشرون الفا [3] •

---

(١) ص ١١٧ (٢) سيرته في الاستقصاء ج ٤ ص ١٢٢ — ١٢٨
(٣) ص ١٣٤ — ١٣٦

كذلك مما اورده من هذه الصور انالمولى يزيد بعد ان استتب له الملك امر عرب الودايا بالانتقال الى فاس الجديدة مسقط رؤوسهم ومنبت شوكتهم فانتقلوا مغتبطين • وقد وزع عليهم اموالا ساعدتهم على الاستقرار في منازلهم الجديدة (١) • وان قبائل عرب الحوز انتقضت عليه لانه انزل عطائهم دون الودايا والبربر فسار عليهم وشردهم واستباح مراكش معصمهم غير ان رصاصة طائشة اصابته فأودت به ايضا (٢) •

ولقد عاد قرن الفتن ينجم ويشتد من جديد بعد موت يزيد لفترة من الزمن (٣) • وافترقت كلمة البلاد فعادت مراكش الى بيعتها لهشام • ودعا اخ له اسمه مسلمة لنفسه في البلاد الجبلية ودعا أخ آخر اسمه سليمان لنفسه في فاس • وقد لقي الاخير اقبالا وتعضيدا من فريق كبير من جيش العبيد وقبائل البربر والعرب رجحا كفته ، وحينئذ سير حملة على اخيه مسلمة فانفض عنه من كان يشايعه واستتب السلطان لسليمان في المنطقة الجبلية ، ثم تفرغ للاخ الثاني هشام الذي كان سلطانه موطدا على مراكش فاستطاع ان يتغلب عليه ويستولي على مراكش ويوطد سلطانه فيها ايضا • وكان بعض زعماء الثغور قد استبدوا في حكمها خلال منازعات الاخوة فجد سليمان حتى وطد سلطانه فيها كذلك • وهكذا استقامت امور الدولة وهدأت لفترة من الوقت فتسنى لسليمان ان يعني بشؤون الزراعة والتجارة والصناعة فازدهرت في عهده حتى كانت هذه الفترة التي امتدت نحو عشرين سنة من احسن فترات الدولة ازدهارا وامنا ورفاه عيش • وحتى ليعد سليمان بسببها من ملوك الدولة الصالحين (٤) • وقد استطاع ان ينشيء منشئات عديدة من مساجد ومدارس وقناطر وقلاع كما حبس اوقافا طائلة على وجوه البر ، وغدا صاحب اعتبار بين ملوك المسلمين ويخطب

---

(١) ص ١٢٦ (٢) ص ١٢٦

(٣) انظر الاستقصاء ص ١٢٩ وما بعدها .

(٤) سيرته ايضا ج ٤ ص ١٢٩ – ١٧٢

وده ويرجى رفده • وكان من ذلك ان استعان به حاكم تونس في مجاعة ألمت ببلاده فاسعفها ، وان تدخل في اصلاح البين بين قبائل العرب في منطقة تلمسان ووالي الجزائر بناء على طلب من هذا •

وفي زمن سليمان كانت الحركة الوهابية السعودية في اوج قوتها • وكان ابن سعود قد استولى على الحجاز وارسل كتبا الى مختلف البلاد الاسلامية فوصلت كتبه الى سليمان ايضا • وارسل هذا ابنه سنة ١٢٢٦ اميرا على ركب الحج ، وبعث معه جوابا لابن سعود • وقد تمكن الركب من قضاء مناسك الحج وعاد الحجاج يقولون انهم لم يروا من ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة ، وانما شاهدوا منه ومن اتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الاسلام وتنقية الحرمين من القاذورات والآثام التي كان تفعل فيهما جهازا من غير انكار ، وقالوا انه كان حواحد من الناس لا يتميز عنهم بزي ولا ركوب ولا لبس ، وانه لما اجتمع بالمولى ابراهيم بن الملك سليمان اظهر له التعظيم الواجب لاهل البيت وجلس معه كأنه احد اصحابه وحاشيته ، وان مما قاله لهم ان الناس يزعمون اننا مخالفون للسنة المحمدية فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا وجرى حوار بينه وبين فقهاء الركب حول بعض العقائد فلم يكن في ما قاله شيء من الشذوذ والخروج عن المنطق الحق واصول الشريعة الاسلامية •

ومما وقع من الاحداث انه بلغ السلطان سنة ١٢٢٧ هـ ان اهل الريف يبيعون المواشي والغلات للافرنج فارسل الى عامله يأمره بالتنكيل بهم ومنهم ثم ارسل قراصينه وامرهم بمصادرة كل مركب موسوق بغلة وماشية عربية • ثم خرج بنفسه الى الريف ونكل بالمتعاملين مع الافرنج تنكيلا شديدا • وكان في الحملة التي ذهب على رأسها قبائل عرب سفيان وبني مالك •

وفي سنة ١٢٣١ هـ عاث بعض قبائل من البربر والعرب في الصحراء فسير عليهم السلطان حملة نكلت بهم تنكيلا شديدا •

وفي سنة ١٢٣٤ هـ ثارت قبائل بربر جبل فازاز فاستنفر السلطان مرة اخرى قبائل عرب الودايا وشراقة وعرب الغرب وعرب الحوز كلهم وضم اليهم كتائب من جيش العبيد وكتائب من البربر الموالين وخرج على رأسهم • وقد ابدى اعتماده على العرب في الدرجة الاولى فاثار بذلك البربر الذين معه فلما اشتبك الطرفان تخاذل هؤلاء وتمكن بربر الجبل من الاحداق بالعرب والاثخان فيهم وهزيمتهم شر هزيمة • وقد اصيب ابن السلطان المولى ابراهيم بجراحات كان بها حتفه • وقد اشتد تمرد البربر نتيجة لما احرزوه من النصر • وسرت روح التمرد الى العبيد ايضا فاخذوا بدورهم يعيثون في الارض فسادا • وفي هذه الاثناء نشبت في فاس فتنة اخرى حيث ثار اهلها على الوالي وطردوا الجباة • واغتنم جيش العبيد فيها فرصة الهرج فهجموا على محلة اليهود ونهبوها واثخنوا في اليهود فتكا وهتكا • ثم استشرى شرهم وبغيهم فاخذوا ينهبون ما تقع عليه ايديهم من اموال اهل فاس عامة •

واسقط في يد سليمان وعجز عن رتق الفتوق فانسحب الى مراكش واعتكف فيها • واعلن اهل فاس حينئذ خلعه وبايعوا عمه المولى ابراهيم بن يزيد غير ان هذا لم يستطع ان يفعل شيئا ثم ما لبث ان مات فبايع الناس اخاه السعيد ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا كذلك• وندم الناس وجيش العبيد على ما كان منهم من خذل سليمان وجاءه فريق منهم يؤيد له الولاء والتأييد فعاد الى ممارسة سلطانه • وكان له ابن اخ اسمه عبد الرحمن عرف بالنشاط وقوة الحيوية والشخصية والدين فاعلن عهده له وهم بالتخلي له عن العرش ولم يلبث ان مات فبايع الناس عبد الرحمن ولم يتوقف احد عنه واستبشروا به لما عرف عنه من المزايا الحميدة •

ولقد ورد في سياق المصاولات التي جرت بين سليمان واخوته ثم في سياق سيرة سليمان صور من الوجود والنشاط القبيلي العربي غير ما اوردناه في السياق السابق • من ذلك ان قبائل بني حسن في الهبط

كانوا يناصرون مسلمة على سليمان [1] • وان قبائل العرب في انفاد عـدت على التجار والحجـاج القادمين من المشرق ونهبتهم [2] • وان سليمان زحف على قبائل الحوز لتمسكم ببيعة اخيه هشام فاوقـع فيهم حتى دانوا له وكانوا تحت قيادة القائد محمد الهاشمي بن العروسي الذي كان ذا شوكة وعصبية في فومه [3] • وان قبائل الرحامنة وغيرهم من قبائل الحوز هرعوا الى المولى سليمان اثناء المصاولة بينه وبـين هشام فبايعوه وحرضوه على السير معهم الى مراكش فاستجاب اليهم وخرج معهم وكانت قبائل الشاوية العرب غير موالية له وكانوا في طريقه فشردوا من وجهه ولما وصل الى مكناسة اقبلوا عليه تائبين طـائعين وقدم عليه كذلك قبائل اولاد رزق ثم اولاد عطية ولما شارف مراكش فر عنها هشام فدخلها وقدم اهل دكالة وبقية قبائل الحوز العربية عليه وبايعوه فتوطد له السلطان [4] •

وقد ذكر المؤلف اسماء قبائل عرب الصفافعة والقوازيط من بني حسن وزعير في جملة من شايع المولى ابراهيم بن زيد حينما خرج منافسا لسليمان [5] •

ومما اورده المؤلف في سياق سيرة سليمان من هذه الصور ايضا ان الفتنة هاجت بين عرب تلمسان والسلطات التركية التي كانت تسيطر على منطقتها لعدوان وقـع من والي وهران علـى زعيم منهم اسمه ابو عبد الله محمد عبدالقادر الذي كان يرأس طائفة الدرقاوية فوثب العرب على الترك واخذوا يقتلونهم من كـل وجـه ثم زحفوا على وهران وحاصروها فقصفهم الوالي بالمدافع وفرقهم وعادوا الى منازلهم وتحالفوا مع سائر السكان على خلع طاعة الترك ومبايعة المولى سليمان وكتبوا بذلك اليه فارسل مندوبا اسمه ابو عبد الله محمد العربي للنظر في امرهم

---

(١) ص ١٣٢ (٢) ص ١٣٢
(٣) ص ١٣٤ (٤) ص ١٣٤ — ١٣٦
(٥) ص ١٧٤

فجاء الى تلمسان واختار وفدا من العرب وعاد معهم الى المولى فشكوا اليه حالهم وقالوا له انهم يذهبون الى بلاد النصارى ولا يجاورون الترك فانزلهم عنده ومد لهم يد العون وكتب لوالي وهران بامرهم واخذ منه عهدا بالعدل معهم وكف ايدي الجيش عنهم (١) ومن ذلك انه كان ينزل في نواحي وجده قبائل عرب الاعشاش وكان لهم شوكة وقوة فتعرض لهم عامل فاس في اثناء طوافه لجباية الاعشار فاغاروا على مخيمه ونهبوه واضطروه الى الفرار (٢) •

ومن ذلك عصيان قبائل الشراردة بعد عودة سليمان الى الحكم • واصلهم من معقل وهم طوائف منها زرارة والشبانات واولاد دليم وتكنة وذوو بلال • وكانت حالتهم حسنة وعليهم قائد منهم اسمه قاسم • وكان لاحدهم زاوية فوشى به للسلطان فارسل خيلا اغارت عليها ونهبتها • ولم تكن قبائل الشراردة حاضرة اذ ذاك فلما علمت بالغارة جاءت مسرعة واوقعت بالمغيرين وسلبتهم خيلهم وسلاحهم فاغاظ ذلك السلطان • وكان في حضرته عامل الرحامنة قاسم الرحماني وعامل مراكش ابو حفص وكانت قبائلهما على عداء مع الشراردة فشنعا عليهم حتى ازداد غيظ السلطان منهم فاستنفر قبائل الحوز والودايا لغزوهم وزحف السلطان بنفسه ايضا فدارت الدائرة عليه وانهزم جيشه وتفرق من معه من القبائل لا يلوون على شيء • واستشرى عيث الشراردة نتيجة لذلك وصاروا يستلبون من ظفروا به ولما عاد سليمان الى مراكش بفلوله قطعوا عليه طريقه واحدقوا به فاستسلم اليهم وحينئذ اظهروا له الاحترام وخدموه وصحبوه الى مراكش (٣) •

ومن ذلك ان ذوي بلال انتهبوا الصاكة الواردة من مرسي الصويرة بالاتفاق مع عرب الشياظمة الذين كانوا بقيادة قائدهم على بن محمد

---

(١) ص ١٤٠ - ١٤١ (٢) ص ١٤١

(٣) ص ١٦٧

الشيظمي وكان فيها من الذخائر النفيسة والاموال الثقيلة الشيء الكثير وهذه الوقعة هي التي هدت اركان سليمان وغمته واعتراه بسببها المرض الذي مات به[1] .

هذا ، ونعود الى السياق فنقول ان عبدالرحمن الذي بايعه الناس بعد سليمان واستبشروا به قد حقق الامل فيه بحيث قام بامر الدولة احسن قيام جعله يعد من عظماء ملوكها [2] . وقد اعاد اليها هيبتها وحيويتها وازدهارها الاقتصادي . وأنشأ منشئات عظيمة من مساجد ومدارس وقلاع . ومن مآثره جنات فيحاء واسعة جدا أنشأها حول مراكش واجرى اليها الماء واقام فيها المنتزهات والقباب حتى غدت من عجائب المغرب .

وقد حاول ابن لسليمان اسمه عبد السلام ان يشذ ويدعو لنفسه ولكنه عدل حينما رأى اجماع الناس على ابن عمه واستبشارهم به . وظل البربر في بدء عهده متحزبين ضد العرب والسلطان غير ان احد زعمائهم انشق عن الاجماع بعد قليل من جلوسه ووفد عليه وبايعه فصارت قبائل البربر تفد عليه وتبايعه تباعا حتى اجتمع البربر ايضا على طاعته .

وكانت البلاد مترنحة منهوكة من الفتن التي مرت بها فاخذ عبد الرحمن يطوف بين ارجائها ويبث في اهلها الروح والقوة ويساعدهم على استئناف حياتهم وينكل بمن تسول له نفسه العبث والفساد من البربر والعرب على السواء .

وفي سنة ١٢٤٧ تمرد جيش العبيد عليه لانه لم يسر في تدليلهم على منهج عمه حتى لقد هاجم بعضهم قصره . غير انه استطاع ان يكبح جماحهم ثم ينكل برؤوس الفتنة منهم . وحفزه هذا الى ادخال تعديل على نظام الجيش حيث جند كثيرا من العرب والبربر واجرى عليهم

---

(١) ص ١٦٧ (٢) انظر سيرته في الاستقصاء ج ٤ ص ٢١١

المرتبات حتى لا تبقى الجندية قاصرة على انسال السود .

وقد احيا سنة الجهاد ضد الاسبان الذين يحتلون بعض الثغور كما أنشأ اسطولا جديدا واذن لرؤسائه في سلا ورباط الفتح بالخروج للجهاد البحري ضد الملاحة الاوروبية .

ولما اعتدى الافرنسيون على الجزائر عام ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م جاءه وفد من اهل تلمسان يعرضون عليه طاعتهم وبيعتهم فقبل منهم وعين عليهم واليا وارسل معه كتيبة من الجند . واخذ الوالي والقائد ينشران الدعوة الى بيعة الملك وطاعته حتى استجاب لها جميع اقليم تلمسان . وقد اعتنى بهذا الاقليم وشحنه بالسلاح والمرابطين بسبب الحركات الافرنسية التوسعية غير انه اضطر الى الانكماش بعد قليل تفاديا من الاصطدام مع الغزاة . ولقد عطف على حركة الامير عبدالقادر الحسني الجهادية ضد الغزو الافرنسي وكان يمدها سرا ويأذن للامير المجاهد بالاستجمام في ارض بلاده ، وشعر الافرنسيون بذلك فاخذوا يتطاولون على حدود المغرب الاقصى ثم استولوا على مدينة وجدة التي كانت منطقتها مراحا للامير . واحتج الملك فقال له الافرنسيون ان العهد بينهم قد انتقض لمساعدته للامير ، فاخذ يستعد ويستنفر الناس للجهاد حتى لا يؤخذ على غرة . ونظم وزيره ابن ادريس قصيدة يستنفر الناس فيها جاء فيها فيما جاء مما فيه دليل على ما كان من شعور وتوجس من غزوة فرنسة :

يا اهل مغربنا حق النفير لكم	الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق[1] جاوركم	من بعد ما سام اهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه	ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت	عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه	فعنده المكر والمكروه في نمط
وانتم القصد لا تبقن في دعة	ان السكون الى الاعدا من السقط

(١) يقصد من جهة الجزائر التي هي في شرق المغرب الاقصى او مراكش .

من جاور الشر لا يعدم بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط
قد يغبط الحر في عز يخلده وليس حي على ذل بمغتبط

ولما تم الاستعداد سير السلطان الحملة بقيادة ابنه محمد فنزلت اسلي من اعمال وجدة واشتبكت مع الافرنسيين فدارت الدائرة عليها فتقهقرت والعدو يتبعها لمسافة غير قصيرة . وفي هذه الاثناء قصف الاسطول الافرنسي طنجة والصويرة . فاضطر السلطان الى مسايرة الموقف وتفادي العواقب فتعاقد مع الافرنسيين على السلم على شرط ان لا يؤوي الامير عبد القادر ولا يمده وان تفتح الثغور المغربية للتجارة الحرة بدون ممانعة ولا رسوم اضافية . وكان ذلك سنة ١٢٦١ ﻫ وهكذا استطاعت فرنسة ان تدس اصبعها في المغرب الاقصى وأن تعزل الجزائر عنه في آن واحد .. ومما يذكر ان الانكليز سارعوا الى الاتصال بالملك عبد الرحمن وتمكنوا هم الآخرون من عقد معاهدة تجارية مماثلة للمعاهدة الافرنسية .

ومما جرى في سنة ١٢٦٨ ﻫ ان مركبين افرنسيين مشحونين قمحا علقا في مرسي اسمه مرسي العبد فسارع العامة اليهما وانتهبوهما وكانت السنة سنة مجاعة . فثار الافرنسيون لذلك وقصفوا ثغر سلا بالمدافع بصورة فظيعة . وقد امر الوالي والقائد بمقابلتهم بالمثل مما جعل قائد البحرية الافرنسية يعجل بالانسحاب . ووقف الامر عند ذلك .

ومما اورده مؤلف الاستقصاء من صور الوجود والنشاط العربي القبيلي في عهد عبد الرحمن قدوم اعيان قبائل الحوز لمبايعته [1] ، وقدوم قبائل عرب تلمسان الجشم والمشاشيل وبني شقران لمبايعته واستمداده ، وقد ارسل اليهم من الكسي والاعلام والرايات والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيئا كثيرا . ولكنهم لم يفعلوا شيئا تجاه السلطات التركية لان كلمتهم افترقت وهمة اعيانهم ضعفت [2] . وقدم عليه ايضا

(١) ص ١٧٥ (٢) ص ١٨٦ – ١٨٧

عرب الشراردة الذين كانوا مغاضبين لسليمان ودخلوا في بيعته فاعلن العفو عنهم وطلب منهم ٢٠٠ فارس ليكونوا في جنده • غير ان زعيما منهم ادعى المهدوية فالتفوا حوله فحرضهم على التمرد على الدولة فاطاعوه واخذوا يقطعون الطرق وينهبون السابلة ويقبضون على القواد الذين ولاهم السلطان عليهم • وجاء المسلوبون الى باب السلطان وهم عراة يشكون ما دهمهم منهم • وقد استنفر عبد الرحمن قبائل الحوز وعرب بني حسن وبني سفيان وبني مالك وسار بهم اليهم وانضم اليه في الطريق عرب الشاوية ودكالة ، وقد انشب القتال معهم وقصفهم بالمدافع والمهاريس وانتصر عليهم وشردهم • ثم ندموا واعلنوا توبتهم هم والمهدي فقبلها منهم (١) • ومن ذلك خروج جيش عرب الودايا من المغافرة على عبد الرحمن بقيادة قوادهم الظاهر بن مسعود المغفري والحاج محمد ابنه وتحالفهم مع العبيد فاستنفر عبد الرحمن قبائل العرب الموالية له في الحوز والغرب وزحف على القبائل المتمردة وقاتلهم اربعين يوما • وكان لديهم مدافع مثله • وقد ابلى بنو حسن البلاء الحسن • وقد اذعن المتمردون في النهاية وتابوا فسامحهم السلطان (٢) •

وفي سنة ١٢٦٥ تمرد عرب عامر باحواز سلا وعرب زعير باحواز رباط واخذوا يلحون على المدينتين بالغارات والنهب والافساد في الطرقات فسير السلطان عليهم حملة اوقعت فيهم ومزقتهم شذر مذر (٣) •

هذا ، ولقد اخذ عبد الرحمن البيعة بولاية عهده لابنه محمد الذي كان يمرنه على الحكم والقيادة ويلقبه بلقب الخليفة فلما مات عبد الرحمن وفى الناس بالبيعة لابنه بدون تخلف • وحاول عبدالرحمن ابن سليمان بالتواطيء مع بعض ابناء عمه ان يدعوا الى نفسه في منطقة فاس فلم يصب نجاحا •

---

(١) ص ١٧٩ — ١٨١

(٢) ص ١٨٧ — ١٨٩

(٣) ص ٢٠١

وفي زمن محمد [١] هذا وقع احتكاك بين الاسبان والمسلمين في منطقة الاحتلال الاسباني أي مليلة وسبته فتدخلت الحكومة الاسبانية وطالبت بالاقتصاص من المسلمين وارسلت حملة نزلت في هذه المنطقة سنة ١٢٧٦ هـ فتصدى لها المسلمون وقد ابدوا بسالة عظيمة ولكنهم اندحروا امام القوة الغازية فتقدمت واحتلت مدينة تطاوين [٢] . ثم جرت مفاوضات بين حكومتي الدولتين انتهت بموافقة الاسبان على اعادة المدينة مقابل دفع عشرين ميليون ريال غرامة .. وقد دفع لهم السلطان نصف المبلغ في السنة التالية ووافق الاسبان على مقاضاة النصف الآخر من رسوم الجمارك واعادوا المدينة مع اقامة امناء من جانبهم لاستيفاء بقية الغرامة من هذه الرسوم الى سنة ١٣٠٢ هـ

وكان في المغرب الاقصى جاليات يهودية كبيرة فاتصلت ببريطانية وطلبت منها الحماية ، وطلبت هذه من السلطان رعاية حقوق هذه الجاليات وطمأنينتها فاصدر السلطان ظهيرا اوجب فيه على رعاياه حسن معاملة اليهود والعدل معهم وعدم العدوان على اموالهم وحرياتهم . وكان ذلك سنة ١٢٨٠ هـ .

ولقد كان السلطان محمد ورعا مستقيما رؤوفا بالرعية وكان عهده بالجملة عهد سلام وتماسك . وقد أنشأ منشئات كثيرة وعني خاصة بالري فأنشأ البرك والسدود وفجر المياه في انحاء مختلفة في بلاده .

ومن صور الوجود والنشاط العربي القبيلي التي اوردها مؤلف الاستقصاء في عهد محمد قدوم اهل الحوز عليه وبيعتهم له واكرامه وفادتهم ومقدمهم [٣] .

ومن ذلك حركة مشعوذ من عرب سفيان اسمه الجيلاني استطاع

---

(١) سيرة محمد في الاستقصاء ج ٤ ص ٢١١ — ٢٣٤

(٢) هكذا ذكرها المؤلف ولا ندري هل هي المعروفة اليوم باسم تطوان او هي بلد آخر.

(٣) ص ٢١١

في سنة ١٢٧٨ ان يفتن بعض قومه بشعوذته فالتفوا عليه وهاجموا القائد المولى عليهم وقتلوه مع بعض اخوته وبني عمه فسير السلطان حملة شتتت جموع المشعوذ وظفرت به وقتلته [١] .

ومن ذلك ثورة عرب الرحامنة بالحوز وغارتهم على سوق الخميس بمراكش ونهبهم اياه وازعاجهم اهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة وانقطاع السبل وارتفاع الاسعار بسبب ذلك . وكان ذلك في ظروف انشغال السلطان بالاسبان فلما فرغ من هذه المشغلة توجه نحو مراكش على رأس حملة قوية واوقع فيهم واعتقل عددا كبيرا منهم فاذعنوا وتابوا فسامحهم [٢] .

هذا ، ولما مات محمد وتولى المولى ابو الحسن [٣] اخذت منافسات الاوروبيين على المغرب الاقصى ومطامعهم فيه تشتد وكثر عدد تجارهم في الثغور المغربية واخذت دولهم تطالب بالسماح بتصدير الغلات والمواشي المغربية الى اوروبا فدافعهم الحسن بالحسنى ثم اضطر الى مسايرتهم وعقد معاهدات تجارية مع انكلترة وفرنسة واسبانية والبرتغال ، فكان ذلك وسيلة الى ازدياد التنافس والطمع . واخذت البعثات الافرنسية والاسبانية والانكليزية تفد على المغرب وتطلب من السلطان امتيازات بمد سكك حديد واسلاك برق وانشاء موانيء ومصارف الخ وتتنافس فيما بينها على ذلك . ولقد حفز هذا الدول الاوروبية على التداعي الى عقد مؤتمر لتنظيم صلاتها مع المغرب الاقصى فانعقد نتيجة لذلك وفي زمن حكم السلطان الحسن مؤتمر مدريد سنة ١٢٩٩ هـ ــ ١٨٨١ م اشتركت فيه احدى عشر دولة . وقد وضع قرارات عديدة فرض فيها على المغرب الاقصى امور عديدة مثل فتح موانئه للتجارة مع جميع الدول وضمان سلامة اموال الاوروبيين وارواحهم وحرية دخولهم وخروجهم وجعل طنجة دولية تديرها لجنة مؤلفة من دول المؤتمر الى

---

(١) ص ٢٢٥ (٢) ص ٢٢٦

(٣) سيرته في الاستقصاء ج ٤ ص ٢٣٥ ــ ٢٧٨

جانب الاعتراف باستقلال المغرب الاقصى وتمام سيادته •

وقد وقع في زمن هذا السلطان بعض حوادث شغب متفرقة فتمكن من قمعها والتنكيل باصحابها • وقد استوطن مراكش عام ١٣٠٥ ﻫ وأنشأ فيها قصرا فخما على طراز قصر المعتمد في اشبيلية وانفق عليه طائل الاموال حتى جاء آية باهرة في هندسته وزخارفه وكانت مسامير ابوابه من الذهب والفضة وجلب له الاثاث من اوروبا بما قيمته مئات الوف الريالات •

ومن صور الوجود والنشاط العربي القبيلي التي اوردها المؤلف في سياق سيرة المولى الحسن ثورة اولاد يحيى سنة ١٢٩٠ ﻫ وهم فرقة من بني حسن فاوقع المولى فيهم ثم عفا عنهم • ومن ذلك حركة مشعوذ اسمه ابو عزة من هبرة في بطون سويد من زغبة الهلالية والتفاف بعض قومه عليه فسير المولى من قمع هذه الحركة • ومن ذلك قيام عرب الزيايدة اهل تامسنا سنة ١٢٩٣ ببعض حركات عدوانية فخرج اليهم المولى وكان معه جمع غفير من عرب الحوز ودكالة فاوقع فيهم • ومن ذلك ان المولى اناخ في طريقه على قبيلة غياثة ووظف عليها المونة فاستثقلت ما وظفه وامتنعت عن تقديمه فغضب عليهم فاعتصموا في حصن لهم اسمه الشقة وهو خندق بين جبلين وعلى حافته بنايات ودور فحرق ذلك كله ثم اقتحم الحصن وتوسطه مع حملته ولكن غياثة صمدت وتمكنت من هزيمة جيش المولى ورماهم المولى بالمدافع فتواروا من امامه ونصبوا له الكمائن وتمكنوا من هزيمة جيشه مرة ثانية حتى لقد سقط حامل راية المولى وجرح اخوه عرفة وهلك من الناس ما لا يحصى ثم تمكن السلطان من التغلب عليهم • وفي سنة ١٢٩٦ قصد المولى بلاد المغرب فاوقع بقبيلة بربرية كانت تعيث فسادا ثم زحف نحو بني موسى وهي قبيلة عربية فادت اليه الطاعة ثم

زحف على بني مصر وهي قبيلة عربية ايضا وكان شرها استطار واعتدت على عرب اولاد نصر وعرب دخيسة فكثرت الشكايات ضدها فاوقع المولى فيها ايقاعا شديدا وشردها ونهب الجند زروعها ومخزوناتها فتطارحت عليه واعلنت توبتها فقبل منها على ان يردوا المظالم الى اهلها ويقدموا خمسمائة رهينة ويدفعوا مئة وخمسين الف ريال • وفي سنة ١٣٠٣ خرج المولى الحسن الى بلاد السوس الاقصى وما وراءها لينكل بعرب معقل والصحراء بسبب ما بلغه عنهم من فساد فسارع اشياخ العرب اليه خاضعين مطيعين واجروا امامه الخيل والابل ولعبوا عليها بالبارود فرضي عنهم •

هذا ، وفي زمن المولى عبد العزيز (١) الذي خلف المولى الحسن قويت المنافسة والمطامع الاجنبية اكثر من ذي قبل • واخذت فرنسة خاصة تسير خطوات اكثر من غيرها في سبيل السيطرة على المغرب الاقصى الذي صار يعرف بمراكش بعد ان سيطرت على الجزائر وتونس على ما سوف نذكره بعد فاخذت ترسل عمالها الاستعماريين في شكل بعثات طبية وتبشيرية وتجارية وتنشيء الشركات والبيوت التجارية واستطاعت ان تحصل من السلطان على طلب بعثة عسكرية لتنظيم الجيش وتدريبه فكانت هذه البعثة وسيلة الى نفوذ فرنسة الفعلي والرسمي ، ثم اخذ جواسيس فرنسة يتصلون باصحاب الطرق الصوفية ويكسبونهم لجانبهم بالاغراء ويسيرونهم في خططهم ، وكان لهذه الطرق ومشايخها تغلغل شديد في سواد الشعب •

---

(١) ان كتاب السلاوي ينتهي في اوائل ملك هذا الملك ص ٢٨٧ ــ ٢٧٩ ولم يكد يكتب من سيرته غير خبر جلوسه وما بدا من استفحال شر الافرنج • وسيرة الدولة في مدته وفيعهد الذين خلفوه مقتبسة من كتاب الوحدة العربية للمؤلف ص ١٨٢ ــ ٢٠٣ و ٤٢٤ ــ ٤٣٩ وكتاب حول الحركة العربية له ص ٢٢٦ ــ ٢٦١ ومصادرهما ورسالة « هذه مراكش » لابن جلون المطبوعة سنة ١٩٤٩ والصحف العربية في بلاد الشام ومصر منسنة ١٩٥٠الىسنة١٩٥٩

ولقد حرك هذا النشاط الدول فاخذت كل من انكلترة وايطالية واسبانية والمانية تتحفز للسير في خطط مماثلة لان الامتيازات ممنوحة للجميع ، واهتمت اسبانية للامر اهتماما خاصا لانها كانت تحتل بعض الثغور المغربية وترى المغرب الاقصى منطقة حيوية لها ، وكان الى هذا بين الدول الاوربية الكبرى تشاد وتجاذب حول الشرق العربي يجعل كلاً منها يقف من مطامع الآخر موقف المناوىء . فعمدت فرنسة الى التفاهم مع هذه الدول وتصفية الجو والطريق لنفسها فأبرمت مع ابطالية سنة ١٩٠٢ م — ١٣٢٠ ه اتفاقا سريا اطلقت فيه يدها في ليبية مقابل اطلاق هذه يد فرنسة في مراكش ، ثم ابرمت مع بريطانية سنة ١٩٠٤ اتفاقا اطلقت فيه يدها في مصر مقابل اطلاق هذه يد فرنسة في مراكش ، ثم ابرمت مع اسبانية سنة ١٩٠٤ اتفاقا تعهدت هذه فيه بعدم معارضة مشاريع فرنسة في مراكش مقابل اعترافها باحتلالاتها ومركزها الخاص في المنطقة الشمالية المعروفة بالريف ، ثم سارعت بعد ذلك الى خطوة جديدة فقدمت للسلطان عبد العزيز مذكرة تطالب فيها بزيادة اعضاء البعثة العسكرية وحصر جميع الشؤون العسكرية في يدها وبالسماح بمراقبة الشؤون الادارية من قبل مراقبين فرنسيين بحجة ان امن البلاد الداخلي والخارجي مما يهمها جدا بسبب مصالحها العظمى وحدودها المشتركة . وقد رفض السلطان الطلب وطلب عرضه على الهيئة الدولية التي اشتركت في مؤتمر مدريد ، وقد كانت المانية بزعامة امبراطورها ويلهلم « غليوم » قد اخذت تبرز وترنو الى مركز متناسب مع ما صارت اليه دولته من قوة في المجال الدولي والاستعماري فرآى في موقف فرنسة ورفض السلطان لطلباتها فرصة فزار طنجة بمظاهرة صاخبة وصرح بانه ينظر الى السلطان على اعتبار انه الحاكم الشرعي المستقل . فكان لهذا الموقف اثره في تعويق الخطة الافرنسية واغتنم عبد العزيز الفرصة فطلب عقد المؤتمر الدولي فانعقد سنة ١٩٠٦ في الجزيرة في جنوب اسبانية فعرف باسم مؤتمر الجزيرة وكان من قراراته تجديد

الاعتراف باستقلال مراكش ووحدتها وسيادة السلطان • ولكن فرنسة لم تعبأ بالقرار وظلت تدس اصابعها في المغرب فكان من اثر ذلك ان ثار شخص نعت بابي حمارة كان يزعم انه ذو حق بالعرش واستمرت ثورته بضع سنين واستنفذ من الحكومة طائل الجهد والمال ، وقد اضطر المولى عبد العزيز الى الاستقراض من فرنسة واسبانية وانكلترة وادى هذا الى مطالبة فرنسة وضع الرقابة على الجمارك لضمان الاموال المستقرضة • وحينما بلغت الفتنة ذروتها ارسلت فرنسة قوة احتلت مدينتي الدار البيضاء ووجدة المجاورتين لحدود الجزائر بحجة منع سريان الفتنة الى هذا القطر وحماية حدوده ، واجبرت المولى عبدالعزيز على توقيع معاهدة اعترف بها بهذا الاحتلال وبحق فرنسة في المراقبة الجمركية وباقرار نظام خاص للدار البيضاء ومناطق الحدود • واثار هذا ثائرة الشعب وتزعم الحركة المولى عبد الحفيظ اخو السلطان وانتهى الامر الى خلع عبد العزيز ومبايعة عبد الحفيظ ، وحنق غليوم من تجاهل فرنسة له فارسل بارجة الى ميناء اغادير كتهديد لفرنسة وتذكير بوجوده وحقه وطلب من فرنسة واسبانية سحب قواتهما من الاراضي المراكشية ، وكانت الاخيرة قد اغتنمت فرصة الفتنة فوسعت دائرة احتلالها حتى شملت تطوان • وحينئذ رأت فرنسة ان لا مناص من ارضاء غليوم • وتم ذلك بمعاهدة عقدتها مع المانيا تنازلت فيها لها عن بعض ممتلكاتها في افريقية الاستوائية مقابل اطلاق يدها في مراكش ، وكان ذلك سنة ١٩١٠ م وبذلك استحكمت حلقات المؤامرة وسخرت الدول على اختلاف نزعاتها من معاني الحق والشرف ولحست تواقيعها عن معاهدة الاعتراف باستقلا لمراكش وسيادتها حينما نال كل منها سلبا من الاسلاب • وفي اواخر عام ١٩١١ م زحفت القوى الافرنسية نحو فاس بحجة تأمين الامن التي هي مسئولة عنه ثم بحجة حماية السلطان من هياج رعاياه واحتلتها واجبرت عبد الحفيظ على توقيع معاهدة حماية في ٣٠ مارس من سنة ١٩١٢ م نصت على انشاء

نظام جديد يسمح بالاصلاحات الادارية والقضائية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الافرنسية فائدة في ادخالها لمراكش ، وتعهد فرنسة ببذل تأييدها للسلطان وخلفائه ضد كل خطر يهدد شخصه او عرشه او يخل بامن مملكته ، واحترام التقاليد الدينية الاسلامية وحرمة السلطان ومكانته وصيانة المنشآت الاسلامية والوقفية وتخويل فرنسة بمفاوضة اسبانية والاتفاق معها على تنظيم مركزها الشمالي وموافقة السلطان على احتلال فرنسة لكل مكان ترى ضرورة لاحتلاله وعدم ابرام أي عقد دولي او منح أي امتياز او استقراض أي قرض بدون موافقة فرنسة الخ ، من شروط وقيود تجعل فرنسة هي المتحكمة في كل شأن داخلي وخارجي . وقد وقع المولى عبد الحفيظ المعاهدة ودموعه تجري على خديه ، ثم اعلن بعد قليل من توقيعه تنازله عن العرش بمذكرة قال فيها انه رأى نفسه عاجزا عن القيام بواجباته كملك نحو شعبه ، فخلفه على العرش اخوه المولى يوسف الذي قبل ان يمثل الدور الذي اباه اخوه .. وسارعت فرنسة بعد قليل من نفس السنة تنفيذا للاتفاق الذي تم بينها وبين اسبانيا سابقا فعقدت معاهدة بينها وبين هذه نصت على بقاء المنطقة الشمالية تحت الاحتلال الاسباني على ان تبقى في نطاق سيادة السلطان الدينية والمدنية ممثلة بنائب له فيها يسمى خليفة ويكون لاسبانية فيها مثل ما لفرنسة في المنطقة الجنوبية من حقوق وصلاحيات داخلية وخارجية ..

خطط الاستعمار في المغرب الاقصى وكفاح اهله
وانتصارهم وتوطد السيادة العربية على
البلاد عودا على بدء في نطاق الدولة
الشريفيـــة

ومنذئذ اخذت الدولتان الاستعماريتان تسيران في خطة رهيبـــة تهدف الى جعل من كل المنطقتين مستعمرة لهافتبسطان يديهما على مختلف شؤون الدولة ومرافق البلاد وتملأن دوائرها بموظفيها وتجعلان لهم الكلمة النافذة في التشريع والادارة والتنظيم والمصادرة ، وترسلان الى منطقتيهما بشذاد آفاقهما وتمنحانهم الاراضي والاموال والامتيازات ، وتحاولان ابقاء اهل البلاد في نطاق فظيع من الفقر والجهل والـــذل والحرمان ، وتحركان النعرة العنصرية لتفرق البربر عن العرب برغم اندماجهما ببعضهما اندماجا تاما عبر القرون العديدة وتشجعان البعثات التبشيرية بسبيل تغيير دين البلاد وتحاربان اللغة العربية بسبيل تغيـــير مقوماتها العربية ، وتستعملان في تنفيذ ذلـــك كـــل اساليب القمـــع والتنكيل والمصادرة والسلب والغصب بقطع النظر عن مخـــالفة ذلك لنصوص المعاهدة التي اجبروا السلطان عبد الحفيظ على توقيعها والتي تعهدوا فيها باحترام حقوق وتقاليد ودين اهل البلاد بل وبقطع النظر عن مخالفة ذلـــك لكل معنى مـــن معاني الحق والعدل والشـــرف والانسانية .

ولقد عظم على اهل المغرب الاقصى ان يفقـــد وطنهم سلطانـــه القومي وان يقع تحت نير الغزاة الباغين وابوا ذلك المصير الرهيب الذي اراد الغزاة ان يسيروا بسبيل تحقيقه بقوة الحديد والنار فقاموا بحركة ثورة لاهبة بعد اسبوعين من توقيع السلطان للمعاهدة كرد فعل على

اجبار فرنسة السلطان على توقيعها حيث انقض الجنود المراكشيون في فاس ليلة ١٧ ــ ١٨ نيسان ١٩١٢ على ضباط البعثة الافرنسية وقتلوهم ثم خرجوا من الثكنات فسيطروا علــى معظم المدينة واخذوا يتعقبون الافرنسيين ويفتكون فيهم وانضم اليهم الجمهور هائجا صاخبا وتردد الصدى في القبائل فاخذت تزحف على العاصمة لتشترك مع الثــائرين •

وارسلت فرنسة احد كبار سفاحيها المرشال ليوتي ليتولى قيــادة الانتقام والتنكيل فلم يكد يدخل فاس بمظاهر القوة التي احــاط بها نفسه حتى اندلع لهيب الثورة ثانية في جميع انحاء المدينة وزحفت القبائل وحاصرتها من الخارج • وكانت الكتائب الافرنسية تنهزم واحــدة بعد اخرى حتى لقد حدثت نفس المارشال صاحبها بالانسحاب لو لا المدفعية الافرنسية التي انقذت الموقف وفكت الحصار وساعدت السفاح علــى السيطرة على الموقف ومكنته من بعد ذلك من اصلات سيف الارهــاب والتنكيل والبطش باسلوب صار به مثلا على الطغيــان فــي تــاريخ الاستعمــار •

على ان روح التمرد كانت قد سرت الى انحاء البلاد الاخرى فثار الشيخ ماء العينين وابنه في الجنوب واكتسحه واحتل في صيف عام ١٩١٢ مدينة مراكش وبدأ يستعد للزحف على فاس • ومع ان الجيش الافرنسي انتصر على الشيخ وقمع حركته الا ان حركة التمرد والمقاومة في منطقة مراكش ظلت مستمرة الى سنة ١٩١٥ امتدادا لحركة الشيخ • وقد قامت في الوقت نفسه ثورة في منطقة تافيلات في اقصى الجنوب بزعامة زعيم اسمه موسى حمو وكانت ثورة قوية واسعة كلفت الافرنسيين جهدا عظيما وخسائر فادحة وهزمت لهم بضع حمــلات • ولقد دبر الافرنسيون طريقة لاغتيال زعيم الثورة • ولكن حركته لم تنطفىء حيث خلفه زعيم آخر عليها اسمه ابو القاسم الذي استطاع ان يستمر علــى المقاومة الى سنة ١٩٣٥

وبالاضافة الى هذه الثورات الكبرى فقد نشبت ثورات عديدة ثانوية في مناطق مختلفة من بلاد مراكش وخاصة في مناطق جبال الاطلس واستنفدت من الافرنسيين الجهد العظيم والدماء الغزيرة • وكانت كلما خمدت واحدة شبت الاخرى في هذه المناطق • واستمر ذلك الى سنة ١٩٣٣ •

وفي سنة ١٣٤٧ هـ ــ ١٩٢٩ م توفي المولى يوسف فخلفه ابنه محمد وهو الملك الحالي، وقد اجبرته فرنسة في سنة ١٩٣٠ على اصدار الظهير المعروف بالظهير البربري القاضي بنزع اختصاص القضاء الشرعي الاسلامي النظر في شئون القبائل البربرية وتسويتها وفق العادات والتقاليد القديمة تنفيذا للخطة الرهيبة التي كان منها اثارة النعرة في البربر والتفريق بينهم وبين العرب مع انهم اندمجوا في العروبة والاسلام وغدوا مع العرب شعبا واحدا • وقد اشتدت الى هذا حركة التبشير بين القبائل كوسيلة من وسائل تلك الخطة ايضا فاثار هذا وذاك هياج العرب والبربر معا في مختلف انحاء مراكش وغضبهم لكيانهم العربي الاسلامي وجعلهم يقومون بمظاهرات صاخبة احتجاجية كان ينشأ عنها اشتباكات دموية •

ولقد قابلت السلطات الافرنسية هذه الحركة بالقمع والمطاردة حتى لقد اكتظت السجون والمعتقلات بالناس • ومع ذلك فان الهياج لم ينطفيء واخذت الوفود تتألف في كل ناحية من العرب والبربر معا وتأتي الى فاس لترفع احتجاجها للسلطان • وكانت السلطات تترصدهم وتحول دون وصولهم الى العاصمة او دون مقابلتهم للسلطان ولكن بعضهم تمكن من اختراق الحواجز ومقابلة السلطان وتقديم عرائضهم المتضمنة تأييد الشعب عربه وبربره المستعربين للشريعة الاسلامية والمحاكم الاسلامية وطلب توطيدها وتوطيد اللغة العربية في الدواوين وايقاف حركة المبشرين ومنعهم من التجول في البوادي وشهود الاسواق، واخراجهم من البلاد الخ •••

ولقد اهتم اهل المغرب وخاصة شبابهم لتنظيم حركتهم الوطنية في نطاق الاساليب الحديثة فالفوا حزبا وطنيا اخذ ينشط في اثارة الشعور

العام وتوجيهه لمقاومة الخطط الاستعمارية الباغية . ومع أن السلطات قابلت هذا النشاط بالقمـع والمطاردة والارهـاب والنفي والسجون والتعذيب فانها لم تستطع ان تقضي على الروح القومية النضاليـة التي ظلت تنتشر وتقوى في مختلف الفئات والتي اشتدت خاصة عقب نهاية الحرب العالمية الثـانية رغم استمرار السلطات على اساليبهـا الارهـابية .

وقد صار للعرب المشارقة دول مستقلة في هذه الاثناء فصارت ترفع اصواتها بالتنديد واثارت قضية مراكش في هيئة الامم وجعلتها موضوعا من مواضيع اجتماعاتها . وحاولت فرنسة ان تخدر اهل المغرب بمشاريع اصلاحية تافهة فلم ينخدعوا . واندمج السلطان محمد في حركة المقاومة والمطالبة بالسيادة ، فاخذت الحالة تشتد توترا وتؤدي الـى مظاهرات واشتباكات بل وحركـات ثورية مسلحة . واحنق موقف السلطان فرنسة فحركت صنائعها ومأجوريها وجعلتهم يطالبون بخلعـه وحينئذ اقدمت على خلعه ثم نفيه الى ماداغسقار في آب ١٩٥٣ ونصب احد رجال الاسرة محمدا بن عرفة مكانه متذرعة بذلك الطلب . وكان لهذا العمل الباغي رد فعل شديد في البلاد حيث قـامت المظاهرات الصاخبة واعلن الاضراب العام واعلن عدد كبير من علماء البلاد وزعمائها بطلان ما تم وخيانة السلطان الجديد وانصاره ومروقهم من الاسلام وتصميم مراكش على الاستمرار على النضال الى ان تتحرر من الاستعمار وتستعيد سيادتها القومية . واخذ الناس يمتنعون عن المساجد ايام الجمع في المدن لئلا يسمعوا الدعاء للسلطان الجديد الذي اعتبروه خـائنا مارقا ومن الائمة من امتنع عن الدعاء دون مبالاة بما كان من شـدة الافرنسيين وتهديدهم . وكذلك كان له رد فعل شديد في سائر بلاد المغرب وفي المشرق العربي حيث قامت المظاهرات وعقدت الاجتماعـات وارتفعت الاصوات من الهيئات والجماعات والحكومـات بالاحتجـاج والاستنكار وبتأييد المغرب الاقصى في حركته وجهاده ولم تلبث الحالة

ان تطورت في هذا المغرب وغدت ثورة لاهبة في مختلف انحاء البلاد في نطاق ما سمي بجيش الله او جيش التحرير واخذ الثوار يشتبكون مع القوات الافرنسية ويهاجمون المخافر ويدمرون المنشآت الافرنسية وينصبون الكمائن للقواد وقد اطلق بعضهم النار على السلطان الخائن ونصبوا له كمينا لاغتياله ، ومع ان السلطات الافرنسية حاولت ان تقابل ذلك بالقمع وان تظل راكبة رأسها وحشدت اكثر من مئتي الف مجهزين بكل اجهزة الحرب القوية فانها لم تستطع ان تخمد الحركة النضالية في الداخل او تخفف اصوات الاستنكار والاحتجاج في الخارج مما جعلها مرغمة على التراجع عن غيها فسرحت محمدا بن عرفة في سنة ١٩٥٦ وافرجت عن السلطان الشرعي محمد بن يوسف واعادته الى عرشه ودخلت معه في مفاوضات اسفرت عن اعلان الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مراكش وسيادتها . وشكل السلطان حكومة وطنية اخذت تمارس مهتها في نطاق الاستقلال والسيادة فاعادت تنظيم دوائر الحكومة وقوانينها وصبغتها بالصبغة العربية وأنشأت جيشا وطنيا وطلبت الانضمام الى هيئة الامم فاجيب طلبها وارسلت السفراء والوزراء المفوضين الى عواصم عديدة عربية وغير عربية ثم انضمت سنة ١٩٥٨ الى الجامعة العربية وغدت عضوا فعالا من اعضائها .

ولم يقتصر كفاح المغرب الاقصى على فرنسا . فقد شمل المنطقة الاسبانية وكان لاهلها جولات قوية في مضماره . ولقد اتسم نضالهم عقب معاهدة الاحتلال بسمة حرب عصابات عرفت في تاريخ جهادهم بالثورة الجبلية . وكانت تشتد حتى يبلغ عدد المجاهدين احيانا الوفا وتشغل عشرات الالوف من الجند الاسباني وتستنفد العظيم من جهود اسبانيا واموالها وتكبدها فادح الخسائر .

ثم برز الامير عبد الكريم الخطابي عام ١٩٢٠ على رأس حركة الكفاح فانضوى تحت لوائه وزعامته جميع العصابات . وانقلبت الحالة من حركة عصابات ازعاجية الى حرب رسمية هجومية . واخذ الجيش

العربي يتقدم في جميع الميادين وتنهار امامه القوى الاسبانيــة رغم تفوقها في العدد والعدة • ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح معظم المنطقة تحت سيطرته ولم يبق في يد الاسبان الا بعض المدن الساحلية مثل مليلة وسبته لانهما كانتا محصنتين تحصينا قويا • وكانت اخبار جهــاد الامير تصل الى المشرق فتهزه هزا لما يرافقها من احداث البطولـــة والانتصارات التـــي سجلت اعظم المفاخر للنضال العربي في هــذا القسم من الوطن العربي الكبير •

وقد اعلن الامير استقلال الريف وأنشأ جمهورية كان هو اول رؤسائها واخذ يمارس سلطاته • ولقد ثار الرأي العام الاسبــاني ضد الحرب واخذ الجيش يتمرد نتيجة لما حل فيه من هزائم وهوان وخسائر • واضطر رئيس اسبانيا آنذاك بريمودي ريفيرا الى جس نبض الامــير العربي بالصلح فاشترط هذا جلاء القوات الاسبانية عن جميــع مافي يدها بما في ذلك سبته ومليلة • وعلمت فرنسة بالامر فجن جنونهــا من احتمال جنوح اسبانيا الى الصلح خشية من استفحال امر الامير وامتداد حركته فضغطت على اسبانيا من جهة وسارعت من جهة اخرى الى ارسال قواتها البرية والبحرية لشد عضدها • وهكذا غدا الامــير يواجه قوى دولتين • ومع ذلك فقد صمد نحو سنتين اخريين يسطر مع جيشه المجاهد اروع آيات البسالة • ولم يكن المشرق العربي الذي كان شديد الاغتباط والابتهاج من حركته في حالة تساعده على مد يد العون المجدي • ولعبت الدسائس والمال دورا أليما أدى الى خذلان الامــير من قبل انصار اقوياء فلم يكن بد له من التوقف عن حركته والاستسلام لفرنسة التي وعدته بالرعاية ثم نكثت فنفته مع أســرته الى جزيرة رئونيون النائية الموبوءة حيث ظل في منفاه البغيض الى سنة ١٩٤٧! فاستسنح فرصة نقله الى منفى افرنسي فنزل الى بور سعيد بحركــة بارعة واعلن التجاءه الى مصر فكان له فيها الملجأ الكريم •

ومع انه طرأ على حركة النضال بعد نفي الامير شيء من الفتور

غير انها لم تلبث ان انبعثت من جديد على يد شبابها الاحرار الـذين تكتلوا في نطاق حزب اسمه حزب الاصلاح واخذوا يناضلون ويكافحون في سبيل التحرر من النير الاسباني •

ولقد اندمج سكان هـذه المنطقة في الموقف القوي الشديـد الذي وقفه اخوانهم في منطقة الاحتلال الافرنسي في مناسبة خلـع فرنسة للسلطان ونفيه فتظاهروا واحتجوا واعلنوا سخطهم وعدم اعترافهم بالسلطان المزيف •

وظل الامر على هذا المنوال الى ان اضطرت فرنسة بقوة الكفاح العربي الى التراجع واعادة السلطان الشرعي والغاء المعاهدة والاعتراف باستقلال البلاد وسيادتها والاتفاق مع السلطان وحكومته الوطنية على ما ذكرناه قبل فلم يكن بد لاسبانيا من ان تحذو حذوها فدعت السلطان الى مدريد بعد قليل من اتفاقه مع فرنسة وفي نفس السنة أي ١٩٥٦ وفاوضته ووقعت معـه تصـريحا اعلنت به الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مراكش وسيادتهـا وقبول امتداد حكم وادارة الحكومـة المركزية السلطانية الى المنطقة الشمالية وبكلمـة ثانية قبلت بالوحـدة المراكشية • وبعد قليل اتصلت الحكومة المراكشية بالدول التي كانت تعاهدت على قيام الادارة الدولية في طنجة وتم الاتفـاق على الغـاء هذه الادارة وانضمام طنجة الى أمهـا فتمت الوحدة في نطاق الاستقلال والسيادة العربية •

وما يزال هناك شيء ما يعكر السيادة العربية في المغرب • فـانه ما يزال لفرنسة واسبانية بعض القوات العسكرية في اراضيه • كمـا ان للولايات المتحدة الاميركية قواعد جوية حربية فيه مؤجرة لهـا من قبل فرنسة منذ الحرب العالمية الثانية •

ولم تكد حكومة المغرب تمارس سيادتها حتـى اخذت تطالب فرنسة واسبانيا والولايات المتحدة معا بالجـلاء عن بلادها • وقـد

اضطرت الولايات المتحدة تجاه الالحاح الى الموافقة على التخلي عن قواعدها وتقويض خيامها خلال ثلاث سنوات وقد اعلن ذلك في شهر كانون الاول ١٩٥٩ م ٠

وتستمر حكومة المغرب على الحاحها على فرنسة واسبانية بالجلاء ٠ ولقد حقق المغرب بكفاحه وتضحياته القسم الاعظم من سيادته ٠ ولسوف يحقق امنيته في جلاء القوات الاجنبية في القريب العاجل ولا سيما انه يظهر حساسية شديدة تجاه استكمال سيادته القومية العربية من جهة والمواثيق الدولية والرأي العام العالمي يؤيدانه في موقفه من جهة اخرى ٠

الجمهورية التونسية الحديثة
وتوطد السلطان العربي في تونس [1]

— ١ —

كانت تونس منذ اوائل القرن السابع الى اوائل القرن العاشر الهجري تحت سلطان دولة بني حفص • وقد ضعفت هذه الدولة وارتبكت امورها في اوائل القرن العاشر • وكان القائد التركي البحري خير الدين باربروس قد استولى في عام ٩١٠ هـ على ثغر الجزائر واخذ يمكن حكمه في هذا الاقليم في ظل الدولة العثمانية التركية فاغتنم فرصة ذلك الضعف والارتباك واستطاع في سنة ٩٣٥ ان يستولي على ثغرر بنزرت ثم على تونس ويعلن الحاقهما بالدولة العثمانية •

ولقد حاول الحسن الملك الحفصي ان يصد الترك فعجز فاستنجد بشارلكان الخامس ملك اسبانية وامبراطور اوروبا الغربية واستجاب هذا وجهز اسطولا قاده بنفسه ونزل في ثغر الوادي ثم زحف على تونس ودخلها سنة ٩٤٢ واستباحها نهبا وسبيا ولم يقدر خير الدين على المقاومة فانسحب الى الجزائر متربصا • وقد اعاد شارلكان الملك الحفصي الى عرشه واخذ منه عهدا بالموافقة لقاء مساعدته على ان يكون احد قواده شريكا له في الحكم وان يكون للرعايا الاسبان حق الاقامة في جميع انحاء القطر التونسي واقامة طقوسهم بحرية • ثم بالتنازل عن ثغور عنابة

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من كتاب خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبدالوهاب ومن رسالة هذه تونس للدكتور حبيب تامر المطبوعة سنة ١٩٤٨ ومن الجزء الثاني من كتاب حول الحركة العربية للمؤلف ص ٢٠٥ ــ ٢٢٥ ومن كتاب الوحدة العربية للمؤلف ايضا ص ١٧٠ ــ ١٨٠ و ٤١٧ ــ ٤٢٤

وبنزرت وحلق الوادي واقامة حاميات اسبانية فيها بالاضافة الى جزية سنوية يؤديها للدولة الاسبانية قيمتها اثنى عشر الف دوكة ذهبية •

وقد اثار الملك باستسلامه المخزي هذا زعماء المسلمين وجعلهم يلتفون على امير حفصي اسمه ابو العباس ويجمعون له الجموع ويزحفون تحت قيادته على تونس ويستولون عليها ويخلعون الحسن ويبايعون ابا العباس • غير ان الاسبان ظلوا رابطين في الثغور التي استولوا عليها فاستنجد اهل القطر بالترك في الجزائر • وفي سنة ٩٧٧ هـ زحف والي الجزائر علي باشا الذي خلف خيرالدين على تونس • وخرج ابو العباس لرده فانهزم امامه وتمكن علي باشا من دخول المدينة واخذ البيعة من اهلها للسلطان العثماني وكان اذ ذاك السلطان سليم الثاني• وركب ابو العباس رأسه فاستنجد بالاسبان ووعدهم بمال جسيم فارسل ملكهم اسطولا عظيما • ولما ارسى على ثغر الوادي ابرز لابي العباس كتابا من حكومته يقضي بضرب الحماية على البلاد والمقاسمة في الحكم والجباية •

وقد انف ابو العباس من الموافقة على ذلك وفضل الانسحاب ولكن اخا له اسمه محمد رضي بالشروط وتولى العرش سنة ٩٨٠هـ بمساعدتهم • ولقد لقي التونسيون من جور الجند الاسباني وعدوانهم ما حمل كثيرا منهم على النزوح ونال الباقين من الهوان ما لايقع تحت وصف وهتك الاسبان حرمة جامع الزيتونة حيث ربطوا فيه خيولهم والقوا ما فيه من نفائس الكتب في الطرقات •

واستعان الناس بالدولة العثمانية فزحف والي الجزائر سنان باشا من ناحية ووالي طرابلس من ناحية اخرى وجاء اسطول عثماني عظيم الى مياه تونس واشتبكت القوى العثمانية مع القوات الاسبانية فكتب لها النصر في النهاية سنة ٩٨١ هـ ومنذئذ توطد الحكم على هذا القطر للدولة العثمانية •

على ان بعد المسافة بين مركز الدولة وبين تونس وما كان يجري

الحكم عليه في بلاد هذه الدولة جعل الحكم في هذه البلاد اشبه بالحكم الاقطاعي او الاستقلال الداخلي • وكان يناط بقائد الجيش العثماني المرابط فيها • وكان يلقب هذا القائد بلقب الداي •

ومن اوائل الدايات عثمان داي الذي جاء في عهده الى تونس عشرات الوف النازحين الاندلسيين فرحب بهم وآواهم واقطعهم الارضين ووزع على محتاجيهم الاموال فكانوا دما جديدا بعث النشاط والحيوية العربية في القطر بما كانوا عليه من ثقافة ومهارة فنية وصناعية وزراعية وتجارية وعمرانية •

وخلف عثمان داي يوسف داي سنة ١٠١٩ ، وقد اهتم هذا للاسطول فعلا شأنه واخذ يرهب الافرنج بجولاته • ومات هذا سنة ١٠٤٧ فتولى المنصب اوسطه مراد • وقد كتب هذا سجلا حافلا في القرصنة البحرية ضد الافرنج حتى انه جلب الى تونس من جولة واحدة اثني عشر الف اسير افرنجي ونحو تسعمئة مركب بين صغير وكبير •

واخذ نظام الحكم في تونس يتطور • وكان من صفحات هذا التطور ان اوجد منصب جديد عرف صاحبه بالباي كان يتولى قيادة الجيش والجباية ويتمتع بسبب ذلك بسلطان نافذ • فلما توفي اسطه مراد سنة ١٠٥٠ استبد القائم بالمنصب المذكور بالامر وغدا هو صاحب الولاية • وكان اول من فعل هذا قائد اسمه حمودة كان يتولى منصب الباي • وقد سعى حمودة باي لدى الدولة العثمانية فاقرته في منصب الرئاسة ووجهت عليه رتبة الباشوية • وتعاقب الحكم في ذريته الى سنة ١١١٧ فكان ذلك خطوة تطورية جديدة في نظام الحكم حيث صار وراثيا •

وقد وقع فتن ومنازعات في اواخر هذه الحقبة ادت الى زوال الحكم من اسرة حمودة باي وايلولته الى قائد تركي آخر اسمه حسين ابن علي بموافقة كبراء الجند والعلماء والاعيان ، وهو رأس الاسرة

الملكية التي عرفت بالاسرة الحسينية نسبة اليه والتي استمر الحكم فيها الى سنة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م ، وقد احتفظ بلقب الباي هو واولاده من بعده •

ولقد وهنت صلة الدولة العثمانية بالقطر التونسي في عهد هذه الاسرة كثيرا حتى لم يبق منها الا الخطبة لسلطانها الخليفة • وتولى العرش منها امراء عديدون كان منهم كثيرون اتصفوا بالهمة والحيوية والنزعة الاصلاحية والعمرانية والتنظيمية فأنشأوا كثيرا من المنشآت وسنوا كثيرا من القوانين وشجعوا الحركة الاقتصادية وأسسوا المدارس وقووا الجيش والاسطول حتى غدت دولتهم في وقت ما من الدول القوية في البحر الابيض •

وهذا ثبت باسماء البايات الذين تولوا العرش التونسي من اسرة وذرية حسين بن علي :

حسين بن علي ومدته من سنة ١١١٧ الى ١١٤٧ هـ
عمه علي ومدته من سنة ١١٤٧ الى ١١٧٢
علي الثاني بن حسين ومدته من سنة ١١٧٢ الى ١١٨٦
حمودة بن علي ومدته من سنة ١١٨٦ الى ١٢٢٩
عثمان ومدته من سنة ١١٢٩ الى ١٢٣٠
محمود ومدته من سنة ١٢٠٣ الى ١٢٣٩
حسين الثاني ومدته من سنة ١٢٣٩ الى ١٢٥١
مصطفى ومدته من سنة ١٢٥٢ الى ١٢٥٣
المشير احمد ومدته من سنة ١٢٥٣ الى ١٢٧١
محمد ومدته من سنة ١٢٧١ الى ١٢٧٦
محمد الصادق ومدته من سنة ١٢٧٦ الى ١٢٩٩
على الثالث ومدته من سنة ١٢٩٩ الى ١٣٢٠
محمد الهادي ومدته من سنة ١٣٢٠ الى ١٣٢٤
محمد الناصر ومدته من سنة ١٣٢٤ الى ١٣٤٠

محمد الحبيب ومدته من سنة ١٣٤٠ الى ١٣٤٦
احمد الثاني ومدته من سنة ١٣٤٦ ـ ١٣٦١
محمد المنصف ومدته من سنة ١٣٦١ ـ ١٣٦٢ خلعه الافرنسيون لتعاونه مع الحركة الوطنية
محمد الامين ومدته من سنة ١٣٦٢ ـ الى ١٣٧٥ خلعه الوطنيون لتعاونه مع الافرنسيين .

وهذه الاسرة وان كانت تمت الى العنصر التركي فانها مع جمهور الاسر التركية التي كان يتألف من رجالها الجيش العثماني الاول الذي استولى على القطر التونسي في اواخر القرن العاشر للهجرة قد اندمجت في العروبة التي غدا طابعها هو الطابع الشامل لهذا القطر على ماشرحناه في مناسبة سابقة اندماجا تاما ومن الذين سجلوا اعمالا عمرانيةواصلاحية وتنظيمية وعلمية من هؤلاء البايات اكثر من غيرهم اولهم حسين وعلي وحمودة ومحمود وحسين الثاني واحمد المشير ومحمد ومحمد الصادق.

فقد احيا اولهم معالم مدينة القيروان وأنشأ مدارس عديدة في تونس وسوسة والقيروان وصفاقس ونقطة ، واقام عددا من الجسور ، وصهاريج لجمع الماء وشجع الصناعة والزراعة والتجارة ، وكان ثانيهم شغوفا بالعلم والادب مكرما للعلماء والادباء ، وقد أنشأ عددا من الملاجيء والمدارس واوقف عليها الاوقاف الدارة ، وشجع ثالثهم الصناعة الوطنية وكان يتشدد في نشر استعمال المصنوعات الوطنية لباسا وفرشا ، واتسعت النهضة التعليمية في عهد رابعهم كما كثرت المساجد والزوايا والتكايا التي كانت مأوى للعاجزين ، ونظم خامسهم الجيش على الطرق الفنية الحديثة وابطل نظام الانكشارية ، وابطل سادسهم الرق واقفل اسواقه ، وأنشأ مدينة جديدة سماها المحمدية واتخذها مقرا له وهي تبعد ١٤ ميلا عن تونس وكان البايات قبله يسكنون في ربض آخر لتونس اسمه باردو ، ونظم الجيش مجددا على الطرق الحديثة وزاد في عدده حتى بلغ ثلاثين الفا . وأنشأ مدرسة

حربية جلب اليها المعلمين الضباط من اوروبا وقوي الاسطول وضم اليه اثني عشرة باخرة منها بارجة من الطراز الاول واحدث مرسي حربيا انفق عليه الاموال الطائلة ، وأنشأ دارا لصناعة السفن في ثغر حلق الوادي كما أنشأ فيه معامل لصنع السلاح واصلاحه ومستودعات شحنها بالذخائر وآلات الدفاع • وربما كان هذا اعظم البايات مآثر ونشاطا وان كان قد انهك خزانته ، ومنح سادسهم شعبه دستورا نص على المساواة بين الناس في الحقوق وسماه عهد الامان ، وقد تلي هذا الدستور بحضور نواب الدول الاوروبية وكبراء الموظفين والاعيان في ٢٠ محرم ١٢٧٤ — ١٠ ايلول ١٨٥٧ م وحلف في الحفل على اجراء العمل بمقتضاه واستبشر الناس بصدوره • وقد أنشأ مجلسا بلديا على النظم الاوروبية ليتولى تنظيم تونس واصلاحها ، وهو اول من ادخل الى تونس الطباعة الحرفية المعدنية وكانت الطباعة قبل ذلك حجرية ، وسار سابعهم في تطبيق عهد الامان فأنشأ مجلسا منتخبا مؤلفا من ستين عضوا للنظر في مصالح البلاد وسن قانونا بضمانة حقوق الفلاحين ووضع منهجا خاصا لتوزيع الاراضي الاميرية على سكان البادية واصلح مناهج التعليم واسس المدرسة التي عرفت باسمه « الصادقية » للعلوم واللغات وارسل بعثات عديدة علمية الى فرنسة وايطالية وغيرهما ، واستقدم خبراء اجانب وسمح لرؤوس الاموال الاجنبية بسبيل العمل على استثمار ثروات البلاد المعدنية والزراعية والصناعية •

العدوان الافرنسي على تونس

ولقد اخذت فرنسة تتربص بتونس الدوائر وتطمح في الاستيلاء عليها بعد ان انشبت اظفارها بالجزائر ، وتهيىء الاسباب لتحقيق هذا المطمع، وقد شجعت بعض البايات على الاستقراض فانساقوا في هذا التيار بحجة المشاريع العمرانية حتى عظمت ديون الدولة وارتبكت حالتها المالية ، وحينئذ اخذت فرنسة تتدخل بحجة تنظيم المالية وضمانة الديون • وقد فرض محمد الصادق بعض الضرائب لتلافي العجز فادى ذلك الى هياج الناس ، واخذ قناصل الدول الطامعة وخاصة فرنسة وايطاليا يتشادون على السيطرة والاستعلاء ، وفي هذه الاثناء اعتدى بعض القبائل على حدود الجزائر فرأت فرنسة في هذا الحادث فرصتها المنشودة فسيرت حملة من الجزائر بحجة التنكيل بالمعتدين وضبط الامن في البلاد سنة ١٨٨١ م ـ ١٢٩٨ هـ وتقدمت الحملة الى ان بلغت باردو مقر الباي محمد الصادق وارغمه قائدها على توقيع المعاهدة المشؤومة التي عرفت بمعاهدة باردو والتي وافق فيها الباي مرغما على احتلال القوات الافرنسية الاماكن التي ترى احتلالها ضروريا وتمثيل المملكة التونسية وحماية مصالحها ورعاياها في البلاد الاجنبية بواسطة الممثلين الافرنسيين وعدم ابرام أي عقد ذي صبغة دولية مع أي دولة دون علم فرنسة وموافقتها وتمثيل فرنسة لديه بوزير مقيم عام تكون وظيفته الاشراف على تنفيذ احكام المعاهدة ويكون هو الواسطة بين الدولة الافرنسية والسلطات التونسية ومنع ادخال السلاح والذخائر الحربية لمراسي المملكة التونسية • ولم تكتف فرنسة بهذه الشروط التي سلبت تونس سيادتها بل انها ارغمت الباي علي الثالث الذي تولى بعد محمد الصادق المتوفي عام ١٢٩٩ هـ على توقيع اتفاقية جديدة في

نفس السنة التي تولى فيها اعترف فيها بحماية فرنسة وتعهد بادخال كل ما تراه فرنسة ضروريا من اجراءات واصلاحات مالية وادارية وعدلية ووافق على ان تتحمل مداخيل تونس نفقات الحماية ووافق على عقد قرض بمئة وخمسة وعشرين ميليون فرنك لتسديد الديون • وتعهد بعدم عقد أي قرض الا بموافقة فرنسة • ثم خطت فرنسة بعد ذلك خطوة خطيرة اخرى حيث ارغمت الباي على ان يكون المقيم العام وزيرا للخارجية وحيث اصدر رئيس الجمهورية الافرنسية مرسوما يمنح المقيم العام نيابة عن الحكومة الافرنسية حق المصادقة على مايصدره الباي من اوامر ومراسيم وعدم نفاذ أي شيء يصدره من دون موافقته •

وهكذا حلت فرنسة محل الدولة التونسية واتاحت لنفسها حكم البلاد حكما شبه مباشر وجعلت ممثلها الحاكم الاعلى والآمر المستبد فيها • ومن ثم اخذت تسير على خطة رهيبة تهدف الى جعل القطر التونسي مستعمرة افرنسية ونهب ثروات اهله المنقولة وغير المنقولة والظاهرة والمكنوزة وابقائهم في أسوأ حالات الفقر والجهل والحرمان وتجريدهم من مقوماتهم القومية والدينية وتغيير لسان هذا القطر العربي ووجهه ودينه واقتطاعه من الكيان العربي وتحويله الى اقليم افرنسي مسيحي ، وتشجيع هجرة شذاذها ومتعطليها اليه واقطاعهم المزارع والاملاك التي كانت تصادرها من اصحابها وتأييدهم بكل وسائل التأييد ليساعدوا على تحقيق هذه الخطة بالاضافة الى الاستعانة على ذلك بقوة الحديد والنار والقمع والتنكيل والتشريد •

ولقد كان يتولى السلطة التنفيذية مجلس وزراء تونسي فشلت فرنسة يده ووضعت بجانب كل وزير مديرا افرنسيا بيده كل السلطة • واحدثت منصبا باسم امين السر العام مرتبطا بالمقيم العام وربطت به جميع المديرين الافرنسيين فغدا امين السر العام والمديرون هم المباشرون للسلطات فعلا وغدا المقيم العام بمثابة الرئيس الاعلى للدولة ولم يبق

للباي والوزراء التونسيين الا الاسم والراتب .

وقد وضع الى جانب كل عامل اداري مراقب افرنسي وجعل الامر كله اليه وجعل مسئولا امام المقيم العام وحده . وقد لقبهم التونسيون بقياصرة الآفاق دلالة على ما جمعوا من سلطات واتصفوا به من جبروت . وقد سلخت المنطقة الجنوبية عن السلطة المدنية مع ما هي عليه من فقدان الفعالية والصلاحية واعتبرت منطقة عسكرية يدير شؤونها ضباط خاضعون للمقيم العام كان تصرفهم وسلوكهم في الحكم مثلا على شدة الجبروت والاضطهاد .

وقد ملئت دوائر الحكومة في المركز والملحقات بالموظفين الافرنسيين من جميع الدرجات استهدافا لاضعاف العنصر التونسي في الحكم وصبغه بالصبغة الافرنسية فضلا عن ايجاد مجال الرزق لجيش من الموظفين الافرنسيين بلغ عدده في سنة ١٩٤٧ (٢٥٠٠٠) وكادت وظائف التونسيين ان تقتصر على الدرجات الثانوية والتافهة باستثناء بعض الوظائف العليا التي لا مناص من قيام تونسيين عليها مثل الوزارات والحكام الاداريين الذين جعل في جانبهم كما قلنا مديرون ومراقبون افرنسيون في يدهم الامر كله .

وقد أشهر سيف الارهاب والارهاق على الحريات بسلسلة من المراسيم واللوائح الظالمة ، فقيدت الصحافة العربية بقيود شديدة تجعلها معرضة لاقسى العقوبات وقيدت الاجتماعات بمثل ذلك ، وقيدت حرية تنقل التونسيين داخل بلادهم بمثل ذلك . وسنت قوانين الخدمة الاجبارية التي تجعل التونسيين مجبرين على أي عمل عام تعلنه السلطات انه كذلك بالاجر والشكل الذي تراه وتحت طائلة العقوبات الشديدة . وكثيرا ما كانت هذه السلطات تعلن صفة العمل العام لمشاريع استثمارية واستعمارية وزراعية تخص المستعمرين الافرنسيين وتستخدم عمال التونسيين وزراعهم فيها بقوة هذا القانون .

ولقد كانت حكومة تونس وضعت قبل غزوة فرنسة الباغية

مشروعا لتوزيع اراضي الدولة على الفلاحين الذين لا ارض لهم وبدأت بتنفيذه فألغت فرنسة هذا المشروع وانتزعت ما وزع على الفلاحين من الاراضي واخذت توزعها على المستعمرين الافرنسيين الذين كانت تقذف بهم تونس فوجا بعد فوج • وتبلغ هذه الاراضي نحو مليون هكتار • ونسبتها للاراضي الزراعية ١٢ ٪ ثم اصدرت تشريعا الحقت بموجبه الاراضي البور باملاك الدولة واخذت تتعسف في تحديدها وتدخل فيها مساحات واسعة من املاك الاهلين المجاورة لها وتقطعها تدريجيا للمستعمرين • وتبلغ هذه الاراضي ضعف مساحة الاولى • وفعلت مثل ذلك باراضي الغابات التي تبلغ مساحتها مليونا ونيفا من الهكتارات • وانتزعت من يد القبائل ما كانت ترتفق به من هذه الاراضي • ولم تعف عن اراضي الوقف الاسلامي الخاصة والعامة حيث امرت ادارة الوقف بوضع الفي هكتار سنويا تحت امر ادارة خاصة أنشأتها مقابل ثمن بخس يقدره خبير افرنسي لتوزيعها على المستعمرين •• وهكذا اصدرت سلسلة من القوانين الجائرة لنهب اراضي تونس على اختلاف انواعها دون رادع من شرف او ضمير او حق أو عرف او قانون لاحلال المستعمرين الافرنسيين فيها محل اهلها • وقد بلغت الاراضي المقطعة لهم نحو مليون ونصف هكتار (خمسة عشر مليون دونم) وتكاد هذه المساحة تعدل نصف الاراضي الصالحة لزراعة الحبوب في تونس •••

وقد حصرت امتيازات المعادن بالافرنسيين ووضعت شتى العراقيل في طريق الصناعات الوطنية حتى كاد ان يقضي عليها وحميت الصناعات والسلع الافرنسية بالامتيازات والاستثناءات حتى غدت المتحكمة في الاسواق التونسية • وقد ضيق الحصار على الحركة الاقتصادية التونسية بشدة حتى صار المنتج التونسي يبيع انتاجه للتجار والشركات والمصدرين الافرنسيين بالاثمان البخسة بالقهر والاكراه •

ولقد كان في تونس مجلس تشريعي انتخابي له صلاحية التشريع والرقابة فلم تلبث فرنسة بعد غزوتها ان الغته واقامت مجلسا باسم مجلس الشورى كان في مرحلته الاولى افرنسيا بحتا يمثل المستعمرين الافرنسيين لتنسيق جهود الجالية الافرنسية وجهود حكومة الحماية لاستنزاف ثروة البلاد واستغلالها . وكانت السلطات الافرنسية تختار أعضاء هذا المجلس من غرف التجارة والزراعة الافرنسية ومن الموظفين واصحاب المهن الحرة الافرنسيين . ثم اقامت بعد احدى عشرة سنة مجلسا تمثيليا ضم افرنسيين وتونسيين على غاية من التناقض الغريب حيث جعلت للجالية الافرنسية حق انتخاب ستة وثلاثين عضوا يمثلونها ويكون الى جانبهم ستة عشر تونسيا يعينهم المقيم العام .. ثم اقامت بعد خمس عشرة سنة مجلسا سمته المجلس الكبير كانت اكثريته في بدئه افرنسية ثم تطور بعض الشيء ولكنه ظل مسلوب الصلاحية والاعتبار .

وقد كان اهتمام السلطات الافرنسية بشئون التونسيين التعليمية والصحية والاجتماعية ضئيلا وذرا للعيون ، حيث لم يكن يحظي من اطفالهم الذين هم في سن التعليم بمقاعد مدرسية حكومية الا نحو عشرهم . فقد كان عددهم سنة ١٩٤٧ ستين الفا من مجموع عدد الذين هم في سن التعليم البالغ سبعمائة الف في حين كان عدد ابناء الاوروبيين في مدارس الحكومة (٦٥٠٠٠) وكان عدد الاوروبيين مئتين وخمسين الفا . أي ان جميع ابناء الاوروبيين كانوا في المدارس الحكومية التي ينفق عليها من ميزانية تونس ! وقد حرصت على جعل منهج التعليم في هذه المدارس افرنسيا صرفا ليس فيه للغة العربية والدين الاسلامي الا اضيق مكان تمشيا وراء فكرة تغيير وجه تونس العربي المسلم . وتنتشر امراض السل والتراخوما انتشارا واسعا وكذلك البطالة . وسوء المسكن والغذاء وضعف البنية والحياة البائسة التي يرتكس فيها السواد الاعظم من التونسيين دلائل صارخة على ضآلة عناية السلطات بشؤون التونسيين الصحية والاجتماعية .

ومما عمدت اليه السلطات الافرنسية تجنيد الشباب التونسي وارسالهم الى الانحاء القاصية وابقائهم مددا طويلة مندمجين في جو الحياة العسكرية الافرنسية المسيحية حيث ينسى كثير منهم او معظمهم لغته ودينه ويصبح لا هو افرنسي ولا هو عربي ولا هو مسلم •

كذلك مما عمدت اليه اغراء التونسيين بالتجنس الذي يسمح بالتمتع بالحقوق الافرنسية ويشترط بالوقت نفسه الخضوع للقانون المدني الافرنسي في الامور الشخصية المدنية من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة دون القانون الاسلامي مما ينطوي فيه غاية سلخ التونسيين عن تقاليدهم واسلامهم وعروبتهم ودمجهم في الحياة الافرنسية •

وهذا بالاضافة الى ما ضربته من ستار حديدي كثيف حول تونس لتمنع أي اتصال بينها وبين الاقطار العربية الاخرى المغربية منها والمشرقية • حتى تظل في عزلة تامة عن أي حركة • وقد وصل الامر حتى الى فريضة الحج حيث كانت تتشدد في السماح بها وتجعلها مقيدة بكثير من القيود والشروط واذا سمحت فلا تسمح الا للموالين لها وتحت اشراف موظفين تثق في ولائهم لها •

كفاح تونس ضد العدوان الافرنسي

ولقد ابى اهل تونس المصير الرهيب الذي رسمته لهم فرنسة فاخذوا يقفون منها موقف المناوأة والكفاح منذ عهد مبكر بما استطاعوا من قوة فكانت فرنسة تعمد الى اخماد الحركات الوطنية بكل شدة وقسوة ثم تستمر في سيرتها الفاجرة وخططها الاثيمة • واولى ثوراتهم كانت حينما احتلت القوات الافرنسية تونس واجبرت الباي محمد الصادق على توقيع المعاهدة الاولى حيث نشبت وعمت انحاء البلاد وكانت معارك طاحنة بين القوات الافرنسية والمجاهدين استمرت شهورا واشتهرت القيروان وسوسة وقابس والقلعة وزغوان

وتستور وصفاقس خاصة بمقاومتها الضارية وبسالتها وضحاياها • ومع ان القوة الغاشمة تغلبت لانعدام التكافؤ بالوسائل الماديــة فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة ثائرة بقيادة الزعيم الكبير علي بن نجو خليفة ثلاثين سنة • ولم تكد فرنسة تقضي عليها سنة ١٩١١ م حتى نشبت في الجنوب كذلك ثورة ثانية قام بها قبائل بني زيد سنة ١٩١٥ م كــانت عنيفة قوية واستمرت نحو سنتين وكلفت الافرنسيين كثيرا من الجهود والخسائر • ولم تقتصر حركة النضال على الجنوب والقبائل • فــان زعماء مدنيين كبارا تقدموا لقيادة الحركة الوطنية ومن البارزين مــن اوائلهم الزعيم علي باش • ثم الزعيم عبد العزيز الثعالبي الذي اضطلع اولا بمهمة المطالبة باستقلال تونس وحريتها وحقوقهــا عقب انتهــاء الحرب العالمية الاولى في باريس والذي تزعم الحزب الحر الدستوري الذي اخذ على عاتقه تنظيم الحركة الوطنية النضالية في تونس • وقــد لقي الحزب تأييدا وتعضيدا شعبيا جعلا فرنسة تعمد الى التخــدير ببعض الوعود والاجراءات الاصلاحية التافهة • وتشجع الباي محمــد الناصر فاخذ يشتد في الدفاع عن حقوق تونس وشعبها وهدد بالاستقالة فأدى ذلك الى توتر شديد بينه وبين المقيم العام • وعمد هــذا الــى محاصرة القصر لارغام الباي على التراجع عن موقفه • غير ان الشعب قام بمظاهرات قوية في كافة المدن التونسية حتى اضطربت الحالة فــي تونس واوشكت ان تنقلب الى اصطدامات دموية مما جعل فرنســة تتراجــع وتغــدق الوعود • غير انها نكثت كعادتهــا بمــا وعدته حينما هدأت الحالة واخذت تطارد رجال الحركة الوطنية فتعتقل وتنفي من ظفرت به وتشرد الى خارج تونس من لم تقدر عليه • وكان مــن جملة المشردين زعيم الحزب السيد الثعالبي الذي غادر تونس في سنة ١٩٢٥ م ولم يعد اليها الا بعد عشرين عاما ظل يتجول ويقيم خلالهــا في بــلاد العرب وغيرها منددا بفرنسة ناعيا عليها جبروتها ومظالمهــا وما نهبته من ثروات البلاد واغدقته على شذاذ الآفاق الــذين قذفت بهم تونس •

ولم يطفىء ذلك الشعلة التي اتقدت حيث اخذ الشباب زمام المبادرة فأسسوا حزبا جديدا باسم الحزب الحر الدستوري الجديد بزعامة الحبيب ابي رقيبة ورفاقه صالح بن يوسف والهادي نويره وسليمان سليمان ويوسف الرويسي وجلولي فارس ومنجي سليم وعلي البهلوان والحبيب تامر وغيرهم • وقد دشنوا نشاطهم بمؤتمر وطني عام سنة ١٩٣٣ م شهده جمع غفير من رجالات تونس قرر ميثاقا قوميا وهو تحرير البلاد من ربقة فرنسة واستعادة استقلالها وسيادتها حيث غدا هذا الميثاق شعار النضال المستأنف • وعمدت فرنسة الى مطاردة رجال الحزب واعتقال من ظفرت به منهم ونفيهم الى الصحارى واصلات سيف الارهاب والقمع • وبدلا من ان يؤدي هذا الى ما قصدته من اخماد الحركة زادها ثورانا وكانت تقوم المظاهرات وتقع الاشتباكات الدامية خلالها في مختلف انحاء البلاد • وكانت الظروف الدولية متجهمة حينئذ أي سنة ١٩٣٦ بسبب عدوان موسوليني على الحبشة فاضطرت فرنسة الى التهدئة فاغدقت الوعوذ بالاصلاحات واطلقت سراح اركان الحزب المعتقلين فبادروا الى العمل حتى اصبح جميع الشعب تقريبا متكتلا في الحزب • وعادت فرنسة فنكثت بوعودها حينما صفا الجو الدولي فاستأنف الحزب نضاله ، واستأنفت هي بدورها المطاردات والاعتقالات فأدى ذلك سنة ١٩٣٨ الى اضطرابات واسعة المدى وقامت مظاهرات عامة ظهرت فيها قوة الحزب وبراعة تنظيمه • ولقد غصت السجون والمعتقلات بالوطنيين وانتشر الجيش الافرنسي يعيث في البلاد فسادا ويعتدي على الناس ويهتك الحرمات وازدادت الاشتباكات والاضطرابات شدة وعنفا وازدادت السلطات عسفا وبطشا واعلنت حل الحزب فعمد الذين استطاعوا الى الافلات من رجاله الى تنظيم مقاومة سرية قوية ازعجت فرنسة اشد الازعاج •

وفي هذه الاثناء انفجرت الحرب العالمية الثانية ولم تلبث فرنسة

الا قليلا حتى انهارت وداستها سنابك الالمان فعمد ممثلوها في تونس الى المسايرة والتهدئة في صورة بعض اصلاحات تشريعية وادارية سنة ١٩٤١ غير ان رجال الحركة الوطنية لم يقنعوا بالتوافه وتقدموا الى الباي بعرائض يطلبون منه فيها اعلان سقوط الحماية • ونسي ممثلو فرنسة ما تقاسيه أمهم من ذل وهوان على ايدي الالمان وعجزهم عن تحرير انفسهم واستكبروا على تونس ان تطالب بحريتها فسلكوا طريق البطش والمطاردة وادى مسلكهم الى رد فعل فقامت حركة تخريبية وثورية فورية واسعة • وارتقى العرش في هذه الاثناء (١٩٤٢ م) الباي محمد المنصف وكان ذا ضلع بنشاط الحزب ومن اعضائه فتعززت به الحركة النضالية • وتقدم هو الى حكومة فرنسة المتهادنة مع الالمان والتي اتخذت فيشي عاصمة لها بتأييد مطالب الشعب فوعدته ولم تف • وحلت بعد قليل من ذلك جيوش المحور في تونس فسايرت السلطات الافرنسية الموقف واطلقت سراح المعتقلين وخففت من قبضتها فعادت الحركة الوطنية الى نشاطها • غير ان الحلفاء ـ بريطانية واميركا وغيرهما من الدول الغربية ـ قووا وقويت بقوتهم حركة فرنسة الحرة التي قادها الجنرال ديغول مناوئا بذلك حكومة فيشي والتي اتخذت الجزائر مركزا لها فما كان منها الا ان خلعت الباي الذي جرؤ على المطالبة بالاستقلال لبلاده وحريتها ـ منكرة عليه ما قامت من اجله ـ ونفته ثم قامت بحركة قمع واسعة في كافة انحاء تونس واعدمت المئات بدون محاكمة كما القت الآلاف في غياهب السجون والمعتقلات النائية •

ولقد خمدت الحركة نتيجة لذلك الى ان انتهت الحرب فعادت الى النشاط وعقد رجالها الذين نجوا من السجون والاعتقال مؤتمرا سنة ١٩٤٦ شهده جمع غفير من رجالات القوم برغم موجة الارهاب القوية التي نشرتها السلطات الافرنسية فأكدوا في قراراتهم تصميمهم على تحقيق ميثاقهم القومي ببطلان الحماية ونيل الاستقلال والسيادة

والاحتفاظ بكيانهم العربي • ومنذئذ نشب الصراع على أشده بين تونس وفرنسة دون فتور برغم ما ظلت تعمد اليه فرنسة من قسوة وتنكيل ومطاردة واعتقال وتقتيل ونفي •

ولقد اثيرت القضية التونسية في سنة ١٩٥٠ ثم في سنة ١٩٥١ في هيئة الامم بواسطة الدول العربية ومناصرة الدول الآسيوية والاسلامية ووقف مندوبو هذه الدول يندِّدون بفرنسة وبغيها وبشططها ويؤيدن حق تونس في الحرية والاستقلال والسيادة • ومع ان فرنسة استهترت وتواقحت وقاطعت جلسات الهيئة التي جرى فيها النقاش منكرة عليها التدخل فيما سمته بزعمها الوقح شؤون فرنسة الداخلية فان الصرخات والتنديدات الشديدة في الاوساط الدولية وشدة الصراع الدامي في داخل تونس جعلتاها تعمد الى التخدير كعادتها وتضع مشاريع اصلاحية وترغم الباي مرة بعد مرة على الموافقة عليها وتعيين الحكومات الموالية التي تسير في تنفيذها • غير ان قادة النضال والشعب المؤيد لهم لم ينخدعوا واعلنوا الرفض البات لهذه المشاريع وشجبوا السير في تنفيذها • ودعوا الشعب الى مقاطعة انتخابات لمجالس تافهة السلطات كانت من جملة المشاريع ثم الى النضال الشديد في سبيل الميثاق القومي• ولم تلبث حركة النضال منذ اواسط عام ١٩٥٣ ان تطورت حتى صارت تسمى حربا تحررية وصار لها كتائب تضم الآلاف من المجاهدين المنظمين المجهزين الذين اخذوا بنشاطهم وبسالتهم يثيرون الذعر في الافرنسيين سواء منهم اصحاب السلطة أم المستوطنين ثم في الموالين والمتعاونين والخائنين من التونسيين حيث اخذوا يفتكون فيهم فتكا ذريعا فضلا عن غاراتهم التدميرية والتخريبية على المنشآت والمزارع الافرنسبة • واستطاعوا ان يسيطروا على المناطق الجبلية الواقعة في غرب تونس والممتدة من الشمال الى الجنوب سيطرة تامة فضلا عن نشاطهم في مدن وريف المناطق الاخرى •

ولقد جن جنون السلطات الافرنسية واخذت تقسو في المطاردة والقمع والاعتقال والمحاكمات والتقتيل وتنسف المنازل التي تشتبه بكونها مخازن سلاح ومخابىء المجاهدين وتعتقل الشباب التونسي جزافا بل وتعمد الى اسلوب في غاية الفظاعة حيث أنشأت منظمة ارهابية سرية للفتك بمن يناصرون الحركة الوطنية من وجهاء التونسيين واثريائهم ..

ورأت السلطات ان كل هذا لم يخمد الحركة بل ولم يضعفها فجلبت قوات جديدة حتى بلغ عددها خمسين الفا وأنشأت عشرات الوحدات المقاتلة من المستوطنين لتتولى حماية من يعيش منهم في المناطق المنعزلة ووحدات اخرى لتتولى حماية الذين يعيشون في المدن وسلحت كل قادر من المستوطنين في المدن والريف تسليحا قويا للدفاع عن نفسه وذويه . ولم يكن من شأن هذا ايضا ان يضعف حركة الجهاد حيث استمر نشاطها بل وازدادت قوة وازعاجا .

وكانت فرنسة تمر في هذه الظروف ١٩٥٤ م بمحنةمريرة في الهند الصينية حيث اشتد فيها نضال سكان هذه البلاد التي كانت تسيطر عليها فرنسة من امد طويل وتنهب خيراتها وتبني عليها امجادها في سبيل الحرية والاستقلال الى ان اضطرت الى التسليم بمطالبهم والتخلي عن كثير مما في ايديها فخشيت ان تصاب في المغرب بما اصيبت به في المشرق وارادت ان تنقذ ما يمكن انقاذه فخطا رئيس وزرائها في تموز عام ١٩٥٤ خطوة ايجابية اكثر مما سبق حيث طار الى تونس واجتمع الى الباي واعلن بين يديه قرار حكومته بمنح تونس الحكم الذاتي على ان تبقى فرنسة مشرفة على علاقات تونس الخارجية ومضطلعة بالدفاع عنها ودعاه الى تأليف حكومة وطنية تستلم دفة الحكم في البلاد وتفاوض فرنسة لتحديد حقوق كل من الدولتين والتزاماتهما وناشد شعب تونس بالكف عن سفك الدماء والاقبال على التعاون مع فرنسة .

وقبل بعض قادة النضال بزعامة الحبيب ابي رقيبة العرض على اعتباره محققا بعض اهداف النضال وجرت مفاوضات انتهت في صيف عام ١٩٥٥ الى اتفاق حقق قدرا محدودا من السيادة الداخلية لتونس مع استمرار هيمنة فرنسة ويدها مبسوطة على كثير من الشؤون الداخلية بالاضافة الى الشؤون العسكرية والخارجية • وخالف فريق من القادة ابا رقيبة ورفاقه واعلنوا تصميمهم على متابعة النضال الى ان يتحقق الميثاق القومي كاملا واستمروا على نشاطهم •

وكانت حركة النضال في المغرب الاقصى قد اشتدت في هذه الظروف وارغمت فرنسة على التراجع عن موقفها واعادة السلطان محمد الخامس الذي خلعته ونفته الى عرشه والمفاوضة معه مفاوضة انتهت الى اعترافها بسيادة المغرب الاقصى داخليا وخارجيا على ماشرحناه في آخر سيرة الدولة الشريفية فلم تر مناصا من اعترافها بمثل ذلك بالنسبة لتونس ايضا تفاديا لتفاقم حركة النضال المستمرة فعقدت مع حكومتها ميثاقا في مارس عام ١٩٥٦ اعترفت فيه باستقلال تونس وسيادتها • وتألفت حكومة جديدة برئاسة الحبيب ابي رقيبة واخذت تمارس سلطانها في الداخل والخارج وطلبت الانضمام الى هيئة الامم وجامعة الدول العربية فتم لها ذلك ، وأنشأت جيشا تونسيا وارسلت ممثليها الى عواصم عديدة عربية وغير عربية واخذت تعيد تنظيم جهازها وتصبغه بالصبغة العربية البحتة الخ •• وقد جرت تحت اشرافها انتخابات لمجلس تأسيسي يضع دستور الدولة الجديدة وانعقد المجلس في تموز ١٩٥٧ فكان اول قراراته خلع الباي محمد الامين لسابق تعاونه مع السلطات الافرنسية وجعل تونس جمهورية وانتخاب ابي رقيبة اول رئيس لها • وهكذا انتهى عهد الاسرة الحسينية المالكة التي تمت في اصلها الى العنصر التركي وحل محلها سيادة عربية متسقة مع الطابع العربي الشامل الذي يطبع هذا القطر •

وقد انتهى المجلس التأسيسي في اول حزيران من عام ١٩٥٩ من وضع دستور الدولة الذي أكد واضعوه في ديباجته تعلق الشعب التونسي بتعاليم الاسلام وانتمائه الى الاسرة العربية ورغبته في وحدة المغرب الكبير وفي التعاون مع الشعوب في بناء مصير افضل والتضامن معها من اجل الحرية والعدالة واقامة دولة ديمقراطية في تونس اساسها سيادة الشعب .

واذا كان ما يزال هناك ما يعكر على تونس سيادتها بعض الشيء كبقاء بعض القوات الافرنسية في بعض انحائها وموانئها ومحاولة فرنسة ابقاء هيمنتها السياسية والعسكرية عليها بصورة ما فالمرجو ان تتمكن تونس من الخلاص من هذه المعكرات ايضا بقوة روحها النضالية الابية والتمتع بسيادتها التامة دون ما شائبة في القريب العاجل ان شاء الله .

سيرة العروب والعروبة في ليبية
والمملكة الادريسية الحديثة فيها

— ١ —

كان القطر الليبي الذي يضم مناطق برقة وطرابلس وفزان بطبيعة جواره المباشر للقطر المصري اسرع اندماجا وخضوعا للسلطان العربي والطابع العربي واوسع مجالا لانتشار القبائل العربية واستقرارها منذ حركة الفتح العربي الاسلامي الاولى بسبب حركات الحملات العربية نحو المغرب وتدفق الموجات العربية الاسلامية اليه وبسبب كونه اولى محطات هدا المغرب ، بحيث يمكن ان يقال انه قد غدا قطرا عربيا خالصا باستعراب معظم سكانه القدماء من بربر او لوبيين وانتشار القبائل العربية الكثيرة التي بدأت تفد اليه منذ عهد مبكر واستمرت . ولم يبق فيه من يحتفظ بطابعه ولغته القديمة من سكانه القدماء الا القليل الذين اعتنقوا الاسلام وشدوا العربية في الوقت نفسه ، مع التذكير بان ما قلناه في مطلع الفصل من صلة الجنس العربي قبل العروبة الصريحة بشمال افريقية تشمل هذا القطر .

بنو هلال وبنو سليم في هذا القطر

ولقد كان لهذا القطر نصيب كبير في موجة بني هلال وبني سليم التي اتجهت من براري مصر في اواسط القرن الخامس الهجري والتي كانت من العوامل الحاسمة في طبع بلاد المغرب بالطابع العربي ، حيث كانت سواحل هذا القطر اولى محطات سيرها . وقد اقام كثير منها وخاصة من بني سليم في مناطق طرابلس وبرقة الى حدود تونس مثل

بني زغب وبني هبيب وهم من بطون بني سليم الرئيسية وبني قرة واولاد سلام واولاد مقدم وهم من بطون بني هلال • وقد اندمج فيهم واستقر معهم فروع عديدة من غيرهم من غطفان وناصرة وعمرة ورواحة وفزارة ، فكان ذلك من وسائل توطد العروبة في هذا القطر وشمول الطابع العربي فيه •

— ٢ —

وفي الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون بيانات كثيرة في صدد ذلك في اكثر من موضوع ومناسبة ، ففي احدى المناسبات قال المؤرخ[1] ان بني سليم وبني هلال اجازوا اول ما اجازوا الى برقة وافتتحوا امصارها واستباحوها وكتبوا لاخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد فاجازوا اليهم بدورهم وتقارعوا عليها فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب • واقامت هبيب من سليم واحلافها رواحة وناصرة وعمرة بأرض برقة واجاز الباقون الى افريقية (القطر التونسي) وانتشروا فيه واستباحوه • ثم عادوا فاقتسموا البلاد ثانية سنة ٤٤٦ هـ فكان لزغبة طرابلس وما يليها • وكان في برقة كثير من فزارة واشجع اجازوا اليها قبل انسياح بني هلال وبني سليم فاندمجوا فيهم • وكان في برقة كذلك قبيلة بني قرة منذ عهود الفتح الاول وقد تغلبوا على مدينة برقة واقليمها ولم يزل هذا شأنهم حتى زحف الهلاليون من زغبة ورياح والاثبج وتخلف منهم في برقة من تخلف فاندمج بنو قرة فيهم ومنهم من زحف مع الزاحفين نحو افريقية •

ومن الاحداث التي ذكرها ابن خلدون لهم في نبذة ثورة ابن غانية ان هذا الثائر لما قام بحركته في اواخر القرن السادس وبسط سلطانه على المغرب الاوسط اتجه نحو طرابلس فانضوى اليه عرب

(١) ص ١٢ — ١٧

دياب بني سليم الذين كانوا يقيمون في هذه المنطقة فنهض بهم الى جبل نفوسة وملكه ثم ملك طرابلس والمنطقة المعروفة بالجريد • وقد استمال كافة بني سليم وما جاورهم من العرب في هذه المنطقة مثل الاثبج ورياح وجشم وفرض لهم العطاء فتوطد له نتيجة لذلك ملك واسع (١) ••

ولقد قتل قراقش حاكم طرابلس من قبل الايوبيين جماعة من الكعوب فاستصرخوا برياح من بطون سليم ودبكل من حمير وكان هؤلاء يقيمون في برقة فصارخوهم وناضلوا معهم قراقش وساعدوا الدولة الحفصية على ترسيخ قدمها في تونس وامتداد سلطانها الى طرابلس (٢) •

ومما قاله المؤرخ في مناسبة اخرى (٣) وفيه وصف للحال في عهده أي في القرن الثامن الهجري الى اوائل القرن التاسع (٤) ان بني سليم اجازوا اولا مع الهلاليين فاقاموا في برقة وجهات طرابلس زمنا ثم زحف منهم جماعات الى افريقية • وهم اربعة بطون زغب وذياب وهبيب وعوف • وزغب هم الآن من احياء بني سليم بافريقية (تونس) وكانت مواطن هبيب اول ارض برقة مما يلي افريقية الى العقبة الصغيرة من جهة الاسكندرية ــ وهذا يعني انها طول سواحل ليبية ــ وقد اقاموا هناك بعد دخول اخوانهم افريقية • واول ما يلي الغرب منهم بنو حميد• ولهم اجدابية وجهاتها وهم عدد كبير يرهبهم الحج • ويرجعون الى شماخ لها عدد ولهم العز في هيت لكونها صارت خصب برقة الذي منه المرج • وفي شرقهم الى العقبة الكبرة شمال ومحارب • والرئاسة في هاتين القبيلتين لبني عزاز • وهم المعروفون بالعزة • ولقد استولت بطون هبيب على اقليم طويل ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية الا صارت

---

(١) و (٢) ج ٦ ص ١٨٩ ــ ١٩٨

(٣) ص ٧١ ــ ٨٠ ج ٦

(٤) ولد ابن خلدون سنة ٧٧٢ هـ وتوفي سنة ٨٠٨ هـ •

لاشياخهم • وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون بالفلاحة والتجارة • ومعهم من رواحة وفزارة امم • واشتهر لهذا العهد ببرقة من شيوخ اعرابها ابو ذؤيب • ومواطن عوف من وادي قابس الى ارض بونه • وهم فرعان حصن وعلاق • وفروع علاق ثلاثة وهم يحيى وحمير ودلاج• وفروع حمير اثنان وهم ترحم وكردم • ومن ترحم بنو كعب • وفروع بنو علي وحكم • وكانوا عند اجازتهم على اثر الهلاليين •

وفي نبذة بعنوان ذياب بن سليم (١) قال المؤرخ ان مواطنهم كانت ما بين قابس وطرابلس الى برقة وبطونهم عديدة • منهم اولاد احمد ابن ذياب ومواطنهم غربي قابس وطرابلس الى برقة • وبنو يزيد وهم مشاركون اولاد احمد في مواطنهم • وبنو يزيد اربعة بطون هم الصهب والخرجة والنوابل واولاد وشاح والرئاسة في الاخيرين • وهم بطنان عظيمان هما المحاميد والجواري • ومواطن المحاميد ما بين قابس ونفوسة ورئاستهم في بني رحاب • ومواطن الجواري طرابلس وما اليها مثل تاجورا وهزاعة وزنزور وما اليها ورئاستهم في هذا العهد في بني مرغم• ولاود وشاح بطنان آخران صغيران هما الجواربة والعمور ومندرجان مع المحاميد • ولما تقلص ظل الدولة الحفصية عن انحاء قابس وطرابلس استبد الجواري والمحاميد بضواحيهما وجبالهما وبسائطهما • وتولى الجواري طرابلس وضواحيها وزنزور وغربان ومغر وتولى المحاميد بلاد نفوسة وحرب وقابس • ولذياب بطون اخرى ناجعة في القفر ومواطنهم منزاحة الى جانب الشرق عن مواطن الوشاحيين • ومنهم آل سليمان ومواطنهم مغو وغريان ورئاستهم في ولد نصر • ومنهم آل سالم ومواطنهم بلد مسراته الى لهد ومسلاته • وبطون آل سالم الاحامد والعمائم والعلاونة واولاد مرزوق • والرئاسة فيهم لاولاد مرزوق • والعلاونة مجاورون للعدة من عرب برقة والمشابنة من هوارة • وتجاذب

(١) ص ٨٤ – ٨٨ ج ٦

دياب في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة وهم بطون من ناصرة بن خفاف ومواطنهم بلاد فزان وودان • ويجاور بني دياب من ناحية الشرق عرب العزة الذين يقول البعض انهم من بقايا الكعوب ببرقة والبعض انهم من الهلاليين والبعض انهم من هبيب • وشيخهم ابو ذئب من بني جعفر • ويحمد ركاب الحج المغربي سيرتهم حيث يجلبون لهم الاقوات ويظهرون لهم المودة •

وينتشر اليوم في انحاء القطر الليبي قبائل عربية كثيرة •

ولقد ذكر نعوم شقير في الجزء الخامس من كتابه تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيته [1] ان مجموعتين من قبائل عربية متوزعتان في الانتشار في الصحراء المصرية المغربية والقطر الليبي وهما المرابطون والسعادي ويمتد انتشارهما الى جالو والكفرة • والمرابطون اقدم من السعادي ويعرفون بالاصدقاء والصدقان • واهم قبائلهم زوي والمجابرة واولاد اوجلة والمنفة والموالك والشواعر والجرارة والقطعان والقبائل والحونة والتراكي ومسراته والشهيبات والفواخر وترهونة والعوامة والصوانعة والسلاطنة وسعيط والقدادفة • أما السعادي فهم فريقان فريق يسكن الصحراء من حدود النيل الى بني غازي ويقال لهم اولاد سعدي وآخر يسكن الصحراء من بني غازي الى حدود جالو • واولاد سعدي ثلاثة فروع رئيسية هي عقار وجبريل وبرغوت • وكل منها متفرع الى فروع ايضا • وفروع عقار هي اولاد علي والحرابي والهنادي وبنو عونة • وفروع جبريل هي العواقير والعربيات والمغاربة والجوازي • وفروع برغوت هي العبيد والعرقة والفوائد • ومن فروع اولاد علي علي الاحمر وعلي الابيض • ومن علي الاحمر القنبشات والعشبات والكميلات ومن علي الابيض السنافرة واولاد خروف والسننا • ومن السننا عروة ومحيفظة • ومن فروع الحرابي البراعصة

---

(١) ج ٥ ص ٧٢٥

والحاسة والدرسة والعبيدات • اما الفريق الثاني الذي ليس من اولاد سعدي فهم قبائل الفرجان والحسون واولاد ابي سيف ورفلا والمحاميد والمفارحة واولاد سليمان والرماح •

ومما ذكره شقير ان قبائل السعادي حينما طرأت على هذه البلاد غلبت فيها قبائل المرابطين التي كانت فيها قبلها وفرضت عليها جزية سنوية وان قبائل السعادي تقاسمت فيما بينها قبائل المرابطين فصارت كل قبيلة من الاولى هي التي تتقاضى الجزية من القبيلة التي خصصت لها واسم الاصدقاء او الصدقان الذي تتسمى به قبائل المرابطين آت من اختصاص كل قبيلة من قبائلها بقبيلة من قبائل السعادي على اعتبار انها صديقتها او حليفتها او ربيبتها •••

وقد ذكر راسم رشدي في كتاب له اسمه « طرابلس الغرب في الماضي والحاضر » مطبوع طبعة ثانية عام ١٩٥٣ قبائل اولاد سعدي والمرابطين هذه كقبائل منتشرة في ليبية وقال ان الاولين ينتمون الى بني هلال والآخرين الى بني سليم دون ما بيان آخر ودون ان يعزو ذلك الى مصدر (١) •

ولنقولا زيادة رسالة عنوانها « برقة الدولة الثامنة » فيها تأييد لما تقدم مع زيادة بيان ايضا • ومما قاله (٢) ان السعديين اعلى في السلم الاجتماعي وهم الذين يملكون الارض والماء وان المرابطين يشتغلون في هذه الاراضي • منهم من يفعل ذلك بقوته وهم الاقوياء ومنهم من يفعله باذن من السعديين الذين يتقاضون مقابل الاذن الهدايا والاتاوات وان القبائل السعدية تسع على اساس منازلها من الشرق الى الغرب ، وهي العبيدات ، وعائلة فائد ، والحسا ، والبراعصة اولاد احمد ، والدرسة والعبيد وعرفة والعوافير والمغاربة ، وان القبائل الاربع

---

(١) ص ١٨

(٢) ص ٢٢ — ٢٨ مؤلف الكتاب هو اليوم استاذ في جامعة بيروت الاميركية والرسالة مطبوعة عام ١٩٥٠

الاولى تجمعها تسمية واحدة هي الجبارنة بينما تجمع القبائل الخمس الاخرى تسمية واحدة هي حربي ، وان المرابطين ينقسمون الى نوعين يشمل الاول منهما مرابطي العصا ومرابطي الزبال ومرابطي الصدقة ، وهؤلاء هم الضعفاء الذين يخضعون فعلا للسعديين ويدفعون لهم الخاوة ويعترفون بسيادتهم عليهم . والنوع الثاني يسمى مرابطي البركة او الفاتحة ، وهم يدعون نسبا شريفا ولا ينزلون عند ارادة السعديين لان لهم عصبية وقوة ، وهم قبائل المنفة والقطعان والحوطة في الشرق والفواخر والزوبة في الغرب . ثم قال : واكبر قبائل برقة (العبيدات) وعددهم ٣٠٤٥٠ منهم ٨٦٠٠ من المرابطين التابعين لهم والباقون من السعديين . ووطنهم يمتد من حدود مصر الى اواسط النتوء الكبير الذي يدخل في البحر المتوسط من برقة وفي جزء من الجبل الاخضر . وقلما يعدو ظعنهم ١٥٠ كيلو مترا الى الجنوب . ويلي العبيدات في العدد (العوافير) وعددهم ٢٧٥٠٠ منهم ٦٣٤٠ من المرابطين .ويقطنون المنطقة الممتدة من طوكرة الى دريانة في الجبل الاخضر الى الابيار . ويشمل وطنهم جزءا من برقة البيضاء . ويليهم (البراعصة) وعددهم ٢١٠٠٠ منهم ٤٨٤٠ من المرابطين . ويقطنون منطقة متوسطة في الجبل الاخضر تمتد شمالا جنوبا . ثم (الدرسة) وعددهم ١٨٨٥٠ منهم٣٣٤٠ من المرابطين . وينزلون في منطقة الساحل طولها ١٢٥ كيلو مترا من طلميثة الى الشرق . ثم (المغاربة) وعددهم ١٣٠٠٠ منهم ١٠٠٠ من المرابطين . وهم منوزعون بين برقة وطرابلس واكبر مراكزهم اجدابية . ثم (عرفة) وعددهم ٩٣٠٠ منهم ٧٠٠ من المرابطين ويقطنون الساحل ثم (العبيد) وعددهم ٦٨٥٠ منهم ٦٠٠ من المرابطين ويقطنون جبل العبيد وهم قسم من الامتداد الغربي للجبل الاخضر . ثم (الحسا) وعددهم ٦٥١٠ منهم ٥٧٠ من المرابطين ويقطنون الجزء المتوسط من النتوء الساحلي حول سوسة وشحات . ثم (عائلة فايد) وهي قبيلة صغيرة لا يزيد عددها عن مئة ولكنها كثيرة التنقل ولها اقارب في الفيوم

وتقطن عادة بين العبيدات شرقا والبراعصة غربا والحسا شمالا • ومجموع العدد ١٣٣٥٦٠ •

أما المرابطون المستقلون عن السعديين فيبلغ عددهم نحو خمسين الفا • وقبائلهم الكبيرة ست وهي (القطعان) وعددها ٥٨٠٠ و (المنفة) وعددها ٥٤٠٠ و (الشواعر) وعددها ٣٤٠٠ و (عوامة) وعددها ٣٨٢٠ و (زوية) وعددها ٣٧٠٠ و (الفواخر) وعددها ٣٢٨٠ •

وهكذا يكون المجموع ١٨٣٥٦٠ • وقد قال زيادة ان هذا هو حسب تقدير اغوستيني (وهو مؤلف طلياني) وان ارقامه هي على ما يعتقد دون الرقم الصحيح الذي يزيد عن المئتي الف •

ومما ذكره زيادة ان معظم هذه القبائل يعيشون في مضارب كسائر البدو في الاصقاع العربية • غير ان منهم وخاصة الاثرياء من يقيمون بعض اوقاتهم في بيوت من الحجر في القرى والمدن التي تقع منازلهم في مناطقها •

والاسماء المذكورة هي اسماء القبائل التي تقطن في منطقة برقة • وفي ليبية منطقتان شاسعتان اخريان وهما طرابلس وفزان • وقد ذكر الاستاذ زيادة في محاضراته التي القاها في معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٨ عن تاريخ ليبية وجغرافيتها (١) بالاضافة الى ما جاء في رسالته السابق ذكرها انه يوجد في منطقة طرابلس عدد من القبائل العربية التي تنتسب الى بني هلال وهي (اولاد شكر) ويقيمون في مسلاتة وسهل الاحاميد وزليطن و (الرياحة) ويقيمون في سكنة وزليطن ومصراتة و (اولاد شبل) وينزلون الزاوية وطرهونه وغماتة والغريان و (المهادي والمحازرة وبنو عامر وبنو كروة) وينزلون في طرهونة وتورغة وحفارة وزليطن • وهناك عدد آخر من القبائل ينتسبون الى

---

(١) نشر المعهد هذه المحاضرات في كتاب في سنة ١٩٥٨ بعنوان محاضرات في تاريخ ليبية انظر ص ١١ - ١٦

بني سليم وهي (بنو عوف) و (بنو هيب) و (بنو ليد) و (المعاقل) و (بنو غشم) • ومن هؤلاء من ينزل في الغريان وطرهونة ومصراته • ومنهم من يتنقل بين سكنة وساحل سرت وارفلة وفزان •

وهكذا انتشرت القبائل العربية في هذا الاقليم انتشارا واسعا • وربما بلغ عددها ثلث سكانه او اكثر • وهذا بالاضافة الى ما امتصته المدن والارياف من القبائل والارومات العربية الصريحة التي اخـذت تطرأ على هذا الاقليم منـذ حركة الفتح الاولى واستمرت بـدون انقطـاع •

وهناك كتاب لمؤلف انكليزي اسمه ايوان برتشارد من اساتذة اوكسفورد عنوانه السنوسية في سير نايكا فيه بيانات مفيـدة اخرى في صدد القبائل العربية البدوية في ليبية • ويستفاد منها (١) ان كـل هذه القبائل منتسبة للطريقة السنوسية وزواياها ، وان معايشها تقوم في الدرجة الاولى على تربية الماشية وعندها قطعان كبيرة من المـاعز ثم الضأن ثم البقر ثم الابل ، وانها تنتقل في المواسم طلبا للماء والكلأ وان اصحاب الابل فقط ينتجعون مسافات بعيدة دون اصحاب الغنم الذين تكون نجعتهم قصيرة حيث يتوفر الكلأ في الهضبات وغـاباتها ، وان كثيرا من القبائل يفلحون الارض بالاضافة الى تربية المـاشية ، وان قبائل الهضبة مثل الدرسة وعرفة والحسا وبعض فروع العبيدات والعواقير يعيشون عيشة شبه مستقرة • وان القبائل الرحالة اكثر نشاطا واستقلالا واستعدادا للحرب ، ومما قاله المؤلف ان قبائل ليبية وخاصة برقة هم عرب خلص اكثر من اهل مصر والسودان وطرابلس وان العنصر البربري القديم قد امتزج بهم امتزاجا تاما ولم يبق منهم من يتكلم البربرية الا اقلية ضئيلة في واحة اوجلة النائية وحتى هذه الاقلية ثنائية اللغة ، وان قبائل ليبية وخاصة برقة مرتبطون بمصر وجزيرة العرب

(١) انظر فصل البدو في الكتاب ص ٢٩ ــ ٦١

وبلاد الشام اكثر منهم بالمغرب ، وان بعض فروع مجموعة الحربي هاجروا الى مصر واستقروا في مديريات الشرقية والغربية والفيوم وبني سويف والبحيرة والمنيا . منهم جماعة من فرع الهندي من بني سلام واخرى من اولاد علي من الجوازي من العواقير ، ومع انه يقع احيانا بين القبائل منازعات واختلافات غير ان تضامن المجاميع قوي ازاء المجاميع الاخرى ، وتحترم كل قبيلة مواطن غيرها ومزارعها ومراعيها وآبارها وعلامات ماشيتها وقبورها . وتنقسم كل قبيلة عادة الى فروع رئيسية ثم تنقسم هذه الفروع الى فروع وفروع فروع . ولكل قبيلة شيخ عام ثم لكل فرع ولكل فرع فرع شيخ خاص ايضا .

وقد اورد هذا المؤلف احصاء لبعض فروع من المرابطين لم يرد في كتابي زيادة هو كما يلي :

السائط ٢٩٠٠ والمجايرة ٢٥٠٠ والمسامير ٢٤٠٠ والاواجلة ٢٣٠٠ واولاد الشيخ ١٦٥٠ والعقيل ١٤٠٠ والشهيبات ١٣٥٠ والسراحنة ١٢٥٠ والقبيل ١١٥٠ والحوطة ١١٥٠ .

— ٣ —

لمحة في تاريخ الحكم وتطوره في هذا القطر
قبل الاستيلاء التركي

ولقد كان حكم هذا القطر في عهد الخلفاء الراشدين منوطا بوالي مصر الذي كان يعين عماله • وخضع على هذا المنوال للسلطان الاموي ثم للسلطان العباسي في اول عهد العباسيين • وفي اواسط القرن الثاني للهجرة قام ابن السمح المغافري العربي بحركة على رأس انصار له في ظل فكرة الاباضية الخارجية فاستولى على الحكم فيه فترة من الزمن [١] ثم دخل في حكم بني الاغلب الذين تولوا حكم المغرب الاوسط على ما مر في سيرتهم الخاصة ، وكانت الخطبة في هذا القطر والمغرب الاوسط في عهدهم للخلفاء العباسيين • وكان يقوم في ليبية من آن لآخر في عهد الاغالبة حركات تمردية من قبل عناصر عربية تارة وعناصر بربرية اخرى ولكن الاغالبة كانوا يتمكنون من قمعها وادامة سلطانهم على القطر [٢] • وفي اواخر القرن الثالث الهجري انقسم الحكم في ليبية بين الاغالبة الذين كان مركزهم القيروان من غربها وابن طولون التركي الذي استبد بحكم مصر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري حيث استطاع هذا ان يبسط حكمه على منطقة برقة الى حدود طرابلس الغرب [٣] • ولم يكن هذا ليغير من صفة السيادة العربية العليا لان كلا الحاكمين كانا في ظل الخلافة العباسية ويخطبان لها •

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩١ — ١٩٢

(٢) تاريخ بن خلدون ج ٤ ص ١٩٦ — ٢٠١

(٣) سيرة ابن طولون للبلوي مطبعة الترقي في دمشق ص ٢٦٧

وظل الامر كذلك الى ان قامت الدولة الفاطمية في اواخر القرن الثالث في المغرب الاوسط ومدت سلطانها الى هذا القطر وحلت محل السلطان الاغلبي والسلطان التركي الذين كانا تحت السيادة العباسية. وقد ظل سلطانها موطدا في ليبية طيلة القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس [1] . حيث تمرد المعز بن باديس الذي كان يمارس صفة الحاكم العام على جميع المغرب باسم الفاطميين بما في ذلك القطر الليبي فانقطع السلطان الفاطمي عن هذا القطر وعاد اسم الخلفاء العباسيين على منابرها لان المعز اتصل بالخليفة العباسي القائم وحصل منه على تقليد بحكمه على ما شرحناه في مناسبة سابقة .

ولقد قدم في اواخر القرن الرابع (٣٨١ هـ) علي منصور بن بلكين الصنهاجي صاحب السلطان في اقليم تونس سعيد بن خزرون من زعماء مغراوة مغاضبا لاخيه ملك سجلماسة فتلقاه بالقبول والتكريم وعينه عاملا على بعض بلاده وفي سنة ٣٩١ هـ تقدم ابنه فلفول الذي خلفه في عمله الى نواحي قابس وطرابلس وكانت حالتها مرتبكة فتلقاه أهلها بالقبول فتولى الحكم فيها وبعث بطاعته الى الحاكم بامر الله الفاطمي فاقره على ما انبسط حكمه عليه من البلاد . واستمر الحكم يتعاقب في ذرية هذا ردحا من الزمن مع شيء من الصيال بينهم وبين الملوك الصنهاجيين . وفي زمن المنتصر احد امراء بني خزرون جاء بنو هلال وبنو سليم الى افريقية فتألفهم وتحالف معهم واستعان بهم على توطيد حكمه وتوسيع رقعة سلطانه [2] . وظل امر ابن خزرون مستقيما الى الربع الاول من القرن السادس حيث وهن وكانت حالة الدولة الفاطمية ايضا واهنة فاغتنم روجار صاحب صقلية الفرصة واخذ يغير على ثغور المغرب الاوسط وتمكن من احتلال بعضها ومن جملة ذلك ثغر طرابلس سنة ٥٤١ هـ وامتد احتلاله نحو اثنتي عشرة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٤ — ٦٢

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٩ — ٤٤

سنة . وكان نجم الموحدين حينذاك قد اخذ يبزغ فثار اهل هذا الثغر بالصقليين واستطاعوا ان يجلوهم عنه بمساعدة الموحدين سنة ٥٥٣ هـ فدخل القطر الليبي لفترة من الزمن في سلطان الموحدين [١] . وفي سنة ٥٦٨ هـ سير صلاح الدين الايوبي الذي صار الحكم له في مصر قائدا اسمه قراقش نحو ليبية فاستولى على واحات سيوه واوجلة وزويلة وقضى على امارة بني الخطاب الهواريين المحلية في فزان ثم اتجه نحو طرابلس فاجتمع عليه بنو ذياب وساعدوه على فتحها . فعاد بذلك السلطان الى مصر على هذا القطر [٢] . ومع ان الدولة الحفصية استطاعت ان تبسط سلطانها عليه [٣] . فان السلطان لم يلبث ان عاد الى مصر في عهد دولتي مماليك الترك ومماليك الشركس دون تطور مهم [٤] .

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وترجمة ابن غليون التركية المطبوعة سنة ١٢٨٤ هـ ص ١٠ – ١١

(٢) انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ – ١٩٢ وحياة صلاح الدين للبيلي ص ٩٦ وترجمة ابن غليون ص ١٣ – ١٤

(٣) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٠ وترجمة ابن عليون ص ١٥ وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص ١١٠ – ١١١

(٤) انظر سيرة الدولتين في تاريخ ابن اياس . انظر ايضا كتاب طرابلس الغرب في الماضي والحاضر طبعة ثانية ص ٦٠ – ٩١ ومحاضرات في تاريخ ليبية لنقولا زيادة حتى احتوى الكتابان نبذة في تاريخ الحكم الى زمن التغلب التركي متطابقة اجمالا مع ما ذكرناه.

— ٤ —

عهد التغلب التركي في هذا القطر

وفي سنة ٩١٦ هـ استولى الاسبان على ثغر طرابلس اغتناما لفرصة انشغال ملوك مصر الشركس بنضال مع الدولة العثمانية فانسحب اهله الى الداخل [١] • وبعد قليل انتصر السلطان العثماني سليم على السلطان الشركسي قانصوه في مرج دابق (٩٢٢ هـ) واستولى نتيجة لذلك على بلاد الشام ثم على بلاد مصر • فارسل اهل طرابلس وفدا الى الاستانة يستنجد بالعثمانيين وكان سليم قد توفي وحل محله ابنه سليمان فاستجاب هذا وارسل قائدا اسمه مراد فدخل الى القطر الليبي من ناحية مصر ووطد سلطان الدولة العثمانية على الانحاء الداخلية سنة ٩٢٦ هـ [٢] • وفي سنة ٩٥٨ هـ تمكن الاسطول العثماني من الاستيلاء على طرابلس واجلاء الصقليين عنها فغدت هذه المدينة منذئذ مركزا للولاة العثمانيين [٣] • وقد ظلت منطقة فزان خارجة عن سلطان الدولة العثمانية الى سنة ٩٩٠ هـ حيث تمكن واليها من توطيد حكمه عليها فغدا القطر الليبي جميعه في نطاق سلطان هذه الدولة •

على ان هذا السلطان لم يلبث ان غدا اسميا الى منتصف القرن الثالث عشر الهجري • فان الحامية التركية اخذت تتدخل في شؤون الحكم حتى عطلت سلطات الوالي وصارت تنتخب من رجالها اشخاصا لممارسة السلطان الفعلي بلقب الداي على نحو ما فعلت الحاميات التركية في تونس والجزائر • وكان منصب الداي ينتقل احيانا من الآباء

---

(١) ترجمة تاريخ ابن غليون السابقة الذكر ص ١٨

(٢) و (٣) نفس المصدر ص ١٩ — ٢٠ انظر كتاب محاضرات في تاريخ ليبية لنقولا زيادة ايضا .

للابناء . وقد سنحت فرصة لاسرة القارامانلي فتولى المنصب منهم سلسلة طويلة بدأت باحمد باشا فابنه محمد باشا فابنه علي باشا فابنه يوسف باشا فابنه علي باشا . وكان الدايات يمارسون الحكم في نطاق استقلالي واسع كأنهم ملوك او امراء . وقد لقب يوسف باشا القرامانلي نفسه في كتاب ارسله الى فيليب ملك فرنسة بامير المؤمنين ! ولقب نفسه في كتاب ارسله الى دولة السويد بلقب امير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين .

ولم يكن للدولة العثمانية الا الخطبة وشيء من المال احيانا . وكان لديهم قناصل من دول عديدة مثل بريطانية وامريكا وفرنسة وساردينيه وطوسكانا والسويد ودالماسيه الخ .. وكانوا يعقدون مع الدول من معاهدات لتنظيم شؤون التجارة والملاحة والقرصنة والرق وكان ينشب بينهم وبين بعض الدول منازعات تجر الى قتال في البحر والبر واسرى وغنائم ثم تسوى بمعاهدات صلحية . وكانوا يتقاضون مخصصات سنوية من الدول لقاء السماح لقناصلها بالاقامة في طرابلس الغرب والتعامل التجاري والملاحي معها . وكانوا يتبادلون الرسائل مع ملوك اوروبا ورؤسائها الخ الخ ، مما اورد ابن غلبون بيانات كثيرة في صدده من جملتها نصوص معاهدات بين ولاة طرابلس ودول امريكا وبريطانية وفرنسة وطوسكانا والسويد ودالماسيا لم نر طائلا في ايرادها (1) . وكانت بريطانية وفرنسة تتنافسان على النفوذ وكان النفوذ الاقوى اولا للاولى ثم صار للثانية .

ولقد كان يقع خلال ذلك فتن ومنافسات ومنازعات بين زعماء القطر من ناحية وزعماء الترك والولاة من ناحية تراق فيها احيانا الدماء وترتبك بسببها الاحوال . وقد ذكر ابن غليون في سياق ذلك اسم قبيلتين عربيتين كبيرتين اصطدمتا مع الولاة اصطدامات دموية بزعامة شيوخها . وهما قبيلتا بني نوير وابي سيف (2) .

---

(1) ترجمة تاريخ ابن غليون ص ٢٤ — ١٢٣

(2) نفس المصدر ص ٨٢ — ٨٣ و ٩٠ و ١١٧

ولقد اغتنمت الدولة العثمانية الفرصة فـارسلت سنة ١٢٥١ هـ بارجة حربية عليها كتيبة عسكرية نظامية ووال جديد فلما وصلت احتال قائد البارجة على الداي علي باشا القارامانلي حيث دعاه الى البارجة مع عدد من رجاله ورجال الحامية واعتقلهم واخذهم الى الاستانـة ثم نزل الوالي مـع الكتيبة العسكرية فتمكن مـن استـلام الحكم وممارسته [١] • ومن ثم اخذت هيمنة الدولة وسيطرتهـا تنبسطان شيئا فشيئا على القطر وتطبق فيه الاساليب التنظيمية الادارية الحديثـة التي اخذت تطبق في هذا الظرف في البلاد الاخرى على انقاض الحكم الاقطاعي على ما نوهنا به في الجزئين الاول والثاني من الكتاب حتـى غدا القطر بمثابة ولاية كسائر ولايات الدولة مرتبطة بالاستانة • وتعين سلطاتها العليا ولاتها وقضاتها وموظفيها ، وضباط حامياتها وتنفذ فيها قوانين الدولة وتجبي الضرائب بواسطة الجباة وتدفع المرتبات والنفقات ضمن ميزانية الدولة الخ الخ ، وهو مـا لم يتسن لها بالنسبة لقطري تونس والجزائر •

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣ ـ ١٥٥ وننبه على ان تاريخ ابن غليون يمتد الى سنة ١٢٨١ هـ غير ان توطد هيمنة الدولة على القطر الليبي وصيرورته ولاية عثمانية عادية باسم ولاية طرابلس الغرب واستمرار ذلك الى الاحتلال الطلياني الذي سيرد ذكره في المتن من الامور التي عاصرها وشاهدها مؤلف الكتاب . أنظر كتاب طرابلس الغرب في الماضي والحاضر لراسم رشدي ص ٩٢٠ ـ ١١٣ عن الحكم العثماني ومحاضرات في تاريخ ليبية لنقولا زيادة .

عزوة الطليان لهذا القطر ومصاولة اهله
معهم الى قيام المملكة الادريسية الحديثة

ولقد كانت الدولة الطليانية تطمح بالاستيلاء على هـذا الاقليم احتذاء بالافرنسيين الذين استولوا على الجزائر ثم على تونس ٠ وكانت تشجع زمرا من رعاياها على الهجرة اليه منذ اواخر القرن الثالث عشر الهجري والعمل فيه في مجال التجارة والزراعة حتى صار منهم في اوائل القرن الرابع عشر جالية كبيرة وخاصة في ثغر طرابلس ٠ وحينئذ اشتدت مطامعها واخذت تسعى في الحصول على موافقة الدول الكبرى على ان يكون نصيبها من بلاد الدولة العثمانية هذا الاقليم وتتحين الفرص لتحقيق مطامعها ٠ وقد عقدت مع فرنسة سنة ١٩٠٢ م اتفاقا تعاهدت به الدولتان على اطلاق الواحدة يد الاخرى ايطالية في ليبية وفرنسة في المغرب الاقصى ، ونالت وعدا من بريطانية بالاغضاء عن الخطوة التي قد تخطوها في سبيل ذلك ٠ وفي سنة ١٣٢٩ هـ ــ ١٩١١ م كانت الدولة العثمانية مشغولة بحرب في البلقان وكانت احوالها مرتبكة فاغتنمت الفرصة وسيرت حملة على ثغر طرابلس الغرب فاحتلته ٠ ورغم ما كان

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من كتاب طرابلس الغرب في الماضي والحاضر لراسم رشدي ومحاضرات في تاريخ ليبية لنقولا زيادة وصحائف سود عن الاستعمار الطلياني مطبوعة في عام ١٩٣١ م ونبذة من اعمال ايطالية في طرابلس الغرب لعبد الحميد محمود ورسالة في كفاح ليبية لبشير السعداوي ورسالة في تاريخ الاسرة الادريسية ومحاضر مجلس الجامعة العربية وتقارير امينها ومجموعة الاهرام لسني ١٩٤٨ ــ ١٩٥٣ وذكريات المؤلف الذي عاصر جميع الاحداث المذكورة فيها ، ومحاضرات في تاريخ ليبية وبرقة الدولة العربية الثامنة لنقولا زيادة .

من محاولات باسلة في سبيل صد هذه الحملة فقد اضطرت الدولة العثمانية الى التخلي عن سلطانها في هذا الاقليم للدولة الطليانية بموجب معاهدة صلح عقدت بينهما وقد تعهدت ايطالية فيها باحترام حقوق وحرية السكان وتقاليدهم القومية والاسلامية واموالهم واملاكهم ، غير انها لم تلبث ان نكثت بعهدها واخذت تسير في حكم البلاد على اسلوب استبدادي استعماري ارهابي وتشجع الطليان على الهجرة اليها وتنزع الاراضي الخصبة من يد اصحابها وتعطيها لمهاجريها وتنشيء لهم عليها القرى والمستعمرات وتجعل معظم الوظائف حكرا عليهم كما تجعلهم المسيطرين على تجارة القطر وصناعته ومعادنه الظاهرة والمكنوزة ومرافقه المتنوعة وتهمل شؤون التعليم والصحة بالنسبة للعرب اهمالا شديدا وتقيد حرياتهم الصحافية والانتقالية والاجتماعية وتحارب لغتهم ودينهم وبعبارة اخرى تترسم خطة تبديل وجه ولسان ودين هذا القطر العربي المسلم الى مستعمرة طليانية مسيحية مستعينة على ذلك بالنار والحديد والقوانين الشاذة على غرار سيرة فرنسة في المغرب الاقصى والجزائر وتونس [1] .

ولم يسكت اهل البلاد على الظلم الفادح والخطط الرهيبة فانبروا لمناضلة الطليان كما فعل اخوانهم في الاقطار الاخرى واستبسلوا في سبيل ذلك وقاسوا الاهوال وتعرضوا لاشد اساليب القمع والتنكيل والمصادرة .

ولقد قاد حركة النضال السيد احمد زعيم الطريقة السنوسية

---

(١) انظر تفصيلات من ذلك في كتاب طرابلس الغرب في الماضي والحاضر ص ١١٤–١٢٧ ورسالة عنوانها طرابلس الغرب في براثن الاستعمار الطلياني صحائف سود منقولة من رسائل اخرى ومطبوعة عام ١٩٣١ في دار المستقل للطبع والنشر والاعلان وكتاب نقولا زيادة المذكور آنفا .

بالنيابة [1] الى سنة ١٩١٧ م وامكن نتيجة لذلك من ايقاف الزحف الطلياني عن التوغل . وكانت السيطرة والحكم على معظم الانحاء الداخلية له وقد اتخذ خغبوب مركزا له وعين ابن عمه السيد محمد اميرا على برقة البيضاء والسيد محمد رضا اخا هذا اميرا على الجبل الاخضر .

---

(١) للسنوسية شهرة عظيمة عند الغربيين والشرقيين لما سجلته من احداث ومظاهر . فصار من المفيد كتابة نبذة عنها على ما جرينا عليه . وهي في اصلها وسيرتها طريقة اسلامية صوفية هدفت الى احياء الاسلام الصحيح ومحاربة البدع كالوهابية في نجد والمهدوية في السودان . ومؤسسها السيد محمد بن علي الحسني . واسمها مقتبس من اسم السنوسي احد اجداد السيد المذكور في قول ومن سنوسة اسم مدينة في الجزائر كان يقيم فيها اسرته في قول . ولقد ولد السيد المذكور عام ١٢٠٢ هـ ــ ١٧٨٧ م في اقليم الجزائر حيث كانت تقيم اسرته التي تنتسب الى الادارسة ملوك فاس الذين مرت سيرتهم . وتعلم العلم في فاس ودرس في جامعها الكبير واشتهر بقوة العارضة وفهم روح الاسلام الصحيح والدعوة اليه وانكار البدع والقول بالاجتهاد . وطاف بلاد المشرق والمغرب الاسلامية ولقي علماءها ومشايخها الصوفيين واخذ اجازات منهم ومن جملتهم السيد احمد الشريف. واقام في الحجاز ثلاث سنين ١٢٥٢ ــ ١٢٥٥ هـ وصار له فيها اتباع ومريدون وأنشأ لهم زوايا في ابي قبيس في مكة ــ وهي اولى زواياه ــ ثم في بدر وجدة والمدينة والطائف وينبع ثم عاد الىالمغرب . وكان الافرنسيون قد اعتدوا على الجزائر واستطاعوا ان يسيطروا على اطرافها فلم يذهب اليه واقام في ليبية يدعو بدعوته وأنشأ زاوية كبرى اسمها البيضاء في الجبل الاخضر ظلت مركزا له الى سنة ١٢٧٢ ــ ١٨٥٦ ثم انتقل الى جغبوب وأنشأ فيها زاوية كبرى واتخذها مركزا . وغدت مدرسة دينية عظيمة يؤمها الطلاب والمريدون من كل صوب . وأنشأ فيها مكتبة جمعت ثمانية آلاف مجلد . وصار يرسل منها الدعاة الى انحاء السودان وليبية فانتشرت دعوته واشتهرت طريقته . ومات سنة ١٢٧٦ فدفن في الزاوية . وخلفه على الطريقة ابنه السيد المهدي الذي وصلت الطريقة في عهده الى ذروتها انتشارا وقوة واتباعا وشملت بلاد كور وتبستي وبركو واندي ودارفور ووادداي وكانم وازقر وبغرمي بالاضافة الى القسم الاكبر من صحراء ليبية وغدا بمثابة الحاكم الروحي والزمني معا على هذه المساحة الشاسعة التي كان ينعتها كتاب الغرب بالامبراطورية السنوسية . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية في عهده ١٤٦ زاوية منها ٤٥ في منطقة برقة و ١٨ في منطقة

ولقد انحــاز الزعيم السنوسي في الحرب الى الــدولة العثمانية وحــاول بتحريضها غزو مصر التي كان يحتلها الانكليز فاخفق • وكان السيد محمد صاحب الامامة قد بلغ رشده فتخلى عنها له وهاجر الــى استانبول • وتولى هذا قيادة النضال الى ان جنح الطليان الى المسايرة

طرابلس و ١٥ في منطقة فزان و ٦ في واحة الكفرة و ١٤ في السودان و ٢١ في انحــاء مصر و١٧ في بلاد العرب ؛ ولقد كانت دعوة مؤسس الطريقة وابنه الى الدين والدنيا معــا والرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله وانكار سد باب الاجتهاد . ولم تكن الزوايا التــي أنشأوها والتي اكسبت السنوسية شهرتها وغدت مركز حياتها ملاجيء دراويش صوفيــين منقطعين عن الحياة بل كان كل منها بمثابة مركز حربي دفاعي وتجاري من ناحية وحقــلا للزراعة والاستغلال من ناحية ومدرسة يتعلم فيها الطلاب ويتخرجون منها وعاظا ودعاة من ناحية وكانت تشتمل على اماكن يأوى اليها التجار والزوار وابناء السبيل ويكون لهم حق الضيافة فيها لثلاثة ايام على الاقل . وفيها قاعات لحفظ بضائع التجار وعرصات لجمال القوافل . وكانت الزوايا تقام عند الماء او يستنبط من ارضها . وتحاط بسور عليه حصون وابراج للدفاع عنها . ويقوم على كل منها شيخ متبحر في العلم راسخ في اصول الطريقــة والدعوة . وكان اتباع السنوسية يؤدون الى امامها زكاة اموالهم كما كان الامام يفرض عليهم حين الحاجة بعض الضرائب والتكاليف فيلبون امره ويرسلون اليه طلبه . وكــان السنوسيون في عهد المهدي طبقات . منهم المنتسبون وهم السواد الاعظم من اتباعالطريقة . ومنهم الاخوان او المريدون وهم الذين يقيمون في الزوايا اقامة دائمة يستغلون ارضهــا ويكونون عدة جهادية فيها وهؤلاء هم عمدة الطريقة . ومنهم شيوخ الزوايا الذين هم بمثابة قواد وحكام للمنطقة التي تقوم فيها الزاوية ثم طبقة الخواص التي كان يتألف منهــا مجلس السنوسية الاعلى برئاسة امامها . ولقد بدأ الافرنسيون ينشطون في السودان الغربي والاوسط بسبيل بسط سيطرتهم عليهما في عهد الامام المهدي فاصطدموا به وتشب بينهم وبين السنوسيين بقيادته نضال وقتال استمرا بقية ايام حياته . ولما حضرته الوفاة عــام ١٣١٩ هـ ــ ١٩٠٢ م كان ابنه السيد محمد ادريس قاصرا فعهد بزعامة الطريقة الى ابن اخ له اسمه السيد احمد بالنيابة عن ابنه . وقد قاد هذا حركة النضال ضد الافرنسيين ثم حركة النضال ضد ايطالية ثم تخلى عن الزعامة للسيد محمد ادريس بن الامام المهدي الذي قاد حركة النضال مع الطليان ثم تهادن معهم ثم استأنف النضال ضدهم قبل الحرب العالمية الثانية وفي اثنائها الى ان تم تحرير ليبية واعلان استقلالها وسيادتها على النحو المذكور في المتن . (انظر لاجل هذه النبذة كتاب برقة الدولة العربية الثامنة لنقولا زيادة).

ففاوضوه وعقدوا معه هدنة او صلحا قبلوا به ان يقفوا عند النقاط التي وصلوا اليها وان يحترموا في المناطق التي يسيطرون عليها حقوق المسلمين الدينية والمدنية وان يرفعوا ايديهم عن الزوايا السنوسية التي استولوا عليها ويعيدوها الى مشايخها ويرتبوا لهم مرتبات وان يوافقوا على امارة وسلطان الزعيم السنوسي في مناطق الكفرة وجغبوب وجالوا واوجلة التي لم يستطيعوا ان يسيطروا عليها • وقد مارس الزعيم الحكم والسلطان فيها وكانت اجدابية مركز امارته •

غير ان الطليان الذين كانوا يترسمون بسط سيطرتهم على جميع القطر ونهب خيراته نقضوا الصلح في عام ١٩٢٣ م فعاد النضال ثـانية وتعرض اهل البلاد والسنوسيون لضربات شديدة جديدة في هـذه المرحلة مما اضطر الزعيم السنوسي الى اللجوء الى مصر وقيادة حركة النضال منها التي كانت تشتد حينا وتخف حينا الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية التي دخلها الطليان الى جانب الالمان • وقد اتصل الزعيم بالانكليز واتفق معهم على التضامن في الحرب ضـد الطليان مقابـل اعترافهم باستقلال ليبية بزعامته • وقد الف الزعيم فرقة مؤلفة من اربعة عشر الف مجاهد يقودها مئة وعشرون ضابطا عربيا ليبيا واخذت تشترك في العمليات الحربية الى جانب قوات الحلفاء وابلت اعظم البلاء• وكان في الجيش الطلياني سبعة عشر الف مجند عربي ليبي فلم تكد الفرصة تسنح لهم حتى انفصلوا عن هذا الجيش وانضموا الى قوات الحلفاء ايضا فكان ذلك من اسباب انهيار المقاومة الطليانية الالمانية في جبهة شمال افريقية •

وحينما وضعت الحرب اوزارها هب الزعيم السنوسي ورجـال ليبية للمطالبة بانجاز الوعود المقطوعة لهم بالاستقلال • وناصرتهم الدول العربية والاسلامية في نطاق هيئة الامم المتحدة حتى تقرر في النهـاية ورغم ألاعيب السياسة الانكليزية الهادفة الى اتخاذ ليبية نقطة من نقاط ارتكازها الاستعماري في تاريخ ١٧ تشرين الثاني من عام ١٩٥٠ م بان

تكون ليبية دولة مستقلة ذات سيادة • وفي تاريخ ٢٤ كانون الاول ١٩٥١ م تم اعلان ليبية دولة مستقلة ذات سيادة بملكية السيد أدريس باسم المملكة الليبية المتحدة التي تألفت من مناطق برقة وطرابلس وفزان على ان يكون لكل منها استقلال ذاتي وفق دستور وضعته جمعية تأسيسية ليبية • ومنذ اول عام ١٩٥٢ صارت هذه الدولة حقيقة قائمة تمارس السلطان في هذا الاقليم العربي بزعامة ملكها العربي • وقد سارعت الى الانضمام الى جامعة الدول العربية فصارت الدولة الثامنة فيها •

ولقد احتل الانكليز في اثناء الحرب بعض المواقع الساحلية واحتل الافرنسيون بعض المواقع الداخلية واتخذ الاميركان لهم قواعد جوية في بعض المراكز ايضا • فلما قامت المملكة الليبية استغلت اميركا وبريطانية واقع احتلالهما من جهة وضعف الحالة الاقتصادية في المملكة الناشئة من جهة اخرى فراودوا الملك وحكومته وتمكنوا من عقد معاهدات معهم تتضمن الموافقة على هذا الواقع وتمنح الدولتين امتيازات متنوعة في نطاقه لمدة عشرين عاما مقابل مساعدات ومخصصات مالية سنوية مع اعتراف الدولتين بسيادة الدولة وعدم اعتبار ذلك الواقع احتلالا • وقد حاول الافرنسيون ان يستغلوا واقعهم الاحتلالي في منطقة فزان ويعقدوا معاهدة على اساسه فابت الحكومة الليبية وظلت تطالبهم بالجلاء حتى تم ذلك في سنة ١٩٥٦ م •

قصة الجزائر البـاسلة (١)

— ١ —

والآن نأتي الى قصة الجزائر الباسلة لنختم بها هذا الفصل •

كانت هذه البلاد منذ اواسط القرن الثامن الى اواسط القرن العاشر تحت حكم الدولة الزيانية • وفي اوائل القرن العاشـر اشتد ارتباك حالها نتيجة لاستشراء المنافسة والمنازعة بين امراء الاسرة المالكة فغزا القائد البحري التركي خيرالدين باربروس في عـام ٩١٠ ه ثغر الجزائر واستولى عليه وغـزا الاسبان في الوقت نفسـه ثغر وهران واستولوا عليه بدورهم • وقد استحصل خير الدين تقليدا من السلطان العثماني بولايته على ما يفتحه من هذه البلاد ثم اخذ يتصاول مـع الاسبان بسبيل استصفاء البلاد لحكمه • وخشي الملك الزياني ابو عبد الله محمد الثالث (٩١٠ ـ ٩٢٣) الذي كانت هذه المصاولة في عهـده من العواقب فاتصل بالاسبان دون الترك وعقد معملكهم فردينا ندمعاهدة نصت على قبول الحماية الاسبانية ، واداء جزية سنوية من الملك الزياني لاسبانية • وقد اتسع نطاق الحماية الاسبانية نتيجة لذلك حتى احتلوا مدينة تلمسان العاصمة وغيرها • ولما مات ابو عبد الله خلفه علـى العرش اخوه ابو حمو (٩٢٣ ـ ٩٣٤) الذي ظل خاضعا للحمـاية

---

(١) هذه النبذة مقتبسة من كتاب موجز تاريخ الجزائر العام للعكاك المطبوع سنة ١٣٤٤ ه ص ٣٧٦ ـ ٤٦٩ وتاريخ الجزائر للمـدني المطبوع سنة ١٣٥٠ ه ص ٣٢ ـ ٣٨ و ٣٩ ـ ٧٤ و ٢٤٨ ـ ٤٠١ وكتاب حول الحركة العربية للمؤلف ج ٢ ص ١٧٢ ـ ٢٠٦ والوحـدة العربية للمؤلف ص ١٥٦ ـ ١٧٠ و ٤٠٨ ـ ٤١٦ ومجموعات الاهرام لسني ١٩٥٠ ـ ١٩٥٩ م •

الاسبانية • وقد استطاع خير الدين باربروس بعد قليل من جلوس هذا على العرش ان ينتصر على الاسبان ويجليهم عن تلمسان ويحتلها • ومات ابو حمو في هذا الاثناء فخلفه على العرش اخوه ابو محمد (٩٣٤ ــ ٩٤٧) فتحالف مع باربروس وامكن تتيجة لذلك اجلاء الحاميات الاسبانية عن الاقليم الجزائري باستثناء ثغر وهران • وخضع ابو محمد للسيادة العثمانية • غير ان اخا له اسمه ابو زيان برز لمنافسته وتمكن من الانتصار عليه وخلعه والحلول محله (٩٤٧ ــ ٩٥٧) وقد ساعده الترك على ذلك • فحنق المخلوع واستنجد بالاسبان فسيروا حملة لاولى مرة وتحالف الترك مع ابي زيان وتمكنوا من هزيمتها فسير الاسبان حملة جديدة كتب لها النصر وتمكنت من اعادة المخلوع الى العرش • ولكن ابا زيان كر بدوره مع حلفائه الترك وتمكن من قتل اخيه والعودة ثانية الى العرش • ولما مات ابو زيان تولى العرش اخوه الحسن الذي كان عسوفا فاسقا فاجتمع العلماء وافتوا بخلعه فغادر تلمسان محنقا سنة ٩٥٧ الى وهران حيث اعتنق النصرانية ثم ارتحل الى الاندلس • ولم يقم بالملك بعده احد من الاسرة الزيانية فبسط الترك حكمهم على القطر في ظل سيادة الدولة العثمانية • وقد تمكنوا بعد قليل من اجلاء الاسبان عن وهران •

الحكم التركي

ولقد مارس باربروس الحكم على طريقة الاستقلال الذاتي التي كانت جارية في مختلف انحاء الدولة العثمانية في هذه الاثناء وظلت هذه الطريقة جارية في عهد الذين خلفوه ايضا بحيث كانت الحكومة الجزائرية اشبه بحكومة مستقلة •

ولقد تقلب الحكم في الجزائر في اطوار ، وكان يسمى الحاكم العام الذي كانت الاستانة ترسله بلقب بيلر بيي أي امير الامراء وكان هذا هو الطور الاول الذي امتد من سنة ٩٤٥ الى سنة ١٠١٥ (١٥١٩

ـ ١٥٨٧ م) ، ثم صار الحاكم العام يلقب بلقب الباشا وهذا هو الطور الثاني الذي امتد من سنة ١٠١٥ الى سنة ١٠٨٧ (١٥٨٧ ـ ١٦٥٩ م) ثم صار يلقب بلقب الآغا الذي كان يطلق على رئيس الجيش ولم يدم هذا الطور الا امدا قصيرا ، ثم صار الحاكم العام يلقب بلقب الداي وهذا هو الطور الرابع الذي امتد الى سنة ١٢٥٠ هـ ـ ١٨٣١ م حيث نكبت الجزائر بالغزوة الافرنسية في عهد آخر داياتها حسين داي [1] .

ولقد اخذ حكام الاقليم في الطور الرابع يتوسعون شيئا فشيئا في ممارسة الاستقلال في الحكم حتى غدوا بمثابة ملوك ولم يعد يربطهم بالدولة العثمانية الا الخطبة والسكة والجنس حيث كان معظم الولاة الذين تولوا الحكم خلال القرون الثلاثة التي اعقبت زوال الدولة الزيانية من العنصر التركي ، بل كان كذلك معظم الموظفين في الحكومة . غير ان هذا لا يعني ان الطابع التركي كان هو البارز . فقد تأقلم الترك الذين حلوا واستقروا في هذا الاقليم واندمجوا في العروبة التي كانت طابع هذا الاقليم البارز في جميع مشاهد الحياة ومظاهرها .

ولقد جاء وقت كان لحكومة هذا الاقليم قوات برية وبحرية محترمة فكان عدد سفن اسطولها المسلحة باربعين مدفعا (٧٢) والمسلحة بعشرين مدفعا فما دون (١٤٠) وعدد جيش الاسطول ثلاثين الفا ، وكان الاسطول يقوم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين باعمال القرصنة في البحر الابيض المتوسط على ما كان مألوفا اذ ذاك وعلى اعتبار ان هذه الاعمال نوعا من الجهاد في الكفار فتمتلأ يد رجاله وخزانة الحكومة معا بالغنائم والاسلاب .

وكان اقليم الجزائر بخيراته وثرواته وموقعه مما يثير مطامع

---

(١) لم نر فائدة في ايراد اسماء الحكام الذين بلغ عددهم في الطور الاول ٢٥ والثاني ٣٥ والثالث واالرابع ٢٩ ولم تجمع القرابة الا نادرا بينهم . انظر الباب السادس المعنون بعنوان الجزائر التركية في كتاب موجز تاريخ الجزائر العام للمكاك ص ٤١٩ ـ ٤٦٩

الدول الاوروبية • وقد تحرش به خلال القرنين المذكورين اكثر من دولة واكثر من مرة بحجة قمع القرصنة فلم تنل منه منالا •ولقد انكسر الاسطول الاسباني امام اساطيله مرة اشنع كسرة وغنم الجزائريون كل ما كان يحمله من سلاح وعتاد ومؤن • وقذفت الاساطيل الاوروبية مدينة الجزائر اكثر من مرة بمدافعها دون جدوى حيث كانت محصنة تحصينا قويا •

وفي ابان ثورة فرنسة الكبرى وتألب الدول الاوروبية عليها في اواخر القرن الثامن عشر مدت الجزائر العون الى فرنسة بالتموين واقرضتها بعض المال لتتمون به برغم مساعي الانكليز في صدها عن ذلك مما جعل نابوليون بونابارت ايام قنصليته يزجي شكر فرنسة الحار اليها • وفي سنة ١٧٩٥ م اعتدت سفينة اسبانية على سفينة افرنسية واسرتها على مقربة من مياه الجزائر فسير الداي بعض السفن واسترد السفينة وحمولتها •

العـــدوان الافرنسي

وكانت هذه الايادي مثيرة لطمع فرنسة ولؤمها بدلا من عاطفة عرفان الجميل فلم يكد ينتهي دور امبراطورية نابوليون ويستأنف البوربونيون حكمهم ثانية وتستريح فرنسة من شدائد المحنة التي مرت بها خلال اربعين عاما حتى اخذت تبيت الغدر للجزائر لتستولي على خيراتها وتكون لها مستعمرة ومستغلا • فسلمت سرا بعض المراكز التجارية التي منحها اياها الداي توطيدا لصلات الود ، واستسنحت فرصة انشغال الاسطول الجزائري في الحرب العثمانية اليونانية التي استمدت الدولة العثمانية فيها العون من الجزائر كما استمدته من مصر ، فاصدرت تعليماتها لقنصلها بخلق فرصة مناسبة • وفي نيسان سنة ١٨٢٧ خاطب الداي القنصل بلهجة حادة محتجا على عدم اجابة حكومته

على بعض مطالبه ورسائله فاجابه القنصل اجابة مهينة اثارت غضبه وجعلته يضرب وجه القنصل بمروحته ويطرده من حضرته ، فكانت هذه المناسبة المنشودة فارسلت فرنسة الى الداي انذارا ليعتذر عن فعلته مع القنصل باسلوب صعب القبول فرفض فاعلنت الحرب والحصار على الجزائر ، واخذت تعد العدة للغزو . وكانت السفن الجزائرية التي تحارب في مياه اليونان قد تحطمت مع ما تحطم من الاسطولين العثماني والمصري في واقعة نافارين فاضعفها ذلك امام الحملة الافرنسية القوية التي أعدت وسيرت عام ١٨٣٠ ، وكانت مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه (١٠٣) ومدافعه (٣٠٠٠) ومن جيش مقاتل عدته (٤٠٠٠٠) واسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد عدد سفنه (٤٠٠) ، وودع الملك شارل العاشر الحملة بخطبة صليبية دلت على الروح التي كانت تحفز فرنسة الى البغي جاء فيها فيما جاء « ان العمل الذي ستقوم بها الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير لفائدة المسيحية كلها » .

وقد استطاع الافرنسيون ان يتغلبوا على مقاومة الداي وان يحطموا خط الدفاع ويستولوا على معسكراته ويحاصروا قلعة الجزائر ، ودافعت القلعة دفاعا باسلا حتى هلك معظم الحامية وحينئذ اشعل الباقون النار في مخزن البارود فانفجر واندك البرج حتى لا بستولي الافرنسيون عليه سليما . واشتد الموقف فطلب الاعيان من الداي مفاوضة الافرنسيين فأبى هؤلاء الا التسليم المطلق . ولم يكن للداي بد من ذلك فوقع على صك التسليم او المعاهدة التي نصت على تعهد القائد باحترام حرية الداي في البقاء او الرحيل مع جميع ثروته وحمايته اذا بقي وعلى مثل ذلك بالنسبة لافراد وجاق الجزائر (الجيش) وحرية الشعائر الدينية الاسلامية وحرية جمع السكان واحترام املاكهم وتجارتهم وصناعتهم ونسائهم . وهكذا انتهى حكم العنصر التركي بعد ان امتد نحو ثلاثة قرون ونيفا . وقد فضل الداي الرحيل فرحل الى ايطاليا

واستولى الافرنسيون على مدينة الجزائر وعلى ما وجدوه في خزائنها من اموال وسلاح وعتاد عظيم المقدار • ولم يلبثوا ان نقضوا عهدهم فاعملوا يد النهب والسلب والقمع وانتهاك الحرمات مما اضطر كثيرا من اهل المدينة الى مغادرتها والنزوح الى داخل البلاد •

ولقد حاول الداي حسين ان يكر على الجزائر حينما رأى نقض فرنسة لعهودها واعمالها يد النهب والمصادرة واتصل باهل البلاد وجمع هؤلاء له بعض المال وارسلوه وجهز وسلح ثلاث سفن وارسلها واحدة بعد اخرى بقيادة بعض رجاله فكان الافرنسيون يستولون عليها تباعا مما جعله ييئس ويرحل الى الاسكندرية حيث اقام فيها الى ان وافته منيته سنة ١٨٣٨ م [١] •

ولقد كان تصرف الحملة بعد استيلائها على مدينة الجزائر باغيا بربريا لم يرع فيه عهد ولا ذمة ولا شرف مما كان مثار دهشة ونقد من قبل لجنة عينها الملك سنة ١٨٨٣ م أي عقب احتلال الجزائر لتفقد الاحوال وتنوير الحكومة حيث احتوى تقريرها فضائح يندى لها الجبين ومظالم تقشعر لهولها الجلود لم يكن لها موجب لان البلاد قد استسلمت للغزاة حسب طلبهم ووفقا للمعاهدة التي وعدوا بها برعاية واحترام حرية اهلها وحقوقهم وشعائرهم واملاكهم ، ولم يكن لها هدف الا الارهاب والسلب • ومما جاء في تقرير اللجنة ان الانسان لو تأمل لحظة في الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى ان ذلك لم يكن مخالفا للعدالة فقط بل للعقل ايضا حيث اننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب ابسط حقوق الشعور الطبيعية تجاهلنا كل المصالح فلم نراع حرمة العادات والارواح واضفنا الى ملكية الدولة املاك المؤسسات الدينية وصادرنا املاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجور على الاملاك الخاصة

---

(١) انظر اسباب الغزوة الافرنسية وخطواتها الاولى وحركة الداي حسين في كتاب تاريخ الجزائر للمدني ص ٢٩ ـ ٥٠ و ٥٤ ـ ٥٦

دون أي مقابل ثم اجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مساجدهم !

ولقد ارسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجالا لم تثبت ادانتهم ولم تجر محاكمتهم وذبحنا جماعات بصورةجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم • ووجد مناقضاة لم يتورعوا عن محاكمة رجال مشهورين بسمعتهم الطيبة لان شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين • ووجد منا رجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الاعدام فيهم ، والقينا في غياهب السجون المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجىء ومؤن • ولقد اطلقنا على الخيانة والغدر اسم المفاوضة وجعلنا منها كمينا للغدر والتقتيل •

ولقد وصف القنصل الافرنسي في تقرير له عن مذبحة مروعة اوقعها جيش الاحتلال في نيسان عام ١٨٣٢ في منطقة الولايقة لمجرد شكه في اختطاف افراد ينتسبون الى قبيلة موالية فقال ان الجيش فاجأ القبيلة عند بزوغ الشمس فذبح جميع افرادها بدون تفريق بين شاب وشيخ وذكر وانثي وعاد الجند يحملون رؤوس ضحاياهم على رماحهم• وقد عرضت مسلوبات المذبوحين للبيع فشوهدت اساور النساء في معاصمهن المبتورة التي ظلت الاكف الدامية عالقة بها واقراطهن متدلية ببقايا الآذان التي قطعت [١] •

ولقد اثارت تصرفاتهم الوحشية اهل البلاد فبادروا الى النضال ضدهم مبكرا • وكانت اولى وأهم حركاتهم النضالية حركة الامير عبد القادر الحسني • وقد كان ابوه فقيها له زاوية يؤمها طلاب العلم فجاء اليه عرب الحشم وبني عامر وعرضوا عليه البيعة على الجهاد فاشار عليهم بولده عبد القادر لما كان عليه من مضاء عزيمة ونشاط

---

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب حول الحركة العربية الحديثة ص ١٧٦ ــ ١٧٧!

فبايعوه بيعة شرعية بالامارة وعاهدوه على السمع والطاعة والجهاد تحت لوائه . وكان ذلك سنة ١٨٣٢ م فأنشأ حكومة في منطقة تلمسان واتخذ هذه المدينه عاصمة لها . فكان ذلك تدشينا لقيام سلطان عربي في هذه البلاد بعد طول انقطاع وان لم يستمر طويلا .

ولقد اخذ يتصاول مع الافرنسيين بقوة وبسالة حتى ضاقوا به ذرعا وجنحوا الى الاعتراف بامارته وسيادته سنة ١٨٣٧ وعقدوا معه معاهدة . وقد فعلوا ذلك ريثما يوطدون اقدامهم في البلاد ويقضون على ما قام في بعض انحائها . من اضطرابات وتمرد . فلما تم ذلك عادوا اليه واخذت تدور بينه وبينهم المعارك . وظل يصول ويجول ويكر ويفر معهم حتى انهكت قواه وفقد القدرة على الاستمرار سنة ١٨٤٧ م ، ولم يبق له مناص من الاستسلام فسلم نفسه لهم حيث ابقي في فرنسة اسيرا الى سنة ١٨٥٢ ثم غادرها الى تركية ثم الى دمشق حيث توفي فيها وكان عالما فصيحا وكريما سمحا فشغل حيزا عظيما في قلوب الناس بقية المدة التي قضاها من حياته في المدينة العربية الاخيرة .

وكان من اسباب ما وصل اليه امره من العجز الدسائس الافرنسية التي انبثت في القبائل العربية التي كانت مناصرة له حتى نجحت في تخذيل بعضها عنه وفي انقلاب بعضها عليه . وانضم الى هذا السبب الجوهري ان الافرنسيين كشروا نابهم لسلطان المغرب الاقصى الذي كان يعطف على حركة الامير عبد القادر ويسمح له بالتزود والاستجمام في ارضه وانذروه فخاف من العواقب وسد حدود بلاده في وجه الامير المجاهد (١) ...

ولقد سلكت القوات الافرنسية في حروبها مع الامير وفي قمعها مقاومة الوطنيين في انحاء الجزائر في اثناء عهد الامير من سبل الشدة والقسوة والتدمير والتحريق والفتك والنهب مما سجلته مذكرات قواد

(١) انظر سيرة الامير ومصيره في كتاب المدني المذكور سابقا ص ٥٠ ــ ٥٣

فرنسة وضباطها وكتابها ما كان وظل وصمة عار علـى فرنسة خـاصة والانسانية عامة [١] .

ولقد اختطت فرنسة لهذا الاقليم العربي خطة رهيبة غايتها تبديل وجهه ولسانه ودينه ، وسبيلها الافقار والتجهيل والقضاء على المقومات الدينية والاجتماعية والقومية واثارة النعرات المحلية . وعدتها الارهاب والتنكيل والتبشير والقذف بشذاذ الآفاق مـن لافرنسيين العاطلـين والمتبطلين الذين ضاقت بهم بـلادهم واختصاصهم بخـيرات الجزائر وبركاتها وثوراتها من ارض وتجارة ومعادن واعدادهم ليكونوا ايـد المعوانة على تلك الخطة الرهيبة ، واخذت تطبقها منذ عهد مبكر دون ان ترعى في ذلك أي معنى من معاني الرحمة والانسانية والحق والمنطق والقانون والمواثيق الدولية .

ومما فعلته استصدار قانون من الجمعيـة الوطنية الافرنسيـة في سنة ١٨٤٨ باعتبار الجزائر ارضا افرنسية [٢] وتطبيق قوانين فرنسة عليها دون منح الحقوق السياسية لاهلها وهو ما لا يمكن ان يـدخل في منطق غير منطق الاستعمار الافرنسي الذي اختط تلك الخطة الرهيبة لان القرار يعني جعل الجزائر ملكا للشعب الافرنسي ارضا وسكانا .

وهكذا الغت فرنسة بهذا القرار التعسفي الجائر شخصية الجزائر السياسية والقومية وحرمتها من أي شكل من اشكال الحكم الوطنـي المتميز [٣] . وقسمتها الى محافظات جعلت على رأسها حكاما افرنسيين ثم جعلت على رأس القطر حاكما افرنسيا عاما . ثم اخذت تزعم بكـل قحة واصرار ان الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن الافرنسي برغم ما في

(١) انظر كتاب حول الحركة العربية الحديثة ج ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠

(٢) كتاب المدني ص ٥٧

(٣) لعل ظروف الغزوة هي التي جعلت فرنسة تقدم على ذلك . ولقد تغيرت الظروف فلم تفعل فرنسة في تونس ثم في مراكش اللتين اعتدت عليها في سنتي ١٨٨٢ و ١٩١٢ م ما فعلته من ذلك ! . . .

هذا الزعم من افتئات صارخ على كل منطق قانوني ودولي وواقعي لانه ليس بين الجزائر وفرنسة أي رابطة جنسية او تاريخية او لغوية او ارضية جغرافية .

وفي كتاب تاريخ الجزائر لاحمد توفيق المدني الذي طبع ونشر في الجزائر نفسها سنة ١٩٣١ أي بعد مرور مئة عام على الغزوة الافرنسية الباغية [١] تفصيلات وافية مريرة ومدهشة لما صارت اليه الجزائر تدل على ان الخطة الرهيبة التي اختطتها فرنسة قد سارت اشواطا عظيمة .

فنسبة الامية في العرب الجزائريين ٩٥ ٪ وعدد الطلاب الذين هم في مدارس الحكومة منهم (٦٠٠٠٠) من اكثر من مليون فتى في سن الدراسة . وهدف التعليم الرسمي ومنهجه هو تنشئة اجيال متفرنسة لا تعرف العروبة والاسلام . والحالة الصحية عندهم سيئة جدا . والامراض الخبيثة تفتك فيهم فتكا ذريعا [١] .

وقد بلغ عدد الذين جاؤوا الى الجزائر من الافرنسيين ٦٣٠ الفا . وقد اقطعتهم السلطات مليونا وسبعمائة الف هكتار من اراضي الدولة والبلديات باثمان اسمية ولآجال طويلة . وانتزعت من الاهالي بقوة القوانين الجائرة وباثمان بخسة مساحات كبيرة من الاراضي وسلمتها كذلك لهم وهذه المساحات تبلغ نحو مليون من الهكتارات . وهذه وتلك اجود واخصب اراضي الجزائر . ودليل ذلك ان متوسط قيمة الهكتار منها (٢٥٠٠٠) فرنك بحساب سنة ١٩٣٠ بينما متوسط قيمة الهكتار مما بقي في يد العرب (٣٠٠٠) فرنك . وتكاد كروم العنب تصبح حكرا على المستعمرين . ويملكون منها ما مساحته (٢٥٠٠٠٠) هكتار يستخرجون منها ما معدله مليون لتر من الشراب ، ولا يكاد العرب يملكون من كروم العنب شيئا . اما كروم الزيتون فقد غدا

---

(١) انظر الصحف ٥٦-٧٤ و ٢٤٨ - ٢٧٦ و ٢٨٠ - ٣٠٤ - و ٣٢١ - ٣٩٨

تصف ما في القطر منها ملكا للمستعمرين .

واستثمار المعادن حكر كذلك على المستعمرين وقد بلغ عدد الامتيازات التي منحت لهم لغاية سنة ١٩٢٧ مئة وسبعة وعشرين وبلغت قيمة ما اصدرته شركات الاحتكار منها في هذه السنة فقط مئتي ميليون فرنك .

ولقد أنشأ المستعمرون شركات صناعية ضخمة واسسوا مصانع عظيمة . والمنشئات الآلية الكبيرة حكر عليهم تقريبا والتجارة كذلك . وما يصدر من الجزائر من خمور وحبوب ومجففات وموالح وتبغ وجلود الخ يصدر بواسطة بيوت التصدير الافرنسية التي تستولي على ما ينتجه منها العرب باسعار بخسة ويتولون تصديرها .

والادارة الحكومية ادارة افرنسية تحت سلطان الحاكم الافرنسي العام . ورؤساء المصالح افرنسيون والوظائف الهامة محصورة فيهم وقد حرم على العربي ما يسمى وظائف سلطة وجعلت وقفا عليهم .

وقد اصدرت السلطات الافرنسية عام ١٨٥٩ مرسوما اخرجت به القبائل من نطاق القضاء الاسلامي وجعلتها تابعة لقضاء خاص . وشجعت التبشير فيها تشجيعا عظيما . ولقد كانت مخصصات الجمعية الاسلامية التي تنظر في شؤون المسلمين المدنية عام ١٩٢٧ (٣٣٧٠٠٠) فرنك في حين ان عدد المسلمين كان يزيد عن سبعة ملايين بينما كانت مخصصات الجمعيات المسيحية (٨٨٣٠٠٠) فرنك وعدد المسيحيين اقل من ثمن المسلمين ...

ولقد اصبح اغلب سكان القرى والبراري عمالا زراعيين عند المستعمرين . وكادت حالتهم تشبه حالة عبيد الارض في القرون الوسطى والاخيرة . لا يملكون حريتهم ولا يكادون يحصلون على ما يسد رمقهم ويستر عورتهم من مستأجريهم او اسيادهم .

ومما فعلته فرنسة منذ عهد مبكر كوسيلة من وسائل تنفيذ خطتها

الرهيبة تجنيد عشرات الالوف من الجزائريين وارسالهم الى الانحاء القاصية يقاتلون ويقتلون في سبيل مآرب فرنسة الاستعمارية والسياسية ويبقون مددا طويلة مندمجين في جو الحياة العسكرية الافرنسية حيث ينسى كثير منهم لغته ويصبح لا هو افرنسي ولا هو عربي ولا هو مسلم . كذلك مما فعلته اغراء الجزائريين بالتجنس الذي يسمح بالتمتع ببعض الحقوق الافرنسية ويشترط في الوقت نفسه الخضوع للقانون المدني الافرنسي في الامور الشخصية المدنية من نكاح وطلاق وميراث ووصية وهبة دون القانون الاسلامي مما فيه الغاية المركزة وهي سلخ اهل الجزائر عن تقاليدهم واسلامهم وعروبتهم ودمجهم في الحياة الافرنسية مع التنبيه على ان الافرنسيين كانوا وظلوا ينظرون الى المجنسين بنظر الادنى ولم يخلطوهم بانفسهم في أي شيء ! .

وهذا وذاك بالاضافة الى ما ضربته من ستار حديدي كثيف حول الجزائر لتمنع أي اتصال بينها وبين الاقطار العربية الاخرى مغربية أم مشرقية . حتى تظل في عزلة تامة عن أي حركة عربية . وقد وصل هذا الامر حتى الى فريضة الحج حيث انها تتشدد في السماح بها كل الشدة وتجعلها مقيدة بكثير من القيود والشروط واذا سمحت احيانا فانها لا تسمح الا للموالين لها وتحت اشراف موظفين تثق في ولائهم ايضا ....

وهذه الصورة المقتبسة من كتاب المدني لحالة الجزائر في سنة ١٩٣٠ م قد استمرت بل واتسع نطاقها على ما يستفاد من خطب القاها النواب الجزائريون في الجمعية الافرنسية الوطنية في شهر آب سنة ١٩٤٧ (١) بمناسبة مناقشة هذه الجمعية قانونا جديدا يجعل ارتباط الجزائر بفرنسة اوثق وافعل حيث نهض هؤلاء النواب ليعلنوا رفض المشروع وليبينوا شدة الظلم الذي حل في اهل الجزائر من فرنسة .

---

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب حول الحركة العربية الحديثة ص ١٧٢ ـ ٢٠٦

واذا لا حظنا ان هؤلاء النواب لم يكونوا لينالوا منصب النيابة الا بسبب ثقة السلطات الافرنسية فيهم وشدة اندماجهم مع فرنسة تبين لنا شدة الحالة التي ظل يرتكس في ظلماتها اهل الجزائر نتيجة لاستمرار السلطات الافرنسية على تطبيق تلك الخطة الرهيبة الظالمة .

ومما ذكره النائب مرغه في خطابه ان ما يقرب من نصف الاراضي الزراعية أي تسعة ملايين هكتار من عشرين هي ملك (٨٠٠٠٠٠) مستعمر [1] بقطع النظر عن التفاوت العظيم في نوع الارض حيث تزيد قيمة اراضيهم اضعافا مضاعفة عن قيمة اراضي العرب ، وبهذا التفاوت اصبحوا اصحاب اجود الاراضي واخصبها واصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة . وهناك طبقة كثيرة العدد منهم يتجاوز ما يملكه الواحد منها عشرة آلاف هكتار (١٠٠٠٠٠) دونم [2] واقل متوسط يملكه المستعمر (١٠٠) هكتار في حين ان متوسط ما يملكه جمهور المالكين الاعظم من العرب هكتاران واعلى ما يملكه المالك الجزائري خمسة عشر هكتار! وهؤلاء ليسوا الا فئة قليلة ...

وقد خص المستعمرون بخزانات المياه ومعدات الاشغال العامة التي تدفع خزينة الجزائر تكاليفها . وتتيح السلطات للمستعمرين اليد العاملة بابخس الاجور . ونتيجة لذلك تكون طبقة تعد بالملايين من الفلاحين الكادحين الذين جردوا من كل شيء وحرموا كل امل وباتوا عرضة للجوع والعرى .

ومما ذكره ابو قادوم في خطابه ان الاستعمار لم يقنع من بلادنا بالاستئثار بثروتها واستغلال شعبها بل حارب كذلك ثروتها الثقافية والروحية . فللجزائر شخصية كونتها القرون الطويلة من وحدتها

---

(١) كان عدد المستعمرين في سنة ١٩٣٠ (٦٣٠٠٠٠) وكان ما يملكونه من ارض نحو (٧,٧٠٠٠٠٠) هكتار وقد مر على الخطاب ١٢ عاما .

(٢) في نشرة اصدرتها الحكومة الجزائرية عام ١٩٥٨ ان هناك شركات وملاكين كبارا تصل مساحة ملكياتهم (٧٠٠٠٠) هكتارا ص ١٥

الجغرافية واللغوية والتاريخية والدينية • وليس هناك ما يزعمه البعض من فرق بين العرب والبربر بل هناك شعب واحد هو الشعب الجزائري العربي المسلم • وانكم لا تجهلون ان دينه الاسلام ولغته العربية وهذان هما اللذان يكونان شخصيته واللذان يحاربهما الاستعمار بقصد ابادتهما ظنا منه ان الشعب الذي غلب بالسلاح واستؤثر باقتصاده وحوربت مقومات شخصيته سيصبح بمثابة حفنة من غبار بشري خال من الروح مستعد لقبول كل التغييرات وانواع العبودية • ان معاهدة تموز عام ١٨٣٠ م تحتم احترام حرية السكان ودينهم ولغتهم وملكيتهم • ولكنها نقضت بعد شهرين ثم ظلت تنتقض • وقد وضعت الادارة الاستعمارية يدها منذ تلك السنين على الاوقاف وغدت المساجد والمعاهد تحت تصرفها المباشر وفقد الدين الاسلامي استقلاله بل لقد حرم من الحرية التي منحها مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الافرنسية والتي يتمتع بها الدينان المسيحي واليهودي • وابعد نكاية واشد شناعة من هذا ان النفقات التي تنفقها الادارة على شؤون الاديان غير الاسلامية تحسب على خزينة الاوقاف الاسلامية • وما ينفق على مصالح الدين الاسلامي الذي يعتنقه عشرة اضعاف معتنقي الاديان الاخرى لا يزيد عن ثلث ما ينفق على مصالح هذه الاديان • وقد اصبح موظفو المعاهد الاسلامية نتيجة لذلك من اعوان الاستعمار الذي يبذل جهده في محاربة الدين الاسلامي ولغته ومعتنقيه ، وتعطلت مؤسسات ثقافية عديدة كانت تساعد على تثقيف ابناء المسلمين • وسهلت السبل امام التبشير بمختلف الوسائل • واغتنم المبشرون جوع الجزائريين وعوزهم لاخذ اطفالهم وتنصيرهم على اعتبار ان تنصير المسلمين هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تذويب الجزائريين في البوتقة الافرنسية • والى جانب هذه الجهود التي تبذل لتنصير المسلمين هناك حرب مشبوبة على عروبتهم • وقد اصبحت المدارس التي تعلم اللغة العربية تحت اجراءات شديدة صارمة أدت الى اغلاق معظمها

ومن جملتها الكتاتيب التي يعلم فيها القرآن •

ومما جاء في خطاب النائب دردور ان الحرب التي اعلنها الاستعمار الافرنسي على الشعب الجزائري تطرد في المجال السياسي اطرادها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي حيث أنشأ الاستعمار جهازا يسيطر عليه الافرنسيون سيطرة مطلقة وحيث تتجمع جميع السلطات العسكرية والادارية في يد الحاكم العام • وتمارس بواسطة ضباط وموظفين لا يعرفون غير مبدء واحد للحكم هو مبدأ القوة • والمجلس الاعلى الاستشاري يتكون من ستين عضوا ليس بينهم الا سبعة من العرب ثلاثة منهم يعينون تعيينا • والمجلس المالي صاحب السلطات المالية يتكون من تسعة وستين عضوا ليس فيهم الا واحد وعشرون جزائريا • ومناطق الجنوب تدار ادارة عسكرية • وحكامها العسكريون متمعتون بصلاحيات غير محدودة عسكرية وادارية وقضائية • وهناك قانون خاص بالعرب وهو المعروف بقانون الانديجن جاثم على الشعب بصلاحيات النهب والاستغلال المتوحش والاستعباد وخنق الحريات وقتل الجهود والحيلولة دون أي حركة اجتماعية وسياسية • وقانون الغرامات المشتركة يرهق الشعب بمظالمه حيث تفرض الغرامات الباهظة ويحجز على الاموال بتهم جرائم لم يعثر على مقترفيها • وقانون نظام الغابات يقاسي الشعب منه اشد انواع المتاعب والاذى • وقد حرم الشعب من جميع الحريات مهما كانت اولية وضرورية لحياته • ويستخدم الاستعمار سلاحا رهيبا في ممارسة سيطرته مكون من جيش عرمرم من الدرك والجيش والبوليس والجواسيس • وبينما عدد الاطفال العرب في سن الدراسة يبلغ مليونا وربعا فان الذين يتلقون التعليم منهم في مدارس الحكومة مئة الف فقط في حين يبلغ عدد الذين يتلقون التعليم في مدارس حكومية من الاوروبيين مئتي الف مع ان عدد الاوروبيين لا يزيد عن سبع المسلمين ، ويخصص في ميزانية المعارف لتعليم العرب ثمانية وثمانون مليون فرنك بينما يصرف على

تعليم الاوروبيين ٣٣٩ ميليونا • وهذا فضلا عن محاربة اللغة العربية والدين الاسلامي في المناهج والاجراءات •

وتستمر كل هذه المظالم الوحشية الى الآن • ولقد قررت الجمعية الوطنية الافرنسية في سنة ١٩٥٥ ايفاد لجنة تحقيق برلمانية الى الجزائر لدرس حالتها بمناسبة تفاقم ثورتها على ما سوف نذكره بعد فكان مما ذكرته في تقريرها [1] ١ ــ ان حالة الجزائريين الاقتصادية سيئة للغاية • ٢ ــ ان الجهود التي تبذلها السلطات الافرنسية في الميدانين الاقتصادي والاجتماعي لم تفد غير الاوروبيين • ٣ ــ ان غالبية الجزائريين في فقر وجهل وبؤس مفزع يتزايد كل ما اتجه المرء الى الجنوب • ٤ ــ ان اجرة العامل الزراعي منخفضة جدا • ٥ ــ ان خطط التنظيم والتجديد لم تكد تتناول الا المناطق الاوروبية • ٦ ــ ان الزراع الجزائريين يعيشون على ارض جدباء عسيرة • ٧ ــ ان الاوروبيين لا يدفعون الا ضرائب خفيفة ومن الامثلة على ذلك ان اوروبيا يملك ١٢٠٠ هكتار من الكروم تقدر قيمتها بمليار ومئتي ميليون فرنك لا يدفع عنها سوى خمسة وعشرين الف فرنك• ٨ ــ ان السكان يساعدون الثوار ويمدونهم بالمؤون والعلماء يعطفون عليهم ويضفون على حركتهم صبغة الجهاد ••

وفي نشرة صدرت في سنة ١٩٥٨ عن الحكومة الجزائرية [2] العربية التي تألفت سنة ١٩٥٨ على ما سوف نذكر ظروفه ما يؤيد ما جاء في هذا التقرير وما رسمه المدني في كتابه ونواب الجزائر في خطاباتهم من صور ظالمة بل وما يدل على استفحال بشاعة هذه الصور وظلماتها •

فالمعدل الوسطي الذي يملكه الملاك الاوروبيون الافرنسيون ١١٠ هكتارات ومنهم افراد وشركات تتراوح مساحة ملكياتهم بين ١٠٠٠٠

(١) نشرت خلاصة التقرير في جريدة النصر الدمشقية عدد ١٢ آب عام ١٩٥٥

(٢) عنوانها الاستعمار وآثاره في الجزائر انظر خاصةالصفحة ١٢ ــ ٢٩ ــ و ٤٠ــ٤١

و ٧٠٠٠٠ هكتار • وتبلغ مساحة ما في ايديهم ٢,٧٥٠٠٠٠ هكتار بينما لا يرتفع معدل مساحة ملاكي العرب عن ١٤ هكتار ليس منها منتج سوى خمسة • وعدد الملاكين العرب ٥٣٢ الفا يملكون (٧,٥٠٠٠٠٠)هكتار من اصل مجموع الاراضي الزراعية البالغ (٢٢,٠٠٠,٠٠٠) هكتار • أما باقي هذه الاراضي فهي تحت تصرف الادارة الاستعمارية باعتبارها املاك دولة تؤجر منها وتبيع منها ما تشاء للمستعمرين الاوروبيين • ونتيجة لذلك فان في الريف (٨٠٠,٠٠٠) اسرة عربية تمثل اربعة ملايين لا تملك ارضا وفي بؤس مدقع واستغلال مجحف لانهم يعملون عمالا زراعيين عند ملاكي الاوروبيين على الاعم الاغلب وبابخس الاجور وأسوأ الظروف •

وتشغل مساحة كروم العنب (٢٣٨,٠٠٠) هكتار كلها ملك للاوروبيين • وتشغل مساحة بساتين الحمضيات ومزارع التبغ وغيرها من المنتجات الثمينة (١٧٠٠٠٠) هكتار تسعة اعشارها ملك الاوروبيين•

وهذا فضلا عن تفوق الارض التي في يد الاوروبي في قيمتها وانتاجها عن الارض التي في يد العربي لان الاولى مختارة ومصادرة من اخصب واجود الارض فضلا عما يتلقاه الاوروبي من مساعدات وامتيازات متنوعة • وللدلالة على ذلك يذكر ان قيمة ما ينتجه الاوروبيون من اراضيهم ٩٣ ميليار فرنك مقابل ٧٠ ميليار قيمة ما ينتجه العرب من اراضيهم بينما تبلغ مساحة ما في ايدي هؤلاء ثلاثة اضعاف ماتبلغه مساحة ما في ايدي الاولين • وقد منح الاوروبيون سنة ١٩٥٠ قروضا بما قيتمه ثلاثة ميليارات من الفرنكات بينما كانت قيمة القروض التي منحها العرب مئتين وعشر ملايين !

وينتج في الجزائر ما معدله السنوي ثلاثة ملايين طن من الحديد وسبعمائة الف طن من الفوسفات واحد عشر الف طن من الرصاص وثلاثمائة الف طن من الفحم والشركات التي تستغل وتنتج هي افرنسية •

والعرب مستبعدون عن عمليات التصدير والاستيراد التجارية الخارجية التي تتم بواسطة البيوتات الاوروبية وتحقق منها ارباحا فاحشة على حساب العرب الذين هم الاكثرية الساحقة حيث يبلغ عددهم اثني عشر مليونا بينما يبلغ عدد الاوروبيين ثمانمائة وخمسين الفا ...

ويبلغ عدد الفتيان العرب الذين هم في سن الدراسة نحو مليونين ليس منهم في مدارس الحكومة الابتدائية الا (٢٦٩٠٠٠) والثانوية (٤١٥٩) والجامعة (٥٠٧) في حين ان عدد الفتيان الاوروبيين في مدارس الحكومة الابتدائية (١٣٥٠٠٠) والثانوية (٢٤٠٠٠) والجامعة (٥١٣٢) أي جميع من هم في سن الدراسة .

كفاح الجزائر ضد العدوان

ولقد ظل اهل الجزائر يأبون المصير الرهيب الذي رسمته لهم فرنسة المجرمة والظلم القاسي الذي تفرضه عليهم ويقومون بحركات ثورية ونضالية بعد قمع فرنسة حركة الامير الحسني المجاهد التي ذكرناها قبل .

ومن الثورات التي سجلوها ثورة قادها البطل ابو معزة في جبال الظهرة عام ١٨٥١ واخرى في منطقة القبائل بقيادة البطل ابي بغلة في نفس العام وامتدت ثلاث سنين وثالثة بقيادة البطل محمد بن عبد الله في واحات الجنوب في عام ١٨٥٢ م استمرت سنتين ثم واصل ابنه البطل سيدي سليمان كفاح ابيه عشرين عاما ، ورابعة قادتها المجاهدة لالا فاطمة في منطقة جرجرة عام ١٨٥٦ وكان ينضوي تحت لوائها بنو بني راتن ، وخامسة قام بها عام ١٨٥٩ بنو سناسن على حدود مراكش وسادسة قام بها عام ١٨٦٣ اولاد سيدي الشيخ في مناطق الجنوب وقد اخمدها الافرنسيون ولكنها نشبت ثانية عام ١٨٨١ ، وثامنة تحت لواء المجاهدين المقراني والشيخ الحداد عام ١٨٧٠ وشملت منطقة القبائل

الكبرى وشمال قسطنطينة وقد استفحلت وتمكنت من طرد المستعمرين من مناطق كثيرة ووصلت طلائعها الى ابواب العاصمة وتاسعة قامت في مناطق الصحراء عام ١٨٨٩ وامتدت ثلاث سنين وعاشرة قامت عام ١٩١٧ في منطقة الاوراس [١] .

وكان الافرنسيون حينما يقعون في ازمة خاصة او عامة يغدقون الوعود للجزائريين ويتملقونهم حتى اذا انفرجت ازمتهم نكثوا بما وعدوا وعادوا الى سيرتهم الباغية .

ولقد كانت الجزائر ملجأ للحركة الافرنسية التحررية التي قادها ديغول حينما سقطت فرنسة تحت اقدام الالمان عام ١٩٤٠ م في الحرب العالمية الثانية وعمادا لها بالرجال والتموين ، وعدتها تجاه بريطانية واميركا حيث كانت تطلب منهما المزيد من السلاح والجهاز والمال وتدعي انها تستطيع ان تهيىء من الجزائر والاقطار المغربية الاخرى الاعداد العظيمة من المحاربين . وكان رجال هذه الحركة يشيدون باهل الجزائر لما قدموه لهم من معونة عظمى ويتملقونهم ويغدقون عليهم الوعود . ولكنهم لم يلبثوا ان نسوا يد الجزائر ونكثوا بوعودهم حينما وضعت الحرب اوزارها وظلت السيرة الظالمة منهجهم ومنهج من جاء بعدهم للحكم .

ولقد اخذ الجزائريون يطالبون بانجاز الوعود ويهتفون بالاستقلال والحرية فكافأتهم الحركة الديغولية مكافأة اللئيم الغادر فاوقعت فيهم سنة ١٩٤٥ وكان الحكم في يدها مذبحة هائلة ذهب (٤٥٠٠٠) نسمة ضحية لها حيث قصفت منطقة قسنطينة وسطيف التي كانت مركز الحركة الوطنية بالطائرات والمدافع ودمرت القرى والمدن فوق رؤوس اهلها .

على ان روح الاباء والتمرد لم تنطفىء في الجزائر . وقد

---

(١) انظر نشرة الحكومة الجزائرية (كفاح الجزائر) ص ١٣ ــ ١٧ وكتاب المدني ص ٥٨ ــ ٥٩ و ٦٢ ــ ٦٥

تمثلت في خطبة القاها الامين دباغين [1] من نواب الجزائر في الجمعية الوطنية الافرنسية في آب ١٩٤٧ بعد خطب النواب الثلاثة التي نوهنا بها قبل وقد تضمنت هذه الخطبة تنديدا قارصا بظلم فرنسة وانذارا بتصميم الجزائريين على الاحتفاظ بمقوماتهم القومية ورفض الاندماج ونيل الاستقلال والحرية باسلوب قوي حازم اذهل النواب الافرنسيين وخيب ظن فرنسة بالقضاء على المقاومة الجزائرية • وقد جاء فيها فيما جاء :

ان اخوانه الذين سبقوه في الكلام قد بينوا ما مثله الاستعمار في بلادهم من ادوار باغية • غير انه من الخطأ الجسيم ان يظن احد بان رغبة الشعب الجزائري في الاستقلال قد نتجت من اخفاق هذا الاستعمار اذ ان معنى هذا انه لو كتب له النجاح وتحسن من جرائه مستوى حياة الشعب الجزائري لكان كافيا لغض نظره عما سببه من ضياع شخصيته وسيادته ومقوماته • وليس في هذا شيء من الحق والصواب • ولو فرضنا ان فرنسة تمكنت من تحقيق المعجزات فيما تسميه « مستعمرتها الجزائر » ولو فرضنا ان جميع الاضاليل التي يحاط بها الاستعمار اصبحت حقائق قائمة ولو فرضنا ان الشعب الجزائري الذي بزعم هذا الاستعمار انه لم يكن سعيدا في عهده الاستقلالي السابق قد اصبح بفضل الغزو الافرنسي ارقى الشعوب ثقافة واجودها صحة واكثرها رضاء فان كل هذا لن يؤثر شيئا في نضاله المستميت في سبيل استعادة استقلاله وسيادته • ان هناك ميلا الى تناسي حقيقة كبرى هي ان الجزائر قبل عدوان عام ١٨٣٠ كانت ذات كيان قومي مستقل ذي سيادة وان ما يكرر من القول بان الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسة وانها مجموعة ترابية من الجمهورية الافرنسية دعوة باطلة تكذبها جميع الحقائق التاريخية والجغرافية والجنسية التي لا تتحمل مراء • فقد كانت

---

(١) هذا النائب هو الآن عضو في الحكومة الجزائرية العربية التي تألفت في ايلول ١٩٥٨ على ما سوف يرد بعد ويتولى وزارة الخارجية فيها .

الجزائر بلادا مستقلة ذات سيادة يسكنها شعب عربي له خصائصه وتقاليده القومية • وكانت دول الارض بما فيها فرنسة تعترف بذلك وتعقد معها المعاهدات وتقف منها موقف الند للند • ولما اعتدى عليها عام ١٨٣٠ كافحت كفاحا شديدا وقدمت من الضحايا ما يقرب من المليونين •

واذا كان قانون الكثرة وتفوق العدد قد جعل مصير هذا الكفاح ضدها فليس معنى هذا ان حقها في الاستقلال قد سقط وبطل اوان ذلك قد اعطى فرنسة الحق بان تدعي بان الجزائر ارض فرنسية وبان تفرض أي نظام تشاء عليها • وليس من فرق بين الجزائر وبين أي امة غزاها هتلر كبولونيا وتشيكوسلوفاكيا حيث لم يغير هذا شيئا من الحقيقة • وقد عاد الاستقلال والحرية لهما والامر بالنسبة للجزائر سواء بسواء • فهي دولة خاضت ببطولة نادرة حربا خسرتها ولكنها لا يمكن ان تقبل بحال ان تكون نهاية تلك الحرب هي نهاية سيادتها لانها ستسترجع حريتها من جديد وتعود الى ما كانت عليه ولا يخامرها أدنى شك في ذلك والدليل على هذا ان قرنا من الاضطهاد لم يفقدها شخصيتها ولم ينل من تصميمها المتحفز دائما • وهذا هو السبب الذي من اجله لا يمكننا نحن الجزائريين ان نقبل بأي حل لا يحقق قبل كل شيء احترام هذه الشخصية وحرية ثقافتنا العربية ولا يضمن سيادتنا القومية ضمانا مطلقا • ان الدافع للعدوان عام ١٨٣٠ انما كان الطمع في الغنيمة والغزو • وحل القضية الطبيعي والحالة هذه هو جلاء القوات الفرنسية عن الجزائر واعادة ارضها المغتصبة الى اصحابها الشرعيين ومدارسها الى ثقافتها العربية ومساجدها الى دينها الاسلامي • وليس لفرنسة مطلقا ان تفرض على الجزائر أي قانون ونظام وان هذا ما سوف تقاومه الجزائر وترفضه بكل قواها لان شعبها يعتبر نفسه هو وحده المالك لحق تقرير مصيره واختيار نظمه الخاصة التي يدير بها سياسته

ويعتبر ان اعترافه لاي حكومة ولو فرنسية بحق منحه النظم والشرائع هو اعتراف منه بالامر الواقع الذي اوجده الاستعمار في بلاده ضد حقوقه المقدسة ومصالحه الحيوية . وتنازل عن سيادته الوطنية . وهذا ما لن يحدث ابدا . وقد حملنا الشعب نحن النواب الجزائريين مهمة تبليغ الشعب الافرنسي والعالم باجمعه بان بلاده لا تعترف بهذا الامر الواقع الذي احدثه غزو عام ١٨٣٠ وبان الجزائر ليست لفرنسة ولن تكون كذلك في يوم من الايام وبانها لا تعترف لفرنسة بحق منحها القوانين او سن المشاريع مهما كان نوعها . ولن تقبل أي حل لا يضمن لها قبل كل شيء عودة سيادتها الوطنية اليها . وليس هذا مستحيلا فقد عاد الى بولونيا استقلالها بعد تقسيمها وحرمانها منه بمئة وخمسين عاما كما لا يخفى ...

ولم تحرك صرخات النواب الجزائريين ضمير فرنسة حكومة وساسة وشعبا وظلت سادرة في غيها مستمرة على خطتها الباغية التي تعد وصمة عار في جبين الحضارة الغربية تقمع بالحديد والنار كل حركة ونأمة ومقاومة واعتراض وتظلم مما ادى في النهاية الى انفجار الثورة ثانية في خريف عام ١٩٥٤ في نفس المناطق التي انفجرت فيها عام ١٩٤٥ وهي التي ما تزال مستمرة الى اليوم [١] بكل شدة وعنف وتصميم .

ولقد بدأت في منطقة النمامشة وشمال قسنطينة ومناطق القبائل . وكان عدد الثوار ثلاثة آلاف ثم اخذت تتسع حتى شملت جميع الجزائر وصار لها جيش عرمرم يبلغ مئة الف او يزيدون .

ولقد سارعت فرنسة الى حشد القوات العظيمة التي بلغ عددها [٢] في سنة ١٩٥٩ (٧٥٠٠٠٠) من الجند النظامي و (١٥٠٠٠٠) من البوليس والدرك والمتطوعين الافرنسيين و (١٥٠٠) طيارة و ٥٠٠٠

(١) كتبنا هذا الفصل في آخر سنة ١٩٥٩

(٢) نشرة الحكومة الجزائرية المعنونة ثورة الجزائر ص ١٩ ـ ٢٠

دبابة ومصفحة ومدافع متنوعة المعيار الخ ، واخذت تطارد الثوار ومن يواليهم ويمدهم وتوقع مجازر ابادة هائلة فيهم وتتفنن في التعـذيب والارهاب والقمع والاجلاء والتدمير والتحريق والقتل الجزاف للآمنين وانشاء معسكرات للاعتقال تكتظ بمئات الالوف دون أي استشعار باي شعور انساني ودولي ودون مبالاة بمواثيق حقوق البشر وحريتهم وانسانيتهم (١) .

وقد بلغ عدد ضحايا العرب من ثوار ومدنيين معظمهم من الشيوخ والاطفال والنساء (٧٥٠٠٠٠) وعدد المعتقلـين في مختلف السجون مليونا وعدد من اجلوا عن قراهم الى محتشدات تجمع تنعدم فيها كل اسباب الحياة الضرورية قرابة مليوني شخص وعدد الذين فروا من الجزائر ولجئوا الى تونس والجزائر (٣٥٠٠٠٠) (٢) وقد بلغت خسائر ميادين القتال وحدها حتى اول شهر آب ١٩٥٧ (٣٥٠٠٠) قتيل و (٢٠٠٠٠) جريح و (٧٠٠٠) اسير من جيش التحرير على ما جاء في تقرير نشرته جريدة الاوبسر فاتور الافرنسية (٣) . ولا شك ان هذا قد تضاعف بعد ذلك ....

وجميع هذه الجرائم الوحشية تقترف لاجل قمع ثورة شعب عربي يريد حقه في الحياة والحرية ويؤبى عليه هذا الحق لان الروح الاستعمارية الشرهة تريد ان تظل مسيطرة على ارضه وثرواته وان تبقيه رقيقا

---

(١) نشرت الصحف الافرنسية والعربية تفصيلات ومقالات كثيرة وكتب كتاب افرنسيون كتبا عديدة فيها تفصيلات مذهلة مستندة الى مشاهدات او اعترافات ضباط وجنود افرنسيين عن فنون التعذيب الرهيب الذي كان يوقعه ضباط الاستخبارات والمظلات الافرنسيين في من يقع في أيديهم من مجاهدين جزائريين او من يشتبهون في موالاته لهم من جزائريين وافرنسيين احرار تنشعر لها الجلود وتبين مابلغ اليه الغيظ والحقد والاجرام في الافرنسيين وانعدام أي معنى من معاني الانسانية والرأفة والضمير فيهم . وقد احتوت نشرة اصدرتها الحكومة الجزائرية بعنوان مجندون يشهدون كثيرا من الامثلة الرهيبة .

(٢) نشرة الحكومة الجزائرية « ثورة في سطور » الصادرة في آب عام ١٩٥٩ ص ٢٠

(٣) جريدة الرأي الدمشقية عدد ١٣٤ وتاريخ ٢ ايلول ١٩٥٧

لها تستخدمه في استعمارها محروما من كل مقومات الحياة ، برغم ما تتحمله فرنسة من اعباء مالية هائلة من جراء هذه الحرب لا تقل سنويا عن نصف مليار جنيه بالاضافة الى الآلاف المؤلفة التي تصرع وتجرح وتؤسر في ميادين القتال [1] .

وقد قررت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة في خريف عام ١٩٥٦ مناقشة قضية الجزائر بمساعي الدول العربية وانصارها فغضبت أشد غضب وامرت وفدها بالانسحاب وانذرت بالانسحاب من هيئة الامم نهائيا تمسكا بذلك الزعم الكاذب الفاجر . وفعلت مثل ذلك في سني ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ حينما قررت الجمعية مناقشة هذه القضية والتوصية بايجاد حل سلمي عادل لها .

ولقد انهكت ثورة الجزائر مالية فرنسة وحملتها افدح الاعباء وغدت من اشد محن الدول حتى ان كل وزارة جديدة ـ وقد تغيرت الوزارة خلال امتداد الثورة خمس مرات ـ تجعل حل مشكلتها في رأس منهجها . وقد سقطت وزارة بعد اخرى بسبب عجزها عن هذا الحل لان اغلبية الاحزاب الافرنسية قد تحجرت عقليتها فلا تريد ان تعترف بتطور الزمن ولا تعتبر باحداث الدنيا وتريد ان تظل متمسكة بالدعوى الرعناء الكاذبة بان الجزائر جزء من فرنسة وان كل حل لمشكلتها يجب ان يكون في نطاق ذلك .

والمستوطنون الافرنسيون الذين يبلغ عددهم نحو تسعمائة الف هم الذين يزيدون الموقف تعقيدا والذهنية الافرنسية الحاكمة تحجرا

---

(١) في التقرير الذي نشرته اولابسر فاتور الافرنسية ونقلتها عنها جريدة الرأي السابق ذكرها ان خسائر الافرنسيين في ميادين القتال بلغت حتى اول آب عام ١٩٥٧ (٣٩٠٠) قتيل و (٩٠٠٠) جريح و (٧٠٠) مفقود . والمراقبون يعتقدون ان هذه الارقام اقل كثيرا من الحقيقة . وقد تضاعفت بعد ذلك ايضا . وقد قالت الحكومة الجزائرية في نشرتها « ثورة الجزائر في سطور » الصادرة في آب ١٩٥٩ ان خسائر الافرنسيين اصبحت تتراوح بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ في الشهر ص ١٩

بدسائسهم ومساعيهم ورشاويهم لانهم يحسبون ان أي تساهل او تراجع او اعتراف للجزائريين بحق وشخصية واستقلال ومهما كانت درجته سيفقدهم قليلا او كثيرا الملك الطويل العريض الذي يتربعون على عرشه ومنابع الثروات الهائلة المنقولة وغير المنقولة التي يتصرفون فيها بغيا وعدوانا • ويقدمون في سبيل الاحتفاظ بذلك على كل جريمة مهما كان فيها خيانة واضرار بمصالح فرنسة وسمعتها وشرفها • وقد الفوا جمعيات سرية فدائية للاعتداء على كل كاتب وصحفي ووزير ونائب يبدو منه أي جنوح للحق والاعتراف به والدعوة اليه • ووصل امرهم الى اغراء ضباط الجيش وتحريضهم على التمرد على الحكومة المركزية والتهديد بالحرب الاهلية والقيام بالمظاهرات الصاخبة واستقبال الوزراء الذين يزورون الجزائر لدراسة المشكلة ويبدو منهم جنوح ما الى حلول مهدئة أسوأ استقبال •

ولقد اكتشف الافرنسيون مؤخرا حقولا نفطية في صحراء الجزائر فاسال ذلك لعابهم وحسبوا انه سيكون لهم ثروة درارة فازداد تمسكهم بدعواهم الكاذبة وموقفهم الباغي الاثيم •

ومن المؤسف ان الدول الغربية التي تدعي الديموقراطية وتشيد بحق الشعوب في تقرير مصيرها وتحمل حملات شعواء على الاتحاد السوفييتي لانه يبسط سلطانه على الدول الاوروبية الشرقية ويحول بينها وبين الديموقراطية ويحرمها من حقها في تقرير مصيرها تؤيد فرنسة في موقفها الباغي ضد الجزائر وتسمح لها باستعمال سلاح قوات واجهزة الحلف الاطلسي المعدة للدفاع عن اوروبا ضد احتمالات الغزو الروسي في سبيل اخماد حركة الجزائر وثورتها ضد السيطرة الافرنسية وفي سبيل نيل حقها الشرعي في الحرية والديموقراطية وتقرير المصير • وهذا ما يساعد فرنسة على الاستمرار في المجزرة المجرمة التي توقعها في الجزائريين • ولو لا ذلك لعجزت وافلست وتخلت مرغمة عن باطلها وبربريتها •

ومع ذلك ورغم كل ذلك فقد اخفقت وظلت مخفقة الى اليوم في قمع الثورة التي مضى عليها ست سنوات طويلة وهي تتسع يوما بعد يوم ويزداد عدد المنضوين اليها وتشتد صولاتهم وتنتظم كتائبهم وتتوفر لهم وسائل القتال واسباب الاستمرار ، لا سيما وقد لقوا العون المادي والتأييد السياسي من الشعوب العربية وحكوماتها حتى اصبح المراقبون على يقين بان الثورة لن تخمد بالقوة وانها ستظل متأججة الى ان تضطر فرنسة الى التراجع عن موقفها الباغي وتعترف باستقلال الجزائر وسيادتها . وهو ما يعلنه قواد الجزائر المجاهدون والسياسيون بين وقت وآخر قويا مدويا .

ولقد بلغ من قوة الثورة في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ان سيطر جيش الثورة على معظم طرق البلاد بحيث لم يبق من هذه الطرق البالغ طولها (٥٥٠٠٠) كيلو مترا الا نحو الف يستطيع الافرنسيون ان يتجولوا فيها بحرية وان ما عدا ذلك لا يجتاز ولا يسار فيه الا بقوافل محروسة اشد حراسة تتعرض في الوقت نفسه الى كمائن المجاهدين الشديدة وصولاتهم المباغتة . على ما ذكرته جريدة الاكسبرس الافرنسية [١] ، وقد ذكرت جريدة فرانس سوار الافرنسية ان الثوار أنشأوا حكومة وطنية في المناطق التي يسيطرون عليها مزودة بمحاكم وادارات لتحصيل الاموال وحلت محل الادارة الافرنسية وان المنطقة التي قامت فيها تمتد مسافة ١٥٠ ميلا على الساحل و ٥٠٠ ميلا الى الداخل في القطاع الشرقي وتضم ست مدن كبيرة ومئات من القرى [٢] .

وقد ادلى محمد يزيد احد زعماء جيش التحرير بتصريح نشرته الاهرام موضحا فقال ان جيش الثورة يسيطر على نحو ثلث الجزائر

---

(١) نشرت ذلك مجلة الميثاق الاردنية في عددها ١٤ شباط سنة ١٩٥٧

(٢) نشرت ذلك جريدة الاهرام المصرية في عددها ٦ مارس سنة ١٩٥٦

فضـــلا عن ان هنـــاك مناطق يسيطر عليها الافرنسيون نهارا والثوار ليـــلا [1] .

ولقد اذاعت الحكومة الافرنسية اكثر من مرة نداء للثوار بوقف القتال واستعدادها لاجراء انتخابات حرة تمهيدا لانشاء نظام جـديد للحكم يكفل الاستقلال الداخلي للجزائر وارسلت وزير خارجيتها الى مصر التماسا لعونها على وقف القتال والاتصال بقادة الثورة بسبيل ذلك وسعت مثل هذا السعي مع حكومتي تونس والمغرب الاقصى وتم اتصال مندوبيها سرا وبصورة غير رسمية بضع مرات خلال سنة ١٩٥٦ ببعض قادة الحركة بسبب ما تلقاه من شديد الارهاق والحرج اقتصاديا وعسكريا وسياسيا . غير ان قواد الحركة كانوا يصرون دائما علـى شرط اساسي وهو اعتراف فرنسة مبدئيا بشخصية قومية عربية للجزائر وتخليها عن خرافة كونها جزءا من فرنسة وعدم الاكتفاء بحل المشكلـة باصلاحات داخلية في هذا النطاق فلا يجرأ حكام فرنسة على الموافقـة ويستمر المجاهدون في نضالهم القوي الرائع .

ولقد عمد حاكم الجزائر السفاح سوستيل بسبيل الانتقام من قادة الحركة الكفاحية بسبب موقفهم هذا فاغتنم فرصة ركوب خمسة منهم طيارة افرنسية من مراكش ليرافقوا سلطان المغرب الى تونس في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ حيث يبحث مع حكومتها قضية الجزائر والتوفيق بين موقف القادة والحكومة الافرنسية بطلب من هذه الحكومة فاعتقل القادة باسلوب غادر نذل غير عابىء بما كان في عمله من اعتداء على كرامة سلطان مراكش الذي طلب منهم السفر معه الى تونس ظنا منـــه ان هذا العمل سيشل حركة الثورة . غير ان أمله خاب حيث استمرت قوية بل زادت لهيبا بالاضافة الى ما اثارته نذالة عملهـــا من سخط

---

(١) نشرت ذلك جريدة الاهرام المصرية في عددها ١٣ آب ١٩٥٦ ، ولا شك في ان سيطرة الثورة قد اتسعت مساحة وكيفية بعد ذلك بنسبة ازدياد تنظيمها وصولاتها .

حكومتي تونس والمغرب وازدياد عطفهما وعونهما • وشغل مركز القادة المعتقلين رفاق لهم صدر منهم تصريحات قوية تنم عن العزم والتصميم حتى النصر •

ولقد سرت روح الثورة الى مئات الالوف من الجزائريين الموجودين في فرنسة فاخذوا يتكتلون في كتل سرية فيجمعون المال للثوار ويدبرون لهم السلاح والعتاد ويفتكون في الخائنين المتعاونين مع فرنسة من الجزائريين ويبثون الدعاية لقضيتهم في مختلف الاوساط بمختلف الوسائل ويدمرون ويخربون ما يقدرون عليه من منشئات ومرافق وقد اعلنت مصادر افرنسية في مايس عام ١٩٦٠ ان عدد القتلى والجرحى في ارض فرنسة قد بلغ نحو (١٤٠٠٠) مما أثار بالغ القلق في السلطات الافرنسية وزاد في متاعبها وهمومها •

ولقد اغرى المستوطنون الافرنسيون بعض ضباط الجيش الافرنسي في الجزائر وجعلوهم يعلنون تمردهم على باريس لانها ظلت تجنح الى التفكير بحلول مهدئة وتضامن في الحركة معهم سوستيل الحاكم العام وأدى ذلك الى استلام الجنرال ديغول مقاليد الدولة في اوائل سنة ١٩٥٨ ، وقد جدد هذا الدعوة الى وقف النار في الجزائر ووعد باصلاحات وتحسينات متنوعة للجزائر واهلها في نطاق بقاء الجزائر جزءا من فرنسة فقابلها قادة الكفاح بالرفض والاصرار على الحصول على حق الجزائر بالاستقلال • وزار الجنرال الجزائر واتفق مع قادة الجيش على القيام بحملات قوية كاسحة للقضاء على الثورة • وبذل الجيش جهودا جبارة في سبيل ذلك فكان نصيبها الاخفاق واستمرت الثورة قوية بل ازدادت ضراوة • ووضع ديغول دستورا لفرنسة وعرضه على فرنسة والمستعمرات الافرنسية السوداء والجزائر مستفتيا • وكان من مواد الاستفتاء بالنسبة للمستعمرات تخييرها بالبقاء ضمن نطاق فرنسة والاستقلال دون الجزائر مما يدل على العناد والتصميم على الاحتفاظ بها فريسة لفرنسة وعلى استمرار تحجر العقلية الافرنسية • ولقد جرى في الجزائر في اوائل سنة ١٩٥٩ استفتاء على الدستور الذي

ينص على ان الجزائر جزء من فرنسة في ظل الحديد والنار والارهاب والتعذيب الذي نشرت الصحف الافرنجية والعربية تفصيلات كثيرة منه تقشعر لها الجلود ثم اعلن ديغول ان ٨٩ ٪ من الجزائريين صوتوا للدستور دون ان يندي جبينه بعرق الحياء مما في ذلك من زيف وكذب وتناقض صارخ بين هذه النتيجة وبين ما يقوم منذ ست سنوات في ارض الجزائر من ثورة لاهبة شاملة يشترك فيها جميع الجزائريين ضد فرنسة وفي سبيل الاستقلال والحرية مما اثار الذهول والسخرية في جميع الاوساط ، ومما جعل المجاهدين يشتدون في صولاتهم ويحرزون انتصارات عظيمة .

ورأى قادة النضال أنه آن الاوان لانشاء حكومة تتولى بصورة رسمية وعلنية قيادة الحركة النضالية وترفع صوت الجزائر في الاوساط الدولية وشجعتهم الحكومات العربية على هذه الخطوة فتشكلت حكومة جزائرية عربية في ايلول ١٩٥٨ لتمارس سلطاتها الشرعية في ارض الجزائر وخارجها برئاسة عباس فرحات وعضوية عدد من رجال الحركة الجهادية والسياسية حيث يتولى فريق منهم قيادة حركة الجهاد وتموينها وينشط فريق آخر في الاوساط العربية والدولية واعترفت الحكومات العربية بها واعتبرتها عضوا في جامعة الدول العربية وقررت لها ميزانية سنوية في نطاق الجامعة بالاضافة الى التبرعات التي تجمع لها في مختلف المناسبات من بلاد العرب وغيرها وصار لها ممثلون في الدول العربية وغيرها واعترف بها بعض الدول الصديقة فكسبت حركة الجهاد والنضال بهذه الخطوة صبغة رسمية شرعية وازداد نشاط الحركة النضالية والسياسية وضراوتها . واشتدت الاصوات الدولية التي تطالب فرنسة بالتخلي عن موقفها الارعن وزعمها بان الجزائر جزء من فرنسة ومسايرة المنطق والحق ووضع حد للمجزرة البشرية التي تقوم على ارض الجزائر كما اشتدت الاصوات الافرنسية التي تطالب بمثل ذلك ايضا .

ولم يسع فرنسة بزعامة ديغول ايضا ان تستمر على عدم مبالاتها

ولا سيما ان الحركة ظلت اعظم مشكلة افرنسية تستنزف دماء فرنسة واموالها فعمد هذا الزعيم الى مناورة مسرحية حيث اذاع في تشرين الاول ١٩٥٩ بين يدي الدورة الخريفية لهيئة الامم عرض فرنسة بوقف النار مقابل اعترافها بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم في استفتاء يجري بعد وقف النار ولهم ان يقرروا الانفصال والاستقلال او الاستقلال الذاتي في نطاق الاتحاد الافرنسي أو الاندماج التام مع فرنسة والتمتع بجميع حقوق الافرنسيين • غير انه لغم تصريحه بالغام تنسفه نسفا تاما حيث عين مدة لا تقل عن اربع سنين بعد وقف النار لاجراء الاستفتاء وقال ان اختيار الانفصال سيكون كارثة من المستحيل ان يقرره الجزائريون ، وان الاستفتاء سيكون فرديا فاذا طلب فريق الاندماج وفريق الانفصال فتقسم الجزائر ويخصص لكل فريق مكان فيها وان اهل فرنسة سيستفتون في تتيجة الاستفتاء الجزائري ولا يكون هذا نافذا الا اذا وافقت عليه اكثريتهم ، وان النفط الذي اكتشفه الافرنسيون سيظل من نصيبهم مهما كانت تتيجة الاستفتاء مما لا يدخل في نطاق منطق غير منطق الاستعمار والعقلية الافرنسية الرعناء المتحجرة •••

ورغم ذلك فقد هاج المستعمرون الافرنسيون وماجو وقامت قيامتهم وهددوا وانذروا بل وثاروا فسارع ديغول ورئيس وزرائه الى تطمينهم الى الاعلان بان الاستفتاء سيكون تحت اشراف السلطات الافرنسية وحسب • حيث ينطوي في ذلك تطمينهم بان الاستفتاء سوف يكون كما يشاؤون •

ومع ان ما احتواه تصريح ديغول من الغام وما تبعه من اعلان وتطمين اثبت للملأ انه كان مناورة خادعة للرأي العام الدولي وحسب فان الحكومة الجزائرية ارادت ان تثبت حسن نيتها وتكشف المناورة بصورة اوضح فاذاعت بيانا سجلت فيه على فرنسة اعترافها بحق الجزائريين بتقرير مصيرهم واعلنت استعدادها للتفاوض مع مندوبي

فرنسة في بلد محايد على شروط وقف النار والاستفتاء فرفض ديغول مفاوضتها وقال انه لا يفاوض الا الذين يتولون قيادة الثورة وعلى شروط وقف النار وحسب ، وقابلت الحكومة رفض ديغول بمناورة بارعة فاعلنت تفويضها للزعماء الخمسة الذين كانوا يتولون الثورة واعتقلتهم السلطات الافرنسية في الجزائر غدرا على ما اشرناه اليه قبل وهم اعضاء في الحكومة في الوقت نفسه ولكن ديغول رفض وقال انه لا يفاوض الا الذين يتولون الحركة فعلا في ميدانها حيث ظهر من كل ذلك عبث ديغول وحكومته وسوء نيتهم وعدم الجد في الخطوة التي اعلنوها .

وحينئذ أعلنت الحكومة الجزائرية انها سوف تستمر في الجهاد والنضال الى ان تضطر فرنسة الى التراجع عن عنادها وصلفها وعقليتها المتحجرة ، ومن ثم اخذت صولات الثورة تشتد ضراما ولهيبا .

وفي دورة هيئة الامم المتحدة في خريف عام ١٩٥٩ اثيرت القضية امام الهيئة من طرف كتلة الدول الآسيوية الافريقية ودافع ممثلوا هذه الكتلة دفاعا قويا عن وجهة نظر الحركة الجزائرية التحررية وطالبوا هيئة الامم باقرار حق الجزائر في مصيرها وباستنكار استمرار الحرب الجزائرية الوحشية وبتوصية الطرفين بالمفاوضة على شروط وقف النار والاستفتاء .

ومع ان الاقتراح الذي قدمته الكتلة نال الاكثرية اللازمة فقرة فقرة ـ وهذا انتصار عظيم ـ فانه لم ينل هذه الاكثرية حينما صوت عليه بمجموعه نتيجة لمساعي فرنسة وحلفائها مع الدول الصغيرة التي تدور في فلكها رغم ما في ذلك من وصمة عار وخيانة وتنكر للمنطق والضمير مما اثار دهشة المراقبين وجعلهم يعدونه اغرب حادث تصويتي لهيئة الامم ، ومما جعل رجال الحكومة الجزائرية وقادة الجهاد يدلون بتصريحات قوية يعلنون فيها التصميم على الاستمرار على الجهاد والنضال الى ان تتحقق اهداف شعبهم في الاستقلال والسيادة وكون

هذا الموقف ان يفت من عضدهم بل سيزيد حركة النضال استعـارا • ولم تلبث هذه الحركة ان اخذت تشتد اكثر من ذي قبل •

وقد حظيت قضية الجزائر وجهادها باهتمام عظيم في الاوساط الافريقية الآسيوبة • وكـان من آخر مظاهر ذلـك قرارات المؤتمر الافريقي الآسيوي الذي عقد في كوناكري بافريقية في نيسان عام١٩٦٠ والذي شهده ممثلون عن حكومات وشعوب معظم الامم الافريقيـة والآسيوية • وقد تضمنت هذه القرارات اعلانا بالتصميم على تـأييد الجزائر في جهادها ودعوة الى الـدول الآسيوية الافريقية بالاعتراف بحكومة الجزائر ومدها بكل مدد مادي ومعنوي والدعوة الى انشاء فرق متطوعة لتجاهد الى جانب الجزائريين • ونتيجة لذلـك اعلنت حكومة الجزائر استعدادها لقبول المتطوعين من كل امة فاخذت تنهال علـى مكاتبها في عواصم آسيا وافريقيـة طلبات التطوع بحمـاس شديـد •

والحال على هذا حينما دفعنا هذا الفصل الى الطبع • ولا يداخلنا شك في ان الجهاد سيستمر قويا حيا وسيظل يزعج فرنسة ويستنزف قواها المالية والعسكرية الى ان يحقق غايته فتتحرر الجزائر من ربقـة فرنسة ويتوطد السلطان العربي فيها كما تم ذلك للاقطار الاخرى في القريب العاجل ان شاء الله • وهو ما يتوقعه معنا المراقبون الاجـانب والعرب على السواء •

ملحق

يحتوي موجز تاريخ وسيرة الدول البربرية

في شمال افريقيا في ظل العروبة والاسلام

تمهيـــــد

لقد قلنا قبل ان عددا من الامارات والدول البربرية الارومة قد اخذ يقوم في مختلف انحاء المغرب العربي منذ القرن الثاني للهجرة ، وان هذه الامارات والدول وان كان الذين أنشأوها بربر الارومة فانها نشأت في ظل العروبة والاسلام وهي عربية اسلامية في طابعها واسمائها وتقاليدها وسائر صور حياتها ونشاطها على ما يتضح من سيرتها ، وقد صار من المفيد والمتصل بمنهج الكتاب والحالة هذه ان يحتوي هذا الجزء موجزا لسيرة هذه الدول والامارات .

الدولة الواسولية المدرارية

ينتسب ملوك هذه الدولة الى قبيلة بجيله من قبائل مكناسة الكبرى • ومنشؤها ابو القاسم سمكو بن واسول • واسم مدرار نسبة الى احد ملوكها • وكانت هذه القبيلة استجابت الى دعوة الاباضية الخارجية التي دعا اليها عيسى بن يزيد أحد رؤساء هذه الدعوة في المغرب • فلما مات تولى رئاسة الدعوة ابو القاسم واغتنم فرصة اضطراب في المغرب الاقصى فتسمى باسم الامامة واختط مدينة سجلماسه واتخذها عاصمة له •

وقد امتد عمر هذه الدولة نحو مئتي سنة أي من سنة ١٥٤ الى سنة ٣٦٦ هـ وتولى رئاستها سبعة عشر ملكا وهم :

ابو القاسم سمكو بن واسول	من ١٥٤ — ١٦٧	
الياس بن سمكو	من ١٦٧ — ١٩٤	وخلع
اليسع بن سمكو	من ١٩٤ — ٢٠٨	
مدرار بن اليسع	من ٢٠٨ — ٢١١	وخلع
عبد الرحمن بن مدرار	من ٢١١ — ٢١١	
مدار بن اليسع ثانية	من ٢١٢ — ٢٥٣	
ميمون بن مدرار	من ٢٥٣ — ٢٦٣	
محمد بن ميمون	من ٢٦٣ — ٢٧٠	
اليسع بن مدرار	من ٢٧٠ — ٢٩٦	وقتل
الفتح بن ميمون	من ٢٩٧ — ٢٩٩	
أحمد بن ميمون	من ٢٩٩ — ٣٠٨	وخلع
المعز بن شاور بن ميمون	من ٣٠٨ — ٣١١	
محمد بن المعتز	من ٣١١ — ٣٢١	

سمكو بن محمد	من ٣٢١ ـــ ٣٢٣ وخلع
محمد بن الفتح الشاكر بالله	من ٣٢١ ـــ ٣٤٧ واسر
المنتصر بالله ابن الشاكر	من ٣٥١ ـــ ٣٥٢ وقتل
محمد بن الشاكر	من ٣٥٢ ـــ ٣٦٦ وقتل

وقد تقلبت هذه الدولة في ادوار • وكان ينشب بين امراء الاسرة تنافس على الحكم فيؤدي ذلك الى الفتن وقد خلع وقتل نتيجة لذلك سبعة من ملوكها • وبرغم انهم كانوا يعتنقون فكرة الخوارج الاباضيين فانهم كانوا يدعون على منابرهم للخلفاء العباسيين مما هو غريب ومما يدل على ما كان تشاد وتنافس عــلى السلطان في المغرب واستغلال البربر لهما بسبيل توطيد سلطانهم الاقليمي ••

واعظم ملوك الدولة اليسع بن سمكو حيث استفحل في عهــده عمران سجلماسة وامتد سلطانه حتى شمل انحاء واسعة من المغرب ، واصهر الى ملوك تاهرت آل رستم بتزويجابنه مدرار بابنة عبدالرحمن الرستمي وكان ذلك من اسباب توطد سلطانه •

ولم يسجل المؤرخونلغيره من ملوك الدولة مآثر سياسية او حربية او عمرانية ذات بال • وقد انقضى باقي القرن الثالث في تنافس فيما بين امراء الاسرة المالكة شغلهم عن ذلك على ما يبدو •

وقد خضعت هذه الدولة لسلطان الفاطميين حينمــا قامت واشتد سلطانها • وزاحمهم الامويين في الاندلس عليها وزحف سنة ٣٦٦ هـ قائد من قوادهم على سجلماسة فاستولى عليها وقتل آخر ملوكها فكان ذلك نهايتها[١] •

---

(١) انظر سيرتها فيتاريخ ابنخلدون ج ٦ ص ١٣٠ــ١٣٢ والاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى ج ١ ص ٥٥ ـــ ٥٦

— ٢ —

الدولة الرستمية

منشيء هذه الدولة عبد الرحمن رستم الفارسي الارومة[١] • وقد سلكناها في سلك دول البربر لان البربر كانوا عمادها • وقد وصفت بسبب ذلك بصفة الدولة البربرية[٢] •

وكان عبد الرحمن قاضيا في طرابلس واباضي المذهب • وكان في اقليم الجزائر قبيلة بربرية الارومة تعتنق مـذهب الصفرية الخوارج وتعيث في البلاد فسادا فانتدب والي طرابلس القاضي لقتالهم فقـام بالمهمة وانتصر عليهم • ثم وصل في سيره الى جبل سوفج المنيع فتوافد عليه اصحاب المذهب الاباضي من كل صوب وبايعوه بالامامة عام ١٩٦٠ه على ان يكون قائما بالقرآن والسنة والجهاد وسيرة الخلفاء الراشدين• فكان ذلك تدشينا لهذه الدولة التي امتد عمرها الى سنة ٢٩٩ ه وقد تولى عرشها بالمبايعة الشرعية وبلقب الامامة والخلافة ثمانية ملوك وهم:

عبد الرحمن بن رستم ــ ابنه عبد الوهاب ــ افلح بن عبدالوهاب ــ ابو بكر بن افـلح ــ ابو اليقظان بن افلح ــ ابو حاتم بن ابي اليقظان ــ يعقوب بن افلح ــ ابو حاتم مرة ثانية ــ اليقظان بن ابي حاتم •

والروايات مضطربة في سني حكم الملوك • ولهذا لم نر طائلا في ذكرها [٣] •

---

(١) انظر الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٧٨
(٢) انظر تاريخ الجزائر للسكان ص ١٧٠ ــ ١٧١
(٣) انظر الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٧٨

وكانت عاصمة الدولة مدينة تاهرت التي كانت مدينة قديمةمدمرة جددها عبد الرحمن وانشأ فيها المساجد والاسواق والحمامات والفنادق حتى صارت من اعظم مدن المغرب وصارت تسمى بغداد المغرب •

ولقد شمل سلطان هذه الدولة اقليم الجزائر الى تلمسان غربا وامتد الى الاقسام الداخلية من اقليم طرابلس الغرب حتى حدود مصر شرقا • وازدهرت ازدهارا عظيما في التجارة والصناعة والزراعة والعلم والادب ونمت ثروتها وتمتع أهلها بظلال وارفة من الامن والدعة• وقام فيها مدن كبيرة عامرة آهلة مشهورة مثل تنس ووهران وشلف والمدينة الخضراء وافكان وخزه وسوق ابراهيم واريغن واوزاكي والغدير وزلاغ ويلل وقصر الفلوس وكرا وغيرها • ومن مراسيها التي اشتهرت تنس ووهران ومرسي فروح •

وكان ملوك الدولة يتلقبون بألقاب الامام والخليفة ويلتزمون او يلتزم اكثرهم الزهد والتقشف ويشاورون اهل الحل والعقد في شؤون الدولة ويجرون على احكام القرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين •

ومما يروى في سياق سيرة عبد الرحمن ان الاباضيين في البصرة ارسلوا وفد اليه حينما بويع بالامامة يحمل اموالا طائلة ليستعين بها اخوانهم في المذهب على شؤون دولتهم •

وكان عبد الوهاب الذي خلف اباه متحليا بصفات ابيه • وقد ازدهرت الشؤون الاقتصادية والعمرانية في عهده • وامتد سلطان الدولة الى الاقسام الداخلية من اقليم طرابلس التي كانت مأهولة بالاباضيين • وكان عهد افلح ابنه عهد قوة وازدهار ايضا • فاستمر ازدهار الشؤون الاقتصادية والعمرانية وتمتع الناس بالعدل والامن والرفاه • وكان ابو بكر ابنه الذي خلفه محبا للاداب والفنون ولكنه كان ضعيفا في السياسة فارتبكت شؤون الدولة فتنازل عن الحكم

لاخيه ابي اليقظان الذي استطاع ان يعيد الامن والنظام الى نصابهما .

غير ان الحالة عادت فارتبكت بعده وقامت فتن مذهبية واستبد بعض الزعماء في حكم اقاليمهم . ثم نشب نزاع بين امراء الاسرة فازداد وهن الدولة وارتباكها .

وفي اثناء ذلك كانت الدعوة الفاطمية اخذت تنتشر وتقوى فقامت الدولة الفاطمية ولم يلبث المهدي أول خلفائها ان وجه حملة الى تاهرت فاستولت عليها وفتكت باليقظان آخر ملوكها واكثر افراد اسرته في سنة ٢٩٩ فكان ذلك نهاية هذه الدولة[1] .

(١) انظر سيرة الدولة في تاريخ الجزائر للعكال ص ١٦٣ ــ ٢٠٢

— ٣ —

دولة ابي العافية المكناسية

لقد انشأ هذه الدولة موسى بن ابي العافية المكناسي الذي ذكرنا في سياق الكلام عن التشاد الذي قام بين الامويين والفاطميين على المغرب الدور الذي قام به •

وقد استتب له السلطان الفعلي في هـذا المغرب سنة ٣٢٥ تحت سيادة الامويين • ثم خلفه فيه ابناؤه من بعده برغم استمرار التشاد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين • وكان هذا مما جعل نطاق سلطان موسى وخلفائه من بعده يتسع ويضيق تبعا لتطورات هذا التشاد •

ولقد امتد عمر هذه الدولة على هذا المنوال نحو مئة وعشرين سنة ٣٢٥ — ٤٤٦ ثم زالت على يد المرابطين •

وقد ولي عرشها من ذرية موسى عدد من الملوك ذكر المؤرخون منهم ابراهيم بن موسى ومدة حكمه ٣٢٧ — ٣٥٠ ه ، وعبد الله او عبد الرحمن بن ابراهيم ومدة حكمه ٣٥٠ — ٣٦٠ ، ومحمد بن عبدالله ومدة حكمه ٣٦٠ — ٣٦٣ ، والقاسم بن محمد ولم تقع على اسماء من تولى عرش هذه الدولة بعد القاسم مع ان المؤرخين ذكروا استمرار قيامها الى سنة ٤٤٦ ه •

ولقد برز زعيم قبائل زناته او ملكها فبسط سنة ٣٦٨ سلطانه على بوادي المغرب الاقصى ثم استولى على فاس من بني ابي العافية فانكمش سلطان هذه الدولة وان ظلت قائمة • ولعل هذا مما اضعف شأنها وجعل المؤرخين يغضون عن تدوين بقية ملوكها واخبارها • ولقد كان يخطب على منابرها للدولة الفاطمية ثم خطب للدولة الاموية الاندلسية نتيجة للتشاد الذي نوهنا به (١) •

---

(١) انظر سيرة هذه الدولة في تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٣٤—١٣٧ والاستقصاء ج ١ ص ٨١ — ٨٤

— ٤ —

الدولة المغراوية الزناتية

منشىء هذه الدولة يعلي بن عبد الله بن بكار زعيم قبيلة يفرن من ولقد زعم بعض النسابين ان زناته عربية الاصل من قيس عيلان • وقد وفد اثر شعر لشاعر لهم يدعى ذلك مفاخرا وهو :

ايها السائل عنا اصلنا قيس بن عيلان بنو العز الاول
ولنا الفخر بقيس انه جدنا الاكبر فكاك الكبل

غير ان اكثر الباحثين ومنهم بن خلدون يقررون انهم من البربر فسلكنا هذه الدولة في سلك الدولة البربرية بناء على ذلك • وعلى كل حال فدعوى عروبتهم تدل على ما كان من شدة اندماجهم بالعروبة وانطباعهم بطابعها العام ورغبتهم بالانتساب اليها وعلى ما كان للعروبة في نفوس البربر من مكانة وخطورة •

ولقد بسط زيري سلطانه على بوادي المغرب الاقصى سنة ٣٦٨ حينما انقرضت الدولة الادريسية ثم ملك فاس وغيرها فقامت دولته التي امتد عمرها الى سنة ٤٦٢ ه وتولى عرشها ستة ملوك وهم :

زيري بن عطية	٣٦٨ — ٣٩١
المعز بن زيري	٣٩١ — ٤٠٠
حمامه بن المعز	٤٠٠ — ٤٣١
دوناس بن حمامه	٤٣١ — ٤٥٢
فتوح بن دوناس	٤٥٢ — ٤٥٤
المنتصر بن حمامه	٤٥٥ — ٤٥٢

وقد اظهر الولاء للدولة الاموية في الاندلس • غير انه كان معتدا

بنفسه كثيرا فاصطدم بالحاجب المنصور المتغلب على الخليفة هشام الثاني (٣٦٦ ــ ٣٩٨ هـ) وادى هذا الى اسقاط الحاجب اسم زيري من الوزارة فقابله باسقاط اسمه من الخطبة فسير الحاجب عليه حملة هزمها فارسل حملة ثانية جرح زيري فيها ثم توغل في الصحراء وجمع قبائل زناته ومغراوه ثم زحف بها ودخل مدينة تاهرت واستولى على بلاد الزاب بما فيها مدن تلمسان وشلف والمسيلة • غير ان جرحه انتقض عليه فمات فلما تولى ابنه مكانه اتصل بالحاجب وصالحه فاستقام امر الدولة بذلك بدون حوادث هامة الى زمن فتوح حيث خرج عليــه أخ له • واغتنم بلكين الصنهاجي ملك الدولة الحمادية الفرصة فزحف على فاس واستولى عليها غير ان المنتصر تمكن من استردادها • وفي هذه الاثناء كــانت حركة المرابطين تقوى وتتسع فاشتبك معهم المنتصر في نضال انتهى بانتصارهم والقضاء على الدولة المغراوية على يد أمير المسلمين السلطان يوسف بن تاشفين عام ٤٦٢ هـ[١] •

---

(١) سيرة الدولة في تاريخ ابن خلدون ج٧ ص ٢٨ــ٣٦ والاستقصاء ج ١ ص ٩١ ــ ٩٧

الدولة اليفرنية

منشيء هذه الدولة يعلي بن عبد الله بن بكار زعيم قبيلة يفرن من زناته . كان ابوه حاكما محليا على ناحية تلمسان فخلفه واستبد بالحكم واستولى على وهران واتخذها عاصمة له سنة ٣٤٣ هـ فقامت دولته التي عمرت الى سنة ٤٦٢ هـ وتولى عرشها سبعة ملوك وهم :

يعلي بن بكار الى سنة ٣٤٧
ابنه بدوي الى سنة ٣٨٧
قريبة حمامه ؟
تميم اخو حمامه الى سنة ٤٤٦
حماد بن تميم الى سنة ٤٤٩
يوسف بن حماد الى سنة ٤٥٨
محمد بن تميم الى سنة ٤٦٢

وكان يعلي يدين بالطاعة والولاء للدولة الاموية . وتصدى له الفاطميون في سنة ٣٤٧ فوالاهم ولكنهم قتلوه .

وقد استولى ابنه على فاس فتصدى له زيري بن عطية واخذها منه وقتله مع عدد كبير من قومه . فالتف اليفرنيون على زعيم اسمه حمامه الذي قاد المصاولة مع زيري وتمكن من الصمود في وجهه . وقد تولى المصاولة معهم اخوه تميم وتمكن من استرداد فاس لفترة قصيرة من المغراويين ثم تخلى عنها . وظلت امور الدولة بعده مستقيمة الى ان اصطدمت بحركة المرابطين في عهد محمد آخر ملوكها فنشب القتال بينه وبينهم وكتب النصر فيه لهم وقتل هو في المعركة سنة ٤٦٢ فكان في ذلك نهاية الدولة (١) .

---

(١) سيرة الدولة في تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ١٧ — ٢١

- ٦ -

الدولة الخرزونية في سلجماسة

رأس هذه الدولة خرزون بن فلفول احد زعماء مغراوة الزناتية . وقد استسنح فرصة اضطراب ألم بالدولة الواسولية سنة ٣٥٢ ﻫ فاستولى على سجلماسة . ومع ان احد ملوك بني مدرار استردوها فانه عاد واستولى عليها سنة ٣٦٧ ﻫ فقامت منذئذ هذه الدولة التي عمرت سبعين سنة تولى العرش خلالها بعد خرزون ابنه وانودين ثم مسعود ابن وانودين .

وقد اظهر خرزون الولاء للدولة الاموية الاندلسية . ولما مات زحف عطية بن زيري المغراوي على سجلماسة واستولى عليها وطرد وانودين بن خرزون منها سنة ٣٩٠ ﻫ غير انه تمكن من استردادها وتوسيع نطاق سلطانه فاستفحل امره . وفي زمن ابنه مسعود قامت حركة المرابطين فاشتبك معهم فانتصروا عليه وقتلوه واستولوا على ما تحت يده فكان ذلك نهاية الدولة[١] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٧ ـ ٣٩

الدولة الخرزونية في طرابلس

رأس هذه الدولة ابن فلفول اسمه سعيد انحرف عن طاعة الامويين ونزح الى المغرب الاوسط فتلقاه منصور الصنهاجي ملك هذا المغرب بالتكريم وعينه حاكما على احدى بلدانه سنة ٣٧٧ هـ فلما مات تولى ابنه فلفول مكانه وفي سنة ٣٩١ هـ تقدم نحو طرابلس وقابس وكانت الحالة فيهما مضطربة ففرض سلطانه عليهما واتصل بالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) فأقره على ذلك فكان ذلك تدشينا لقيام هذه الدولة التيعمرت نحوقرن وربع مع بعض اضطراب وتقطع وقد تولى بعد فلفون ابنه ورواو ثم خليفة بن ورواو ثم المنتصر احد رجال الاسرة الخرزونية ثم آخرون ، قال ابن خلدون انه لم يحضره اسماؤهم • وقد اصطدم ورواو مع باديس الصنهاجي بسبب ولائه للفاطميين وكانت مصاولة بينهما تشتد حينا وتخف حينا وقد خرج حكم طرابلس من ورواو لفترة من الوقت نتيجة لذلك • وفي زمن المنتصر الذي تولى بعد ورواو جاءت قبائل بني هلال وبني سليم الى افريقية فتألفهم وتحالف معهم واستعان بهم على توطيد ملكه • وفي الربع الاول من القرن السادس طمح روجار ملك صقلية الى مد حكمه الى السواحل الافريقية فسير اسطوله الذي استطاع ان يستولي على طرابلس في جملة ما استولى عليه من الثغور الافريقية فكان ذلك نهاية هذه الدولة [1] •

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٣٩ — ٤٤

دولة بني خرزون في تلمسان

وهـذه الدولة من نفس الارومة السالف ذكرهـا ايضا • وأول رؤسائها يعلي بن محمد الذي كان يتزعم زناته في المغرب الاوسط في اواخر القرن الهجري الرابع • وقد استسنح فرصة اضطراب الامور في المغرب الاوسط والمنازعات بين الصنهاجيين والمغراويين فاستولى على تلمسان وفرض سلطانه عليها وعلى ضواحيها • ولما مات ظل سلطان هذه البلاد في عقبه — وهذه عبـارة ابن خلدون دون ذكر اسماء — واستوسق ملكهم واختلفت ايامهم مع بني حماد الصنهاجيين سلما وحربا ولما دخل الهلاليون افريقية واقتسموا اعمالها بعد غلبتهم المعز بن باديس نشبت المصاولة بينهم وبين بني يعلي وكان أمير تلمسان في عهـدهم يحيى • ومات هذا اثناء المصاولة فتولى مكانه ابنه العباس • وكان ذلك في اواسط القرن الهجري الخامس • وفي هذه الظروف ظهرت حركة المرابطين وقويت واخذت تفرض سلطانها على بلاد المغرب • وقد سرح يوسف بن تاشفين جندا نحو تلمسان فبرز اليهم المعلى بن العباس وتمكن من صدهم وقتل قائدهم وهزيمتهم • وظل امرهم مستقرا الى سنة ٤٧٣ حيث تفرغ لهم يوسف بن تاشفين فزحف بنفسه على تلمسان واستولى عليها وقتل اميرها العباس وعددا آخر من بني يعلى وجماعة كبيرة من مغراوة وبسط سيطرته على المنطقة فكان ذلك آخر عهد هذه الدولة[1] •

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٤٤ — ٤٦

دولة المرابطين

هذه الدولة من دول البربر الكبرى • وينتمي أعضاؤها الى قبيلة لمتونه احدى قبائل صنهاجة الكبرى • وينسبها بعض النسابين الى حمير حتى أثر شعر فيه تقرير لذلك مع التباهي به وهو هذا :

قوم لهم درك العلا في حمير — واذا انتموا صنهاجـة فهم هم
لما حووا اطراف كـل فضيلة — غلب الحياء عليهم فتلثموا (١)

غير ان ابن خلدون وغيره يقررون ان صنهاجة من البربر ويصفونها بأعظم قبائل البربر • وهذا ما جعلنا نسلكها في سلك دول البربر • ودعوى صنهاجة بالعروبة تدل على شدة اندماج هذه القبيلة وفروعها ومنها لمتونه بالعروبة وانطباعها بالطابع العربي •

وحركة المرابطين في بدئها حركة دينية تبشيرية • قام بها زعيم لمتونه ابو عبد الرحمن حيث اضطلع بنشر الاسلام في الصحراء السودانية ومحاربة الصادين عن سبيل الله في أواخر القرن الرابع ولما مات اضطلع زعيم آخر اسمه يحيى الكدالي بالدعوة ثم خلفه فيها زعيم آخر اسمه يحيى بن عمر •وقد استطاع هذا ان يفرض حكمه على الصحراء ويكتسح اماكن عديدة من المغرب الاقصى من جملتها سجلماسة ونواحيها ويقضي على دولة ابي العافية ويحارب المنكرات ويزيل المكوس • ومات سنة

(١) كان المرابطون يتلثمون حتى ان دولتهم كانت تسمى احيانا دولة الملثمين . وعبارة تلثموا تشير الى ذلك . والشعر قيل في صدد دولة المرابطين . اما اسم المرابطين فهو آت من اسم دار لهم لطلبة العلم انشأها احد مشايخهم وسماها دار المرابطين .

٤٤٧ هـ فتولى اخوه ابو بكر عمله وسار على خطواته • واستطاع ان يبسط سلطانه على بلاد السوس والمصامدة وزناته ومكناسة فغدت حركته دولة ذات سلطان واسع وقوة مرهوبة • واتخذ اغمات عاصمة له ثم انتقل الى سجلماسة وتلقب بأمير المسلمين فقامت بذلك دولة المرابطين التي عمرت نحو مئة سنة وتولى عرشها خمسة ملوك وهم :

ابو بكر بن عمر من ٤٤٧ ــ ٤٥٤

يوسف بن تاشفين بن ابي بكر من ٤٥٤ ــ ٥٠٠

علي بن يوسف من ٥٠٠ ــ ٥٣٧

تاشفين بن علي من ٥٣٧ ــ ٥٣٩

اسحق بن تاشفين من ٥٣٩ ــ ٥٤١

واعظم ملوك الدولة وصاحب مجدها يوسف بن تاشفين وهو الذي انشأ مدينة مراكش التي غدا اسمها علما على المغرب الاقصى وحصنها بالاسوار واتخذها عاصمة له • وقد بذل جهوده في توطيد سلطانه في مختلف انحاء المغرب الاقصى واستطاع ان يبسط سيطرته عنوة وسلما على جميع مدنه وحصونه وسهوله وجباله وسواحله وقبائله وان يقضي على معظم ما فيه من امارات ويوحده تحت رايته • وكان يتلقب بلقب السلطان وامير المسلمين كما كان متقشفا في مأكله ومشربه متحريا للشريعة محبا للعلماء عاملا بنصائحهم متواضعا رؤوفا بالرعية •

وأعظم اعماله بعد توطيد سلطانه بالمغرب نجدته للاندلس التي اغتنم الافرنج سقوط الدولة الاموية وتناحر الامراء الذين استبدوا بحكم الاقاليم فيها فأخذوا يغيرون عليها ويثخنون بالمسلمين فتكا وسبيا ونهبا ويستولون على بلادهم • وقد استنجد به امراء الاندلس فاجاز الى الاندلس مرارا عديدة واستطاع ان يوقع بالافرنج الهزائم الشديدة ويسترد كثيرا من البلاد التي استولوا عليها ويثخن فيهم ويعيد مجد الاسلام وعزته بالاندلس • ومن المعارك الحاسمة التي كسبها معركة الزلاقة •

وقد سار على خطة تصفية الامارات الاندلسية الاسلامية العديدة

التي كانت تتناحر فيما بينها وتوحيدها تحت سلطانه وبدأ ذلك في اولى غزواته بغرناطة ومالقة حيث الامارة فيهما لامراء من صنهاجة ثم قضى على حكومات بني طاهر في مرسيه وبني عامر في دانيه وبني عباد في اشبيلية وبني صمادح في المرية • وحاول المعتمد بن عباد المقاومة فاستعمل العنف واعتقله وسجنه في اغمات •

قد اشار عليه العلماء بالدعاء للخليفة العباسي على المنابر فعمل باشارتهم وارسل الى الخليفة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧ — ٥١٢ ﻫ) رسلا يحملون الهدايا مع رسالة بما فتح الله عليه وما فعله لتعزيز راية الاسلام •

وكان عهد ابنه على عهد قوة وعظمة ايضا • وقد سار على قدم ابيه في تسيير الحملات الى الاندلس والعبور بنفسه لمجاهدة الافرنج وارهابهم واستطاع ان يسترد اماكن كثيرة لم يقسم لابيه استردادها كما تابع خطة ابيه في تصفية الامارات الاندلسية وبسط حكمه عليها وكان من ذلك امارة بني الافطس في بطليوس وبني هود في سرقسطة • فغدت بذلك معظم البلاد الاندلسية الاسلامية موحدة مع المغرب تحت سلطان المرابطين وصار سلطانهم يمتد من افراغه في اقصى الاندلس الى لشبونه على البحر المحيط وما يلي خطها الى البحر الابيض فضلا عن جميع المغرب الاقصى الى آخر بلاد السوس وجبال الذهب من بلاد السودان •

وفي زمن تاشفين بن علي قويت حركة الموحدين التي سيرد ذكرها بعد واستطاعت ان تبسط سيطرتها على بلاد ومدن وقبائل عديدة في المغرب الاقصى • فتصدى لها وتصاول معها فقويت عليه وهلك اثناء ذلك فتولى ابنه اسحق المصاولة ولكن الموحدين تغلبوا عليه في النهاية حيث زحفوا على مراكش عام ٥٤١ واستولوا عليها وقتلوا اسحق فكان ذلك آخر عهد الدولة[١] •

---

(١) سيرة دولة المرابطين في تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ وبعدها والاستقصاء ج ١ ص ١٠٥ وبعدها

— ١٠ —

دولة الموحدين

وهذه دولة كبرى من دول البربر ، وكانت حركتها في البدء دينية لمحاربة البدع والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة لله وحده ، ومن ذلك اسمهم ، وقد قام بها محمد بن تومرت الذي ينسبه بعضهم الى العترة النبوية وبعضهم الى هرفه من بطون قبائل المصامدة ، وقد تلقب بالمهدي ، واخذ يطوف في بلاد المغرب يدرس ويعظ ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وتابعه مريدون واتباع كثيرون وانتشر اسمه وصيته ، وتصدى له عامل المرابطين فتمكن هو واتباعه عن التغلب عليه فقويت بذلك حركته ، ولما مات المهدي سنة ٥٢٤ ه اتفق اصحابه المقربون العشرة على مبايعة احدهم عبد المؤمن بن علي خليفة للمهدي، وهو من قبيلة كومه احدى بطون سصموده ، فقام بالامر حق القيام وتمكن من توطيد سيطرته على انحاء كثيرة اخرى من المغرب الاقصى واخذ الناس ينضوون اليه افواجا ، وتصدى تاشفين بن علي المرابطي للموحدين فغلبوه وقتلوه في سنة ٥٣٩ ه ثم زحفوا على مراكش سنة ٥٤١ فاستولوا وقضوا على آخر ملوكها اسحق المرابطي واتخذوها عاصمة لهم فكان ذلك توطيدا لدولة الموحدين التي عمرت نحو قرن ونصف وتولى عرشها ثلاثة عشر ملكا كانوا يتلقبون بلقب أمير المؤمنين وهم :

عبد المؤمن بن علي	٥٤١ — ٥٥٨
يوسف بن عبد المؤمن	٥٥٨ — ٥٨٠
المنصور يعقوب بن يوسف	٥٨٠ — ٥٩٥
محمد الناصر بن يعقوب	٥٩٥ — ٦١٦

المنتصر يوسف بن يعقوب	٦١٦ — ٦٢٠
ابو محمد عبد الواحد بن يوسف	٦٢٠ — ٦٢١
العادل محمد بن منصور	٦٢١ — ٦٢٤
المأمون بن المنصور	٦٢٤ — ٦٣٠
ابو محمد عبد الواحد الرشيد	٦٣٠ — ٦٤٠
ابو حسن علي السعيد	٦٤٠ — ٦٤٦
ابو حفص عمر المرتضى	٦٤٦ — ٦٦٥
ابو دبوس ابو العلا الواثق بالله	٦٦٥ — ٦٦٨

وعبد المؤمن هو صاحب الفضل في توطيد سلطان الدولة وتوسيع نطاقه • فهو الذي قضى على دولة المرابطين وملك المغرب الاقصى • ثم قضى على الدولتين الصنهاجيتين الزيرية والحمادية في المغرب الاوسط وكان خارجا عن سلطان المرابطين • وقد كان صاحب صقلية غزا ثغور المغرب الاوسط وتمكن من الاستيلاء على صفاقس وسوسه والمهدية وطرابلس الغرب فجد حتى استردها وبسط سلطانه عليها سنة ٥٥٤ ه وكان الافرنج استأنفوا عدوانهم على بلاد المسلمين في الاندلس فاستنجد المسلمون بعبد المؤمن فبادر الى نجدتهم بحملة قويةسنة ٥٣٩ ثم اردفها بمدد آخر فاخذت تتصاول مع الافرنج وتسترد منهم مادخل في ايديهم وتبسط سلطان الدولة الجديدة على الاندلس • وهكذا غدت جميع بلاد المغرب الاقصى والاوسط الى طرابلس وبلاد الاندلس في نطاق سلطان هذه الدولة •

وقد استمر عبد المؤمن على ارسال النجدات الى الاندلس واسترداد ما كان في ايدي الافرنج • وثار محمد بن مرنيش احد زعماء المسلمين المولدين في الاندلس ثورة عاتية فعبر عبد المؤمن بنفسه الى الاندلس بحملة قوية لقمع هذه الحركة من جهة وتقوية الجهاد ضد الافرنج من جهة اخرى • وفي سنة ٥٥٨ ه اعد حملة عظيمة قيل ان عددها كان

اربعمائة الف مع اسطول ضخم لمجاهدة الافرنج ولكنه مات قبل العمل الذي تولاه ابنه يوسف •

ومما يروي عن عبد المؤمن انه امر بحرق كتب الفروع ورد الناس الى كتب الاصول واستنباط الاحكام منها فكان اول من ضرب سد باب الاجتهاد والتقليد • وهو الذي انشأ حصن جبل طارق ليكون نقطة ارتكاز قوية له في عدوة الاندلس • وفي عهده انتقل قسم كبير من قبائل العرب وخاصة بني هلال وبني سليم من المغرب الاوسط الى المغرب الاقصى وكان لهم نشاط في توطيد الدولة ومجاهدة الافرنج على ما شرحناه في مناسبة سابقة •

ولقد كان ابنه وخليفته يوسف عظيم الهمة والشجاعة ايضا فظلت الدولة في عهده تسير في طريق القوة والازدهـــار • وقد اغتنم ملك قستيليه من جهة وابن مردنيش من جهة اخرى فرصة موت عبد المؤمن فاستأنفا نشاطهما فجد يوسف في الامر واخذ يسير الحملات ثم عبر بنفسه الى الاندلس ولبث فيها خمس سنوات واستطاع خلالها ان يقمع حركة ابن مردنيش وان يتغلب على ملك قستيليه ويسترد منه ماستولى عليه من بلاد المسلمين • وقد مات في الميدان اغتيالا من قبـــل بعض فدائيي الافرنج •

واعظم ملوك الدولة هو يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور • فقد عظمت الدولة في عهده حتى بلغ حدها الشرقي برقه وازدهرت البلاد ونمتعت بالامن الوارف • وقد انشأ كثيرا من المساجد والمـــدارس والمستشفيات والصوامع والقناطر والجسور في مختلف مملكته •وكان عظيم البلاء والتوفيق في مجاهدة الافرنج الذين عادوا الى عدوانهم بزعامة ملك قستيليه • وقد بلغت اجازاته الى الاندلـــس ست مرات وكان في كل مرة يلحق بالافرنج الهزائم ويثخن فيهم ويسترد ما أخذوه من بلاد المسلمين بل وكان يتجاوزها الى بلادهم حتى اضطروا الـــى

التماس الهدنة والصلح • وكان لقبائل العرب في مجاهدة الافرنج تحت راياته بلاء عظيم •

وفي زمنه ثار ابن غانيه البربري في المغرب الاوسط ثورة عاتية وساعده قبائل العرب من بني سليم وبني هلال • فلما انتصر في جولة على الثائر نقل فريقا كبيرا من هذه القبائل الى المغرب الاقصى كما فعل جده من قبل •

ولما مات المنصور عاد الافرنج الى حركاتهم واستنجدوا بنصارى اوروبا فجاءتهم نجدات كبيرة فهيأ الناصر ابنه الذي خلفه حملة كبيرة واجاز بها الى الاندلس واخذ يشتبك مع الافرنج ولكنه مني في النهاية بهزيمة شديدة في المعركة التي عرفت بمعركة العقاب ، فكان ذلك بداية انهيار الدولة حيث مات الناصر غما بعد قليل • ونشبت بعد موته سلسلة من المنازعات بين ابنائه واخوته • وشجع الارتباك الذي ألم بالدولة بني مرين وبني حفص فتمكن الاولون من توطيد سلطانهم في بعض انحاء المغرب الاقصى واتخذوا الرباط عاصمة لهم وتمكن الآخرون من توطيد السلطان لانفسهم في المغرب الاوسط واتخذوا تونس عاصمة لهم •

واستمر النزاع بين الاخوة والاعمام حتى لقد استعان احدهم المأمون بملك قستيليه على تسنمه العرش مقابل التنازل عن حصون عديدة في الاندلس والسماح باقامة كنيسة وحامية في مراكش والسماح للاسبان بالاقامة في بلاده • وبلغ من حقده الى ان انقلب على اصل حركة الموحدين وامر باسقاط اسم المهدي من الخطبة والسكه بل وامر بلعنه ونعته بالغوى المذموم • وقوى هذا دولتي بني مرين وبني حفص • وتمكنت الاولى من بسط سلطانها على معظم المغرب الاقصى الذي انحصر سلطان الموحدين فيه ثم تمكنت في النهاية

من قتل ابي دبوس آخر ملوك الموحدين سنة ٦٧٤ مع كثير من اقاربه فكان ذلك نهاية هذه الدولة .

وكان للقبائل العربية نشاط وخير عظيمان في هذه الدولة ثم في أثناء المنازعات بين الاخوة والاعمام حيث كان فريق يناصر شخصا وفريق يناصر غيره على ما شرحناه في فصل سابق شرحا يغني عن التكرار[1] .

---

(١) سيرة الموحدين في تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ وبعدها والاستقصاء ج ١ ص ١٣٠ ـ ٢٦٢

بنو بدر أمراء السوس

ينتمي هؤلاء الى بني باداسن من بطون هنتاته احدى قبائل زناته الكبرى • واول من برز منهم علي بن بدر الذي اغتنم فرصة الضعف والارتباك الذي أخذ يلم بدولة الموحدين في منتصف القرن السابع الهجري فذهب الى السوس مع جماعة من قومه ونزل بحصن اسمه تانصاحت واستطاع ان يفرض سلطانه على هذه الناحية • ثم أخذ يمده الى اطرافها ويدخل في طاعته كثير من قبائل العرب والبربر فيها •فكان ذلك بدء هذه الامارة •

ولقد حاول ملوك الموحدين الآخرين ان يقمعوا حركته وسيروا عليه بعض الحملات ولكنهم اخفقوا فأدى ذلك الى استفحال امره في بلاد السوس • وقد تبطر عليه الاعراب لانهم كانوا عدتــه فزحف عليهم لاخماد نأمتهم ولكنهم صمدوا له وكسروه وقتل هو في المعركة • وكان ذلك سنة ٦٥٨ فتولى الحكم محله ابن اخيه عبد الرحمن • ولما مات هذا تولى الحكم أخ ثان له اسمه علي • وفي هذه الاثناء برزت الدولة المرينية واخذت ترث دولة الموحدين فقضت على هذه الامارة فيمـا قضت عليه من الامارات الاخرى[1] •

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٢ — ٢٧٤

— ١٢ —

دولة ابن غانية

ذكرنا في نبذة دولة الموحدين ثورة ابن غانية العاتية التي كانت في زمن هذه الدولة وضدها . وكان القائم بها علي بن محمد بن غانية من لمتونه التي ينتسب اليها المرابطون ، بحيث يمكن ان يقال انها كانت من ناحية ما ثأرية ضد الموحدين الذين قضوا على الدولة المرابطية، وقد امتدت هذه الثورة امدا طويلا وتوطد السلطان للقائمين بها من بني غانيه في مناطق واسعة من المغرب الاوسط وطرابلس ، مما جعل ابن خلدون يعقد لها نبذة خاصة ويسلكها في عداد دول البربر .

ولقد قام علي بن محمد بحركته الثورية في أواخر حكم يوسف، ابن عبد المؤمن الموحدي أي في الربع الاخير من القرن السادس واستمرت طيلة حكم المنصور يعقوب وشطرا من حكم الناصر بن يعقوب . ولقد قام بها اولا في منطقة بجايه وكان عدته جماعة من قبيلة لمتونه وجماعات اخرى من قبيلة منونه ثم جماعات عديدة من عرب بني هلال . وقد استطاع الاستيلاء على بجايه وفرض سلطانه عليها ثم زحف على الجزائر فافتتحها ثم افتتح مازونه ومليانه والقلعه وكان كل ما افتتح مكانا اقام فيه عاملا من قبله ولم يزل يفتح بلاد المغرب الأوسط الى ان وصل الى طرابلس . وقد اجتمع عليه هنا عرب ذياب ابن سليم فنهض بهم وبمن معه قبل الى جبل نفوسه فملكه ثم افتتح طرابلس وما وراءها والمنطقة المعروفة بالجريد . وقد استمال كافة بني سليم وما جاورهم من العرب في هذه المنطقة مثل جشم ورياح والاثبج وفرض لهم العطاء . فقام نتيجة لذلك لهم سلطان موطد وملك واسع .

وقد بعث ابنه الى الخليفة العباسي الناصر بن المستضيء ليجدد ما سلف لقومه المرابطين من بيعة وطاعة للخلفاء العباسيين وليطلب مددا ومعونة ، ورحب الخليفة بذلك فأرسل اليه تقليدا بالامارة وكتب للسلطان صلاح الدين الايوبي ملك مصر والشام بالتضامن والتعاون معه.

وزاد هذا في نشاطه فزحف على توزر وافتتحها وخلعت قنصه طاعته فزحف عليها وافتتحها عنوة للمرة الثانية واخضعها .

ولما جد الملك يعقوب الموحدي في أمره واخذ يتصاول معه ، قتل في بعض المعارك فتولى الحكم والقيادة اخ له اسمه يحيى . وقد استطاع هذا ان يصمد للموحدين ويتصاول معهم مع ما كان بلغ اليه أمرهم من قوة وان يجعل سلطانه موطدا في مناطق طرابلس والجريد وقابس وصفاقس وغيرها من المغرب الاوسط وان ينازل باجه ويستولي عليها ويهزم حملات الموحدين اكثر من مرة وان يستولي على مدن ومناطق اخرى مثل بكسرة وملبية والقروان وبونه والمهدية وفي النهاية تونس . وهكذا عظم سلطانه واستفحل امره اكثر من اخيه .

وفي هذه الاثناء مات يعقوب الملك الموحدي وتولى الحكم ابنه الناصر فتولى مصاولة ابن غانية بجد وظل يلاحقه واستطاع ان يهزمه اكثر من مرة وان يسترد ما كان دخل في حكمه مكانا بعد مكان وان يقضي عليه في النهاية في سنة ٦٠٦ هـ[١]

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٩ ــ ١٩٨

الدولة المرينية

وهذه ايضا من دول البربر الكبرى • وينتمي ملوكها الى بني مرين احد بطون زناته • وقد بدأت حركتها في اوائل القرن السابع الهجري بزعامة زعيم من بني مرين اسمه عبد الحق بن محيو واصطدمت بالموحدين وتمكنت من الصمود لهم والاستيلاء على الرباط عام ٦١٦ ﻫ فكان ذلك تدشينا لدولتهم التي عمرت الى سنة ٨٦٩ وتعاقب على عرشها :

عبد الحق بن محيو[1]	الى سة ٦١٦
عثما ن الاول	الى سنة ٦٣٧
محمد الاول	الى سنة ٦٤٩
ابو بكر بن عبد الحق	الى سنة ٦٥٦
ابو حفص بن ابي بكر	خلع في نفس السنة
المنصور بن يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦ — ٦٨٤
الناصر يوسف بن يعقوب	٦٨٤ — ٧٠٦
ابو ثابت عامر بن عبد الدين يوسف	٧٠٦ — ٧٠٨
ابو الربيع سليمان بن عامر	٧٠٨ — ٧١٠
ابو سعيد عثمان بن يعقوب	٧١٠ — ٧٣١
المنصور ابو الحسن علي بن عثمان	٧٣١ — ٧٥٢
المتوكل ابو عنان فارس ابن ابي الحسن	٧٥٢ — ٧٥٩
السعيد بالله ابو بكر بن ابي الحسن	٧٥٩ — ٧٦٠ وخلع

(١) الثلاثة الاولون لم يذكروا كملوك لهذه الدولة الا في كتاب الدول الاسلامية لمؤلف انكليزي ترجمه خليل ادهم الى التركية . اما سائر المؤخون فيذكرون الرابع كأول ملوك الدولة .

المستعين ابو سالم ابراهيم بن ابي الحسن	٧٦٠ ــ ٧٦٢ وقتل
ابو عمر تاشفين بن ابي الحسن	٧٦٢ ــ ٧٦٣ وخلع
المتوكل ابوزيان محمد بن ابي الحسن	٧٦٣ ــ ٧٦٧ وقتل
ابو فارس عبد العزيز بن ابي الحسن	٧٦٧ ــ ٧٧٤
السعيد ابو زيان محمد بن عبد العزيز	٧٧٤ ــ ٧٧٦ وخلع
المنتصر ابو العباس احمد بن ابي سالم	٧٧٦ ــ ٧٨٦ وخلع
المتوكل ابو فارس بن موسى بن ابي عثمان	٨٧٦ ــ ٧٨٨ وقتل مسموما
المنتصر ابو زيان بن ابي العباس	٧٨٨ ــ ٧٨٨ وخلع
الواثق ابو زيان محمد بن ابي الفضل	٧٨٨ ــ ٧٨٩ خلع وقتل
ابو العباس بن ابي سالم ثانية	٧٨٩ ــ ٧٩٦
المنتصر ابو فارس بن ابي العباس	٧٩٦ ــ ٧٩٩
ابو عامر عبد الله بن ابي العباس	٧٩٩ ــ ٨٠٠
ابو سعيد عثمان بن ابي العباس	٨٠٠ ــ ٨١٨ وخلع
عبد الله بن ابي العباس	٨١٨ ــ ٨١٩ خلع وقتل
عبد الحق بن ابي سعيد	٨١٩ ــ ٨٦٩

ولقد كانت فاس عاصمة هذه الدولة التي تقلبت في اطوار من القوة والضعف . وقد كثر التنافس والنزاع بين أمراء الاسرة حتى لم يكد عهد أي ملك يخلو من ثورة او تمرد او منافسة من ابن او اخ او عم على الجالس على العرش ، وبلغ عدد المخلوعين والمقتولين نتيجة لذلك اثني عشر ملكا وهذا فضلا عن تكرار الثورات من القبائل والمنازعات بين ملوك هذه الدولة وملوك المغرب الاوسط والاندلس.

ومع ذلك كان لها ادوار عظيمة وقوية طويلة ، وكان من ملوكها من تحلى بالهمة والصلاح وحب العلم والعمران والجهاد . وقد استطاعوا ان يبسطوا سلطانهم على المغربين الاقصى والاوسط ، وكان منهم بلاء عظيم في مجاهدة الافرنج في الاندلس حفظوا به هيبة الاسلام وعزته امدا طويلا .

ومن اعظمهم سادسهم المنصور يعقوب • وقد تغلب على بعض المنافسين له وتمكن من طرد الافرنج من ثغر سلا وقضى على دولة الموحدين واستولى على مراكش • وكان الذين تقدموه يخطبون لبني حفص ملوك تونس الذين تسموا بالخلافة فقطع خطبتهم • وكانت بينه وبين ملك تلمسان يغمراسن مصاولات مديدة كان يتمكن من التغلب عليه في اكثرها • وقد اغتنم الافرنج فرصة انحلال قوة الموحدين فعادوا الى اعتداءاتهم على البلاد الاسلامية في الاندلس فأرسل المسلمون وفودهم اليه يستغيثون ويستنجدون ويصفون ما يلقون من الافرنج وقد اثرت من ذلك قصيدة ارسلها ابن الاحمر سلطان غرناطة مطلعها :

هل من معين في الهدى او منجد
من متهم في الارض او من منجد

جاء فيها فيما جاء :

كم جامع فيها اعيد كنيسة … فأهلك عليه اسى ولا تتجلد
القس والناقوس فوق مناره … والخمر والخنزير وسط المسجد
اسفا عليها اقفرت صلواتها … من قانتين وراكعين وسجد
كم من اسير عندهم واسيرة … فكلاهما يبغي الفدا فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولة … فيهم تود لو انها في ملحد
كم من وليد بينهم قد ود من … ولداه ودا انه لم يولد
كم من تقي بالسلاسل موثق … يبكي لآخر في الكبول مقيد
افلا تذوب قلوبكم اخواننا … مما دهانا من ردى او ردى
أفلا تراعون الازمة بيننا … من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في اخوانكم … وسيوفكم للثأر لم تتقلد
ياحسرتي لحمية الاسلام قد … خمدت وكانت قبل ذا تتوقد
ابني مرين انتم جيراننا … واحق من في صرخة بهم ابتدي
كتب الجهاد عليكم فتبادروا … منه الى الفرض الاحق الاوكد
هذي الثغور بكم اليكم تشتكي … شكوى العديم الى الغنى الاوحد

فثارت حماسة السلطان وارسل الى ابن الاحمر جوابا بقصيدة مطلعها :

« لبيك لا تخشى اعتداء المعتدي »

واسرع فأرسل حملة عاجلة بقيادة ابنه سنة ٦٧١ هـ احرزت انتصارات عظيمة على الافرنج وردتهم على اعقابهم وغنمت منهم غنائم عظيمة • ثم على عزم الاجازة الى الاندلس بنفسه فاستعد لذلك استعدادا عظيما ، واستولى على سبته وطنجه الخارجتين عن نطاق سلطانه والواقعتين في طريقه ثم اجاز لاول مرة سنة ٦٧٤ هـ وعسكر في جزيرة طريف واخذ يسير منها السرايا الى بلاد الافرنج تدمر وتسبي وتنهب وتسترد بعض ما استولوا عليه وباشر بنفسه بعض الحركات الجهادية وعاد الى مراكش ثم اجاز في سنة ٦٧٦ هـ وخرج للقائه ملك قستيليه فهزمه هزيمة شديدة وقتل من جيشه مقتلة عظيمة ولم يكد هو ينجو الا بشق النفس وغنم المسلمون مقادير عظيمة من متاع المنهزمين وسلاحهم ومؤنهم واستمرت سراياه تعيث في ارض الافرنج الى ان اضطر ملكهم الى طلب الصلح والرضاء بأي شرط • وقد شرط عليه اطلاق اسرى المسلمين واداء غرامة باهظة واحترام دماء واموال وحقوق المسلمين في البلاد التي بحوزته فوافق • وثار عليه اهل مملكته وخاصة رجال الدين وخلعوه وطردوه وولوا ابنه مكانه وسارع هذا الى نقض الصلح • واستنجد المخلوع بالسلطان المريني فأجاز الى الاندلس للمرة الثالثة سنة ٦٧٨ هـ واقرض الملك المخلوع مئة الف دوكة ذهبية مقابل رهن تاجه الذي ظل سلاطين بني مرين يتوارثونه ويفتخرون به • وداخل ابن الاحمر خوف من السلطان فاتصل بالملك الجديد وعرض عليه التهادن والتحالف فرحب بذلك واخذ هو من جهة والملك الافرنجي من جهة يشوشون على السلطان حركاته ويضعون العراقيل امامه • واتصل ابن الاحمر بملك تلمسان الذي كان خصما للمنصور وحرضه

على السلطان ووعده بالمدد فأخذ يشتد من ناحيته في الغارة على اطراف المغرب الاقصى ويثير القبائل على السلطان المريني .

ولقد قابل السلطان المريني هذه الاحداث بحزم وجد . فسير حملة بقيادة احد اولاده لضرب ملك تلمسان واخرى بقيادة ابن آخر التنكيل بالقبائل الثائرة واخرى بحريه بقيادة ابن آخر الى الاندلس . وقد اشتبكت هذه الحملة باساطيل الافرنج وانتصرت عليها سة ٦٧٨هـ واستولت على معظم السفن الافرنجية واسرت عددا كبيرا من رجالها ومن جملتهم قائدها . وولت القوات الافرنجية النازلة في الجزائر الادبار تاركة اثقالها التي اخذها المسلمون غنيمة باردة .

وفي هذه الاثناء استرد الملك المخلوع عرشه الا انه لم يلبث ان مات فآل الملك الى ابنه الذي استأنف العدوان على البلاد الاسلامية وكان السلطان المريني قد اخمد ثورات المغرب وشرد ملك تلمسان فاجاز بنفسه لرابع مرة سنة ٦٨٢ هـ واخذ يسير السرايا والبعثات فتمعن في بلاد الافرنج نهبا وسبيا وتدميرا وقاد بنفسه حملة الى منطقة طليطلة واثخن فيها . وعاد الى الاستجمام ثم اجاز لخامس مرة سنة ٦٨٤ هـ واخذ يسرح جيوشه فتثخن في بلاد الافرنج وكان المدد متواصلا من المغرب يسد النقص ويشد الظهر واحتشدت جميع اساطيله التي روت الروايات انها كانت ستا وثلاثين مجموعة حتى ارهب الافرنج واضطر ملكهم الى طلب الهدنة كما اضطر ابن الاحمر الى طلب العفو والخضوع .

ومات الملك بعد قليل وخلفه ابنه يوسف الذي كان مثله مقداما نشيطا .

وقد عاد ملك تلمسان الى تحريكاته فاكتسح كثيرا من بلاده وضرب على عاصمته حصارا شديدا وطويلا ومات وهو محاصر لها .

وكان له بلاء عظيم في مجاهدة الافرنج الذين عادوا الى النقض والعدوان واجاز بنفسه الى الاندلس واخذ يسير السرايا ويقود بعضها

ويثخن في بلاد العدو . واشتبكت اساطيله باساطيل الافرنج فهزمنها ودمرت كثيرا منها . فسارع ملك الافرنج الى طلب الصلح والخضوع. ولقد عاد ابن الاحمر الى مخامرته وعاد ملك الافرنج الى نقضه غيران الملك المريني استطاع لثالث مرة ان يرغمهما ويضطرهما الى طلب الصلح والعفو بما بعثه من حملات كانت لها صولات جبارة .

وقد روى المؤرخون انه كان للقبائل العربية بلاء حسن في غزوات الاندلس في عهد الملك كما كان شأنها في عهد ابيه .

ومما روى من سيرته انه كان في حاشيته بعض اليهود فأوقعوا الفتنة بين رجال الدولة فثارت ضدهم نقمة شديدة سنة ٧٢٠ فصادر الملك اموالهم وطهر الدولة من رجسهم ومعرة رأستهم على حد تعبير مؤلف الاستقصاء .

ومن ملوك الدولة الصالحين ابو ثابت وابو الربيع وابو السعيد وابو الحسن وابو عنان . وقد اكتسبت الدولة في عهدهم رونقا وازدهرت حضارة وعلما وازدادت قوتها برا وبحرا . وقد وصف ابو الحسن بأنه افخم ملوكهم دولة واضخمهم ملكا وابعدهم صيتا واعظمهم ابهة واكثرهم أثارا . وكان ورعا دينا فنسخ بيده ثلاثة مصاحف مجزأة ونمقها وذهبها وجعل لها صناديق من الابنوس مصفحة بالذهب والفضة المزخرفة واهدى واحدا منها لمصر وآخر لمكة وآخر لبيت المقدس[1] .

وكانت صلاته مع ملك مصر المنصور قلاوون حسنة وتبادل معه الرسائل والهدايا . وكانت هديته دالة على ما كان عليه المغرب من الثروة والاناقة حيث كان من جملتها (٥٠٠) من عتاق الخيل المسرجة بالسروج المذهبة المفضضة و(٥٠٠) حمل من متاع المغرب وما عونه

---

(١) رأى المؤلف اجزاء هذه النسخة التي كانت تسمى الربعة في سنة ١٣٥٥ ــ ١٩٣٥ م حيث كانت في متحف الحرم القدسي وهي آية في الرونق والاناقة والتذهيب .

واسلحته ونسيجه المعلم بالذهب ومئات الاحجار الكريمة النفيسة الكبيرة الحجم من ياقوت وزمرد وزبرجد .

وكان لهؤلاء الملوك بلاء في مجاهدة الافرنج في الاندلس بما كانوا يرسلونه من حملات ومدد ومنهم من اجاز الى الاندلس وباشر الجهاد بنفسه كأبي الحسن .

ولقد كان ملوك الافرنج يغتنمون المشاكل التي تشغل المرينيين فينقضون الصلح ويستأنفون العدوان على بلاد المسلمين . وقام بعضهم بحملة دعائية واسعة لتأليف جبهة صليبية جديدة لاستئصال شأفة المسلمين فلباه خمسة وعشرون اميرا وملكا .

وكان بنو الاحمر في الوقت نفسه يعاودون مخامراتهم بسبيل التفلت من سيادة المرينيين فينتهز الافرنج الفرصة ايضا فيتمادون في العدوان .

وقد استطاع الملوك المرينيون بحملاتهم ومددهم ونشاطهم وغيرتهم ان يلحقوا بالافرنج الهزائم والخسائر الفادحة مرة بعد المرة ويوقفوهم عند حدهم . وقد كانوا يقفون من بني الاحمر الذين كانوا يرون عواقب مخامرتهم في تمادي الافرنج وعدوانهم موقف الحزم ويضطروهم الى الكف والارعواء .

ولقد كان يقوم الى جانب الجيوش الرسمية المرينية تشكيلات جهادية شعبية عمادها المتطوعون للجهاد من المغرب والاندلس وعلى رأسها قائد عنوانه شيخ الغزاة فكان لها بدورها بلاء عظيم في ضرب الافرنج وارهابهم .

ولقد احرزوا مرة بقيادة عثمان بن ابي العلاء المريني شيخ الغزاة نصرا عظيما في أعقاب هزيمة مني بها الجيش الرسمي لم يكن متوقعا فقتلوا واسروا من الافرنج عشرات الالوف وكان من القتلى سبعة ملوك وامراء في رواية وجميع الملوك والامراء في رواية اخرى فضلا عن

الوصي على عرش قستيليه وعمه واستولوا على مقادير عظيمة من الذهب والفضة والخيام والمؤمن والسلاح واعادوا الى المسلمين هيبتهم المتزلزلة أثر تلك الهزيمة ٠

وقد كان للقبائل العربية في عهد هؤلاء الملوك خير ونشاط عظيمان على ما شرحناه في مناسبة سابقة ٠

ولقد نشب بعد ابي عنان منازعات بين امراء الاسرة واستمرت تشتد حينا وتخف حينا ٠ وانتعشت فترة في عهد ابي فارس عبد العزيز غير ان امد ذلك لم يطل فان هذا لم يكد يموت حتى عادت المنافسات فقتل وخلع الملوك الخمسة الذين تعاقبوا على العرش بعده وادى ذلك الى وهن قوة الدولة وانكماش سلطانها حتى لقد اعتدى البرتغاليون على ثغورها واستولوا على سبته وطنجه ، وحتى لقد خضعت في سنة ٨١٢ ﻫ لسلطان الحفصيين وسيادتهم لفترة من الوقت ٠

ولقد كان في حاشية آخر ملوكها يهوديان اسمهما هرون وشاريل سيطرا على شؤون المملكة وخاصة على العاصمة وارهقا أهلها بالتكاليف ونكلا باشرافها فأثارا نقمة عامة ووثب عليهما الناس وقتلوهما سنة ٨٦٩ ﻫ ثم امتدت نقمتهم الى الحي اليهودي فدمروه ونهبوه وقتلوا كثيرا من سكانه ثم امتدت الى شخص السلطان عبد الحق فهاجموا قصره ونهبوه وقبضوا عليه وقتلوه فكان ذلك آخر عهد الدولة المرينية(١) ٠

---

(١) سيرة الدولة في الاستقصاء ج ٢ ص ٢ ــ ١٥٢ وتاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ ــ ٤١٩ وابن خلدون مات قبل نهاية الدولة ٠

الدولة الوطاسية

ينتمي ملوك هذه الدولة الى قبيلة بني مرين ايضا ولكنهم من غير فرع ملوك الاسرة السابقة • واولهم ابو عبد الله الذي برز في أواخر عهد الدولة المرينية واستطاع ان يبسط سلطانه على قسم غير يسير من شمال المملكة • وكان ذلك سنة ٨٥٢ ﻫ وكان اهل فاس بعد قتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين بايعوا الشريف عبد الله الحفيد احد احفاد ادريس العلوي الكبير • غير انه لم يستطيع النهوض بالعبء واستولى البرتغاليون على ثغري انفى واصلا وعاث العربان في الارض فسادا فعجز عن قمعهم فاتصل اعيان فاس بابي عبد الله وبايعوه فسير حملة استولت على فاس سنة ٨٧٥ وحينئذ جاء اليها وباشر مهمةالحكم فكان ذلك بداية هذه الدولة التي عمرت الى سنة ٩٦٠ ﻫ وتولى عرشها اربعة ملوك وهم :

ابو عبد الله محمد الشيخ	٨٧٥ — ٩١٠
محمد بن ابي عبد الله	٩١٠ — ٩٣١
حسون بن ابي عبد الله	٩٣١ — ٩٣٢
العباس بن محمد	٩٣٢ — ٩٦٠

وفي زمن اولهم سقطت غرناطة وجاء ابو عبد الله بن الاحمر الى فاس واستوطنها •

ولم يستطع ابو عبد الله انيستردمنالبرتغاليين الثغور التياستولوا عليها بل استمروا في عدوانهم واستولوا على ثغور اخرى • وظل الامر على هذا في زمن ابنه ايضا • وفي هذه الاثناء قام ابو العباس

السعدي بحركة ثورية في بلاد السوس واخذ يتصاول مـع الافرنج ويزعجهم فبايعه اهل السوس وكاتبه اهل مراكش فجاء اليها واستولى عليها سنة ٩٣٠ هـ ولم يستطع الملك الوطاسي ان يفعل شيئا فاضطر الى الموافقة على قسمة المملكة بينه وبينه ، فكانت مراكش عاصمة السعدي وفاس عاصمة الوطاسي • وطمح السعدي بتصفية الدولة الوطاسـية فانشب معها القتال سنة ٩٤٢ هـ واستولى على اماكن جديدة منهـا ثم استمر يزعجها وفي سنة ٩٥٦ تقدم نحو فاس فاستولى عليها • وقد استطاع ابو حسون ان يستردها غير ان السعدي عاد فزحف سنة٩٦٠ واستولى عليها وظفر بأبي حسون فقتله فكان ذلك نهاية هذه الدولة[١] •

---

(١) سيرة الدولة الوطاسية في الاستقصاء ج ٢ ص ١٥٩ ـ ١٨٠

الدولة الصنهاجية الزيرية

ينتمي ملوك هذه الدولة الى قبيلة صنهاجة الكبرى . وكان جدهم مناد واليا على بعض اقاليم المغرب الاوسط في أواخر القرن الهجري الثالث . فلما قامت الحركة الفاطمية في هذا الظرف استجابت صنهاجة اليها بزعامة زيري بن مناد وايدتها حتى توطدت . وكان لزيري بلاء عظيم في ذلك . فلما انتقل المعز الفاطمي الى مصر واتخذ القاهرة عاصمة له سنة ٣٥٩ عين بلكين بن زيري حاكما عاما على المغرب . فمارس الحكم كأمير مستقل لم يكن يربطه بالفاطميين الا الخطبة . واستطاع ان يمد سلطانه على انحاء لم تكن داخلة في السلطان الفاطمي .

ولما مات بلكين سنة ٣٧٣ خلفه في الامارة ابنه المنصور ، وقد بايعه الزعماء والرؤساء والعلماء بيعة عامة فاعتبره المؤرخون اول ملوك هذه الدولة التي عمرت نحو مئة وسبعين سنة وتولى عرشها سبعة ملوك هم :

المنصور بن بلكين	٣٧٣ — ٣٨٥
باديس بن المنصور	٣٨٥ — ٤٠٦
المعز بن باديس	٤٠٦ — ٤٥٤
تميم بن المعز	٤٥٤ — ٥٠١
يحيى بن تميم	٥٠١ — ٥٠٩
علي بن يحيى	٥٠٩ — ٥١٥
الحسن بن علي	٥١٥ — ٥٤٧

وكانت عاصمة هذه الدولة القيروان واحيانا المهدية .

وأعظم ملوكها المعز • وقد اصطنع ابهة الملك وبهرجته وبلغ العلم والعمران في عهده اوجهما وازدهرت اقتصاديات البلاد وظللها الامن والسلام في شطر كبير من ايامه وقصده العلماء والشعراء ووصفه ابن خلدون بانه اضخم ملك عرف للبربر واترفه وابذخه •

ولقد جنح المعز الى توهين الرابطة بين دولته والخلافة الفاطمية اكثر مما كان فأدى ذلك الى جفاء وتوتر بينه وبين الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ ــ ٤٨٧) فعمد الى حركة اكثر نكاية وتحديا فاسقط اسم الفاطميين من الخطبة والطراز وامر بلعنهم واخذ يضطهد الشيعة حتى قتل منهم عددا كبيرا باسلوب يشبه المذبحة • ثم اتصل بالخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ ــ ٤٦٧) في بغداد سنة ٤٣٥ وطلب منه التقليد وارسل اليه الهدايا فرحب هذا بالتحول ترحيبا عظيما وارسل اليه التقليد والخلع والهدايا المقابلة فقابله الفاطميون بتدبير وزير المستنصر اليازوري بتسيير بني هلال وبني سليم لازعاجه فكان ما كان مما شرحناه قبل شرحا يغني عن التكرار •

وكان المنصور قد عين عمه حمادا حاكما على اقليم بجايه فاستبد في سنة ٣٨٧ ﻫ بحكمه فانقسمت المملكة بذلك ، وكانت منازعات بين ابناء العم اوهنت الدولتين معا ، وجرأت صاحب صقلية على الاغارة على سواحل افريقية والاستيلاء على ثغورها على ماذكرناه قبل •

ولم يسجل التاريخ للدولة بعد تميم الذي كان على شيء من النشاط احداثا هامة حيث انقضت بقية حكمها في تشاد وتنازع مع الدولة الحمادية

وفي اواسط القرن السادس اخذت حركة الموحدين تقوى وتنتشر

وبعد ان قضو على دولة المرابطين مدوا انظارهم الى المغرب الاوسط واخذوا ينتقصون من اطرافه . وفي سنة ٥٤٧ هـ سيروا حمـلة قوية استولت على ما بقي خارج سيطرتهم من الدولة الزيرية فكـان ذلك نهايتهـا[١] .

---

(١) سيرة الدولة الصنهاجية الزيرية في ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٥ ـ ١٦٣ وتاريخ الجزائر للعكاك ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦

الدولة الصنهاجية الحمادية

هي الدولة التي أسسها حماد بن بلكين في اقليم بجايه سنة ٣٨٧ على ما ذكرناه قبل قليل وقد عمرت نحو ١٦٠ سنة وتولى عرشها بعد حماد الذي توفي سنة ٤١٩ ثمانية ملوك من ذريته وهم :

القائد بن حماد	ومدة حكمه من سنة	٤١٩ — ٤٤٦
المحسن بن القائد	ومدة حكمه من سنة	٤٤٦ — ٤٤٧
بلكين بن محمد بن حماد	ومدة حكمه من سنة	٤٤٧ — ٤٥٤
الناصر بن علناس بن محمد	ومدة حكمه من سنة	٤٥٤ — ٤٨١
المنصور بن الناصر	ومدة حكمه من سنة	٤٨١ — ٤٩٨
باديس بن الناصر	ومدة حكمه من سنة	٤٩٨ — ٤٩٨
العزيز بن الناصر	ومدة حكمه من سنة	٤٩٨ — ٥١٥
يحيى بن العزيز	ومدة حكمه من سنة	٥١٥ — ٥٤٧

واعظم ملوك هذه الدولة هو الناصر بن علناس • وهو الذي انشأ مدينة بجاية وجددها ونظمها واتخذها عاصمة • وكانت عاصمة الدولة قبلها حصنا او مدينة اسمها القلعة • ولقد اتسع سلطان الملك في عهده حتى شمل معظم اقليمي تونس والجزائر وازدهرت الدولة في عهده بالعمران والتجارة والصناعة والزراعة وضربت بسهم وافر في الملاحة وصناعة السفن وكانت ثغورها تعج بالحركة التجارية فضلا عما كان لها من اساطيل حربية قوية • واتخذ الناصر ومن بعده سمت عظام الملوك وابهتهم وشيدوا القصور والمساجد والمدارس وشجعوا الآداب والعلوم والفنون واستقدموا العلماء والادباء والشعراء • وفي كتاب

تاريخ الجزائر للعكاك اطناب بما كان لهذه الدولة مـن مفاخر القرة والازدهار .

وقد نشب بين ملوك هذه الدولة وبني عمهم ملوك الدولة الزيرية مصاولة ونضال اوهناهما معا . ولقد زالت هذه الدولة كأختها على يد الموحدين حينما قووا واخذوا يمدون سلطانهم الى المغرب الاوسط . وفي سنة ٥٤٧ تنازل آخر ملوكهايحيى عن ملكه وخضع لعبد المؤمن الموحدي فترك له هذا حكم مدينة قسطينة غير انه لم يلبث ان تخلى عنها وذهب الى مراكش فكان ذلك نهاية حكم هذه الدولة[١] .

---

(١) سيرتها في تاريخ الجزائر للعكاك ص ٢٥٦ ــ ٢٩٩ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ ــ ١٧٧

الدولة الوادية الزناتية

ينسب بعض النسابين ملوك هذه الدولة الى ادريس العلوي وكانوا يسمون ببني القاسم ويتلقبون بلقب امير المؤمنين مما قد يكون فيه تدعيم لذلك • غير ان ابن خلدون يقول ان النسبة ملفقة وانهم من بطن عبد الواحد من زناته • وهذا ما جعلنا نسلكهم في سلك دول البربر • واسم الوادية منحوت من عبد الواحد كما هو المتبادر • وحينما استولى الموحدون على المغرب الاوسط اقطعوا زعماء هذه القبيلة اقطاعات كانوا فيها اصحاب الحكم تحت سيادتهم • فلما ضعفت قوة هذه الدولة جنح الزعيم الحاكم يغمراسن الى الاستبداد بالحكم واستولى على تلمسان واتخذها عاصمة وتلقب بلقب امير المؤمنين فكان ذلك قيام هذه الدولة جنح الزعيم الحاكم يغمراسن الى الاستبداد بالحكم واستولى خمسة ملوك وهم :

يغمراسن	٦٣٣ — ٦٨١
عثمان بن يغمراسن	٦٨١ — ٧٠٣
ابو زيان بن عثمان	٧٠٣ — ٧٠٤
ابو حمو بن عثمان	٧٠٧ — ٧١٨
ابو تاشفين بن ابي حمو	٧١٨ — ٧٣٧

واعظم ملوكها اولهم • وكان حازما نشيطا حديدي الارادة ذا وقار وابهة وسلطان على ما وصفه الرواة • وقد خطب في البدء للموحدين ثم قطع خطبتهم واقتصر على ذكر نفسه متلقبا بلقب امير المؤمنين • وتصدى له ملوك تونس الحفصيون فسايرهم فسايروه ثم اغتنم فرصة

ارتباك الم بهم فتفلت من نفوذهم . ولما انهارت دولة الموحدين وقامت على انقاضها دولة بني مرين اصطدم بها فنشبت مصاولة بينه وبين الملك ابي زكريا المريني ثم المنصور امتدت طيلة حياته وكان المرينيون يتغلبون عليه فيتشرد عن تلمسان ثم يتمكن من العودة اليها مرة بعد مرة وورث المصاولة ابناء الملكين وتكررت وقائعها بينهم ايضا تشتد حينا وتخف حينا . وكان ابو حمو الذي خلف ابا زيان نشيطا مصلحا فبذل جهوده في اصلاح البلاد التي انهكتها الحرب خلال فترة هدنة انعقدت بين الطرفين سنة ٧٠٧ هـ . وسار ابو تاشفين ابنه على قدمه وكان سياسيا محنكا كما كان محبا للعلوم والعمران فازدهرت الدولة في عهده وازدحم بلاطه بالعلماء والادباء . واغتنم فرصة سانحة فوسع رقعة ملكه في اقليمي الجزائر وتونس حتى لقد استطاع سنة ٧٢٧ ان يستولي على تونس ويخلع ملكها الحفصي ويعين مكانه ابن عم له تحت سيادته . واستصرخ الملك المخلوع المريني ابا سعيد فاستجاب اليه فاستؤنفت المصاولة ثانية وتكررت وقائعها ومات ابو سعيد فورث المصاولة ابو الحسن المريني واستمرت حتى انتهت بانتصاره واستيلائه في سنة ٧٣٧ هـ على تلمسان بعد دفاع باسل من ابي تاشفين واولاده وخاصته فكان ذلك نهاية الدولة (١) .

(١) سيرة هذه الدولة في تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ٥٧ ــ ١٢٠ وتاريخ الجزائر للعكاك ص ــ ٣٤١ ــ ٣٦٠ .

— ١٨ —

الدولة الزيانية

ملوك هذه الدولةمن ذرية يغمراسن•وتعد فيالواقع امتدادالدولة السابقة • ولقد حاول امراء الاسرة الوادية استعادة ملكهم اكثر من مرة وتصاولوا مع المرينين • وكتب النجاح فيالنهاية لاحدهم ابي حمو موسى حيث استطاع سنة ٧٦٠ ان يستولي على تلمسان وان يستأنف السلطان فيها فكان ذلك بداية الدولة الجديدة التي عرفت بالدولة الزيانية لان ابا حمو من ذرية ابي زيان • ولقد كان لبني زغبة الهلاليين اقوى يد في نجاح ابي حمو في حركته على ما شرحناه في فصل سابق ولقد نشبت المنازعات في هذه الظرف بين امراء الاسرة المرينية فكان ذلك مما ساعد على توطد سلطان هذه الدولة التي عمرت نحو مئتي سنة وتولى عرشها اثنانوعشرون ملكا كانوا يتلقبون بلقباميرالمؤمنين كسابقتهم • وهم :

ابو حمو موسى ومدة حكمه من سنة ٧٦٠ ــ ٧٩١ وقتل
ابو تاشفين بن ابي حمو ومدة حكمه من سنة ٧٩١ ــ ٧٩٥
ابو ثابت بن ابي حمو ومدة حكمه من سنة ٧٩٥ ــ ٧٩٦ خلعوقتل
ابو الحجاج ومدة حكمه من سنة ٧٩٦ ــ ٧٩٦ وقتل
ابو زيان بن ابي حمو ومدة حكمه من سنة ٧٩٦ ــ ٨٠١
ابو محمد بن ابي حمو ومدة حكمه من سنة ٨٠١ ــ ٨٠٤ وخلع
ابو عبد الله محمد الاول بن حوله ومدة حكمه من سنة ٨٠٤ ــ ٨١٣ وخلع
ابو عبد الرحمن بن حوله ومدة حكمه من سنة ٨١٣ ــ ٨١٤ وخلع
سعيد بن ابي حمو ومدة حكمه من سنة ٨١٤ ــ ٨١٤ وخلع

ابو مالك بن عبد الواحد ومدة حكمه من سنة ٨١٤ ــ ٨٢٧ وخلع
ابو عبد الله محمد الثاني ومدة حكمه من سنة ٨٢٧ ــ ٨٣١ وخلع
ابو مالك ثانية ومدة حكمه من سنة ٨٣١ ــ ٨٣٣ وقتل
محمد بن تاشفين ومدة حكمه من سنة ٨٣٣ ــ ٨٣٤ وقتل
ابو العباس احمد ومدة حكمه من سنة ٨٣٤ ــ ٨٦٦ وخلع
ابو عبد الله محمد الثالث ومدة حكمه من سنة ٨٦٦ ــ ٨٧٣
ابو تاشفين الثاني ومدة حكمه من سنة ٨٧٣ ــ ٨٧٣ وخلع
محمد الثابتي ومدة حكمه من سنة ٨٧٣ ــ ٩١٠
ابو عبد الله محمد الرابع ومدة حكمه من سنة ٩١٠ ــ ٩٢٣ وخلع
ابو حمو الثاني ومدة حكمه من سنة ٩٢٣ ــ ٩٣٤
ابو محمد عبد الله ومدة حكمه من سنة ٩٣٤ ــ ٩٤٧ وخلع
ابو زيان الثاني ومدة حكمه من سنة ٩٤٧ ــ ٩٤٧ وخلع
ابو محمد عبد الله ثانية ومدة حكمه من سنة ٩٤٩ ــ ٩٥٣ خلع وقتل
ابو زيان الثاني ثانية ومدة حكمه من سنة ٩٥٣ ــ ٩٥٧
اخوه ابو الحسن ومدة حكمه من سنة ٩٥٧ ــ ٩٥٨ خلع وتنصر

وقد تقلبت الدولة في اطوار مختلفة فكانت قوية حينا وضعيفة حينا ومضطربة بالفتن التنافسية غالبا . وقد كثر بين ملوكها النزاع وخلع وقتل كثير منهم وعاد بعضهم الى العرش ثانية بعد ان ظفروا بمن خرج عليهم واقصاهم . وعدد الذين خلعوا او خلعوا وقتلوا قد بلغ ثمانية عشر . وهذا العدد كاف لمعرفة ما كان يلم بهذه الدولة من اضطراب وتنافس ..

ومع ذلك كان يتخلل حكمهم فترات يطول فيها عهد بعضهم وتهدأ فيها الفتن فتنشط الحركة الاقتصادية والعلمية والعمرانية كما كان ذلك في عهد ابي حمو ثم في عهد ابي عبد الله محمد بن حوله ثم في عهد ابي العباس احمد ثم في عهد محمد الثابتي مما كان يؤدي الى ازدهار العلوم والصناعة والزراعة والتجارة والملاحة ويفسح المجال لبروز

شخصيات عديدة في مجال العلم والادب .

ومن اعظم ملوكهم او اعظمهم اولهم . وكان عالما فاضلا هماما . وقد بذل جهده في انهاض البلاد من كبوتها ودبر امورها بدهاء وحكمة .

ولقد تصدى الملك المريني ابو عنان له فعادت المصاولة ثانية بين الدولتين وورثها الابناء عن الآباء واستمرت مدة طويلة تشند حينا وتخف حينا . وقد كتب للمرينين النصر اكثر من مرة واخضعوا خصومهم لسيادتهم فترة غير قصيرة وان لم يمكنهم نسف دولتهم كما فعلوا في المرة السابقة . وكانت المنازعات بين امراء الاسرة مما يتيح للمرينين ما كانوا يحرزونه من نصر .

وفي مطلع القرن العاشر الهجري تعرضت سواحل الدولة لغارات الاسبان وتمكنوا في سنة ٩١٠هـ من الاستيلاء على ثغر وهران . فسارع القرصان التركي الشهير خير الدين بارباروس الى الاستيلاء بدوره في نفس الظرف على ثغر الجزائر . ومنذئذ نشبت المصاولة بين الترك والاسبان . ولقد خشي الملك ابو محمد عبد الله من عواقب الاستيلاء التركي فتواطأ مع الاسبان وقبل حمايتهم . وظل اخوه ابو محمد الذي خلفه على العرش خاضعا للحماية الاسبانية . وكان الترك في هذه الاثناء قد قووا فاشتبكوا مع الاسبان في حرب انتصروا فيها واستولوا على تلمسان واجلوا الاسبان عنها وتشجع ابو عبد الله الذي خلف ابا حمو فوثق تحالفه بهم وتعاون معهم على اجلاء الحاميات الاسبانية عن معظم الاماكن التي كانوا فيها باستثناء ثغر وهران . وخرج ابو زيان اخو ابي عبد الله منافسا ومنازعا وناصره الترك فحنق ابو عبد الله واستنصر بالاسبان فسير شارلكان حملة قوية استطاعت ان تزيح ابا زيان وتعيد

ابا عبد الله • غير ان الترك كروا مع ابي زيان واستردوا تلمسان وقبض ابو زيان على اخيه وقتله وعاد الى العرش • ولم يلبث ان مات فتولى الحسن اخوه الحكم • وكان عسوفا فاسقا فأثار نقمة النـــاس وافتى العلماء بخلعه فتألب عليه أهل تلمسان وطردوه سنة ٩٥٨ فالتحق بالاسبان وتنصر ! وحينئذ فرض الترك حكمهم في نطاق سيادة الدولة العثمانية حيث كان خير الدين بارباروس حصل على تقليد من السلطان سليمان حينما احتل الجزائر فكان ذلك نهاية الدولة الزيانية[١] •

(١) سيرة هذه الدولة في تاريخ الجزائر للعــكاك ص ٣٦٣ ـ ٤١٨ و ٤٢٣ ـ ٤٣٠ وتاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ١٢٠ ـ ١٤٨ وقد مات ابن خلدون والدولة قائمة فلم يستكمل تاريخها .

الدولة الرندية

ينتمي ملوك هذه الدولة الى قبيلة مغراوه • وكان اولهم عبد الله ابن محمد بن الرند عاملا للدولة الصنهاجية في قفصة فلما ارتبك امرها استبد بالحكم وبايعه اهل توزر وقفصة وسوس والحامه ونفراوة • وسائر اعمال قستنطينه فقامت الدولة الرندية نتيجة لذلك وكان هـذا سنة ٤٤٥ هـ •

وقال ابن خلدون ا لذي ننقل عنه خبر هذه الدولة في صدد سيرتها ان اولهم استفحل امره وعظم سلطانه ووفد عليه الشعراء والقصاد • ومات سنة ٤٦٥ فقام على الحكم ابنه المعتز ابو عمر فانقاد له النـاس وضبط الامور وجبى الاموال واصطنع الرجال وتغلب عـلى مزوده وجبل هواره وسائر بلاد قستنطينه وحسنت سيرته الى ان عمي • وكان له ابن اسمه تميم هلك في حياته فعهد بالامر الى حفيده يحيى فقـام بالامر واستبد على جده • ولم يزالوا بخير حال الى ان نازلهم عبد المؤمن ملك الموحدين فمنعهم من الامر ونقلهم الى بجايه في سنة ٥٥٤ فكان ذلك نهاية الدولة ولم يلبث المعتز الذي بلغ من العمر مئة سنة او اكثر ان مات ثم لحق به حفيده فانطوت صفحة هذه الاسرة[١] •

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٥ — ١٦٦

— ٢٠ —

الدولة الحفصية

وهذه من دول البربر الكبرى • ويروي ابن خلدون ان ملوكها من بطن هنتاته من قبيلة المصامدة مع ان هناك من يقول انهم من بني عدي القرشيين رهط عمر بن الخطاب •وقد اخذنا برواية ابن خلدون وسلكنا دولتهم في سلك دول البربر • وكان جدهم ابو حفص من اصحاب المهدي المقربين • وكان حفيده ابو محمد عبد الواحد واليا على افريقية (اقليم تونس) من قبل الموحدين فلما اخذت دولة الموحدين تضعف استبد بالحكم وكان ذلك سنة ٦٠٣ ومات سنة ٦١٨ فخلفه ابنه عبد الرحمن بمبايعة اهل الحل والعقد فكان ذلك التوطيد الاول لملك الاسرة • وفي سنة ٦٢٦ تولى الحكم ابو زكريا يحيى بن حفص بمبايعة أهل الحل والعقد ايضا فأمر بقطع خطبة الموحدين والاقتصار على ذكر اسمه فكان ذلك التوطيد الثاني •

وقد عمرت نحو ثلاثة قرون ونصف منذ تولاها ابو زكريا وتولى عرشها اربعة وعشرون ملكا • وهم :

ابو زكريا يحيى بن حفص ٦٢٦ — ٦٤٧

المنتصر محمد بن يحيى ٦٤٧ — ٦٧٥

الواثق يحيى بن محمد ٦٧٥ — ٦٨٣ خلع وقتل

ابو اسحاق ابراهيم بن ابي زكريا ٦٨٣ — ٦٨٣ وخلع

المنتصر الثاني ابو حفص بن محمد ٦٨٣ — ٦٩٤ انقسمت المملكة في عهده لفترة من الوقت

ابو عصيده محمد بن الواثق ٦٩٤ — ٧٠٩

ابو بكر خالد المسمى بالشهيد ٧٠٩ — ٧١١ وقتل

ابو البقاء خالد بن يحيى ٧١١ ـ ٧١١ خلع
ابو يحيى زكريا بن احمد الليحاني ٧١ ـ ٧١٨ تخلى عن الملك
محمد ابو ضربه بن ابي يحيى ٧١٨ ـ ٧٢٣ خلع
ابو بكر الثاني المتوكل على الله ٧٢٣ ـ ٧٤٧
ابو حفص الثاني ٧٤٧ ـ ٧٤٨ قتل
ابو بكر الثاني ثانية ٧٤٨ ـ ٧٥١
الفضل بن ابي بكر ٧٥١ ـ ٧٥٢
ابو اسحاق ابراهيم ٧٥٢ ـ ٧٧٠
خالد الثاني ٧٧٠ ـ ٧٧٢ خلع
ابو العباس احمد ٧٧٢ ـ ٧٩٦
ابو فارس عزور ٧٩٦ ـ ٨٣٧
المنتصر محمد ٨٣٧ ـ ٨٣٩
ابو عمر عثمان ٨٣٩ ـ ٨٩٣
ابو زكريا الثالث ٨٩٣ ـ ٨٩٩
ابو عبد الله محمد ٨٩٩ ـ ٩٣٢
الحسن بن محمد ٩٣٢ ـ ٩٤٢
ابو العباس الثاني ٩٤٢ ـ ٩٨٠
محمد بن الحسن ٩٨٠ ـ ٩٨١ خلع

وكانت عاصمة الدولة تونس • وقد عظمت في عهدهم وبلغت الغاية في العمران والتنظيم والاناقة •

ولقد تقلبت احوال الدولة في ادوار من القوة والضعف والعسر واليسر والهدوء والاضطراب • وكان من ملوكها الاقوياء الصالحون الذين ازدهرت في عهدهم احوال البلاد كما كان منهم الضعفاء الذين ارتبكت الدولة في زمنهم • وقد كثرت المنازعات والمنافسات بين امراء الاسرة وخلع وقتل عدد منهم نتيجة لذلك • وكان لقبائل العرب وخاصة بني سليم حيز ونشاط كبيران في مختلف حقب الدولة على ما شرحناه في فصل سابق •

ومن اعظم ملوكها ابو زكريا • وقد قامت بعض الحركات التمردية فقمعها • وتمكن من بسط سلطانه على طرابلس ثم استولى على مدن الجزائر وتلمسان وسجلماسه وسبته وطنجه ومكناسه من المغرب الاوسط والاقصى وقضى على ما كان فيها من حكام فعظم شأنه وانتشرت هيبته حتى ان المرينيين في المغرب الاقصى الذين كانوا في بدء ظهورهم خطبوا له •

وقد عاد الافرنج في الاندلس الى عدوانهم اغتناما لفرصة ضعف الموحدين واخذوا يقومون بحملات على البلاد الاسلامية واهلها ويحاصرون كثيرا منها ويستولون على بعضها فارسل ابن مردنيش كاتبه الفقيه ابن الابار الى ابي زكريا للاستنجاد به • وقد القى بين يديه قصيدة مؤثرها مطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا   ان الطريق الى منجاتها درسا

وجاء فيها فيما جاء :

يا للجزيرة اضحى اهلها جزرا   للحادثات وامسى جدها تعسا
في كل شارقة المام بارقة   يعود مأتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة اجحاف نائبة   تثني الامان حذارا والسرور اسى
وفي بلنسية منها وقرطبة   مايذهب النفس او ماينزف النفسا
مدائن حلها الاشراك مبتسما   جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
يا للمساجد عادت للعدى بيعا   وللنداء يرى اثناءها جرسا

ويظهر ان حالة الدولة الحفصية وبعدها عن الاندلس نوعا ما لم يساعداها على القيام بدور جهادي فعال كما كان شأن المرابطين والموحدين والمرينيين حيث اكتفى ابو زكريا بارسال اسطول مشحون بالطعام والسلاح وبعض المال • ولم يكن لهذه المعونة تأثير ناجع • ولولا ان بني مرين قووا واخذوا يقومون بالدور العظيم الذي قاموا به وشرحناه قبل لكان من المحتمل ان يصفي الافرنج الاندلس في هذه الظروف •

وقد انشأ ابو زكريا منشآت عديدة من جملتها دار للكتب جمع فيها ستة وثلاثين الف مجلد •

وكان للقبائل العربية في عهده نشاط وحيز علــى ما شرحناه في فصل سابق •

وكان عهد ابنه وخليفته المنتصر عهد قوة وازدهار ايضا • وقد بدر من اخوين له جنوح الى منافسته فتمكن من قمع حركتهم والبطش بهم وثارت بعض حركات تمردية في بعض انحاء المملكة فتمكن من اخمادها

وقد كان صيت هذه الدولة قد ذاع في الآفاق • وكـــانت الخلافة العباسية قد زالت من بغداد نتيجة لزحف التتر فارسل امير مكة واهل الحجاز بيعتهم له سنة ٦٥٧ ه فاحتفل بالبيعة احتفالا عظيما وتلقب بلقب امير المؤمنين • ثم وافته بيعة المرينيين الذين كانوا في اوائل حركتهم ثم بيعة أهل الاندلس واستمر اعقابه يتلقبون باللقب المذكور •

وفي زمنه جاء لويس التاسع ملك فرنسا لغزو تونس بتحريض من أخيه شارل ملك صقليه ومظاهرة البابا وكثير من ملوك أوروبا مع ان هذا الملك غزا قبل عشرين سنة مصر فاخفق ووقع اسيرا وسجن في المنصورة ولم يخلص الا بغرامة كبيرة • وكانت هذه الحركة حلقة من حلقات الحروب الصليبية التي كانت في هذا الظرف في دور التصفية في المشرق العربي • وقد جاء باسطول ضخم قوي ونزل في اطـــلال قرطاجنه سنة ٦٦٨ ه وقد اخفقت هذه الحملة كما اخفقت اختها التي قادها قبل ، حيث دب الطاعون هذه المرة في الجيش الفرنسي بعـــد اشتباكات امتدت ستة اشهر دون ان يكتب النصر فيها لاحد الفريقين فأهلك منه خلقا عظيما من جملتهم لويس نفسه ، وحينئذ اضطر فلول الحملة الى الانسحاب بعد ان ادوا للمستنصر غرامة كبيرة • ولقــد عظمت مدينة تونس في عهد في عهدهذا الملك وازداد ترف سكانها وتأنقوا في معايشهم حتى بلغوا الغاية • وقد انشأ المستنصر في تونس منشآت

كثيرة من جملتها جامع الزيتونة الشهيروعني بالتشجير وانشاء الحدائق . وكان بلاطه مزدحما بالوافدين من الادباء والعلماء .

وكان الواثق ابنه وخليفته ملكا صالحا كذلك حيث افتتح عهده برفع المظالم وافاض العطاء في الجند وازال كثيرا من الضرائب واصلح كثيرا من المساجد وقصده الشعراء بمدائحهم . ولقد خرج عليه عمه وتمكن من قتله والحلول محله فأدى ذلك الى سلسلة من المنافسات والمنازعات بين الاسرة ، خلع وقتل عدد من الملوك خلالها وانقسمت المملكة الى قسمين قسم مركزه تونس وملكه المستنصر الثاني وقسم مركزه بجايه وملكه ابو حفص يحيى فارتبكت الدولة بسبب ذلك فترة غير قصيرة . ومع ان المملكة قد توحدت وانتعشت في عهد ابي بكر الثاني الا ان المنازعات بين امراء الاسرة لم تقف وادت الى تدخل ملوك بني مرين وتلمسان في امور الدولة فعاد اليها الارتباك والوهن فترة اخرى .

ولما آل الملك الى العباس احمد الذي كان على جانب كبير من القوة والحزم والنشاط استطاع ان يعيد الى الدولة هيبتها فاستقام امرها ثانية . وقد اهتم لاصلاح مرافق البلاد وتنمية مواردها فاينعت وساد الامن والعدل وعاد الى الدولة الرونق والحياة . وحاول الجنويون والبندقيون غزو المهدية في عهده فردهم خائبين .

ولقد كان عزوز الذي تولى الملك بعد ابيه احمد على غرار ابيه في قوة الشخصية والحزم والنشاط فاستمر ازدهار الدولة حتى بلغت شأوا بعيدا في الثروة والعمران ، وعم الامن والعدل . وقد انشأ كثيرا من المعاقل والحصون والمستشفيات والملاجىء وملأ مكتبة جامع الزيتونه بآلاف المجلدات . وقصده العلماء والادباء والشعراء .

وكذلك كان عهد عثمان ابي عمر قويا مزدهرا . فاستمر امر الدولة مستقيما في عهده الطويل ، وكانت امه نصرانية اسمها ماريه فوفد عليه اخواله فاسكنهم في ربض من رياض تونس سماه التونسيون

حومة العلوج حيث كان المسلمون ينبذون الافرنج بهذا النبذ .

ولقد عادت المنازعات والفتن بين امراء الاسرة بعد هذا الملك فأدت الى وهن الدولة وارتباكها . واغتنم خير الدين باربارس حاكم الجزائر الفرصة فاستولى سنة ٩٣٥ على بنزرت ثم على تونس . ولجأ الملك الحفصي الى العرب فأنجدوه ولكن القائد التركي هزمهم فاستنجد بملك اسبانيا فسارع الى اغتنام الفرصة وجاء مع اسطول قوي تمكن من الاستيلاء على تونس واعادة الملك المخلوع الى عرشه مقابل اعترافه بالحماية والشراكة الاسبانية وادائه جزية سنوية وتنازله عن ثغور عديدة تقيم فيها حاميات اسبانية وسماحه للاسبان بالسكنى والحرية في الاقليم التونسي . واثار هذا الاستسلام المخزي أهل تونس فالتفوا على امير حفصي اسمه ابو العباس وتمكنوا من ازاحة الملك عن العرش ونصب ابي العباس مكانه .

ولقد ظل الترك متربصين . وفي سنة ٩٧٧ رأوا الفرصة سانحة فزحفوا على تونس واستولوا عليها . واستنجد ابو العباس بالاسبان بدوره فعرضوا عليه شروطا ثقيلة فأباها ولكن اخاله اسمه محمد قبل بها فساعدوه على هزيمة الترك والجلوس على العرش سنة ٩٨٠ ﻫ ولقد لقى الناس من جور الجند الاسباني الذين ظلوا مرابطين في الاقليم وثغوره ما حمل كثيرا منهم على النزوح ونال الباقين من الهوان والاذى ما لا يقع تحت وصف وهتك الاسبان حرمة جامع الزيتونه حيث ربطوا فيه خيولهم والقوا ما فيه من نفائس الكتب في الطرقات . واستغاث الناس بالدولة العثمانية فزحف والي الجزائر سنان باشا سنة ٩٨١ من ناحية ووالي طرابلس من ناحية وجاء اسطول عثماني الى مياه تونس واشتبكت هذه القوات مع القوات الاسبانية فكتب لها النصر وارغمت الاسبان على الجلاء وقبضت على الملك ونفته الى الاستانه وفرضت الحكم العثماني فكان ذلك نهاية هذه الدولة[1] .

---

(١) سيرة الدولة في تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥–٣٤٥ وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص ١٠٣ – ١٣٨

دولة بني توجين

ينتمي رؤساء او ملوك هذه الدولة الى بطن بني يابن من لواته من زناته • واول من برز منهم زعيم عشيرته عبد القوي بن عباس في اواسط القرن السابع الهجري حيث اغتنم فرصة الارتباك الذي الم بدولة الموحدين فبسط سلطانه على جبل اشريش وهنداس والمدية والجعفات وتاوغرت • وفي هذه الظروف قامت دولة بني حفص في تونس فدخل في طاعتهم فاقره ملكها الاول ابو زكريا واذن له باتخاذ آلة الملك حسب تعبير ابن خلدون فقامت بذلك هذه الدولة التي عمرت نحو قرن ونصف وتوالى على عرشها غير عبد القوي اثنى عشر زعيما او ملكا من ذريته مع شيء من التقطع والاضطراب وهذه اسماؤهم :

يوسف بن عبد القوي ــ محمد بن عبد القوي ــ سيد الناس بن محمد ــ موسى بن محمد ــ عمر بن سيد الناس ــ ابراهيم ــ ابوبكر بن ابراهيم ــ عطيه اخوه ــ ابن عطيه ــ علي بن الناصر بن عبدالقوي ــ يحيى بن عطيه ــ يوسف بن عمر بن نصر •

ومن اقواهم محمد وقد تحرش به ملك تلمسان فصمد له • واستنجده ملك تونس حينما غزا تونس الافرنج فسارع مع قومه الى النجدة • ووسع رقعة سلطانه حتى شمل جبال صنهاجة وغيرها •

وقد ظل ملوك هذه الدولة متضامنين مع ملوك تونس بني حفص فكان هؤلاء يغدقون عليهم وعلى قومهم الجوائز السنية • وكان هذا التضامن يؤدي في الوقت نفسه الى نقمة ملوك تلمسان عليهم والالحاح في مصاولتهم مما كان يؤدي الى تشردهم احيانا عن ملكهم •

وقد وقف ابن خلدون كلامه عنهم في سنة ٧٨٣ هـ وهم بعد أصحاب بروز • ولم يتيسر لنا مصدر آخر نقتبس منه تتمة سيرتهم فوقفنا بدورنا عندما وقف[١] •

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ١٥٤ ــ ١٦١

— ٢٢ —

الدولة الدلائية

ينتمي رؤساء هذه الدولة الى بطن مجاط من صنهاجه . وكان هذا البطن ينزل في بلاد الدلاء الواقعة غربي فاس . وقد اغتنم زعيمه محمد الحاج فرصة ارتباك الم في الدولة السعدية التي شرحنا سيرتها في سياق الدول العربية الارومة في اواسط القرن الحادي عشر فبسط سلطانه على هذه البلاد ثم تمكن من الاستيلاء على فاس ومكناس وسملا فقامت هذه الدولة .

وقد امتدت حكمها الى سنة ١٠٧٠ وتولاه بعد محمد ابنه ابو عبدالله ثم ابن هذا . حيث قضى عليه المولى الرشيد ثالث ملوك الدولة الشريفة نتيجة للمصاولة التي نشبت بين ملوك الدولتين والتي بدأت في عهد المولى الشريف اول ملوك الدولة الشريفة وابي عبد الله ثاني ملوك الدولة الدلائية(١) .

(١) انظر سيرتها في الاستقصاء ج٣ص١٣٩ ـ ١٤٦ و ج٤ص٢ـ١٧

فهرست الكتاب

من مراجع الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
سيرة ابن طولون	للبلوي
مصر القديمة	الدكتور سليم حسن
تاريخ السودان القديم	حسن كمال
الاثر الجليل لسكان وادي النيل	احمد نجيب
تاريخ مصر الى الفتح العثماني	سفيدح والاسكندري
العقد الثمين	احمد كمال
تاريخ مصر من اقدم العصور	بريستيد
تاريخ سورية	الدبس
تاريخ العرب	فيليب حتي
الاساس في الامم السامية ولغاتها	عطية الابراشي
تاريخ العرب قبل الاسلام	جواد علي
تاريخ ابن خلدون	سبعة اجزاء
صبح الاعشى	للقلقشندي
البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب	للمقريزي
الخطط	للمقريزي
تاريخ السودان القديم وجغرافيته	نعوم شقير
تاريخ سينا في القديم والحديث وجغرافيتها	نعوم شقير
بدائع الزهور في وقائع الدهور ثلاثة اجزاء	ابن اياس
عجائب الآثار في التراجم والاخبار	للجبرتي اربعة اجزاء

اسم الكتـــاب	اسم المؤلف
مقدمة في الحضارات القديمة	طه باقر جزآن
القرون القديمة	بريستيد
عصر اسماعيل	عبد الرحمن الرافعي جزآن
تاريخ القومية وتطور الحكم في مصر	عبدالرحمن الرافعي ثلاثة اجزاء
تاريخ احتلال مصر والسودان	عبد الرحمن الرافعي
مصر والسودان في اوائل الاحتلال	عبد الرحمن الرافعي
في اعقاب الثورة	عبدالرحمن الرافعي ثلاثة اجزاء
ثورة مصر	عبد الرحمن الرافعي
مصطفى كامل	عبد الرحمن الرافعي
محمد فريد	عبد الرحمن الرافعي
الوثائق السياسية	راشد البراوي
الكتاب الاخضر لوزارة الخارجية المصرية	
مذكرات احمد عرابي الموسوم بكشف الاستار	
الحكم المصري في السودان ومصر	محمد فؤاد شكري
تاريخ الامير حيدر الشهابي	
ابراهيم باشا في سورية	سليمان ابو عز الدين
مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا	لكاتب حكومي دمشقي معاصر
الالمام باخبار من في ارض الحبشة من ملوك الاسلام	للمقريزي
خلاصة الكلام في تاريخ الحبشة في الجاهلية والاسلام لاحمد الحفني القنائي	
الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان	
تاريخ اللغات السامية	اسرائيل ولنفسون
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين	فيليب حتي
لبنـــان	لجنة من الادباء
تاريخ سورية	جرجي يني

اسم الكتـــاب	اسم المؤلف
تاريخ الطبري	ثمانية اجزاء
تاريخ ابن الاثير	اثنى عشر جزاء
تاريخ ابي الفداء	اربعة اجزاء
البيان المغرب في اخبار المغرب	ابن عذارى جزآن
فتوح البلدان	البلاذري
تاريخ الامم الاسلامية	الخضري
الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى	السلاوي اربعة اجزاء
موجز تاريخ الجزارئ العام	العكاك
تاريخ الجزائر	احمد توفيق المدني
هذه مراكش	عبد المجيد بن جلون
هذه تونس	الدكتور الحبيب تامر
برقة المملكة الثامنة	نقولا زيادة
الدولة النصرية	لسان الدين الخطيب
خلاصة تاريخ تونس	حسن حسني حسني عبدالوهاب
الدولة الفاطمية	الدكتور حسن ابراهيم
اتعاظ الحنفا في اخبار الخلفا	المقريزي
تاريخ الدعوة الاسماعيلية	مصطفى غالب
فتح العرب للمغرب	حسين مؤنس
تاريخ الدول الاسلامية للمغرب	ابن خلدون
اخبار صقلية والاغالبة	ابن خلدون
ترجمة تركية لتاريخ ابن غليون	عن طرابلس الغرب
حياة صلاح الدين الايوبي	الدكتور البيلي
الحروب الصليبية	رفيق التميمي
طرابلس في الماضي والحاضر	راسم رشدي
طرابلس الغرب في براثن الاستعمار	

اسم الكتــاب	اسم المؤلف
نبذة من اعمال ايطالية في طرابلس الغرب	عبدالحميد محمود الطرابلسي
كتاب الوحدة العربية	محمد عزة دروزة
الجزء الثاني من كتاب حول الحركة العربية	محمد عزة دروزة
مجموعات الاهرام القاهرية والنصر الدمشقية من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٥٥	
رسائل كفاح الجزائر ومجندون يشهدون وثورة الجزائر في سطور	من منشورات حكومة الجزائر

الاخطاء المطبعية الهامة التي يحسن بالقارئ اصلاحها قبل قراءة الكتاب

وهناك اخطاء ثانوية اخرى تركت لفطنة القارئ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٢٦	المنشأة	النشأة
٣٣	١٢	قلاول	قلاوون
٣٦	٤	يعملون	يعلمون
٣٩	١٨	جرم (٢)	جرم (٤)
٥٤	١٠	عدنها	عدنان
٥٦	١	عهد	عن
٥٨	١٢	يمنية	بمنية
٥٩	١٣	عاوية	معاوية
٧٦	١٠	كبح	كبير
٧٨	٢	لهم	كلهم
١٢٨	١٢	قربية	عربية
١٥٦	١٦	باشرط	بما شرط
١٥٩	٧	السلك	الشلك
١٦٧	١٧	انال	ازال
١٦٨	٨	واقعهم	واقفهم
١٧٢	١	النيكاب	الحنيكاب
١٧٨	١٠	حابر	جابر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
اشطب من السطر الثاني عشر الى السطر السادس عشر من الصفحة ١٦٧ لانها غلط في الاصل وصححت بالاسطر التالية لها ولكن الطابع ابقاها على حالها .			
١٨٧	٤	العاندلاناب	العادلاناب
٢٠٢	٢٢	عم الامير	عم ابراهيم
٢٠٩	٢٤	مقطب	مقصب
٢٨٣	٢٢	ثلاثة ملايين جنيه	ثلاثة ملايين ونصف جنيه
٢٨٩	٢٣	الشافعين	الشافعي
انقل الهامش الذي في ذيل الصفحة ٢٩٤ الى ذيل الصفحة ٢٩٣			
٢٩٥	١٦	الاقوميين	الاقويين
٢٩٥	٢٠	والافرنسية	والافريقية
٣٠٠	١٦	ملوك واسلام	ملوك الاسلام
٣٠١	٩	اسمرة	امحرة
٣٠٨	٩	من	مع
٣٣٨	١٣	للقماومة	للمقاومة
٣٥٨	٢	ارسل الى حمو	ارسل عسكر وراء ابي حمو
٣٦٢	٦	والاود	واولاد
٣٦٣	٢٠	ثرناد	ترتاد
٣٦٩	٩	جديح	حديج
اشطب السطر الثاني عشر من الصفحة ٣٧٩ واكتب بدله هذه الجملة : « ولقد كان القاسم الذي تولى بعد يحيى كثير اللهو و »			
٣٩٢	٩	عبد	عبيد
٤١٢	١	.التلقيد	التقليد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٢٠	٢٢	ابن رباح	ابن اياس
٤٢٠	١٤	صلاح الدين مخلفات	صلاح الدين على مخلفات
٤٣٧	٥	بالامانة	بالامامة
٤٧٥	١١	جهازا	جهارا
٤٧٥	١٢	حوامد	كواحد
٤٧٥	٢١	ومنهم	ومنعهم
٥٠٤	٢	تطمح	تطمع
٥٢٥	٢٢	امتزلل	امتزاجا
٥٤٢	١٩	فسلمت	فسلحت
٥٧٤	٩	ما كان تشاد	ما كان من تشاد

اشطب من السطر الثالث في الصفحة ٥٧٩ جملة : « يعلي بن عبدالله بكار زعيم قبيلة يفرن من » واكتب بدلا منها هذه الجملة : « زيري بن عطية زعيم قبيلة مغراوة احدى بطون زناته الكبرى » .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٨١	١٩	معهم اخوه	معهم بعده اخوه
٥٨٣	٣	ابن فلفول	ابن لفلفول
٥٨٦	٢١	ويثنخون	ويثخنون
٥٨٨	١٢	مسصموده	مصمودة

اشطب جملة « جنح الزعيم الحاكم يغمراسن الى الاستبداد بالحكم واستولى » من السطر ١٢ من الصفحة ٦١١ لانها مكررة واكتب بدلا منها جملة « وملوكها خمسة وهم : »

صدر حديثاً عن :

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

دمشق

سلسلة عيون التاريخ العالمي

١
مفكرو الثورة الالمانية
ادمون فرمي

٢
اثر التسلح في التاريخ
الجنرال فوللر

٣
القادة السوفييت
الجنرال مالينوف

٤
سنوات المصير
فون ايزبيك

٥
حرب صليبية في أوروبا
الجنرال ايزنهاور

٦
أعمدة الحكمة السبعة
الكولونيل لورانس

٧
تاريخ الثورة الروسية

٨
مذكراتي في الجزيرة العربية
عبد الله فيليبي

سلسلة المختار من الادب العالمي

١
ستة وعشرون رجلا وفتاة
مكسيم جوركي

٢
بيتهوفن
رومان رولان

٣
في سبيل السلام
ليوتولستوي

٤
صديقان
جورج دوهاميل

٥
المتمردون
بوريس جورباتوف

٦
اتالا ورينه
شاتوبريان

٧
اللا أخلاقي
اندريه جيد

مطابع فتى العرب

ثمن النسخة ١٠ ل.س
او ما يعادلها